أخبار اليوم
قطاع الثقافة
والكتب والمكتبات

تفسير الشعراوي

المجلد الثاني والعشرون

من الآية ١ «سورة فصلت» إلى الآية ٢٣ «سورة الجاثية»

سورة فُصِّلَتْ(١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ ﴾

قلنا : (حم) من الحروف المقطعة ، وقد حام العلماء حول معانى هذه الحروف وهذه المحاولات إرضاءً لشهوة البحث فى العقل ، ولكن الإيمان غير ذلك ، فالإيمان يأخذ القضية مُسلَّمة ، وما دام الله قد قالها فقد انتهت المسألة .

ولذلك سيدنا أبو بكر الصديق ساعةَ قالوا له : إن صاحبك يدَّعى أنه فعل كذا وكذا قال : أوَ قَاله رسول الله ؟ قالوا : نعم ، قال : فقد صدق(٢) يعنى : هذه مسألة فوق البحث ، ولا مجالَ لإعمال العقل فيها

---

(١) سورة فصلت هى السورة رقم (٤١) فى ترتيب المصحف الشريف نزلت بعد سورة غافر ، وهى ٥٤ آية ، قال القرطبى فى تفسيره (٩/٦٠٠١) : « سورة فصلت مكية فى قول الجميع » . ومعنى فصلت : أى بينت وفُسرت . قال قتادة : ببيان حلاله من حرامه وطاعته من معصيته .

(٢) ذكره القرطبى فى تفسيره (٥/٤٠١٢) وتمامه أنه قيل له : أتصدقه قبل أن تسمع منه ؟ فقال : أين عقولكم ؟ أنا أصدقه بخبر السماء ، فكيف لا أصدقه بخبر بيت المقدس ، والسماء أبعد منها بكثير ؟!

لأن لها رصيداً من الصدق يجعلها فوق البحث .

ولقد ذكرنا سابقاً خلاصة القول فى هذه الحروف ، وهذه الحروف هى التى يذكر الله فيها اسم الحرف ، لأن كلَّ حرف له اسم وله مُسمَّى ، فالألف مثلاً اسمه الألف ومُسمَّاه أَ - أُ - إِ . الاسم لا يَنطق به إلا المتعلم ، فالأمى لا يَعْرف الباء والتاء والثاء ، لكنه ينطق بها حين يتكلم .

إذن : ينطق الأُمىّ مُسمَّى الحرف ، ولا يعرف اسمه بدليل أننا حينما نُعلِّم الأولاد نقول لهم : تهجّ هذه الكلمة ، فيقول : ك ت ب . أما الأمى فينطقها كتب دون أنْ يعرفَ حروفها ولا هجاءها . اتفقنا على هذه المسألة .

اذكروا أن رسول الله ﷺ كان أُمياً ، فما الذى أفهمه أن (ح) اسمها حاء ، و (م) اسمها ميم ، بدليل أنك تقرأ فى أول سورة البقرة (الم) ألف لام ميم . أما فى أول الشرح فتقول ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ①﴾ [الشرح] فلماذا قرأتها فى البقرة هكذا ، وفى الشرح هكذا ؟

أنت قرأت فى البقرة اسم الحرف ، أما فى الشرح فقرأتَ مُسمَّى الحرف ، وهذه لا يفرق بينها إلا متعلم ، فمَنْ علَّم محمداً هذه المسألة ، والحروف هى نفس الحروف بنفس الترتيب ؟

شىء آخر : أن الحروف المقطعة فى القرآن أخذت نصف حروف الهجاء ، حروف الهجاء معروف أنها ثمانية وعشرون حرفاً ، أخذتْ منها الحروفُ المقطعة أربعة عشر حرفاً موزَّعة توزيعاً عجيباً ، وما زال العلماء حائرين فى فهم معانيها .

ففى الحروف التسعة الأولى لم يذكر منها إلا حرفين : الألف

والحاء . وفى الحروف التسعة الأخيرة جاء منها سبعة فقط ، ولم يأتِ حرفان على عكس الأولى ، أما العشرة فى الوسط فقد أخذ منها غير المنقوط وترك المنقوط ، فأخذ السين وترك الشين ، وأخذ الصاد وترك الضاد ، وأخذ الطاء وترك الظاء ، وأخذ العين وترك الغين ، إذن : هى مسألة مدروسة ليست رتابة ، إنما هى بنظام وحكمة مثل أسنان المفتاح ، فهى دقة مقصودة .

ثم ترى أنه سبحانه مرة يأتى فى أول السورة بحرف واحد مثل : ص ، ق . ومرة حرفين مثل : حم ، ومرة ثلاثة مثل : الم ، ومرة أربعة مثل : المر ، وخمسة مثل حمعسق ، كهيعص . إذن : المسألة حكمة مقصودة ليستْ هكذا دون نظام ، لها مقصد ، مقصد يضع الله فيه حَدَّ الخلاف بين الحروف وباقى الكلام ، كيف ؟

قالوا : الحرف المقطعة تنطقها أسماء ، ولا بدَّ أنْ تقف فيها فلا تقول مثلاً : ألفٌ لامٌ ميمٌ هكذا بالوصل . إنما تقول : ألف وتسكت . لام وتسكت . ميم وتسكت ، مع أن القرآن كله فى مُجْمله مَبنىٌّ على الوصل لا على الوقف ، تقول فى سورة (الرحمن) : ﴿ مُدْهَامَّتَانِ (٦٤) ﴾ [الرحمن] هكذا بالكسر ليتم الوصل بما بعدها ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٣) ﴾ [الرحمن]

حتى آخر كلمة فى القرآن فى سورة (الناس) تقول : ﴿ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ (٦) ﴾ [الناس] لتبدأ بعدها وتُوصلها بـ ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ (١) الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) ﴾ [الفاتحة]

أما الحروف المقطَّعة فجاءت مبنية على الوقف ، لذلك قال ﷺ :

« لا أقول الم حرف . ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف »(١)

إذن : فى الحروف المقطَّعة مقاصد وحِكَم ما يزال العلماء يحاولون التوصل إلى شىء منها ، كلٌّ حسب ما فتح الله عليه منها ، أما هى فكنز باقٍ لا ينفد يعطينا منه الحق سبحانه على قدرنا .

يقولون : القرآن جاء معجزةً أسلوبية بلاغية ، وأمة العرب مشهورة بالفصاحة والبلاغة ، ومع ذلك ما استطاعوا محاكاة القرآن ولا الإتيان بمثله ، مع أن الله جاء به بلغتهم وبنفس حروفهم وتعبيراتهم ، وتحدَّاهم بهذا كله ، فلم يستطيعوا الإتيان ولو بآية واحدة من مثله .

وكأن الله يقول لهم : معكم نفس الحروف ونفس الكلمات ، فلماذا لم تنسجوا منها مثل نسجى ؟ إذن : وجه الإعجاز هنا أنه سبحانه وتعالى هو المتكلم بالقرآن ، هو الذى صاغه وتكلم به .

وأيضاً ، والمعنى الذى يجب أنْ يسودَ فى هذا كله ، أن الحق سبحانه أنزل لنا عقائد وأحكاماً صدرتْ ممن اعتقدته وآمنتَ به ، وقرآن يدل على ذلك ، هذه ثلاثة : العقائد وهى الإيمان بالوجود الأعلى وواجب الوجود ، وأن له صفات الكمال المطلقة : الأول والآخر والظاهر والباطن .. الخ لأن هذه يُقام عليها دليل عقلى .

فهذا الكون البديع المحكم لا بدَّ له من خالق قادر حكيم عليم ..

---

(١) عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها ، لا أقول ألم حرف ، ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف » أخرجه الترمذى فى سننه (٢٩١٠) وقال : حديث حسن صحيح .

الخ .. فالعقل يؤيد هذه العقيدة ويثبتها ، لكن ليست هذه كل العقائد ، بل هناك سمعيات لا يقوم عليها دليل عقلى لأنها غيبيات كما نقول مثلاً : فى الجنة كذا وكذا ، وصفتها كذا وكذا .

ومثلها كذلك عذاب القبر ، هذه غيبيات ، نعم لا يقوم عليها دليل من العقل ، إنما هى محمية فيما له دليل عقلى ، فما دُمتَ قد آمنتَ بهذا الإله ، ودلَّكَ العقل عليه ، فخذ ما أخبرك به دون أنْ تناقشها ، فقط تقف عند سماعها .

كذلك الأحكام مثل الصلاة ، وأنها إدامة الولاء لله تعالى ، والزكاة للاستطراق المالى والاقتصادى فى المجتمع ، كذلك الحج لبيت الله الحرام . وهكذا . فالأحكام أيضاً فيها جانب عقلى وجانب سمعى ، فالصلاة كعبادة لله ودليل ولاء للمعبود سبحانه هذا أمر عقلىٌّ ، أما كيفيتها وعدد ركعاتها فهذا أمر سمعى نأخذه كما هو ولا نناقشه ، كذلك كل العبادات .

والأحكام فيها أمر عقلى يُفهم ، وأمر سمعى يُؤخذ مُسلَّماً به ، فإنْ قلت : كيف نقف عند أمور فى الدين لا تُناقش . نقول : نعم لأن هذا الوقوف فى أمور الغيبيات هو دليلُ إيمانك بالله ، لأن الأمور العقلية يستوى فيها كل الناس .

قلنا : لو عندك مبلغ تخاف عليه السرقة مثلاً ، ووضعتَه تحت حجر فى الحديقة ، وجاء آخر الشهر وأردتَ مثلاً أن تعطى خادمك راتبه من هذا المال . تقول له : يا فلان ارفع هذا الحجر وهات ما تحته ، فيقول لك : لا أقدر على رفعه وحدى ، وسأنتظر فلاناً يرفعه معى ، تقول له : اعلم أن تحته الكيس الذى به النقود التى ستأخذ منها راتبك ، عندها يذهب ويرفع الحجر وحده .

أما إنْ قلتَ لشخص آخر : ارفع هذا الحجر فرفعه دون علة . فهل يستوى فى طاعتك هذا وهذا ؟

كذلك أمر العقائد ، فَرْق بين مَنْ يؤمن بالأمور العقلية الحسية ، ومَنْ يؤمن ويصدق حتى بالأمر الغيبى الذى تخبر به .

كذلك الحال فى العقائد وفى الأحكام وفى القرآن كُلٌّ فيه الأمر العقلى والأمر الغيبى ، وعليك أنْ تحمل الأمور الغيبية على الأمور العقلية . والقرآن الكريم - وهذا هو موضوعنا - فيه كلام عقلى يُفهم بالعقل ، وحروف لا يُفهم معناها إلا أن الله قالها ، ولذلك نقول فيها : والله أعلم بمراده .

وقوله : ﴿ حمٓ (١) تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ (٢) ﴾ [فصلت] أنا أقول أن (حم) هذه هى التى يقول الله عنها ﴿ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ (٢) ﴾ [فصلت] وما دامتْ تنزيلاً من الرحمن الرحيم ، فإياك أنْ تخوض فيها وتقول : ماذا تعنى ، أو أنها مبهمة .. الخ لا بل قف عندها وخُذْها على أن لله فيها مراداً هو أعلم به .

واعلم أنه سبحانه يقول بعدها : ﴿ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ .. (٣) ﴾ [فصلت] ففى القرآن إذن الأمران : الأمر الغيبى الذى ينبغى الوقوف عنده مثل (حم) ، وهذه الغيبيات هى مجالُ اختبار الإيمان ، ثم يعطيك أيضاً الأمر العقلى المفهوم يُفصِّله لك تفصيلاً .

كلمة ﴿ تَنزِيلٌ .. (٢) ﴾ [فصلت] من نزول الشىء ، والنزول يكون من مكان عَال إلى مكان منخفض عنه ، أو من مكانة عليا إلى مكانة أدنى ، وهذه المادة جاءت كثيراً تدل على نزول القرآن والمنهج من أعلى ، وجاءت بكل الاشتقاقات : تنزيل ، نزل ، ننزل ، نزَّلناه ، أنزلنا ﴿ وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ .. (١٠٥) ﴾ [الإسراء] وقال :

﴿تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ[1] فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ (٤)﴾ [القدر]

لذلك ساعة تسمع كلمة ﴿تَنزِيلٌ .. (٢)﴾ [فصلت] تعلم أن الذى جاءك من أعلى منك منزلة حتى لو كانت مكانته عندك ، وتحت رجليك كما قال فى الحديد : ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ .. (٢٥)﴾ [الحديد] فالحديد معلوم أنه من الأرض من حيث نشأته وتكوينه، لكنه مُنزَّل من أعلى من حيث خالقه وواهبه لك .

إذن : فكل هذه الاشتقاقات من (نزل) تدل على علو الشىء المنزَّل ، ومُنزَّل منْ مَنْ ؟ ﴿مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ (٢)﴾ [فصلت] فيجب أن تتلقى هذا المُنزَّل إليك بالتسليم المطلق والقبول ، لذلك سيدنا أبو بكر لما قالوا له : إن صاحبك يدَّعى أنه أُسرِىَ به إلى بيت المقدس وعُرِج به إلى السماء لم يناقش هذه المسألة عقلياً . إنما قال لهم : إنْ كان قال فقد صدق .

فجعل قَوْل رسول الله هو الأساس ، فإنْ حدث منه القول فهو صادق ، لذلك منذ هذا اليوم لُقِّب بالصدِّيق . مع أن الإسراء آية أرضية وفيه جانب عقلى ، لأن المسافة معلومة لهم ، وكيفية السفر إلى بيت المقدس معلومة زماناً ومكاناً ، ومع ذلك لم يناقش فيها . أما المعراج فهو أمر غيبىٌّ ، فكأنه جعل تصديق محمد فيما يعلمون فى الأرض وسيلةً لتصديقه فيما لا يعلمونه فى السماء .

ونفهم أيضاً من قوله تعالى : ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ (٢)﴾ [فصلت] أن التكليف الذى نزَّله الله لك لم يأتِ ليشقَّ عليك ، إنما هو

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٤/٥٣١) : « أما الروح فقيل : المراد به هنا جبريل عليه السلام فيكون من باب عطف الخاص على العام . وقيل : هم ضرب من الملائكة » .

من رحـمن بك واسع الرحـمـة ، رحمـتـه وَسِـعَتْ كل شىء المـؤمن والكافر .

و (الرحيـم) يعنى : دائمَ الرحمـة لأن رحمتـه تعالى تنـسحب وتدوم حـتى فى الآخـرة ، فإنْ رأيـتَ فى التنزيل تكليـفـاً تظنه يشق عليك ، فلا تفهم أنه من قاسٍ عليك ، إنما هو من رحمن رحيم .

رحمن بك ، لأنه يدلُّك على ما يسعد دنياك ويسعد آخرتك ، بدليل أنه سبحانه حين يكلفنا بأمور قـد تشقّ على النفس العادية لا يستفيد من هذا التكليف ، فسواء أن تكفر أو أن تؤمن ، تصلى أو لا تصلى ، لأنه سبحانه بصفة القدرة موجود ، وإنْ لم تؤمن به وإنْ لم تُصَلِّ .

فعملك إذن لا علاقة له بالله من حيث النفع ، العملية لصالحك أنت كما تقول لولدك مثلاً : إذا نجحتَ هذا العام سأشترى لك كذا وكذا .

﴿ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ﴾

سمـاه ﴿ كِـتَـابٌ .. ﴿٣﴾ ﴾ [فـصلت] لأن الكتـاب تعنى الجـمع . والكتيبة جـمع الجنود ، فالكتاب تجمع الكلمات إلى بعـضـها ، والكتاب يعنى : مجـتمع فـيه أشيـاء ، وفى القرآن اجـتـمع كل خيـر فى الدنيا والآخرة ، وهو كتاب لأنه مكتوب ومُسجَّل تستطيع أن تقرأه .

ولذلك لما أرادوا جمع القرآن وضـع الـجامعُ مبدأ ، وهو ألاَّ يكتب آية إلا إذا وجدها مكتوبة بالفعل على الرِّقـاع أو العظام أو غيره ، مما كانوا يكتـبون عليه ، ثم يشـهد على صحتـها اثنان من القراء ، فـهو كـتاب لأنه مـكتوب فى السـطور ، وقرآن لأنه مـقـروء مـحفـوظ فى الصدور .

الحق سبحانه وتعالى أراد بذلك كما قال الشيخ المرحوم محمد عبد الله دراز[١] : أنْ تُذكِّر إحداهما الأخرى ، فالمكتوب مع المقروء يتعاونان فى تسجيل كتاب الله تسجيلاً دقيقاً لا يتطرق إليه الشك .

والدليل على ذلك أن جامع القرآن وجد آية مكتوبة ، وطلب لها شاهدين فلم يجد إلا واحداً يشهد على صحتها فتوقف عن كتابتها ، وكان هذا الشاهد هو سيدنا حذيفة[٢] رضى الله عنه ، وجاء للكاتب مَنْ ذكَّره بحديث سيدنا رسول الله فى شأن خزيمة حين قال : « من شهد له خزيمة فحَسْبه »[٣] فجعل شهادة خزيمة بشهادتين ، وأخذ عنه الآية وكتبها .

ولها قصة : قالوا إن رسول الله ﷺ كان قد استدان مالاً من يهودى ، وأدَّاه لَهُ دون شاهد بينهما ، ثم جاء اليهودى مرة أخرى يطالب رسول الله بالسداد فقال له رسول الله : لقد أديتك . قال : لا ، قال : أدَّيْتُك ، قال : إذن ابغنى شاهداً ، فقام أحدُ الصحابة وقال : أنا يا رسول الله شهدتُ ذلك ، عندها سكت اليهودى لأنه كاذب .

---

(١) محمد عبد الله دراز : فقيه متأدب مصرى أزهرى ، كان من هيئة كبار العلماء بالأزهر ، له كتب منها « الدين » دراسة تمهيدية لتاريخ الإسلام . توفى عام ١٩٥٨م . [الأعلام للزركلى] .

(٢) هو : خزيمة بن ثابت بن الفاكه بن ثعلبة الأنصارى ، أبو عمارة ، صحابى من أشراف الأوس فى الجاهلية والإسلام ، حمل راية بنى خطمة يوم فتح مكة ، عاش إلى خلافة على ابن أبى طالب وشهد معه صفين فقتل فيها ، توفى ٣٧ هجرية . روى له البخارى ومسلم وغيرهما ٣٨ حديثاً [الأعلام للزركلى] .

(٣) أخرجه الحاكم فى المستدرك على الصحيحين (١٨/٢) والطبرانى فى المعجم الكبير (١٠١/٤) من حديث خزيمة بن ثابت . قال الهيثمى فى مجمع الزوائد (٣٢٠/٩) : « رجاله كلهم ثقات » .

وبعد نهاية الموقف استدعى رسول الله الصحابى وقال له : كيف شهدتَ بذلك ولم يكُنْ معنا أحد ؟ فقال له : يا رسول الله ، كيف أُصدقك فى خبر السماء وأُكذِّبك فى كذا درهم ..

نعم : نقول هنا نعْمَ الاستنباط ، لذلك استحق هذه المكانة من رسول الله « من شهد له خزيمة فَحَسْبُه » .

ومعنى ﴿ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ .. ③ ﴾ [فصلت] يقولون فى الفعل (فُصِّلت) مبنى للمجهول أو لما لم يُسَمَّ فاعله ، والمعنى هنا أن الله فصَّلها أولاً ففُصِّلت أى : صارتْ مُفصَّلة ، فلما بلَّغها رسول الله للناس أصبحت هى مُفصِّلة لأمورهم ولأحكامهم .

ومعنى ﴿ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ .. ③ ﴾ [فصلت] لأن القرآن مُقسَّم ومُفصَّل إلى سور ، كل سورة قائمة بذاتها ، وداخل السُّور آيات ، كل آية بذاتها ، ففى السُّوَر الطويل والقصير ، كذلك فى الآيات تجد كلمة واحدة آية ، وتجد آية من عدة أسطر ، كذلك فصَّل الكلمات من حيث مادتها ، كذلك فصَّل الحلال والحرام ، وفصَّل الطاعة والمعصية ، ألم يفصل بين الوعد والوعيد ، بين الثواب والعقاب .

لقد فَصَلَ القرآن بين كل هذه المسائل ، أو فُصلت فيه كل آيات الكون إلى قيام الساعة ، لذلك قالوا : « خطبنا رسول الله خطبة بليغة ، ما ترك فيها شيئاً ، وما ترك من ورقة تسقط إلا حدَّثنا عنها إلى أنْ تقوم الساعة ، حفظها مَنْ حفظها ونسيها مَنْ نسيها »(١) .

نعم كما قال تعالى : ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ .. ㊳ ﴾

---

(١) عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : خطبنا رسول الله ﷺ خطبة بعد العصر إلى مغيربان الشمس ، حفظها منا من حفظها ونسيها منا من نسى ، فحمد الله فقال ما هو كائن إلى يوم القيامة ....» الحديث أخرجه أحمد فى مسنده (٣/ ١٩) .

[الأنعام] يعنى : أن الأمور التى تحدث فى الكون موجودة عندكم فى هذا الكتاب .

ولذلك لما سُئلنا فى إحدى رحلاتنا إلى أوربا من أحد المستشرقين قال : عندكم فى القرآن : ﴿هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ .. ﴿٩﴾﴾ [الصف]

وفيه : ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٨﴾﴾ [الصف]

ومع ذلك وبعد مرور أربعة عشر قرناً على ظهور الإسلام ، ما يزال اليهود والنصارى والملاحدة والمشركون موجودين ، ولم يظهر عليهم الإسلام ، فكان الرد الذى وفقنا الله إليه أن الإسلام ظهر بالفعل عليهم رغم وجودهم ، والمراد بالظهور هنا ظهور الحجة ، فالإسلام ظهر على هؤلاء بالحجة من أعدائهم .

وفرْق بين أن تظهر الحجة من مُعتقده ، وبين أن تظهر الحجة من معاند ، كيف ؟ قالوا : ستظهر فى الكون أقضية من صُنْع البشر لا يجدون لها حلاً ، إلا أن يرجعوا إلى حكم القرآن .

إذن : ظهر القرآن عليهم وعلى أفكارهم وعلى أحكامهم وعلى حضارتهم ، وإلا لما رجعوا إليه .

ومثَّلنا لذلك بقضية الطلاق فى الإسلام ، وهى من أهم القضايا التى عارضوها وانتقدوها ، وبعد ذلك اضطرّ الفاتيكان نفسه إلى إباحة الطلاق عندهم ، وهذا هو ظهور الإسلام ، لا بأنْ يكونوا مسلمين ، إنما بأنْ تظهر حجته ويشهد له منهم مَنْ لم يؤمن به .

وقوله : ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا .. (٣)﴾ [فصلت] أى : بلسان عربى وفى أمة عربية ، لكن كيف ذلك وهو رسالة عالمية لكل البشر ولكل اللغات ؟ ولماذا لم ينزل بكل اللغات ؟ قالوا : إذن لم يكُنْ هناك لغة (اسبرانتو) فالقرآن نزل على محمد فى بيئته العربية ، لأن الله تعالى يريد أن يظهر هذا الدين فى أمة أمية ، وعلى لسان رسول أُمىٍّ حتى لا يقول أحد : إن القرآن وثبة حضارية .

فالعرب كانوا أمة لا دولةَ لها تحكمها ولا نظام ولا قانون ، كانوا مجموعة من القبائل كل قبيلة لها قانونها ، كل واحد منهم (شوكته من ظهره) ومع ذلك تأتى مثل هذه الأمة وتوحد العالم كله بما فيه من دول متحضرة من فارس فى الشرق إلى الروم فى الغرب .

فمن أين أتت هذه الأمة بذلك ؟ كان عليهم أنْ يفهموا أنه قانونُ السماء جاء من أعلى ، وإلا ما كان العرب ليقوموا بهذا الدور لولا رسالة محمد ﷺ .

إذن : لا مجالَ لأنْ نقول عن الإسلام إنه وثبة حضارية ، لذلك لما أراد الحق سبحانه إعلاءَ دينه جعل محمداً ﷺ يجهر بهذا الدين فى مكة ، لماذا مكة بالذات ؟ لأن فيها قريشاً وهى موضع السيادة فى الجزيرة كلها ، وفيها الصناديد الذين لا يجرؤ أحد على مواجهتهم .

فبين هؤلاء صاح محمد بالإسلام وجهر به ، ومع ذلك لم ينصر الدين هؤلاء السادة ، إنما نصره المستضعفون والعبيد فى المدينة ، وقلنا : إن لهذه المسألة حكمة ، هى ألاَّ يظهر أحد أن العصبية لمحمد هى التى خلقتْ الإيمان بمحمد ، ولكن الإيمان بمحمد هو الذى أوجد العصبية لمحمد .

فالقرآن عربى لأنهم أمة الدعوة الذين سيحملون لواءها ويسيحون بها فى أنحاء العالم كله ، فالعرب أمة تقوم على الترحال ليس لهم بيوت ولا يسكنون الفيلات والعمارات ، إنما هى الخيمة يحملها معه أينما سار ، فوطنه إذن العالم كله وبيته على ظهر جمله ، كما أنها أمة قبلية يتعصب كُلٌّ لقبيلته ، لذلك كثرت بينهم الحروب حتى أن بعضها استمر أربعين سنة .

هذه الحروب درَّبتهم على القتال ، وزرعت فيهم الشجاعة والتضحية بالنفس فى سبيل المبدأ ، لذلك لما أراد رسول الله أنْ يُعدَّ جيشاً لم يفتح له مدرسة حربية ، إنما وجد جيلاً من الرجال جاهزاً مُعداً يعلم كل فنون الحرب ، كلما سمع أحدهم هيعة طار إليها .

هؤلاء هم الرجال الذين سيتلقوْنَ الدعوة من رسول الله ، هم الذين سينشرونها . إذن : لا بُدَّ أنْ يكون الكلامُ بلسانهم ، والدعوة بلغتهم ، ليستطيعوا حملها .

لذلك قال تعالى فى موضع آخر : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ .. (٤)﴾ [إبراهيم] نعم لأنهم هم الذين سيسمعون منه أولاً .

لكن كيف تكون عالمية الدين ؟ قالوا : حين يسمع منه قومه يؤمنون به ، ثم يحملون دعوته إلى الناس لا ألفاظاً ، لكن يحملونها منهجاً وسلوكاً وقدوةً ، ومعلوم أن المناهج لا تختلف فيها اللغات ، لذلك غزا المسلمون العالم كله ، ليس بالقرآن وآياته إنما بالسلوك وبالمبادىء التى أرساها القرآن .

إذن : نزل القرآن بلسان عربى ، لأن العرب هم المعَدُّون لهذه المهمة ، القادرون على حملها ، والسياحة بها فى العالم كله لكونهم

أمة بدوية غير متوطنة ، وأمة قتال ، وهى أمة أمية لا يمكن أن نتهمها باختلاق هذا الدين ، أو أنه وثبة حضارية .

وقوله : ﴿ لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ ﴾ [فصلت] أى : يعلمون أساليب العربية ، بل ويُجوِّدون فيها ، فهم أعلى قمة الفصاحة والبلاغة ، بدليل أنك لن تجد أمة فى الأرض صنعتْ معارض للأدب وللكلمة كما صنع العرب فى عكاظ والمربد وذى المجاز والمجنة ، ففيها كانوا يعرضون إنتاجهم الأدبى ويُقيِّمونه ، وما استحسنوه منه يكرمونه بأن يضعوه على أستار الكعبة .

إذن : ﴿ لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ ﴾ [فصلت] العربية وينبغون فيها نبوغاً ، بحيث نزل القرآن المعجز بلسانهم . والإعجاز لا يتأتى لمن لا يجيد مجال الإعجاز ، فالذى يجهل شيئاً لا يصح أنْ تقول له : أتحداك فى هذا الشىء ، إنما يكون الإعجاز للمُجيد فى الشىء المتحدَّى به ، لأن الجاهل له أن يقول لك : والله لو كنت أعلم الشىء الفلانى لغلبتك فيه . ومن هنا تحدى الله العرب بالقرآن .

ولذلك الحق سبحانه وتعالى لا يُنزل آية مع رسول من رسُله لإثبات صدقه فى الدعوة إلا من جنس ما نبغ فيه القوم ، فكانت معجزة سيدنا عيسى فى الطب ، فكان يبرئ الأكمه(١) والأبرص(٢) بإذن الله ، وسيدنا موسى عليه السلام كانت معجزته العصا ، لأن قومه نبغوا فى السحر ، وجاءت معجزة محمد ﷺ فى البلاغة والبيان ، فتحدَّى القوم بالقرآن ، وبذلك يتأتَّى الإعجاز .

---

(١) الأكمه : الأعمى ، سواء وُلد أعمى أو فقد بصره [القاموس القويم ٢/ ١٧٥] .

(٢) البرص : بياض يصيب الجلد يحدث بقعاً بيضاء فى الجلد تشوهه وهو من أعراض مرض الجذام الكثيرة . [القاموس القويم ١/ ٦٤] .

لذلك نسمع مَنْ يقول : إن العرب انهزموا أمام القرآن ، وهذا غير صحيح ، لأن العرب لم ينهزموا بل انتصروا أمام القرآن ، كيف ؟ لأن الله تعالى لا يتحدى إلا قوياً ، فتحدِّى الله لهم دليلٌ على أنهم قوة ، لديهم القدرة على البيان ويمتلكون ناصية اللغة .

﴿ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ بَشِيراً وَنَذِيراً .. ﴿٤﴾ ﴾ [فصلت] هذا أول شىء فى التفصيل ، كما قلنا : فصَّل الحق والباطل ، والحلال والحرام ، هنا بشيراً ونذيراً ﴿ فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [فصلت] إعراض الكثرة يدل على أن القلة هى التى آمنتْ وهى القلة المستضعفة ، أما أكثرهم فكانوا أهل السيادة وأهل القوة الذين لم يقبلوا الدعوة الجديدة التى تسويهم بهؤلاء الضعفاء والعبيد .

لذلك سيدنا أبو بكر لما تولى الخلافة ، وجاءه جماعة من هؤلاء الصناديد ، وكان عنده جماعة من المستضعفين السابقين للإسلام أخَّر الصناديد والكبراء حتى يفرغ ممَّنْ عنده فشقَّ ذلك عليهم ، ووجدوا فى أنفسهم شيئاً ، كيف يُقدِّم أبو بكر عليهم العبيد والضعفاء ، فقال الصِّدِّيق : ما بال هؤلاء ؟ كلهم ورم أنفه[1] أنْ قدَّمتُ عليه فلاناً وفلاناً ، فما بالهم إذا قدَّمهم الله عليهم يوم القيامة فى الجنة ؟

لكن ما وجهة الإعراض فى قوله تعالى : ﴿ فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ .. ﴿٤﴾ ﴾ [فصلت] قالوا : وجهة الإعراض أنهم يفهمون مطلوب الدين الجديد

---

(١) ورم أنفه : امتلأ من ذلك غضباً . [المبرد فى الكامل فى اللغة والأدب] .

بقولهم : لا إله إلا الله .

وأن السيادة لن تكون إلا لهذه الكلمة ، ولن تكون سيطرة إلا لهذه الكلمة ، وأن العباد سيكونون سواء أمامها ، إذن : كيف يقولون لا إله إلا الله ، وهم يعرفون مطلوبها ؟ لذلك لم يقولوها ، ولو كانت مجرد كلمة تُقال لقالوها ، لكنهم يعرفون معناها فوقفوا .

وقوله : ﴿فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ ④﴾ [فصلت] أى : لا يسمعون سماعاً نافعاً ، وسماعاً واعياً مقبولاً ، وإلا فقوله تعالى : ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ ④﴾ [فصلت] دلَّ على أنهم سمعوا دعوة رسول الله ، سمعوها بالآذان فقط ، ولم يستفيدوا بهذا السماع ، لذلك قال تعالى فيهم : ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا .. ⑯﴾ [محمد]

لذلك يختلف الناس فى تلقِّى القرآن ، فواحد يسمع وينفعل ويسجد لعظمة القرآن ، وآخر يسمع ويقول : ماذا قال !! على سبيل الاستهزاء والاستقلال . لأنه لا يسمع بأذن الاعتبار والتأمل ، لماذا ؟ لأن منافذ القلب من العقل مُضببة بالمطلوب الذى يطلبه الإيمان منهم ، فقد ألفوا السيادة ، فساعةَ يسمعون ما يعارض سيادتهم وسلطتهم الزمنية يعرضوا .

لذلك قلنا فى قصة إسلام سيدنا عمر أنه لما سمع القرآن أولاً عاند وثار ، لأن قلبه لم يكُنْ مُعداً للاستقبال السليم ، فلما لطم أخته وسال الدم منها رقَّ قلبه ولاَنَ ، وزال عنه الضباب ، فلما سمع القرآن تأثر به وانفعل به فآمن .

﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا
وَقْرٌ(١) وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ (٥) ﴾

معنى ﴿ أَكِنَّةٍ .. (٥) ﴾ [فصلت] يعنى : أغطية جمع كنان أى : غطاء . والغطاء يغلف الشيء بحيث لا ينفذ إليه النور ، وفى آية أخرى قال سبحانه : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ .. (٥٧) ﴾ [الكهف] فالأكنة مرة من جَعْل الله ومرة منهم ، فأيهما أسبق ؟ أجعل الله لهم أكنة أولاً ثم أصابتهم الغفلة ، أم أن إعراضهم عن دين الله هو الذى جعل الأكنة على قلوبهم ؟

وقلنا : إن الإنسان إذا ألفَ الكفر وأنس به زاده الله منه وختم على قلبه ، بحيث لا يدخله الإيمان ولا يخرج منه الكفر .

إذن : يأتى منهم الكفر أولاً ، وبعد ذلك يختم الله على القلب ، كذلك فى مسألة الأكنة جاءتْ منهم أولاً ، فزادهم الله ، وجعل على قلوبهم الأكنة وزادهم مرضاً على مرض .

إذن : المراد بالأكنّة أى الأغطية التى تمنعهم فَهْمَ وتدبُّرَ ما يسمعون ، وما يُلقى عليهم ﴿ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ .. (٥) ﴾ [فصلت] وقر يعنى : صَمَم يمنع السماع . وفى سورة البقرة قال : ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ .. (١٨) ﴾ [البقرة]

ومعلوم أن البكم ينشأ عن الصمم ، لأن الأصم الذى لا يسمع كيف يتكلم ؟ لأن اللغة ظاهرة اجتماعية وهى بنت المحاكاة ، فما تسمعه الأذن يحكيه اللسان ، فإذا لم تسمع الأذن شيئاً لا ينطق

---

(١) الوقر : ثقل فى السمع . وقيل : هو أن يذهب السمع كله . والثقل أخف من ذلك [لسان العرب - مادة : وقر] . يقول الكافرون ذلك سخرية وإصراراً على العناد والكفر والتكذيب . [القاموس القويم ٢/ ٣٥٠] .

اللسان بشيء ، فاللغة ليست جنساً ، اللغة سماع ومحاكاة ، بدليل أنك تأتى بالطفل الإنجليزى مثلاً فى بيئة عربية ينطق العربية .

والأصم عنده القدرة على الكلام ، بدليل أنه ينطق ببعض الأصوات غير المفهومة كما نسمع من الأخرس مثلاً ، حتى الإنسان السَّوى الفصيح لا يستطيع أنْ يتكلم بكلمة لا يعرفها من لغته هو ، من أين يأتى بها ؟ من السماع أولاً .

ولذلك أخذنا من هذه المسألة أدلة مادية على وجود الخالق الأعلى سبحانه ، نقول : أنت كيف تتكلم ؟ يقول : أتكلم لأننى سمعتُ فى صِغَرى أبى وأمى ومَنْ حولى يتكلمون ، فقلت كما يقولون ، إذن : لا تنشأ لغة إلا بالسماع .

وكذلك الحال فى الآباء وفى الأجداد ، وارْتَق بهذه السلسلة إلى آدم عليه السلام وقُلْ : كيف تكلم آدم وليس قبله أحدٌ يسمع منه ؟ لا بُدَّ أنه سمع ، سمع من مَنْ ؟ سمع من الله تعالى حين علَّمه الأسماء كلها .

منافذ الخواطر التى ترد الآذان ، ومنافذ الخواطر التي تصدر من اللسان ، ولأن هؤلاء صُمٌّ لا يسمعون لم يأخذوا شيئاً ، وبالتالى لم يُخْرجوا شيئاً ، لذلك قال سبحانه : ﴿قُلُوبُنَا فِى أَكِنَّةٍ .. ⑤﴾ [فصلت] يعنى : أغطية تمنع عنهم الاستفادة ﴿وَفِى آذَانِنَا وَقْرٌ .. ⑤﴾ [فصلت] يعنى : صمم ، ولم يأت هنا بذكر اللسان لماذا ؟ لأنهم لن يتكلموا فى الدين لأنهم لم يسمعوه ، فكوْنه لم يأت بالكلام هنا دلَّ على أنهم لن يسمعوا ولن يتكلموا ، تأمل هنا الدقة لأنه كلامُ ربٍّ .

وقولهم : ﴿وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ .. ⑤﴾ [فصلت] أى : ستر

غليظ يحجبك ، فأنت تكون مع جليسك تُحدِّثه ويُحدِّثك ، تسمعه ويسمعك ، تراه ويراك ، تأنس به ويأنس بك .. الخ لكن إنْ كان بينك وبينه حجاب امتنع ذلك كله .

هذا الحجاب قد يكون معنوياً ، تقول : بين فلان وفلان جفوة أى : جفوة صغيرة سرعان ما تزول . لكن إنْ قلتَ : بين فلان وبين فلان جفوة ، وكررتَ ظرف المكان دلَّ ذلك على أنها جفوة كبيرة ليس من السهل إزالتها .

كذلك قالوا : ﴿ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ .. ۝٥ ﴾ [فصلت] يعنى : كثيف غليظ يستر كل شىء ، من هنا إلى هنا ، يعنى : يملأ كل ما بيننا من مسافة . قالوا : لما كان سيدنا رسول الله ﷺ يكلم القوم ، ويعرض عليهم دين الله كان أبو جهل يأخذ ثوبه ويضعه على وجهه حتى لا يرى رسول الله .

وما دام أن بيننا وبينك حجاباً ، فلن نتفق وكُلٌّ منا فى طريق ، وما دام أن لكل طريقه ﴿ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ۝٥ ﴾ [فصلت] وهذه القضية أوضحها الحق سبحانه فى سورة الكافرون : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝١ لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝٣ وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦ ﴾ [الكافرون] هذه هى النتيجة الطبيعية للحجاب بينهما .

بعض الناس حين يقرأون هذه السورة يظنون بها تكراراً ، وهذا ليس تكراراً ، بل فى السورة قَطْع علاقات ، وقطع العلاقات له ظرف يحكمه ، ألم تر إلى الدول تقطع إحداها علاقتها بالأخرى ، ثم تصفو الأجواء مرة أخرى ، وتعود العلاقات أحسن مما كانت ، فَفرْقٌ فى الدبلوماسية بين الماضى والحاضر .

لكن فى مسألة الكفر والإيمان الأمر مختلف فهما ضدان لا يلتقيان ، مهما حدث فى المستقبل . فلن تعود العلاقاتُ بينهما ، لذلك قال سبحانه : ﴿لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝ وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝﴾ [الكافرون] أى : فى الزمن الحاضر الآن ﴿وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝ وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝﴾ [الكافرون] أى : فى المستقبل ، فلا تظنوا أن العلاقات بيننا قد تتحسن وتعود بيننا علاقة ، لا .. لا التقاء بيننا .. لا فى الحاضر ولا فى المستقبل .

هذه هى قطع العلاقات ، وما دام بيننا حجاب وحاجز ، فكُلٌّ منا فى طريقه (والحَمْرة فى خيله يركبها) .

﴿فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ۝﴾ [فصلت] اعمل ما يروق لك ، وما يأتيك من إلهك وإسلامك ، ونحن نعمل على قدر آلهتنا وديننا وعبادتنا ، اعمل لإلهك الذى أرسلك ، ونحن نعمل لآلهتنا التى نعبدها ، أو اعمل لآخرتك ونحن نعمل لدنيانا ، فالمسألة من الرسول إصرار ، ومنهم معاداة ، إلى أنْ يستقيم الميسم[1] ، ويأبى الله إلا أن يُتمَّ نوره .

لذلك نرى تدرُّج الإسلام وانتشاره فى بطء ، أمر أتباعه بالهجرة إلى الحبشة وإلى المدينة ، تدرج بهم إلى أنْ تقوى شوكتهم ، بدأ ضعيفاً بالضعفاء ، ثم قوى حتى دخله الأقوياء ، كان منحصراً فى مكة ثم اتسعتْ دائرته ، وكانت تزيد كل يوم بحيث تزيد أرض الإسلام وتنقص أرض الكفر .

لذلك لما رأى خالد بن الوليد وعمرو بن العاص انتشار الإسلام

---

(١) أصل الميسم : المكواة أو الشىء الذى يُوسم به سمات الدواب . والميسم : أثر الجمال فى المرأة . وهو من الوسامة ، ومنه قوله تعالى ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ ۝﴾ [القلم] .

على هذه الصورة قال خالد لعمرو : والله لقد استقام الميسم . يعنى : استقام أمر هذا الدين فهيا بنا نسلم[١] .

وأخذ صناديد الكفر يعودون إلى الجادة ، ويدخلون فى دين الله ، فهذا عكرمة بن أبى جهل الذى قاد المعركة فى فتح مكة يوم الخندمة[٢] ثم أسلم وأبلى فى الإسلام بلاءً حسناً ، حتى مات فى إحدى المعارك ، وقال قبل أنْ يموت : أهذه ميتة تُرضِى عنى رسول الله ؟

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٧﴾ ﴾

(قل) أى : فى الرد عليهم ﴿ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ ..

---

(١) ذكر ابن هشام فى السيرة النبوية قصة إسلام عمرو بن العاص وخالد بن الوليد ومبدؤها أن النجاشى أقنعه أن محمداً على الحق قائلاً له : ويحك يا عمرو أطعنى واتبعه فإنه والله على الحق وليظهرن على من خالفه كما ظهر موسى على فرعون وجنوده . قلت : أتبايعنى له على الإسلام ؟ قال النجاشى : نعم فبسط يده فبايعته على الإسلام وكتمت أصحابى إسلامى . ثم خرجت عامداً إلى رسول الله لأسلم فلقيت خالد بن الوليد وذلك قبيل الفتح وهو مقبل من مكة فقلت : أين يا أبا سليمان ؟ قال : والله لقد استقام الميسم وإن الرجل لنبى أذهب والله فأسلم فحتى متى ؟ قلت : والله ما جئت إلا لأسلم . فقدمنا المدينة على رسول الله فتقدم خالد بن الوليد فأسلم وبايع ثم دنوت فقلت : يا رسول الله إنى أبايعك على أن يغفر لى ما تقدم من ذنبى ولا أذكر ما تأخر . فقال رسول الله : يا عمرو بايع فإن الإسلام يجبُّ ما كان قبله ، وإن الهجرة تجبُّ ما كان قبلها .

(٢) الخندمة : جبل منه بنيان مكة . [الأمكنة والمياه للزمخشرى] فهو أحد جبال مكة وهو المستعلى على جبل ابي قبيس من ناحية المشرق وهو جبل أحمر محجر فيه صخرة كبيرة بيضاء كأنها معلّقة . [الروض المعطار فى خبر الأقطار - لابن عبد المنعم الحميرى] .

﴿ ٦ ﴾ [فصلت] يعنى : لماذا تقفون منى ومن دعوتى هذا الموقف المعاند ؟ لماذا تجعلون بينى وبينكم الحُجُب ، وأنا واحد منكم عربى مثلكم تعرفون صِدْقى وتاريخى قبل ذلك بين ظهرانيكم .

ومن رحمة الله بكم أنْ أرسلنى إليكم بشراً من جنسكم ، ولم يرسل إليكم ملكاً : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿ ٩ ﴾ [الأنعام] ، وتعلمون سوابقه فى الصدق والأمانة والعفة . ثم لو جاءكم مَلَكٌ ، أكنتم تقتدون به على ملكيته ؟ إن الأسوة لا تكون من المَلَك للبشر .

وتأمل الأدب والتواضع من رسول الله فى قوله : ﴿ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ .. ﴿ ٦ ﴾ [فصلت] يعنى : لا كبرياء ولا تعالٍ ، لكن فضلنى الله عنكم بأنه ﴿ يُوحَىٰ إِلَيَّ .. ﴿ ٦ ﴾ [فصلت] ومضمون هذا الوحى ﴿ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ .. ﴿ ٦ ﴾ [فصلت] وما دام يُوحى إلىَّ فأنا مُبلِّغ لا ذنبَ لى تؤاخذوننى عليه ، أنا بشر مثلكم ومن أنفسكم لا أمتاز عليكم إلا بما ميَّزنى الله به من الوحى .

لذلك نجد الحق سبحانه كثيراً ما يصحح لرسول الله ويُعدِّل له الحكم ويعاتبه ، ورسول الله هو نفسه الذى يخبرنا بذلك ، وهذا دليلٌ على أنه أمين فى البلاغ عن ربه ، لذلك يقول تعالى : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ ﴿ ٤٤ ﴾ لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿ ٤٥ ﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ[1] ﴿ ٤٦ ﴾ [الحاقة]

وقال : ﴿ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ .. ﴿ ٦ ﴾ [فصلت] ولم يقل ربكم لأنهم

---

(١) الوتين : عِرْق فى القلب إذا انقطع مات صاحبه ، وهو لاصق بالصلب من باطنه يسقى العروق كلها الدم ويسقى اللحم وهو نهر الجسد ، وهو نياط القلب [لسان العرب - مادة : وتن] .

يؤمنون بوجود الله الخالق الرازق ، المشكلة عندهم فى الإله المعبود ، فالإله المعبود له أوامر ومطلوبات الإله يقتضى الطاعة فى الأمر وفى النهى ، فهم مسلمون بالربوبية مشركون فى الألوهية ، فأراد أنْ يبين لهم : ﴿أَنَّمَا إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ .. ﴿٦﴾﴾ [فصلت] ليس متعدداً ، مرة يقول ﴿إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ .. ﴿٦﴾﴾ [فصلت] وفى سورة الإخلاص قال : ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾﴾ [الإخلاص] واحد يعنى ليس له ثانٍ ، وأحد يعنى أحد فى ذاته غير مركّب من أشياء فهى تنفى التجزؤ .

وقد اتخذ الكفارُ آلهةً متعددة ليُرضوا ما فى أنفسهم من عاطفة التديُّن ، وليكون لهم إله معبود بلا منهج وبلا تكاليف ، لذلك قلنا : إن من الوسطية فى ديننا أنه يؤمن بإله واحد ، فى حين يوجد مَنْ يؤمن بآلهة متعددة ، ويوجد مَنْ ينكر الإله بالمرة ، فجاء الدين الإسلامى وبيَّن أن الإله واحد .

وما دام هو إله واحد ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ .. ﴿٦﴾﴾ [فصلت] استقم يعنى : سِرْ على حدِّ الاستقامة لا تميل هنا ولا هناك . قالوا : كان رجل من طيء ، اسمه ابن بندر رأى شاباً بيته هنا ، لكن لا يذهب إليه من الطريق المعتاد المستقيم ، إنما يدور فى طرقات القرية ليذهب إلى بيته .

فعرف من ذلك أن الشاب يقصد بدورانه فى الطرقات شيئاً مريباً ، فقال له : يا هذا استقم إلى بيتك يعنى : اذهب إليه من الطريق المستقيم ، عندها عرف الشاب أن الرجل (فقسه) وعرف قصده غير الشريف فارتدع .

كذلك قوله تعالى : ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ .. ﴿٦﴾﴾ [فصلت] يعنى : اقصدوه من طريق الاستقامة ، وسمَّى طريقه الصراط المستقيم ، وقد

أثبت العلم أن الطريق المستقيم هو أقصر مسافة بين نقطتين ، ثم إن الطريق المستقيم قد يكون ضيقاً يجبرك على الاستقامة عليه ، وقد يكون واسعاً يسمح بالميل يميناً ويساراً (أوتوستراد) .

فإنْ كان واسعاً فاستقم فيه أيضاً لتقصر على نفسك مسافة الوصول ، لأنك حين تميل تزيد المسافة ، لذلك قال : ﴿ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١٠٨) ﴾ [البقرة] يعني : في وسطه دون ميل ، بحيث يكون ما على يمينك مثل ما على شمالك ، فمرة قال ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) ﴾ [الفاتحة] ومرة قال ﴿ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١٠٨) ﴾ [البقرة]

فقوله تعالى : ﴿ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ .. (٦) ﴾ [فصلت] أي : بدايةً ، فإنْ أصابتكم غفلة عن المنهج واقترفتم شيئاً ﴿ وَاسْتَغْفِرُوهُ .. (٦) ﴾ [فصلت] أي : اطلبوا منه المغفرة .

﴿ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ (٦) الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ .. (٧) ﴾ [فصلت] لأن الاستغفار طلب مَحْو الشيء السابق ، والقاعدة الشرعية تقول : إن درء المفسدة مُقدَّم على جَلْب المصلحة . ومثَّلْنا لذلك بواحد يريد أنْ يرمي لك تفاحة ، وواحد يريد أن يرميك بحجر فأيهما أوْلى ، الأَوْلَى دَفْع الحجر ، فقال ﴿ وَاسْتَغْفِرُوهُ .. (٦) ﴾ [فصلت] ليتم لكم مسْح الذنوب ، ولتُنشئوا مع الله علاقة جديدة قائمة على الطاعة والاستقامة .

كلمة ﴿ وَوَيْلٌ .. (٦) ﴾ [فصلت] يعني : هلاك ﴿ لِّلْمُشْرِكِينَ (٦) الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ .. (٧) ﴾ [فصلت] وهل فُرِضَتْ الزكاةُ على مشرك ؟ الزكاة لم تكُنْ فُرضت حتى على المؤمنين في هذا الوقت . قالوا : المراد بالزكاة هنا تطهير المال في حالة نموه ، وكان

المشـركـون يفـعلون ذلك بـالفـعل ، لكن يفـعلونه من مـنطق الكرم والسمعة الطيبة ، ولم يكُن الله فى بالهم .

لذلك حُكى أن المطعم بن عدى[١] كان له قِدْرٌ يطعم فيه كذا وكذا ، حتى أن رسـول الله ﷺ قال : « كنت أستظل مـن وهج الشمس بظل قِدْر المطعم بن عدى »[٢]

ومثله حـاتم الطائي[٣] وغـيرهم من كـرمـاء العرب ، لكنه قـال : ﴿ الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴿٧﴾ ﴾ [فصلت] لأن الإنسان عـادة يحب ماله ، والحق سبحـانه يقول : ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ ﴾[الحشر] لأن للإنسان مطالبَ كثيرة فى الحياة .

كان البيع والشراء تبادلاً عـينياً . يعنى : تعطينى سلعة ، وأعطيك مـقابلهـا سلعة أخـرى ، وقت لم يوجـد النقد بَعْـد تعطينى قـمحـاً ، وأعطيك تمراً مثلاً ، فكل شىء من هذه الأشـياء ثمن وسلعة ، فالقمح عندك سلعة ، والتمر عندى ثمن . فكل واحد منا بائع ومُشْترٍ .

لذلك قال تعالى فى قصة سيدنا يوسف : ﴿ وَقَالَ الَّذِى اشْتَرَاهُ مِن

---

(١) المطعم بن عـدى بن نوفل من قـريش رئيس بنى نـوفل فى الجاهـلية وقـائدهم فى حـرب الفجَـار عام ٣٣ ق. هـ ، وهو الذى أجار رسـول الله بعد أن آذاه أهل الطائف ، وكـان أحد الذين مزقوا الصحـيفة التى كتبتهـا قريش على بنى هاشم وقد كان كافراً ، مـات قبل وقعة بدر وله بضع وتسعون عاماً . توفى عام ٢ هجرية . [الأعلام للزركلى] .

(٢) مـا وجدته فى هـذا أن رسول الله ﷺ قـال : « لقـد كنت أستـظل بظل جفـنة عبـد الله بن جدعـان فى الـهاجرة » وفى لفـظ « صكـة عُمَىّ » . أورده ابن كـثير فى السيرة النبوية (١/١١٧) والسهيلى فى الروض الأنف (١/٢٤٤) .

(٣) هو : حاتم بن عبـد الله الطائى القحطانى ، أبو عدى ، فارس شاعر جـواد جاهلى . يُضرب المثل بجوده ، كـان من أهل نجد وزار الشام فتـزوج ماوية بنت حجر الغسـانية ، مات فى عـوارض جبل فى بلاد طىء عـام ٤٦ هجـرية . أخبـاره كـثيـرة متـفـرقة فى كـتب الأدب والتاريخ . [الأعلام للزركلى ٢/١٥١] .

مِصْرَ لامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ .. (٢١)﴾ [يوسف] فقال : اشتراه يعنى أخذه وقال عن الآخرين : ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ[1] دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ .. (٢٠)﴾ [يوسف] يعنى : باعوه . إذن هذه مبادلة ، كل واحد منهم بائع ومشترٍ فى نفس الوقت .

﴿الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٧)﴾ [فصلت] أم أن هذه كلمة عامة ، فبإشراكهم لم يأخذوا حكم الله فى الزكاة ، فلم يَعُدْ فيهم خير لبيئاتهم ولا لمواطنيهم ، لأن الله تعالى يريد من الإيمان أنْ ينشر الاستطراق العبودى فى البشر ، بأن يعين القوى الضعيف ، والصحيح يعين المريض ، والغنى يعين الفقير ، والعالِم يعين الجاهل .

ولكن أهم زاوية من زوايا الحياة هى زاوية استبقاء الحياة بالقوت ، والقوت يحتاج إلى المال ، لذلك الحق سبحانه وتعالى حين يتكلم فى هذه المسألة عن المؤلَّفة قلوبهم ، وهم قوم نريد أنْ نُرقق قلوبهم ناحية دين الله ، ونجذبهم إليه ليُحسنوا التمعن والاختيار ، لا أن نشتريهم للدين كما يدعى البعض .

ومن الطرق إلى هذه الغاية أنْ نحسن إليهم ، لذلك جعلهم الله تعالى مصرفاً من مصارف الزكاة ، ولما جعلهم الله مصرفاً من مصارف الزكاة وأعطاهم من مال الله لانتْ قلوبهم .

وحين تُحسن إلى شخص ماذا فعلتَ به ؟ أولاً نفضت عنه البغض ، وما دُمْتَ نفضتَ عنه البغض ، فلا ينظر إليك وهو كاره لك

---

(١) الثمن البخس : القليل الناقص عن مثله . [القاموس القويم ١/ ٥٦] . قال ابن منظور فى لسان العرب [مادة : بخس] : « جاء فى التفسير أنه بيع بعشرين درهماً ، وقيل باثنين وعشرين ، أخذ كل واحد من إخوته درهمين . وقيل : بأربعين درهماً » .

ولا حاقد عليك ، وعلى الأقل يسمع منك ، وهذا ما حدث للمؤلَّفة قلوبهم .

لذلك لما انتقل رسول الله ﷺ ارتد جماعة من العرب عن دين الله، لماذا ؟ أول شيء ارتدوا من أجله فريضة الزكاة ، ومن أجلها كانت حروب الردة ، لذلك سمعنا أن سجاح[1] مدعية النبوة ومسيلمة[2] أول ما قالوا في دعواهم قالوا : نسقط عنكم الزكاة . لينالوا بذلك الرضا عن نبوتهم المزعومة ، يريدون بذلك تخفيف التكاليف التي تشق على النفس .

وبعضهم قال : نسقط عنكم نصف الصلاة ، وكل مُخفف لشرع الله باطل وفيه إيذاء ، لأنه ينزل من منهج الله إلى منهج التخفيف ، والله سبحانه حين يريد التخفيف والتيسير يأتي بالتيسير من عنده سبحانه ، ومنهج الله لا يُستدرك عليه .

وفي شرع الله أحكام كثيرة تدل على هذا التخفيف ، كصيام المريض والمسافر ، وصلاة المريض والمسافر ، وغير ذلك كثير في الشرع ، فالله المشرِّع لك هو الذي يحدد لك التخفيف ، لا أنت ، وهو سبحانه أعلم بمدى المشقة التي تحتاج إلى تخفيف الحكم .

لذلك نسمع مَنْ يقول : نريد أنْ نُجدد الإسلام ، نقول : سبحان الله ، يا قوم اتقوا الله كيف نُجدد الإسلام ؟ وكيف نستدرك على

---

(١) هي سجاح بنت الحارث بن سويد التميمية من بني يربوع أم صادر ، متنبئة مشهورة ، ادعت النبوة بعد وفاة النبي ﷺ وكان لها علم بالكتاب أخذته عن نصارى تغلب ، فتبعها جمع من عشيرتها بينهم بعض كبار تميم ، فنزلت باليمامة فأقبل مسيلمة عليها في جماعة من قومه فتزوجها ثم انصرفت . توفيت ٥٥ هجرية . [الأعلام للزركلي] .

(٢) هو مسيلمة بن ثمامة الحنفي الوائلي أبو ثمامة ، متنبيء ولد ونشأ باليمامة بوادي حنيفة في نجد ، وتلقب في الجاهلية بالرحمن وعُرف برحمان اليمامة ، سماه رسول الله بـ (مسيلمة الكذاب) ، ألَّف كلاماً هزلياً ليعَارض به القرآن ، نحو قوله : إنَّا أعطيناك الوحواح . فصلِّ لربك وارتاح . إن شانئك هو العجل النطاح .

أحكام الله ؟ ونقول : يا شيخ جدِّد ما شئتَ فلن يلبس مسلم جديدك ، والعلة أن لباسَ التقوى من الخالق لا يَخْلَقُ حتى يُجدده مخلوق ، أريحوا أنفسكم .

لكن لماذا جعل الله تعالى من الناس الغنيَّ والفقير المحتاج ؟ لماذا لم يجعلهم جميعاً فى سَعَة ولا داعى للزكاة إذن ؟ قالوا : لأن الله تعالى يريد أنْ يُشيع بين خَلْقه التراحم والتوادّ ، وحين يجد الفقير الغنى لا يتكبر عليه بغناه ، بل يأتى إليه ويطرق عليه بابه ، ويعطيه حقه فى مال الله ، ساعتها يحبه ويحب له الخير والمزيد ولا يحقد عليه ، ولا يتمنى زوال النعمة من بين يديه .

إذن : حين تعطى إنما تستل الغضب والحقد من النفوس ، فتجعل مالك عُرْضة للمزيد . والحق سبحانه قادر على أنْ يجعل الناس جميعاً أغنياء ، إنما الحكمة فى أن يوجد الغنى والفقير ، وأن تتداول هذه المسألة ، فقد لا يدوم للغنى غنَاه ، ولا يدوم للفقير فقره ، فالأحوال تتقلب ، بحيث يرتبط كُل بكُلٍّ ارتباطَ محبة ومودة ، والارتباط هنا ليس ارتباطَ تفضل ، إنما ارتباط حاجة .

إننا لو تخرَّجنا جميعاً فى الجامعة ، فمَنْ يكنس الشارع ، ومَنْ يقود السيارة ، ومَنْ يصنع لنا كذا وكذا ؟ تقول : يمكن أنْ نتفق على أن يقوم كلٌّ منا بعمل فى يوم محدد .

نقول : نعم لكن يكون العمل هنا تفضُّلاً ، والتفضل لا يلزم أحداً إنما تلزمه الحاجة ، والله يريد أن ترتبط مصالح الناس بالحاجة ، ولذلك تجد الرجل يعمل العمل الشاقّ ، وربما فيه أذى ، قد لا تتحمله أنت ، وقد ترى هذا العمل حقيراً ، فما الذى حمله عليه ؟ حملته

الحاجة ، وألجأته إليه ضروريات الحياة ، وأكْل العيش ومسئولية الأسرة والأولاد ، وإلا ما أهان نفسه هكذا .

ووالله لقد شاهدنا فى بيت واحد رجلاً يعمل (صرماتى) ، وأخاه يبيع العطور ، وتأمل ماذا يشم كل واحد منهما .

وكان سيدنا الشيخ موسى رضى الله عنه كثيراً ما يدعو ويقول : اللهم أفقر الصنَّاع وأغْنِ العلماء ، وكنا نغضب من هذا الدعاء ونقول له : ماذا تقول يا سيدنا ؟ كيف ذلك ؟ فيقول : والله لو افتقر العلماء لزلُّوا فى الفتوى ، ولو اغتنى الصناع لما انتفعنا منهم بشىء .

نعم رأينا فعلاً العامل إنْ كان فى جيبه عشرة جنيهات قعد عن العمل حتى يصرفها . إذن : لا بدَّ من الحاجة لتُقضَى مصالح الخَلْق .

الحق سبحانه وتعالى جعل استطراق المال فى المجتمع أهمَّ قضية فى الإسلام ، لذلك جعلها من أركان الإسلام ، فالحق سبحانه لم يعْفِ أحداً من أنْ يمدَّ يد الاستطراق الاقتصادى للغير ، إنْ كان واجداً يبذل ، وإنْ كان غير واجد مالاً فليجد مقالاً ينصح به مَنْ يجد .

قال تعالى : ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ .. (٩١)﴾ [التوبة]

فإذا لم يكُنْ لديه المال ولا المقال الذى يُرقِّق به القلوب ، فلا أقلَّ من أنْ يفعل ذلك فى ذاته : ﴿وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ.. (٩٢)﴾ [التوبة] أى فى الجهاد ﴿قُلْتَ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ (٩٢)﴾ [التوبة]

وهذه هى المرحلة الثالثة : إنْ كان واجداً فليبذل ، وإنْ كان غير

واجد فليبذل المقال الذى يُرقِّق به قلوب الواجدين ، وأخيراً إذا لم يجد هذا ولا هذا يحزن فى نفسه أنه لا يجد ، فنفسه تتوق للبذل لكنه لا يجد ، ويصل به الوَجْد فى هذه المسألة إلى أنه يبكى ألماً وحزناً لشوقه إلى العطاء .

هذا كله لاستطراق المال والاقتصاد فى المجتمع الإسلامى لأنه عَصَبُ الحياة وبه تُسْتبقى الحياة ، وبه يكون القوت .

وقوله سبحانه : ﴿وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٧)﴾ [فصلت] يعنى : كفروا فى البداية حين أشركوا بالإله الواحد ، وكفروا فى النهاية بالآخرة ، كفروا فى المنبع والمصب .

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٨)﴾

ذِكْر المقابل سمَة من سمات الأسلوب القرآنى ، فبعد أنْ ذكر المشركين ذكر بعدهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، فلم يترك المسألة هكذا عائمة ، بل وضع أمامك الصورتين لتقارن أنت وتحكم كما فى : ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ (١٤)﴾ [الانفطار]

وقال ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً .. (٨٢)﴾ [التوبة]

ذلك لتتم المقارنة فى وقتها .

معنى ﴿مَمْنُونٍ (٨)﴾ [فصلت] أى : غير منقطع ، أو (ممنون) يعنى : لا يمتن به عليهم ، كما فى ﴿وَإِنَّ لَكَ لأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ (٣)﴾ [القلم] وفيها ملحظ آخر أن الذى يعمل عملاً صالحاً ، ثم تُعجزه

أموره عن عمله يقول الله له : العجز فيك منى ، ولذلك سأعطيك أجر ما كنت تعمله أولاً ، ويظل لك أجره إلى يوم القيامة ، هذا معنى ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ ⑧﴾ [فصلت]

﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ⑨ ﴾

انتقل السياق هنا إلى النظر فى آيات الكون ، لأنها هى الوسيلة للإيمان بالمكوِّن سبحانه ، فالكون كَوْن عجيب بديع مُتقن فى نظامه وفى هندسته ، هذا النظام مُستقر لا يتخلف ولا يطرأ عليه ما يُخرجه عن هذا الإتقان ، فإنْ أردتَ أنْ تُرقِّق قلوب الناس فذكِّرهم بالآيات الكونية الطبيعية التى لا دخْلَ للإنسان فيها .

لذلك نجد كثيراً فى القرآن : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ .. ㉜﴾ [الشورى]

وهنا يحدثنا عن الخلق الأول وبداية نشأة هذه الأرض ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ .. ⑨﴾ [فصلت] والهمزة هنا أفادتْ الاستفهام الإنكارى الذى ينكر عليهم كفرهم بالخالق سبحانه ، وكأنه يقول لهم : إن هذا العمل منكم معلوم لنا وهو لا يجوز ، فيريد سبحانه أنْ يلفتهم إلى المقابل .

ثم لم يكتفوا بالكفر بالخالق بل ﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا .. ⑨﴾ [فصلت] يعنى : شركاء . مع أنهم يعلمون أنه سبحانه الخالق وحده ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ㊲﴾ [الزخرف] ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ ㉕﴾ [لقمان]

هكذا يعترفون بها عندما يغيب عنهم اللَّدد والعناد .

وقوله : ﴿ فِي يَوْمَيْنِ .. ﴿٩﴾ ﴾ [فصلت] أى : اليوم المعروف لنا ، واليوم عندنا من الوقت إلى مثله ، ويشمل الليل والنهار لأن الله يخاطبنا بما نعرفه ﴿ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا .. ﴿٩﴾ ﴾ [فصلت] شركاء لم يخلقوا شيئاً ﴿ ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ ﴾ [فصلت] أى : هذا الذى تجعلون له أنداداً هو ربُّ العالمين ، وهو ربُّ العالمين بإقراركم أنتم ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. ﴿٢٥﴾ ﴾ [لقمان]

﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِيٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ ﴾

تكلم الحق سبحانه عن خَلْق الأرض ، وأخبر أنه خلقها فى يومين ، فهل معنى هذا أن خَلْق الأرض استغرق مُدَّة يومين بيومنا نحن ؟ لا ، إياك أنْ تظنَّ أن خَلْق الأرض استغرق يومين ، أو أنه كان معالجة تحتاج إلى وقت .

فالمسألة كما تقول مثلاً : أريد أنْ أصنع الزبادى عندى فى البيت ، فأقول لك : هات اللبن وضَعْ عليه المادة المعروفة لعمل الزبادى ، ثم اتركه فى درجة حرارة معينة لمدة معينة ، وبعدها يصير اللبن زبادى بعد عدة ساعات مثلاً ، فهل يعنى هذا أن صناعة الزبادى استغرقتْ منك عدة ساعات ؟ لا بل دقائق أعددتَ فيها المادة وتركتها تتفاعل لتصبح زبادى .

مثلاً حين تذهب للخياط ليخيط لك ثوباً ، يقول لك : تعالَ خُذْه بعد أسبوع ، فهل استغرق الثوب فى يده أسبوعاً ؟ كذلك مسألة الخَلْق هذه .

وبعد أنْ خلق اللهُ الأرض جعل فيها الرواسى ، وهى الجبال الراسية الثابتة المستقرة ، والتى بها تستقر الأرض ، كما قال سبحانه : ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾﴾ [النبأ] ولو أن الأرضَ مستقرةٌ بطبيعتها ما احتاجتْ إلى الجبال ، إذن : دلَّتْ الرواسى على أن الأرض تدور ، فهذا دليل على دوران الأرض .

﴿وَبَارَكَ فِيهَا .. ﴿١٠﴾﴾ [فصلت] قلنا : البركة أنَّ الشىء يعطى من الخير فوق مظنَّة حجمه وفوق المنتظر منه ، كأن تجدَ الطعام مثلاً الذى تظنه يكفى خمسة يكفى لعشرة فتقول : فيه بركة .

وقوله ﴿وَبَارَكَ فِيهَا .. ﴿١٠﴾﴾ [فصلت] فى أى شىء ؟ فى الأرض حيثُ ذُكرت أولاً ؟ أم فى الجبال وهى آخر مذكور ؟ قالوا ﴿وَبَارَكَ فِيهَا .. ﴿١٠﴾﴾ [فصلت] أى : فى الرواسى ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا ..﴿١٠﴾﴾ [فصلت] أى : فى الجبال أيضاً .

وقد أثبت الواقع ذلك ، وأثبت العلم أن الجبال هى مصدر الخير لباقى الأرض ، ومنها عناصر الخصوبة والغذاء الذى لا بدَّ منه لبقاء حياة الكائن الحى ، ومعلوم أن العناصر فى التربة تنقص وتحتاج إلى مَدَد وتجدُّد من حين لآخر .

وهذا ما يحدث فعلاً ، حين يسقط المطر على الجبال فيفتت قشرتها ، ويحمل السيل هذا الفتات ويسير به ليوزعه على الأرض

المسطحة المنزرعة ، كما فى طمى النيل زمان وقبل بناء السد العالى ، هذا الطمى من أين جاء ؟ من منابع النيل فى أعلى الجبال .

وكنا نرى ماء النيل مثل الطحينة ، ويظل كذلك إلى المصبِّ فى البحر المتوسط ، ومن هذا الطمى نشأتْ الدلتا ، فالبحر كان يمتد حتى دمياط ، والآن انظر لما بين دمياط ورأس البر مثلاً .

كذلك الحال فى الوديان حول الجبال ، حيث تؤثر عوامل التعرية فى القشرة الخارجية من الجبال ، ويجرفها السيل إلى الوديان ، فتجدد التربة وتزداد خصوبتها ، فكأن الجبال بالفعل مخازن قوت البشر ، لذلك قال عنها ﴿وَبَارَكَ فِيهَا .. (١٠)﴾ [فصلت]

وتأمل أيضاً الحكمة والهندسة الكونية العالية ، فالجبل قاعدته أسفل وقمته أعلى على عكس الوادى بين الجبلين ، فرأس المثلث فيه إلى أسفل وقاعدته إلى أعلى ، وكلّ عام يأتى المطر ليأخذ من قمة الجبل ويعطى لقاعدة الوادى ، وكأنه تجدد واتساع للوادى يناسب الزيادة البشرية .

فالله تعالى يعطى من نعمه على قدر الزيادة التى تخيفنا الآن ، يعنى : اطمئنْ فالرزق عند الله مضمون ؛ لذلك قال بعدها ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا .. (١٠)﴾ [فصلت]

هذه المراحل : ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا .. (١٠)﴾ [فصلت] جاءت فى ﴿أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ .. (١٠)﴾ [فصلت] هذه الأربعة أيام ﴿سَوَاءً .. (١٠)﴾ [فصلت] أى : أيام متساوية ﴿لِّلسَّائِلِينَ (١٠)﴾ [فصلت] أى : الطالبين للرزق .

أو ﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ .. (١٠)﴾ [فصلت] يعنى : فى تتمة أربعة أيام

﴿سَوَاءً .. (١٠)﴾ [فصلت] أى : استوت وتمتْ . وحين نضيف هذه الأربعة أيام ، إلى اليومين السابقين تعطينا ستة أيام هى مجمل خلق السماوات والأرض فى ستة أيام ، كما قال سبحانه فى موضع آخر : ﴿الَّذى خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ .. (٥٤)﴾ [الأعراف]

بعد ذلك يتكلم سبحانه عن خَلْق السموات على وجه التفصيل ، فيقول : ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١)﴾ [فصلت]

كلمة ﴿اسْتَوَىٰ .. (١١)﴾ [فصلت] عملت معارك بين العلماء ، ولما حصرنا مادة استوى فى القرآن الكريم وجدنا أنها وردتْ اثنتا عشرة مرة ، سبعة منها فى الاستواء على العرش واثنتان للسماء وللأرض ، هذه الآية التى معنا ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِىَ دُخَانٌ .. (١١)﴾ [فصلت] وواحدة فى البقرة : ﴿فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَـٰوَاتٍ .. (٢٩)﴾ [البقرة]

هذه تسعة ، ويبقى ثلاثة مواضع ، واحد خاص بالوحى فى قوله تعالى عن جبريل : ﴿ذُو مِرَّةٍ[1] فَاسْتَوَىٰ (٦)﴾ [النجم] يعنى : بلغ مداه .

وواحدة فى موسى : ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ (١٤)﴾ [القصص] يعنى : بلغ سنَّ الرشد .

وواحدة فى التمثيل لهذه الأمة فى الإنجيل ، قال تعالى : ﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا

---

(١) ذو مرّة : ذو قوة . المرّة : القوة والشدة . [اللسان - مادة : مرر] وقاله مجاهد والحسن وابن زيد . وقال ابن عباس : ذو منظر حسن . وقال قتادة : ذو خَلْق طويل حسن . ولا منافاة بين القولين فإنه عليه السلام ذو منظر حسن وقوة شديدة . [تفسير ابن كثير ٤/٢٤٧] .

﴿ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ[1] فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ .. (٢٩) ﴾ [الفتح]

هذه صورة أمة محمد فى التوراة ، فهم قوم أشدَّاء على الكفار رحماءُ على المؤمنين ، وهم رُكَّع سُجَّد لهم سيمة وعلامة يُعرفون بها ، وهذه كلها قِيَمٌ معنوية لم يأت فيها شىء مادى ، ذلك لأن اليهود كانوا يؤمنون بالماديات ، حتى أنهم أرادوا أنْ يخلعوا الماديات على الخالق الأعلى ، لذلك قالوا لموسى عليه السلام : ﴿ أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً .. (١٥٣) ﴾ [النساء]

أما مثلُهم فى الإنجيل فلم يأتِ بقيم ولا روحانيات ، إنما جعله مثلاً مادياً بحتاً ، لماذا ؟ لأن المسيحية كلها مواجيدُ دينية روحية ، ليس فيها شىء من مادة الأرض ، لذلك سُئل سيدنا عيسى عن مسألة ميراث . فقال : لم أُرسَل مُورِّثاً .

لذلك جاء مثل أمة محمد عنده مثلاً مادياً ، فالمثل عند اليهود جاء روحانياً لأنها مفقودةٌ عند اليهود ، وجاء مادياً لأن المادية مفقودة عند النصارى ، فقال : ﴿ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ[2] فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ .. (٢٩) ﴾ [الفتح] هذا مثَلٌ مادى صِرْف ، فالمثل المادى مفقود فى المسيحية ، والعنصر الروحى مفقود فيما اتخذه اليهود ، فجاء الإسلام ليجمع بين العنصرين معاً فى دين واحد .

---

(١) السيما : العلامة . سيماهم فى وجوههم : أى علامة إيمانهم نور فى وجوههم . [القاموس القويم ٢/٣٣٧] .

(٢) شطء الزرع : ما خرج وتفرَّع منه من ورق وأغصان وفروع . [القاموس القويم ١/٣٤٨] . فآزره : فقوَّاه . قال فى اللسان (مادة أزر) : أى آزر الصغار الكبار حتى استوى بعضه مع بعض .

هذه اثنتا عشرة موضعاً ذُكرتْ فيها مادة الاستواء ، وكان الخلاف بين العلماء فى المواضع السبعة التى تتكلم عن الاستواء على العرش ، وهذه المواضع السبع فى سبع سور جمعها الناظم فى قوله :

فَفِى سُورَةِ الأعْرَافِ ثمَّةَ يُونُسٌ   وَفِى الرعْدِ مَعْ طَهَ فَللعدِّ أكِّدْ
وَفِى سُورَةِ الفُرْقان ثُمةَ سَجدةٌ   كَذَا فِى الحدِيدِ فَافهَمُوا فَهْمَ مُؤيِّد

كلمة ﴿اسْتَوَىٰ .. (١١)﴾ [فصلت] إنْ كانت للعرش يقول : استوى على ، وإنْ كانت للسماء قال : استوى إلى ، البعض فَهمَ استوى على أنه كاستواء المخلوق على الكرسى فوقعوا فى التشبيه والتجسيم ، أما استوى إلى السماء يعنى : قصدها وتوجَّه إليها بإرادته سبحانه .

ذلك لأن العرش فى الموجودات سمة التمكُّن من الحكم واستتباب الأمر للحاكم ، فالحاكم إنْ كان عليه مشاغبات لا يستقر على العرش ولا يستتب له أمر الملْك إلا إذا دَانَ له الجميع وخضعوا .

لذلك قال فى بلقيس[1] : ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣)﴾ [النمل] يعنى : استتبَّ لها الأمر ، فكلمة (استوى على العرش) دلتْ على أن الكون كله استجاب له وانقاد لأمره دون منازع ؛ لذلك قال هنا عن السماء والأرض ﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١)﴾ [فصلت]

وللعلماء فى الاستواء عدة مقالات جمعها الناظم فى قوله :

وَلَهُمْ مَقَالاَتٌ عَليْهَا أرْبَع   قَدْ حُصِّلَتْ للفَارسِ الطّعَّانْ

---

(١) بلقيس : هى ملكة سبأ ، أرسل لها النبى سليمان الهدهد برسالة يدعوها للتوحيد ، وكانت بلقيس وشعبها يعبدون الشمس ، وهى من بنى يعفر بن سكسك من حِمْيَر ، يمانية من أهل مأرب ، دفنت بتدمر . [الأعلام للزركلى ٢/٧٣] .

وَهْيَ اسْتَقرَّ وَقَدْ عَلاَ وكَذاكَ   قَدْ صَعَدَ الذى هُوَ رابِعْ

فالمعنى هنا ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ .. ⑪﴾ [فصلت] أى : قصدها وتوجَّه إليها بإرادته تعالى ، واستوى على العرش يعنى : استقر له الأمر واستتبَّ ، لأن كل الوجود استجاب له وانقاد ، فلما قال للأرض وللسماء : ﴿ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ⑪﴾ [فصلت]

لذلك قلنا : إن الحق سبحانه لم يُقبل على قوله (كُنْ) إلا لعلمه تعالى أن شيئاً من مُلْكه لن يتخلف عن الاستجابة لأمره ؛ لذلك قال ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ[1] ②﴾ [الانشقاق] يعنى : فقط تسمع النداء فتستجيب فوراً ، لذلك شهد الله لذاته بذلك : ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ .. ⑱﴾ [آل عمران] وبشهادته سبحانه لنفسه أنه لا إله إلا هو قال لكل شيء : كُنْ فكان . وبعد ذلك شهدتْ الملائكة ، وشهد أولو العلم .

وقوله : ﴿وَهِيَ دُخَانٌ .. ⑪﴾ [فصلت] أى : على هيئة الدخان الذى يسميه العلماء السَّديم[2] ، والمراد أن الكون كان على هيئة غازية ، ومن هذه المادة الغازية تكوَّنت الأرض والصخور والجبال . وبعد أنْ تكوَّنتْ السماء والأرض أمرهما الخالق سبحانه ﴿ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا .. ⑪﴾ [فصلت] فكان الردّ ﴿أَتَيْنَا طَائِعِينَ ⑪﴾ [فصلت]

---

(١) حق الأمر : ثبت ووجب . وحقَّ له : ثبت له . (حقت) : أى كان حقاً ثابتاً عليها أن تخضع لأمر الله . [القاموس القويم ١/١٦٤] .

(٢) السديم : تجمعات مضيئة وكثيفة نسبياً ، وهناك سدم متشتتة تظهر على شكل سحابات غير منتظمة أو ضباب دقيق ، وسدم كوكبية منتظمة ، وسدم مجرِّية تكون فى الغالب غازاً وغباراً . [الموسوعة الفلكية – تأليف فايجرت ، تسمرمان – الهيئة العامة للكتاب – ص ٢١٠] .

وهذا الرد دَلَّ على سرعة الاستجابة للأمر ، وعلى انقياد الكون كُلِّه لخالقه تعالى ﴿أَتَيْنَا طَائِعِينَ ⑪﴾ [فصلت] وهل نملك المخالفة ، ولماذا نأتى كارهين ؟ هذا يعطيك دليلاً على انقياد الكون لله ، لأنه ليس له هَوىً فى نفسه يُغير الموقف ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. ㊹﴾ [الإسراء]

أما الإنسان فكلٌّ له هَوىً ، لذلك جاء فى الحديث الشريف : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعٌ لما جئتُ به »(١) وما دام سيكون هواك تبعاً لما جاء به النبى ، وأنا هواى تبعٌ لما جاء به النبى ، فالهوى إذن واحد ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَٰوَاتُ وَالْأَرْضُ .. ㊼﴾ [المؤمنون]

﴿أَتَيْنَا طَائِعِينَ ⑪﴾ [فصلت] هذا كلام السماء والأرض ، وكان القياس أنْ يقول : طائعيْن بالمثنى إنما قال ﴿طَائِعِينَ﴾ [فصلت] بصيغة الجمع . والسماء والأرض مؤنَّث ، فكان القياس أنْ يقول : طائعات . إذن : خالف فى أمرين ، لماذا ؟ قالوا : لأن الشىء يكون مفرداً لكنه تحته . فإذا نظرتَ إلى المفرد جئتَ بالمفرد ، وإذا نظرتَ إلى ما تحته جئتَ بالجمع .

قال تعالى : ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا .. ⑨﴾ [الحجرات] فلم يقل : اقتتلتا بالمثنى المؤنث ، إنما ﴿اقْتَتَلُوا .. ⑨﴾ [الحجرات] لأن أمر القتال راجعٌ إلى رؤساء كل طائفة ، هم الذين يقررون القتال أو عدم القتال ، وساعةَ القتال لا يمسك كل فريق بسيف واحد يقاتل به الفريق الآخر ، إنما يمسك كلُّ فرد بسيفه .

---

(١) أخرجه ابن أبى عاصم فى كتاب السنة (١٢/١) من حديث عبد الله بن عمرو ، وأورده ابن رجب الحنبلى فى « جامع العلوم والحكم » (ص ٤٦٠) وضعَّفه .

فالطائفة هنا مفرد تحته جمع ، فقال في القتال ﴿ اقْتَتَلُوا .. ⑨ ﴾ [الحجرات] لكن عند الصلح قال : ﴿ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا .. ⑨ ﴾ [الحجرات] لأن أمر الصلح لا يكون مع أفراد الجيش ، إنما يكون مع القادة لكل طائفة الذين يُصرِّفون الأمر حرباً أو سلْماً .

﴿ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ⑫ ﴾

قوله ﴿ فَقَضَاهُنَّ .. ⑫ ﴾ [فصلت] أي : جعل السماء وأبدعها وخلقها ﴿ سَبْعَ سَمَـٰوَاتٍ .. ⑫ ﴾ [فصلت] في مدة (يومين) حين نجمع هذين اليومين إلى الستة أيام السابقة تعطينا ثمانية أيام ، إذن : خَلْق السماء والأرض كان في ثمانية أيام ، لا في ستة كما قالت الآية .

هذا جعل بعض المستشرقين يظنون هنا مأخذاً وتناقضاً في كلام الله ، ولكن حاشا لله أن يكون في كلامه تناقض ، لأن الإجمال ستة والتفصيل ثمانية ، وحين تجد إجمالاً وتفصيلاً ، فالتفصيل حجة على الإجمال لأنها أيام متداخلة ، كيف ؟

قالوا : لأن الله تعالى خلق الأرض في يومين ، ثم جعل فيها رواسيَ ، والرواسي من الأرض ، وبارك فيها وقدَّر فيها أقواتها ، هذا كله في الأرض ، فحين يقول ﴿ فِى أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ .. ⑩ ﴾ [فصلت] أي : في تتمة أربعة أيام .

فمُجمل خَلْق الأرض في أربعة أيام ، فاليومان الأولان داخلان في

الأربعة أيام . كما تقول مثلاً : سرْتُ إلى طنطا فى ساعتين ، وإلى الإسكندرية فى أربع ساعات ، فالساعتان الأُوليان داخلتان فى الأربع .

إذن : خلق الله تعالى الأرض بما فيها من الرواسى فى أربعة أيام ، فإذا أضفنا يومين فى خَلْق السماء كان المجموع ﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ .. (٥٤)﴾ [الأعراف]

وقوله : ﴿وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا .. (١٢)﴾ [فصلت] أى : جعل فيها ودبَّر فيها أمرها . يعنى : بيَّن مهمتها وما فيها من وجوه الخير ، ومَن الرسول الذى سيكون فيها .. الخ وبيَّن مهمتها التى تقوم عليها فى هداية حركة الحياة .

﴿وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ .. (١٢)﴾ [فصلت] وهى الكواكب والنجوم التى تضىء فى السماء كالمصابيح ومنها الشمس والقمر ، وتجد أن نور الشمس غير نور القمر ، نور الشمس يُسمَّى ضياءً . يعنى : نور مع حرارة أما القمر فلَه نور فقط ، لذلك يُسمُّونه النور الحليم ، لأنه خَال من الحرارة ، لذلك قال تعالى : ﴿هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا .. (٥)﴾ [يونس]

وقال : ﴿سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا (٦١)﴾ [الفرقان]

وقوله : ﴿وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا .. (١٢)﴾ [فصلت]

السماء الدنيا هى السماء التى نباشرها نحن ونرى فيها النجوم ، والمصباح يُقاد من ضوء الشمس حين ينعكس ، فيعطى ضوءاً هادئاً نسميه (ضوء حليم) يعنى : لا حرارة فيه .

والحق سبحانه الذى خلق الخَلْق وهو أعلم بما يُصلحه علم أن له زمنين : زمناً للكدح والحركة ، وزمناً للراحة والسكون ، فالليل للسكون ، والنهار للحركة ، ولا يمكن أنْ تتحرك حركة قوية رشيدة

إلا إذا كنتَ قد استوفيتَ أولاً نوماً هادئاً ، وإلا من لم ينم ويسترح لا يقدر على العمل فى الصباح ، لكن بعض الحركات لا تكون إلا ليلاً .

لذلك جعل لنا الخالق سبحانه ضوءاً يهدينا فى ظلمة الليل مثل الونَّاسة كما نقول ، فلا يمكن أن يتركنا فى ظلمة نتخبط فيها ، فنحطم الأضعف منا ، أو يُحطمنا الأقوى .

لذلك قال سبحانه عن النجوم : ﴿ وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (١٦) ﴾ [النحل] الحق سبحانه صنع ذلك لتصويب حركة الحياة ، لأن الله خلق الخليفة آدم ، وأمره أنْ يعمر الأرض ، يعمرها بما أعطاه الله من مادة وعقل يختار بين البدائل ، وبما أعطاه الله من جوارح تنفذ مرادات العقل ، فأراد سبحانه أن يضمن سلامة الكون مع نفسه ، هذا فى المادة .

وللنجوم مهمة أخرى فى القيم ، قبل بعثة رسول الله .

وقال تعالى : ﴿ وَحِفْظًا .. (١٢) ﴾ [فصلت] وفى موضع آخر قال : ﴿ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ (٧) ﴾ [الصافات] فقد كان الجنُّ يتسمَّع إلى الملأ الأعلى فى السماء ، فيأخذ شيئاً من أمور الخَلْق يسمعها من الملائكة وينزل بها إلى الكهنة ، فيخبرون الناس بها على أنهم يعلمون الغيب ، وفعلاً تصدُق هذه الأخبار فيظن الناس أنهم يعلمون الغيب ، ويأتى الكاهن بالشىء الصادق صدفة ، ومعه أشياء كثيرة كذب[1] .

---

(١) عن عائشة رضى الله عنها قالت : سأل رسولَ الله ﷺ ناسٌ عن الكهان . فقال : ليس بشىء فقالوا : يا رسول الله إنهم يحدثونا أحياناً بشىء فيكون حقاً ، فقال رسول الله ﷺ : « تلك الكلمة من الحق يخطفها من الجنى فيقرها فى أذن وليه فيخلطون معها مائة كذبة » أخرجه البخارى فى صحيحه (الكهانة) .

كان هذا قبل بعثته ﷺ ، لكن لما جاء سيدنا رسول الله حفظ الله السماء من استراق السمع ، لذلك قال : ﴿ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا ۝ ﴾ [الجن]

لذلك رأينا أن العرب كانوا يحتكمون إلى الكهَّان ويُصدِّقونهم ، يُرْوَى أن هنداً[١] امرأة أبى سفيان كانت قد تزوجتْ قبله رجلاً اسمه الفاكه بن المغيرة[٢] وكان سيداً من سادات قريش ، وبيته مفتوح للقوم يأتيه كل محتاج لشىء ، يقولون : اذهبوا إلى الفاكه ، لأن بيته كان قريباً من نادى القوم .

وفى يوم من الأيام نزلتْ هندٌ تباشر أمورَ بيتها ، فوجدتْ رجلاً نائماً فى ساحة البيت فرجعتْ ، وفى هذه اللحظة دخل الفاكه ورأى الرجل النائم فداخله الشَّكّ فى امرأته ، فقال لها : الزمى بيت أبيك فذهبت إلى أبيها عتبة ، وشاع عند العرب أن الفاكه اتهم امرأته بكذا وكذا .

جاء أبوها عتبة وقال للفاكه : يا فاكه لقد جُنَّتْ ابنتى ، يعنى : رُميتْ بشىء ، ولا أرى إلا أنْ نحتكم إلى الكاهن ليقضى لنا فى هذه المسألة ، فاجمع من رجالك ومن نسائك مَنْ شئتَ ، وتكون ابنتى فى وسطهم ، ونذهب إلى الكاهن ونسأله .

---

(١) هند بنت عتبة : صحابية قرشية من بنى عبد شمس أسلمت بعد فتح مكة ، زوجة أبى سفيان وأم معاوية ، أمضت أول حياتها كافرة تتآمر على قتل النبى ، وهى التى حرضت وحشياً على قتل حمزة عم رسول الله ، أسلمت فى العام الثامن من الهجرة ، توفيت عام ١٤ هجرية ، فى خلافة عمر بن الخطاب .

(٢) الفاكه بن المغيرة : أحد الفصحاء المقدَّمين من قريش فى الجاهلية ، كان نديماً لعوف بن عبد عوف الزهرى (أبى عبد الرحمن) وهو عم خالد بن الوليد ، عَدَّه ابن حبيب فى « أشراف العميان » وقال : قُتِل بالغميصاء .

كانت هند امرأة عاقلة ، فقالت : يا أبى إنك تأتى إلى بشر يخطئ ويصيب ، وربما رمانى بشىء ليس فىَّ ، فتظل سُبَّة لى وسُبَّة لك ، فقال لها : اطمئنى فأبُوك ليس أحمقَ إلى هذا الحدِّ ، ولن أعرض أمرك عليه إلا إذا أخبرنى بالخبىء الذى خبَّأته له ، وقبل أن يصلَ إلى الكاهن ، وكان يركب مُهْراً فنزل فى خلاء وصفر للمهر فأدلى المهر متاع مائه ، ففتح عتبة فتحة متاع المهر ووضع فيها حبة قمح ، ثم ركبه إلى الكاهن .

ثم قال له : لن أعرض عليك أمرى حتى تخبرنى بخبء خبأته لك . قال له الكاهن : حبة بُرٍّ فى إحليل مُهْر . قال : أعد ، قال : بُرَّة فى كمرة ، فأخبره عتبة بأمر ابنته وهى فى وسط النساء فمرَّ الكاهن يمسك برؤوس النساء واحدة بعد الأخرى حتى وصل إلى هند وتوقَّف عندها ، ولم يكلم الأخريات ، وعند هند قال لها : قومى غير رسحاء[1] ولا زانية ، وستلدين ملكاً اسمه معاوية[2]

هذ أخبار صَحَّتْ ، وهى من استراق السمع لا تدلُّ أبداً على معرفة الكاهن للغيب . فلما برئتْ هندٌ وارتفعتْ رأسها بين القوم أراد الفاكه أنْ يتمحك فيها ، يعنى : عفا الله عما سلف ، وهيا بنا إلى البيت ، فقالت له : والله لقد غرَّك مُلْك معاوية ، ولأحرصنَّ أن يكون من غيرك .. اذهبْ عنى ، وبعدها تزوجتْ أبا سفيان وولدتْ له معاوية .

أنهى الله هذه المسألة لأن رسول الله ﷺ لا يمكن أنْ يسترقَ

(١) الرسحاء : القبيحة من النساء . [لسان العرب - مادة : رسح] .
(٢) أورد هذه القصة أبو الفرج الأصبهانى فى كتابه (الأغانى) فى باب ذكر مسافر بن أبى عمرو ونسبه ، خبر طلاق هند من الفاكه . وأورده كذلك ابن حمدون فى (التذكرة الحمدونية) الباب ٣٦ فى الكهانة . وفيه أن الكاهن قال لهند : انهضى غير خساء ولا زانية ولتلدن ملكاً اسمه معاوية .

شيطانٌ سمعاً بعد بعثته ﷺ ، يقول تعالى : ﴿ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ .. ﴿٩﴾ ﴾ [الجن] يعنى : قبل البعثة ﴿ فَمَن يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ ﴾ [الجن] وبذلك حمى الله منهجَ السماء أنْ تُدنِّسه شهوات الشياطين .

﴿ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ ﴾ [فصلت] العزيز الذى لا يُغلَب ، وما دام لا يُغلَب ، فلن يستطيع شيطانٌ أن يسترق السمع ، ويأخذ شيئاً من الأخبار ، وهو سبحانه عليم بمصالح الخلق .

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ ﴾

أعرضوا ، يعنى بعد كل هذه الآيات ، وبعد أنْ أقرُّوا هم بأنه سبحانه خالقهم وخالق السموات والأرض ، خاصة وهذه مسألة لم يدَّعها أحدٌ لنفسه ، فما دام أن مسألة الخَلْق هذه لم يدَّعها أحد فقد سَلِمتْ لله وحده ، لذلك قال تعالى : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ .. ﴿١٨﴾ ﴾ [آل عمران] شهد الله لنفسه وأعلنها ، فهل اعترض أحد عليها ؟ لم يعترض أحد .

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا .. ﴿١٣﴾ ﴾ [فصلت] بعد هذه الآيات الواضحات ﴿ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ ﴾ [فصلت] الإنذار يكون بشيء مخيف مُروِّع قبل حدوثه ، لا بعد أن يكون حدوث المُنذَر به ليُجْدى الإنذار ونحتاط له ، فلو وقع الأمر المروّع لم يُجْدِ الإنذار به .

كذلك قلنا فى البشارة بالأمر السَّارّ قبل أوانه لنقبل عليه ، إذن : البشارة والنذارة لا بدَّ أنْ يكون كل منها قبل الحدث المبشَّر به أو المنذَر به .

فقل يا محمد للذين كذَّبوا بآياتنا : ﴿أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ (١٣)﴾ [فصلت] أنذرتكم أى الحق سبحانه هو المنذر ، وهو سبحانه عزيز لا يُغلب ، وما دام أنذر بشىء فلا بدّ أنْ يقع وأنْ يتحقق .

وقوله : ﴿صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ (١٣)﴾ [فصلت] يعنى : المسألة ليستْ كلاماً ، إنما واقع حدث بالفعل وسوابق ، كما حدث مع عاد وثمود وأنتم على علم بها وتشاهدون آثار هؤلاء .

هنا كان عتبة بن ربيعة ، وهو سيد من سادات قريش حينما أسلم سيدنا عمر وأسلم حمزة والعباس ، قال صناديد الكفر : إن أمر محمد فى اتساع ، فلا بدَّ أنْ نتدارك الأمر ونحدد موقفنا منه لنمنع هذا الاتساع ، فعلينا أن نختار واحداً منا على علم واسع باللغة والشعر ، وكاهناً يجيد أساليب الكهان ، وكذلك يكون ساحراً ، يعنى : يجيد كل ما نتهم محمداً به .

فقال عتبة : أنا أعلم الناس بكل ذلك فدَعُونى أذهب إلى محمد ، فلما ذهب إلى سيدنا رسول الله ﷺ قال له : يا محمد أنت خير أم جدُّك هاشم ؟ أنت خير أم جدّك قصى ؟ أنت خير أم جدّك عبد المطلب ؟ هؤلاء لم يُسفِّهونا فى عبادتنا ، فهل أنت خير منهم لتأتى بدين جديد غير دين آبائنا ؟

إنْ كنتَ يا محمد تريد مالاً جمعنا لك المال ، وإنْ كنتَ تريد مُلْكاً ملَّكناك علينا ونجعلك سيدنا ، وإنْ كنتَ تريد الزواج زوّجناك بأفضل نسائنا ، واسكت عن هذا الأمر الذى تدعو إليه ، وانْتَه ، عن سَبِّ آلهتنا .

فقال له رسول الله ﷺ : أتسمع ؟ قال : نعم أسمع فقرأ عليه من أول سورة فُصِّلت إلى أن وصل ﴿فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ

وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ [فصلت]

وعندها قام عتبة ووضع يده على فم رسول الله ، وقال : سألتُكَ بالرحم ألاَّ تكمل ما قرأتَ (١) ، لماذا ؟ لأنه علم أن محمداً لا يقول شيئاً إلا وقع ، وبعدها اعتزل عتبة قومه حتى قالوا : لقد صبأ عتبة ، لقد طمع فيما عند محمد من الخير ، يعنى : افتقر إلى ما عند محمد من المال ، وسمع عتبة هذا الكلام لكنه لم يُجبْ .

وبعد ذلك قال لهم : لا والله ما صبأت ولكنى خفْتُ على قومى إنذارَ محمد بصاعقة تحلّ بهم مثل صاعقة عاد وثمود ، لأننى أعلم أن كل شىء يقوله محمد لا بد أنْ يقع ، فأنا أنجيكم من هذا بأنْ أجعله لا يكمل هذه الآية .. وظل رسول الله يقرأ السورة إلى السجدة .

الحق سبحانه وتعالى حينما يعطى كلاماً نظرياً يُؤيده بواقع ، وقريش تعلم قصة عاد وثمود ، لكن ما هى الصاعقة ؟ الصاعقة هى الشىء الذى يصعق ما تحته ، قد يكون ريحاً مدمرة ، وقد يصطحب معه ناراً محرقة ، والقرآن قال : صاعقة ، وسمَّاها صيحة وقال : ريحاً صرصراً عاتية .

﴿ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ
أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا
بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾

---

(١) ساقه البغوى فى تفسيره بسنده عن محمد بن فضيل عن الأجلح وقد ضعِّف بعض الشىء عن الذيال بن حرملة عن جابر فذكر الحديث إلى قوله ﴿ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ ﴾ [فصلت] فأمسك عتبة على فمه وناشده بالرحم أن يكف . وكذا ذكره القرطبى فى تفسير الآية ، والسمرقندى فى بحر العلوم باب ١٣ .

قوله : ﴿ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ.. (١٤) ﴾ [فصلت] هكذا بالجمع مع أن الكلام عن عاد وثمود ولكل منهما رسول واحد ، فلماذا جمع وقال الرسل ؟ قالوا : لأن كل رسول يأتى يُؤمر من الله أنْ يأمر قومه بأنْ يؤمنوا بالرسل السابقين ، وأنْ يؤمنوا كذلك بمَنْ يأتى من الرسل بعده ، فكأن عاداً وثمود حينما يؤمنون برسولهم يؤمنون كذلك بكل الرسل ، أو أنهم كانوا متفرقين فى المواقع ، بحيث يكون لكل موقع رسول خاص ، فتعدد الرسل بتعدّد المواقع .

وقوله ﴿ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ .. (١٤) ﴾ [فصلت] هذا ملخص دعوة كل الرسل وقضية كل رسول من عند الله ﴿ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لأَنزَلَ مَلائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ (١٤) ﴾ [فصلت] يعنى : أنتم بشر مثلنا ، وإنْ أراد الله هدايتنا لأرسل لنا رسولاً من الملائكة . وهذا دليل غبائهم ؛ لأن الرسول جاء مبلِّغَ منهج وأُسْوة سلوك ، فلو كان الرسول ملكاً ما تحققتْ فيه مسألة القدوة والأسوة ، وما استطاع أنْ يأمر قومه بما يقوم هو به ، ولَقالَ له قومه : كيف نفعل وأنت ملَك ونحن بشر ؟

فالأسْوة هنا غير موجودة أصلاً . إذن : فلا بدّ أنْ يكون الرسول من جنس المرسَل إليهم ، حتى لو جئنا به ملَكاً كما تريدون لجاءكم فى صورة بشر ، لأنكم لا تروْنه على هيئته الملائكية ، ولا تستطيعون الاستقبال منه على هذه الهيئة ؛ لذلك قال تعالى : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ (٩) ﴾ [الأنعام] ولظلتْ الشبهة كما هى ، إذن : لا بدّ أنْ يكونَ الرسولُ رجلاً من جنس القوم .

وقولهم : ﴿ فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ (١٤) ﴾ [فصلت] تأمل ، إنهم يعترفون برسالة الرسل ، ويُقرون بذلك ، ونحن لا نريد منكم أكثر

من هذا أنْ تعترفوا بأنهم مُرْسَلُون ، وعجيب بعد ذلك أنْ يكفروا .

قالوا : ويجوز أنْ يكون المعنى ﴿فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ .. ﴿١٤﴾﴾ [فصلت] أى : كما تقولون أنتم بأفواهكم ، أو أرسلتم على سبيل الاستهزاء بهم ، كما فى قوله تعالى فى المنافقين : ﴿لا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ .. ﴿٧﴾﴾ [المنافقون] وقالها فرعون ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾﴾ [الشعراء]

مجنون ؟ والله أنت المجنون ، فما دام أنه أُرسِل فلم تعاند ؟ إذن : المسألة كلها كفر وعناد ، والكفر هو الجنون بعينه ، جنون على جنون .

ثم أراد الحق سبحانه أنْ يُفصِّل القول فى أمر عاد وثمود ، فقال سبحانه :

﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾﴾

قوله عن عاد : ﴿فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ.. ﴿١٥﴾﴾ [فصلت] هل يعنى أن هناك استكباراً بالحق ؟ قالوا : نعم تستكبر فى قومك ليكونَ لهم كبير يردعهم إنْ مالوا ، لأن عادة الناس إنْ لم يكُنْ لهم كبير يُهَاب ويُرْجَع إليه اختلطتْ عندهم الأمور وماجوا فى بعض وتعدّوْا .

وهذا استكبار بحق ، لأنه يُصوِّب حركة الأفراد ، ولا بدّ أنْ يكون من كبير كما يقولون عندنا فى الريف (اللى ملوش كبير يشترى له

كبير) لماذا ؟ لتعتدلَ الأمور ، ولا تكون فوضى ، وصدق القائل[1] :

لاَ يَصلُح النّاسُ فوضى لا سَراة [2] لهُمْ
وَلاَ سَراةَ إذَا جُهَّالُهمْ سَادُوا[3]

هذا استكبار بالحق ، لأن له رصيداً يسمح له بالاستكبار ، أما الاستكبار بغير الحق فهو الاستكبار بلا رصيد وبلا داعٍ كالذى يستكبر بقوته أو سلطانه أو غير ذلك من العوارض التى تنزع من الإنسان .

﴿وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً .. (١٥)﴾ [فصلت] وكذبوا فى هذه أيضاً ، وظهر جهلهم لأن الله تعالى أشدّ منهم قوة ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً .. (١٥)﴾ [فصلت] قولهم : ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ..(١٥)﴾ [فصلت] استفهام إنكارى يعنى : لا أحدَ أشدّ منا يأمرنا فنطيعه لأننا الأقوى .

نعم ، لكم حق فى هذه ، لكن ما قولكم فى أن الله الذى خلقكم هو أشدّ منكم قوة ، أليس ذلك دليلاً على وجوب طاعتكم له ؟ إذن : المنطق كان يقتضى أنْ تتصاغروا لمن أرسله الله إليكم ، وأنْ تطيعوه طاعةً لله الذى أرسله .

نعم لا يصح للقوىِّ أنْ يرضخ لطاعة الضعيف ، لكن نسألكم :

---

(١) الشاعر هو : أبو الأسود الدؤلى ، ظالم بن عمرو ، تابعى ، واضع علم النحو ، كان من الفقهاء والأعيان والأمراء والشعراء والفرسان ، ولد عام ١ قبل الهجرة وتوفى ٦٩ هجرية ، فى صبح الأعشى أن أبا الأسود وضع الحركات والتنوين ، وهو فى أكثر الأقوال أول من نقط المصحف مات بالبصرة . [الموسوعة الشعرية] .

(٢) سراة القوم : هم أعيانهم ورؤساؤهم وأشرافهم .

(٣) البيت من قصيدة لأبى الأسود الدؤلى من بحر البسيط ، عدد أبياتها ثلاثة أبيات .

أنتم أقوى أم الله ؟ لا بدَّ أنْ يقولوا الله لأنهم معترفون له بالخَلْق ، فلماذا عاندتموه وصادمتم رسله ؟ أنتم صحيح أقوى على بعض الخَلْق ، لكنكم ضعافٌ أمام مَنْ خلق الخَلْق .

وقوله : ﴿ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (١٥) ﴾ [فصلت] الجحود هو إنكار الشيء لجاجةً وعناداً كما قال تعالى : ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا .. (١٤) ﴾ [النمل] ففي حين يستيقنون بالآيات ويؤمنون بها في أنفسهم يجحدونها بظاهرهم ، فما الجزاء ؟

﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ(١) لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ (١٦) ﴾

وُصِفَت ريح العذاب هنا بأنها (صرصر) هكذا من مقطعين صرصر ، وهناك صِرّ مقطع واحد . وهي الريح الشديد المزعج الذي يهدد ويكون فيه برودة شديدة ، والبرودة من شأنها شدة الرطوبة التي تُجفف إلى درجة الإحراق .

وهذه الظاهرة يعرفها الفلاحون في فصل الشتاء عندما يشتد البرد لدرجة أنه يحرق الزرع .

وهكذا يجمع اللهُ فعلَ النار في الماء لأن الحق سبحانه لم يخلق

---

(١) النحس : الشؤم ضد اليُمن وضد السعد قال تعالى : ﴿ فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ (١٩) ﴾ [القمر] أي : يوم شؤم وعذاب دائم . [القاموس القويم ٢/٢٥٦] .

الكون بحركة ميكانيكية ثابتة ، إنما خلقه بصفة القيومية التى تجمع بين الأضداد ، أرأيتم لموسى عليه السلام حينما ضرب بعصاه الماء ، فصار كل فِرْقٍ كالطَّوْد العظيم ، وجمع الله بين الشيء ونقيضه فى وقت واحد ، كذلك ضرب الجبل فانفجرتْ منه اثنتا عشرة عيناً ، وفى قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام ألقاه القوم فى النار ، فجعلها عليه برداً وسلاماً ، وعطَّل فيها قانون الإحراق .

فالصِّر هى الريح الشديد المزعج ، لكن يهبُّ لمرة واحدة ، فإنْ تكرر فهو صرصر ﴿فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ .. (١٦)﴾ [فصلت] النحس : هو الشؤم ، وحينما يأتى اليوم بشيء من الشر يتشاءمون منه ، وكما قال فى موضع آخر : ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا .. (٧)﴾ [الحاقة] يعنى : حاسمة تستأصلهم ، وتنتهى منهم . أى : سبع ليالٍ وثمانية أيام حاسمة ، حسمتْ الجدل بين الرسل وبين المكابرين المعاندين .

وفى الشعر العربى قال الشاعر[1]:

أَوْقِدْ فَإِنَّ اللَّيلَ لَيْلٌ قَرّ ... والرِّيح يا غُلامُ رِيحٌ صِرُّ

عَلَّ يَرَى نَارَكَ مَنْ يمُرُّ ... إنْ جَلَبْتَ ضَيْفاً فَأنتَ حُرّ[2]

﴿لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. (١٦)﴾ [فصلت] هناك

---

(١) الشاعر هو : حاتم بن عبد الله الطائى القحطانى ، أبو عدى ، شاعر جاهلى فارس جواد . يُضرب المثل بجوده ، ، كان من أهل نجد وزار الشام فتزوج ماوية بنت حجر الغسانية ، مات فى عام ٤٦ قبل الهجرة فى عوارض (جبل فى بلاد طيء) [الموسوعة الشعرية] .

(٢) البيت من قصيدة لحاتم الطائى من بحر الرجز عدد أبياتها بيتان . ولفظه فى الموسوعة الشعرية (يا موقد) بدل (يا غلام) ، و (عسى) بدل (عَلَّ) وعزاه ابن حمدون فى (التذكرة الحمدونية) للأفوه الأودى . وكذلك الثعالبى فى (التمثيل والمحاضرة) .

عذاب يؤلم ، وعذاب يخزى ويهين المتكبر ، ليس الغرض منه الإيلام ، إنما الإهانة والخزى والذلة ، لأنه تكبَّر بلا رصيد ذاتى عنده ، ولو عذَّبناه عذاباً يؤلم ربما تحمّل الألم ، لذلك نعذبه عذاباً يخزيه ويُرغم أنفه ويهدم كبرياءه ، فالخزى فى تأديب النفس أقوى من الإيلام فى الحسِّ .

ومعلوم أن من الناس مَنْ يؤذيه الاستهزاء به والسخرية منه أكثر مما يؤلمه الضرب الحسى . وهذا الخزى وهذه الإهانة ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. (١٦)﴾ [فصلت] أمَّا الآخرة فلها شأنٌ آخر فى الآخرة أخزى ، لأن الخزى فى الدنيا له وقت ينتهى فيه .

أمَّا فى الآخرة فخزىٌ دائم باق فهو مُعذَّب وخزيان ﴿وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَخْزَىٰ..(١٦)﴾ [فصلت] لأنه دائم مستمرٌ ﴿وَهُمْ لا يُنصَرُونَ (١٦)﴾ [فصلت] يعنى : لن يأخذ أحد بأيديهم ، ولن ينجيهم من العذاب شىء ، فلا أملَ لهم فى النصرة ، فهم لا ينصرون ولا يردُّون .

لذلك قلنا فى الحشر : إن الحق سبحانه يحشر الناسَ جميعاً مرة واحدة ، لا يكونون على هيئة طابور مثلاً ، كلٌّ ينتظر دوره ، إنما يُحشرون جميعاً بعضهم مع بعض ، الظالم والمظلوم ، والتابع والمتبوع ، وهو يقطع أملَ الكافرين فى النجاة ، فربما انتظروا قادتهم لينقذوهم ؛ لذلك قال تعالى فى شأن فرعون : ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ .. (٩٨)﴾ [هود] أى : يتقدمهم ويسبقهم إلى النار .

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾﴾

هنا وقفة لعلماء الكلام ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ .. (١٧)﴾ [فصلت] الهُدَى هو الدلالة على طريق الخير الموصِّل إلى غاية خير ، نقول : دلَّه على الطريق ، وحين تدل الناس منهم مَنْ يستمع لك ويطيعك ، ومنهم مَنْ لا يستمع إليك ، فالأول تزيده هداية وإرشاداً حتى يصل إلى غايته ، والآخر تتخلى عنه .

لذلك قال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧)﴾ [محمد] أى : اهتدوا لطريق الدلالة . زادهم هدىً . أى : بالمعونة والتوفيق للعمل الصالح وكراهية عمل الشر ، إذن : هناك هداية للدلالة ، وهداية للتوفيق والمعونة . وهل تعين إلا مَنْ أطاعك وآمن بك ؟

وسبق أنْ ضربنا لذلك مثلاً برجل المرور الذى يقف على مفترق الطرق ، وتحتاج إلى أنْ تسأله عن الطريق الذى تقصده ، يقول لك : الطريق من هنا ، فإنْ شكرته على صنيعه وتوجهتَ إلى الطريق الذى دلَّك عليه زادك إرشاداً وبيَّن لك ما فى الطريق من عقبات أو مصاعب . وربما صحبك حتى تمرَّ من هذه الصعاب .

فأنت سألته فدلَّكَ فاتبعْتَ دلالته وشكرته فقال : أنت أهلٌ لمعونتى وإرشادى ، أما إنْ خالفتَ رأيه وسرْتَ فى طريق آخر غير طريق دلالته فلا بُدَّ أنْ يتخلى عنك ، وأنْ يدعكَ وشأنك .

كذلك الحق سبحانه وتعالى يدل الجميع على طريق الخير ، كل الخلق دلَّهم الله ، فمَنْ أطاع فى هداية الدلالة كان أهلاً للزيادة ، وأهلاً لهداية المعونة والتوفيق ، ومَنْ عصى وخالف فى هداية الدلالة لم يكُنْ أهلاً لهداية المعونة .

كذلك كان شأن ثمود ﴿فَهَدَيْنَاهُمْ .. (١٧)﴾ [فصلت] هداية دلالة ﴿فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ .. (١٧)﴾ [فصلت] أى : استحبُّوا العمى

عن فعل الخير ، لأنهم ارتاحوا للمخالفة وأرادوا الخروج من قيود التكاليف الشرعية ، وإلا لماذا عبدوا الأصنام وهم يعلمون ما هى ، وصنعوها بأيديهم ؟

عبدوها لأن فى عبادتها إرضاءً للنفس بأنْ يكون لها إله تعبده ، وما أجملَ أنْ يكون هذا الإله بلا تكاليف وبلا منهج بافعل ولا تفعل ، إذن : مشقة تكاليف الطاعة وحلاوة إتيان المعصية تأتى من التكليف ، فإن وُجدَ إله بلا تكاليف مالتْ إليه النفس وأحبته ، لأن ذلك يُرضى غريزة الفطرة الإيمانية فى الإنسان ، وهو أن كلَّ إنسان آمن بالعهد الأول فى مرحلة الذر ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ .. (١٧٢) ﴾ [الأعراف]

إذن : فبضعة الإيمان فى كل إنسان موجودة فيه من عهد الذر ، ولكن يختلف الناسُ فى قبول التكاليف والمنهج ، فمن الناس مَنْ يرى فى المنهج قيْداً لشهواته ، فلا يرتاح إليه ويسعى إلى التديّن الخالى من التكليف كهؤلاء الذين استحبوا العمى على الهدى ، ومن الناس مَنْ يحب الهداية والطاعة ويرتاح إلى المنهج ويأنس به .

وتأمل قوله تعالى : ﴿ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ .. (١٧) ﴾ [فصلت] استحبَّ غير أحب . استحبَّ يعنى : تكلّف حبه ، وهذا دليل أنه شىء لا يُحبّ أصلاً وطبيعة ، لكنه تكلف حبه ليحقق مراده من الشهوة ، ولك أنْ تنظر إلى أىِّ سيئة نهاك الله عنها وهَبْهَا أنها واقعة عليك ، هل تحبها ؟ لا تحبها ، إذن : هى لا تُحَبُّ .

وفى موضع آخر ، لما تكلَّم الحق سبحانه عن المؤمنين قال عنهم :

﴿ أُولَـٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ .. (٥) ﴾ [البقرة] وعلى تدل على الاستعلاء ، فكأنهم مستوون على الهدى ، وكأنه دابة يركبونها

توصلهم إلى غايتهم ، فالهدى لم يأت ليشق عليكم ، إنما جاء ليحملكم ويوصلكم إلى غاية الخير ، فالمؤمنون على الهدى فوقه يوصلهم ، ليس الهدى فوقهم يشق عليهم أو يكلفهم ما لا يطيقون ، فالهدى إذن خدمة لكم وفى مصلحتكم .

وحين تتتبع لفظة (على) فى القرآن الكريم تجدها لا بدَّ أنْ تعطى الحكم من باب القوة والفضل ، فمثلاً قوله تعالى : ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ ﴾ [الإنسان] بعض المفسرين[1] قال : على حبه يعنى : مع حبه فجعل على بمعنى مع ، وهذا مخالف للصواب ؛ لأن الإنسان لا يحب الطعام إلا إذا كان جائعاً ، أما الشبعان فلا يلتفت للطعام .

فالمعنى : ويُطعمون الطعام رغم أنهم فى حاجة إليه ، فكأن الجوع يطلب أنْ تأكل لكن حبّ الخير والصدقة يعلو عندك على الجوع وحب الطعام ، لماذا ؟ لأنك قدَّرْتَ الجزاء الأوفى عليه ، وما دُمْتَ قدَّرت الجزاء الأوفى على إطعام الطعام ، فقد غلَبتَ حبك للطعام وعلوت عليه ، لذلك قال سبحانه : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ[2] .. ﴿٩﴾ ﴾ [الحشر]

كذلك فى قوله تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى الْكِبَرِ .. ﴿٣٩﴾ ﴾ [إبراهيم] (على) هنا لا تعنى وهب لى مع أنّى كبير

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٤/ ٤٥٤) : « قوله تعالى : ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ .. ﴿٨﴾ ﴾ [الإنسان] قيل : على حب الله تعالى ، وجعلوا الضمير عائداً إلى الله لدلالة السياق عليه ، والأظهر أن الضمير عائد على الطعام . أى : ويطعمون الطعام فى محال محبتهم وشهوتهم له . قاله مجاهد ومقاتل واختاره ابن جرير كقوله : ﴿ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ .. ﴿١٧٧﴾ ﴾ [البقرة] .

(٢) خصاصة : فقر واحتياج . والخصاصة : الفقر وسوء الحال والحاجة . [لسان العرب - مادة : خصص] .

لا أصلح للإنجاب ، إنما المعنى : وهب لى على الكِبرَ ، فكأن الكبر ضعف يقتضى عدم الإنجاب ، ولكن هبة الله وفضله علا على الضعف وعلا على الكبر كما جعل زكريا ينجب يحى عليهما السلام !!

كذلك فى قوله تعالى : ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ .. ⦗٦⦘﴾ [الرعد] فكأن الظلم كان يقتضى العقوبة ، لكن مغفرة الله علَتْ على الظلم .

ثم يقول سبحانه : ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ⦗١٧⦘﴾ [فصلت] الصاعقة قلنا : هى كلُّ ما يصعق ويدمر ، سواء كان بالريح أو النار ، أو الصيحة المدمرة ، والعذاب الهون أى : المصحوب بالإهانة والخزى ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ⦗١٧⦘﴾ [فصلت] يعنى : وقع لهم هذا بسبب ما كسبوا ، وما اقترفته أيديهم . يعنى : جزاءً وفاقاً ، لا ظلماً وعدواناً .

﴿وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ⦗١٨⦘﴾

كثيراً ما نجد أسلوب القرآن الكريم يجمع بين الشىء ونقيضه ليبرز المعنى وبضدها تتميز الأشياء ، يقول تعالى : ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ⦗١٣⦘ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ⦗١٤⦘﴾ [الانفطار] هذه مقابلة يوضح فيها كلّ معنى المعنى المقابل ، كذلك هنا بعد أنْ حدَّثنا الحق سبحانه عن بعض المكذِّبين المعاندين أردف ذلك بالكلام عن المؤمنين المتقين ، وما آلوا إليه من الفوز والنجاة ، فقال سبحانه : ﴿وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ⦗١٨⦘﴾ [فصلت]

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ[1]
(١٩) حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ
وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٠)﴾

الحشر : يعنى جمع المختلفين ، والمختلفون كان فيهم التابع والمتبوع ، ضالِّين ومضلين ، لا بدَّ أنْ يجمعهم الله جميعاً فى وقت واحد يتقدمهم الزعماء ورؤوس الكفر .

﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا (٦٩)﴾ [مريم] يعنى : نأتى بالفتوات ونقدمهم إلى النار قبل الضعفاء ، وكأن الله يقول لهم : هؤلاء قادتكم يسبقونكم إلى النار ، يعنى : لا أملَ لكم فى النجاة ، حتى الوحوش يجمعها الله ويجمع المختلفين منها .

﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ (٥)﴾ [التكوير] والوحوش هى الحيوانات غير المستأنسة كالأسد والنمر وغيره ، وكأن الحق سبحانه يريد أن يقول لنا : أنا الذى أذلل لك الخلق ، ولولا أننى ذللته لك ما استطعتَ أنت تذليله ، نعم ذلَّل لك الجمل رغم حجمه الكبير ، لكن لم يذلل لك الثعبان الصغير ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (٧١) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (٧٢)﴾ [يس]

والله لولا أن الله ذلَّل لنا هذه المخلوقات ما انتفعنا منها بشىء ، لذلك نقول على غير المذلل : حيوان متوحش ، ألاَ ترى الطفل والولد

(١) يُوزعون : يُجمعون فى مكان واحد ويحبسون عليه ويمنعون من التفرق . [القاموس القويم ٢/ ٣٣٤] بتصرف . قال ابن منظور فى [لسان العرب - مادة : وزع] ، أى : يُحبس أولهم على آخرهم .

الصغير يقود الجمل الكبير ويحمله ويُنيخه ويُسيِّره حيث يريد ، وأنت يزعجك البرغوث الصغير فى الفراش ويمنعك النوم ، إنها رسالة من الخالق سبحانه بأن الأمر أمرُ تذليل من الله .

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ۝١٩﴾ [فصلت] فى الدنيا الوحوش تفر من الإنسان ، ونحن نفرٌّ من الوحوش ، أما فى القيامة فيجمع الله الجميع معاً فى موقف واحد ، كيف ؟ لأنه لم يَعُدْ لأحد منا قوة تصرُّف ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ۝١٦﴾ [غافر] فلما صار الملك لله لم يَبْقَ فينا نحن المخلوقين تفاوت قوة تستضعف .

وقوله ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ ۝١٩﴾ [فصلت] يعنى : يُساقون ويُقادون جميعاً إلى النار من أولهم إلى آخرهم ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝٢٠﴾ [فصلت]

الله .. السمع وظيفة الأذن ، والإبصار وظيفة العين ، والأنف للشم ، والكف للمس ، فكل جارحة من جوارح الإنسان لها مهمة فى حياته ، لكن لم يذكر الحق منها هنا إلا ثلاثة فقط : السمع ، والأبصار والجلود . ولم يذكر اليد ولا الأنف .

قالوا : لأن التكليف فى أمر الأنف نادر وقليل ، كأنْ تشمّ رائحة الخمر مثلاً ، والعياذ بالله ، أو تشم رائحة امرأة متعطرة ، إذن : فالأنف دوره محدود ، أما السمع فهو أهم الحواس ، لأنك تستقبل به الدعوة إلى الله ، والبصر هو الذى تبصر به آيات الله فى كونه وعجائبه فى خَلْقه .

أما الجلود فعامة فى السمع والبصر وفى كل الحواس ، فكأن الجلد أعمّ شىء فى الحس ، ولذلك لما بحثوا فى وظائف الأعضاء

ليعرفوا مهمة كل عضو فى الإنسان وجدوا أهمها الجلد ، لأنه وسيلة الإحساس بالألم خاصة فى الطبقة الخارجية منه ، ألاَ ترى أنك مثلاً حين تأخذ حقنة تشعر بألم الإبرة حين تدخل جسمك وتخترق الجلد ، تؤلمك بقدر نفاذها فى الجلد كأنَّ الجلد هو محلُّ الإذاقة ، وما دام هو محل الإذاقة فهو إذن مستوعب لجميع الحواس .

ولذلك يقول الحق سبحانه : ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ .. (٥٦)﴾ [النساء] إذن : فالجلد محلّ إذاقة العذاب والعياذ بالله ، وهو المستوعب لكلِّ الحواس .

﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢١)﴾

هم يتعجبون كيف تشهد عليهم جلودهم وهى منهم ، والسؤال هنا كان ينبغى أنْ يكون عن الكيفية : كيف شهدتم علينا لا عن السبب ، فالسؤال بهذه الصيغة غير وارد ليدل هذا على التضارب فى الكلام .

وكان الجواب ﴿قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ .. (٢١)﴾ [فصلت] فالسؤال عن شيء والجواب عن شيء آخر ، فلو أجابوا عن السؤال : لم شهدتم علينا ؟ لقالوا : شهدنا عليكم لأننا أقوى حارس عليك فى جميع الأوقات ﴿قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِى أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ .. (٢١)﴾ [فصلت] يعنى : الأمر ليس بملكنا ، نحن لم نشهد من عندنا ، إنما أنطقنا الحقُّ بالحق ، ولا حيلةَ لنا فى هذا .

ومعنى ﴿ الَّذِى أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ .. (٢١) ﴾ [فصلت] أن كل شيء في الوجود له لغة خاصة به ، لغة يتكلم بها ، لغة تدل وتُفهم ، كما رأينا في قصة سيدنا سليمان لما تكلمتْ نملة وحذَّرتْ قومها ، وقالت : ﴿ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (١٨) ﴾ [النمل]

ودَلّ قول النملة على أن للنمل لغة يتفاهمون بها ، ودلَّ على يقظتها وعلى عدالتها في الحكم حين قالت : ﴿ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (١٨) ﴾ [النمل]

كذلك حديث الهدهد في نفس القصة حين قال : ﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (٢٢) ﴾ [النمل] ثم يتكلم بكلام في صُلْب العقيدة ﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ .. (٢٤) ﴾ [النمل] فالهدهد ليس مجرد متكلم بلغة ، إنما فاهم لأهمّ قضايا الإيمان ومسائل التوحيد .

إذن : لكل شيء لغة ، لكن لا يعرفها إلا مَنْ علَّمه الله وأطلعه على هذه اللغة ، وهذا فضل الله يؤتيه مَنْ يشاء ، لذلك قال سيدنا سليمان ﴿ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ .. (١٦) ﴾ [النمل] ولولا أن الله علّمه ما فهم عن الهدهد .

كذلك في الجماد له لغة ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ (١٨) ﴾ [ص]

لذلك يقول تعالى في إجمال هذه المسألة : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَـٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. (٤٤) ﴾ [الإسراء]

وورد أن الحصى سبَّح (١) فى يد رسول الله ﷺ على أن هذه معجزة من معجزاته ﷺ ، وقلنا فى تصويب هذه المسألة : أن الحصى مُسبِّح فى يد رسول الله كما هو مُسبِّح فى يد أبى جهل ، فالصواب والمعجز أنْ نقول : سمع رسول الله تسبيح الحصى فى يده ، هكذا يكون الكلام .

بعض العلماء يقول عن هذا التسبيح أنه تسبيحُ دلالة على خالقها لا تسبيحٌ على الحقيقة ، وهذا كلام مخالف لنصٍّ القرآن الكريم لأنه لو كان تسبيحَ دلالة كما تقول فقد فهمته والله يقول : ﴿ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. (٤٤) ﴾ [الإسراء] إذن : فهو تسبيح على الحقيقة ، تسبيح بلغة لا يعلمها إلا خالقها ، أو مَنْ علَّمه الله واختصَّه بمزيد من فضله .

والعجيب فى مسألة الهدهد أنه ذكر سبباً واحداً لوجوب الإيمان بالله وتوحيده تعالى ، فقال : ﴿ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (٢٥) ﴾ [النمل] فذكر الأمر الخاص به وهو إخراج خبأ الأرض ، ومعلوم أن للهدهد منقاراً طويلاً ، يُخرج به الدود من تحت سطح التربة ويتغذى عليه .

وقوله : ﴿ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢١) ﴾ [فصلت] يعنى : لا تظنوا أن الله خلقكم وترككم هملاً ، إنما خلقكم لغاية ولا بدّ

(١) أورده الأصبهانى فى دلائل النبوة (٤٧/١) فصل فى تسبيح الحصى فى يده . عن أبى ذر أن أبا بكر وعمر وعثمان اجتمعوا عند رسول الله فى خلوة فتناول النبى سبع أو تسع حصيات فسبَّحن حتى سمعت لهن حنيناً كحنين النحل ثم وضعهن فخرسن ، ثم أخذهن فوضعهن فى يد أبى بكر فسبحن حتى سمعت لهن حنيناً كحنين النحل ثم وضعهن فخرسن ، ثم تناولهن فوضعهن فى يد عمر فسبَّحن حتى سمعت لهن حنيناً كحنين النحل ثم وضعهن فخرسن ، ثم تناولهن فوضعهن فى يد عثمان فسبحن حتى سمعت لهن حنيناً كحنين النحل ثم وضعهن فخرسن .

لكم من الرجوع إليه ، والمثول بين يديه يحاسبكم على النقير[1] والقطمير[2] ، والقليل والكثير ، ويجازيكم بأعمالكم فلن تنفلتوا منه سبحانه ، ستقفون بين يديه للحساب يُعدِّد عليكم نعمه ، ويرى مَنْ شكرها ومَنْ كفرها .

﴿ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

يعني : لقد فاتكم شيء هام ما تنبهتم إليه ، وهو أنكم كنتم تستترون عن الخَلْق أنْ يراك أحد حال المعصية ، ونسيتم أن الله مُطَّلع عليكم يراكم ويرقب أفعالكم وما كنتم تستترون عن أنفسكم وجوارحكم ، وغاب عنكم أن الجوارح شاهدة عليكم يوم القيامة .

فاليد التي ضربتَ بها ، والرِّجْل التي سعيتَ بها ، واللسان والأذن والعين ، كل الجوارح ستأتي شاهدة عليك يوم القيامة ، هذه الجوارح التي أمرها الله أنْ تنفعل لمراداتك في الدنيا وتطيعك في كل ما تريد ستتحرر من هذا القيد يوم القيامة ، فلا يكون لك سلطان عليها ، ساعتها ستشهد عليك .

---

(١) النقير : نقطة غائرة في ظهر النواة منها تنبت النخلة . ويضرب مثلاً للتعليل . قال تعالى : ﴿ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لاَّ يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ ﴾ [النساء] أي : لا يعطون أحداً جزءاً ضئيلاً من النواة وهذه كناية عن شدة البخل والحرص على المال . [القاموس القويم ٢/٢٨٢] .

(٢) القطمير : القشرة الرقيقة الملتفة على النواة ، ويُضرب بها المثل في القلة ، قال تعالى : ﴿ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ ﴾ [فاطر] من شيء قليل لا قيمة له .

فإنْ أطاعتك فى المعاصى فى الدنيا ، لأن الله سخرها لك فقد أطاعتك وهى كارهة لفعلك بريئة منه ، أما وقد عاد الجميع إلى الله ، وصار الملْك كله لله ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦)﴾ [غافر] فلا عجبَ إذن أنْ تشهد عليكم جوارحكم ، وأنْ تكون خصماً لكم أمام خالقها عز وجل .

وسبق أنْ مثَّلْنا لهذه المسألة بقائد الكتيبة فى الجيش يأمر جنوده فيأتمرون بأمره ينفذون الأوامر حتى لو كانت خاطئة ، حتى إذا ما جاءوا إلى القائد الأعلى شكوْا إليه تعسُّف القائد المباشر ، وقالوا : فعل بنا كذا وكذا .

كذلك جوارح الإنسان أمرها الله أنْ تطيعه حتى فى المعصية ، وأنْ تنفعل لمراداته ، فجوارحك تطيعك فى كل شىء تريده ، فى الخير وفى الشر

وقوله : ﴿وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ (٢٢)﴾ [فصلت] الحق سبحانه وتعالى يقول فى حديث قدسى : « يا عبادى إن كنتم تعتقدون أنى لا أراكم فالخلل فى إيمانكم ، وإن كنتم تعتقدون أنى أراكم فلِمَ جعلتمونى أهون الناظرين إليكم »[1] إذا كنتَ لا تستطيع أنْ تفعل فى إنسان مثلك عملاً يسوؤه على مرأى ومسمع منه عينى عينك هكذا ، فكيف تفعلها مع الله عز وجل ؟

(١) بالبحث فى كتب الحديث تبين عدم ثبوت حديث بهذا اللفظ ، وإنما ثبتت جملة من هذا الحديث على لسان بعض العارفين حيث جاء فى كتاب (حلية الأولياء) (١٤٢/٨) قال رجل لوهيب بن الورد : عظنى . قال : اتق الله أن يكون الله أهون الناظرين إليك ، وجاء فى كتاب جامع العلوم والحكم (٣٦/١) قال بعض العارفين : اتق الله أن يكون أهون الناظرين إليك .

﴿ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾

قوله : ﴿ وَذَٰلِكُمْ ﴾ [فصلت] أى : أفعالكم التى فعلتموها ﴿ ظَنُّكُمُ الَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ .. ﴿٢٣﴾ ﴾ [فصلت] يعنى : ظننتم أنه سبحانه لا يعلم ما تفعلون ﴿ أَرْدَاكُمْ .. ﴿٢٣﴾ ﴾ [فصلت] يعنى : أهلككم هذا الظن ﴿ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [فصلت]

﴿ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ (١) فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾

أى : فإنْ يصبروا على ما هم عليه ويصروا على الكفران والجدل مع الرسل ، ماذا يحدث ﴿ فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [فصلت] أمر من اثنين . الإنسان حين يخالف أوامر خالقه ويأتيه رسول يقول له ، لا تفعل فإنْ كفّ فهو خير له ، وإنْ أصرَّ وتمادى فالنار مثوىً له .

ومعنى ﴿ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [فصلت] يستعتبوا يطلبون العتبى . يقال : عتب فلان على فلان . يعنى : لامه على أمر ما كان يصح أنْ يكون منه ، يقول : مثلاً أنا مرضتُ فلم تزرنى ، هذا عتاب ، فيقول : معذرة فقد كنت مشغولاً بكذا وكذا فساعة يُبيِّن له العذر فقد أعتبه يعنى أزال عتبه ، وهذا لا يكون لهم فى الآخرة

---

(١) استعتبته فأعتبنى أى : استرضيته فأرضانى . واستعتب فلان : إذا طلب أن يُعتب أى يُرضى . [لسان العرب مادة : عتب] .

فإن طلبوا العتاب لم يعتبوا .

لذلك جاء فى حديث الرسول ﷺ وهو عائد من الطائف بعد أن آذاه قومها ، قال فيما قال ﷺ وهو يناجى ربه : « لك العُتْبى حتى ترضى »[١] يعنى : إنْ كان بدر منى شىء يغضبك فأنا أزيله وأعترف أننى ضعيف أطلب قبول العتاب .

لذلك قال الشاعر[٢] :

أمَّا العتَابُ فَبالأحِبَّةِ أخْلَقُ ... والحُبُّ يصلُح بالعتَابِ ويصْدُقُ[٣]

إذن : أنت لا تعاتب إلا إذا كنتَ محباً لمن تعاتبه ، حريصاً على علاقتك به . نقول : عتبت عليه فأعتبنى يعنى : أزال عَتْبى ، أما هؤلاء فى الآخرة فلن يقبل اللهُ منهم عتاباً ولن يزيل عتبهم . والهمزة فى أعتب تسمَّى همزة الإزالة ، والإزالة تكون بالهمزة أو بالتضعيف تقول : مرَّضتُ فلاناً يعنى : أزلتُ مرضه . وقشرتُ الفاكهة يعنى : أزلتُ قشرتها .

﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾

---

(١) أورده ابن هشام فى السيرة النبوية (٢/٤١٩ ، ٤٢٠) ، والبيهقى فى (دلائل النبوة) (٢/٤١٥) .

(٢) الشاعر هو : أحمد شوقى أمير الشعراء ، مولده ووفاته بالقاهرة عام ١٩٣٢ م ، نشأ فى ظل البيت المالك بمصر ، أرسله الخديوى توفيق سنة ١٨٨٧ م إلى فرنسا ، نظم شعراً فى المديح والغزل والرثاء والوصف . [الموسوعة الشعرية] .

(٣) البيت لأحمد شوقى من قصيدة من بحر الكامل ، عدد أبياتها ١٢ بيتاً .

معنى ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ .. (٢٥)﴾ [فصلت] يعنى : أعددنا لهم وهيّأنا لهم ﴿قُرَنَاءَ .. (٢٥)﴾ [فصلت] أصحاباً يلازمونهم ، وأصل المقايضة فى البيع والشراء كأنْ تدفع الثمن وتأخذ السلعة ؛ لأن الله تعالى يريد للعبد أنْ يسير على طريق الخير الذى رسمه الله له ، وطريق الخير المرسوم لك من الله يريد منه أنْ يؤكد صدقك فى التوجه إليه ، فيأتى بقرناء يعترضون طريقك ويحاولون صَرْفك عنه .

فإنْ أطعتَ هؤلاء القرناء ملْتَ معهم وضللتَ طريقك الذى اختاره الله لك ، وإنْ عصيتهم فقد نجوْتَ وخابت معك حيل الشيطان الذى يُزيِّن لك سواء من شياطين الإنس أو من شياطين الجن .

فكأن الشيطان ما جاء إلا ليختبر إيمان المؤمن فهو يُوسوس للجميع ، ويُزيِّن الشر للجميع ، لكن قوىّ الإيمان يقف أمام هذه الوسوسة ويعرف مصدرها فلا يطيع ، أما ضعيف الإيمان فينقاد ويقع فى المخالفة ، ولولا وجود الشيطان لكان الإيمانُ رتابةً لا معارضَ لها ، لكن وُجد المعارض ، ومع ذلك ثبت أهل الإيمان على إيمانهم .

قوله : ﴿فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ .. (٢٥)﴾ [فصلت] ما بين أيديهم : الموجود الحالى من الشهوات . وما خلفهم : أى : ما ينتظرهم من أمر القيامة والحساب ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (٢٥)﴾ [فصلت]

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْءَانِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (٢٦)﴾

تميَّز العربُ قديماً بملكة عربية تتذوَّق اللغة وتجيد أساليبها وفنونها ، بدليل أنهم جعلوا للكلمة مؤتمرات وأسواقاً ، ففى حين كانت البلاد الأخرى تقيم المعارض والأسواق لترويج بضاعتهم ، لم يكُنْ عند العرب بضاعة غير الكلام والفصاحة ، فجعلوا لها سوقاً ينشد فيها أجود أشعارهم ثم يختارون أفضله ، ويُعلقونه على أستار الكعبة ، وهو أشرف مكان على الأرض ، وهذا أمر لم يحدث فى أى أمة أخرى .

لذلك اختار الحق سبحانه أمة العرب لتتلقى منهجه ، وتبلغ دعوته سبحانه إلى خَلْقه ونزل عليها القرآن لأنها الأمة الوحيدة التى ستفهم لغته وتتذوقها .

إذن : جاء القرآن على أمة لها نبوغٌ فى اللغة والبيان لتكون مجالاً للتحدى ، وحين تعجز أمام تحدِّى القرآن فعَجْز غيرها من باب أَوْلَى ، وأيضاً فلم يجعل الله لهم تقدُّماً فى شىء غير تقدمهم اللغوى والبيانى ؛ لأن مفتاح الدين ومعجزة الرسالة ستكون هى القرآن .

ولو كانت هذه الأمة أمةَ تقدُّم وحضارة فى أىِّ مجال من المجالات غير اللغة لقالوا عن الإسلام ثورة حضارية ، لا ليست أمة حضارية بل أمة أمية ورسولها أيضاً أُمِّى .

ومن هنا كانت الأمية ميْزةً وشرفاً لرسول الله ، لكنها ليستْ شرفاً فينا نحن لأنَّ أمية رسول الله تعنى أنه لم تدخل عليه معلومة من البشر ، وإنما كلّ معلوماته من الله ، فمَنْ إذن ربَّاهُ ، ومَنْ أدَّبه ، ومَنْ علّمه ؟ الله .

فإذا كانت الأمة أُميّة ، ورسولها أمياً ، فهذا دليلٌ على أن كلَّ منافذ الخير فى هذه الأمة ليستْ من عند البشر .

وأيضاً تميزتْ هذه الأمة بأنها أمة ليس لها وطن ، فالعربى موطنه خيمته يضعها حيث وُجد الماء والعشب ويحملها على بعيره إلى أىِّ مكان آخر حين يجفّ الماء أو ينتهى الكلأ ، ليس له وطن ولا بناء يعزّ عليه أن يفارقه ، فبيته على ظهر جمله ، لذلك قال تعالى :
﴿مِّن جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ[1] وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ .. (٨٠)﴾ [النحل]

شىء آخر ، وهو الأهمّ أن العرب كانوا دائماً فى محلِّ قتال ، وتظل الحربُ دائرةً بين القبائل إلى أربعين سنة ، هذه الحروب جعلتهم كلهم أهل خبرة فى فنون الحروب والقتال ؛ لذلك ساعة احتاج رسولُ الله إلى جنود لنشر دعوته لم يُدرِّب أحداً على القتال ، إنما وجد جنوداً جاهزين على أُهْبة الاستعداد للقتال ، لذلك لم يكُنْ هناك مدارس حربية ولا معسكرات للتدريب .

فإذا أخذنا فى الاعتبار أن العربى لم يكُنْ له وطن يرتبط به ، وأنه ذو قدرة وكفاءة فى فنون القتال ، علماً أنه من السهل تكوين الجيش ، ومن السهل إرسال جماعة هنا وجماعة هناك يحملون راية الإسلام ، وقد أرسلهم رسول الله بالفعل إلى فارس وإلى الروم وإلى الحبشة .. إلخ فسَهُلَ ذلك عليهم .

لذلك لم يكُنْ لرسول الله جيشٌ مُعَدٌّ وموقوف للقتال ، لأنه ليس فى حاجة إلى هذا الجيش ، فإنْ أراد القتال نادى فقط (حىَّ على الجهاد) فيجتمع عليه الصحابة خاصة الشباب منهم يتسابقون إلى الخروج مع رسول الله ، لدرجة أن رسول الله كان يختار منهم فيقول : هذا يخرج وهذا لا يخرج ، فكان الذى لا يقع عليه اختيار

---

(١) الظعن : الانتقال من مكان إلى مكان أى المسافرة . [القاموس القويم ١/٤١٥] .

رسول الله يغضب وربما بكى لأنه لم يخرج للجهاد مع رسول الله .

إذن : تميَّزَتْ هذه الأمة بعدة خصال أهَّلَتْهَا لأنْ تكون محلاً لمنهج الله وتبليغ رسالته ، **أولاً** : كانت أمة بلاغة وفصاحة . **ثانياً** : كانت أمة ترحال لا توطن لهم . **الثالث** : أنهم كانوا على دراية بفنون الحرب والقتال ولم يحتاجوا إلى تدريب في معسكرات ، بل كانوا على استعداد تام ، كلما سمعوا هَيْعة طاروا إليها ، وبذلك كانوا بطبيعتهم مُعدِّين لحَمْل هذه المهمة .

قوله تعالى حكاية عن كفار قريش : ﴿ **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَـٰذَا الْقُرْآنِ** .. (٢٦) ﴾ [فصلت] جاء نتيجة تمكُّن العربي من اللغة ، وتذوّقه لها ، وفَهْمه لمعانيها ، فلو تركوا القوم يستمعون لمحمد وهو يقرأ القرآن لا بدَّ أنْ يتأثروا به ، ولا بدَّ أنْ يميلوا وينجذبوا إليه ، فما الحل ؟

الحل عندهم ﴿ **لا تَسْمَعُوا لِهَـٰذَا الْقُرْآنِ** .. (٢٦) ﴾ [فصلت] لأنهم علموا علمَ اليقين أنهم لو سمعوا لأخذهم القرآن بجمال أسلوبه ، وجلال معانيه ، وقوة أدائه ، ولو كانوا يعلمون خلافَ ذلك ما نَهَوْا قومهم عن سماعه .

ولم يقف الأمر عند النهي عن السماع ، بل وشوَّشوا عليه حين يقرأ ﴿ **وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ** (٢٦) ﴾ [فصلت] إذن وسيلة الغلبة ألاَّ تسمعوا للقرآن ، وأنْ تُشوِّشوا عليه حين يقرأ حتى لا تُعْطوا فرصة لمَنْ يسمع أن يتدبر وقولهم ﴿ **لَعَلَّكُمْ** .. (٢٦) ﴾ [فصلت] يعني : احتمال تكُون لكم الغلبة ، إنْ فعلتم ذلك فهو أمر غير مؤكد عندهم .

والدليل على ذلك أنهم آمنوا ببلاغة القرآن وإعجاز القرآن ، وآخر

المطاف لما ضاقتْ بهم الحيَل قالوا عن رسول الله ﷺ إنه مجنون وردَّ الله عليهم ، فقال لرسوله : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ [القلم] وهل للمجنون خلق ، وخلق عظيم ؟

قالوا ذلك وهم يعلمون صدق رسول الله وأمانته وحُسْن سيرته فيهم ، فقالوا : ساحر والرد على هذا سهل ، فلو أن محمداً سحر مَنْ آمن به ، فلماذا لم يَسْحركم كما سحرهم ، وتنتهى المسألة ؟ وقال : شاعر وكذبوا أيضاً ، لأنهم أمة كلام وبيانٍ ، ويعلمون جيداً ما الشعر ، وما جرَّبوا على محمد شيئاً من هذا .

وفى نهاية الأمر اعترفوا بصدق القرآن وبلاغته وإعجازه ، لكن اعترضوا على أنْ ينزل على محمد بالذات ، فقالوا : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾ [الزخرف]

فالآفة ليستْ فى القرآن ، فالقرآن لا غبار عليه ، الآفة فى نزوله على محمد وهو فقير من عامة القوم ، ليس سيِّداً من ساداتهم من عتبة وشيبة وغيرهما ، وبذلك أقروا وشهدوا للقرآن بأنه كتاب كامل يستوعب كلَّ وجوه الخير وكمالات الخلْق اللازمة لصلاح الدنيا والآخرة ، فاعتراضهم إذن على شخص رسول الله لا على القرآن .

لكنهم لم ينتبهوا إلى أنَّ شهادتهم للقرآن وإقرارهم بإعجازه أَوْلى عند رسول الله من شهادتكم له هو ؛ لأن الذين آمنوا بالله وآمنوا بوحى الله كانوا أقربَ لرسول الله ممَّنْ أنكروه .

فالرومان لم يُصدِّقوا محمداً ، لكنهم يؤمنون بكتاب ويؤمنون بوحى وبرسل ، وفارس لم يكُنْ عندها هذا الإيمان الذى عند الرومان ، فكانت قلوبُ رسول الله والمؤمنين تميل إلى الرومان ،

لأنهم أهلُ كتاب ويؤمنون بالله ؛ لأن عصبية رسول الله لربه فوق عصبيته لنفسه ، ألاَ ترى أن المسلمين حزنوا لما غُلِبَتْ الروم وفرحوا لما انتصروا بعد ذلك ؟

﴿ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾

الحق سبحانه وتعالى لم يترك عذابَ الذنوب إلى الآخرة حتى لا يستشرى أهلُ الباطل فى باطلهم ، لكن يُعجِّل الله لأهل الباطل لوناً من العذاب فى الدنيا قبل عذاب الآخرة ، وعذاب الآخرة أشد ؛ لذلك قال تعالى مخاطباً رسوله ﷺ : ﴿ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [غافر]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

﴿ ذَلكَ ﴾ يعنى ما سبق ذكره من العذاب ، والجحود هو الإنكار الشديد ، فالذين كفروا حينما وقفوا موقفهم من الإسلام ، وتبيَّن لهم كذب مَنْ دعوهم إلى الضلال وأضلوهم أصبح لهم ثأر ليس عند المؤمنين ، إنما عند الكافرين الذين أضلوهم وأبعدوهم عن الإيمان ؛ لذلك يوم القيامة يبحثون عنهم لينتقموا منهم ، وليجعلوهم تحت أقدامهم ، وتقوم معركة وجدال بين الفريقين التابعين والمتبوعين :

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

الحق سبحانه وتعالى فى أكثر من موضع من القرآن يُصوِّر لنا هذه المعركة الكلامية التى تدور بين الضالِّين والمضلِّين ، وكيف أن كلَّ واحد منهما يُلْقى باللائمة على الآخر ويتنصل هو من المسئولية .

لذلك إبليس سيغلب مَن اتبعه فى الضلال ، وستكون له الحجة الأقوى ، كما قال تعالى حكايةً عنه : ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ(١) وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ .. (٢٢)﴾ [إبراهيم]

يعنى : لا سلطانَ حجة تقنعكم ، ولا سلطانَ قوة تُرغمكم على الفعل ، وعجيبٌ أن يقول الكافرون هنا فى موقف القيامة ﴿رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلاَّنَا .. (٢٩)﴾ [فصلت] الآن يقولون ربنا ، ويعترفون له سبحانه بالربوبية ، ومعنى ﴿نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الأَسْفَلِينَ (٢٩)﴾ [فصلت] يعنى : نعذبهم نحن أولاً قبل أنْ تعذبهم أنت يا رب . وقولهم ﴿تَحْتَ أَقْدَامِنَا .. (٢٩)﴾ [فصلت] يعنى : عذاب إهانة لا عذابَ إيلام .

---

(١) المصرخ : المغيث المنقذ مَنْ يستصرخه . والصريخ : الاستغاثة والمستغيث والمغيث . [القاموس القويم ١/٣٧٣] .

ثم يقول سبحانه[(١)] :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

قالوا : ربنا الله ، هناك لَفْظَا رب وإله . ولكل لفظ منهما مجالٌ ومعنىً : فالربُّ هو الذى يُربِّى ويخلق ويتعهَّدنا بالنعم والأفضال ، ومنه قولنا : نربيه . يعنى : نعطيه ما يُؤهله لمهمته ، فالله ربٌّ خلق من عدم وأمدَّ من عُدم ، وظل يأخذنا بحنان يُوضع لبعضنا فى بعض ، إلى أنْ نقوى ويشتد ساعدنا ، ثم يكلفنا بعد ذلك تكليف الألوهية .

إذن : فعطاء الربوبية عطاء عام يعمُّ المؤمنَ والكافرَ ، والطائعَ والعاصى . فالله رَبُّ الجميع وَسِع فضله كلَّ خَلْقه ، خلقك وخلق لك مقومات حياتك قبل أنْ يخلقك ، وجعل لك عقلاً تُميِّز به وتختار بين البدائل ، فإنْ أحسنتَ التصرف بعقلك فيما أعطاك من مقومات تأخذ ثمرتها ، وإنْ لم تحسن فأنت الخاسر ، إذن : عطاء الربوبية للجميع ، والأسباب مُتاحة للجميع تعطى مَنْ يستحق العطاء حتى لو كان كافراً .

---

(١) سبب نزول الآية : عن ابن عباس قال : نزلت هذه الآية فى أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، وذلك أن المشركين قالوا ربنا الله والملائكة بناته وهؤلاء شفعاؤنا عند الله فلم يستقيموا . وقال أبو بكر : ربنا الله وحده لا شريك له ومحمد ﷺ عبده ورسوله . فاستقام . ذكره القرطبى فى تفسيره (٩/٦٠٢٣) .

ولذلك تجد فى قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام حينما قال : ﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ .. (١٢٦) ﴾ [البقرة] إذن : طلب الرزق فقط لمَنْ آمن ، فصحَّح اللهُ له هذه المعلومة ، وقال : ﴿ وَمَن كَفَرَ .. (١٢٦) ﴾ [البقرة] لأن رزقى لكل خَلْقى ، سواء آمن أو لم يؤمن لأنه خَلْقى وصنعتى ، وأنا الذى استدعيتُه للوجود ، فعلىَّ رزقه وعلىَّ مقومات حياته ، هذا عطاء الربوبية .

وسيدنا إبراهيم طرق بابه ليلاً طارقٌ يريد أنْ يبيتَ عنده ، فسأله أولاً عن دينه ، فعلم أنه غير مؤمن ، فأغلق الباب فى وجهه ، فانصرف الرجل ، وعاتب الله نبيه إبراهيم ، وقال له : يا إبراهيم وسعتُه فى مُلْكى ولم أقطع عنه رزقى مع كفره بى ، وأنت تريد أنْ تغير دينه فى ليلة تستضيفه فيها ؟

فأسرع سيدنا إبراهيم خلف الرجل حتى لحق به وأخذه فى ضيافته فتعجب الرجل وقال : لقد جئتك فرددتنى . فقال له : لكن ربى عاتبنى فيك ، فقال الرجل : أعاتبكَ ربك فى شأنى ؟ قال : نعم ، قال : فنعْم الربُّ ربٌّ يعاتب أنبياءه فى أعدائه ، ثم قال : أشهد ألاَّ إله إلا الله ، وأنك رسول الله .

لذلك كثيراً ما نتعجَّب من عطاء الله الواسع لغير المؤمنين ، وأن فى أيديهم كلَّ نعيم الدنيا وزخرفها فى حين يُحرم منها المؤمن ، ولا عجبَ فى ذلك لأن هذا عطاءُ الربوبية ، وهؤلاء أحسنوا استغلالَ الأسباب فأعطتْهم ، ولو أحسنتم أنتم كذلك لأعطتكُمُ الأسباب .

واقرأ قول الله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَـٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (٣٣) وَلِبُيُوتِهِمْ

﴿أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ (٣٤) وَزُخْرُفًا .. (٣٥)﴾ [الزخرف]

وتأمل ، ما المعارج ؟ هى المصاعد التى لم نعرفها نحن إلاَّ فى القرن العشرين ، أخبرنا القرآن بها قبل أربعة عشر قرناً ، هذه من معجزات القرآن التى ينثرها علينا من حين لآخر .

فقوله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ .. (٣٠)﴾ [فصلت] يعنى : اعترفوا له سبحانه بالربوبية ، وأقرُّوا أنه سبحانه هو الذى خلقنا وربَّانا وأعطانا وأنعم علينا ، ومن العجيب أنه لم يُكلِّفنا إلا بعد أنْ بلغنا أشدّنا ، يعنى : تركنى أربع فى الدنيا وأنعم بنعمه خمسة عشر عاماً دون أنْ يُكلّفنى بشىء ، لماذا ؟

لأنه لا يكلفك إلا بعد تمام تكوينك واكتمال قوتك ، لأنه لو كلفك قبل ذلك ثم طرأ عليك تغيير فى الخِلْقة وزيادة فى نمو بعض أعضائك لقلت له : يا رب لقد كَلَّفتنى ثم حدث لى تغيير فى كذا وكذا ، ولم أعُدْ صالحاً لهذا التكليف .

ومتى تبلغ أشدّك ؟ قالوا : حين تكون صالحاً لإنجاب مثلك ، عندها يكون اكتمال الخَلْق وتمام الرجولة ، ونحن نلاحظ هذا فى الثمار ، فالثمرة الناضجة تعطى بذرة ناضجة لو وُضعَتْ فى الأرض لأنبتتْ شجرة ، خُذْ مثلاً بطيخة قبل نضوجها تَجد لُبَّها أبيض وطعمها مائعاً ، لماذا ؟ لأنها لم تنضج بَعْد ولو زُرعت بذرتها لم تنبت .

فكأن الله يحرس الثمرة حتى تنضج البذرة ، وتصير صالحة لإنبات شجرة جديدة ، هذا نُسَميه استبقاء النوع ، وإلا لانقرضَ النوعُ ولو نضجتْ البطيخة وحَلاَ طعمها قبل بذرها لأكلناها وما سألنا فى مسألة البذرة والإنبات من جديد ، ولَمَا كان هناك بقاءٌ للنوع .

ولذلك إذا غفلتَ عن الثمـرة حتى استوتْ على عُـودها ولم تقطفها وقعتْ لك هى على الأرض ، وكـأنها تقول لك : خُذْنى لأنهـا ستؤدى مهـمة اللـذة فـى الطعم لك ، ومهـمة إنبات شـجرة جـديدة من نفس النوع .

والخَلْق على نوعين : خَلْق أول ، وخَلْق ثَانٍ . **الأول** : خلق أصول الأشياء . **والثانى** : خلق فروعـاً من أصول الأشـياء ؛ لذلك السـيدة مريم لمَّا قال لها يوسف النجار بعد أنْ ظهرت عليها علامات الحمل : يا مريم ، أتوجـد شجرة بلا بذرة ؟ قـالت : نعم الشجـرة التى أنبتتْ أول بذرة . هذا هو الخَلْق الأول كـخلق آدم عليـه السـلام خُلِق أولاً ، ومنه تناسل الناس .

إذن : التكليف لا يكون إلا بعـد سِنِّ البلوغ واكـتمال الرجـولة ، والذى يُكلِّـفنا هو الله ، فـالربُّ خلق ورزق وربَّى ، والله كلَّف وأمـر بالعبـادة ، فالله هو المعبـود يعنى : مُطاع فى أمره ونَهْيـه ، وقبل أنْ يكون مُطاعاً فى أمـره ونهْيه أعطاك عـطاءَ ربوبية ، فكأنه قدَّم الخـير لك أولاً قبل أنْ يأمرك بعبادته ، فلا أقلَّ من أنْ تقدم الخير بأنْ تطيع مَنْ رباك .

ولذلك جعل منزلة خاصة لـلأبوين ، وأوصى ببرِّهما ، وحذَّر من عقوقهما ، وجعل عقوق الوالدين من أكبر الكبائر ، لماذا ؟ قالوا : لأن الله أراد أنْ يروِّضك ويعلمك أنْ تحـترم مَنْ كـان سـبـباً مـباشـراً فى وجودك ، ثم بعد ذلك ينقلك إلى احترام سبب وجودك غير المباشر ، وهو الله سبـحانه ؛ لذلـك قال : ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا .. (٣٦)﴾ [النساء]

فالحق سبحانه حينما يأمرنا ببرِّ الوالدين إنما يدربنا على عرفان الحق لله تعالى ، فالله أوجد الخَلْق الأول ، والوالدان أوجدا الخلق الثانى ، وجعل احترام سبب الإيجاد الثانى وسيلةً لاحترام سبب الإيجاد الأول .

إذن : نقول الربوبية عطاء ، والألوهية تكليف ، لكنه تكليف يعطيك أولاً لأنك فى الدنيا ، وعمر الدنيا هو مقدار وجودك أنت فيها ، ولا دخْلَ لك فى عمر الدنيا من لدُن آدم حتى قيام الساعة ، لأن هذا الزمن كله لا يعنيك وهذه محكومة من الله طولاً ، هذا يعيش عشرة أعوام ، وهذا خمسين ، وهذا مائة ، فَطُول الأجل لا دخلَ لأحد فيه .

فبعد أن ذكر الحق سبحانه لنا طرفاً من الأمم المكذبة المعاندة للرسل وما آل إليه أمرهم من العذاب ، يذكر سبحانه المقابل وهم أهل الإيمان والاستقامة على الجادة ، فيقول تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا .. (٣٠) ﴾ [فصلت] قلنا : العمل قول وفعل . فالقول عمل اللسان ويقابله الفعل ، وهو عمل باقى الجوارح : فالرؤية للعين ، والسمع للأذن ، واللمس لليدين ، والسعى للقدمين .. الخ وكلٌّ من القول والفعل يُسمى عملاً .

فما عمل القلب ؟ القلب من الناحية المادية هو الوعاء المسئول عن ضخ الدم ، وهو سائل الحياة إلى باقى أجزاء الجسم ، وهو وعاء الإيمان والاعتقاد ، فإذا ما عمر باليقين والإيمان أشاع ذلك فى كل ذرة من ذرات الجسم ، لذلك نقول : عمل القلب الاعتقاد ، والعقيدة هى الشىء المعقود الذى لا يُحلُّ ، الشىء الذى استقر فى القلب فلا يخرج ليناقشه العقل من جديد .

قنا : إن الفكرة تُعرض أولاً على العقل ليبحثها ويناقشها ، فإن اطمأن إليها ألقاها إلى القلب لتستقرّ فيه عقيدة راسخة ، فالقلب إذن لا يستقبل إلا عقائدَ ثابتة ، وهذه العقائد هى التى ستكون مبدأ لك فى حركات حياتك .

ومن هنا نعلم أهمية دور اللسان وخطورته ، فله نصف العمل ، ولباقى الجوارح النصف الآخر ، ثم هو المعبِّر عنك المفصح عمَّا بداخلك ، والجوارح كلها ينبغى أنْ تتفاعل مع الكون تفاعلاً إيجابياً ، فالأذن تسمع ، والعين ترى ، والأنف يشم ، واليد تلمس ، فالجوارح تعطينى مادة الفكر وبها يصل المؤمن إلى آيات الله فى الكون ، بها يُعرف النافع ويُعرف الضار فيأخذ منها النافع ويبتعد عن الضار ، فالأذن تسمع كل شىء ، وعليك أن توجهها لسماع الخير وتبتعد بها عن سماع الشر ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾﴾ [الفرقان]

والعين تنظر بها إلى بديع صُنْع الله فى كونه ، وتغضُّها عن محارمه ، وها هو الكون أمامك كتاب مفتوح ، وما عليك إلا أن تقرأ ما فيه من آيات ومعجزات ، والسماء وما فيها من شمس وقمر ونجوم وأجرام ومجرَّات كلها تَسير بنظام دقيق محكم ، والأرض وما فيها من عناصر وما تنبته لنا من خيرات .

والحق سبحانه حينما يُحدِّثنا عن هذه الخيرات ويمتنُّ علينا بهذه النِّعم يُذكِّرنا بقدرته تعالى على زوالها ونقضها ، وكيف أنه لو شاء سبحانه لحرمنا ، بل ولحوَّل لنا هذه النعم إلى نقم والعياذ بالله ، لذلك لنا وقفة مع قوله سبحانه عن الزرع : ﴿أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [الواقعة] نعم نحن نحرث ونروى ونباشر ، لكن الإنبات بيد مَنْ ؟ ثم يُذكِّرنا سبحانه بقدرته على نقض هذه النعمة ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [الواقعة]

ثم يُحدِّثنا عن نعمة الماء ، وكيف ينقضها : ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (٦٨) أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ[1] أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ (٦٩) لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا[2] فَلَوْلا تَشْكُرُونَ (٧٠)﴾ [الواقعة]

لكن حين يُحدِّثنا الحق سبحانه عن نعمة النار يتركها دون أنْ يذكر ما ينقضها : ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ[3] (٧١) أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ (٧٢)﴾ [الواقعة]

هكذا دون أنْ يذكر ما ينقضها كسابقها ، لماذا ؟ قالوا : لأن هذه هى النار النافعة الصحية التى لا ضررَ فيها نوقدها لننتفع بها ، وكل نار بعدها لها ضرر ، لذلك لم يقل الحق سبحانه مثلاً : لو نشاء لجعلناها رماداً ، ذلك لتظل النار باقية تُذكِّرنا بنار الآخرة .

ثم لك أنْ تلحظ عظمة الأداء القرآنى ودقته فى التعبير ، فلما تكلم عن الزرع قال : ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا (٦٥)﴾ [الواقعة] هكذا بلام التوكيد ، لماذا ؟ ليؤكد قدرته تعالى على الذهاب بالزرع مهما كان ، والزرع للإنسان دور فيه وتدخّل ، فهو يحرث ويروى ويباشر ، إنما حين تكلم عن خَلْق الإنسان وعن الماء لم يذكر فى ذلك توكيداً ؛ ذلك لأن مسألة الخلق ومسألة نزول الماء من السماء لا دخْلَ للإنسان فيها .

---

(١) المزن : جمع مُزْنة . وهى السحابة البيضاء . قاله الجوهرى فى الصحاح ، وقال ابن الأثير : المزن وهو الغيم والسحاب .

(٢) الأجاج : الشديد الملوحة . وقيل : المرارة ، وقيل : الشديد المرارة ، قاله ابن سيده فى (المحكم والمحيط الأعظم) مادة : أجج .

(٣) تورون : تقدحون من الزناد وتستخرجونها من أصلها . قاله ابن كثير فى تفسير الآية (الواقعة ٧٢) قال السمرقندى فى (بحر العلوم) : الزند خشبة يُحَكّ بعضه على بعض فيخرج منه النار .

والآيات فى كَوْنِ الله كثيرة صنَّفها العلماء إلى ثلاثة أقسام :

آيات كونية : تثبت قدرة الخالق سبحانه كالليل والنهار والشمس والقمر ، ثم آيات معجزات : صاحبتْ رسل الله لتثبتَ صدقه فى البلاغ عن الله ، وآخرها آيات الأحكام : وهى آيات القرآن الكريم التى تحمل منهج الله للناس . وهذه كلها تخدم قضية اليقين والإيمان بالله .

فإذا أُشْرِبَ الإنسان العقيدة الإيمانية أعلنها بلسانه فرحاً بها . وهنا يأتى دور اللسان المعبِّر عما فى القلب والقائد لباقى الجوارح ، لذلك ورد فى الحديث الشريف أن سيدنا رسول الله ﷺ قال : « ما من يوم إلا وتنادى الجوارحُ اللسانَ تقول : اتق الله فينا ، فإنما نحن بك ، فإذا استقمتَ استقمنا ، وإذا اعوججتَ اعوججنا »(1)

فقوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ﴿٣٠﴾﴾ [فصلت] دلَّ على قَوْل المؤمنين الذى رسخ الإيمانُ فى قلوبهم ، فعبَّرت عنه الألسنة ﴿رَبُّنَا اللَّهُ ﴿٣٠﴾﴾ [فصلت] مُوجدنا ومربِّينا الذى خلقنا من عدم ، وأمدنا من عُدْم ، وأعطانا الأمن والأمان ، لأنه القائل : ﴿لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ ﴿٢٥٥﴾﴾ [البقرة]

فالإنسان إنْ أراد حارساً استأجر له حارساً ، فكيف به إذا نام حارسه ، أما أنت أيها المؤمن ففى حراسة الله فنَمْ مطمئن القلب ، لأن حارسك لا تأخذه سِنَة ولا نوم .

فالمؤمن حين يباشر كل هذا النعيم ، وحين يرى مقومات حياته فى متناول يده من طعام وشراب ، وأمن وسلام ، هواء يتنفسه

---

(1) أخرج أحمد فى مسنده (٣/٩٦) ، والترمذى فى سننه (٢٤٠٧) من حديث أبى سعيد الخدرى ولفظه : « إذا أصبح ابن آدم فإن أعضاءه تُكفِّر اللسان تقول : اتق الله فينا ، فإنك إن استقمتَ استقمنا ، وإن اعوججت اعوججنا » .

وأرض تعطيه كل ما يشتهى ، يفرح بعطاء الله له ولا يملك إلا أنْ يقول (رَبُّنَا اللهُ) لأنها أصبحت عقيدة ثابتة فى القلب .

وما دام ربك الله ، فلا تحزن ولا تهتم لأمر الدنيا فالله ُمتولِّى أمرك ، إنك ترى الولد فى حياة أبيه لا يحمل هَمَّ شىء ، ولا يفكر فى غلاء الأسعار ، ولا فى توفير القوت والسلع والملابس .. الخ لأن والده موجود ، فما بالك إنْ كان الله هو الذى يتولاك ؟ والله إن المؤمن الحق ليستحى أنْ يحمل همَّ الرزق أو العيش ، وهو يعلم أن ربه الله .

وما دام ﴿رَبُّنَا اللَّهُ ﴿٣٠﴾﴾ [فصلت] فلا كرْبَ وأنت رَبٌّ . ربك سيتولاك ، ويبعد عنك كل سوء ، ويكفيك كل ما أهمك .

تذكرون قصة سيدنا موسى عليه السلام مع فرعون ، فلما اتبعه فرعون بجنوده ﴿قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الشعراء] هكذا يقول واقع الأحداث ، فأمامهم البحر وخلفهم جنود فرعون ولا مفرّ ، لكن ماذا قال موسى ؟ قال : (كلا) يعنى : لن يدركونا ولن ينالوا منا . قالها من رصيده الإيمانى وثقته فى ربه وحمايته له ، فما كان الله ليرسل رسولاً ثم يُسلمه لعدوه .

﴿قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾﴾ [الشعراء] لذلك جاءه الفرج من ربه فى التو : ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾﴾ [الشعراء]

تأمل هنا حراسة الله لأوليائه ، وتأمل هذه المعجزة ، وهذه الربوبية ، فما أنْ قال موسى قولته بصدق الإيمان إلا وجاءه الردُّ ، فسلب الله من الماء خاصية السيولة وتجمد الماء فسار على الجانبين ، كل فِرْق كالطود العظيم ، وفى الوسط طريق جاف يابس عبر منه

موسى وجنوده .

حتى إذا ما وصل الشاطىء الآخر أراد أنْ يضرب البحر مرة أخرى ليعود إلى سيولته ويغلق الطريق فى وجه فرعون . فأرشده ربه وصحَّح له وجهة نظره فلله تدبير آخر ، والموقف لم ينته بعد ، فقال الله لموسى : ﴿ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا [1] إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ (٢٤) ﴾ [الدخان]

بعد أن نجَّى الله موسى وقومه وذهب بهم إلى الصحراء جعل لنفس العصا دوراً آخر : ﴿ وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا .. (٦٠) ﴾ [البقرة] فالعصا واحدة يضرب بها الماء فيصير جبلاً ، ويضرب بها الجبل فيتفجر بالماء ، فالأثر مختلف لأن الفاعل هو الله القادر .

فقوله تعالى : ﴿ رَبُّنَا اللَّهُ (٣٠) ﴾ [فصلت] تعطينا فكرة إجمالية عن عطاء الربوبية للمادة وللقيم ، فربُّك الذى أمدك بمقومات المادة ما كان ليتركك بدون مقومات الروح والقيم ، فكما أخذتَ نعمَه فى المطعم والمشرب والمسكن فخُذْ نعمه فى التكليف ، لأنه بالتكليف يربى فيك الروح والقيم .

وهنا ينبغى أن نتأمل مثلاً قوله تعالى : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (٢٦) ﴾ [الأعراف]

فالله تعالى أعطاك الضرورى من اللباس وهو ما يستر عورتك ، ثم زادك الرياش وهو ترف اللباس والزينة التى يتباهى بها الإنسان ،

---

(١) رهواً : سهلاً ساكناً . [الجوهرى فى الصحاح] قال ابن سيده فى كتاب المحكم : « كل ساكن لا يتحرك : راهٍ » . وقال الزجاج : رهواً هنا : يبساً .

لذلك نقول (فلان ده متريش) .

لكن لا تنسَ أن لباس التقوى ذلك خير ، يعنى : أفضل من اللباس الأول ، فلباس المادة يستر عورتك فى الدنيا ، أما لباس التقوى فيسترك فى الدنيا وينجيك فى الآخرة .

إذن : فهو عطاء ممتدّ باق خالد فى الآخرة . فهو إذن خير لباس لمن وعى وفهم . فربُّك بربوبيته لنا أعطانا ما يقيم مادتنا وما يسعد دنيانا ، وما كان سبحانه ليترك قلوبنا خالية من الأخلاق والقيم الروحية التى تُسعدنا فى الآخرة .

واقرأ إنْ شئت قوله تعالى : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ[1] وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (١٤) ﴾ [آل عمران]

فما عند الله فى الآخرة هو الباقى ، والمادة تفنى وتزول ، والدنيا كلها ما هى إلا مرحلة إعداد للآخرة الباقية ، حيث يعطيك ربك العطاء الحق ، العطاء الممتد . انظر إلى الولد الصغير نعلمه (ابتدائى وإعدادى وثانوى وجامعة) ، لماذا كل هذا التعب ؟ للثمرة المرجوة بعد ذلك ليكون عضواً بنَّاءً فى حركة الحياة ، كذلك نحن فى الدنيا نعمل لهدف أسْمى هو الآخرة ، حيث النعيم الباقى الذى لا يُنغصه شىء .

وتأمل هذا الإقرار من المؤمنين حين قالوا ﴿ رَبُّنَا اللَّهُ (٣٠) ﴾ [فصلت] إقرار يجمع بين عطاء الربوبية والاعتراف به وعطاء الألوهية ،

(١) قال الطبرى فى تفسير الآية [آل عمران ١٤] : اختلف أهل التأويل فى معنى المسوَّمة . فقال بعضهم : هى الراعية ، أى السائمة . وقال آخرون : الحسان ، وقال آخرون : المعلَّمة . وقال آخرون : المعدَّة للجهاد .

فالرب هو نفسه الإله المعطى هو نفسه سبحانه المكلف ، ومَنْ قَبلَ من ربه عطاء الربوبية وأخذ نعمه إيجاداً من عدم وإمداداً من عُدْم لا يليق به أنْ يترك تكاليفه ، خاصة وهى تكاليف تسعد الإنسان فى الدنيا والآخرة ، ما جاءت لتضيق عليه أو تشق عليه .

فعطاء الربوبية موجود أيضاً فى عطاء الألوهية ، ومعلوم أن التكاليف جاءتْ بافعل ولا تفعل ، وعليك أن تفعل فى الأمر ، وأنْ تنتهى عند النهى ، وما لم يردْ فيه نصّ فأنت فيه حُرٌّ و تفعل أو لا تفعل .

ثم يقول تعالى حكايةً عن المؤمنين بعد أنْ قالوا ربنا الله وأقروا لله تعالى بالربوبية والألوهية ، واستقرتْ عندهم هذه العقيدة راسخة ثابتة يقول : ﴿ثُمَّ اسْتَقَامُوا (٣٠)﴾ [فصلت] يعنى : بعد القول جاء العمل .

وتأمل هنا حرف العطف ثم ، فهو يفيد فى اللغة الترتيب والتراخى ، ولم يقلْ سبحانه فاستقاموا لحكمة ، وكأن الحق سبحانه أراد أنْ يعطيك فرصة لتتأمل فيها هذه العقيدة وتبحثها وتقتنع بها ، أعطاك فرصة لتراجع هذه العقيدة فى نفسك لتؤمن بها عن رضاً ، وتعمل بها عن اقتناع ، لتقبل عليها فى حب قد يصل بك إلى درجة العشق لهذه الاستقامة .

ومعنى الاستقامة : أخْذ الشيء على قوامه ، وهى تتطلب سَيْراً على خط مستقيم ، الذى سمَّاه الله الصراط المستقيم ، فالله يريد منك أيها المؤمن أنْ تجعل الوسيلة إلى الغاية من عمل التكليف مثل الصراط لا تميل عنه قيد شعرة ، ولا تنحرف عن جادته .

فأنت حين تسير فى شارع متسع يمكن فى السير أن تذهب هنا مرة وهنا مرة ، نعم يجوز لك ذلك ، لكن لا تنْسَ أنه يطيل عليك المسافة ويزيد المشقة .

لذلك سمَّى الله طريقه الموصِّل إلى جنته ﴿الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾﴾ [الفاتحة] وفى موضع آخر قال ﴿سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾﴾ [البقرة] يعنى : فى وسطه دون انحراف .

فإذا كانت الغاية بعيدة احتاجت منك للوصول إليها إلى الإسراع فى الحركة لتدرك ما تريد ، فما بالك بمن كانت غايته الجنة ؟ لا شكّ أنه يسرع إليها ولا يدخر فى سبيل الوصول إليها وُسْعاً .

لذلك نقول : لا ينبغى للمؤمن أنْ يكره الموت لأنه سيُوصِّله إلى غايته ، إنما يكرهه إنْ كان عمله غير صالح ، نعم يكره أنْ يلقى الله وهو على غير الصلاح . فعند ظهور النتيجة مثلاً ترى الطالب المجتهد يُسرع إليها ، لماذا ؟ لأنه مطمئن إليها ، أما الكسول فتراه بطيئاً غير مهتم .

لذلك ربنا تبارك وتعالى يُعلِّمنا : ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [آل عمران]

وقال فى وصف المؤمنين : ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء] والمعنى : إياك أنْ تشغلك دنياك ، أو تقيد حركتك إلى الآخرة ، بل سارع اجْرِ فى اتجاهها ، لأنك لا تعرف كم تقطع من الطريق قبل أنْ يدركك الموت .

ومن عدالته سبحانه مع عبده أنْ أخذ لنفسه عمر العبد طولاً ، لكن ترك له بُعدين آخرين هما العرض والعمق ، كيف ؟ قالوا : عمرك من حيث الزمن طولاً لا يعلمه إلا الله ، ولا يملك نهايته إلا الله وحده ، لكن ترك لك أنْ تمد فى العرض كما شئتَ ، فيمكنك أنْ تستثمر اللحظة التى تعيشها وتُوسِّع دائرة الخير فيها ، وبذلك يكون العرضُ أكبر من الطول فليستْ العبرةُ بطول العمر ، ولكن بقدر العمل الصالح فيه .

فمن الناس مَنْ يعمل فى العمر القصير أعمالاً جليلة لا يعملها صاحب العمر الطويل ، لذلك لما وصف الله لنا الجنة قال :

﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا(١) السَّمَٰوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) ﴾ [آل عمران]

فذكر العرض ، وإذا كان عرضها السموات والأرض ، فما بالك بطولها ؟

ثم أعطاك بُعداً آخر هو العمق ، والعمق فى العمر يكون للإنسان بعد موته وانقطاع عمله فى الدنيا ، وذلك بأن يبقى أثر خيره من بعده ممتداً فى عمق الزمان .

والحق سبحانه حين يأمرنا بالسير على الصراط المستقيم ، وحين يأمرنا بالمسارعة فى الخيرات إنما يريد لنا أيسرَ السُّبل التى تُوصِّلنا إلى أشرف الغايات بأقلِّ مجهود ، ومعلوم عند علماء الهندسة أن الخطَّ المستقيم هو أقربُ طريق وأقصر مسافة بين نقطتين .

فالله لا يريد منا حركات طويلة بلا جدوى ، وفى نفس الوقت

---

(١) أخرج البزار عن أبى هريرة رفعه قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : أرأيت قوله تعالى : ﴿ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَٰوَاتُ وَالْأَرْضُ .. (١٣٣) ﴾ [آل عمران] فأين النار ؟ قال : أرأيت الليل إذا جاء لبس كل شىء فأين النهار ؟ قال : حيث شاء الله . قال : وكذلك النار تكون حيث شاء الله ..

قال ابن كثير فى تفسيره (١/ ٤٠٤) : « وهذا يحتمل معنيين :

أحدهما : أنه لا يلزم من عدم مشاهدتنا الليل إذا جاء النهار أن لا يكون فى مكان وإن كنا لا نعلمه ، وكذلك النار تكون حيث شاء الله وهذا أظهر .

الثانى : أن النهار إذا تغشَّى وجه العالم من هذا الجانب فإن الليل يكون من الجانب الآخر فكذلك الجنة فى أعلى العليين فوق السماوات تحت العرش وعرضها كما قال الله ، والنار فى أسفل سافلين فلا تنافى بين كونها كعرض السماوات والأرض وبين وجود النار .

يأمرنا أن نسارع ليظل لدينا النشاط اللازم للوصول . لذلك قال تعالى فى أول سورة الكهف : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا (١) قَيِّمًا .. (٢)﴾ [الكهف]

والاستقامة التى يريدها الله لنا لها أركان بيَّنها النبى ﷺ فى قوله : « بُنِى الإسلام على خمس : شهادة ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت من استطاع إليه سبيلاً »(١)

وإياك أن تظن أن الدين فى هذه الأركان الخمسة فحسب ، لا ، هذه هى القواعد والأُسُس التى يقوم عليها بناء الدين ، أما الدين تفصيلاً فيتغلغل فى كل حركة من حركات الحياة .

وهذه المسألة واضحة فى الحديث الشريف : « الإيمان بضع وستون شعبة أو بضع وسبعون شعبة ، أعلاها قَوْل لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان »(٢)

فالأركان ليست هى كلّ الإسلام بل هى أسسه وقواعده ، فالشهادتان إقرار لله تعالى بالألوهية ، وإذعانٌ له سبحانه بالطاعة ، وتصديق برسوله ﷺ ، وفى الصلاة التى هى كل يوم خمس مرات إعلانٌ للولاء الدائم لله تعالى .

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٨) ومسلم فى صحيحه (١٦) من حديث ابن عمر رضى الله عنهما قال قال رسول الله : « بنى الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والحج وصوم رمضان » .

(٢) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى في صحيحه (٩) ومسلم في صحيحه (٣٥) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

وفى الزكاة تهذيبٌ للنفس وتعويدٌ لها على العطاء والمشاركة والنظر إلى الفقير ، فقير الإعاقة عن الحركة لا فقير الاحتراف ، فى الزكاة تكافلٌ فأنت اليوم قوىٌّ قادر على العطاء ، فمَنْ يدريك لعلَّك تصير إلى الضعف وعدم القدرة فتجد فى المجتمع مَنْ يمد لك يد العون .

ثم إنَّ الزكاةَ تنزع من المجتمع فتيل الحقد والحسد والغيرة ، وكيف يحسد الفقيرُ الغنى أو يحقد عليه وهو يعطيه ثمرة عرقه ويشركه فى ماله ؟ إذن : فى الزكاة تأمينٌ للفرد المؤمن أعظمَ تأمين .

لذلك قلنا فى المجتمع الإيمانى : إنك لا تعمل بقدر حاجتك ، إنما تعمل بقدر طاقتك ، فما احتجتَ إليه فخُذْه ، وما لم تحتجْ إليه وزاد عنك فتصدَّق به على غير القادر ، أنت تتصدَّق وأنت تذهب بنفسك إلى باب الفقير لتعطيه لتحفظ لأخيك ماءَ وجهه ، وتُعفيه من مذلّة السؤال ولتنال أنت هذه الدرجة .

ثم يأتى الحج ليضيفَ إلى هذه المعانى معنىً إيمانياً آخر ، فربُّكَ الذى خلقك وأعطاك وأمدَّك ومنحك القدرة والاستطاعة ألاَ يستحق منك أنْ تذهبَ إليه فى بيته الذى اختاره لنفسه ، ولو مرة واحدة فى العمر ؟

إنها زيارة ليست بإرادة الضيف وإنما بدعوة من المضيف ، لذلك حين تذهب إلى بيت ربك فى هذه الفريضة فسوف تُعرِّض نفسك لعطاء آخر ما له حدود ، ثم فى الحج منافع أخرى دينية ودنيوية لا تَخْفى على المتأمل .

أما الصوم فيعطيك بُعداً آخر للطاعة ، فأنت قبل الفجر تأكل وتشرب ، وبعد الفجر يحرمُ عليك أنْ تأكل وتشرب ، فبين الحلال والحرام هنا لحظة . وأنت حين تصوم تصوم عن شىء أحلّه الله لك

قبل الصيـام ، فأنت حين تصوم تصـوم عن شيء حلال أصلاً ؛ لأن الإسلام حرَّم عليك أشياء تحريماً مطلقاً كالخمر مثلاً .

فنحن والحمد لله لا نشربها ولا نفكر أبداً في شربها ، حتى صار ذلك طبعـاً وعادة ، فأراد سـبحانه أنْ يُخْـرجنا من إلْف هذه العادة ، وأنْ يديم على عـبـده حـلاوة التكليف من الله في شيء حـلال الآن ، وبعد لحـظة واحدة يكون حرامـاً ، فأخـرجنا الحق سبحـانه من إلف العادة إلى شرف العبادة .

أما الركن الـدائم الذى لا يسقط عن المـؤمن إلا فى حالة فـقدان العقـل فهو الصـلاة ، فهى خـمسُ صلوات فى اليوم والليلة يُـراد بها دوام الحـضور فـى معـيـة الله ، فهى تخـتلف فى دوامـهـا عن باقى الفـروض ، فالزكـاة مرتبطة بالـمحـصول أو بدورة المـال السنوية ، والصــوم مرتبط بشــهر واحـد فى السنة هو رمـضـان ، والحج مـرة واحدة فى العمر .

وكَوْن الصلاة خمس مرات فى اليوم والليلة رحمةٌ من الله بعباده ، فأنت صنعةُ الله ويستدعيك إلى حضرته تعالى خمس مرات ليُصلح ما فسد فيك ، وما بالك بصنعة تُعرَضُ على صانعها خمس مرات كل يوم وليلة ؟

وإذا كان المهندس مثلاً يصلح الآلة بـقطعة سلك أو قطعة غيار ، فكذلك ربك يصلحك ، ولكن المهندس مـادة يصلح بالمادة ، والله غيب يُصلحك بالغيب ، فلا تتعب نفسك فى بحث هذه المسألة ودَعْها لله ، فقط علـيك أنْ تعرض نفسـك عليه سبـحانه فى الخـمس صلوات فى أوقاتها ، وأنْ تُتمَّ لها ركوعها وسجودها وشروطها .

ولا شكَّ أنك ستلحظ هذا الإصلاح فى نفسك ، وفى روحك ، وفى مادتك ، وفى مالك ، وفى أهلك ، ستـحس أن للصلاة أثراً فى حياتك

وراحة فى بدنك ، لذلك كان سيدنا رسول الله يقول لبلال : « أرحنا بها يا بلال »[(١)] نعم أرحنا بها ، لا أرحنا منها .

ولأهمية الصلاة فى حياة المسلم جعلها رسول الله ﷺ أُمَّ الاستقامة وعنواناً لها ، واقرأ إن شئت قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ .. (٤٥) ﴾ [العنكبوت]

وفى الحديث الشريف : « أول ما يُحاسب العبدُ عليه يوم القيامة الصلاة ، فإنْ صلُحت صلُح سائر عمله ، وإنْ فسدتْ فسد سائر عمله »[(٢)]

لذلك كان للصلاة هذه المنزلة الخاصة ، فأنت ترى الفقير لا زكاةَ عليه ولا حج ، وترى المريض لا يصوم ، على خلاف الصلاة التى تلازم المسلم فى صحته ومرضه ، فى غناه وفى فقره ، فى سفره وفى إقامته ، فقط الجنون هو الذى يرفع عن صاحبه الصلاة .

إذن : فهى الركن الملازم لك ، ومن هنا كان للصلاة خصوصية فى فرضيتها ، فكل العبادات فُرِضَتْ بالوحى إلا الصلاة فقد فُرِضتْ على سيدنا رسول الله بالمباشرة فى رحلة الإسراء والمعراج ، وهذا يدل على

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل فى مسنده (٥/ ٣٦٤) وأبو داود فى سننه (٤٩٨٥) عن رجل من الصحابة.

(٢) هذا الحديث ورد بروايات كثيرة وبألفاظ كثيرة منها :

- عن أبى هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله صلاته ، فإن صلحت فقد أفلح وأنجح ، وإن فسدت فقد خاب وخسر » الترمذى فى سننه (٣٧٨) وقال : حديث حسن غريب . والنسائى فى سننه (٤٦١) .
- وعن أبى هريرة أيضاً : « إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة صلاته ، فإن وجدت تامة كتبت تامة ، وإن كان انتقص منها شىء قال : انظروا هل تجدون له من تطوع يكمل ما ضيع من فريضة من تطوعه . ثم سائر الأعمال تجرى على حسب ذلك » . أخرجه النسائى حديث (٤٦٢ ، ٤٦٣) ، وابن ماجه فى سننه (١٤١٥) ، وأحمد فى مسنده (٩١٣٠) .
- أما اللفظ الذى أورده الشيخ فقد أخرجه الطبرانى فى المعجم الأوسط حديث (١٩٢٩) عن أنس بن مالك . فى سنده القاسم بن عثمان الراوى عن أنس . قال البخارى : له أحاديث لا يتابع عليها . وفيه إسماعيل بن عيسى ضعفه الأزدى . وهى طريق ضعيفة كما قال الألبانى ، ولكنه قال بعد أن سرد جميع طرق الحديث : الحديث صحيح بمجموع طرقه .

أهميتها بين باقى العبادات .

وسبق أنْ أوضحنا أن الرئيس فى العمل قد يرسل لك ورقة أو يُحدِّثك فى التليفون فى أمر من الأمور ، لكن إنْ كان الأمر ذا أهمية وخصوصية استدعاك إلى مكتبه ليكلمك مباشرة ، وهكذا كانت الصلاة فقد أخذتْ قيمتها من هذه المباشرة حين فرضيتها .

ثم إن الصلاةَ ركنٌ يجمع باقى الأركان ففيها الشهادتان ، والشهادة التى هى قمة الإيمان والعقيدة يكفى أنْ يقولها المسلم ولو مرة واحدة ، أما فى الصلاة فيقولها عدة مرات ، وفيها صيام أبلغ من صيام رمضان فأنت فى رمضان تصوم عن الطعام والشراب والمفطرات ، أما فى الصلاة فأنت تصوم عن أكثر من ذلك ، تصوم عن الحركة وتصوم عن الكلام .

وفيها حج لأنك لا تصلى إلا إذا اتجهتَ بوجهك ناحية بيت الله الحرام وتمثَّلته أمامك ، كأنك تنظر إليه . وفى الصلاة زكاة لأنك تُضحِّى فى سبيلها بما هو أغلى من المال وهو الوقت .

لذلك بيَّن سيدنا رسول الله ﷺ أن الفرق بين المؤمن والكافر الصلاة ، فقال : « العهد الذى بيننا وبينهم الصلاة ، فمَنْ تركها فقد كفر »(١) فإذا دعاك ربك إلى الصلاة فلم تُجبْ فأنت عاصٍ ، أرأيتَ رئيسك فى العمل إذا دعاك إلى مكتبه فلم تُلَبِّ ، ماذا يحدث ؟

ومن عظمة هذه الفريضة أنها لقاءٌ مع الله ، لك أنت أيها العبد الحرية التامة فيه وتملك كل عناصره ، فأنت تُحدد اللقاء مكانه وزمانه ، وماذا تقول فيه ، ومتى تُنهى هذا اللقاء ، فقط تسمع النداء فتذهب وتتوضأ ، ترفع يديك إلى السماء : الله أكبر . أنت إذن فى حضرة ربك ، وفى رحاب خالقك ، أنت معه

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٥/٣٤٦) ، وابن ماجه فى سننه (١٠٧٩) كتاب إقامة الصلاة ، والترمذى فى سننه (٢٦٢١) من حديث أبى موسى الأشعرى . وقال : هذا حديث حسن صحيح غريب .

على (خط مباشر) ، ليس بينك وبينه حاجب ولا دونه حُرّاس ولا واسطة .

لذلك يقول بعض الصالحين :

حَسْبُ نَفْسى عِــزاً بأنّى عَبْـدُ يَحْتَفــى بى بلاَ مَواعيدَ رَبُّ

هُــوَ فى قُدْسِــه الأعَزِّ ولكـنْ أنا ألْقَــى متَى وأيْـنَ أُحِــبُّ

فربُّك لا ينتظرك أنْ تأتيه ، إنما يدعـوك لزيارته ، يُقبل عليك قبل أنْ تُقبل عليـه ، ألم يقُلْ فى الحديث القدسى الشـريف : « مَنْ ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، ومَنْ ذكرنى فى ملأ ذكرتُه فى ملأ خير منهم ، ومَنْ أتانى يمشى أتيتُه هرولةً ، ومَنْ تقرَّب منى ذراعاً تقربت منه باعاً »(١) .

إذن : فالـزمام فى يدك أنت ، ونعْم الربُّ رَبٌّ يعـامل عبـاده هذه المعاملة ، ويُحسن إليهم كلَّ هذا الإحسَان .

ومن كـرمـه سبـحانـه أنْ يُثيبَ العـبد علـى كل حـركة خـيـر فى دنيـاه ، لأن هذه الحـركـةَ مـطلوبةٌ للإيمـان ؛ لذلك يـقـول تعـالى فى سورة (الجمعة) : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ﴿٩﴾ ﴾ [الجمعة]

وبعد الصلاة قال : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ ﴿١٠﴾ ﴾ [الجمعة] فأخذك من عمل وأعادك إلى عمل ، لأن العـمل فى ذاته طاعة ، والمـؤمن لا بدَّ أنْ يسـهم فى حركـة الحيـاة مساهمةً إيجابية بنَّاءة .

الإسلام إذن لا يقتـصر على هذه الأركان الخمس ، بـل يمتد إلى

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٧٤٠٥ ، ٧٥٠٥ ، ٧٥٣٧) وأحمد فى مسنده (٢ / ٢٥١ ، ٣٥٤ ، ٤٠٥) والترمذى فى سننه (٣٦٠٣) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه . قال الترمذى : حديث حسن صحيح .

كل حركة من حركات الحياة ، فأنت تؤسس بيتاً مثلاً وتقيمه على أعمدة ، لكن بعد ذلك تُقسمه إلى : حجرة نوم ، وحجرة للسفرة ، وحجرة للصالون ، وحجرة للمطبخ وهكذا .

والإسلام يهدف إلى سلامة حركة الحياة وخُلوها من الصراع ، ومن التصادم ، يريد أن تتساند حركة الجماعة لا تتعاند ، لا يريد واحداً يبنى والآخر يهدم ، بل كلنا يبنى ولا أحدَ يهدم ، فالحق سبحانه أعطانا هذا الكون الذى نعيش فيه وهو على حالة الصلاح وعلى هيئة الجمال والتناسق ، وأوصانا أنْ نحافظ عليه ، وأن نزيد فى صلاحه ، وعلى الأقل نتركه على صلاحه ولا نفسده .

وعلَّمنا حين نصلح أنْ نصلح بحركة محسوبة العواقب ، وألاَّ ندخل فى شىء لا نعرف الخروج منه ، وألاَّ تغرَّنا ظواهر الأشياء ، هذه صفات العقلاء الذين يتصرفون فى الأمور بحكمة ، ويزنون الخير والشر فيقبلون على أسباب الخير وينصرفون عن أسباب الشر .

ونضرب مثلاً فى عصرنا الحالى بدودة القطن التى كانت تعبث بغالب ثروة مصر من هذا المحصول الهام ، إلى أن اخترع العلماءُ مبيداً حشرياً لها سموه الـ (D.D.T) فتسابق الناسُ إلى استخدامه ، وظنوا أنه سيقضى على الدودة بلا رجعة ، وأن المشكلة قد انتهت ، وبعد عدة سنوات أخذت الدودة حصانةً من هذا السُّم ، وأصبحت كما نقول (كيفة) (D.D.T) وبقيتْ الدودة كما هى ، وبقيتْ معها آثار جانبية أصابت الماء والزرع والتربة ولوَّثتْ كل شىء فى حياتنا ، وها نحن الآن نعانى أشدَّ المعاناة بسبب المبيدات الحشرية .

لذلك الحق سبحانه وتعالى يحذرنا من رعونة الابتكار ، ومن الاغترار بالخير الظاهرى دون حساب للعواقب ، فإياك أنْ تدخل فى

أمر يُعييك الخروج منه ، تأمل قول الله تعالى وهو يمتنُّ على عباده ببعض نعمه عليهم : ﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [النحل]

نعم ، كنا لا نعرف من وسائل النقل والركوب إلا الخيل والبغال والحمير ، ثم اخترع الإنسانُ بعد ذلك ما لم يكُنْ يعلمه من السيارات والطائرات والصواريخ ، وهذه الوسائل المستخدمة لا شكَّ أنها خدمتْ الإنسان ويسَّرَتْ عليه ، لكن مع ذلك كان لها أضرار ومعاطب لم تكُنْ في حُسْبان مَن اخترعها .

عندما ظهرت السيارات كنا نذهب بها إلى دمياط ، ولم تكُنْ الطرق مرصوفة كما هي الآن ، فكان السائق ينطلق بها بسرعة على الطريق الترابي فتثير الغبار خلفها بشدة ، غبار يؤذي الناس ويؤذي المزروعات ، فضلاً عن عادم الوقود وما يُسبِّبه من أضرار للجهاز التنفسي .

ثم كانت تُحدث كثيراً من التصادمات ، وينتج عنها قتلى ومصابون تترك في المجتمع مآسيَ ، وإذا انتهى (البنزين) منها تقف مكانها لا تتحرك ؟

فإذا ما قارنتَ هذه الوسيلة بالوسائل الطبيعية التي خلقها الله وجدنا خَلْق الله أفضل وأسْلم ، فالجمل أو الحمار يوصلك وينقل لك متاعك دون أنْ يُسبب لك هذه المعاطب ، ففضلاته سماد للتربة ، وإذا جاع لا يتوقف إنما يكمل بك المشوار ، ثم هل رأيتم مثلاً جملين اصطدم أحدهما بالآخر .

إذن : علينا قبل أنْ نخترع شيئاً أن نحسب عواقبه ، وغلبة الخير فيه على الشر ، والنفع على الضرر .

ثم يُبيِّن الحق سبحانه جزاء هؤلاء المؤمنين الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ، ما جزاؤهم ؟ ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا (٣٠)﴾ [فصلت] نعم ملائكة الله فى السماء هذه المخلوقات النورانية التى لا عملَ لها إلا تسبيح الله ، فلا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يُؤمرون ، فحين تنزل بالمؤمن شدةٌ أو يصيبه مكروه تتنزَّل عليه هذه الملائكة تُثبِّته فيعود إلى ما يجب أنْ يعودَ إليه من الصبر . فيقول : لا كربَ وأنت رب ، أنا لى رَبٌّ قوىٌّ قادر سيُفرِّج همِّى ويُزيل كَرْبى .

وهذا حال المؤمن حين يحزبه أمر وتضيق به أسبابه يلجأ إلى المسبِّب سبحانه ، فيأتيه الإلهام من الله أنِ اصبر واحتسب ، وربما كانت المصيبة امتحاناً من الله ، أو كانت تكفيراً لذنب بدر منى فعاقبنى الله به فى الدنيا وعافانى منه فى الآخرة ، وهذه علامة حب الله للعبد أنْ يُعجِّل له العقوبة فى الدنيا ، ويغفرها له فى الآخرة .

لذلك كان الكفار يفرحون حين تصيب المؤمنين مصيبة ، فعلَّم اللهُ نبيه ﷺ أنْ يقول : ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا (٥١)﴾ [التوبة] فأنتم تفرحون إنْ نزلتْ بنا مصيبة ، ونحن كذلك نفرح بها لأنها من الله ، والمصيبة للمؤمن إما يُكفِّر اللهُ بها من خطاياه ، وإما يرفعه بقدرها درجات .

وعجيبٌ أن نرى البعض إذا أصابتْه مصيبة أو نزل به ما يكره لا يعالج أسبابها ، ولا يفكر فى تفاديها بعد ذلك ، إنما يلجأ إلى نسيانها ويذهب إلى شُرْب المسكر الذى يساعده على النسيان .

وهذا خطأ فادح ، فالنسيان لا يحلُّ مشكلة ، إنما يحلُّها التفكير فى أسبابها ومعالجة هذه الأسباب ، فالمخدِّرات والمسْكرات تذهب

بعقلك وتُفسده فى وقت أنت فى أشدِّ الحاجة إليه ، حين يمرُّ الإنسانُ منا بمشكلة يحتاج إلى مزيد فكر ، فكيف تذهب بعقلك فى وقت أنت فى أمسِّ الحاجة إليه ؟ ألاَ ترى أنك تستعينُ بغيرك وتستشيره فى حَلِّ مشاكلك حينما تضيقُ بكَ الأسبابُ ؟

إذن : انظر إلى المصيبة ، ما سببها إنْ كان لك دَخْلٌ فيه ، وهى نتيجة تصرُّف خاطئ منك فأنت الملُوم ، وعليك أنْ تُعدِّل من تصرفاتك وتعمل حساباً للعواقب ، وهذه أول خطوة فى طريق الإصلاح ، كالطالب يذهب لمعرفة النتيجة آخر العام فيقولون له : أنت راسب فتعيده الصدمةُ إلى صوابه ، ويصيح بأعلى صوته هذه الصيحة العقلية الواعية : أنا السبب ، أنا المهمل ، أنا أستحق .

أما إنْ كانت المصيبة لا دخْلَ لك فيها كالطالب الذى ذاكر دروسه واجتهد ، لكن جاءه وقت الامتحان دَوار أو أصابه نسيان فلم يُوفّق ، فهذا قدر الله لا بدَّ أنَّ له حكمة ، فهو شَرٌّ فى طياته خير ، هو ابتلاء من الله ينبغى أنْ نرضى به ، وأنْ نتلمس له حكمة .

فنحن دائماً نحوم حولها ، وصلنا أو لم نصِلْ ، قُلْ ربما كنت مغروراً فأراد الله أنْ يكسرَ فىَّ عُنْفوانَ الغرور ، ربما لو وفقت كنتُ سأحسد ، أو ربما لم آتِ بالمجموع المطلوب الذى كنتُ أرجوه ، وهذه كلها نماذج يُؤيِّدها واقع الحياة .

والفعل لا يُؤخذ لذاته إنما بمصاحبة الفاعل ، مَنْ هو ؟ قلنا : لو دخل عليك ولدُك يسيل دمه لا يشغلك الدمُ بقدر ما يشغلك مَن الفاعل ؟ لذلك تسأله أولاً : مَنْ فعل بك هذا ؟ فإنْ قال لك عَمِّى مثلاً ، تهدأ ثورتُك ، وتقول له : لا بدَّ أنك فعلتَ شيئاً يستحق العقاب فعاقبك . أما إنْ قال لك :

فلان ، تغضب وتقيم الدنيا ولا تقعدها .

إذن : نقول خُذ الفعلَ بمصاحبة فاعله ، فإنْ كان من الله فارْضَ وابحث عن حكمته ، ولا بدَّ أنك ستتوصل إليها وستحمد الله . كُنْ أمام الشدائد كالضرس ثابتاً فى مكانه يمضغ لا يعنيه حُلواً ولا مُراً ، فإنْ كان البلاء فى نفسه يتأدب ، وإنْ كان فى غيره يتعلم ، فلا بدَّ أن لله حكمة .

سمعتم قصة الرجل الصينى الذى كان يتأمل الأحداث ويرى الحكمة فيها ، قالوا : كان هذا الرجل مُحباً لتربية الخيول فكانت عنده مزرعة خيول ، وفى يوم شرد منها حصان من أجود الأنواع ، كانوا يسمونه (الطلوقة) وضَل فى المزارع ، فجاءه الناس يُواسونه . فقال لهم : وما أدراكم لعل فى هذا الخير ، ويكفى أننى لستُ سبباً فى فَقْد هذا الحصان ؟

وبعد أيام جاء الحصان يصطحب سرْباً من الخيول حتى دخل المزرعة ، فجاءه بعض الجيران يُهنئونه ، فقال لهم : وما أدراكم أن فى هذا نعمة ؟ ولم يَمْضِ وقت طويل حتى ذهب ابنه يركب هذا الحصان ، وكان مُغرماً به فأوقعه الحصان فكسر رجْله ، فجاءه الناس يُواسونه فقال لهم : لعل فى ذلك خيراً ، وفعلاً جاء المسئول عن التجنيد فوجد الشاب قد كُسرتْ رجله فتركه .

إذن : علينا أنْ نفهم أن لله فى أقداره حكَماً ، عرفها مَنْ عرفها ، وجهلها مَنْ جهلها . لذلك نقول : إياك أنْ تأخذ شيئاً بالإكراه لأنك لا تدرى أن الخير لك ، وتذكَّر دائماً : ﴿ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا (٢١٦) ﴾ [البقرة] ﴿ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا (٢١٦) ﴾ [البقرة] لذلك يُعلمنا النبى ﷺ

هذا الدرس فيقول : « اطلبوا الأمور بعزة الأنفس ، فإنها تجرى بمقادير »(١) .

ويقول أحد العارفين فى مناجاته لله : أحمدك على كُلِّ قضائك وجميل قدرك حمدَ الرضا بحكمك ، لليقين بحكمتك .

وهكذا يريح الإنسان نفسه ويريح الدنيا من حوله ، وهذه كلها من تنزُّلات الملائكة فى قوله سبحانه ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا ﴿٣٠﴾﴾ [فصلت]

كذلك من تنزُّلات الملائكة أنها تنزل على المؤمن ساعةَ يحلُّ الموتُ بساحته فيخاف ويحزن ، لأنه سيترك نعيم الدنيا ، فتتنزل عليه الملائكة تُطمئنه وتُبشِّره بنعيم آخر دائم وباقٍ فى الآخرة ، لا يزول كما يزول نعيم الدنيا .

﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا ﴿٣٠﴾﴾ [فصلت] يعنى : مما أنتم مُقبلون عليه من أمور الآخرة ، حتى إنْ قصُرَتْ بكم أعمالكم فأنتم مُقبلون على ربٍّ غفور رحيم ، فلا تخافوا ولا تحزنوا ﴿وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [فصلت]

قلنا : البشارةُ الإخبارُ بخير وبما يسرُّ قبل أوانه ، ومَن الذى يُبشِّرك بالجنة ؟ والله لو إنسانٌ مثلك لكنتَ تشُكّ فى قدرته على الوفاء ، لكن إنْ كان الذى يُبشِّرك هو الله فثقْ بما بُشِّرت به ، فالذى

(١) ذكره العجلونى فى كشف الخفاء (حديث رقم ٣٩٩) بلفظ : « اطلبوا الحوائج بعزة الأنفس فإن الأمور تجرى بمقادير » وقال : رواه تمام وابن عساكر بسند ضعيف عن عبد الله بن بسر ، لكن يقويه ما رواه الطبرانى وأبو نعيم من حديث أبى أمامة أن روح القدس نفث فى روعى « لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب » ورواه البزار عن حذيفة ، وفى الباب عن جابر كذا فى تخريج أحاديث مسند الفردوس للحافظ ابن حجر العسقلانى .

بشَّرك بالجنة هو وحده القادر على الوفاء ، حيث لا قوةَ تحولُ بينه وبين الوفاء بالبُشْرى .

﴿ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ ﴾

يعنى : أنصاركم المقربين منكم والمؤيدين لكم فى الدنيا وفى الآخرة ، قالوا : لأن الملائكة جُبلَتْ على الطاعة ؛ لذلك عند خَلْق آدم قالوا : ﴿ أَتجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [البقرة] ردَّ الله عليهم ﴿ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [البقرة]

يعنى : خلقتُ الملائكة مجبولين على الطاعة ﴿ لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [التحريم] والذى أريده طائعاً لا يملك أنْ يعصى ، لكني أريد خَلْقاً آخر لا يأتُون إليَّ بالإكراه ، إنما يأتوننى طواعيةً ويُقبلون عليَّ محبة وهم يملكون أنْ يعصوا ، يأتون إليَّ بالاختيار لا بالقهر والإجبار .

وسبق أن ضربنا لذلك مثلاً قلنا : هَبْ أنَّ لك عبدين تربط أحدهما وتشدُّه إليك بسلسلة ، والآخر حر طليق ، وتنادى عليهما فيسرعان إليك . أيهما يكون أطوَع لك من الآخر ؟

فقوله : ﴿ نَحْنُ أَوْلَيَاؤُكُمْ ﴿٣١﴾ ﴾ [فصلت] يعنى : نأتيكم فى الشدة فننصركم ، وفى البلاء فنُصبِّركم .

لذلك ورد فى الحديث الشريف أن واحداً[(١)] من صحابة رسول الله ﷺ جلس يقرأ القرآن وبجواره خَيْلٌ فسمع لها صياحاً وهمهمة، ورأى منها حركة غريبة، ورأى فوق رأسه نوراً، فذهب إلى سيدنا رسول الله وحكى له ذلك، فقال رسول الله ﷺ: « هؤلاء هم الملائكة، جاءوا لسماع الذكر، والله لو صبرْتَ لصافحوك »[(٢)].

هذا من ولاية الملائكة لنا فى الدنيا، أما فى الآخرة فهم أولياء لأنهم سيكونون مندوبين عن الله فى البعث وفى الحساب، وفى استقبال أهل الجنة بالسلام كما حكى الحق سبحانه: ﴿سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ (٧٣)﴾ [الزمر]

وقال: ﴿سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (٢٤)﴾ [الرعد]

هذا سلام الملائكة، ثم يُسلِّم الله عليهم كذلك، كما فى سورة (يس): ﴿سَلامٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ (٥٨)﴾ [يس]

---

(١) هو أسيد بن حضير. وهو أحد نقباء الأنصار، قال عنه رسول الله ﷺ: نعم الرجل أسيد ابن حضير، وعن أنس أن أسيداً وعباد بن بشر كانا عند النبى فى ليلة مظلمة فخرجا من عنده فأضاءت عصا أحدهما فكان يمشيان بضوئهما فلما افترقا أضاءت عصا هذا وعصا هذا. (سير أعلام النبلاء للذهبى ١/٢٩٩).

(٢) قال ابن حضير: بينما هو يقرأ من الليل سورة البقرة وفرسه مربوطة عنده إذ جالت الفرس فسكت فسكتت فقرأ فجالت الفرس فسكت وسكتت الفرس، ثم قرأ فجالت الفرس فانصرف .. فلما أصبح حدَّث النبى فقال: اقرأ يا بن حضير .. فرفعتُ رأسى إلى السماء فإذا مثل الظلة فيها أمثال المصابيح فخرجت حتى لا أراها. قال رسول الله: وما تدرى ما ذاك؟ قال: لا. قال: تلك الملائكة دنت لصوتك ولو قرأت لأصبحتْ ينظر الناس إليها لا تتوارى منهم. [أخرجه البخارى فى صحيحه (باب نزول السكينة والملائكة) ومسلم فى صحيحه (١٣٢٧) من حديث أبى سعيد الخدرى].

﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (٣١) ﴾ [فصلت]

قالوا : ما تطلبه النفس من النعيم تجده أمامك بمجرد أن يخطر على بالك ، فأيُّ رفاهية هذه ؟ لقد ذهبنا إلى دول كثيرة ودخلنا أكبر الفنادق هناك ، فكان قصارى ما وصلوا إليه أنك تضغط على زر معين يعطيك قهوة مثلاً ، وعلى زر آخر يعطيك شاياً ، فهل هناك أعظم مما أعدَّه الله لك في الجنة ؟ مجرد أنْ يخطر ببالك الشيء تجده بين يديك ، ثم إن فيها من النعيم « ما لا عينٌ رأتْ ، ولا أذنٌ سمعتْ ، ولا خطر على قلب بشر »(1) .

لذلك لما أراد سبحانه أن يُصوِّر لنا الجنة لم يصفها صراحة ، إنما قال سبحانه : ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ (١٥) ﴾ [محمد] مثلها ، ليستْ هيَ ، لماذا ؟ قالوا : لأن ألفاظ اللغة توضع لمَعانٍ ومُسمَّيات ، ولا بُدَّ أنْ يُوجد المعنى أولاً ثم نضع له اللفظ الدالَّ عليه ، فالمعدوم ليس له لفظ يدل عليه ، (فالتليفزيون) مثلاً قبل أنْ يخترعوه ماذا كان اسمه ؟ لم يكُنْ له اسم ، كان معدوماً .

كذلك نعيم الجنة لا توجد في اللغة ألفاظ تدل عليه الآن ، لأننا لا نعرفه ولا نعرف أسماء هذه الأشياء ، فهي أشياء لم ترَهَا عينٌ ، ولم تسمعها أذن ، ولم تخطر على قلب بشر ، فمن أين الألفاظ الدَّالة عليها ؟

وقوله : ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا (٣١) ﴾ [فصلت] أي : في الجنة ﴿ مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ (٣١) ﴾ [فصلت] المراد النفوس الإيمانية التي استقامت على طريق الله ، فليس في الجنة محرَّم ، وليس في الجنة مَنْ يشتهي

---

(1) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٨٢٤) ، وأحمد في مسنده (٢/٤٦٦) ، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٢/٢٦٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

المحرَّمات ، فالنفس تشتهى الحلال ، حتى محرَّمات الدنيا إنْ وُجدت فى الآخرة فهى شىء آخر نُزِع منه سببُ التحريم .

فالخمر فى الدنيا معروف أنها تُذهب العقلَ ، وأنه لا لذةَ فى شربها ، أمَّا خمر الآخرة فقال الله عنها : ﴿ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ ﴿١٥﴾ ﴾ [محمد]

وأنت تشاهد فى (الأفلام) مثلاً مَنْ يشرب الخمر كيف يشربها ؟ يصبُّها فى فمه هكذا مرة واحدة ، لماذا ؟ لأن طعمها كريه يريد أنْ يُمرره من منطقة الذوق بسرعة ، أما الذى يشرب كوباً من عصير المانجو مثلاً تراه يرشفه رشفةً رشفةً نقول (يمزمز)(١) فيها ، لأن طعمها لذة ورائحتها لذة .

•

كذلك فى كل نعيم الجنة الذى له مثيل فى الدنيا تجد الحق سبحانه يُنقِّيه من الشوائب ويُخلِّصه من الأضرار التى نعرفها فى الدنيا ، تأمل قوله تعالى عن ماء الآخرة : ﴿ وَأَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ ﴿١٥﴾ ﴾ [محمد] يعنى : لا يتغير ولا يصيبه عطَن كماء الدنيا ، وفى اللبن قال : ﴿ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ ﴿١٥﴾ ﴾ [محمد] وقال عن العسل : ﴿ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ﴿١٥﴾ ﴾ [محمد]

إذن : لا تقلْ : خمر كخمر الدنيا ، ولا ماء كماء الدنيا ، ولا لبنَ كاللبن الذى تشربه ، لا إنما هى نعيم من نوع آخر نقَّاه الخالق سبحانه ، وصفَّاه من شوائبه .

---

(١) أصلها اللغوى : التمزُّز أىْ شرب الشراب قليلاً قليلاً . ومزَّه : مصَّه . والمزمزة : التحريك الشديد . وقد مزمزه إذا حرَّكه وأقبل به وأدبر . [لسان العرب - مادة : مزز] .

﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (٣١) ﴾ [فصلت] يعنى : لكم فى الجنة كل ما تتمنونه ، وكل ما تطلبونه .

﴿ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ (٣٢) ﴾

النُّزُل هو المكان الذى أُعدَّ للضيف ينزل فيه ، ولا بدَّ أنْ يعد هذا المكان بحيث يجد فيه الضيف كل ما يريد ، فهو موطن الكرم ، لذلك نسمى الفندق نُزُل ، نعم نُزُل أعدَّه البشر للبشر ، لكن الجنةَ نُزُل أعدَّه ربُّ البشر وخالقهم ، أعدَّه لهم الغفور الرحيم بهم .

لذلك قلنا : إننا لما ذهبنا إلى (سان فرانسيسكو) وجدنا هناك فنادق على درجة عالية من الرقى وجودة الخدمة ، ورأيت الإعجاب بها فى أعين زملائى فأردتُ أنْ ألفتهم لفتةً إيمانية ، فقلت لهم : تعجبون مما ترونه ، انظروا إليه نظرةَ تأمل ، فهذا ما أعدَّه البشر للبشر ، فكيف بما أعدَّه الله ربُّ البشر للبشر ؟

وبهذه النظرة يُخرج المرء نفسه من دائرة الحقد أو الحسد أو الاعتراض ، فكلُّ نعيم تراه ، وكل جمال تقع عليه عينك ينبغى أنْ يُذكِّرك بنعيم الآخرة .

كثيراً عندما نرى مثلاً عمارة عالية أو ڤيلا جميلة نقول : من أين كل هذه الأموال ؟ ويساورنا شىء من الحقد على صاحبها ، أو نحسده على فضل الله الذى اختصَّه به ، لكن لو نظرنا إلى الموضوع من ناحية أخرى لوجدنا أن الله تعالى سخَّر هذا الرجل وسخَّر ماله لخدمة المجتمع كله ، فقد أتعب نفسه فى جمع هذه الأموال ثم أخرجها ليوزعها على العمال والصُّناع وأصحاب الحرف من طوائف

المجتمع المختلفة .

فهو - إذن - يُسهم فى بناء المجتمع ، ويُسهم فى حركته ؛ لذلك علَّمنا ربنا تبارك وتعالى حين نرى شيئاً يعجبنا أن نقول : ﴿ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ (٣٩) ﴾ [الكهف]

يعنى : هذا عطاء الله وفضله ، يعطيه مَنْ يشاء من عباده ، وحين تُسَرُّ بالنعمة عند غيرك ، وتحبها له تحبك النعمة ، لأن النعمة أعشقُ للمنعَم عليه من عِشْقه لها ، أما إنْ كرهتَ النعمة عند الناس كرهتْكَ النعمة ، وقالت له : والله لا تحضرك نعمة كرهتَها عند غيرك .

ثم إن النعمة قدر ، وعلى المؤمن أنْ يرضى بقدر الله ، ولا يعترض عليه ، وعليه أنْ يعلم أن لكل قدر حكمة إيمانية .

وقوله : ﴿ نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ (٣٢) ﴾ [فصلت] دل على أن هذا النُّزل وهذا النعيم لا يناله العبد بعمله ، إنما يناله بمغفرة الله ورحمته ، وهذا يُفسِّر لنا الحديث النبوى الشريف : « لا يدخل أحد الجنة بعمله . قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدنى[١] الله برحمته »[٢] .

وقد تُستعمل كلمة النُّزل على سبيل الاستهزاء ، فالنزُل قد يكون فى أحد الفنادق ، وقد يكون فى السجن ، يقول تعالى فى سورة

---

(١) تغمده الله برحمته : أدخله فيها وغمره بها . قال أبو عبيد : قوله « يتغمدنى » : يُلبسنى ويتغشّانى ويسترنى . [لسان العرب - مادة : غمد] .

(٢) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٤٦٣) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٨١٦) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

الكهف : ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلاً ﴿١٠٢﴾ ﴾ [الكهف]

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾

بعد أنْ تكلم الحق سبحانه عن الكمال الذاتى للمؤمن الذى استكمل الإيمان وأعلنها : ربى الله ، ثم استقام على طريقة ، يقول بعد أن استقبل المؤمنُ الإيمانَ وباشرتْ حلاوتُه قلبه يفيض هذا الإيمان منه إلى غيره ، وهذه مهمة من مهمات المؤمن أنْ ينقلَ الإيمان ، وأنْ ينقلَ الخير إلى الغير .

المؤمن يحب لأخيه ما يحب لنفسه(١) ، ويحرص على إصلاح المجتمع من حوله ، المؤمن لا يقف عند ذاته ، ولا يكون أبداً أنانياً .

والحق سبحانه يمدح منزلة الدعوة إلى الله ، ويجعلها أحسن ما يقوله الإنسان : ﴿ وَمَنْ(٢) أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ ﴿٣٣﴾ ﴾ [فصلت]

---

(١) حديث متفق عليه ، أخرجه البخارى فى صحيحه (١٣) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٤٥) كتاب الإيمان عن أنس بن مالك رضى الله عنه بلفظ : « والذى نفسى بيده ، لا يؤمن عبد حتى يحب لجاره - أو قال : لأخيه - ما يحب لنفسه » .

(٢) أورد القرطبى فى تفسير هذه الآية عدة أقوال فى المقصود بالآية :

١ - هو رسول الله : قاله ابن سيرين والسدى وابن زيد والحسن البصرى ، وكان الحسن إذا تلا هذه الآية يقول : هذا رسول الله ، هذا حبيب الله ، هذا ولىُّ الله ، هذا صفوة الله ، هذا خيرة الله ، هذا والله أحب أهل الأرض إلى الله ، أجاب الله فى دعوته ودعا الناس إلى ما أجاب إليه .

٢ - نزلت فى المؤذنين : قالته عائشة وعكرمة وقيس بن أبى حازم ومجاهد . قال ابن العربى : الأول أصح لأن الآية مكية والأذان مدنى ، وإنما يدخل فيها بالمعنى ، لا بأنه كان المقصود وقت القول .

٣ - هذه الآية عامة : فى كل من دعا إلى الله . قاله الحسن وقيس بن أبى حازم . قال القرطبى : هذا القول هو أحسنها . [تفسير القرطبى ٩/٦٠٢٦] .

فأشرف الأعمال للذى تشبَّع قلبه بالإيمان أنْ يعدى هذا الإيمان إلى غيره ، وأن ينقل له الصورة الإيمانية ، فالمؤمن يصنع الخير لنفسه وللناس ؛ ذلك لأن خير الناس عائد إليه أيضاً ، كما أن شرَّهم لا بدَّ أنْ يناله وأنْ يصيبه من نصيب .

إذن : منْ مصلحتك أيها المؤمن أنْ يؤمن الناسُ ، ومن مصلحتك أيها المستقيم على الجادة أنْ يستقيم الناسُ ، لذلك حمَّلَ اللهُ أمانة الدعوة إليه لكل مؤمن ، لأنه سبحانه يريد أنْ يُعدَّى الإيمان ممَّنْ ذاقه إلى مَنْ لم يَذُقْه لتتسعَ رقعة الإيمان ، ويعمَّ الخير الجميع .

وأول عناصر الدعوة إلى الله أنْ ندعوَ إلى العقيدة أولاً وإلى الإيمان بالله ، أن نقول : ربنا الله ، نُقرُّ بِها ونعلنها خالصةً بلا تردد ، ثم نلفتهم إلى آيات الله فى الكون ، إلى الآيات الكونية إنْ كانوا لا يتأملونها ، وإلى آيات المعجزات المصاحبة للرسل إنْ كانوا لا يعلمونها، ثم إلى آيات الذكر الحكيم التى تحمل منهج الله بافعل ولا تفعل .

وتأمل قوله تعالى : ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً (٣٣)﴾ [فصلت] الحق سبحانه أراد أنْ يُبيِّن لنا منزلة الدعوة إلى الله وفضل الداعية ، لكن لم يأت بذلك فى أسلوب خبرى يُقرر هذه المنزلة إنما جاء بهذا السؤال ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً (٣٣)﴾ [فصلت] استفهام غرضه النفى ، يعنى : لا أحدَ أحسنُ من هذا الذى يدعو إلى الله ، ولا قولَ أحسن من قوله .

قالها الحق سبحانه فى صورة سؤال لأنه سبحانه يعلم أنه لا جوابَ لها إلا أنْ نقول : لا أحدَ أحسنُ قوْلاً ممَّنْ دعا إلى الله ، فجعلنا نحن نعلن هذه الحقيقة ونُقرُّ بِها ، والإقرار كما يقولون سيد الأدلة .

وأول داعية إلى الله هو سيدنا رسول الله ﷺ ، وكل داعية من

بعده يأخذ من معينه ﷺ ويسير على خُطاه ، ولما كان ﷺ هو آخر الأنبياء فقد ترك لأمته هذه الرسالة ، رسالة الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، فخيْر رسول الله لم ينقطع ، بل ممتد فى أمته من بعده ، وكلُّ داعية بعده إنما يأخذ مقاماً من مقامه ﷺ .

ومن رحمة الله بهذه الأمة أنْ جعل لها رادعاً من نفسها ، جعل فيها فئةً باقية على الحق تُقوِّم المعْوج ، وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وسوف تظل هذه الفئة إلى يوم القيامة ، لذلك جاء فى حديث سيدنا رسول الله ﷺ : « لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق لا يضرهم مَنْ خالفهم ، حتى يأتى أمر الله وهم كذلك »[(١)]

لذلك قال سبحانه : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ (١١٠) ﴾ [آل عمران]

وهذه خاصية اختصَّ الله بها أمة محمد لأنه خاتمُ الرسل ؛ لذلك لن يعم الشرَّ هذه الأمة ، ولن يطمّ فيها الفساد ، ففيها حصانة من ذاتها . لقد كانت الأمم السابقة يستشرى فيها الفساد حتى يعمَّها ، فلا يكون فيها آمر بمعروف ولا نَاه عن منكر ، وعندها كان لا بدَّ من إرسال رسولٍ جديد ، يعيد الناس إلى الطَّريق المستقيم .

أما أمة محمد فلن يأتى فيها رسول جديد ، لذلك جعل الله فيها هذه الحصانة ، وجعلها خليفة لرسول الله فى الدعوة إلى الله ، وجعلها أمينة على هذه الدعوة ، لذلك يقول النبى ﷺ : « الخيرُ فىَّ وفى أمتى إلى يوم القيامة »[(٢)] .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٩٢٠) كتاب الإمارة من حديث ثوبان رضى الله عنه . وأخرجه البخارى فى صحيحه (٧٣١١) ، وكذلك مسلم فى صحيحه (١٩٢١) من حديث المغيرة بن شعبة .

(٢) قال ابن حجر العسقلانى : لا أعرفه . ولكن معناه صحيح . ذكره القارى فى « الأسرار المرفوعة » (٤٥٧) وكذا السيوطى فى « الدرر المنتثرة » (٢٢٠) والعجلونى فى كشف الخفاء (١/٤٧٦) .

وقد بيَّن الله تعالى أن الرسول سيشهد أنه بلَّغ أمته هذه الدعوة ، وهذه الأمة ستشهد أنها بلَّغتْ دعوة رسولها إلى كلِّ الأمم ، قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا .. (١٤٣) ﴾ [البقرة]

فشهادتنا على الأمم دليلٌ على أن الخير بَاقٍ فينا ولن ينقطع أبداً .

وقد حثَّنا رسولنا ﷺ على حمل هذه الأمانة ورغَّبنا فيها حين قال ﷺ : « نضَّر[1] الله امرءاً سمع مقالتي فوعاها ، وأدَّاها إلى مَنْ لم يسمعها ، فربَّ مُبلَّغ أوْعَى من سامع »[2] .

والدعوة إلى الله مجال واسع يكون بالقول وبالفعل وبالقدوة الحسنة ، يكون ببيان العقائد والعبادات والأحكام للناس بأسلوب شيق ممتع جذاب ، لا يُنفِّر الناس ، ولا يذهب بهم إلى يأس أو قنوط من رحمة الله .

الدعوة إلى الله فَنٌّ ، اقرأ قوله تعالى يخاطب نبيه ﷺ : ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ .. (١٥٩) ﴾ [آل عمران]

أين دعاتنا من قوله تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ .. (١٢٥) ﴾ [النحل]

لا بدَّ أنْ نعلم أنَّ الدعوة إلى الله ليستْ مهمة علماء الدين

---

(١) النضرة : النعمة والعيش والغنى ، ونضَّر الله وجهه : وهو حُسْن الوجه والبريق . وقال الحسن المؤدب : ليس هذا من الحُسْن في الوجه إنما معناه حسَّن الله وجهه في خُلُقه أي جاهه وقدره . [لسان العرب – مادة : نضر] .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١/٤٣٧) ، والترمذي في سننه (٢٦٥٧ ، ٢٦٥٨) ، وابن ماجه في سننه (٢٣٢) والحميدي في مسنده (١/٤٧) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

المختصين فحسب ، إنما مهمة كل مسلم فى كل زمان وفى كل مكان ، كُلٌّ فى مجال عمله يستطيع أنْ يكون داعيةً ، نعم داعية بفعله والتزامه وتفانيه وإخلاصه .

لقد أجمع علماء الأمة على أن الإسلام ما انتشر بحدِّ السيف ، وما انتشر بالقوة بقدر ما انتشر بسيرة المسلمين الطيبة ، وما تحلَّوْا به من تسامح وحُبٍّ للآخرين ، ولنا فيهم قدوة .

الدعوة إلى الله مهمة كل مسلم ذاق حلاوة الإيمان ولذة التكاليف وأحبَّ للناس ما يحب لنفسه من الخير فينقله إليهم . والحق سبحانه ساعة يُكلِّفنا بالخير لا يترك أحداً ولا يحرم أحداً أنْ يكونَ له نصيبٌ من هذا الخير ، ومن ذلك الآن نجد مثلاً المشكلة الاقتصادية والحرب على الاقتصاد وعلى الرغيف وعلى المياه ، كيف تُحلُّ هذه المشكلات فى المنظور الإسلامى ؟

الحق سبحانه وتعالى دائماً يُحنِّن الواجد على المعدم ، وبعد أنْ فرض الزكاة فى مال الأغنياء للفقراء ترك الباب مفتوحاً لأريحية الغنى وحبه للعطاء ، فجعل الصدقة نفلاً وزيادة لمن ذاقَ حلاوة التكليف .

لذلك قال تعالى مرة : ﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ (٢٤) لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (٢٥) ﴾ [المعارج] والمراد بالحق المعلوم الزكاة المفروضة ، وقال فى الذاريات : ﴿ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩) ﴾ [الذاريات] هكذا بإطلاق الكلمة ، والمراد الزيادة على الزكاة المفروضة ، وهذه نوافل مَنْ فعلها أخذ ثوابها ، ومَنْ تركها فلا شىء عليه .

قال تعالى فى سورة الذاريات وهو يُبيِّن لنا سبحانه منزلة

الإحسان : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) ﴾ [الذاريات] ولم يقل مؤمنين ، فما هى درجة الإحسان ؟ قالوا : المحسن هو الذى يلزم نفسه بأمر لم يُفرض عليه لكن من جنس ما فرض الله عليه ، إذن : فدرجة الإحسان أعلى من درجة الإيمان ، فالفرض فى الصلاة خمس صلوات ، المحسن يُؤديها ويزيد عليها ، وإن كان مقدار الزكاة الواجبة فى المال ٢,٥٪ يخرجها ٥٪ وهكذا فى كل أبواب الخير .

وفى آيات سورة الذاريات تفصيلٌ لهذه الزيادة التى يتطوع بها أهل الإحسان .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ[١] (١٧) ﴾ [الذاريات] وهل فرض الله عليك قيام الليل حتى أنك لا تهجع منه إلا قليلاً ؟ لا بل لك أنْ تصلى العشاء وتنام حتى الفجر .

أما المحسن فله مع الليل شأنٌ آخر ، إنه ذاقَ حلاوة السهر لله والقيام لله ، وشعر بالفيوضات تتنزَّل عليه ، ورحمة الله تغشاه ، فعشق العبادةَ ووجد فيها لذته وراحته ، كذلك ﴿ وَبِالْأَسْحَارِ[٢] هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩) ﴾ [الذاريات] ولم يقل هنا حق معلوم ، لأن الحق المعلوم هو الزكاة ، أما الحق المطلق هنا فيراد به الصدقة وهى متروكة لاختلاف حب الناس ودرجاتهم وأريحيتهم فى العطاء .

(١) الهجوع : النوم ليلاً . وقد يكون الهجوع بغير نوم . والتهجاع : النومة الخفيفة . [لسان العرب - مادة : هجع] وأتيت فلاناً بعد هجعة . أى : بعد نومة خفيفة من أول الليل .

(٢) الأسحار : جمع سَحَر : أى قبيل الصبح آخر الليل . قال الزمخشرى : إنما سُمِّى السَّحَر استعارة لأنه وقت إدبار الليل وإقبال النهار فهو متنفس الصبح . ومن المجاز : « السَّحَر البياض يعلو السواد » . [تاج العروس للزبيدى - باب : سحر] .

وإذا أحبَّ المؤمنُ الطاعة آثرها على أى شىء آخر ، لذلك لو أجريتَ إحصاء للحجاج لوجدتَ أن العوَّادين ثلاثة أضعاف البادئين ، وما ذلك إلا لعشق الناس لهذه الفريضة .

لذلك جعل الله فى العباد استطراقاً إحسانياً ، كلٌّ حسب مرتبته فيه ، والقرآن الكريم يعطينا صورة للمؤمن المحبِّ للبذل مع أنه لا يجد شيئاً ، قال تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٩١) وَلا عَلَى الَّذِينَ[1] إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ (٩٢) ﴾

[التوبة]

تبين هذه الآيات أن الله تعالى أشاع الخير بين كل الناس ، فالواجد عليه أنْ يعطى ، وغير الواجد يكفيه أنْ ينصح الواجد وأنْ يحثه على العطاء ، فإذا لم يستطع لا هذا ولا ذاك يكفيه أنْ يكون محباً فى نفسه للعطاء يشتاق إليه ، بل ويبكى أنْ فاتته الفرصة . وهؤلاء صدقتهم هذا الشوق وهذا البكاء . وهكذا لم يحرم الخالق سبحانه أحداً من خيره ، ولم يغلق الباب فى وجه أحد .

هناك قضية تتعلق بالدعوة إلى الله ، هى أن الإنسان منَّا قد يكون عاصياً لربه فى ناحية ما ، فهل يمنعه هذا العصيان أنْ يكون داعية إلى الله ؟ قالوا : ينبغى ألاَّ تمنعك المعصية عن الدعوة ، فلعلَّ الذى

---

(١) قال القرطبى : « روى أن الآية نزلت فى عرباض بن سارية . وقيل : نزلت فى عائذ بن عمرو . وقيل : نزلت فى بنى مقرِّن - وعلى هذا جمهور المفسرين - وكانوا سبعة إخوة ، كلهم صحبوا النبى ﷺ » وهناك أقوال أخرى كثيرة ذكرها القرطبى فى تفسيره (٣١٥٣/٤) .

تدعوه يفعل ما لم تفعله أنت ، ولعل هذه عملية جَبْر لما فيك من نقص .

يُحكَى أن رجلاً كان يطوف بالبيت ، فسمع آخرَ يقول : اللهم إنك تعلم أنّى عاصيك ولكنِّى أحب مَنْ يطيعك ، فاجعل اللهم حُبِّى لمن أطاعك شافعاً فى معصيتى .

قالوا : حتى الذى يتكاسل عن الصلاة لا يمنعه ذلك من أن يدعو غيره إلى الصلاة ، لأنها خير يشيعه فى الناس لن يُحرَم أجره ، فكل مَنْ أشاع خيراً له (عمولة) عند الله ، وهكذا لا يخلو مخلوق من أنْ يصيبه فضل الله الواسع ، ولا يخلو مخلوق من خصلةِ خيرٍ لذاته أو لغيره ، وهذه الإشاعة للخير فى ذاتها دعوة إلى الله .

وقوله : ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا .. (٣٣)﴾ [فصلت] يعنى : دعا إلى الله بالقول ثم بالفعل ، ودائماً ما يقرن القرآن بين القول والعمل ، وعرفنا أن قدوةَ الفعل أعظمُ أثراً فى النفوس من قدوة الكلام ، وليس من الصواب أنْ تدعو الناس إلى شىء وأنت عنه بنجوى ، يقول تعالى : ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ (٤٤)﴾ [البقرة]

ويقول سبحانه فى سورة العصر : ﴿وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣)﴾ [العصر]

والتواصى تفاعل بين الناس ، بحيث يوصى كلٌّ منهم الآخر ، فالطائع يوصى العاصى ، وكلٌّ واحد منا مُوصٍ فى موقف ، ومُوصَىً فى موقف آخر ، لأن الانفعال النفسى بطاعة أو بمعصية لا يدوم ،

فساعة تنفعل نفسُك للطاعة أَوْصِ مَنْ يعصى ، وساعة تنفعل نفسك للمعصية ستجد مَنْ يوصيك وهكذا ، لأن النفس ليس لها سيال دائم ، وكلٌّ منا يَجْبر ما عند صاحبه ، هذا معنى (وتواصوا) أى : فيما بينكم ﴿ بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣ ﴾ [العصر]

الحق سبحانه يقسم (والعصر) يعنى : والزمن المعدود ، يقسم على ماذا ؟ ﴿ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ ﴾ [العصر] يعنى : جنس الإنسان كُلُّه فى خُسْر وضياع وضلال لا يستثنى من ذلك ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣ ﴾ [العصر]

كأن الحق سبحانه يقول لنا : استقرئوا الزمن وتأملوا التاريخ ، انظروا إلى الحضارات الغابرة من قديم الزمان ، أين هى ؟ ماذا بقى منها ؟ حضارة الفراعنة فى مصر وما وصلتْ إليه من تقدم فى علوم لم نتوصَّل إلى أسرارها حتى الآن مع أننا فى عصر التقدم العلمى ، حتى الأمريكان عجزوا أن يصلوا إلى أسرارها .

ومع ذلك بادتْ وذهبتْ كلُّ هذه العلوم ، لأن أصحابها لم يجعلوا لها صيانة تحميها وتضمن لها البقاء ، وكان طغيانُ القوم سببَ هلاكهم ﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ[1] ۝١٠ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ۝١٤ ﴾ [الفجر]

بل هناك حضارات أعظم من حضارة الفراعنة ، لكنها مطمورة تحت التراب لا نعرف عنها شيئاً ، حتى القرآن لما أخبر عنها أعطانا

---

(١) الأوتاد : جمع وتد . وهو ما ثُبِّت فى الحائط أو الأرض من الخشب ، وأوتاد فرعون أنه كانت له حبال وأوتاد يُلعب له بها . [لسان العرب - مادة : وتد] .

صورة مجملة عبرتْ عن هذه العظمة ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ[1] ۝٧ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ ۝٨﴾ [الفجر]

نعم هذه حضارات كانت فى يوم من الأيام ملءَ السمع والبصر ، لكنها لم تملك أسباب البقاء مع هذا التقدم الذى عاشت فيه ، ويكفى أن الله قالَ عنها ﴿لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ ۝٨﴾ [الفجر] ، فكيف كانت إذن ؟

وصدق شوقى حين قال :

وَالعِلْمُ إنْ لَمْ تَكْتنِفْهُ شَمَائِلُ ... تُعليهِ كَانَ مَطيَّةَ الإخْفَاقِ[2]

إذن : العمل حين تأخذه من الباقى يبقى ، وحين تأخذه من الفانى يفنى .

والذى يبقى هو القيَم ، فكما أخذنا عطاء الله فى المادة ينبغى أن نأخذ عطاءه فى القيم ، فهى الصيانة التى ستُبقِى الأعمال وتجعلها خالدة وتجعل لها معنى وقيمة .

وقوله تعالى : ﴿وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ۝٣٣﴾ [فصلت] هذا إعلانٌ يعلنه المسلم ويفخر به ، وسام على صدره ، أنا مسلم ، وإسلامى هو المنطلق الذى من خلاله تكون حركتى فى الحياة ، وهذه

---

(١) قال جمهور المفسرين : إرم مدينة لعاد عظيمة كانت على وجه الدهر باليمن . وقال محمد ابن كعب : هى الإسكندرية . وقال ابن المسيب : هى دمشق . [الروض المعطار فى خبر الأقطار - لابن عبد المنعم الحميرى] .

(٢) البيت لحافظ إبراهيم وليس لأحمد شوقى ، من قصيدة من بحر الكامل عدد أبياتها ٤٦ بيتاً ، وهو الـ (١٣) فيها . وحافظ ولد عام ١٨٧١ بديروط ، نشأ بالقاهرة يتيماً ، نظم الشعر فى أثناء الدراسة ، تخرج من المدرسة الحربية ، أحيل للاستيداع ، اشتغل محرراً بالأهرام ولقب بشاعر النيل ، توفى ١٩٣٢ م (الموسوعة الشعرية) .

فى حَدِّ ذاتها دعوةٌ إلى الله ونشرٌ لدين الله وإعلاءٌ لكلمة الله حين لا تنشغل بنفسك إنما تنشغل بدينك .

فإنْ أنجزتَ عملاً تنسبه إلى دين الله ، تقول : لأن الله أمرنى ، فترفع دينَ الله عند الناس ولا تهتم بذاتك الفاعلة ، وحين ترفع دين الله ثِقْ أنه رافعك معه .

إذن : فمن صفات المؤمن أنْ ينسبَ خيره وصلاحه لدينه وإسلامه .

لذلك نقف كثيراً عند قول قارون لما أعطاه الله المال والجاه والسلطان ، فقال : ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِى .. ﴿٧٨﴾﴾ [القصص] فردَّ الله عليه : ما دمتَ أُوتيته على علم عندك فاحفظه بعلمك ، وكانت النتيجة ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ .. ﴿٨١﴾﴾ [القصص] فحين تصل إلى ابتكار أو اختراع أو صلاح فى الكون فاجعله من منطلق الدين والمنهج ، انسبه إلى دينك .

وتذكَّر الحديث الشريف : « ومَنْ كانت الآخرة همَّه جمع اللهُ عليه شمله ، وجعل غِناه فى قلبه ، وأتتْه الدنيا وهى راغمة »[1] .

لذلك أتعجَّب حينما أسمع أسماء رنَّانة لنَوادٍ وجمعيات خيرية يقوم عليها الأعيان ووجهاء القوم وسيدات المجتمع ، صحيح نراهم يُقدمون المساعدات ويفعلون الكثير من الخير ووجوه البر ، لكن حين تسألهم عن المنطلق الذى يعملون من خلاله تسمع مصطلحات أخرى مثل (الماسونية) .

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه (٢٤٦٥) من حديث أنس بن مالك بلفظ « من كانت الآخرة همه جعل الله غناه فى قلبه وجمع له شمله وأتته الدنيا وهى راغمة ، ومن كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه وفرَّق عليه شمله ولم يأته من الدنيا إلا ما قُدِّر له » .

ولما عـرفوا أن أصلها يهودى قـالوا (الروتارى) ، أنا أفعل هذا لأنى روتارى ، سـبحان الله قل : لأننـى مسلم ، لأن إسلامـى أمرنى بذلك ، لماذا لا ترفـع نفسك بِرفعـة دينك ، ولماذا تُفـوِّت على نفسك ثواب هذا الخير فى الآخرة .

قلنا : إن العمل إما أن يكون لله ، وإمـا أن يكون للناس ، العمل لله شـرطه الإخـلاص وجـزاؤك على الله فى الآخـرة ، أمـا الـعـمل للناس فيعطيك منزلة عندهم ووجاهة ورفعة ، هذا جزاؤك وقد أخذته فى الدنيا فلا حظَّ لك فى ثواب الآخرة ، فالإنسان يطلب أجره ممَّنْ عمل له .

لذلك ما سُئِلْنَا عن علماء خدموا البـشرية باختراعاتهم وإنجازاتهم وابتكاراتهم : هل لهم نصيب فى الآخرة ؟ نقول : لا ليس لهم نصيب لأنهم فعلوا للناس وللبشرية ولتقدم المجـتمع ، وأخذوا أجورهم صيتاً وسُمْعة وشهرة وتخليداً لذكراهم .. إلخ .

أما الله فلم يكن أبداً على بالهم حين فـعلوا هذه الأشياء ، واقرأوا قوله تعـالى فى شأن هؤلاء : ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً[1] مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ ﴾ [الفرقان]

وفى موضع آخر قال : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ ﴾ [النور]

هكذا أعمال الكافرين فى الآخرة كالسراب تحـسبه شيئاً ، فإذا ما ذهبتَ إليه لم تجده ، وليْتَ أمـرهم ينتهى عند هذا الحد إنما تفـاجئهم

---

(١) الهـباء : هو الذرات التى تراها فـى المخـروط الضوئى حـين ينفـذ إلى حجـرتك ولا تراها بالعين المجردة لدقتها .

الحقيقة التي طالما أنكروها في الدنيا ﴿ وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ .. (٣٩) ﴾ [النور] نعم الله الذي أنكره أو كفر به يُوقفه ويحاسبه : أنت فعلتَ : ليقال وقد قيل فلا أجرَ لك عندي ، ويبقى لك جزاء كفرك وعنادك .

إذن : نقول : ساعة تعلن أنك تعمل وتبتكر من منطلق إسلامك . ساعة تقول عملت لأنني مسلم ، تُعلي شأن الإسلام وتلفت غير المسلمين إلى جمال هذا الدين ، وأنت في ذلك داعية إلى الله ، أنت على نهج نبيك محمد ﷺ ، فإنْ قابلتْكَ بعضُ الصعاب فاصبر ، لأن رسولك أُوذي في سبيل دعوته فصبر .

فالذي يحمل أمانة الدعوة ويعلنها : أنا مسلم ، وإسلامي هو الضابط لكل حركاتي في الحياة ويصيبه سوءٌ يعلم أنه أخذ طرفاً من ميراث النبوة ، فما من نبي إلا أوذي وكان له أعداء ، فلا بدَّ لحمَلَة هذه المسئولية أنْ يكون لهم أعداء ، وأنْ يُشتموا وأن تُكال لهم التهم ، هذا أمر طبيعي في مسيرة الدعوة إلى الله .

يقول تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا .. (١١٢) ﴾ [الأنعام]

هذا يعني أن الداعية الذي يَسْلم من هذا الإيذاء ينقص حظُّه من ميراث النبوة ، وحظه من تركة النبي ﷺ ، إذن : اصبر ، وهل تابعُ محمدٍ خيرٌ من محمد حتى يَسْلم من الأذى ؟

فإذا لم يكُنْ لك أعداء في طريق الدعوة فاعلم أنك لستَ على الطريق الذي رسمه لك صاحبُ الدعوة ، وعليك أنْ تراجع نفسك .

الكلام هنا عن الدعوة إلى الله بحقٍّ وتجرُّد وإخلاص ، وعن الكلمة تُقال في سبيل الله لا في سبيل جاه أو سلطان أو منصب من متاع الدنيا الزائل ، الدعوة إلى الله لا تكون أبداً قنطرة .

لذلك نقول : ما الذى يحمى الدعاة إلى الله الآن ، وها نحن نقول بأعلى صوت ونكتب فى كل وسائل الإعلام ، والله هو الحامى ، والحمد لله لم نُؤخذ ولم نُسْجن ، ولم يتعرض لنا أحد ، كثير من علماء الدين يعلنون كلمة الحق مجردة من الهوى والمصلحة ، وساعة يعطى لهم الحاكم أذنه يُسمعونه من الكلام ما يرعشه ، ومع ذلك نسمع عن اضطهاد رجال الدين .

ونقول : إذا اضطهد رجل الدين فلا بُدَّ أنه استعمل وسائل محرمةً فى الدعوة إلى الله ، كهؤلاء الذين يميلون إلى حَلِّ المشاكل بالقتل والدماء ، أنت على خلاف مثلاً مع وزير من الوزراء تضربه بالنار ؟ هل هذا هو الحل ؟ وما ذنب الحراس الذين تُهدر دماؤهم وتُيتَّم أطفالهم ؟

أنت صاحب كلمة ، قُلْ ما شئتَ وأصلح بالكلمة الطيبة ، أسمعهم ما يكرهون ، وسبق أنْ قلنا لهم ما لم يستطع أحدٌ أنْ يقوله عندهم ، لأن الشجاعة الإيمانية فى الدعوة إلى الله ليستْ كلمة حَقٍّ تُقَال على سلطان ، إنما كلمة حق تقال عند سلطان جائر ، نعم عنده فى حضوره .

وهذا تطبيق عملى لقول رسول الله ﷺ : « أعظم الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر »(١) .

نحن لا نتاجر بالكلمة ، إنما نواجه بها كل حاكم ظالم ، نقول له : نحن لا نكرهك ولا نطمع فيما فى يدك من الحكم ، بل نحن

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٣/١٩ ، ٦١) ، والترمذى فى سننه (٢١٧٤) وحسَّنه . وأبو داود فى سننه (٤٣٤٤) من حديث أبى سعيد الخدرى . ولفظ الترمذى : « إن من أعظم الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر » .

نحبك ونريد أنْ نعينك على مهمتك ، فقط نريد منك أنْ تحكمنا بالإسلام ، أريد أنْ أُحكَم بالإسلام ، لا أن أُحْكُمَ بالإسلام .

﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾

بعد أنْ حدَّثنا الحق سبحانه عن مهمة الدعوة إلى الله ، وأنها ميراث الأنبياء وتركة رسول الله لنا من بعده ، يُعلِّمنا هنا فناً من فنون الدعوة ودرساً من دروسها ، ألاَ وهو مقابلة السيئة بالحسنة ﴿ وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ .. ﴿٣٤﴾ ﴾ [فصلت]

نعم لا أحدَ يُسوِّى بين الحسنة والسيئة والعقل يؤيد ذلك ، تعالَ إلى اللص الذى يسرق أموال الناس ، ويسرق ثمرة عرقهم وقُلْ له : أتحب أنْ يسرق الناسُ منك ؟ يقول : لا ، نقول : إذن لا تحب لهم ما لا تحبه لنفسك ، يقول لك : أنت تقيد حريتى وأنا حُرٌّ .

نقول له : لا تنسَ أن الله قيَّد حريتك فى سرقة الآخرين وأنت فرد واحد ، وقيَّد حركة الدنيا كلها فى أنْ تسرق منك ، فمَن المستفيد ؟ كذلك فى كل أمور الشرع التى حرَّم الله فيها أنْ تعتدى علَى الآخرين حرَّم عليهم جميعاً الاعتداء عليك ، قال لك : لا تنظر إلى ما حرَّم الله عليك بشهوة . وأمر الناس جميعاً أن لا ينظروا إلى محارمك .

والنبى ﷺ يعطينا نموذجاً فى حكمة الدعوة ، حين جاءه شاب صادقُ الإيمان ، لكن عنده أمر ومسألة لا يستطيع الإقلاع عنها ، وهى شهوة النظر وشهوة الميل إلى النساء ، فجاء وقال لرسول الله

ﷺ : يا رسول الله ، إئذن لى بالزنا .

وتأمل هنا حكمته ﷺ ، قال للشاب دون أنْ يَنهره أو يقسو عليه ، إنما تبسَّم فى وجهه وطمأنه أنه أمام داء له دواء ، طالما أنه صادق الإيمان يواجه النبىَّ بدائه ، لم يغُشّ رسول الله ولم يغُشّ نفسه .

لذلك وصف له رسول الله ﷺ الدواء الذى اجتثَّ هذا الداء من جذوره ، وقام الشاب من عند رسول الله وأشدّ ما يكرهه الزنا .

قال له رسول الله : « يا هذا أتحب ذلك لأمك ؟ قال : لا يا رسول الله ، قال : أتحبُّ ذلك لأختك ؟ قال : لا يا رسول الله ، قال : أتحبُّ ذلك لزوجتك ؟ قال : لا يا رسول الله ، قال : أتحبُّ ذلك لابنتك ؟ قال : لا يا رسول الله ...

وما زال الرسول يذكر له النساء من أهله حتى ذكر العمة والخالة ، وحتى قال الشاب : لا يا رسول الله جُعلْتُ فداكَ ، فقال رسول الله : كذلك الناسُ يا أخا العرب لا يحبونه لأمهاتهم ولا لأخواتهم .... »[(١)] .

عندها قال الشاب : والله ما هممتُ بشىء أنظر إليه إلا تذكرتُ أمى وأختى وزوجتى وبنتى .

إذن : الدين يحتاج فى الدعوة إليه إلى لين وحكمة وموعظة حسنة حتى يُقبل منك ما تقول ، لأن الذى تنصَحه بأمر من أمور الدين وهو على غير دينك ، أو على دينك لكنه ألِفَ المعصية وثقُلَتْ

---

(١) عن أبى أمامة أن رجلاً أتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ائذن لى فى الزنا ، فهمَّ من كان قُرْب النبى ﷺ أن يتناولوه فقال النبى : دعوه . ثم قال له : أتحب أن يُفعل هذا بأختك ؟ قال : لا . قال : فابنتك ؟ قال : لا ، فلم يزل يقول فبكذا فبكذا ، كل ذلك يقول : لا . فقال النبى : فاكره ما كره الله وأحب لأخيك ما تحب لنفسك . أورده المتقى الهندى فى منتخب الكنز (٢/٣٩٧) وعزاه لابن جرير الطبرى .

عليه الطاعـة ، ينبغى عليك أنْ تُخـرجه ممـا ألِفَ بأسلوب لا يكرهه ، حتى لا تجمع عليه المعاناة حـين تخلعه مما يحب ، وقسوة الأسلوب وفظاظته ، يكفى أن تُخـرجه مما أحب بـما لا يكره ، وبذلك تمنع عنه شراسة الجدل وثورة العناد والمكابرة .

وكذلك فى المعاملة ، عليك أنْ تواجه السيئة بالحسنة ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ .. ﴿٣٤﴾﴾ [فصلت] يعني : رُدَّ باللين وبالحسنى ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [فصلت] العداوة المدمرة هى التى تكون بين اثنين عـدوين ، كل منهما عـدو للآخر ، وفى هذه الحالة يسـتشرى العـداء ويستحكـم ، ولا نصل فيه إلى حَلٍّ ، فـمتى تنكسر حِدَّة العداوة ؟

تنكسر حِدَّتهـا حينما تكون من جانب واحد ، جـانب عدو وجانب متسامح لا يرد السيئة بالسيئة ، إنما يعفو ويصفح ، وفى هذه الحالة تهـدأ نفسُ العـدو ، ولا يجـد مـجـالاً لعـداوته ، وهذه أولى خطوات الإصـلاح أنْ تأخذ عـدوك فى جـانبك ، لذلك يقـولون : لا تكافئ مَنْ عصى الله فيك بأكثر من أنْ تطيع الله فيه .

وبهـذه الطريقة ينقلب العـدو إلى ﴿وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [فصلت] يعنى : صديـق قريب مُحب مـخلص كيف ؟ لا تقل كـيف ، بقدرة الله خالق هذه النفوس وهذه القلوب ومُقلِّبها .

جاء رجل يشكو قـسوةَ أحد الأقـارب ، فقلنا له : يا شيخ اصـبر عليه وقابله بالتى هى أحسن ، وتـوددْ إليه علَّ الله يصلح ما بينكما ، بعدها جاء وقال : دفعتُ بالتـى هى أحسن فلم يزدد إلا قسوةً وصار أشدَّ ممـا كان ، قلت له : إذن راجع نفسك لأن كلام الله قضيـة مُسلَّمة ، وابحث عن السـبب عندك ، فلعلك ظننتَ أنك دفعتَ بالتـى هى أحسن ،

والحقيقة أنك لم تدفع بالتى هى أحسن ، أو أنك أردتَ أنْ تُجرِّب مع الله ، والله تعالى لا يُجرَّب ، التجربة مع الله شكٌّ ، فلو صدقتَ مع الله لصدَقَ الله معك .

وما أجمل قول الشاعر[١] فى هذا المعنى :

يا مَنْ تُضايقه الفِعَالُ منَ التى ومنَ الذى

ادْفَعْ فَدَيتُكَ بالتى حَتَّى تَرَى فَإذَا الذِى

﴿وَمَا يُلَقَّـٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّـٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾

أى : هذه الخصلة وهذه المنزلة منزلة الدفع بالتى هى أحسن ، هذه الخصلة لا ينالها ولا يتحلَّى بها إلا الذين صبروا على الأذى ، ولا يصل إليها إلا ذو حظ عظيم . يعنى : نصيب وافر من العطاء ، لماذا ؟ لأنه كبتَ نفسه وأمسكها عن الردِّ بالمثل ، فلما كبتَ نفسه من أجل الله جعل اللهُ عاقبته خيراً ، وأجزل له العطاء .

ونلحظ هنا على الأداء القرآنى تكرار عبارة ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا .. ﴿٣٥﴾﴾ [فصلت] فلم يقُلْ الحق سبحانه : وما يُلقاها إلا الذين صبروا وذو حظ عظيم .. قالوا : تكررت العبارة لأن التلقى مختلف ، هذا تلقى صبر ، وهذا تلقى جزاء . وكثيراً ما يقف المستشرقون وأهل البصر بالقرآن أمام مواطن التكرار فى كتاب الله باحثين عن الحكمة منه ، لأن كتاب الله محكم ، ليس فيه حرف زيادة أو عبث .

ومن هذه المواطن وقفوا عند التكرار فى قصة سيدنا يوسف لَمَّا قال لأبيه سيدنا يعقوب عليهما السلام : ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا

---

(١) من قول الشيخ يرحمه الله .

وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿٤﴾ ﴾ [يوسف] قالوا : ما فائدة تكرار الفعل (رأى) هنا ؟ نقول : يعنى ساعة رأى الشمس والقمر رآهم ساجدين ، وهذا لا يتأتَّى إلا إذا رآهم أولاً غير ساجدين ثم رآهم يسجدون أمامه .

إذن : فالرؤيا الأولى رأى أحد عشر كوكباً ورأى الشمس والقمر فى غير هيئة السجود ، ثم رأى الشمس والقمر له ساجدين ، وهذا المعنى لا يكون إلا بتكرار الفعل .

كذلك هنا ﴿ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا .. ﴿٣٥﴾ ﴾ [فصلت] صبروا على الإيذاء ، وصبروا على ضبط النفس ، وصبروا على مغالبة الشيطان الذى يُوسوس لهم بالانتقام ويُزيِّن لهم الردَّ بالمثل . وكانت عاقبة الصبر الجزاء والحظ الوافر .

وينبغى ألاَّ نغفل دور الشيطان فى هذه القضية ، فمهمته أن يلهب نار العداوة بين الناس ، وأن يشعل الفتن ليلهيهم بها عن مطلوبات الله فسوف يوسوس لك : لماذا تتسامح وقد أُسِيء إليك ، لماذا تقبل الذل ؟ أهو أفضل منك ؟

لأن إبليس منذ أُمر بالسجود لآدم فأبَى ، وكانت النتيجة أنْ صار ملعوناً مطروداً من رحمة الله منذ هذا الموقف ، والعداء مُستحكم بينه وبين ذرية آدم ، ولن يتركهم حتى يُوردهم نفس مورده .

لذلك أقسم : ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [ص] يعنى : يا رب أنا لستُ متمرداً عليك إنما على ذرية آدم ، فالذى تريده طائعاً لا يمكن لى أنْ أغويه ، فليس لى سلطانٌ على المخلصين منهم .

ومن خيبة إبليس أنه أفشى سره ، وأعلن عن وسائله فى غواية

بنى آدم ، ومعلوم أن الذى يصنع مكيدة أو مؤامرة يحتفظ لنفسه بالتفاصيل ، أمَّا إبليس فأعلن عنها ، فأعطانا الله الاحتياط .

قال تعالى حكايةً عن إبليس : ﴿ لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ﴾ [الأعراف] أقعد لهم على الصراط . يعنى : على طريق الاستقامة وفعل الخير لأشغلهم عنه وأفسده عليهم . ولذلك قلنا : إن الشيطان لا يذهب إلى الخمارة مثلاً ، إنما يذهب إلى المسجد .

وفى موضع آخر قال : ﴿ ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ .. (١٧) ﴾ [الأعراف]

﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ(١) فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٦) ﴾

ومن رحمة الله بنا أنه سبحانه لم يتركنا نهباً لهذا العدو الذى يتربص بنا ، إنما أعطانا الحصانة التى نتحصَّن بها منه ، فقال تعالى : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ .. (٣٦) ﴾ [فصلت] ذكَّره بالله القوى ، فإنْ كنتَ أنتَ ضعيفاً أمامه فاستعنْ عليه بالإله القوى ، وساعةَ يراك فى جنب الله لا يجرؤ أبداً عليك ، لأنك داخل فى هؤلاء الذين استثناهم ﴿ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) ﴾ [ص]

وانتبه أنه لن يأتيك إلا على الصراط المستقيم ليفسده عليك ، يأتيك فى صلاتك ويُذكِّرك بما لم يكُنْ لك على بال ، وبأهم الأمور

---

(١) النزغ : أن تنزغ بين قوم فتحمل بعضهم على بعض بفساد بينهم . وهو الكلام الذى يغرى بين الناس . ونَزْغ الشيطان : وساوسه ونَخْسه فى القلب بما يُسوِّل للإنسان من المعاصى . [اللسان - مادة : نزغ] .

عندك فى الدنيا ، المهم عنده أنْ يفسد عليك الآخرة بأى ثمن .

فإذا وجدتَ فى نفسك شيئاً من نَزْغه ووسوسته فقل : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، قُلْها فى كل حال يأتيك فيه إبليس وأنت تصلى ، وأنت تقرأ القرآن ، وأنت فى أىّ عبادة من العبادات .

لك أنْ تقول هذه الكلمة وهى لا تُخرجك من عبادتك على أىِّ حال ، وعندما تداوم على هذه الكلمة سييأس منك ويبتعد عنك ، ويعرف أنك صلْبٌ قوىٌّ تستمد قوتك من الله ، عندها سينصرف عنك ، ولم لا وأنت تعرف ألاعيبه وتكشف حيله ؟

لكن الخيبة أن كثيرين منا ينساقون وراء الشيطان ، ويُسْلمون له قيادهم ، وما يفعله الشيطان مع هؤلاء أنه يعطيهم أول الخيط ويتركهم هم (يكرُّون) الباقى دون جهد منه ودون عناء ، وهؤلاء هم الذين استزلّهم الشيطان وأخضع رقابهم ، فهم يسيرون فى ركْبه دون تفكير أو تأمُّل .

هَبْ أن لصاً جاء يحوم حول بيتك . فقلت : إحم . تريد أن تُسمعه ويعرف أنك يقظ ، لا بدَّ أنه ينصرف ، وقد يعتبر أنها مصادفة فيعاود مرة أخرى فتقول : إحم ، إذن : ليست مصادفة بل أنت له بالمرصاد فأنت متيقظ ، لذلك ينصرف عنك بلا رجعة ، كذلك الشيطان .

قلنا : من غباء إبليس وغفلته أنْ يعلن لنا عن خططه فى غواية بنى آدم ويعلن عن أساليبه ، والغباء يكون أعظم لمن عرف هذه الخطط وهذه الأساليب ، وانساقَ وراءها ولم يأخذ الحيْطة .

وحين نتأمل قول إبليس : ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ .. ﴿١٧﴾﴾ [الأعراف] تلحظ أنه ترك جهتين لم يذكر أنه يأتى منهما : جهة أعلى وجهة أسفل ، لماذا ؟ قالوا : لأن العُلو جهة التوجه إلى الله ، جهة عِزِّ الربوبية ، وجهة الأسفل تمثل ذُلَّ العبودية ساعة تسجد لله ذلاً وخضوعاً له سبحانه ، فهاتان الجهتان لا يأتى منهما الشيطان .

وقوله : ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾ [فصلت] الذى لا يغيب عن سَمْعه شىء ، فإنْ وسوس لك الشيطان بكلام سمعه وعلمه .

بعد أن بيَّن لنا القرآن هذا البيان ، يعود ليلفتنا ثانياً إلى بعض آيات الله فى الكون ، فبهذه الآيات نستدل على وجود الخالق سبحانه وعلى قدرته تعالى ، حيث لو جاءت هذه الآياتُ على أيدى علماء كافرين بالله إلا أننا ننتفع بها ، والله مساكين هؤلاء العلماء ينفعون البشرية كلها ولا ينفعون أنفسهم ، لأنهم - كما قلنا - لا ينطلقون فى اختراعاتهم وابتكاراتهم من منطلق الإيمان بالإله تبارك وتعالى ، فهم كالمطايا ينتفع الناس بخيرهم ، ولا ينالهم من ذلك شىء ، اللهم إلا متاع الدنيا الزائل .

وأقرب آيات الله للإنسان نفسه لو تأملها ، مثلاً درجة الحرارة الطبيعية للجسم ٣٧° تجدها ثابتة فيمَنْ يعيش عند خط الاستواء ، وفيمن يعيش عند القطب الشمالى ، وأنتم تعرفون نظرية الاستطراق الحرارى ، لكن قدرة الله تحتفظ للجسم بهذه الدرجة بصرف النظر عن الجو المحيط به .

ثم فى داخل الجسم ذاته تجد حرارة الأعضاء مختلفة ، فالعين لا

تزيد درجة حرارتها عن ٩° ، والكبد لا يؤدى مهمته إلا عند ٤٠° ، وهما فى جسم واحد وغلاف واحد ، ومع ذلك لا يحدث استطراق للحرارة ، وهذه آية ومعجزة لا يقدر عليها إلا الخالق سبحانه .

تأمل الدم سائل الحياة الذى يجرى بداخلك لا بدَّ له من درجة سيولة معينة داخل الجسم ، فإنْ قلَّتْ هذه السيولة تجلط وحدث شلل للجزء الذى تحدث به الجلطة والعياذ بالله ، وإنْ زادتْ سيولته أدَّى إلى نزيف ، فمَنْ يحفظ له هذه الدرجة من السيولة ؟ الله !!

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ .. ﴿٣٧﴾ ﴾ [فصلت] (من) هنا تفيد التبعيض يعنى : هذه بعضُ آياته تعالى فى الكون ، وإلا فآيات الله فى كونه كثيرة لا تتناهى ، والآية هى الشيء العجيب فى تكوينه وخَلْقه الدالّ على قدرة الله وحكمته وبديع صُنْعه .

﴿ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ .. ﴿٣٧﴾ ﴾ [فصلت] آيتان من آيات الله الكونية ، والليل والنهار يكونان معاً اليوم الذى نعرفه ، وهو من الوقت إلى مثله ، قال تعالى : ﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا .. ﴿٧﴾ ﴾ [الحاقة]

هذه الآيات الكونية المذكورة هنا ﴿ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ .. ﴿٣٧﴾ ﴾ [فصلت] أخذتْ حظّاً واسعاً فى موكب الرسالات وفى العقائد ،

ففى قصة سيدنا إبراهيم - عليه السلام - وهو يبحث عن الحق والحقيقة لما نظر فى الكون من حوله ، فرأى كوكباً قال : ﴿ هَـٰذَا رَبِّى فَلَمَّا أَفَلَ[1] قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا[2] قَالَ هَـٰذَا رَبِّى فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَـٰذَا رَبِّى هَـٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَـٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) ﴾ [الأنعام]

إذن : فالشمس والقمر مرتبطان بالليل والنهار لهما مدخل فى العقيدة ، هذا المدخل فى العقيدة ينتقل من قسم العقيدة وهى الإيمان بالإله الواحد إلى شىء آخر ، هذا الشىء جُعل دليلاً إيمانياً على أمر شكَّ العربُ فيه لما نزل القرآن على رسول الله ﷺ ، إذن : كانت هذه الآيات الكونية مدخلاً أولاً للعقيدة والإيمان بالله ، ثم كانت دليلاً على عدم انقطاع الوحى عن سيدنا رسول الله ﷺ .

تعلمون قصة نزول الوحى على سيدنا رسول الله لأول مرة فى غار حراء ، وأنه ﷺ كان يعانى ويتعب من لقاء الملَك لاختلاف الطبيعة الملائكية عن الطبيعة البشرية ، وأنه ﷺ كان يذهب إلى أهله يقول مرة : زمِّلونى زمِّلونى ، ومرة : دثِّرونى دثِّرونى لما كان يحدث فى طبيعته ﷺ من تغيير ، لذلك كان الوحى فى بدايته ثقيلاً على رسول الله ، وقد قال تعالى : ﴿ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً (٥) ﴾ [المزمل]

---

(١) أفل الكوكب وأفلت الشمس : غابت . وأفل الشىء : ذهب . [المحيط فى اللغة للصاحب ابن عباد . مادة : أفل] .

(٢) بزغ القمر والشمس : طلعتْ . والبزوغ : ابتداء الطلوع . فبزوغ القمر : طلوعه منتشر الضوء . [تاج العروس للزبيدى - مادة : بزغ] .

وروى الصحابة أنه ﷺ كان يتفصَّد[(١)] جبينه عرقاً لما ينزل عليه الملَك ، والصحابى الذى كان يجلس بجوار رسول الله ﷺ يسند فَخذَه عليه ، كان يجد ثِقَلاً لا يطيقه حينما ينزل الوحى على رسول الله[(٢)] .

لذلك أراد الحق سبحانه أن يخفف عن رسوله ﷺ هذه المعاناة ، فانقطع الوحى لمدة ستة أشهر ، ليستريح رسول الله وتذهب عنه متاعب التلقِّى الأولى ، وليشتاق إلى لقاء الملَك من جديد ، وإلى كلام الله الذى انقطع عنه ، ولا شكَّ أن هذا الشوق سيعطيه طاقةً لتحمُّل أمر الوحى والدعوة بعد ذلك .

رأى كفار مكة فى انقطاع الوحى عن رسول الله مأخذاً ، فقالوا : إن ربَّ محمد قلاه[(٣)] يعنى : تركه وهجره ، وهم لا يعلمون أن فتور الوحى ليس هَجْراً ، إنما هو وداع الحبيب لحبيبه إلى لقاء آخر أعظم وأطول ، ولذلك أنزل الله تعالى : ﴿وَالضُّحَىٰ (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ[(٤)] (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣)﴾ [الضحى]

هذا هو موضع الشاهد ، أن الحق سبحانه أقسم لهم بالضحى

---

(١) يتفصد عرقاً : يسيل عرقه . قالت عائشة رضى الله عنها : لقد رأيته ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢) كتاب بدء الوحى ، وأحمد فى مسنده (٦/٢٥٧) .

(٢) ذكر البخارى فى صحيحه - كتاب الصلاة ، باب ما يُذكر فى الفخذ (١٢) قول زيد بن ثابت كاتب الوحى موقوفاً عليه : أنزل الله على رسوله ﷺ وفخذه على فخذى ، فثقلت علىَّ حتى خفت أن تُرضَّ فخذى (فتح البارى ١/٤٧٨) .

(٣) عن جندب بن عبد الله البجلى أنه قال : أبطأ جبريل على رسول الله ﷺ ، فقال المشركون : ودع محمداً ربه . أورده ابن كثير فى تفسيره (٤/٥٢٢) .

(٤) سجا : سكن ودام . وقال الفراء : إذا أظلم وركد فى طوله . وليلة ساجية : إذا كانت ساكنة البرد والريح والسحاب غير مظلمة . [لسان العرب - مادة : سجا] .

وهو النهـــار ، وبالليل إذا حَلَّ بظلامـــه ، وجـعل من هاتيـن الآيتـين الكونيـتين دليلاً على أن الـوحى ما انقطع ، إنمـا أراد الله لرسوله أن يرتاح من تعبه ، وأنْ يعاود نشاطه لتلقِّى الوحى من جديد ، كما أنكم تتعبون فى النهار وترتاحون فى الليل .

﴿ وَالضُّحَىٰ (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣) ﴾ [الضحى] ومعروف أن الضـحى للشمس والليل للقمر ، إذن : فـفترة فتور الوحى عن رسول الله يُراد بها التخفـيف عنه ، كما قال سبحانه : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (١) وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ (٢) الَّذِى أَنقَضَ ظَهْرَكَ (٣) ﴾ [الشرح]

والمراد : نشرح صدرك لنزول القرآن عليك فتشتاق إليه ، ويكون عندك طاقـة لاسـتـقـبـاله ، فكأن القـرآن أخـذهم من الآيات الكونيـة المحسوسة إلى المعـنويات ، وجعل ما يرونه دليلاً على ما ينكرونه ، يعنى : إذا كنتم فى حركة حياتكم اليومية تحتاجون لليل تسكنون فيه وترتاحون من عناء النهـار ، فكذلك رسول الله يحتاج إلى هذه الـفترة ليرتاح فيها من عناء وثِقَل الوحى فى بدايتـه ، ليجدد نشاطه ويشتاق إلى لقاء الملَك من جديد .

لذلك قال تـعـالى بعـــدها ﴿ وَلَلآخِرَةُ خَيْـرٌ لَّكَ مِـنَ الأُولَىٰ (٤) ﴾ [الضحى] فمعاودة الوحى سـتكون أعظمَ من الأولى وخير منها ، لأن المعاودة ستكون أطولَ وأقوى .

وكمـا دخلتْ هذه الآيات الكونيـة التى هى الليل والنهار والـشمس والقمـر فى العقيدة فــى قصة سيـدنا إبراهيم وفى الوحى المنزَّل على سيـدنا رسول الله ، كـذلك دخلتْ فى حَلِّ بعض الإشكالات فى قـضايا اجتماعية اهتم الإسلام بها ، وهى قضية المساواة بين الرجل والمرأة .

وهذه قضية كَثُر الجدل فيها ، وأخذها المغرضون ذريعة للهجوم على الإسلام ، مع أن الإسلام أعظم دين أنصف المرأة وأعطاها حقوقها ، وألزم المجتمع باحترامها ، الإسلام ينظر إلى الرجل والمرأة على أنهما نوعان من جنس واحد يعنى : هما فى الأصل شىء واحد .

إذن : لا بدَّ أنْ يكون بينهما قدر مشترك ولما انقسما إلى قسمين ذكر وأنثى ، صار بينهما قدر غير مشترك ، وصار لكل منهما مهمته فى حركة الحياة ، ولكى يوضح لنا السياق القرآنى هذه المسألة قال تبارك وتعالى :

﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ۝٣ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۝٤ ﴾ [الليل] فكما أن الليل والنهار متكاملان متعاونان غير متعاندين ، وكما أن لكل منهما مهمته فى الحياة ، هذا للعمل وهذا للراحة ، فكذلك حال الرجل والمرأة ، عنصران لشىء واحد ، وهما يتكاملان ويتعاونان لا يتعاندان كالليل والنهار ، فحين تنظرون إلى الرجل والمرأة لا تنظروا إليهما على أنهما نوعان مختلفان فى الجنس قد يكون بينهما تعاند ، لأنهما من جنس واحد ، والجنس الواحد لا يُصادم بعضه بعضاً ، الجنس الواحد رسالتُه واحدة ، الكلّ يتعاون فى حملها كُلٌّ بما يناسبه وبما خلقه الله له ، وبما أعطاه من قدرات وإمكانيات .

وهذه قضية اختلفوا فيها ، خاصة الملاحدة الذين نظروا إلى الجنس ، ولم ينظروا إلى ما تحته من الذكر والأنثى ، فرغم الاختلاف بين النوعين إلا أنهم أرادوا أن يكون لهما مهمة واحدة لا اختلاف بين الذكر والأنثى .

لذلك الحق سبحانه يعطينا هذا المثل التوضيحى : الليل والنهار ،

وهل مهمة الليل كمهمة النهار ؟ لكلٍّ مهمته وطبيعته ، ومَنْ يعاند هذه الطبيعة يتعب فى حركة حياته . كذلك جُعل الرجلُ للعمل وللقوة والسعى ، وجُعلَتْ المرأة للعاطفة واستقبال الأبناء وتربيتهم ، خاصة وطفولة الإنسان هى أطول طفولة فى الكائنات ، والإشراف عليها مهمة المرأة ولا يجيدها الرجل .

فالحق سبحانه حينما يعطينا هذا المثل يعلِّمنا أن نرد ما اختلفنا فيه إلى ما اتفقنا عليه ، فكما أننا لا نختلف فى مهمة الليل ومهمة النهار ، كذلك ينبغى ألاَّ نختلف فى مهمة الرجل والمرأة ، وألاَّ نُردد كلمة المساواة هكذا دون فَهْم لطبيعة كُلٍّ من الرجل والمرأة ودور كلٍّ منهما الذى خلقه الله له .

وفى موضع آخر يعلمنا الحق سبحانه هذه الحكمة من خلق الليل والنهار ، فيقول سبحانه : ﴿ **قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢)** ﴾ [القصص]

وبعد ذلك ، جعل سبحانه وتعالى للزمن مدخلاً آخر غير الليل والنهار ، وهو فترات الزمن : الساعات والدقائق والثوانى ، وبها يتم ضبط الزمن ، والساعة التى تضبط لك الوقت لا تؤدى هذه المهمة إلا إذا كانت هى نفسها منضبطة تماماً ، لذلك جعل الله تعالى للشمس وللقمر مهمة أخرى هى مهمة ضبط الوقت ، لذلك جعلهما منضبطتين فى حركتهما بإحكام .

يقول تعالى : ﴿ **الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥)** ﴾ [الرحمن] يعنى : بحساب دقيق محكم لا يختلف أبداً ولا يدخله فساد ، ومن حركة

الشمس والقمر نحسب الوقت خاصة الأمور الدينية التى لا نستطيع أنْ نضبطها إلا بهذه الحركة .

قال تعالى : ﴿لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ .. ⑤﴾ [يونس] فمن حركة الشمس أعرف الليل والنهار ، ومن حركة القمر أعرف بدايات الشهور ونهاياتها .

إذن : من حركة الشمس والقمر والليل والنهار أستطيع أن أضبط حركة التكليف فى الصلاة بأوقاتها المختلفة ، هذه الأوقات التى تضمن دوام إعلان الولاء لله تعالى فى كل وقت وفى كل مكان نتيجةً لاختلاف المشارق والمغارب على مدار اليوم الكامل .

لذلك قال تعالى : ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ.. ㉘﴾ [الشعراء]
وفى موضع آخر قال : ﴿بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ .. ㊵﴾ [المعارج]
وقال : ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ⑰﴾ [الرحمن]

نعم ، هى مشارق متعددة ومغارب متعددة ، لأن كلَّ مكان له مشرق وله مغرب ، وكل مشرق فى مكان مغرب فى مكان آخر وهكذا ، ألاَ ترونَ فى الصيام مثلاً أننا نفطر فى القاهرة قبل الإسكندرية بخمس دقائق ، لماذا ؟ لأن مشرق القاهرة غير مشرق الإسكندرية ، ومغرب القاهرة غير مغرب الإسكندرية ، لذلك نسمع المذيع يقول : مع مراعاة فروق التوقيت ، أى : الفروق الزمنية بين مكان ومكان .

إذن : المتأمل فى حركة الشمس يجدها فى لحظة لها شروق ولها غروب ، وعليه فذكْر الله فى الصلاة وفى الأذان يسيح فى الزمن كله بلا انقطاع ، لذلكَ يقول أهل التصوف : يا زمن وفيك كُلُّ الزمن ، فأنت حين تصلى الفجر ، هناك غيرك يصلى الظهر ، وغيره يصلى العصر ، وغيره يصلى المغرب ، وغيره يصلى العشاء فى الوقت

نفسه وفى اللحظة نفسها ، فتجد الحق سبحانه معبوداً فى كل وقت بكل أنواع العبادة .

وإنْ أردتَ الدقة أكثر فاجعل هذه المسألة مرتبطةً بعقرب الثوانى فى ساعتك لا عقرب الدقائق ولا الساعات ، ففى كل ثانية لله مؤذن يُؤذِّن : الله أكبر . وغيره يقول : أشهد ألاَّ إله إلا الله ، وغيره فى نفس اللحظة يقول : أشهد أن محمداً رسول الله وهكذا . فكأن شهادة ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله دائمة بدوام الزمن لا تنقطع من الوجود أبداً .

ثم يعطينا الحق سبحانه ملحظاً آخر للشمس والقمر ؛ لأنهما من أعظم المخلوقات ، وعُرف عنهما الثبات والدقة والعظمة فى الخَلْق ، حتى أن بعض الناس عبد الشمس أو القمر ، فأراد الحق سبحانه أن يلفت الخلق إلى عظمة الخالق الذى هو أَوْلَى بالعبادة من مخلوقاته .

فجعل الشمس والقمر يعتريهما تغيير هو الكسوف والخسوف ، فمهما كانتْ الشمس ، ومهما كان القمر هما مخلوقان متغيران ، والمتغير لا يكون معبوداً أبداً ؛ لذلك قال سبحانه فى الآية التى معنا : ﴿ **لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ** (٣٧) ﴾ [فصلت]

الحق سبحانه فى أول الآية قال : ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ..** (٣٧) ﴾ [فصلت] والآية هى الشىء العجيب فى الخَلْق البديع فى نظامه وإحكامه ، وهذا الخَلْق العظيم ينبغى أنْ يُعظِّم بتعظيم الله له ، لكنْ لا يجوز أنْ يتعدَّى هذا التعظيم إلى حَدِّ العبادة ، وإلى حَدِّ السجود للمخلوق مهما كان عظيماً ، لأنه مخلوق مُتغيِّر ، والإله لا يتغير من أجل العباد ، لكن العبادَ يتغيرون من أجل الله .

وهذه المسألة تُفسِّر لنا قضية سجود الملائكة لآدم عليه السلام ، فلم يكن سجودَ عبادة ، إنما كان امتثالاً لأمر الله لهم بالسجود لآدم ، لكن لماذا أسجد اللهُ الملائكة لآدم ؟

قالوا : لأن آدم سينزل إلى الأرض ، وستكون له حركة إعمار فيها ، وستكون الملائكة فى عَوْنه تساعده على أداء مهمته فى الأرض ، الملائكة الموكلون بأمور الناس وهم المدبِّرات أمراً ، وكما قال تعالى فى وصفهم : ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ .. (١١) ﴾ [الرعد]

فالملائكة الذين أُمروا بالسجود ليس هم كلّ الملائكة ، إنما الذين لهم علاقة بالإنسان ، فكأن الحق سبحانه يُعرِّفهم على هذا المخلوق الجديد ، الذى سيكونون فى خدمته ، فاسجدوا له سجودَ خضوع وامتثال ، ليعلموا أنهم فى خدمته يُدبِّرون له الأمور .

لذلك ورد فى الحديث الشريف[1] « يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون فى صلاة الصبح وصلاة العصر فيصعد إليه الذين باتوا فيكم فيسألهم وهو أعلم بكم : كيف تركتم عبادى فيقولون : أتيناهم وهم يصلون ، وتركناهم وهم يصلون » يعنى : على هيئة ورديات دائمة لا تنقطع .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٦٣٢) والبخارى فى صحيحه (٥٥٥) من حديث أبى هريرة . قال النووى فى شرحه على صحيح مسلم (١٣٩/٣م) طبعة دار القلم بيروت : « أما اجتماعهم فى الفجر والعصر فهو من لطف الله تعالى بعباده المؤمنين وتكرمة لهم أن جعل اجتماع الملائكة عندهم ومفارقتهم لهم فى أوقات عباداتهم واجتماعهم على طاعة ربهم ، فتكون شهادتهم لهم بما شاهدوه من الخير » .

ومن الملائكة نوعٌ آخر لا دَخْلَ له بالإنسـان ، ولا علاقةَ له به ، بل لا يدرون عن عالمنا هذا شـيئاً ، وهم العَالُون الذين قـال الله فيهم فى الحديث عن إبليس : ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥)﴾ [ص]

إذن : إذا كان السابقون عظموا الشمس والقمر حتى سجدوا لهما ، فاعلموا أن خالقهـما أَوْلَى بالسجود : ﴿لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (٣٧)﴾ [فصلت] يعنى : إن كنتم تأتمرون بأمره .

ملحظ آخر نأخذه من الشـمس يُوقفنا على شىء غـريب لم نكُنْ نعـرفه من قـبل ، ففى سـورة الكهف يحكى لنا القـرآن سيـاحة ذى القرنين ، فيقول سبحانه : ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا (٨٣) إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا (٨٤) فَأَتْبَعَ سَبَبًا (٨٥) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ .. (٨٦)﴾ [الكهف]

أى : مغرب الشمسَ فى مـرأى العين ، لأنك لو وصلتَ إلى العين الحمئة فسوف تجد الشمس ما زالتْ بعيدة ﴿وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا (٨٦)﴾ [الكهف] ذلك لأنه رجل مُمكَّن فى الأرض ، له منزلة وسلطان .

والمُمكَّن فى الأرض مهمته أنْ يقيم فـيها موازين العدالة ومعايير الصواب والعقاب ، لأن حركـة الناس فى الدنيا لا تستقيم إلا إذا أُثيب المحسن وعُوقب المسىء .

﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا (٨٧)

وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ [الكهف]

ثم تكلم عن مطلع الشمس ، فقال : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ ﴾ [الكهف] يعنى : ليس بينهم وبينها حجاب يسترها ، ولم يذكر لنا شيئاً بعد مطلع الشمس كما ذكر الدرس السابق عند مغرب الشمس ، حيث كان له عمل ودور مع مَنْ أحسن ومن أساء ، أما فى مطلع الشمس فقال : ﴿ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ ﴾ [الكهف] وسكت ، فكأن الهدف أنْ نعرف أن ذا القرنين وصل إلى مكان ، نهاره طويل لا شىء يحجب الشمس فيه .

وبعد أن اكتشف العلماءُ خطوطَ الطول وخطوط العرض عرفنا أن بعض الأماكن عند القطبين يطول النهار حتى يصل إلى ثلاثة أشهر أو ستة أشهر ، وهذه لقطة من إعجاز القرآن العلمى .

فإنْ قلتَ : فكيف يفعل مَنْ يعيش فى هذه الأماكن ؟ كيف يصلى وكيف يصوم ؟ نقول : يُقدِّر لليوم العادى مقداره ، ولليل مقداره فيقسم الوقت إلى ليل ونهار كالمعتاد ، وكذلك مَنْ كان ليله ثلاثة أشهر أو ستة أشهر .

ملحظ أخير يتعلق بصياغة الآية وما فيها من دقة بيانية ، فالحق سبحانه بدأ بآية الليل ثم النهار ، وبدأ بالشمس ثم القمر ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ .. ﴿٣٧﴾ ﴾ [فصلت] وكانت المناسبة تقتضى أنْ يقول : والقمر ليناسب الليل ، والشمس لتناسب النهار .

لكن لصياغة القرآن حكمة ودقة بيانية ، فالحق سبحانه يبدأ بالأهم فى حركة الحياة ، فالليل جُعل للراحة والنهار للعمل ، لأن الخالق سبحانه خلق الإنسانَ لإعمار الأرض ، وللسعى فى مناكبها ، ولا إعمارَ إلا بحركة ، والحركة تحتاج إلى زمنين : زمن للراحة ، وزمن للعمل .

فقدَّم الليل وقت الراحة لأنك لا تنتج ولا تكدّ إلا إذا أخذتَ حظك من الراحة أولاً ، فكأن الراحة أولاً هى أصلٌ يأتى بعدها العمل ، وإلا فالمتعَب المكدود لا ينتج ولا ينجز ، كذلك قدَّم الشمس على القمر ، لأنها الأعظم والأهم ، ومنها تستمد كل النجوم والكواكب نورها .

وما دُمْنا بصدد الحديث عن الليل والنهار ، فلا بدَّ أن يواجهنا هذا السؤال : أيهما أوَّلٌ فى الخَلْق ؟ البعض يقول : الليل أولاً . بدليل أننا نثبت مثلاً دخولَ رمضان بليله لا بنهاره ، فحين نرى الهلال نقول : غداً رمضان ، والذين يعتقدون أن الليل وُجد أولاً لابدَّ أن لديهم قضية أخرى هى أن النهار غير سابق لليل .

الحق سبحانه يُنهى هذه المسألة ، فيقول سبحانه : ﴿ لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ[1] يَسْبَحُونَ (٤٠) ﴾ [يس]

وننتهى بذلك إلى حقيقة كونية أثبتها الحق سبحانه هى : لا النهار يسبق الليل ، ولا الليل يسبق النهار ، لأنهما كما بينَّا وُجدا فى بداية الخَلْق معاً ، فى وقت واحد ، ثم دار كل منهما مع الآخر .

---

(١) الفَلَك : مدار النجوم . والجمع أفلاك . وأهل النجوم يقولون : الفلك سبعة أطواق دون السماء قد رُكِّبت فيها النجوم السبعة ، فى كل طوق منها نجم وبعضها أرفع من بعض يدور فيها بإذن الله [اللسان - مادة : فلك] .

﴿ فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ۩ (٣٨) ﴾[1]

قوله تعالى : ﴿ فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا .. (٣٨) ﴾ [فصلت] أى : عن طاعة الله فى أمره ونَهْيه فى الآية قبلها ﴿ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِى خَلَقَهُنَّ .. (٣٧) ﴾ [فصلت] ، والاستكبار هنا يدلُّ على عدم الإيمان بالله الآمر الناهى ، لأنهم سجدوا للشمس وسجدوا للقمر سجودَ عبادة ، والعبادة تعنى طاعة العابد لأمر المعبود ، والشمس والقمر ليس لهما أوامر ولا نَوَاه ، فعبادتهما باطلة ، وتدل على غباء مَنْ عبدها وعلى كذبه فى هذه العبادة ، لأنها مخلوقات لا أمرَ لها ولا نهى ولا تكاليفَ ، لا تثيب مَنْ أطاعها ، ولا تعاقب مَنْ عصاها .

لذلك قلنا : إن كلمة العبادة هنا كذب وباطلة (فنطزية) يعنى : المهم يكون لهم معبودٌ يُرضى عنده رغبته فى التدين ، وما أسهلَ أنْ يتخذَ الإنسانُ معبوداً لا تكاليفَ له .

لذلك لما قالوا : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ .. (٣) ﴾ [الزمر] قلنا : كلمة نعبدهم هنا كذب ، بدليل أنكم إذا نزل بكم الضر لا تلجئون إلى الشمس ولا إلى القمر ، إنما تلجئون إلى الله : ﴿ وَإِذَا

---

(١) قال الرازى فى تفسير هذه الآية (فصلت ٣٨) : تمسك المشبهة بقول ﴿ فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ (٣٨) ﴾ [فصلت] فى إثبات المكان والجهة لله تعالى ، والجواب : أنه يقال عند الملك من الجند كذا وكذا . ولا يراد به قرب المكان . فكذا ههنا . ويدل عليه قوله « أنا عند ظن عبدى بى » « وأنا عند المنكسرة قلوبهم لأجلى فى مقعد صدق » .

مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ .. (٦٧) ﴾ [الإسراء]

وقال : ﴿ وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ .. (٣٣) ﴾ [الروم]

وقوله تعالى : ﴿ فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لا يَسْأَمُونَ (٣٨) ﴾ [فصلت]

المعنى : أن الحق سبحانه مُستغْنٍ عن طاعة هؤلاء المستكبرين وعن عبادهم ، فله سبحانه ملائكة مُكرمون ، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يُؤمرون ، يُسبِّحون الليل والنهار لا يفترون ، ولا عملَ لهم سوَى التسبيح ، وهم لا يسأمون ولا يملّون ولا يتعبون .

قالوا فى العندية هنا ﴿ فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ .. (٣٨) ﴾ [فصلت] أنها عندية مكانة ، لا عندية مكان ، عندية تكريم وشرف ، كما قال سبحانه عن الشهداء : ﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) ﴾ [آل عمران]

وقال سبحانه : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (٥٤) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ (٥٥) ﴾ [القمر]

فهؤلاء الملائكة ليسوا عند الله فى مكان واحد ، ولا هم قاعدون معه سبحانه ، إنما هى مثلنا تماماً لا يروْنَ الله سبحانه ، ويؤمنون به مثلنا بالغيب ، والله بالنسبة لهم غَيْبٌ ، وبعض التفسيرات وأنا أشجعها تميل إلى أن الله تعالى ليس له مكان لأنه فى كل مكان ، فكل مكان عند الله .

ولذلك اقرأ قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ فَلَوْلا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ (٨٣) وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ (٨٤) وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لاَّ تُبْصِرُونَ

(٨٥)﴾ [الواقعة] البعض يقول : العندية هنا عندية علم ، ولو كانت كذلك لم يقُلْ ﴿وَلَـٰكِن لاَّ تُبْصِرُونَ (٨٥)﴾ [الواقعة] فما دام قال ﴿وَلَـٰكِن لاَّ تُبْصِرُونَ (٨٥)﴾ [الواقعة] فهى عِنْدية حقيقية شائعة فى كل مكان .

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَـٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (٣٩)﴾

ما يزال السياق القرآنى يأخذنا إلى الآيات الكونية التى تثبت قدرة الخالق سبحانه ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ .. (٣٩)﴾ [فصلت] من هنا قلنا للتبعيض . يعنى : هذه بعض آيات الله (آياته) أى : الكونية الدالة على قدرته تعالى ، وهى الشىء العجيب الدالّ على بديع الصنعة ﴿أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً .. (٣٩)﴾ [فصلت] أى : ساكنة مستقرة لا شىء عليها من زرع مثلاً ، لأن الأرض خُلقت لتكون تربة للنبات ، وكأنَّ الأرض التى لا زرعَ عليها أرضٌ حزينةَ خاشعة ساكتة ساكنة لأنها لم تنبت ، وربما شابهت فى ذلك المرأة التى لا تنجب .

﴿فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ .. (٣٩)﴾ [فصلت] اهتزَّتْ : تحركت (وَرَبَتْ) زادت وانتفشتْ ، ترونَ حبة الفول النابت مثلاً تكون جافة جامدة ، فإذا بللتها بالماء زادتْ فى الحجم وانتفشَتْ ، والمراد : اهتزتْ وتحركت بما يخرج منها من نبات .

﴿إِنَّ الَّذِى أَحْيَاهَا .. (٣٩)﴾ [فصلت] أى : أحيا هذه الأرض الساكنة بالنبات وحوَّلها إلى هذا البساط الأخضر النضر ﴿لَمُحْيِى الْمَوْتَىٰ .. (٣٩)﴾ [فصلت] إذن : خُذْ من هذه الآية الحسّية المشاهدة

لك دليلاً علَى صدْق ما غاب عنك وأخبرك الله به من أمر إحياء الموتى ، فيا مَنْ تكذِّب بالَبعث وإحياء الموتى ، أما لك عبرةٌ فى إحياء الأرض القَفْر الجدباء بالنبات .

﴿ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ [فصلت] يعنى : قدرة الله فيها طلاقة ، لأنه سبحانه لا يعجزه شىء ، والذى خلق الخَلْق الأول من عدم أقدرُ على إعادته ؛ لأن بعث الميت يبعث شيئاً موجوداً وهذا أهون لو قلنا تجاوزاً فى حَقِّ الله تعالى هيِّن وأهون ، لكى نفهم نحن ، يقول تعالى : ﴿ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾ ﴾ [ق]

الحق سبحانه وتعالى أخبرنا عن كيفية خَلْق الإنسان والذى يعرف كيفية البناء يعرف منها كيفية الهدم ، وقلنا : إنها عكس البناء ، فما بُنِى أولاً يُهدم آخراً ، وآخر شىء فى البناء أول شىء فى الهدم وهنا الروح .

ولا بدَّ أن نذكر هنا أن الحق سبحانه حذَّرنا من المضلين الذين يضلون الناس فى مسألة الخَلْق . فقال : لا تُصدِّقوا مَنْ يخبركم بشىء فى هذا الموضوع لأنه لم يشهد عملية الخَلْق : ﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا[1] ﴿٥١﴾ ﴾ [الكهف]

إذن : فكأن الذين قالوا إن الإنسان أصله قرد جنودٌ لهذه الآية

---

(١) عضداً . أى : أعواناً مساعدين . ومنه قول الحق سبحانه : ﴿ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [القصص] أى : سنقويك به على سبيل المجاز المرسل فتقوية العضد تقوية للإنسان كله . [القاموس القويم ٢/ ٢٤] .

ودليل على صدقها ، فالحق سبحانه يعلم ذلك ويتنبأ لنا به ، وها هو يحدث فلا تُصدِّقوهم ، إنهم كاذبون بدليل أن الإنسان عاش على هذه الأرض آلاف السنين لم يَرَ إنساناً تحوَّل إلى قرد ، ولا قرداً تحوَّل إلى إنسان .

ولقد توصَّل العلم الحديث إلى صدق القرآن فى مسألة خَلْق الإنسان من طين الأرض ، حيث وجدوا أن عناصر تكوين الإنسان هى نفس عناصر تكوين الأرض ، وهى ستة عشر عنصراً ، وحين يموت الإنسان تتحلّل هذه العناصر وتذوب فى الأرض ، فأجزاؤه موجودة يعلمها الله ويُحصيها وهو وحده القادر على إعادتها .

واقرأ : ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ (٤) ﴾ [ق] فالمسألة صعبة بالنسبة لك ، لكنها سهلة هيِّنة على الخالق سبحانه ، فهو عز وجل يعلم كم نقص منك من عناصر ومقدار هذه العناصر ونحن بنو البشر نختلف فى أشكالنا وألواننا ، لكن المادة واحدة هى الستة عشر عنصراً فى الكل ، لكن الأجزاء تختلف ، ونسبة هذه العناصر تختلف من إنسان لآخر ، ولذلك تختلف شخصياتنا .

فقوله : ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ .. (٤) ﴾ [ق] يعنى : كم أخذتْ منك من الأكسوجين ، وكم أخذت من الكربون ، وكم أخذت من الحديد .. وهكذا فهى إذن مقادير معلومة فى علم الله سبحانه وفى هذا الكتاب الحفيظ الذى يحفظ كل شىء بكل دقَّة ، وحفيظ فعيل يعنى : صيغة مبالغة من الحفظ . فلا تُكذِّب بالبعث ، وخُذْ مما ترى دليلاً على صِدْق ما أخبرك ربُّك به من الغيبيات .

قلنا : لو أن إنساناً يزنُ مائة كيلو مثلاً ثم مرض ، فنزل وزنه إلى ستين ، فكم فقد من وزنه ؟ فقد أربعين ، أين هى ؟ نزلتْ

فضلات إلى الأرض ، نعم ، ثم ذهب إلى الطبيب فعالجه وشفاه الله وبدأ يأكل حتى عاد إلى وزنه الأول .

هل أخذ نفس العناصر ذاتها التى فقدها ؟ لا بل أخذ مثلها ، مثل المريض مثلاً بنقص الحديد فيعطيه الطبيب دواء غنياً بالحديد حتى تعتدل عنده نسبة الحديد فى الدم ، إذن : أخذ نفس العناصر التى فقدها من عنصر الحديد ، لكن ليستْ هى هى التى فقدها من قبل .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ يُلْحِدُونَ .. ﴿٤٠﴾ ﴾ [فصلت] : أى : يميلون بآيات الله عن الحق والاستقامة إلى باطل يرونْهُ هم حقاً ، أو يُحرِّفون الآيات تبعاً لأهوائهم ؛ لأن آيات الله لها معان ، فهم يُلحدون فيها . يعنى : يُخفونها ويُظهرون لها معانىَ أخرى باطلة ، كما نلحد نحن الميت فى باطن الأرض ، بعد أنْ كان يسيرُ عليها ، فالمعنى يُخْفُون حقائقها ليُرضُوا كفرهم وهواهم .

ومن الإلحاد فى آيات الله ما وقع فيه البعض من التشبيه أو التمثيل فى أسماء الله وصفاته ، فحين يقفون عند صفة لله تعالى يُوجد مثلها فى البشر يُشبِّهون ، فالله له سمع ليس كسمعنا ، وله يد ليست كأيدينا ، وله بصر ليس كبصرنا ، إذن : لا بدَّ أنْ نأخذ هذه الصفات فى إطار عام للآيات الكلية ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ .. ﴿١١﴾ ﴾ [الشورى]

ومنه قولهم عن المعجزة سِحْر فى قصة سيدنا موسى – عليه السلام – مع فرعون وفَرْق بينَ السحر والمعجزة ، المعجزة حقيقة والسحر تخييل بعيد عن الحقيقة ، صحيح أن معجزة موسى عليه السلام كانت من جنس السحر لأنه المجال الذى نبغ فيه قومه لكنها لم تكُنْ سحراً .

فالحبال التى رماها سحرة فرعون رآها موسى ثعابينَ تسعى ، أما السَّحَرة أنفسهم فيروْنَها حبالاً ، فالسحر يُخيل لك الشيء أنه غيره مع أنه ليس كذلك فى الحقيقة إنه مجرد خيال ، لذلك قال تعالى : ﴿ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ (٦٦) ﴾ [طه] تخييل لا حقيقة .

لكن لما ألقى موسى عصاه ، ماذا حدث ؟ تحولتْ إلى حية حقيقية ، بدليل قوله تعالى : ﴿ فَأَوْجَسَ[(١)] فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ (٦٧) ﴾ [طه] ولا يمكن أنْ يخاف موسى من عصاه وهى عصاً لا بدّ أنها انقلبتْ إلى حية بالفعل وهو يراها كذلك ، وبدليل أيضاً أن سحرة فرعون وكانوا كثرةً ، ولهم تمرُّس بأساليب السحر ويستطيعون التمييز بين السحر والحقيقة ، رأيناهم يرفعون راية التسليم لموسى ويؤمنون معه ، لماذا ؟

لأنهم رأوا معجزة هم أخْبَرُ الناس بها ، وأنها ليست سحْراً من جنس سحرهم ، ولا تخييل كما يفعلون هم ، ولو كان فعْل موسى تخييلاً ما قال الله له : ﴿ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ (٢١) ﴾ [طه]

---

(١) أوجس فى نفسه : أضمر الخوف فى نفسه حين رأى أعمال السحرة ، وقال فى قصة إبراهيم مع الملائكة : ﴿ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً .. (٢٨) ﴾ [الذاريات] أى : أحسَّ الذعر والخوف . [القاموس القويم ٢/٣٢١] .

وكما قالوا فى موسى - عليه السلام - أنه ساحر قالوها فى سيدنا محمد ﷺ ، والردّ عليها كما أوضحنا بسيط ، نقول لهم : لو كان محمد ساحراً سحر مَنْ آمن به ، فلماذا لم يسحركم أنتم وتنتهى المسألة ؟

ومن إلحادهم فى آيات الله قولهم عن رسول الله ﷺ أنه مجنون مع أنهم ما جرَّبوا عليه شيئاً من ذلك ، وعُرف بينهم بالصادق الأمين ، واتصف فيهم بكريم الأخلاق ، وصاحب الخلق لا يكون أبداً مجنوناً ، وقد ردّ الله عليهم ﴿مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢﴾ [القلم]

ومن إلحادهم فى القرآن أنهم قالوا عنه إنه شعر ، وعجيبٌ منهم ذلك لأنهم أعرفُ الناس بأساليب الشعراء وتعبيرات الشعراء ، هم يعرفون أن القرآن مُعْجِز ، وأنه من عند الله ، وأن أسلوبه لا يُضاهَى ، وأنه فريدٌ من نوعه ومع ذلك يكذبون ، وهذا هو الإلحاد .

ومعلوم أنَّ من عظمة القرآن الكريم أنه ليس له أسلوبٌ يُحتَذى ، وأن له مذاقاً خاصاً ، وتقرأ الحديث النبوى تجد له مذاقاً آخر ، وتقرأ الحديث القدسى تجد له مذاقاً آخر ، فمَنْ يجمع كلّ هذه الأساليب بهذا التميز ، وكل منها يفيض عليك بفيض غير الآخر ، وقد ردّ الله عليهم هذا الإلحاد فقال : ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ ۝٤١﴾ [الحاقة]

ومن إلحادهم أنْ يُغيروا فى الأشياء المطلوبة منهم ، وأنْ يُحرِّفوا الكلمات ، يقول تعالى : ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا[1] يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ .. ۝٤٦﴾ [النساء]

---

(١) الهَوْد : التوبة والرجوع إلى الحق . هُدْنَا : معناه تبنا إليك ورجعنا وقربنا من المغفرة . هذا هو الأصل اللغوى للكلمة . والتهويد أن يصير الإنسان يهودياً . [لسان العرب - مادة : هود] .

فكانوا يقولون (راعنا) يلوون بها ألسنتهم يعنى : من الرعونة ، لذلك نهى الله المؤمنين أن يقولوها ، فقال سبحانه فى سورة البقرة :

﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٤) ﴾ [البقرة]

ومن ذلك إلحادهم فى السلام على رسول الله ﷺ ، فبدلَ أنْ يقولوا : السلام عليكم قالوا : السام عليكم .

إذن : فوُجُوه إلحادهم فى آيات الله كثيرة ، وقد أخبر اللهُ عنهم أنهم نَسُوا حظاً مما ذُكِّروا به ، والذى لم ينسوه حرَّفوه ، والذى لم يُحرِّفوه كتموه ، وليْتهم وقفوا عند هذا الحد ، بل وصلتْ جُرأتهم على الله أن يكتبوا الكتاب بأيديهم ويقولون : هذا من عند الله ، وما هو من عند الله ، وهذا كله ألوان مختلفة لإلحادهم .

لذلك الحق سبحانه يخبر هنا : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِى آيَاتِنَا لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا .. (٤٠) ﴾ [فصلت] نعم لا يخفَوْنَ عن علم الله ، فعدم الخفاء شىء لازم ، لكن المراد أنْ نخبرهم بجريمتهم حتى نعاقبهم عليها ، لأن الجريمة شىء والعقوبة عليها شىء آخر ، فالحق يُعرِّفهم بجريمتهم حتى يكون للعقوبة موضعٌ ، كما يقول أهل القانون : لا تجريمَ إلا بنصٍّ . فكأن الحق سبحانه لا يأخذهم على غِرَّةٍ ، ولا يتركهم فى عَمَىً ، إنما يُوضح لهم قبل أنْ يُؤاخذهم .

﴿ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِى آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ .. (٤٠) ﴾ [فصلت] هذا سؤال معلوم الإجابة عنه ، والحق يسألنا وهو يعلم أن الجواب سيكون كما يريد سبحانه ، فكأن الحق سبحانه يقول لنا من خلال هذا السؤال : احرصوا على أوامر الله نفّذوها ، وإياكم والنواهى فاجتنبوها ، فهذا هو سبيل الأمن والنجاة من النار ، وهل يستوى مَنْ

يُلْقى فى النار ومَنْ يأتى آمناً سالماً ؟

وما دام أن هذا السؤال جاء بعد الكلام عن الإلحاد فى آيات الله فيكون المعنى : الذين يلحدون فى آيات الله لهم النار يُلْقَوْنَ فيها يوم القيامة ، والذين لا يُلحدون فى آيات الله يأتون آمنين .

ومن الغباء أن الإنسان يُلحد فى آيات الله لينالَ بذلك سلطةً زمنية أو مكانة مؤقتة ، مآلُها إلى زوال مُحقق ، ثم يلاقى بعد ذلك مصيراً مؤلماً فى نار خالدة لا نهايةَ لها .

تعالَ إلى أعظم الناس نعيماً فى الحياة ، أخذ منها الغنَى والقوة والسلطان والمهابة والعز كله ، واسأله هل يُنغِّص شىء هذه النعمة ؟ سيقول لك : أخاف ألاَّ تدوم ، نعم يُنغصها على أصحابها عدم دوامها ، فإما أنْ تتركهم النعمة وهم أحياء يُرزقون ، وإما أنْ يتركوها هم بالموت .

لذلك يخبرنا سيدنا رسول الله ﷺ عن حال هؤلاء المنعَّمين فى الدنيا من أهل الكفر كيف هم فى الآخرة ؟ يقول الرسول : « أن الواحد منهم يُغمس غمسةً واحدة فى النار - والعياذ بالله - ثم تسأله الملائكة : هل رأيتَ فى الدنيا نعيماً قط ، يقول : لا والله ما رأيتُ فيها نعيماً قط ! »(١) .

---

(١) عن أنس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ : « يؤتى يوم القيامة بأنعم أهل الدنيا من الكفار فيُقال : اغمسوه فى النار غمسة فيُغمس فيها ثم يقال له : أى فلان هل أصابك نعيم قط ؟ فيقول : لا ما أصابنى نعيم قط . ويؤتى بأشد المؤمنين ضراً وبلاء فيقال : اغمسوه غمسة فى الجنة فيغمس فيها غمسة فيقال له : أى فلان هل أصابك ضر قط أو بلاء فيقول : ما أصابنى قط ضر ولا بلاء » . أخرجه ابن ماجه فى سننه (حديث ٤٣١٢) .

فمَنْ إذن يترك نعمةً باقية خالدة لنعمة مُنغصة زائلة فانية ، ثم أنت تتنعَّم فى الدنيا على قدر إمكاناتك وقدراتك ، وفى الآخرة تتنعم على قَدْر قدرة الله وكرمه وعطائه فى جنة فيها ما لا عَيْنٌ رأيت ، ولا أُذن سمعتْ ، ولا خطر على قلب بشر .

وما دُمْنا أمام أمرين لا يستويان ، ووجه الصواب فيهما واضح ، وما دُمْنا قد بيَّنا لكم هذا البيان فأنتم أحرارٌ اختاروا لأنفسكم ﴿ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٤٠) ﴾ [فصلت] والأمر هنا للتهديد وللتحذير ، يعنى : اعملوا ما شئتم فالله يراكم ، والله مُطلع على أعمالكم ، وقادر على أنْ يُجازيكم عليها جزاءً وفاقاً .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ(١) لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (٤١) لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (٤٢) ﴾

الكفر هنا بمعنى الستر أى : ستر الإيمان بواجب الوجود ، لأن الستر يقتضى مستوراً ، فما هو المستور فى عملية الكفر ؟ الكفر يستر مقابله ، يستر الإيمان ، فكأن الإيمان أمرٌ فطْرى وهو الأصل والكفر طارىء عليه ليستره ، وكأن الكفرَ بهذا المعنى جُنْد من جنود الإيمان ودليلٌ عليه .

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٦٠٣٢/٩) : « الذكر هاهنا القرآن فى قول الجميع ، لأن فيه ذكر ما يحتاج إليه من الأحكام » .

وكلمة ﴿ بِالذِّكْرِ .. (٤١) ﴾ [فصلت] هنا بمعنى القرآن الذى نزل على قلب رسول الله ﷺ ، قال تعالى ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩) ﴾ [الحجر] ويُطلق الذكر أيضاً على الكتب السابقة على القرآن : ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٤٣) ﴾ [النحل]

وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ (٤٨) ﴾ [الأنبياء] ويُطلق الذكر ويُراد به الصِّيت والمنزلة . ﴿ وَإِنَّهُ (٤٤) ﴾ [الزخرف] أى : القرآن ﴿ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ .. (٤٤) ﴾ [الزخرف] وقال سبحانه : ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ .. (١٠) ﴾ [الأنبياء]

ويُطلق الذكر على تسبيح الله : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ .. (٩١) ﴾ [المائدة]

ويُطلق الذكر على ذكر الله بالطاعة ، وذكر الله للعبد بالفيوضات والمغفرة : ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ .. (١٥٢) ﴾ [البقرة]

وقوله سبحانه : ﴿ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (٤١) ﴾ [فصلت] كلمة عزيز لها معَانٍ منها العزيز أى : النادر الثمين . والعزيز : الغالب الذى لا يُغلب . ومنه قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ (٤) ﴾ [آل عمران] فالقرآن غالبٌ يعلو ولا يُعْلَى عليه ، يأخذ بالقلوب ويستولى عليها ، بدليل قولهم[1] : ﴿ لا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (٢٦) ﴾ [فصلت]

---

(١) أى : كفار مكة . قال ابن عباس : قال أبو جهل : إذا قرأ محمد فصيحوا فى وجهه حتى لا يدرى ما يقول . [تفسير القرطبى ٩/٦٠٢١] .

ذلك لأن الذى يسمع كلام القرآن ، لا بُدَّ أن ينبهر به شريطة أنْ يستقبله بقلب صافٍ ووجدان غير جامد ، فإنْ صادف حُسْنَ الاستقبال كان له هذا الأثر الذى رأيناه فى قصة إسلام سيدنا عمر رضى الله عنه ، وكان من ألدِّ خصوم الإسلام إلى اللحظة التى علم فيها بإسلام أخته وزوجها(١) ، فجاء إليها ولطمها حتى سَالَ الدَّمُ من وجهها ، فكان هذا الدمُ سبباً فى رِقَّة قلبه رِقَّةً غلبتْ جهله ، فلما سمع القرآنَ منها سمعه هذه المرة بقلب ومواجيد وعاطفة صافية فتأثر به وأسلم .

إذن : فالقرآن عزيز غالب ، لذلك ورد فى الحديث الشريف أن رسول الله ﷺ قال : « إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ، فإن المُنبتَّ (٢) لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى »(٣) .

وقال : « ولن يُشَادَّ الدِّين أحدٌ إلا غَلَبه »(٤) .

فإذا أردتَ أنْ تختار بين أمرين أو توازن بينهما ينبغى أن تكون

---

(١) هو : خبَّاب بن الأرت بن جندلة بن سعد ، من تميم ، أبو يحى التميمى من نجباء السابقين ، شهد بدراً والمشاهد . قيل : مات فى خلافة عمر وصلى عليه عمر . بل مات بالكوفة عام ٣٧ هجرية وصلى عليه على ، وقيل : عاش ثلاثاً وسبعين سنة . [الأعلام للزركلى ٢/٣٢٣] .

(٢) المنبت : الذى انقطع فى سفره أى أصاب دابته الإعياء والتعب وبلغ بها مبلغاً كبيراً ، فلا هو أراح دابته لتصل به إلى حيث يشاء ، ولا هو وصل إلى المكان الذى يريده .

(٣) أخرجه البيهقى فى السنن الكبرى (٣/١٨) من حديث جابر بن عبد الله أن النبى ﷺ قال : « إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ، ولا تُبغِّض إلى نفسك عبادة الله ، فإن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى » وأخرجه البيهقى أيضاً فى شعب الإيمان (٣٧٢٨) من حديث عائشة ، (٣٧٢٩) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص .

(٤) أخرج البخارى فى صحيحه (٣٨) عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « إن الدين يُسْر ولن يُشادَّ الدين أحد إلا غلبه ، فسددوا وقاربوا وأبشروا » ، وكذا النسائى فى سننه (حديث ٤٩٤٨) .

خالىَ الذِّهْن تماماً وتُخرِج ما فى قلبك من هَوىً لأيِّهما ، ثم تُوازن بينهما ، فما ارتحتَ له فامْض فيه ، لذلك قال تعالى : ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ .. ④ ﴾ [الأحزاب]

إذن : هو قلب واحد ، إنْ عُمر بالشر كيف يستقبل الخير ؟ لابد أنْ تُخرج الشر أولاً لأن الشر سيطرد الخير .

يقول تعالى عن تلقِّى المنافقين والكافرين للقرآن : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا .. ⑯ ﴾ [محمد] يعنى : كأنهم لم يتأثروا به ولم يفهموه ، أى : كبْراً وعناداً ، فردَّ الله عليهم ﴿ قُلْ هُوَ .. ㊹ ﴾ [فصلت] أى : القرآن ﴿ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ[1] وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى .. ㊹ ﴾ [فصلت]

فالقرآن واحد ، لكن أثره مختلف باختلاف المتلقى ، فهو هدى وشفاء لأهل الإيمان ، وعَمىً لأهل الكفر والنفاق .

إذن : الحق سبحانه يريد منَّا عدالة الاختيار وعدالة البحث والموازنة بين الأمرين ، فإنْ توفَّرتْ هذه العدالة فالقرآن غالبٌ لا محالةَ ، القرآن لا يزاحمه ولا ينافسه شىء إذا استُقبل الاستقبالَ السليم ، حتى فى الأمور التى يقف فيها العقل تجد الوجدان يصدقها .

لذلك قلنا : إن واردَ الرحمن لا يطارده واردُ الشيطان ، وهل عارضت أم موسى وارد الرحمن لما قال لها : ﴿ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي .. ⑦ ﴾ [القصص] العقل لا

---

(١) وقرت أذنه : ثقل سمعها أو صُمَّت وقراً . فالوقر : ثقل فى السمع أو صمم . [القاموس القويم ٢/ ٣٥٠] .

يقبل هذا ، لكن يقبله الوجدان الصافى ، والذين سمعوا القرآن فلم يتأثروا به ولم يثمر فى أنفسهم ثمرته ، إنما استمعوه وهم مشغولون بضده .

فنحن إذن فى حاجة إلى عدالة الاختيار ثم حماية الاختيار ، لذلك نقول فى الرد على مَنْ يدَّعى أن الإسلام نُشِر بحدِّ السيف ، هذا غير صحيح ، فالسيف فى تاريخ الإسلام ما جاء ليفرض عقيدة ، إنما جاء لحماية الاختيار ، وحماية حرية الدين فى الإعلان عن نفسه ، وحرية العقيدة أمر كفله الإسلامُ بدليل أنه ترك فى بلاد الإسلام ناساً على كفرهم وعلى ديانتهم ، وقال : ﴿ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ .. (٢٩) ﴾ [الكهف]

ولأن الإسلام انطلق من حرية الاعتقاد وجعل الدين اختياراً حكَمَ على المرتد بالقتل[1] ، والعجيب أن أعداء الإسلام يأخذون هذه المسألة مطعناً فى دين الله ، ويقولون : إن الإسلام يحارب حرية الاعتقاد ويُجبر الناس على اعتناقه .

وهذا اتهام باطل ، فالمتأمل يجد أنَّ الإسلام يعلن هذا الحكم لمن لم يؤمن بَعْد ، يقول له : انتبه قبل أنْ تدخلَ الإسلام ، ولاحظ أنك

---

(١) قال رسول الله ﷺ : « من بدل دينه فاقتلوه » . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٧٩٤ ، ٦٤١١) وأبو داود فى سننه (٣٧٨٧) والترمذى فى سننه (١٣٧٨) وقال : صحيح حسن والعمل على هذا عند أهل العلم فى المرتد . وكذا النسائى فى سننه (٣٩٩١ ، ٣٩٩٢ ، ٣٩٩٣ ، ٣٩٩٤ ، ٣٩٩٥) وكذا ابن ماجة فى سننه (٢٥٢٦) ، وكذا أحمد فى مسنده (١٧٧٥ ، ٢٤٢٠ ، ٢٤٢١ ، ٢٨١٣ ، ٢١٠٠٧) ، فهذا الحديث حديث صحيح . وقول الجمهور على أن المرتد يُستتاب ثلاثة أيام لعله يتوب فإن لم يتب يقتل ، وذهب على إلى أنه يستتاب شهراً . أى : أن لكل مرتد حالته التى يتم فيها تقدير وضعه .

تُقتل لو ارتددتَ عنه ، وهذه عقبة فى طريق الإسلام تُمحِّص أهله بحيث لا يُقبل عليه إلا مَنْ اقتنع به واستقرَّ الإسلام فى قلبه بلا منازع ، فالحكم بقتل المرتد يحمى إقبالك على الاختيار ويُنبهك ، فإما أنْ تنصرف ، وإما أنْ تعرف أنه الحق فتؤمن به .

وقوله تعالى : ﴿لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ .. (٤٢)﴾ [فصلت] يعنى : لا يأتيه الباطل من أىِّ جهة ؛ لذلك حاول المستشرقون أنْ يتلمسوا فى القرآن مأخذاً .. وهيهات لهم ذلك .. فوقفوا مثلاً عند قوله تعالى : ﴿وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ[1] نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ .. (١٥١)﴾ [الأنعام] وفى موضع آخر قال سبحانه : ﴿وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ .. (٣١)﴾[الإسراء]

ورأوا أن فى الموضعين تكراراً فقالوا : إذا كان القرآن بليغاً فأىُّ الآيتين أبلغ ؟ وإنْ كانت إحداهما بليغة فالأخرى غير بليغة ، وهؤلاء يفتقدون الملكة التى تساعدهم على فَهْم كلام الله واستقبال هَدْيه ، ولو نظروا إلى السياق لوجدوا أنَّ الآيتين مختلفتان موضوعاً ، فليس فيهما تكرار وكُلٌّ منهما بليغة فى التعبير عن موضوعها .

فقوله تعالى : ﴿وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ .. (١٥١)﴾ [الأنعام] فكأن الفقر موجودٌ عنده ، فهو مشغول أولاً برزق نفسه قبل أنْ يُشغَل برزق أولاده ، لذلك ذُيلَتْ الآية بقوله سبحانه : ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ .. (١٥١)﴾ [الأنعام] أما فى الأخرى فقال ﴿خَشْيَةَ إِمْلاقٍ .. (٣١)﴾ [الإسراء] يعنى : الفقر غير موجود لكن يخشاه حين يأتيه الولد ، فطمأنه الله أن الولد سيأتى ومعه رزقه ،

---

(١) الإملاق : الفقر . وأملق : افتقر بعد غِنىً كأنه أملق ماله وأذهبه . [القاموس القويم ٢/٢٣٤] .

فقال : ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ .. (٣١) ﴾ [الإسراء] إذن : فكلُّ آية بليغة في موضعها .

كذلك وقفوا عند قوله تعالى في سورة البقرة : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ (٤٨) ﴾ [البقرة] وفي الآية الأخرى : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ (١٢٣) ﴾ [البقرة]

النظرة المتعجلة لا ترى فرْقاً بين الآيتين ، لكن المتأمل وصاحب الملكَة اللغوية يلحظ الفَرْق ، فالآيتان تتحدثان عن نفسيْن : نفس جازية ، ونفس مجزى عنها . النفس المجزىّ عنها تعترف بذنبها وتقول : خذوا العدل واتركوني ، فنقول لها : لا ، فتذهب إلى مَنْ هو أكبر منها ليشفع لها . إذن : عُرِضَ العدل أولاً ، فلما لم ينفعها عُرِضَتْ الشفاعة .

أما النفس الجازية وهي الشفيع ، أول ما يقف بين يدي الله تعالى يقول : يا رب أنا أشفع في فلان ، فإذا لم تقبل شفاعتي فيه فخُذ العدل مني ، إذن : فكُلُّ آية بليغة في موضعها ، لكن ماذا نفعل مع هؤلاء الذين لا يفهمون عن الله ولا يحسنون التلقي ، ومع ذلك يتهمون كلام الله ؟! يقولون : ربكم قال كذا وكذا ، نعم هو ربنا والحمد لله ، وكنا نحب أنْ يكون ربكم أيضاً .

ومن الآيات التي وقفوا عندها أيضاً قوله تعالى : ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٨) ﴾ [الصف] يقولون : أين ظهور الإسلام على الدين كله وبعد أربعة عشر قرناً من الزمان ما يزال في العالم يهود وملاحدة ومسيحيون وغير ذلك من

الديانات . وهذا القول أيضاً يدل على عدم فـهمهم لأداء القرآن الكريم ومعانيه .

ومـعنى ﴿ لِيُظْهِـرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ .. (٩) ﴾ [الصف] لا تعنى أن يصبح النـاسُ جميـعاً مسلمـين ، لأن معنى الظهـور هنا ظهور حـجة يعنى : يعلن حجـته القوية ، وبعد ذلـك لهم الحرية يؤمن مَنْ يؤمن ، ويكفر مَنْ يكفر ، هذا موضوع آخر .

ولو كنتَ تقـرأ القرآن ببـصـيرة لعـرفتَ أن ظهور الإســلام على الأديان الأخرى سيكون مع بقاء الشرك والكفر بدليل لفظ الآية ، فمرة قال سبحانه : ﴿ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٩) ﴾ [الصف] ومرة ﴿ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٨) ﴾ [الصف] .

إذن : فهـما مـوجودان مع الإســلام ، ويكفى فى ظهـور الإسلام على الأديان الأخرى أنهم يُضطرون للأخْذ بقضاياه وأحكامه وهم غير مسلمـين ، وتُلجئـهم ظروفهم الحـياتية فـلا يجدون حـلاً لها إلا فى الإسلام ، وهذه هى العظمة فى الظهور .

تعلمون أن الفـاتيكان كانت تعـارض مسألة الطلاق التى جـاء بها الإسلام ، لكن مع مـرور الوقت وكثرة المـشاكل عندهم اضطروا إلى العمل به كحلٍّ لقضاياهم ، أخذوا حكم الإسلام وهم غير مسلمين .

إذن : صدق الله : ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيـهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا (٨٢) ﴾ [النساء] هذه الآيات وغيرها تدلنا على ســلامة كلام الله وخُلُوِّه من الباطل ومن الاختلاف ﴿ لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ .. (٤٢) ﴾ [فصلت] لأن الباطل لا يأتى إلا إذا كان المـتكلم غير مُحقٍّ ، والذى يتكلم بالقرآن مَنْ ؟ الله .

لذلك قال بعدها ﴿ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (٤٢) ﴾ [فصلت] وحكيم وحميد فعيل من صيغ المبالغة من الحكمة والحمد ، الحكمة تقتضى وضع الشيء في موضعه المناسب ، والحمد يعنى أنه تعالى يُحمد على : كل أفعاله ، وكُلِّ قضائه ، وكل قدره ، فالحمد لله موصول أوله بآخره .

لذلك قلنا في قوله تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) ﴾[الفاتحة] أن من رحمته تعالى بنا أنْ علَّمنا صيغة حمده على نعمائه ، فجاء بها بصيغة المبتدأ والخبر (الحمد لله) لأنه سبحانه لو لم يضع لعباده صيغة الثناء عليه سبحانه لاختلف فيها العباد ، وتفاوت فيها الناس ، ولكان للأديب البليغ ثناءٌ لا يقدر عليه الأُمِّى وراعى الغنم .

لو كان الأمر فى هذه المسألة متروكاً لقدرات الناس لم يكُنْ هناك تكافؤ فرص فى حمد الله ، إذن : من رحمته سبحانه بنا أنْ قال لنا ارفعوا أيديكم عن الصيغة وأنا أضعها لكم ليستوى فى حمدى والثناء علىَّ جميع خَلْقى ، فالكل يقول كلمة واحدة (الحمد لله) فقط ، ولا أريد منكم أكثر من ذلك .

لذلك علّمنا سيدنا رسول الله ﷺ أن نقول فى الثناء على الله : « سبحانك لا نحصى ثناء عليك أنت كما أثنيتَ على نفسك »(١) فالذى تعلَّم هذه الصيغة (الحمد لله) وهُدى لأن يقولها ينبغى أنْ يَحمد الله عليها ذاتها ، يحمد الله أنْ علّمه كيفَ يحمده ، وهكذا يظل الحمد من العبد لله تعالى موصولاً ، ويظل العبد حامداً لربه حمداً لا نهاية له .

---

(١) أخرج أحمد فى مسنده (٦/٥٨ ، ١٢٠) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٤٨٦) من حديث عائشة رضى الله عنها قالت : فقدتُ رسول الله ﷺ ليلة من الفراش فالتمسته فوقعت يدى على بطن قدميه وهو فى المسجد وهما منصوبتان وهو يقول : « اللهم أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك ، لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيتَ على نفسك » .

وكلمة ﴿ تَنزِيلٌ (٤٢) ﴾ [فصلت] ساعة تسمعها تشعر أنه مُنزَّل من أعلى ، حتى وإنْ كان المنزَّل من مادة الأرض ، كما فى قوله سبحانه فى سورة الحديد : ﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ (٢٥) ﴾ [الحديد] فالحديد وإنْ كان فى الأرض لكنه مُنزل من عُلو القدرة الخالقة لخدمة العباد فى الأرض .

ثم يُعزِّى الحق سبحانه رسوله ﷺ ويُخفِّف عنه ما يلاقى من عَنَتِ وعناد المشركين ، فيقول تعالى :

﴿ مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ (٤٣) ﴾

كأن الحق سبحانه يقول لنبيه محمد ﷺ : يا محمد أنت سيد الرسل ، والرسل أُوذُوا ، فلو كان الإيذاء على قَدْر المنزلة لكان إيذاء قومك لك أضعاف إيذاء الرسل السابقين ، وما يُقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك ، فلستَ بدعاً فى الرسل .

والذى قيل للرُّسُل من قبلك : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) ﴾ [الصافات] وأنت يا محمد واحد منهم ، فأبشر بنصر الله لك ولجندك ولمن تابعك .

ويصح أيضاً أنْ يكون المعنى ﴿ مَا يُقَالُ لَكَ (٤٣) ﴾ [فصلت] أى : من أعدائك والمعاندين لك ﴿ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ (٤٣) ﴾ [فصلت] أى : من أعدائهم والمعاندين لهم . يعنى : لا تحزن فهذه سنة الله فى أهل الدعوات وحَمَلة الرسالات ، وأنت واحد منهم فلا تُتعبْ نفسك ، ولا تُحمِّل نفسك فى سبيل دعوتك ما لا تطيق .

﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٧٧)﴾ [غافر]

ذلك لأن سيدنا رسول الله ﷺ لما ذاق حلاوة الإيمان بالله أحبه الناس جميعاً ، وكانت عنده غيرة على ربه ، يريد أن يسلم الناسُ جميعاً لا يفلت منهم أحد ، ولا يشذ منهم عن الإيمان بالله أحد ، لذلك كان يجهد نفسه وكثيراً ما عاتبه ربه على ذلك عتاب المحبِّ لحبيبه ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ[(١)] نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا (٦)﴾ [الكهف]

وبيَّن له ﷺ ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ (١٨)﴾ [العنكبوت]

وكثيراً ما نرى القرآن الكريم يقصُّ على سيدنا رسول الله قصص الأنبياء السابقين تسليةً لرسول الله وتخفيفاً عنه ، فسيدنا نوح - عليه السلام - عمّر فى قومه يدعوهم إلى الله ألفَ سنة إلا خمسين عاماً ، ومع ذلك ما آمن معه إلا قليل .

وحكى القرآن عنه قوله : ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلاً وَنَهَارًا (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِى إِلاَّ فِرَارًا (٦) وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِى آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا[(٢)] ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (٧)﴾ [نوح]

قوله : ﴿جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِى آذَانِهِمْ (٧)﴾ [نوح] مبالغة فى الإعراض وسدِّ الآذان عن السماع ، فالذى يُوضع فى الأذن الأنملة لا الأصبع ، وأكثر من ذلك ﴿وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ (٧)﴾ [نوح] يعنى :

---

(١) بخع نفسه : قتلها هماً وغيظاً وحزناً . [القاموس القويم ١/ ٥٦] . قال الفراء : باخع نفسك أى مُخْرج نفسك وقاتلها . [لسان العرب - مادة : بخع] .

(٢) استغشوا ثيابهم : تغطوا بها واستتروا كناية عن شدة نفورهم وإعراضهم عن رسولهم . [القاموس القويم ٢/ ٥٤] .

غطُّوا بها وجوههم ، وبذلك سَدُّوا كل منافذ الإدراك والتلقى كأنهم لا يريدون سماعه ولا حتى رؤيته . إذن : اصبر يا محمد فلستَ جديداً فى الإيذاء ولا فى الإعراض والعناد .

وقوله سبحانه :﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ (٤٣) ﴾ [فصلت] تأمل هذا الكلام الذى نُسمِّيه (كلام سياسى) ويسميه العلماء (ترغيب وترهيب) ، فالحق سبحانه وتعالى يراعى أحوال هؤلاء المعاندين لرسوله ﷺ ، ويخاطبهم بما يناسب كلَّ الاحتمالات ، فمَنْ عاد منهم إلى الحق وإلى الصراط المستقيم فبابُ التوبة مفتوح والله غفور رحيم ، ومَنْ أصرَّ وتمادى فى عناده فالله ذو عقاب أليم .

وتلحظ هنا أن المغفرة سبقت العقاب ، بل إن الحق سبحانه يَعد مَنْ يؤمن ويَحسُنُ إيمانه أنْ يُكفِّر عنه ذنوبه ، وأن يزيده بأنْ يُبدِّل سيئاته حسنات تفضّلاً منه وكرماً ، وكأن الحق سبحانه يُؤنس عباده ويُحنِّنهم إليه ، وهو الغنى عنهم .

وتاريخ الإسلام حافلٌ بهؤلاء الذين صادموا الإسلام ودعوته وعاندوا رسول الله والمؤمنين معه ، وكانوا ألدَّ الأعداء ، ثم صاروا بعد ذلك حملة لوائه ، وقدَّموا نفوسهم رخيصة فى سبيله ولو أغلق الباب فى وجوههم ما دخلوا فى دين الله ، وأنتم تعرفون قصة إسلام عمر وحمزة وعكرمة بن أبى جهل وخالد وعمرو وغيرهم ممَّنْ كانوا صناديد فى الكفر .

حتى أهل الكتاب من اليهود والنصارى الذين أخذوا دين الله على أنه دينٌ لا سلطة زمنية أنصفهم القرآن ، فقال فيهم : ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ

إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا (٧٥)﴾ [آل عمران]

وبعد ذلك يأتى القرآن ويحكم على أُناس أنهم لن يؤمنوا ولن يهتدوا ، وهم فى سَعَة الدنيا وفى وقت الاختيار ، مَنْ شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ، ومع ذلك ظلُّوا على كفرهم ولم يؤمنوا حتى نفاقاً ، ولو رغبةً منهم فى تكذيب القرآن لم يحدث .

ومن هؤلاء أبو لهب عم النبى ﷺ ، وكان يمشى وراء رسول الله ويقول للناس : إنه كذاب ، فحكم الله عليه بأنه سيموت على كفره ، وأن مصيره النار والعياذ بالله ، وفيه نزلتْ : ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٣) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ (٥)﴾ [المسد]

وقد سمع أبو لهب هذه السورة ، وكان بوُسْعه أن يقف أمام نادى القوم وتجمُّعهم ، ويقول بأعلى صوته : أشهد ألاَّ إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، ولو كذباً ، لكنه لم يفعل لأن الله تعالى حكم عليه أنه لن يقولها أبداً .

فالله تعالى ﴿لَذُو مَغْفِرَةٍ (٤٣)﴾ [فصلت] لكل كافر ولكلُ مُكذِّب ولكل معاند ، رجع إلى الجادة وتاب وأناب ﴿وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ (٤٣)﴾ [فصلت] لمن أصرَّ على كفره وتمادى فى عناده ومصادمته لدعوة الحق .

ولا يخفى أن الجمع بين المعنى وضده فى موضع واحد سِمةٌ من سمات الأسلوب القرآنى ، لأن الضدَّ يُظهره الضد ، وبضدِّها تتميَّز الأشياء ، وربك يخبرك ويترك لك أنْ تختار لنفسك دواعى المغفرة أو دواعى العقاب .

﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ (٤٤) ﴾

قوله تعالى : ﴿ **وَلَوْ جَعَلْنَاهُ** (٤٤) ﴾ [فصلت] أى : القرآن وسُمِّى قرآناً لأنه يُقرأ (أَعْجَمِياً) أى : بلغة الأعاجم وهم غير العرب كالإنجليزية والفرنسية وغيرها من اللغات غير العربية .

﴿ **لَّقَالُوا لَوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ** (٤٤) ﴾ [فصلت] يعنى : جاءتْ بالعربية ؛ ذلك لأن التوراة نزلتْ بالعبرية وهى لغة سيدنا موسى - عليه السلام - وأصله ، فقال بعضهم : لولا كان القرآن باللغة العبرية مثل التوراة ، لكن النبى محمداً عربىٌّ الأصل واللغة فنزل عليه القرآن بلغته ولغة قومه .

فالحق سبحانه يُبيِّن أن القرآن لو نزل أعجمياً لطلبوا وتمنوا أنْ يكون عربياً ، لكن بصرف النظر عن اللغة التى نزل بها هو فى ذاته هُدىً وشفاء ﴿ **قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ** (٤٤) ﴾ [فصلت] أى : الذين لا يؤمنون به فى آذانهم صمم ، فهم لا يسمعون السماع النافع المثمر ﴿ **وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى** (٤٤) ﴾ [فصلت] يعنى : ظلمة وشبهات يتخبَّطون فيها .

إذن : فالقرآن واحد لكن النتيجة مختلفة ، لأن استقبال القرآن يختلف باختلاف نية المستقبل ، فالذى يسمعه بأذن واعية وقلب صافٍ غير مشغول بنقيضه يجده هُدىً ، ويجده شفاءً ، والذى يسمعه باستكبار وقلب غير مُهيىءٍ للإيمان يجده عَمىً ، والأعمى يتخبط

لا يدرى أين يتجه .

فهذا يقرأ القرآن أو يسمعه فلا يفهمه ولا يتأثر به ، وهؤلاء قال الله فيهم : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا (١٦) ﴾ [محمد]

وسبق أنْ أوضحنا نظرية الفاعل والقابل ، فالفاعل يقوم بالفعل والقابل يتأثر به ، ففرْق بين الفلاَّح الذى يضرب الأرض بفأسه وبين مَنْ يضرب بها صخرة مثلاً ، الأرض تنفعل للفأس وتتأثر بها وتثمر وتنتج ، أما الصخرة فلا تقبل ولا تتأثر .

إذن : لا تحكم على الشيء إلا إذا حدث هذا التفاعل بين الفاعل والقابل ، تذكرون أننا ضربنا مثلاً فى هذه المسألة بكوب الشاى الساخن ننفخ فيه ليبرد ، وتنفخ فى يديك لتُدفئها ، فالنفخة واحدة لكن الأثر مختلفٌ لاختلاف القابل .

وقوله تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ (٤٤) ﴾ [فصلت] لأنهم سمعوا فلم يتأثروا به ، شبَّههم الله بمَنْ ينادَى من بعيد فلا يَسْمع .

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ (٤٥) ﴾

القرآن هنا يقصّ على رسول الله ﷺ طرفاً من قصة سيدنا موسى - عليه السلام - ، وهذا من ضمن ﴿ مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ (٤٣) ﴾[فصلت] وموسى من الرسل الذين تحملوا العنت والعناد وأتعبه قومه ، فقصّته هنا تسلية لرسول الله ﴿ وَلَقَدْ

آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ﴿٤٥﴾ [فصلت] أى : التوراة ﴿فَاخْتُلِفَ فِيهِ ﴿٤٥﴾ [فصلت] أى : كانت مجالاً لاختلافهم ، فمنهم مَنْ حرَّفها ، ومنهم مَنْ نسى بعضها ، ومنهم مَنْ كتب الكتاب من عنده . وقال : هذا من عند الله .

﴿وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ ﴿٤٥﴾ [فصلت] أى : سبقتْ كلمة الله وحكمه بنهاية عذاب الاستئصال الذى يأخذ المكذِّبين جملة ، كما رأينا فى عاد وثمود وقوم نوح وقوم لوط ، أما هذه الأمة فلن يأخذها الله بمثل هذا فى الدنيا ، بل يُؤخِّر لها الجزاء إلى يوم القيامة .

﴿وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴿٤٥﴾ [فصلت] أى : فى الدنيا كما فعل بالأمم السابقة ممَّنْ كذَّب الرسل (وإنهم) أى : قومك يا محمد ﴿لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ [فصلت] يعنى : تردد يأخذهم إلى القلق والريبة .

والشكُّ نسبة من النِّسب السِّت المعروفة التى تعترى الأحداث : **أولها** : العلم وهى أن يكون عندك قضية واقعة وأنت مقتنع بها وتستطيع أنْ تقدم عليها الدليل .

ثم **التقليد** : وهو أن يكون لديك قضية واقعة يعنى مطابقة للواقع وأنت مقتنع بها ، لكن لا تستطيع أنْ تُقدم الدليل عليها ، مثل الطفل الصغير نُلقِّنه مثلاً أن الله واحد فيؤمن بها لثقته فى والده الذى يلقنه ، لأنه يعلم أن والده يريد له الخير ولا يُعلِّمه إلا الصواب ، لكن الوالد لا يستطيع أن يقيم الدليل على أن الله واحد .

ثم **الجهل** : وهو أن يكون عندك قضية غير مطابقة للواقع وأنت مقتنع بها . لذلك قلنا فى هذه المسألة : إن الجاهل أشقُّ على مُعلِّمه من الأمىِّ ؛ لأن الجاهل عنده قضية باطلة كاذبة وهو مؤمن بها فيحتاج منك مجهوداً مرتين : مرة لتخرجه من جهله ، ومرة لتقنعه

بالصواب . أما الأمى فهو خالى الذهن ليس عنده قضية ما يدافع عنها ، لذلك تراه طيِّعاً يقبل ما يُلْقَى إليه دون أنْ يجادل .

ثم بعد ذلك **الشك** ، وهو أن يكون لديك قضية واقعة لكن يقينك بها مُساوٍ لشكِّك فيها ، فأنت غير متأكد منها ، ثم إنْ كان الثبوت والتأكيد أوضحَ فهو الظن ، وإنْ كان الشكُّ أوضحَ من اليقين فهو الوهم .

فقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ ﴾ [فصلت] يعنى : لم يصلوا إلى درجة العلم ، ولا درجة التقليد ، ولا درجة الجهل .

﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ﴾

الحق سبحانه يقرر هنا حقيقة واقعية ، يريد سبحانه للعباد أن يؤمنوا بها ، حتى يرسخ فى أذهانهم أن كلاً منهم يعمل لصالح نفسه ، وأن إيمان المؤمنين لا يعود على الله تعالى بشىء ، ولا يزيده سبحانه صفة لم تكُنْ له .

كذلك لا تضره معصية العاصين ، ولا جحد الجاحدين ، ولا إنكار المنكرين ، لأنه سبحانه مُسْتوف كلَّ صفات الجلال والجمال والكمال قبل أنْ يخلق هذا الخَلْق ، فالله تعالى ليس فى حاجة أبداً إلى طاعة الطائعين ولا إيمان المؤمنين ، بل العباد هم المستفيدون من أعمالهم الصالحة .

وما أمور التكاليف الشرعية إلا حرصاً من الله تعالى على خَلْقه ، ورحمةً من الصانع بصَنْعته ، فكُلُّ صانع يريد لصنعته الصلاح ،

ويرْبأ بها عن الفساد وأسباب الهلكة .

وتذكرون الحديث القُدسيّ : « يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم ، وشاهدكم وغائبكم ، كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ، ما زاد ذلك فى مُلكى شيئاً ، ولو أنَّ أوَّلكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم ، وشاهدكم وغائبكم ، كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ، ما نقص ذلك من مُلْكى إلا كما ينقص المخْيَط إذا أُدخلَ البحر ذلك أنى جواد ماجد ، عطائى كلام ، وعذابى كلام ، إنما أمرى لشيء إذا أردتُه أنْ أقول له : كُنْ فيكون »(١) .

إذن : أنتم أحرار ، يؤمن مَنْ يؤمن ، ويكفر مَنْ يكفر ، فكلٌّ مُجازَى بعمله ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ (٤٦)﴾ [فصلت] هو المستفيد ، وليس لى من عمله شيء ﴿وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا (٤٦)﴾ [فصلت] أى : على نفسه تحسب إساءته ، هذه قضية يقررها ربك عز وجل ، ولك أن تختار لنفسك ، وأنْ تُوردها المورد الذى يُسعدها لا الذى يُشقيها .

ومن العجيب أن الإنسان بعد أنْ عرف هذه الحقيقة يورد نفسه موارد الهلاك ، لذلك وصفه الحق سبحانه بأنه ظلوم وجهول(٢) .

والحق سبحانه حين ينذرنا بالعقوبة ، وحين يشددها ليس من

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه (٢٤٩٥) من حديث أبى ذر رضى الله عنه وقال : حديث حسن . وكذا أخرجه أحمد فى مسنده (٥/٧٧ ، ١٥٤) وابن ماجه فى سننه (٤٢٥٧) .

(٢) قال تعالى فى سورة الأحزاب ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً (٧٢)﴾ [الأحزاب] . قال ابن عباس : الأمانة الطاعة . وقال : الأمانة الفرائض . وقال زيد بن أسلم : الأمانة ثلاثة الصلاة والصوم والاغتسال من الجنابة . وقال قتادة : الأمانة الدين والفرائض والحدود . قال ابن كثير فى تفسيره (٣/٥٢٢) بعد سرد هذه الأقوال : « كل هذه الأقوال لا تنافى بينها بل هى متفقة وراجعة إلى أنها التكليف وقبول الأوامر والنواهى بشرطها وهو أنه إن قام بذلك أثيب وإن تركها عوقب ، فقبلها الإنسان على ضعفه وجهله وظلمه لنفسه إلا من وفق الله ».

حظه أنْ يُوقع هذه العقوبة بالعباد ، إنما أراد سبحانه أنْ يصرفنا نحن عن أسبابها ويُخوِّفنا منها حتى لا نقع فيها ، الله تعالى مُنزَّه عن الظلم ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ (٤٦) ﴾ [فصلت]

إنه يُخوِّفك حمايةً لك ، بالله حين يقول لنا : مَنْ قتل يُقتل ، أيريد أنْ يقتل الناس ، أم يريد أنْ يحقن الدماء ويحفظها ؟ ومَنْ يقدم على القتل وهو يعرف أن مَنْ قتل يُقتل ؟

لذلك تجد القرآن فى مسألة القوة العسكرية يقول : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ .. (٦٠) ﴾ [الأنفال]

العجيب أن أعداء الإسلام يأخذون من هذه الآية دليلاً على أن الإسلام يؤيد الإرهاب لأنه ذكر كلمة (تُرْهِبُونَ) وهذا فَهْم خاطئ لأسلوب القرآن ، لأن معنى إعداد القوة التى ترهب أننى لا أريد المعركة ولا أريد المواجهة ، فحين يعرف عدوى أنِّى مستعد يخاف ولا يُقدِم على القتال .

نسمعهم فى المسائل العسكرية يقولون : توازن القوى ، هذا التوازن هو الذى يحفظ السلام فى المجتمع الدولى كله ، وأيام كان فى العالم قوتان متكافئتان هى روسيا وأمريكا كان هناك استقرارٌ عسكرىٌّ ، فكلٌّ منهما تخشى الأخرى حتى كانوا يقولون على الحروب بينهما (الحرب الباردة) لكن لما تفككتْ قوة روسيا أصبح لأمريكا الغَلَبة ، فهى القوة الوحيدة الآن ، ونراها تعمل ما تريد دون رادع من قوة أخرى .

إذن : نقول : الحق سبحانه وتعالى حين يأمرنا بإعداد القوة

العسكرية لا يعنى أنه سبحانه يدفعنا إلى ساحة القتال ، إنما يعنى حفظ السلام بيننا وبين غيرنا ، ومعلوم أنك لا تُقدم أبداً على مهاجمة مَنْ هو أقوى منك ، فالآية تريد السلام ، لا تريد الإرهاب كما يدَّعُون .

وقوله سبحانه : ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ (٤٦)﴾ [فصلت] كلمة (ظَلاَّم) على وزن فعَّال ، وهى صيغة مبالغة من ظالم مثل : قاتل وقتَّال ، والآية حينما تنفى صيغة المبالغة لا يقتضى ذلك نَفْىَ الأصل وهو ظالم ، فالوصف الأقلّ موجود ، لأنك لو قلت فى الإثبات فلان علاَّم دلَّ ذلك على أنه عالم من باب أوْلَى ، لكن فى النفى لو قلت : فلان ليس بعلاَّم ، فلا يمنع أنْ يكون عالماً .

إذن : فهل يعنى نَفْى المبالغة ظلاَّم إثبات ظالم - تعالى الله عن الظلم - قالوا : لا ، لأن لفظ الآية ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ (٤٦)﴾ [فصلت] ولم يقل للعبد ، فصيغة المبالغة جاءت من تكرار الفعل . يعنى : ظلم عبداً واحداً يعنى ظالم ، فإنْ ظلم الكل فلا بدَّ أن عنده قوة كبيرة تُحوله إلى ظلاَّم .

فنَفْى ظلاَّم بهذا المعنى نَفْىٌ لظالم أيضاً ، ثم مَنْ يريد أن يظلم يظلم على قدر قوته ، فعلى فَرْض أن الحق سبحانه وتعالى يظلم فهو ظلاَّم ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ (٤٦)﴾ [فصلت]

الحق سبحانه وتعالى حين ينفى صفة الظلم عن نفسه تعالى بعد قوله ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا (٤٦)﴾ [فصلت] كأنه يقول سبحانه : أنا حكَم عدْلٌ بينكم وبين أنفسكم ، أجزى كل نفس بما عملت وبما سعَتْ دون ظلم ، فأنا أحكم لكم وعليكم ، فأنتم لستُم خصوماً لى .

﴿ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا(١) وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ (٤٧) ﴾

قوله تعالى : (إِلَيْهِ) أى : إليه سبحانه وتعالى ﴿ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَة (٤٧) ﴾ [فصلت] الساعة هى القيامة وعلْمها يعنى وقتها ، وهذه من الأمور التى استأثر الله تعالى بعلمها ، ولم يُطلع عليها أحداً من خلقه ﴿ لا يُجلّيهَا لوَقْتهَا إلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فى السَّمَـٰوَات وَالأَرْض لا تَأْتيكُمْ إلاَّ بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ(٢) عَنْهَا قُلْ إنَّمَا علْمُهَا عندَ اللَّه وَلَـٰكنَّ أَكْثَرَ النَّاس لا يَعْلَمُونَ (١٨٧) ﴾ [الأعراف]

وفى إخفاء وقت الساعة حكم عظيمة ، أهمها ألاَّ يتكل الناسُ وألاَّ يتمادى أهل الباطل وأهل النزوات والشهوات فى شهواتهم ، بل يستعد الجميع لها ، ويبادر الجميع بالأعمال الصالحة لأن أحداً لا يضمن ميعاد موته وخروجه من دنيا العمل إلى دار الحساب وقلنا : إنه مَنْ مات قامتْ قيامته(٣) .

---

(١) الأكمام : جمع كِم . وهو الغلاف الذى يغطى الزهرة والحب والثمرة . [القاموس القويم ٢/١٧٤] .

(٢) عن عبد الله بن مسعود قال : سألت رسول الله ﷺ : أى العمل أفضل ؟ قال : « الصلاة لوقتها » . أخرجه مسلم فى صحيحه (٨٥) كتاب الإيمان .

(٣) ذكره العجلونى فى كشف الخفاء (حديث رقم ٢٦١٨) عن أنس بن مالك رضى الله عنه وتمامه : « أكثروا ذكر الموت ، فإنكم إن ذكرتموه فى غنى كدَّره عليكم ، وإن ذكرتموه فى ضيق وسَّعه عليكم ، الموت القيامة ، فمن مات قامت قيامته » وأخرجه الديلمى فى مسند الفردوس (حديث ١١١٧) عن أنس رفعه بلفظ : « إذا مات أحدكم فقد قامت قيامته فاعبدوا الله كأنكم ترونه واستغفروه كل ساعة » .

لذلك قلنا : إن الموقوتات العبادية لها زمنٌ من كذا إلى كذا ، فالظهر مثلاً من استواء الشمس إلى ظل المثلين ، والذى يصلى فى كل هذه المدة أدَّى الفرض ، لكن يفضل المبادرة لماذا ؟ لأنك لا تضمن عمرك إلى آخر الوقت ، فربما أتتْك منيّتك بعد لحظة من دخول الوقت فتكون قد أثمتَ .

لذلك لما سُئِلَ سيدنا رسول الله عن خير الأعمال قال : « الصلاة لوقتها »(١) .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الصَّلاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا (١٠٣) ﴾ [النساء] كذلك فى الحج ترى الرجل مُوسراً وقادراً على تكاليف الحج ، لكنه لا يحج تسأله يقول لك : إنْ عشتُ لعام كذا وبعد كذا وكذا أحج ، سبحان الله هل ضمنتَ عمرك أنْ تعيش إلى هذا الوقت ؟

فالحق سبحانه لحكمة أبهمَ وقت قيام الساعة ، وأبهم وقت الموت ، واستأثر سبحانه بعلمها ، والقيامة حَقٌّ والموت حَقٌّ وسَهْم أُرسِلَ إليك بالفعل ، وعمرك بقدر سفره ووصوله إليك .

قالوا : وإبهام علم الساعة والأجل هو عَيْن البيان ، فإشاعته فى الوقت كله تجعلك مُستعداً له تتوقعه وتنتظره فى كل لحظة ، لذلك قال تعالى فى سورة تبارك : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِى بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً (٢) ﴾ [الملك]

فقدَّم الموت فى الخلق على الحياة مع أن الحياة كائنة أولاً ، قدَّم الموت ليكون دائماً فى الذِّهْن وعلى البال ، قدَّم الموت لتستقبل الحياة

---

(١) عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : سألت رسول الله ﷺ : أىُّ العمل أفضل ؟ قال : الصلاة لوقتها . أخرجه مسلم فى صحيحه (٨٥) كتاب الإيمان .

على حذر ولا تغتر بها ، تستقبل الحياة بمصاحبة نقيضها الموت ، لتنتظره فى أىِّ لحظة .

ومن رحمة الله بعباده أنْ جعل للقيامة علامات يُستدل بها على قُرْبها ، علامات صغرى وعلامات كبرى ليُخوِّف الناس ، ويُوقظهم من غفلتهم عن الآخرة .

وقوله ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا (٤٧)﴾ [فصلت] الأكمام : جمع كِمّ . وهو القشرة الخضراء التى تغلف الثمرة ، ثم تنفلق قليلاً قليلاً لتخرج الثمرة منها ، كما ترى مثلاً الوردة قبل أنْ تتفتح تجدها داخل غلاف أخضر مغلق عليها كأنها مُغمضة ، ثم تتفتح وتخرج من هذا الغلاف .

﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلا تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ (٤٧)﴾ [فصلت] هذه كلها من الأمور التى تغيب عن علم الناس لكنها لا تغيب عن علم الله ، كلمة ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ (٤٧)﴾ [فصلت] الحمل معروف ، وهو التقاء البويضة الأنثوية بالحيوان المنوى للذكر ، ومن هذا الالتقاء يحدث الحمل ، وهو هِبةٌ من الله على أية حال .

قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩)﴾ [الشورى]

فكأن العُقْمَ نفسه هبةٌ لمن تدبَّر وبحث عن الحكمة ، حين تنظر إلى الولد الذى قتل أباه أو قتل أمه ، والولد الذى جلب العار لأهله حتى تمنَّوا أن الموت يُريحهم منه ، حين تنظر فى عقوق الأبناء تعرف أن العقمَ نعمة وهِبَةٌ من الله تستوجب الشكر كما تستوجبه نعمة الولد .

ثم تجد السياق القرآنى يُقدِّم الأنثى ، لأنها كانت مكروهة عند العرب قديماً وغير مرغوب فيها ؛ لذلك جعل الله منزلة خاصة لمن يُربى البنات ويحسن إليهن ، ولمن يحترم قدر الله فى إنجاب البنات ، وكأن هاتفاً من الله يناديه : عبدى ما دُمْتَ قد قبلتَ هبتى ونعمتى ، وعزَّتى وجلالى لآتينَّكَ لكل بنت منهن بزوج يحقق لك آمالك فيها ، ويكون أبرَّ لك من أبنائك .

وفى مسألة الإنجاب هذه رأينا عجائب تؤكد قدرة الله تعالى وطلاقة هذه القدرة ، رأينا زوجيْن لم يُرزَقا الإنجاب فافترقَا ، ثم تزوَّج الرجل بأخرى فأنجب منها وتزوجتْ المرأة بآخر وأنجبتْ منه ، فكأن الإنجاب كان ممتنعاً بين هذين بالذات .

ثم حين تتأمل القسمة العقلية لمسألة الخَلْق هذه ، تجد أن قدرة الله تعالى قد استوعبتْها بصورها الأربعة ، فالإنجاب الطبيعى يأتى من ذكر وأنثى ، لكن قدرة الله جاءتْ بآدم بلا زوج ولا زوجة ، وجاءتْ بحواء من أب بلا أم ، وجاءت بعيسى من أم بلا أب ، وقد يتوفر الأب والأم ولا يحدث الإنجاب ، هذه كلها صور تؤكد طلاقة القدرة الإلهية فى مسألة الخَلْق .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِى ﴿٤٧﴾ ﴾ [فصلت] هو سبحانه الذى يقول (شُرَكَائِى) أى : فى زعمكم ، لأنه قال فى موضع آخر ﴿ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الأنعام] فأجابوا - والكلام هنا يحكى موقفاً من مواقف القيامة ﴿ قَالُوا آذَنَّاكَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [فصلت] يعنى : أخبرناك وأعلمناك ، والأذن هى وسيلة السمع ، وإليها يصل الكلام ، ويحصل العلم فكأن الأذن هى أول وسائل العلم .

لذلك قال تعالى عن الأرض : ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ ﴾

[الانشقاق] يعنى : استمعتْ للأوامر ، ﴿ قَالُوا آذَنَّاكَ (٤٧) ﴾ [فصلت] أخبرناك ﴿ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ (٤٧) ﴾ [فصلت] لا أحد منا يشهد أن لك شركاء ، فالحق سبحانه قال ﴿ شُرَكَائِي ﴾ ولم ينفِ الشركاءَ لينفُوهم هم .

فبعد فوات الأوان يُقِرُّونَ بأن الله تعالى ليس له شريكٌ ، وكأن كلمة الشريك هذه لم تَرِدْ يوماً على لسان واحد منهم .

﴿ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ (٤٨) ﴾

معنى ﴿ وَضَلَّ عَنْهُم ﴾ غاب وانصرف عنهم فهو غير موجود معهم ﴿ مَّا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ (٤٨) ﴾ [فصلت] من أوليائهم الذين أشركوهم مع الله ﴿ وَظَنُّوا ﴾ هنا بمعنى أيقنوا وتأكدوا ﴿ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ (٤٨) ﴾ [فصلت] ما لهم من مفرٍّ ولا مهرب يُنجيهم من العذاب ، فهو ينظر هنا وهناك ، فلا يجد ملْجئاً ولا منْجى ، فالمصيبة طَامّة لا نجاةَ منها ؛ لذلك حتى نحن فى العامية نقول : (فلان حايس) يعنى : حائر لا يجد مكاناً يهرب إليه .

﴿ لَّا يَسْأَمُ الْإِنسَانُ مِن دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ (٤٩) ﴾

قوله تعالى : ﴿ لا يَسْأَمُ ﴾ لا يملّ ﴿ الإِنسَانُ ﴾ المراد الكافر ﴿ مِن دُعَاءِ الْخَيْرِ ﴾ من طلب الخير لنفسه ، الخير فى ماله فى أولاده ، فى صحته وعافيته ، ترى الرجل يقول : يا رب شقة أسكن فيها ، فإنْ أعطاه الله الشقة قال : يا رب (ڤيلا) صغيرة فإنْ أعطاه

الله قال : يا رب عمارة تصرف على (الڤيلا) .

فالإنسان جُبِلَ على حب الخير وعلى الطمع (ولا يملأ عين ابن آدم إلا التراب ، ويتوب الله على من تاب)[١] ، وقليل من الناس مَنْ يأخذ الأمور على قدرها .

سيدنا داود عليه وعلى نبينا السلام أعطاه اللهُ من الخيرات الكثير ومع ذلك جلس فى يوم من الأيام على سطح بيته فوجد سِرْباً من جراد من ذهب فثنَى ثوبه وأخذ يجمع فيه الجراد ، فتجلَّى الله له وقال : يا داود أَلَمْ أُغْنِكَ ؟ قال : بلى يارب لكن لا غِنَى لى عن فضلك[٢] .

فإذا كان هذا حال نبى الله داود ، فما بال المؤمن العادى ؟ وما بال غير المؤمنين ، أمثال مَنْ نزلت فيهم هذه الآية ، ومن قال الله فيه ﴿ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [الكهف] أو : ﴿ إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ ﴿٥٠﴾ ﴾ [فصلت]

إذن : فالإنسان هنا يعنى الكافر[٣] ، لأن الحق سبحانه أراد

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (حديث ٦٤٣٨) كتاب الرقاق ، وأبو نعيم الأصبهانى فى حلية الأولياء (١/٣٣٧) من حديث عبد الله بن الزبير أنه قال على المنبر بمكة فى خطبته : يا أيها الناس إن النبى ﷺ كان يقول : « لو أن ابن آدم أعطى وادياً ملآن من ذهب أحب إليه ثانياً ، ولو أعطى ثانياً أحب إليه ثالثاً ، ولا يسد جوف ابن آدم إلا التراب ، ويتوب الله على من تاب » .

(٢) ما وجدته فى هذا يخص أيوب عليه السلام ، أخرج الإمام الرافعى فى كتابه « التدوين فى أخبار قزوين » عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « بينما أيوب يغتسل عرياناً خر عليه جراد من ذهب ، فجعل يحثى فى ثوبه فناداه ربه : يا أيوب ألم أكن أغنيتك عما ترى ؟ قال : بلى يا رب ولكن لا غنى بى عن بركتك» .

(٣) قاله السدى . وقيل : المقصود به الوليد بن المغيرة . وقيل : عتبة وشيبة ابنا ربيعة وأمية ابن خلف . [ذكره القرطبى فى تفسيره ٩/٦٠٣٩] وانظر زاد المسير لابن الجوزى فى تفسير الآية .

للمؤمن أنْ يكون قَنُوعاً ، هذه القناعة التى علَّمنا إياها رسول الله ﷺ حين قال للصحابى الجليل عمه العباس بن عبد المطلب : « قليل يكفيك خير من كثير يطغيك »(١) .

وفى حديث آخر قال ﷺ : « نحن قوم لا نأكل حتى نجوع ، وإذا أكلنا لا نشبع »(٢) وقال : « فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفَسه»(٣) .

وفى الحديث القدسى : «مَنْ رضى بقَدَرى أعطيته على قَدْرى»(٤) .

الرسول ﷺ يُعلِّمنا هنا طرق الوقاية من أمراض كثيرة ، ويُعطينا الحلول الشافية لاقتصاديات الشعوب ، قديماً كان الأطباء لا يروْنَ علاقة بين ضيق التنفس والمعدة ، يقولون : التنفس فى الرئتين ، والطعام فى المعدة ، والآن تأكدوا أن العلاقة بينهما وطيدة ، فإذا امتلأتْ المعدة بالطعام ضغطتْ على الحجاب الحاجز وضيَّقتْ على الرئة وأرهقتْ القلب .

---

(١) أخرجه الطبرى فى تهذيب الآثار (٥/٤٧٨) حديث (٢٤٩٤) عن عبد الله بن بسر المازنى قال قال رسول الله لعمه العباس : « يا عم قليل يضنيك خير من كثير يطغيك » . أى : قليل يتعبك . وأخرج البيهقى فى دلائل النبوة (٥/٣٧٥) عن أبى أمامة الباهلى قال : جاء ثعلبة بن حاطب إلى رسول الله فقال : يا رسول الله ادع الله أن يرزقنى مالاً ، قال : ويحك يا ثعلبة : قليل تؤدى شكره خير من كثير لا تطيقه » فى حديث طويل .

(٢) هو قول مشهور على الألسنة ولكن لم تثبت نسبته للرسول ﷺ وإن كان معناه صحيحاً .

(٣) عن المقدام بن معد يكرب قال النبى ﷺ : « ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطن ، بحسب ابن آدم يقمن صلبه ، فإن كان لا محالة فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفسه » أخرجه أحمد فى مسنده (٤/١٣٢) والترمذى فى سننه (٢٣٨٠) وابن ماجة فى سننه (٣٣٤٩) .

(٤) أورد أبو حامد الغزالى فى كتابه (إحياء علوم الدين) (٤/٣٤٤) فى الرضا بقضاء الله وقدره أحاديث منها : « من رضى من الله تعالى بالقليل من الرزق رضى الله تعالى منه بالقليل من العمل » ، « إذا أحب الله تعالى عبداً ابتلاه فإن صبر اجتباه فإن رضى اصطفاه » . أما ما أورده الشيخ رحمه الله فلم تثبت نسبته لرسول الله ﷺ ولا هو فى شىء من الكتب المعتبرة . [عادل أبو المعاطى] .

لذلك وجدوا تصحيح هذه المعلومة فى حديث سيدنا رسول الله الذى يُعلِّمنا فيه كيفية الجمع بين مُقوِّمات الحياة المختلفة من طعام وماء وهواء ، وألاَّ يكون المؤمن نَهِماً « ما ملأ ابنُ آدم وعاءً شراً من بطنه »[١] .

قلنا : إنك إذا عُدْتَ من عملك جائعاً لا تنتظر الطعام حتى ينضج وربما تجد أمامك بقايا طعام سابق ، كسْرة خبز وعود جرجير وجبنة ، فتأكل وتجد لهذا الطعام البسيط طعماً ولذة ، لماذا ؟ لأنك أكلتَ وأنت جائع ، والجوع يجعلك تقبل أىّ شىء وتستسيغه .

لذلك قال الرجل العربى صاحب الفطرة السليمة : نِعْم الإدامُ الجوع[٢] ، وقال : طعام الجائع هَنِىء ، وفراش المتعَب وطىء يعنى مريح ، نعم تجد المتعَب ينام ملء عينيه ، ولو نام على الحصى والحصير ، وغير المتعب يتقلَّب فى فراشه مُؤرقاً ، حتى لو نام على الحرير . إذن : نقول تأملوا الإسلام ، ففيه حَلٌّ لمشكلاتنا الاقتصادية وأزماتنا المتتالية .

الإسلام يُعلِّمنى أنْ أقنع بما فى يدى ، وألاَّ أتطلع إلى ما هو فوق إمكاناتى ، لأن الذى ينظر إلى ما هو فوق إمكاناته ، كالذى يشرب من ماء البحر ، كلما شرب ازداد عطشاً .

---

(١) هو حديث المقدام بن معد يكرب ، سبقت الإشارة إليه ، أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٤/١٣٢) والترمذى فى سننه (٢٣٨٠) وابن ماجه فى سننه (٣٣٤٩) .

(٢) ذكر الأصمعى عن عثمان الشحام عن أبى رجاء العطاردى قال : لما بلغنا أن النبى ﷺ قد أخذ فى القتل هربنا فاشتوينا فخذ أرنب دفيناً ، والقينا عليها جمالنا فلا أنسى تلك الأكلة . وكان الأصمعى إذا حُدِّث بهذا الحديث قال : نعم الإدام الجوع ، ونعم شعار المسلمين التخفيف . أورده الجاحظ فى (البخلاء ١/ ٧٦) .

ثم يكمل الحق سبحانه الصورة : ﴿ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ[1] فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ (٤٩) ﴾ [فصلت] إنْ أصابه الشر (فَيَئُوسٌ) هذه صيغة مبالغة من اليأس والعياذ بالله ، واليائس هو مَن انقطع أمله ورجاؤه ، واليأس صفة الوجدان ، أما (قَنُوطٌ) فهى أيضاً صيغة مبالغة من قانط ، وهذه صفة الأبدان ، قالوا : لأن القنوط أثر اليأس الذى يظهر على الأبدان وعلى الوجه خاصة ، فتراه مُغبراً مُكشراً مقشعراً والعياذ بالله من حال هؤلاء . أما المؤمن فتعلو وجهه سيما الصلاح ونور الإيمان تجده هاشاً باشاً مُنشرحَ الصدر مُبتسماً مُستبشراً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً[2] مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٥٠) ﴾

قوله : ﴿ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى (٥٠) ﴾ [فصلت] هذا من حقى ، أستحقه بعملى ومجهودى ، يعنى : ينكر أن هذا من الله ، وهذا القول قاله قارون ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِى (٧٨) ﴾ [القصص] فردَّ الله عليه : ما دُمتَ قد أوتيته على علم عندك فاحفظه بعلم عندك ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ

(١) الشر هنا بمعنى الفقر والمرض . [تفسير القرطبى ٩/٦٠٣٩] وقال ابن كثير (٤/١٠٤) : البلاء والفقر .

(٢) الرحمة هنا : العافية والرخاء والغنَى . قاله القرطبى فى تفسيره (٩/٦٠٣٩) ولذلك جاء مقابلاً لها الضراء . قال القرطبى : الضراء : الضر والسقم وشدة الفقر .

الأَرْضَ ﴿٨١﴾ ﴾ [القصص]

وصدق الله حين قال : ﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ﴿٦﴾ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴿٧﴾ ﴾ [العلق]

ثم يتمادى فى غروره فيقول ﴿ وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّى ﴿٥٠﴾ ﴾ [فصلت] يعنى فى الآخرة . والمعنى : على فرض أن هناك بعثاً وحساباً ﴿ إِنَّ لِى عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ ﴿٥٠﴾ ﴾ [فصلت] الجزاء الأحسن ، فكما أعطانى فى الدنيا سيعطينى أحسن منه فى الآخرة .

﴿ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا ﴿٥٠﴾ ﴾ [فصلت] إذن : تنبيه المسىء إلى إساءته وتعريفه إياها أول مراحل العذاب ، نقول له : عملتَ كذا وكذا ونُحصى عليه سيئاته تمهيداً لمحاسبته عليها ، وهو يعلم أنه لا رجعةَ ليصلحَ ما بينه وبين ربه .

لذلك حكى القرآن عنهم ﴿ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّى أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [المؤمنون] فردَّ الله عليه ﴿ كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [المؤمنون]

وقال : ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الأنعام]

وقوله ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ ﴾ [فصلت] عذاب شديد ، والعذاب يُوصف بأوصاف كثيرة ، فمرة يقول ﴿ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الملك] يؤلم و ﴿ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾ ﴾ [المجادلة] فيه إهانة وإذلال ، فمن المعذبين مَنْ يناسبه ويناسب جريمته ويناسب طبيعته العذاب المؤلم ، ومنهم مَنْ يؤثر فيه العذاب المهين الذى يكسر عنفوان كبريائه ، حتى وإنْ لم يكُنْ مؤلماً .

﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ(١) أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ (٥١) ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ (٥١) ﴾ [فصلت] يعنى : انصرف عن المنعم سبحانه ، لأنه أخذ حاجته ونال بُغْيته ، وهذه الصفة كثيراً ما نجدها فى البشر ، فالرجل يلجأ إليك فى قضية من القضايا أو مشكلة من المشكلات ، ويقف ببابك صباحاً ومساءً ، فإذا قضيتَ حاجته ربما ينسى حتى أنْ يقول لك شكراً .

ولقد أجاد الشاعر(٢) الذى صوَّر لنا هذه المسألة ، فقال :

يَسيرُ ذَوُو الحَاجَاتِ خَلْفَكَ خُشَّعاً ... فَإنْ أدْرَكُوهَا خَلَّفُوكَ وَهَرْوَلُوا
وَأفْضَلُهم مَنْ إنْ ذُكِرْتَ بِسَيِّيءٍ ... تَوقَّفْ لاَ يَنْفِى وَلاَ يَتقوَّلُ
فَلاَ تَدعِ المعروف مهْما تنكَّروا ... فَإنَّ ثَوَابَ الله أرْضَى وَأجْزَلُ

وتذكَّر دائماً أن الذين ينكرون يدك عليهم هم أربح الناس لك ، لأن الذى سيتولى الردَّ على جميلك هو الله عز وجل ، وعطاء الله على قَدْر الله ، وعطاء الناس على قَدْر الناس .

لذلك رأينا سيدنا نوحاً عليه السلام يقول لقومه : ﴿ يَٰقَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا (٥١) ﴾ [هود] المعنى : أن العمل الذى أقوم به كان ينبغى أن تعطونى عليه أجراً ، إنما أنا لا أريد أجرى منكم ، بل من

---

(١) كلمة الإنسان هنا فسرها القرطبى (٩/٦٠٤٠) بأنه الكافر الذى أعرض عن الإسلام فتجده يعرف ربه فى البلاء ولا يعرفه فى الرخاء . ولكن قد نجد مثل هذه الصفة عند بعض من أسلم ولكن لم يتحقق قلبه بشكر نعمة الله ، حينها يكون الكفر كفر نعمة لا يُخرج من الملة ، لا كفر جحود . [عادل أبو المعاطى] .

(٢) من قول الشيخ يرحمه الله .

ربى ، فهو القادر على أن يعطينى الجزاء ، ويُقدِّر علمى .

ونلحظ فى سياق هذه الآية التدرج فى عملية الإعراض ﴿ أَعْرَضَ ﴾ يعنى : انصرف بوجهه ، ثم ﴿ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ ﴾ يعنى استدار بظهره ، إذن : أعرض بوجهه ثم بجنبه ثم بظهره ، وهذا الترتيب تجده نفسه فى قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤) يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ (٣٥)﴾ [التوبة]

قالوا : نزلت فيمَنْ ردَّ السائل المحتاج فأعرض عنه أولاً بوجهه ، ثم بجنبه ، ثم بظهره ، فكأن الجزاء من جنس العمل ، وبقدر الكنز يكون الكَىّ ، والعياذ بالله .

وقوله تعالى : ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ (٥١)﴾ [فصلت] مسَّه مجرد مَسٍّ ﴿ فَذُو دُعَاءٍ (٥١)﴾ [فصلت] يعنى هو صاحب دعاء ﴿عَرِيضٍ﴾ مستمر(١) ونلحظ أنه لم يقُل دعاء طويل ، الشىء له طول وله عرض ، والطول أكبر من العرض ، لكن القرآن يستخدم العرض للدلالة على كِبَر الشىء كما فى قوله تعالى فى وصف الجنة : ﴿عَرْضُهَا السَّمَٰوَاتُ وَالأَرْضُ (١٣٣)﴾ [آل عمران] فإذا كان عَرْضها السموات والأرض وهى أوسع ما نراه ، فما بالك بطولها ؟

---

(١) قال ابن منظور فى لسان العرب (مادة عرض) : عريض أى كثير ، فوضع العريض موضع الكثير لأن كل واحد منهما مقدار . ومثله قاله القرطبى فى تفسيره (٩/ ٦٠٤٠) . وقال ابن عباس : (ذو دعاء عريض) أى : ذو تضرع واستغاثة .

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ ﴾

قوله تعالى ﴿ قُلْ ﴾ أى : قل لهم يا محمد ﴿ أَرَأَيْتُمْ ﴾ أخبرونى ، واحكموا أنتم ﴿ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِ ﴿٥٢﴾ ﴾ [فصلت] أى : كفرتم بالمنعم ﴿ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ ﴾ [فصلت] يعنى : لا أحدَ أضلُّ ممن زرع الشقاق والخلاف بين النعمة والمنعم ، فأخذ النعمة وكفر بالمنعم ، فمن هنا استفهامية أفادت التعجب والإنكار ، فالنعمة تقتضى شكر المنعم وحمده .

والحق سبحانه فى آيات أخرى يعرض علينا نعمه عرضاً كريماً رحيماً ، ويمتن علينا بها فيقول : ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا ﴿٣٤﴾ ﴾ [إبراهيم] كلمة ﴿ إِنْ ﴾ أفادتْ الشك لأن الإنسان لا يقبل على عدِّ شىء إلا إذا كان مظنة العد والإحصاء والحصر ، فعلى فرض إنْ حدث وأقبلتم على عَدِّ نعمة الله فلن تحصوها ، وسماها نعمة بالإفراد ولم يقُلْ نعم لأنك حين تتأمل النعمة الواحدة تجد فى طياتها نِعَماً كثيرة .

وهذه الآية وردت فى موضعين ، لكن تذييل كل منهما مختلف عن الأخرى فواحدة : ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [إبراهيم] والأخرى : ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ ﴾ [النحل]

لأن عناصر الإنعام ثلاثة : نعمة ومُنعِم ومُنعَم عليه ، فمن ناحية النعمة فهى كثيرة لا تُعدُّ ولا تُحصَى ، ومن ناحية المنعم فهو

سبحانه غفور رحيم ، ومن ناحية المنعَم عليه فظلوم كفار .

فكأن ربَّك عز وجل يقول لك : يا عبدى لا تيأس من رحمتى ، ولا تزهد فى دعائى مهما كنتَ ظلوماً كفاراً ، لأن ربك غفور رحيم .

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ(١) وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ(٢) ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾

قلنا : إن السين فى ﴿ سَنُرِيهِمْ ﴾ تفيد الاستقبال ، لذلك ستظل هذه الكلمة لها موضع إلى يوم القيامة ستظل صادقة فى كل زمان ﴿ آيَاتِنَا ﴾ أى : الآيات الكونية الدالة على قدرة الله وبديع صُنْعه ﴿ فِى الآفَاقِ ﴾ جمع أفق وهو متسع امتداد نظرك إلى أن تنطبق السماء على الأرض .

والآفاق هنا تعنى السماء والأرض ، ومنه قولنا فلان أُفقه واسع إذا كان بعيد النظر فى المسائل المعنوية ، وبقدر ما تتسع البصائر تتسع الرؤية .

---

(١) الآفاق جمع أفق . وله عدة معانٍ :

- الآفاق : الفتوحات وظهور الإسلام على الأقاليم والأقطار وسائر الأديان . ﴿ وفى أنفسهم ﴾ أى فتح مكة . قال القرطبى فى تفسيره (٩/٦٠٤١) : هذا اختيار الطبرى . وقاله المنهال بن عمرو والسدى .
- الآفاق : وقائع الله فى الأمم . (وفى أنفسهم) يوم بدر . قاله قتادة والضحاك .
- الآفاق : أقطار السماوات والأرض من شمس وقمر وغيرهما . (وفى أنفسهم) فى خلق الإنسان من لطيف الصنعة وبديع الحكمة . قاله عطاء وابن زيد .

(٢) الضمير فى (أنه) فيه أربعة أوجه ذكرها القرطبى فى تفسيره (٩/٦٠٤٢) :

- أنه القرآن .
- أنه الإسلام جاءهم به الرسول ودعاهم إليه .
- أن ما يريهم الله ويفعل من ذلك هو الحق .
- أن محمداً هو الرسول الحق .

قوله تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ ﴾ يعنى : فى المستقبل هل تعنى أن الله تعالى لم يُرهم آياته من الماضى ؟ لا بل أراهم آيات كثيرة ، لكنهم غفلوا عنها وأغمضوا أعينهم عنها ، غفلوا عن قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) ﴾ [الصافات]

إذن : هذه سنة الله فى عباده المرسلين ، وهذا وعد من الله بنصرتهم وغلبهم ، والحق سبحانه لا شريكَ له ولا مناوىء يخالف هذا الوعد .

وقد علَّمتنا هذه الآية أصول الجندية ، وأن للنصر شروطاً فمَنْ توفرت فيه شروط الجندية استحق النصرة ، ومَنْ خالف شروط الجندية فلا بدَّ أن تتحقق فيه سنة الله ؛ لذلك قلنا : إذا رأيتَ المسلمين قد خسروا معركة ما فاعلم أنهم خالفوا هذه الشروط ، وساعة يُهزَمون لا يقال هُزِم الإسلام لا ، إنما هُزِم المسلمون الذين خالفوا أمر القائد وخالفوا شروط النصر ، لا بدَّ أن تكون الهزيمة لتعلمهم وتُربيِّهم على الطاعة لأمر القائد ، لأنهم لو انتصروا مع المخالفة للجندية لهَانَ عليهم أمر القائد بعد ذلك .

هذا الدرس تعلمناه فى أُحُد يوم خالف الرماةُ أمر رسول الله بالبقاء فى أماكنهم العالية مهما كانت نتيجة المعركة(١) ، لكنهم نظروا

---

(١) أمَّر رسول الله على الرماة عبد الله بن جبير ، والرماة يومئذ خمسون رجلاً ، فقال : « انضح الخيل عنا بالنبل لا يأتونا من خلفنا إن كانت لنا أو علينا فاثبت مكانك لا نؤتين من قبلك » (السيرة لابن هشام ٣/ ١٠) وأورده البيهقى فى دلائل النبوة (٣/ ٢٢٩) أن الرماة بعد انهزام المشركين تركوا مواضعهم للفوز بالغنائم فقال لهم ابن جبير : أنسيتم ما قال لكم رسول الله ؟ قالوا : لنأتين الناس فلنصيبن من الغنيمة ، فمال الكافرون على المسلمين حتى لم يبق مع رسول الله إلا اثنا عشر رجلاً » .

إلى متاع الدنيا الزائل وأغرتهم الغنائم لما رأوا بشائر النصر ، فنزلوا وتركوا أماكنهم ، فما كان من خالد بن الوليد إلا أن التفَّ وطوَّق جيش المسلمين من الخلف وحدثت الهزيمة أو على الأقل لم يكتمل الانتصار . فهل يجوز إذن أن نقول هُزِم الإسلام ؟

إذن : ينبغى أنْ نُصحِّح فهمنا لهذه المسألة ، فقد يُهزَم جيش المسلمين وفيه رسول الله لأنه لم يأخذ بأسباب النصر ، وحينها لا نقول هُزِم الإسلام ، بل خالف المسلمون فاستحقوا الهزيمة ، ابحثوا إذن فى أسباب الهزيمة وفى أسباب التخلف ، فتِّشوا عن عيوبكم وعن مخالفتكم لمنهج الله فهى السبب ، والتاريخ شاهد بذلك .

فيوم حنين قالوا(١) : لن نُهزم اليوم من قلة ، ومَنْ قالها ؟ قالها أبو بكر نفسه لما رأى المسلمين يبلغ العشرة آلاف مقاتل ، فلما داخلهم شىء من الغرور بالعدد أدَّبهم الله وأعطاهم درساً ، فهُزموا أول الأمر ، لكن أدركتهم رحمة ربهم فأعاد إليهم معنوياتهم وكتب لهم النصر فى النهاية .

﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ (٢٥) ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (٢٦) ﴾ [التوبة]

فمقدمات الهزيمة التى رآها المسلمون فى هذه الحرب كانت نوعاً

---

(١) أخرج البيهقى فى دلائل النبوة (١٢٣/٥) عن الربيع بن أنس أن رجلاً قال يوم حنين : لن نُغلب من قلة ، وكانوا اثنى عشر ألفاً فشق ذلك على رسول الله ﷺ فأنزل الله : ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ .. (٢٥) ﴾ [التوبة] وأورده السيوطى فى أسباب النزول (ص ١٣٨) .

من التربية ليست كُرْهاً من الله لعباده على حَدِّ قول الشاعر(١) :

فَقَسَا لِيَزْدَجِرُوا وَمَنْ يَكُ حَازِماً فَلْيَقْسُ أحْيَاناً عَلَى مَنْ يَرحَمُ(٢)

إذن : نقول إن وعد الله بالنصر لا يتخلف ، وإنما تخلف المسلمون عن أنْ يكونوا أهلاً لتحقيق الوعد ، وأنْ يكونوا على مستوى النصر الذى وعدهم الله به .

لكن لماذا يعاند المشركون كلّ هذا العناد ويغمضون أعينهم عن آيات الله وهى واضحات ؟ يعاندون لأنهم سادة ولهم سلطة زمنية ، وجاء الإسلام ليسلبهم هذه السيادة ويُنهى هذه السلطة الزمنية ، ويجعل الناس سواسية كأسنان المشط لا فضلَ لعربى على عجمى ولا لعجمى على عربى إلا بالتقوى .(٣)

فسلمان الفارسى وصهيب الرومى وبلال الحبشى كلهم فى الإسلام سادة وفى الصفوف الأولى ، لذلك قال رسول الله ﷺ : « سلمان منا أهل البيت »(٤) .

---

(١) هو : أبو تمام حبيب بن أوس بن الحارث الطائى ، ولد بحوران بسورية عام (١٨٨ هـ) نزل مصر واستقدمه المعتصم إلى بغداد وقدَّمه على شعراء عصره ، فى شعره قوة وجزالة : له كتب : فحول الشعراء ، وديوان الحماسة . توفى بالموصل عام (٢٣١ هـ) عن ٤٣ عاماً . الموسوعة الشعرية .

(٢) هذا البيت من قصيدة لأبى تمام من بحر الكامل عدد أبياتها ٦٠ بيتاً ، ولفظه فى الموسوعة :

فقسا لتزدجروا ومن يَكُ حازماً فليَقْسُ أحياناً وحيناً يرحم

(٣) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٥/٤١١) عن أبى نضرة عن رجل من أصحاب النبى ﷺ ، وأخرجه أبو نعيم فى حلية الأولياء (٣/١٠٠) عن أبى نضرة عن جابر بن عبد الله قال : خطبنا رسول الله فى وسط أيام التشريق فقال : يأيها الناس ألا إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، ألا لا فضل لعربى على أعجمى ، ولا لعجمى على عربى ، ولا لأحمر على أسود ، ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى » .

(٤) عن عمرو بن عوف المزنى قال : خط رسول الله ﷺ الخندق عام الأحزاب من أجم السمر طرف بنى حارثة حين بلغ المداد ، ثم قطع أربعين ذراعاً بين كل عشرة ، فاختلف المهاجرون والأنصار فى سلمان الفارسى ، وكان رجلاً قوياً فقالت الأنصار : سلمان منا . وقالت المهاجرون : سلمان منا . فقال رسول الله ﷺ : « سلمان منا أهل البيت » أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٣/٤١٨) والحاكم فى مستدركه (٣/٥٩٨) وضعَّف الذهبى إسناده من أجل كثير بن عبد الله .

فالنسب للإسلام والقرابة لدين الله ، ففى الوقت الذى جعل فيه سلمان واحداً من أهل البيت كان أبو لهب كافراً مطروداً من رحمة الله !!

وقد تعلَّمنا هذا الدرس من قصة سيدنا نوح مع ابنه ، وكم كان نوح عليه السلام حريصاً على نجاة هذا الابن ، وكم دعا الله له ، لكن الحق سبحانه يعلمه هذا الدرس ﴿ قَالَ يَـٰنُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٤٦) ﴾ [هود]

فالبنوة هنا والأهلية ليست للنسب والدم ، إنما للدين وللمنهج وللعقيدة ، بنوة عمل صالح واتباع .

فالجماعة الذين صادموا الإسلام وحاربوه كانوا يدافعون عن سيادتهم ومكانتهم فى الجزيرة العربية ؛ لذلك تكتَّلوا واتحدوا ضد رسول الله ومَن اتبعه من المؤمنين ، ورأينا ذلك فى الحصار الذى ضربوه على رسول الله فى الشِّعْب ، وكيف أنهم أغلقوا عليهم كل المنافذ ، وقطعوا دونهم كل سُبُل العيش حتى اضطروا لأكل الميتة وورق الشجر .[1]

ثم حاولوا أن يقتلوا رسول الله أكثر من مرة ، وآذوه أشد الإيذاء فى نفسه وفى أهله وفى صحابته ، لكن هيهات لهم أن ينالوا من رسول الله ، وهو بعين الله وفى حفظه وكلاءته ، وكأن الحق سبحانه أراد أن يقول لهم : إياكم أنْ تفهموا أن محاولاتكم هذه ستعوق أمر الدعوة فى الجزيرة العربية ، إن أمر الدعوة سينتشر

---

(١) ذكره البيهقى فى دلائل النبوة (١/ ٣١٥) وذكر ما بلغوا فيه من الجهد الشديد « حتى كان يسمع أصوات صبيانهم يتضاغون من وراء الشِّعب من الجوع » .

لا فى الجزيرة وحدها ، إنما فى كل آفاق الدنيا ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ (٥٣) ﴾ [فصلت]

وكانت دعوة الإسلام مؤهلة لهذا الانتشار من عدة جوانب .

أهمها : أن العرب أمة حروب وقتال بطبيعتها لا تحتاج إلى تدريب ، لذلك لما أراد رسول الله أنْ يحارب لم ينشىء كلية حربية ولا درَّب أحداً على فنون القتال ، بل وجد قوماً جاهزين للقتال ، خبراء بفنونه وأساليبه ، كان الواحد منهم كلما سمع هيعة[(١)] طار إليها ، ذلك لأن القبائل العربية كما تعلمون كانوا فى قتال مستمر ، ومن الحروب بينهم ما استمر أربعين سنة .[(٢)]

ثانياً : كان العرب أهل ترحال وتنقل ، لا يعرفون التوطن ولا الاستقرار ، فبيت العربى على ظهر جمله يضربه أينما حَلَّ وحيثما وُجد الماء والكلأ ، فعدم تعلّق العربى بموطن جعله مستعداً لأنْ يسيح بالإسلام فى كل آفاق الدنيا وكل أرجاء العالم .

ولم تكُنْ مصادفةً أن يكون النبى ﷺ أمياً فى أُمّة أمية لا تعرف القراءة ولا الكتابة ، ولم يكُنْ لها ثقافة ولا حضارة . وهذه الصفات كلها وإنْ كانت عيوباً فى الأمم الأخرى إلا أنها فى أمة الإسلام وفى نبى الإسلام شرفٌ وميْزة ، ولو كان العرب أمة علوم وثقافة وأمة حضارة ورُقىٍّ لقالوا عن الإسلام قفزة حضارية .

هذه أمور ثلاثة مهدت لنصرة الإسلام ولانتشاره فى كل آفاق

---

(١) الهيعة : صوت الصارخ للفزع . وقيل : هى الصوت الذى تفزع منه وتخافه من عدو . ومنه قوله ﷺ : « خير الناس رجل ممسك بعنان فرسه فى سبيل الله كلما سمع هيعة طار إليها » .

(٢) ذكرها أبو عبيدة معمر بن المثنى فى كتابه (الديباج) قال : « حرب ابنى بغيض عبس وذبيان فى مجرى داحس وغبراء كانت بينهم نحواً من أربعين سنة » ، وكان ذلك بسبب سباق خيل عُقِد على داحس والغبراء نظير رهان مائة بعير . [قاله ابن عبد ربه فى العقد الفريد] .

الأرض ، وكأن الله تعالى يقول للكافرين ولمن صادم دين الله وعاند رسوله وغفل عن قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) ﴾ [الصافات] سنريهم آيات أخرى لن تغفلوا عنها فى نصرة الإسلام وسياحته فى آفاق الأرض شرقاً وغرباً .

لذلك يأتى لنا بصورة تُضحكنا عليهم وتغيظهم ، حيث يقول سبحانه : ﴿ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ (١٥) ﴾ [الحج]

يعنى : يربط نفسه بحبل إلى السماء ، ثم يقطع هذا الحبل لينزل مثل المشنوق ، ثم ينظر هل يُذهِب غيظه أم لا ، والمعنى أنه سينتهى ويموت وغيظه لن ينتهى .

وانظر إلى الإسلام فى بداية أمره كيف بدأ وقام بالضعفاء والعبيد ، تلاهم الكبار والسادة ، ولما ذهب الرسول ﷺ ليدعو أهل الطائف فلاقى منهم ما لاقى من الإيذاء والاستهزاء ، ولم يجد أحداً يحميه أو ينزل بجواره إلا المطعم بن عدى(١) وهو كافر ، لكن سخَّره الله تعالى لحماية رسوله ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ (٣١) ﴾ [المدثر] كذلك فى رحلة الهجرة اتخذ عبد الله بن أريقط(٢) دليلاً على الطريق ، وكان أيضاً كافراً .

---

(١) المطعم بن عدى ، كان من حلفاء قريش وساداتهم ، وهو الذى أجار رسول الله حين رجع من الطائف ، وهو الذى أطلق سعد بن عبادة من أيدى قريش بعدما تعلقوا به فى قدومه معتمراً . [نسب قريش لمصعب الزبيرى] وهو الذى قام إلى صحيفة قريش التى قاطعوا فيها بنى هاشم وحصروهم فى الشِّعب ليمزقها . [النويرى فى نهاية الأرب فى فنون الأدب] .

(٢) هو دليل رسول الله وأبى بكر لما هاجرا إلى المدينة وكان على دين قومه ولم أر من ذكره فى الصحابة إلا الذهبى فى التجريد وقد جزم عبد الغنى المقدسى فى السيرة بأنه لم يعرف له إسلاماً وتبعه النووى فى تهذيب الأسماء . [الإصابة فى معرفة الصحابة ٢/١٠٠] .

ثم يقول لهم : انظروا إلى أرض الإسلام وأرض الكفر ، فالإسلام بدأ وانطلق من أم القرى وما حولها ، وهو الآن يغزو الأرض كلها من المشرق إلى المغرب ، فأرض الإسلام تزداد اتساعاً ، وأرض الكفر تزداد تناقصاً : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ (٤١)﴾ [الرعد] أو لم يأخذوا من ذلك عبرة ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ (٤١)﴾ [الرعد]

فهل بعد ذلك شك فى نُصْرة الله لدينه ؟ ألم تغزُ هذه الأمة الأمية أعظم حضارتين على وجه الأرض آنذاك ، هما حضارة فارس فى الشرق ، وحضارة الروم فى الغرب ، وفى وقت واحد وزمن متقارب ، حتى أن هؤلاء كان عندهم طرق للحرب وفنون لا يعرفها العرب ولا يجيدونها ، ومع ذلك انتصروا عليهم .

رووا أنهم كانوا يستخدمون الأفيال فى الحروب ، ولم يكُنْ العرب يعرفون شيئاً عنها ، لكن ألهم الله تعالى سيدنا سعد بن أبى وقاص إلى حيلة يتغلب بها على الفيل ، واهتدى إلى أن خرطوم الفيل نقطة ضعف فيه ، فصنع لذلك سيوفاً خاصة يضرب بها خراطيم الأفيال فتسقط .(١)

ثم يدخل الإسلام هذه البلاد شرقاً وغرباً فى نصف قرن من الزمان ، ويجد له هناك أنصاراً ومحبين ، منهم مَنْ دخل الإسلام طواعية اقتناعاً ، ومنهم مَنْ وجد فى الإسلام ضالته حيث عدالة الإسلام وسماحته فى مقابل جَوْر الحكام هناك وكثرة المظالم والفساد .

---

(١) ذكر الجاحظ فى كتابه الحيوان فى كلامه عن خرطوم الفيل : « قال زهرة بن جؤية يوم القادسية : أما لهذه الدابة مقتل ؟ قالوا : بلى خرطومه فشد عليهم حتى خالطهم ودنا من الفيل ، فحمل كل واحد منهما على صاحبه فضرب خرطومه فبرك وأدبر القوم» .

هذه كلها آيات نفهمها من قوله تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ (٥٣) ﴾ [فصلت] فالفتح الإسلامى الذى عَمَّ العالم كله آية من الآيات ، هذا الانتشار الواسع للإسلام لم تستطيعوا أن تصدوه ، لأن الله وعد به عباده المؤمنين ووعد به رسله ، والحق سبحانه لما وعد الرسل بالنصرة لم يعدهم سراً إنما فى قرآن يُتلى إلى يوم القيامة ويُجهر به ، قرآن تكفَّل الله بحفظه وصيانته ، والعادة أنك تحفظ ما لك لا ما عليك ، أما الحق سبحانه فيحفظ وعده الذى تكفل به لأنه واثق أنه واقع لا محالة .

ومن المعانى التى نفهمها من الاستقبال فى ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ (٥٣) ﴾ [فصلت] أن المسلمين كانوا فى بداية الأمر مضطهدين غير مأمورين بقتال ، وربما مات بعضهم قبل أن يتحقق وعد الله بالنصر ، فلما قرأوا : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ (٥٣) ﴾ [فصلت] علموا أن النصر قادم حتى ولو ماتوا قبل أنْ يروا فرحته .

وتعلمون أن الله لم يأمر المسلمين بالقتال إلا بعد أنْ تمكَّن الإيمان من نفوسهم ، واستقرتْ العقيدة فى قلوبهم ، حتى أن بعضهم يقول لسيدنا رسول الله : يا رسول الله ، أليس بينى وبين الجنة إلا أنْ أقاتل هؤلاء فيقتلوننى ؟ فيقول له رسول الله : بلى فيلقى الرجل تمرة كان يمضغها ويبادر بنفسه إلى ساحة القتال ، ويُعجِّل المسير إلى الشهادة لما استقر فى نفسه من عقيدة علَّمته أنه ذاهب إلى أفضل مما هو فيه ومُقبلٌ على جنة عَرْضُها السموات والأرض .[1]

---

(١) أخرج البخارى فى صحيحه (حديث ٣٧٤٠) من حديث جابر بن عبد الله قال قال رجل للنبى ﷺ يوم أُحد : أرأيتَ إن قتلت فأين أنا ؟ قال : فى الجنة . فألقى تمرات فى يده ثم قاتل حتى قُتِل . وكذا أخرجه مسلم فى صحيحه (٣٥١٨) .

وسوف تظل هـذه السين الاستـقبـالية ﴿ سَنُرِيهِمْ ﴾ باقيـة تمدنا بعطاء لا ينتـهى حـتى قيـام السـاعة التى سـتكون هى الآية الكبـرى سنريهم آيات فى كل زمان ، آيات فى صـالح هذا الدين ونُصْرة أهله فى كل الآفاق .

وقوله تـعالى : ﴿ وَفِي أَنفُسِهِمْ ﴿٥٣﴾ ﴾ [فصلت] يعنى : آيات فى الأنفس ، فى الأشـخـاص ، فى لحمك ودمك وروحـك ، فى أعضـائك وأجزائك ، فى كل شىء فيك آية لو تدبرت .

الحق سبـحانه وتعـالى خلق الإنسان من طين ، وأخبـرنا بكيفـية الخلق ومراحـله ، ومحمـد ﷺ لم يكُنْ عالمـاً من علماء التـشريح ولا يعرف علم الأجنـة إنما علّمه ربه الأعلى ، وجـاء العلم الحديث ليـثبت صدق ما أخـبر به فى مسألـة خلق الإنسان من طين ، وأن نسله من سلالة من ماء مهين ، وأنه كان نطفـة ثم علقة ثم مضغة ثم عظاماً ، ثم كسى العظام لحماً .

وها هو العـلم يكشف لنـا كل يوم عن جـديد فى أنفـسنا وعن عجائـب لم نكُنْ نعرفها فى أنفـسنا من قبل ، إنك حين تقـرأ آخر ما توصلتْ إليه العلوم فى جسم الإنسـان تعلم أنك فى ذاتك عالمٌ عجيب وبناء محكم دقيق ، وصدق القائل(١) :

وَتحسَبُ أنَّكَ جِرْمٌ صَغِيـرٌ وَفِيكَ انْطَوَى العَالَمُ الأكْبَرُ(٢)

وسبق أنْ تحدثنا عن بعض عجـائب الخَلْق وقلنا مثلاً : أن حرارة

---

(١) هو : عبد اللطيف بن على فتح الله ، أديب من أهل بيروت ، تـولى القضاء والإفتاء . يعرف بـ (المفـتى فتح الله) له نظم جيد فى ديوان مطبوع ومقـامات ومجـموعة شـعرية بخطه ألقاها فى صباه سنة ١٢٠٠ هـ . توفى عام ١٢٦٠ هـ . [الموسوعة الشعرية] .

(٢) البيت من قصيدة من بحر المتقارب عدد أبياتها ٦ أبيات .

الجسم العادية ٣٧° تجدها حرارة مَنْ يعيش عند خط الاستواء ، وحرارة مَنْ يعيش عند القطبين ، ومع ذلك لا يحدث استطراق حرارى داخل الجسم ، فتجد كل عضو من الأعضاء يحتفظ لنفسه بالحرارة التى تناسبه ، فالكبد درجة حرارته ٤٠° والعين لا تزيد عن ٩° ، وهما فى جسم واحد ، ولا يحدث بينهما استطراق حرارى .

تأمل الدم سائل الحياة فى الجسم كله وكيف يحتفظ لنفسه بدرجة من السيولة لو زاد عنها يحدث نزيف ، ولو قلَّتْ تحدث جلطة وشلل والعياذ بالله .

تأمل الكليتين وما فيهما من أسرار وقدرة وإبداع ، فالكلية لو حدث لها فشل عن أداء وظيفتها تقوم الأخرى بمهمتها ، ويكفى الجسم أن يعيش بكلية واحدة لو فُقدت الأخرى ، لذلك قلنا بتحريم نقل الكلية من شخص لآخر ؛ لأن الخالق سبحانه جعل لنا كليتين ، كل كلية منهما فيها مليون خلية مستعدة للعمل لا يعمل منها سوى مائة ألف فقط ، فإن توقفت هذه المائة تبعتها المائة الثانية وهكذا .

فكيف إذن يحدث الفشل الكلوى ؟ قالوا : يحدث من أن المائة ألف أدَّتْ مهمتها ثم توقفتْ ولم تتنبه المائة ألف الثانية لكى تقوم بمهمتها ، فحين نأخذ من شخص كليته ونعطيها لشخص آخر نقول : هذا إجرام وانتحار ، لأن الكلية الباقية لو توقفتْ لا بدَّ أن يموت الإنسان .

ومن العجائب وآيات الخَلْق سبحانه فى الإنسان آية الجلد وما فيه من أسرار ، فهمناها من قوله تعالى فى الحديث عن عذاب الكافرين : ﴿ **كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ** (٥٦) ﴾ [النساء]

تعلمنا من هذه الآية أن الجلد هو موضع الإحساس ، فلو حُرِق

لا يحدث الإحســاس ؛ لذلك الحق سبحانه يُجدد لـهم جلودهم ليذوقوا العـذاب وليسـتمـر الإيلام ، والعالـم لم يعرف هذه المـسألة إلا بعـد الحرب العالمـية ، فقد توصل الألمان إلــى أن الجلد هو آلة الإحساس فى الجسم ، بدليل أنك حين تأخذ مثلاً حقنة لا تؤلمك إلا بمقدار نفاذ الإبرة من طبقة الجلد بعدها لا تشعر بالألم ، فالقرآن سبق العالم كله إلى هذه الآية .

ومن آيات الله فى الأنفس أنك تجد بداخل الجسم صيدلـية طبيعية تعالج ما يحدث فى الجسم من خلل ، هذه الصيدلية أخذناها من قوله تعالى : ﴿مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ ﴿٥﴾﴾ [الحج] فالمخلَّقة : هى التى تكوَّن منها الجسم بأعضائه وجوارحـه المشاهدة ، وغير المخلقة الموجـودة داخل الجسم كـاحتيـاط له تكمل ما نقص منه وتعـالج ما مرض فيه ، لذلك رأينا أحدث علاج للجـروح والدمامل مثلاً أنْ تتركها لمقاومة الجـسـم الطبيعية حيث تلتئم دون تدخل بمواد كـيماوية تضر وتترك أثراً فى الجلد .

تأمل أىّ عضــو من أعضــائك ، وأىَّ جهاز من أجـهزة جـسمك ، تأمل كيفـية بناء هذا الإنسان على هذه الهـيئة المعتـدلة المستقـيمة ، وكيف يسير معتدلاً مرتفع الهامة ، تأمل كَفَّ يدك وما فيه من أصابع وما فيه من تناسق وتناسب وانسيابية .

انظر إلى جـهازك الهـضـمى أو التنفـسى ، انـظر إلى قلب هذه العضلة التى لا تزيد عـن قبضة اليـد الواحدة ، كيف أنهـا تعمل دون توقف منذ المـيلاد وحـتى الوفاة ، كلهـا آيات وعجائـب وأسرار دالة على قدرة الخالق وبديع صنعته سبحانه فى الأنفس .

ويظل عطاء هذه الكلمة ﴿سَنُرِيهِمْ﴾ ممتـداً فى الزمان كله وكل

يوم نشاهد جديداً وآية وعجيبة من عجائب الخلق فى الآفاق وفى الأنفس ، ولما تستقرئ القرآن تجده قد استوعب فى هذه المسألة الماضى والحاضر والمستقبل ، فقال : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ..(٤١)﴾ [الرعد] وقال فى المستقبل ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ (٥٣)﴾ [فصلت]

باقى فى الاستقبال سوف وهى للمستقبل البعيد ، قالوا : هى لأمور الآخرة كما فى قوله تعالى : ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (٣٩)﴾ [هود]

وفَرْق بين استقبال الفعل من الله تعالى واستقباله من البشر ، نحن نقول : ماضى ومضارع ومستقبل . أما بالنسبة للحق سبحانه فيستوى عنده الزمن كله ، اقرأ قوله تعالى : ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ (١)﴾ [النحل] والمراد هنا القيامة .

لذلك وقف المستشرقون عند هذه الآية يتهمون القرآن بالتناقض ﴿أَتَىٰ﴾ تدل على الماضى و﴿لَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ تدل على المستقبل ، لكن يجب أنْ علم أن المتكلم هنا هو الله عز وجل الذى يملك الزمن كله ، فحين يقول (أتى) يقولها برصيد قدرته ووحدانيته ، حيث لا يوجد له معارض يمنع حدوث الفعل ، فالقيامة لأنها حَقٌّ واقع لا محالة عبَّر عنه بالماضى كأنه أتى بالفعل .

قوله تعالى : ﴿سَنُرِيهِمْ﴾ دلَّتْ على أن هذه الآيات مُوزَّعة على الزمن ، بحيث يجد كل جيل فى القرآن عطاءً جديداً ، فنحن الآن نعرف من آيات الله فى الكون وفى الأنفس ما لم يكُنْ يعرفها أحد على زمن رسول الله مع أنها موجودة وأخبر الله بها فى القرآن .

سألتُ مرة بعض إخواننا المختصين بالنواحى الاقتصادية فى

العالم قُلْت لهم : متى عرف الإنسانُ (الأسانسير) ؟ قالوا : سنة كذا يعنى فى القرن العشرين ، قلت : فاقرأوا قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (٣٣) ﴾ [الزخرف] والمعارج أى : ما نعرفه الآن بـ (الأسانسير) .

كذلك البواخر والسفن العملاقة المكوَّنة من طوابق ، والتى تظهر فى البحار وكأنها مدينة متحركة لم تكُنْ بهذه الصورة على عهد النبى ﷺ ، وقد أخبر الله بها فى سورة الرحمن : ﴿ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ[1] (٢٤) ﴾ [الرحمن] إذن : الحق سبحانه خلق وعلم ما سيحدث لخلقه فى المستقبل .

فإنْ قلتَ : فلماذا لم تظهر هذه الآيات فى زمن النبى ﷺ وفى زمن صحابته ؟ قالوا : لو ظهرت هذه الآيات الكونية معاصرة لزمن النبى وصحابته لأفرغ القرآن معجزاته وآياته فى قرن واحد ، واستقبلت القرون التالية القرآن بدون عطاء جديد ، وبدون آيات تبهرهم وتدلهم على قدرة الخالق سبحانه .

فالله تعالى أراد أنْ يظلَّ استقبال الأجيال للقرآن استقبالاً جديداً ، بحيث يكون لكل جيل نصيب من عطاء القرآن ليثبت لنا أن الذى أنزل القرآن قديماً أخبر فيه بما يحدث فى المستقبل ، وأنه سبحانه إله واحد ليس معه شريك يردُّ عليه ما قال .

وقوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ (٥٣) ﴾ [فصلت] أى : يتضح

(١) الأعلام : الجبال . مفردها علم . والعلم : الجبل الطويل (أى المرتفع) وقد يكون الطويل فى طوله . [انظر لسان العرب – مادة : علم] .

لهم أن القرآن حق وأن الله حق ، والحق هو الشيء الثابت الذى لا يتغير ، وضده الباطل ، والباطل متغير زاهق ، الحق أبلج ، والباطل لجلج .

الله تعالى يُصوِّر لنا الحق والباطل فى مثال مادى مشاهد ، فيقول سبحانه :

﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا[1] وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً[2] وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ﴿١٧﴾﴾ [الرعد]

فالله تعالى هو الحق ، ما يقوله حق ، ومن الناس مَنْ يعرف وجه الحق فيه ، ومنهم مَنْ يرتاب وتَخْفى عليه الآيات لفترة ثم تصل بهم الأحداث إلى أنْ يعرفوا أنه الحقُّ من الله الحق ، فعلاً ووجوداً .

وقد ينتصر الباطل ويعلو فى فترة من الفترات ، لكن لا بُدَّ أن تكون الجولة الأخيرة للحق ؛ لذلك قالوا : دولة الباطل ساعة ودولة الحق إلى قيام الساعة ، والمؤمن الواعى الواثق بنصر الله لا يبالى لانتصار الباطل فهو موقوت ، وينتظر اللحظة التى يعلو فيها الحق ويزهق فيها الباطل .

المؤمن يعلم أن الباطل حين يعلو يكون جندياً من جنود الحق ، فالباطل يُظهر الحق لمن لا يعرفه ، والضد يظهر حُسْنه الضد ، ولولا أن الناس شَقُوا بالباطل وعضَّتهم الأحداث ما عرفوا الحق وما اشتاقوا إليه .

---

(١) زبد الماء : ما يعلوه عند جيشانه واضطرابه من الرغوة وحطام الأشياء . [القاموس القويم ١/٢٨٣] .

(٢) فيذهب جُفاء : أى لا ينتفع به بل يتفرق ويتمزق ويذهب فى جانبى الوادى ويعلق بالشجر وتنسفه الرياح . [تفسير ابن كثير ٢/٥٠٨] .

لذلك لما تتأمل النسق القرآني في قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا (٤٠) ﴾ [التوبة] تعلم أن الحق ثابت ، وأنه الأصل الذي عليه قامت أمور الخَلْق كلها ، فكلمة الذين كفروا قد تعلو لكن ينتهي بها الأمر إلى أنْ تكون هي السفلى ، جعلها الله سفلى فهي جَعْل من الله .

أما ﴿ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا (٤٠) ﴾ [التوبة] تجد (كلمة) هنا مبتدأ ، فهي في أصلها عليا ، ليست جَعْلاً كالأولى ، يعني لم تكُنْ أبداً سفلى ، ثم جعلها الله عُلْيا بل هي بطبيعتها عليا . إذن : نقول : إن الباطل يعلو لبعض الناس بأحداثه فيتنبهوا للحق .

ثم يقول سبحانه ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٥٣) ﴾ [فصلت] بلى كفى به سبحانه شاهداً ومطلعاً لا تَخْفى عليه خافية ، كأن الحق سبحانه يقول لهم ما كان يصح منكم أنْ تنتظروا الآيات لتُصدِّقوا الرسول ، بل كان عليكم أنْ تصدقوه بمجرد أن يقول لأن الله شهيد عليه ، والله سبحانه ليس له معارض يعارضه ويرد حكمه .

لذلك قلنا : لماذا أصبح الصِّدِّيق صدِّيقاً ؟ لأنه لما قيل له إن صاحبك يدَّعي أنه نبي لم يزدْ على أن قَال لتوِّه : إنْ كان قال فقد صدق ، هكذا دون أن يناقش المسألة ، كذلكَ لمَا بلغه خبر الإسراء والمعراج قال نفس قولته الأولى ، ولم ينتظر حتى ينزل القرآن ، فيخبرهم بذلك وبعدها يُصدِّق .

فالقرآن إنما ينزل يقنع الكافر المعاند أو الشّاكّ المرتاب ، والصِّدِّيق رضي الله عنه كان في أعلى درجات اليقين والإيمان ، وكفَاه تاريخ محمد سيرته فيما مضى ، فأخذ من صدْقه في الماضي دليلاً على صِدْقه في الحاضر .

كلمة ﴿ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ [فصلت] هنا تحمل معنى الشاهد الذى يثبت الحق ، والقاضى الذى يحكم فيه ، والمنفذ الذى ينفذ الأحكام .

﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾ ﴾

كلمة ﴿ أَلَا ﴾ أداة استفتاح لكلام جديد ، فالمتكلم يريد ألاَّ يفاجئ المخاطب فينبهه لكى ينتبه إليه ولا يفوته شىء من كلامه ، وكأنه يقول له : استعد واسمع ما أقوله لك فهو كلام مهم .

والكلام المهم هو قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ ﴿٥٤﴾ ﴾ [فصلت] أى : الكفار فى شكٍّ من البعث بعد الموت يظنون أن المسألة خلقهم الله فى الدنيا وانتهتْ المسألة ، فهم يشكُّون فى أن هناك رجعة ، ويرتابون فى الحساب والجزاء ، ولا يعملون حساباً لهذا اليوم ، لماذا ؟

لأنهم لم يعملوا مقدمة لهذا اللقاء لذلك يتغافلون عنه ، يُمنِّى الواحد نفسه أن هذا الكلام كذب ، وليس هناك بعْث ولا حساب ولا جزاء ، ومَنْ يعترف منهم بهذا اللقاء يملؤه الغرور ، فيقول ﴿ وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ ﴿٥٠﴾ ﴾ [فصلت] وقال آخر : ﴿ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [الكهف]

إذن : فهم فى (مرْية) من هذا اليوم أى شك وارتياب وتردد ، والمرْية أيضاً من المراء ، وهو الجدال بالباطل والعناد والمكابرة على قبول الحق والانصياع له ؛ لذلك قالوا : الجدل هو النقاش الموصِّل إلى شىء بين طرفين ، إلى نتيجة ، أما المراء فهو جدل ينتصر فيه كل طرف لنفسه ، ولا يعنيه الوصول إلى الحق .

والله تبارك وتعالى يُعلِّمنا كيفية الاختلاف ، وكيفية النقاش ،

وأصول الجدل فى قوله تعالى : ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ (٤٦)﴾ [سبأ] ما هى يا رب ؟ ﴿أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ (٤٦)﴾ [سبأ] يعنى : لا تبحثوا بحثاً جماعياً جماهيرياً ، بل مَثْنى وفرادى ، لأن حكم الجماهير غير منضبط ، فكل طرف فيه يريد أن ينتصر لرأيه ، ولا يقبل أن يُهزَم أمام الجمع فيتمادى فى الباطل .

وسبق أن قلنا : إن هتاف الجماهير تتوه فيه الأصوات وتختلط فلا تتميز ، ومثّلنا لذلك بقول شوقى فى كيلوباترا لما انهزمتْ فى أكتيوم[1] :

اسْمع الشَّعْبَ دِيُون كيْفَ يُوحُونَ إليْه
مَلأَ الجوَّ هتَافاً بحيَاتىْ قَاتليْه
أثَّر البُهتانُ فيه وَانطَلى الزُّور عليْه
يَالَهُ من بَبْغَاءَ عَقلُه فِى أُذُنيْه

والأمر المخزى هنا أنهم فى مرية ، لم يقل من الجنة وإنما ﴿فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ (٥٤)﴾ [فصلت] فهذا هو الكسوف الكبير والخجل والخزى ، كما قالوا : موقف يتساقط فيه لحم الوجه خجلاً من الحق سبحانه ، وقد عادوا إليه هذا العَوْد المؤسف ، وجدوا أنفسهم أمام الحق سبحانه وقد كفروا به فى الدنيا وجحدوه وأنكروه ، ثم تفاجئهم هذه الحقيقة ﴿وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩)﴾ [النور]

والله لو قال فى مرية من نعيم ربهم لكانت مقبولة ، والناس تتفاوت مراتبهم ودرجاتهم فى العمل الصالح ، فمنهم مَنْ يعمل خوفاً

---

(١) هى معركة حدثت فى شهر سبتمبر من عام ٣١ قبل الميلاد وانتصر فيها أوكتافيين وريث يوليوس قيصر . [ويكيبيديا] .

من النار ، ومنهم مَنْ يعمل طمعاً فى الجنة ، ومنهم مَنْ يعمل حباً فى الله الذى كلَّفه وإرضاءً له سبحانه ، لا خوفاً من ناره ، ولا طمعاً فى جنته ، إنما يعمل لذات الله .

لذلك ورد أن السيدة رابعة العدوية[1] قالت فى مناجاتها لله تعالى : اللهم إنْ كنتَ تعلم أنِّى أعبدك طمعاً فى جنتك فاحرمنى منها ، وإنْ كنتَ تعلم أنِّى أعبدك خوفاً من نارك فاحرقنى بها ، إنما أحبك لأنكَ تستحق الحب ، واقرأ قوله تعالى : ﴿ **فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا** (١١٠) ﴾ [الكهف] والجنة أحد .

وقوله سبحانه : ﴿ **أَلا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ** (٥٤) ﴾ [فصلت] تقرير لحقيقة أخرى بدأت أيضاً بـ ﴿ أَلا ﴾ الاستفتاحية . والمعنى أنه سبحانه يحيط علمه بكل شىء إحاطةً تامة لا يفلت أحدٌ منها ، ولا يغيب عنها مثقالُ ذرة فى السموات ولا فى الأرض ، والمحيط هو الدائرة التى تلفُّ الشىء من كل جوانبه .

---

(١) رابعة بنت إسماعيل العدوية أم الخير ، البصرية ، صالحة مشهورة مولدها بالبصرة ، لها أخبار فى العبادة والنسك ، ولها شعْر ، توفيت بالقدس عام ١٣٥ هجرية وقيل : ١٨٥ هجرية . الأعلام للزركلى (٣/ ١٠) .

سُورَةُ الشُّورَىٰ

سورة الشورى (١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢ ﴾

هذه الحروف من الحروف المقطَّعة التى تقع فى بدايات بعض سور القرآن الكريم ، وقد سبق الحديث عنها فى أكثر من موضع ، ولكنا نُذكّر بأن القرآن كله مبنىّ على الوصل ، الوصل فى آياته ، والوصل فى سُوره ، والوصل فى آخره بأوله .

فأنت تقرأ : ﴿ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ۝٦ ﴾ [الناس] هكذا بالكسر لتصلها ببسم الله الرحمن الرحيم فى الفاتحة . أما الحروف المقطعة فهى مبنية على الوَقْف ، بحيث يُقرأ كلّ حرف على حِدَة تقول هنا (حا ميم عين سين قاف) .

وأنت تقرأ فى أول البقرة (ألف لام ميم) وتقرأ نفس الحروف

---

(١) سورة الشورى هى السورة رقم (٤٢) فى ترتيب المصحف الشريف ، نزلت بعد سورة فصلت . وهى سورة مكية فى قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر . وقال ابن عباس وقتادة : إلا أربع آيات منها أنزلت بالمدينة هى قوله تعالى : ﴿ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ .. ۝٢٣ ﴾ [الشورى] إلى قوله : ﴿ وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ .. ﴾ [الشورى]

فى أول سورة الشرح : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (١) ﴾ [الشرح] لتعلم أن القرآن ليس كأىِّ كتاب آخر ، وأن قراءته تعتمد أولاً على السماع ، قال تعالى : ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ (١٩) ﴾ [القيامة]

إذن : حين تتدبر القرآن تجد للقراءة بالوصل حكمة ، وللقراءة بالوقف حكمة ، ومعلوم أن الحرف هو اللبنة الأولى فى بناء الكلمة وبالتالى العبارة ، وقد بيَّن لنا الرسول ﷺ أهمية الوقف على هذه الحروف ، فقال : « لا أقول الم حرف ، ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف »(١) .

وحروف اللغة قسمان : حروف مبنى وهى اللبنات التى تدخل فى بناء الكلمات والعبارات ، فكلمة كتب تكوَّنت من الكاف والتاء والباء ، وهذه الحروف لا تعطى معنىً إلا إذا تركبت مع بعضها لتكوِّن الكلمات . والأخرى حروف معنى مثل كاف التشبيه فى الجندى كالأسد ، فالكاف هنا أفادت معنى التشبيه ، وهذه الحروف لا تعطى معنىً إلا إذا رُكِّبتْ مع غيرها من الكلمات .

واللغة عامة ظاهرة اجتماعية ، وهى ألفاظ يُعبِّر بها كل قوم عن أغراضهم ، وبها يتفاهمون ، واللغة كما قال العلماء بنت المحاكاة ، فما سمعتْه الأذن يحكيه اللسان ، فالولد الذى ينشأ فى مجتمع عربى يتكلم العربية ، ولو كان فى مجتمع إنجليزى لتكلَّم الإنجليزية .

إذن : ليست اللغة جنساً ولا دماً ، بل ظاهرة اجتماعية تعتمد على

---

(١) عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها ، لا أقول الم حرف ، ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف » أخرجه الترمذى فى سننه (٢٩١٠) وقال : « حديث حسن صحيح » .

السماع ، حتى فى داخل اللغة الواحدة قد تسمع الكلمة لأول مرة فلا تفهمها ولا تعرف معناها ، مع أن ألفاظها عربية لكنها لم تمرّ بسمعك من قبل .

يُرْوى أن أبا علقمة[١] النحوى كان مُغرماً بالفصحى ، ولا ينطق إلا بها ، فكان يأتى بألفاظ غريبة حتى شَقَّ ذلك على خادمه الذى كان لا يفهم كثيراً من هذه الألفاظ ، وفى إحدى الليالى استيقظ من نومه وسأل الخادم : يا غلام أصقعتْ العتاريف[٢] ؟ لم يفهم الغلام إلا أنه ردَّ فى ضيق وقال له : زِقْ فَيْلم فتعجَّب أبو علقمة وقال له : وما زِقْ فَيْلم ؟ قال الغلام : وما صقعت العتاريف ؟ قال : أردتُ أصاحتْ الديكة ؟ قال : وأنا أردتُ لم تَصِحْ ؟

ومن نوادر اللغة أن أحدهم ذهب إلى الطبيب ، فقال له الطبيب وكان اسمه أعين : ما بك ؟ قال : أكلت من لحوم هذه الجوازئ فطسأت منها طسأة أصابنى منها وجع من الوابلة إلى دأية العنق ولم يزل يَنْمى حتى خالط الخِلْب وأَلِمَتْ منه الشراسيف ، فقال الطبيب : أعِدْ علىَّ فوالله ما فهمتُ منك شيئاً ، فأعاد كالأولى ، فردَّ الطبيب وقال له : خُذْ حرقفاً وسلقفاً وسرقفاً وزهزقه وزقزقه بماء روث ثم اشربه ، فقال الرجل : أعِدْ علىَّ فوالله ما فهمتُ منك شيئاً . فقال

---

(١) وردت هذه القصة فى كتاب (معجم الأدباء) لياقوت الحموى نقلاً عن أبى بكر محمد بن خلف بن المرزبان فى كتاب الثقلاء . وأبو علقمة النحوى وهو النميرى قال ياقوت الحموى : أراه من أهل واسط .

(٢) العتاريف : عُتْرف . أى الديك . [تاج العروس مادة : عترف] وأصقعت : أى: أصاحت . وسمى الخطيب مصقعاً لرفع صوته فى التبليغ .

الطبيب : لعن الله أقلَّنا إفهاماً لصاحبه .(١)

إذن : نقول إن اللغة بنت المحاكاة ، فهى تعتمد أولاً على السماع ، فما تسمعه الأذن يحكيه اللسان ، فالولد الصغير يتعلم الكلام من أسرته وممن حوله ، أما الأخرس فإنه لا يتكلم لأنه لم يسمع ؛ لذلك قال تعالى : ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ (١٨)﴾ [البقرة] فالبكَم لا يأتى إلا بعد الصَّمم ، ولو سلسلنا مسألة تعلُّم الكلام هذه سنصل بها إلى أبينا آدم عليه السلام ، فكُلٌّ منا تعلم الكلام من أبيه وأمه وممن حوله ، أما آدم عليه السلام فعلَّمه ربه ، كما قال سبحانه : ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا (٣١)﴾ [البقرة] يعنى أسماء الأشياء ، فالله سبحانه هو المعلم الأول .

وفى الحروف المقطعة هذه ملحظ هام ، فهى تُعلِّمنا الإيمان بالغيب ، كيف ؟ الحق سبحانه وتعالى له فى خَلْقه غيب ومشهد ، وقد جعل سبحانه للغيب مشهداً يدل عليه ، ففى مجال العقائد مثلاً أنا معتقد أن لهذا الكون إلهاً خالقاً ، وهذه العقيدة يمكن أنْ أدلِّل عليها بالآيات الكونية الموجودة المشاهدة .

لكن يأتى فى العقيدة أيضاً مسائل غيبية ليس لها دليلٌ من المشهد المُحَسِّ ، مثل الإيمان بالملائكة وهى غيب ، وما دام هناك تكاليف وطاعة ومعصية فلا بدَّ أنْ توجد جنة ونار ، وقبلها مرحلة القبر وما فيه من نعيم أو عذاب ، كل هذه أمور سمعية لا يُقام عليها دليل عقلى ، إنما

---

(١) هذا الخبر أيضاً لأبى علقمة النحوى ذكره ابن الجوزى فى أخبار الحمقى والمغفلين فصل فى عدم مخاطبة العوام بالإعراب . والجوازم أى : الإبل أى أكل من لحم جمل . فطسأت : أى اتخمت بالطعام من الدسم ؛ فأصابه رجع من الوابلة وهى رأس عظم الخفذ إلى العنق والظهر ولم يزل الألم يزيد حَتى خالط الخِلب وهو حجاب بين القلب والكبد فتألمت منه أطراف الأضالع .

نؤمن بها لأن الإله الذى آمنا به أخبرنا بوجودها ونحن نثق فى خبره .

إذن : كل إيمان عقدى مُشَاهد يأخذ بجانبه إيماناً غيبياً ، والإيمان بالغيب هو الأهم لأنه المحكّ فى مسألة الإيمان ، وهو الدليل على قوة العقيدة ، لأن الإيمان بالمشهد يستوى فيه الجميع .

قلنا : هَبْ أن عندك خادماً وقلتَ له : يا فلان ارفع هذا الحجر فى الحديقة مثلاً فيقول لك : إنه ثقيل لا أقدر على رفعه تقول له : إنَّ تحته كيس النقود الذى سأعطيك منه راتبك فيسرع إليه ويرفعه ، هذا آمن بالغيب أم بالمشهد ؟ آمن بالمشهد . لم يثق بك وإنما بكيس النقود .

إذن : المحك الحقيقى للإيمان هو الغيب ، لذلك قال تعالى فى صفات المؤمنين ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ۝٣﴾ [البقرة] لأن المحسّ والمشَاهد الكل يعرفه ويؤمن به ،

كذلك الحال فى كلام ربِّ العالمين وفى قرآنه الكريم كلام وحروف لها معنى ، وحروف أخرى ليس لها معنى واضح نعرفه ونفهم تفسيره ، وهذه هى الحروف المُقطَّعة نؤمن بها ونُصدِّق بها على أنها من الغيب .

وسبق أنْ أوضحنا أن الحروف المقطعة فى بدايات السور أخذت نصف حروف المعجم يعنى أربعة عشر حرفاً ، والمتأمل فى هذه الحروف يجد لها نظاماً ورتابة لم تُؤخذ هكذا كيفما اتفق ، فلو قسَّمنا حروف الهجاء إلى تسعة حروف فى أولها وتسعة فى آخرها ويتبقى عشرة فى الوسط نجد الحروف المقطعة أخذت فقط حرفين من المجموعة الأولى هما الألف والحا وترك سبعة ، وأخذت سبعة من المجموعة الأخيرة وتركت اثنين ، وأخذت من الوسط الحروف غير المنقوطة وتركت المنقوط ، إذن : لها موازين ولها حكمة .

ونحن نحاول ونفكر فى معانى هذه الحروف ، ويحوم العقل حول هذه المعانى قد يبلغ بعضها ، وقد يقف عاجزاً يقول : الله أعلم بمراده ، وكُلُّ عالم يحاول فَهْم هذه الحروف أو استجلاء الحكمة منها مجتهد ومُثَاب ، أصاب أو جانبه الصواب .

المهم أن الحق سبحانه يريد منا أن نؤمن بهذه الحروف ، وأن نقبلها كما هى ، عرفنا معانيها أو لم نعرف ، فهى أشبه بأسنان المفتاح الذى يعنيك منها أنْ تفتح لك دُون أنْ تعرف لها نظاماً ، ويكفى أن صاحبها يعرف أسرارها ، وأنها تؤدى لك مهمتها على ما هى .

فصحيح أننا نحوم حول هذه المعانى وقد نصل إلى شىء منها ، لكن يظل للقرآن إعجازه ، وتظل هذه الحروف محتفظة بعطاء متجدد لا ينفد . والقرآن لما تحدَّى العرب وأعجزهم ، البعض فهم من ذلك أنه تقليل من شأن العرب ، لكن هذا التحدى يعنى براعتهم فى هذا المجال وتمكّنهم منه وإلا ما تحداهم القرآن ، إذن : تحدِّى القرآن لهم شرف لهم وإعلاء لشأنهم ، ويكفى أن الله جعلهم المقياس فى هذه المسألة .

والقرآن حين تحدَّى العرب لم يأت بكلمات جديدة ولا بحروف جديدة ، فهى نفس الحروف ونفس الخامات التى تتكوَّن منها لغتهم ، ومع ذلك ظل كلام الحق سبحانه هو المعجز ، ولم يستطيعوا الإتيان بمثله ، فوجه الإعجاز هنا أن القرآن كلام الله ، الله هو الذى يتكلم ، فكلامه مُعْجز لأنه سبحانه يضفى عليه من قدرته ، وكلامك أنت أيها العبد غير معجز لأن فيه شيئاً من عجزك .

وسورة الشورى من سُوَر الحواميم[1] . يعنى : السور التى بدأتْ بقوله تعالى (حم) وقد رأينا أن هذه الحروف جاءت بحرف واحد مثل (ن) و (ق) و (ص) . وجاءت بحرفين مثل (طس) . وجاءت على ثلاثة أحرف مثل (الم) و (طسم) وجاءت على أربعة أحرف مثل (المر) و (المص) . وعلى خمسة أحرف مثل (حم عسق)[2] و(كهيعص) وهذه الحروف لا تُعرف معانيها ، ونؤمن أنها من الغيب الذى يجب علينا التسليم به ، وأن نقول فى تفسيرها : الله أعلم بمراده .

﴿ كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣ ﴾

الكاف فى ﴿كذَٰلك﴾ حرف معنى يفيد التشبيه و ﴿ذَٰلك﴾ إشارة إلى الحروف المقطعة السابقة ، يعنى بمثل هذه الحروف ﴿يُوحِى إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ۝٣﴾ [الشورى] فهذه الحروف من وحى الله إلى نبيه محمد ، وما يأتى بعدها أيضاً من وحى الله .

والوحى : هو إعلام بخفاء من المتكلم للسامع ، فلو جاءك ضيف

---

(١) الحواميم هى السور التى تبدأ بقوله (حم) وهى سبع سور : غافر ، فصلت ، الشورى ، الزخرف ، الدخان ، الجاثية ، الأحقاف . وصفها على بن أبى طالب : عرائس القرآن . وقال ابن عباس : لباب القرآن . وقال ابن مسعود : الحواميم ديباج القرآن . [انظر : العقد الفريد لابن عبد ربه (قولهم فى حملة القرآن)] .

(٢) نقل القرطبى فى تفسيره (٦٠٤٣/٩) أن الحسين بن الفضل سئل : لم قطع « حم » من « عسق » ولم تُقطع (كهيعص) ؟ فقال : لأن « حم . عسق » بين سور أولها « حم » فجرت مجرى نظائرها قبلها وبعدها ، فكأن « حم » مبتدأ و « عسق » خبره .

وتريد أن تخبر خادمك بأمر دون أنْ يُحسَّ به الضيف ، فإنك تنظر إلى الخادم أو تهمس إليه بطريقة ما يفهم منها ما تريد ، فكأنك أوحيتَ إليه بهذا الأمر .

والوحى يقتضى : مُوحِياً ، ومُوحَىً إليه ، ومُوحىً به ، وقد أخبرنا الحق سبحانه أنه يوحى لمن يشاء من مخلوقاته ، يوحى إلى الملائكة : ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا .. (١٢)﴾ [الأنفال]

ويوحى للرسل : ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ..(١٦٣)﴾ [النساء]

ويوحى إلى الصالحين من عباده ، كما أوحى إلى الحواريين ، وكما أوحى إلى أم موسى ، وأوحى للنمل ، وأوحى إلى الأرض وهى جماد : ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا (٥)﴾ [الزلزلة]

كذلك أخبرنا الحق سبحانه أن الشياطين يوحى بعضهم إلى بعضهم ، ومثلهم شياطين الإنس ، قال تعالى : ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ ..(١٢١)﴾ [الأنعام] أى : من الإنس وقال : ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ[1] الْقَوْلِ غُرُورًا (١١٢)﴾ [الأنعام] والوصف العام لكلمة الوحى أنه بخفاء ، هذا فى المعنى العام لكلمة الوحى ، وهو يكون بالخير ويكون بالشر .

أما الوحى الشرعى المقصود هنا فالذى يكون من الله تعالى لرسوله ﷺ بواسطة الملك جبريل عليه السلام ، قال تعالى : ﴿وَمَا

(١) زخرف القول غروراً . أى : القول المرقَّش بالخداع وبالكذب الذى يوحى بالغرور لمن يسمعه . [القاموس القويم ١/ ٢٨٥] وقال ابن الأعرابى فيما نقله عنه ابن منظور فى لسان العرب (مادة : زخرف) : أى حسن القول بترقيش الكذب .

﴿ كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْياً أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ (٥١) ﴾ [الشورى]

إذن : الوحى الشرعى : إعلام من الله لمن اختاره من الرسل بإحدى هذه الوسائل : أن يرسل إليه مَلَكاً أو عن طريق الإلهام ، وسبق أنْ أوضحنا أن وارد الرحمن لا يصطدم بوارد الشيطان ، لأن وارد الرحمن أقوى لا ينازعه شىء .

ففى قصة أم موسى ، قال تعالى ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ (٧) ﴾ [القصص] الوحى هنا بمعنى ألهمها ، أو نفث فى روعها ، أو مرَّر بخاطرها ﴿ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ (٧) ﴾ [القصص] هذا أمر العقل لا يقبله ، لكنه لما كان من الله لم يعارضه اختيار آخر وأذعنتْ له أم موسى ونفَّذته على الفور .

لذلك لما أراد الحق سبحانه أنْ يعلِّم صحابة رسول الله أمور دينهم أنزل إليهم جبريل فى صورة رجل ، وأخذ يسأل رسول الله عن الإيمان وعن الإسلام وعن الإحسان وكان يسأل ويصدق ؛ لذلك تعجب منه الصحابة : كيف يسأل ويصدق ، ولما انتهى الدرس قال رسول الله ﷺ : « إنه جبريل جاء يعلمكم أمور دينكم »(١)

---

(١) عن عمر بن الخطاب قال : بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم ، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لا يُرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد ، حتى جلس إلى النبى ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ، ووضع كفيه على فخذيه ، وقال : يا محمد أخبرنى عن الإسلام ، فقال ﷺ : « الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً . قال : صدقت . قال : فعجبنا له يسأله ويُصدِّقه قال : فأخبرنى عن الإيمان ؟ قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره . قال : صدقت . قال : فأخبرنى عن الإحسان . قال : أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك ... » . الحديث أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٠) ومسلم فى صحيحه (٨) .

وتبين هذه الآية : ﴿ كَذَٰلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ③ ﴾ [الشورى] أن الموحى هو الله عز وجل ولم تقل مثلاً ربك ، فاختارت لفظ الألوهية لماذا ؟ الله هو المعبود بحقٍّ ، والمعبود يعنى له منهج وله تكاليف فيها أوامر وفيها نواه ، فعطاء الألوهية كما قلنا عطاء تكليف ، أما عطاء الربوبية فتربيةً ورعاية ومنح دون مقابل .

فالحق سبحانه وتعالى فى العطائيْن لا يعود عليه من العباد شيء ولا ينتفع منهم بشيء ، لا تنفعه طاعة الطائعين ، ولا تضره معصية العاصين ، وما جعل التكليف والمنهج إلا لإسعاد العباد وسلامة المجتمع .

كأن الله يقول لنا : أريدكم سعداء فى مجتمع نظيف طاهر يقوم على المحبة والسلام ، ويخلو من الغل والحسد والنفاق ، مجتمع يقول وينبه على الفضيلة ويخلو من الرذيلة ، ذلكم لأنكم عبادى وصنعتى ، وكل صانع يريد لصنعته الصلاح ، ويربأ بها عن الفساد .

لذلك قلنا : إن الرجل العاقل لا يحقد على مَنْ هو أعلى منه فى ناحية من النواحى ولا يحسده ، وإذا اصطدم بظالم لا يدعو عليه إنما يدعو له ، وإذا رأى فساداً أصلحه ، وإذا رأى غير المسلمين تمنى لو كانوا مسلمين ، لماذا ؟ لأنه سيسعد بإصلاح هؤلاء ، وسيجنى ثمار صلاحهم واستقامتهم ، وسيعود عليه خيرهم .

وقوله تعالى : ﴿ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ③ ﴾ [الشورى] إشارة إلى أن الموحِى بهذا الوحى والمنزل لهذا الكتاب ولهذا المنهج (الله) أى : صاحب التكاليف والآمر بها .

الله : علَم على واجب الوجود ، بعضهم قال : هو مشتق من أله من العبادة ، ومألوه يعنى معبود ، وبعضهم قال : الله علَم على

الذات ، لا تجد فيه إلا صفة العَلَمية على واجب الوجود ، وهذا العلم موصوف بكل صفات الكمال ، فهو القوى العزيز الجبار المتكبر الرحيم الحكيم الغفور الوهاب القهار . هذه من أسماء الحق سبحانه وهى صفات كمال لاسم الله ، لذلك قال تعالى : ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَـٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ (١١٠) ﴾ [الإسراء]

الحق سبحانه يُعلِّمنا كيف ندعوه فى شتى أمورنا ، فمَنْ أراد العلم يدعو العليم ، ومَنْ أراد القوة يقول يا قوى قوِّنى ، ومَنْ أراد الحكمة يقول : يا حكيم ألهمنى الحكمة ، ومَنْ أراد سعة الرزق قال : يا باسط ابْسُطْ لى الرزق ، فإذا أراد كلّ هذه الصفات قال : يا الله . فهو الاسم الجامع لكل صفات الكمال .

وهو سبحانه فى تكاليفه لكم ﴿ الْعَزِيزُ ﴾ يعنى : غالب لا يغلب ، وله صفات العزة والجبروت والغنى والاستغناء عن الخلق .

ثم هو سبحانه ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ يعنى : حين كلّف كلّف بقدر وبحكمة . ذلك لأن القرآن به تكاليف قد يراها البعض شاقة ، لكن إذا أخذنا هذه التكاليف بمصاحبة ثمرتها والثواب عليها نجدها سهلة يسيرة لأنها تُدِر عليك نفعاً تهون أمامه كل المشاق .

ألاَ تراك تتعب فى الدنيا ثم تجنى من الثمار على قدر تعبك ، ألاَ ترى أن نفاسة النتيجة على مقدار الكدِّ ؟ أنت فى الدنيا مثلاً تزرع الفجل تجده فجلاً ، وتستطيع أنْ تأكل منه بعد عدة أيام ، وتزرع مثلاً الخيار وتأكل منه بعد أربعين يوماً والأرز مثلاً بعد عدة شهور ، وتزرع المانجو فلا تعطيك إلا بعد عدة سنوات .

إذن : إذا كلّفك الله بشىء فيه مشقة ، فاعلم أن الثمرة على قدرها ،

واعلم أن الذى أوحى إلى النبى بهذا التكليف عزيز حكيم ، فإنْ كان شاقاً فى نظرك فمُكلِّفك به غنىٌّ عنك وعن طاعتك لا يستفيد منه بشىء بل أنت المستفيد ، وهو حكيم يعنى كلَّفك بما يؤدى إلى سلامة حركتك فى المجتمع .

وهذه العزة لله تعالى فهمها إبليس حين قال : ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾﴾ [ص] يعنى : بغناك عنهم ، وترك الاختيار لهم ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴿٢٩﴾﴾ [الكهف] وإلا فالذى تريده وتستخلصه لك لا أستطيع أنْ أقترب منه : ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الحجر]

إذن : المعركة ليست بين الحق سبحانه وبين إبليس ، إنما بينه وبين بنى آدم ، وهى معركة ممتدة منذ مسألة الأمر بالسجود لآدم وإلى قيام الساعة ، وقد ظهر غباء إبليس فى الحوار الذى دار بينه وبين الحق سبحانه ، ثم بينه وبين سيدنا آدم ، ففى قوله : ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾﴾ [الأعراف] كشف عن خططه وطريق إغوائه لبنى آدم ، وأنه سيأتيهم فى أماكن الطاعات ليفسدها عليهم .

لكن الحق سبحانه وتعالى علَّمنا كيفية التعامل مع هذا العدو ، وعلَّمنا كيف نرده ، فقال تعالى : ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ(١) مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ﴿٢٠٠﴾﴾ [الأعراف] يعنى الجأ إلى الله ، وذكِّره بالله لأنه خنَّاس إذا ذكر الله خنس ، وهذه وصفة إياك أن تغفل عنها .

وظهر أيضاً غباؤه وتغفيله فى قوله لآدم وحواء وهما فى الجنة : ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ

---

(١) نزغه الشيطان : وسوس له بالشر . ونزغ بين الرجلين : أفسد ما بينهما . [القاموس القويم ٢/٢٦٠] .

الْخَالِدِينَ (٢٠) ﴾ [الأعراف] فلو كان يعلم أنها شجرة الخلد لأكل منها من باب أوْلى ، ولم يسأل الله أنْ يُنظره إلى يوم يبعثون ، وهذه غفل عنها آدم أيضاً ، وقد قال الله فى حقه : ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (١١٥) ﴾ [طه] ؛ ولذا لا نعتب على من نَسِي؛ فإن المُوَصَّيْن بنو سَهْوان .

﴿ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٤﴾ ﴾

أى : لله تعالى ما فى السموات وما فى الأرض ملكاً لا يتصرف فيه الخليفة ، هذه منطقة حرام أنْ يتصرَّف أحد فى مُلْك هو لله تعالى وحده ، إنما يتصرف الخليفة فيما دون ذلك من الأحداث .

وحين نستقرىء هذه الآية وأمثالها فى القرآن نجد الحق سبحانه يقول مرة : ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ (٤) ﴾ [الشورى] ويقول مرة ﴿ وَلَهُ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ (٥٢) ﴾ [النحل] ذلك لأن الخلق متفاوت ، فهناك خلْق موجود فى السماء وفى الأرض وهم الملائكة ، وهناك خلق للسماء فقط ، هم الملائكة العالون وهناك خلْق للأرض فقط هم : الجن والإنس .

فحين يقول : ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ (٤) ﴾ [الشورى] يذكر الجنسين ، وحين يقول : ﴿ وَلَهُ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ (٥٢) ﴾ [النحل] يذكر الجنس المشترك بينهما .

نفهم من ذلك أن الكون الذى نعيش فيه ليس ملْكاً لأحد على الحقيقة ، فالملكية لله تعالى وإنْ ملَّك بعضاً شيئاً فهو موقوت ، ومن باطن ملكه تعالى حتى لا يغترَّ أصحابُ الأملاك بأملاكهم ، أنت

مجرد خليفة لستَ مالكاً ، هذه الأرض عبارة عن ملعب نحن جميعاً فقط نلعب فيه ولا يملكه منا أحد ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ (١٢٠)﴾ [المائدة]

وقالوا : اللام للملك كما فى : القلم لزيد . وللاختصاص كما لو قلتَ : الحبل للفرس ، فالفرس لا يملك الحبل إنما يملكه صاحب الفرس ، فالحبل يخص الفرس .

وفى قوله تعالى : ﴿لَهُ مَا فِى السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ (٤)﴾ [الشورى] تفيد المعنيين ، فهى للملك وللاختصاص أو القصر بتقديم الخبر الجار والمجرور له ، فالملك هنا لله وحده لا يشاركه فى ملكه أحد ، تقول : لزيد القلم يعنى خاص به ومقصور عليه ، أما (القلم لزيد) يمكن أن تقول : ولعمرو .

والهاء ضمير الغائب فى (له) تعود على الحق سبحانه ، والغيبة هنا هى عين الظهور والحضور ، ومن عظمته سبحانه أنه غيب لا يُدرَك بالحواس ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٠٣)﴾ [الأنعام]

فمن عظمته أنه غيب ، كما نقول : الحق هذه الكلمة التى يدعيها الجميع أنه على الحق ، وكذلك العدل .. هذه معانٍ نتحدث عنها لكن لا نعرف ما هى ؟ ما شكلها ؟ فلو كنا لاندرك مجرد المعانى العالية ، فكيف نطمع فى إدراك ذات الحق سبحانه ؟

وفى موضع آخر قال سبحانه : ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ (٤٩)﴾ [الشورى] إذن : فالله يملك السموات والأرض ، وهى ظرف فيه أشياء هى أيضاً ملك لله ﴿لَهُ مَا فِى السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ (٤)﴾

[الشورى] وما فى السماء أثمن من السماء ، وما فى الأرض أثمن من الأرض ، والعادة أن المظروف أنفسُ من الظرف الذى يحتويه .

فكل ما فى السموات وما فى الأرض مِلْكٌ لله ومُسخَّر لخدمة خليفته فى أرضه ، فالحق سبحانه خلق لك قبل أنْ يخلقك ، وأعدَّ لك كَوْناً جاهزاً لاستقبالك فيه مُقوِّمات حياتك ، هذا قلنا : إنه عطاء الربوبية .

فربك ربَّاك بالمنهج الذى أنزله من السماء على يد الرسل ، وحفظ لك أسباب الحياة واستبقاء الحياة بماء ينزل من السماء ، وأرض تنبت لك مختلفَ الأطعمة والقوت ، وجعل لك الأنهار ، وجعل لك الهواء .

وبهذه العناصر الثلاث يتم لك استبقاء الحياة وقلنا : من رحمته تعالى بخَلْقه أنْ جعل حاجتك للطعام ، غير حاجتك للشراب ، غير حاجتك للتنفس ، فالإنسان يصبر على الطعام مثلاً شهراً ، ويصبر على الماء عدة أيام ، لكنه لا يصبر على الهواء ولو لِنفَس واحد .

لذلك ملَّك الله الطعام لبعض البشر ، فإنْ منعه عنك تعيش على المخزون فى جسمك ، إلى أنْ تحتال عليه بأىٍّ وسيلة ، وملَّك الماء قليلاً ، لأن الصبر عليه أقل من الصبر على الطعام ، أما الهواء فلم يُملكه لأحد ، تصور لو غضب عليك صاحب الهواء ، والله لمتَّ قبل أنْ تنال رضاه .

وبعد ذلك أعطاك ترف الحياة وما تتحلى به وتتزيَّن ، لذلك قال عن البحر : ﴿وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا (١٤)﴾ [النحل] وقال :

﴿ يَـٰبَنِى آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِى سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا ﴿٢٦﴾ ﴾ [الأعراف] فالضرورى فى اللباس ما يستر العورة ثم يأتى الرياش ، وهو ما يكون للزينة .

﴿ وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴿٢٦﴾ ﴾ [الأعراف] لأن لباس الدنيا يستر عورتك وتحميك فى الدنيا ، أما لباس التقوى فيسترك فى الدنيا وفى الآخرة ، ويعطيك حياة أخرى أبقى وأدوم .

هذا كله من ملك الله الذى فى الأرض ، فإنْ نظرتَ إلى أعلى تجد الهواء وهو نعمة فى طياتها نِعَم كثيرة ، فالهواء عنصر هام فى بقاء الحياة للكائنات الحية ، وهو المادة الموصّلة التى ينتقل بها الصوت والصورة التى نراها فى (التليفزيون) مثلاً .

ثم تأمل فى السماء من شمس وقمر ونجوم وكواكب ومجرات ، كلها آيات كونية ملْكٌ لله تعالى لا يتصرف فيها غيره سبحانه .

﴿ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٤﴾ ﴾ [الشورى] العلى لا تعنى أنه عَالٍ فى المكان فقط ، إنما العلى يعنى المتعالى عن كل شىء فى الوجود ﴿ الْعَظِيمُ ﴾ أيضاً لا تعنى ضخامة الحجم ، إنما العظيم بقيوميته وقدرته وصفات كماله .

﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ تَكَادُ السَّمَـٰوَاتُ .. ﴿٥﴾ ﴾ [الشورى] أى : تقترب

وتوشك ﴿يَتَفَطَّرْنَ ﴿٥﴾﴾ [الشورى] يتشققن إما هيبةً لله ومن عظمته سبحانه ، كما ورد في الحديث الشريف : « أطتْ السماء وحُقَّ لها أن تئط »(1) وإما تشققت غضباً من الذين قالوا اتخذ الله ولداً .

﴿مِن فَوْقِهِنَّ .. ﴿٥﴾﴾ [الشورى] يجوز من فوق ملائكة الملأ الأعلى ، حيث هيبة الملائكة من الله ، وتعظيمهم له سبحانه ، أو من فوق الأرض حيث البشر أصحاب الذنوب والذين قالوا اتخذ الله ولداً ، لأن الحق سبحانه ردَّ عليهم : ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾﴾ [مريم] أى : عجيباً وغريباً لا يقبله العقل ﴿تَكَادُ السَّمَـٰوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾﴾ [مريم]

فالولد إنما يُطلب إما للمعونة فى وقت الضعف والشيخوخة ، وإما لبقاء الذكْر . وهذه أمور لا تجوز ، ولا تنبغي للحق سبحانه لأنه غَنى عنها ، لذلك قال تعالى : ﴿وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَـٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾﴾ [مريم] أى : أن الحق سبحانه لو أراد أن يتخذ ولداً لفعل ، حيث لا يمنعه من ذلك مانع ، إنما جلال الله وعظمته وقيوميته تعالى لا ينبغى لها ذلك ، لا يجوز ولا يصح أنْ يكون له ولد ، ونَفْى الانبغاء يدل على الكمال .

ومثال ذلك قوله تعالى فى شأن نبيه محمد ﷺ : ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ ﴿٦٩﴾﴾ [يس] عندما اتهمه الكفار بأنه شاعر ، والمعنى : أنه لا يقول الشعر ليس لأنه عاجز عن قوله ، بل عنده أدوات الشعر ويستطيعه ، لكنه لا ينبغى أنْ يقوله ولا يصح ، لأن الله يُعده لأمر أعظم من شعركم .

---

(1) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (حديث ٢٠٥٣٩) والترمذى فى سننه (٢٢٣٤) والبيهقى فى السنن الكبرى (٥٢/٧) وعبد الرزاق فى مصنفه (٤٤٠/٩ - حديث ١٧٩٣٤) وتمامه : « ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجداً لله » .

فقوله سبحانه ﴿وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا (٩٢)﴾ [مريم] تأكيد أنه تعالى لو أراد له ولداً لفعل ، لكن هذا أمر لا ينبغى فى حقه تعالى لأنه مُنزَّه عنه ، لذلك قال فى موضع آخر : ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ (٨١)﴾ [الزخرف] يعنى : على فرض إنِ اتخذ ولداً فسأكون أول المؤمنين به .

وقوله : ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ[1] بِحَمْدِ رَبِّهِمْ (٥)﴾ [الشورى] الملائكة من الغيبيات ، والسماء والأرض من الحسيات ، فالحسيات غاضبة تكاد تتشقق من هذا القول ، أما الملائكة فيسبحون بحمد ربهم ويُنزِّهونه عن اتخاذ الولد ، وجاء التسبيح قبل التحميد ، التسبيح يعنى نفى المماثلة لأىِّ كائن مَنْ كان ، أما التحميد فيجب لله تعالى على نعمه ومنحه ، فالتسبيح أَوْلَى من التحميد ومُقدَّم عليه .

وقوله تعالى : ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ (٥)﴾ [الشورى] فهم لا يستغفرون لأنفسهم ، بل يستغفرون لمن فى الأرض ، وهذا يعنى أنهم بلا ذنوب ، ولو كان لهم ذنوب لاستغفروا لأنفسهم من باب أوْلَى . والاستغفار هنا عام لكل مَنْ فى الأرض بما فيهم الكفار .

وفى موضع آخر قال : ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا (٧)﴾ [غافر] أما هنا فقال : ﴿لِمَن فِي الْأَرْضِ (٥)﴾ [الشورى] فشمل الجميع ، والاستغفار لغير المؤمنين طلب المغفرة لهم وطلب الهداية ، وأنْ يلهمهم الله الإيمان به .

أما الحديث الشريف الذى ورد فيه : « ما من يوم تطلع فيه

---

(١) يسبحون : أى ينزهونه عما لا يجوز فى وصفه وما لا يليق بجلاله . وعن على رضى الله عنه : أن تسبيحهم تعجُّب مما يرون من تعرضهم لسخط الله . وقال ابن عباس : تسبيحهم خضوع لما يرون من عظمة الله . [تفسير القرطبى ٩/٦٠٤٦] .

الشمس إلا وينادى مُنَاد من قبَل الله تعالى يقول : اللهم أعْطِ منفقاً خلفاً ، وأعط ممسكاً تلفاً »[١]

قالوا : الدعاء بالتلف للممسك هنا لا يتعارض مع استغفار الملائكة لمن فى الأرض ، لأن المنفق يستغنى عن ماله وينفقه فى سبيل الله ، فحبه لله تعالى أعظم من حبه للمال ، أما الممسك فيحب ماله ويبخل به ، وحين يدعو عليه الملَك بالتلف فإنما ليُخلصه من مال صرفه عن الله ، فتلَفُ هذا المال نعمة أو مصيبة يُثَاب عليها .

إذن : هو دعاء بالخير فى كلتا الحالتين .

﴿ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۝ ﴾ [الشورى] قلنا : إن ألا أداة استفتاح وتنبيه ، لأن المتكلم حُرٌّ يتكلم متى شاء ، أما السامع فليس حراً فى السماع ، وقد يغفل عن سماع بعض الكلام ، لذلك ينبغى للمتكلم أنْ ينبه السامع وأن يُخرجه من غفلته ، لا سيما إنْ كان الكلام مهماً يحرص على أنْ يسمعه السامع دون أنْ يفوته منه شىء ، لذلك يقول (ألا) فى البداية يعنى : انتبه واسمع منى .

ومن ذلك قول الشاعر الجاهلى[٢] :

أَلاَ هُبِّى بِصَحْنِك فَاصْبِحِينَا   وَلاَ تُبْقِى خُمُورَ الأَنْدرِينَا[٣]

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٠١٠) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، قال النووى فى شرحه : « قال العلماء : هذا فى الإنفاق فى الطاعات ومكارم الأخلاق ، وعلى العيال والضيفان والصدقات ونحو ذلك . بحيث لا يذم ولا يسمى سرفاً . والإمساك المذموم هو الإمساك عن هذا » .

(٢) هو : عمرو بن كلثوم أبو الأسود من بنى تغلب ، شاعر جاهلى من الطبقة الأولى ، ولد فى شمالى جزيرة العرب فى بلاد ربيعة ، ساد قومه تغلب وهو فتى وعمّر طويلاً . مات فى الجزيرة الفراتية عام ٣٩ قبل الهجرة . أشهر شعره معلقته التى مطلعها البيت الذى ذكره الشيخ هنا .

(٣) البيت من قصيدة من المعلقات وهو مطلع القصيدة من بحر الوافر عدد أبياتها ١٢٥ بيتاً .

وتذييل الآية : ﴿أَلا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ⓹﴾ [الشورى] يناسب مسألة استغفار الملائكة لمن فى الأرض ويقول لك : انتبه فالذى تستغفره غفور ورحيم ، غفور يغفر الذنب ويمحو آثاره ورحيم : يعنى يرحمك بعده من الوقوع فى ذنب آخر .

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ⓺﴾

معنى ﴿مِن دُونِهِ ⓺﴾ [الشورى] أى من دون الله ﴿أَوْلِيَاءَ﴾ يوالونهم ويعبدونهم من دون الله ، كالذين عبدوا الشمس والقمر أو الشياطين أو الملائكة ﴿اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ ⓺﴾ [الشورى] يعنى : رقيب يعلم ما فعلوا ، ويحصى عليهم ما قالوا ، ويحاسبهم على هذا ويجازيهم بما يستحقون ، لأنه تعالى إليه المرجع وإليه المصير .

وما دام الأمر كذلك فلا تحزن يا محمد ، ولا تُهلك نفسك أسفاً عليهم ، فليس عليك هداهم ، إنما عليك البلاغ ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ⓺﴾ [الشورى] وكيل : فعيل بمعنى مفعول ، وما أنت عليهم بموكول أنْ يؤمنوا ، إنما عليك البلاغ وعلينا الحساب .

ومعلوم أن صيغة فعيل تأتى بمعنى فاعل مثل رحيم بمعنى راحم ، وبمعنى مفعول مثل قتيل بمعنى مقتول .

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ⓻﴾

قوله تعالى (كذلك) أى : كهذا الوحى الذى سبق ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا (٧)﴾ [الشورى] سُمى قرآناً لأنه مقروء ، وسُمِّى الكتاب لأنه مكتوب مُسطر فى كتاب ، ووصف بأنه عربى لأنه بحروف وبلسان عربى مبين ، وعربى منسوب إِلَى العرب ، وقلنا : إن اللغة ألفاظ يعبر بها كل قوم عن أغراضهم ، وأنها بنت المحاكاة ، فما سمعتْه الأذن يحكيه اللسان .

وليست اللغة جنساً ولا دماً ، بدليل أن الولد العربى لو عاش فى بيئة أجنبية يتكلم نفس لغتها ، لأن اللغة تقليد ومحاكاة تعتمد على التلقِّى والتقليد ، حتى فى لغتك التى تتكلم بها يطرأ عليك اللفظ فلا تعرف معناه ، لماذا ؟ لأنك لم تسمعه من قبل .

لذلك نقول : إن التلقين فى اللغة دليل على صدق الحق سبحانه فيما قال : ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا(٣١)﴾ [البقرة] فالله تعالى هو أول معلم للبشر ، وإلا فمَنْ علَّم آدم الأسماء والحروف والكلمات ؟

بعض المستشرقين وقف عند هذه الآية ، وقال : كيف يكون القرآن عربياً وفيه كلمات كثيرة من غير العربية ، فيه من لغة الرومان ومن لغة الفرس والحبشة ؟ ونقول : معنى ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا (٧)﴾ [الشورى] أى : نزل بكلمات دارتْ على ألسنة العرب وتُدُوولَتْ بينهم قبل نزول القرآن ، فصارت من لغتهم ، ثم كم هى هذه الكلمات بالنسبة لكلمات القرآن ؟

إذن : فالقرآن عربى ، والله تعالى يقول : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ (٤)﴾ [إبراهيم] يعنى : يتلقون عنه ويفهمون منه ، وإلا ما تم البلاغ عن الله .

فإنْ قلتَ : كيف ذلك ومحمد ﷺ مُرسَلٌ للناس كافة فى كل مكان ،

وفى كل زمان ؟ نقول : هذه مهمة أمة محمد من بعده ، أنْ تتعلم هذه اللغات ، وأن تحمل إليها دين الله فى أىِّ مكان ، لأن محمداً خاتم الرسل وآخر الأنبياء ، فلا بدَّ أن تحمل الأمة من بعده هذه المهمة ، وأنْ تسيح بها فى أنحاء العالم .

فالقرآن نزل بالعربية لأنه سبحانه اختار العرب لحمل هذه الرسالة ، وسبق فى موضع قريب أن تكلمنا عن اختيار العرب بالذات لهذه المهمة ، والحكمة من كَوْن رسول الله أمياً فى أمة أمية ، وإذا كان القرآن معجزاً للعرب بلفظه وأسلوبه ، فهو معجز لغير العرب بمعناه ، ومعجز بآياته الكونية التى تظهر للناس وتبهرهم من حين لآخر .

تصوَّروا لو أن محمداً كان متعلماً فى أمة متعلمة ذات حضارة ، ماذا كانوا يقولون ، مع كثرة الكفرة والمعاندين والملحدين ، والله لو كان الأمر كذلك لقالوا : إن الإسلام قفزة حضارية كالتى حدثتْ فى كثير من الأمم .

إذن : نقول : الأمية عيب فى كل أمى إلا فى رسول الله فهى شرف ، لماذا ؟ لأنها تعنى أنه تلقى كل علومه وكل ثقافاته من أعلى ، فهى شرف لارتقاء مصدرها إلى الحق سبحانه .

والعجيب أن من أعداء الإسلام مَنْ يقول بأن محمداً كان متعلماً ، وهو الذى كتب القرآن من عنده سبحان الله ، أأنتم متعصبون لمحمد أكثر من أتباعه ؟ والقرآن صريح فى الرد عليهم : **﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾** [العنكبوت]

وبعد هذه الأمية جاء محمد ﷺ بمنهج أخضع له حضارات العالم ، ودانتْ له أعظم حضارتين فى هذا الزمن ، حضارة فارس فى الشرق

وحضارة الروم فى الغرب ، أخضعها له لا بالقوة إنما بأساليبه ومعانيه الراقية التى تنظم حركة الحياة والمجتمع كله ، وتنظفه من كل القاذورات والسلبيات التى كانت منتشرة بين هؤلاء .

وقوله تعالى : ﴿ لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴿٧﴾ ﴾ [الشورى] الإنذار هو الإخبار بشرٍّ قبل أوانه والتخويف به قبل موعده ، والحكمة أننى حين أخوفك من الأمر قبل حدوثه أعطيك فرصة لتتجنبه .

﴿ أُمَّ الْقُرَىٰ ﴿٧﴾ ﴾ [الشورى] هى مكة ، فهى أم القرى ، أو أصل القرى ، لأن بها أول بيت وُضِع للناس ، وآدم من الناس فالبيت إذن وُضِع قبل آدم لذلك فالقول الذى قال بأن الملائكة هى التى وضعتْ هذا البيت قول صحيح .

والمراد بمن حولها : ما حول مكة من قرى وقبائل وتجمُّعات عربية ، ولأن مكة هى أم القرى وأصلها ، أخذت قريش مكان الصدارة بين قبائل العرب فى شبه الجزيرة العربية ، وكانت قريش لها شرف خدمة البيت فهم سدنته القائمون على أمره تأتيهم كل القبائل فى موسم الحج ، فتوفر لهم الأمن والحماية والمؤنة ، لذلك كانت قوافل قريش التجارية تحظى بالاهتمام والحماية فى كل أنحاء الجزيرة فى رحلتَى الشتاء والصيف .

إذن : فالبيت هو الذى منح قريشاً هذه المهابة وهذه المنزلة ، يقول تعالى : ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِيلَافِهِمْ[1] رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ﴿٣﴾ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ

---

(١) قال أبو عبيد : ألفت الشىء وآلفته بمعنى لزمته . والإيلاف : من يؤلفون أى يهيئون ويجهزون . قال ابن الأعرابى : كان هاشم يؤلف إلى الشام ، وعبد شمس يؤلف إلى الحبشة ، والمطلب إلى اليمن . [لسان العرب - مادة : ألف] .

(٤)﴾ [قريش] فسيادة قريش من سيادة البيت ومن جوارهم له وقيامهم على خدمة حجاجه ، ولو انهدم البيت لزالتْ مهابة قريش ، وفقدت هذه المكانة .

وقوله تعالى : ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لا رَيْبَ فِيهِ (٧)﴾ [الشورى] أى : تخوفهم من هذا اليوم وهو يوم القيامة والجمع فى هذا اليوم يكون من عدة وجوه : أولاً : البعث حيث يجمع بين الجسم والروح ، ويجمع الملائكة فى الملأ الأعلى بالبشر ، ويجمع الظالم والمظلوم ، والتابع والمتبوع .

ونلحظ على هذا التعبير القرآنى ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ (٧)﴾ [الشورى] أنه سكت ولم يذكر مفعول الفعل (تنذر) وهو يتعدَّى إلى مفعولين كما فى قوله تعالى : ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ (١٣)﴾ [فصلت] فذكر المخوف منه على العموم ولم يذكر مفعول أنذر لماذا ؟ لأنه سيأتى لها شرح آخر ، ففى قوله تعالى ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الآزِفَةِ ..(١٨)﴾ [غافر] أى : أنذر الكافرين وهذا مفعول أول ، ويوم الجمع مفعول ثان .

وقوله : ﴿لا رَيْبَ (٧)﴾ [الشورى] لا شك ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ (٧)﴾ [الشورى] فما دام هناك تكليف فلا بدَّ أن توجد الطاعة ، وأنْ توجد المعصية ، الطائع يُثاب والعاصى يُعاقب ، وهذه سنة حتى عند البشر فى أمور حياتهم ، بدليل أنهم جعلوا لها قانوناً للثواب والعقاب ، كذلك فى يوم الجَمْع الذى لا ريبَ فيه سيكون الناس على قسمين : فريق فى الجنة ، وفريق فى السعير .

فى اللغة أسلوب يُسمَّى أسلوب (الاحتباك) أى : الأمر المحبوك ، وهو أن يحذف من الشىء ما يدل عليه غيره على التقابل ، ومن ذلك

قوله تعالى : ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ ﴿١٣﴾﴾ [آل عمران] يعنى : أمر عجيب ﴿فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا ﴿١٣﴾﴾ [آل عمران] يعنى فى حرب ﴿فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴿١٣﴾﴾ [آل عمران] وهى الفئة المؤمنة ﴿وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ ﴿١٣﴾﴾ [آل عمران] أى : تقاتل فى سبيل الشيطان .

تأمل هذا النسق القرآنى تجده حذف الوصف (مؤمنة) لأنه دلَّ عليها قوله ﴿تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴿١٣﴾﴾ [آل عمران] وفى الأخرى ذكر الوصف (كافرة) وحذف المقابل أى تقاتل فى سبيل الشيطان ، فحذف من إحديهما ما دلتْ عليه الأخرى بالتقابل ، وهذا يُسمى الاحتباك .

وقوله تعالى : ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴿٧﴾﴾ [الشورى] تفريق بعد الجمع فى قوله : ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ ﴿٧﴾﴾ [الشورى] والتفريق بعد الجمع أسلوب آخر من أساليب القرآن ، وهناك الجمع والتفريق والتقسيم .

ومن ذلك قوله سبحانه : ﴿يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴿١٠٥﴾﴾ [هود] هذا جمع ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾﴾ [هود] هذا تفريق ، ثم يقسم ويُفصِّل القول فى كل فريق : ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ[1] ﴿١٠٨﴾﴾ [هود]

لكن لماذا هذا التفريق ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴿٧﴾﴾

(١) جذ الشىء : قطعه أو كسره أو فتته . والمجذوذ : المقطوع قال تعالى : ﴿عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾ [هود] أى : دائم غير مقطوع . [القاموس القويم ١/ ١١٩] .

[الشورى] قالوا : لأن الحق سبحانه خلق الخَلْق وخيَّرهم حين عرض عليهم الأمانة ، وهى أمانة التكليف فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً (٧٢) ﴾ [الأحزاب]

يعنى : تركنا لهم حرية الاختيار لحمل الأمانة فأشفقتْ كل المخلوقات من حملها ، فاختارت أنْ تكون مُسيَّرة يتصرف فيها ربها كيف شاء إلا الإنسان والجن ، فقد اختار حمل الأمانة .

﴿ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا (٧٢) ﴾ [الأحزاب] أى : لنفسه ﴿ جَهُولاً ﴾ بالعواقب ، لأنك قد تضمن نفسك ساعة التحمل ، لكنك لا تضمن ساعة الأداء ، فقد تحُول ظروفك بينك وبين أداء الأمانة ، فلأن الإنسانَ اختار حملَ الأمانة واختار الاختيار كان لا بدَّ أنْ يسأل عن أمانته ، وأنْ يحاسب عليها ، أحفظَ أم ضيَّع ، وكان لا بدَّ له من دار جزاء وحساب ، ففريق فى الجنة وفريق فى السعير .

﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٨) ﴾

يعنى : لا تتعجب من أمر الله ، فله المشيئة المطلقة فى خَلْقه ، ولو كانت مشيئته مشيئة قَهْر ما استطاع أحدٌ الخروجَ عليها ، ولكانَ الناسُ جميعاً مؤمنين ، لكن فَرْقٌ بين الإيمان عن قهر وإجبار ، والإيمان عن حب واختيار .

الحق سبحانه لا يريد منا القوالب الجامدة ، إنما يريد القلوب المحبَّة ، يريدها طواعية مختارة ، وسبق أنْ مثَّلنا لذلك ولله المثل

الأعلى برجل عنده عبدان أحدهما حُر طليق ، والآخر مربوط إلى سيده بحبل ، فحين ينادى السيد يأتيانه ويجيبان نداءه ، فأيهما أطوَعُ وأيهما مُحِبٌّ ؟

الحق سبحانه وتعالى حين عرض الأمانة على الخَلْق كله وخيَّرهم أثبت الجانبين القهر والقدرة وأثبت المحبة ، أثبت القدرة والقهر فى أنْ جعل خَلْقاً من خَلْقه هو السموات والأرض وكل الكائنات عدا الإنس والجن تأتى طائعةً مؤمنةً ، وتتنازل عن اختيارها لاختيار ربها وخالقها . ثم أثبت الحب فى اختيار الإنس والجن ، لأنهم آمنوا حباً وكانوا يقدرون على الكفر .

﴿ وَلَـٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ ﴿٨﴾ ﴾ [الشورى] وهم المؤمنون يُدخَلون الجنة بفضل الله وبرحمته لا بأعمالهم ، فالأعمال سبب فى دخول الجنة . وفى المقابل ﴿ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾ ﴾ [الشورى] يعنى : سيدخلون النار ، لأن الفريق الذى دخل الجنة دخلها بفضل الله ورحمته ، وهؤلاء ظالمون ، والظلم جزاؤه النار .

﴿ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ ﴿٨﴾ ﴾ [الشورى] يعنى : قريب يُواليهم ويدفع عنهم ﴿ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾ ﴾ [الشورى] ينصرهم ولو من بعيد ، يراهم مغلوبين ، فيحنّ عليهم وينصرهم .

ثم يبيِّن الحق سبحانه علَّةَ ذلك ، وأنهم أعرضوا عن عبادة الله الواحد الأحد ، واتخذوا من دونه أولياء فاستحقوا هذا الخذلان :

﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾ ﴾

بعد أنْ قرر الحق سبحانه أن الظالمين ما لهم من ولى ولا نصير يسوق هذا السؤال : ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ۝٩﴾ [الشورى] هل لهم أولياء لا نعلمهم ، فالاستفهام هنا للنفى والإنكار ، وما داموا ليس لهم أولياء فلماذا لم يتخذونى ولياً لهم ، أو يكون المعنى : بل اتخذوا من دونه أولياء ، وعليهم أن يتفكروا فى ذلك ، وأنْ يراجعوا أنفسهم .

﴿فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ ۝٩﴾ [الشورى] الولى الحق لمَنْ أراد ولياً وناصراً ﴿وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٩﴾ [الشورى] جاء هنا بصفتين لا يستطيعهما أحد من أوليائهم إحياء الموتى والقدرة ، وهذه الصفات الخاصة به سبحانه نجدها فى القرآن دائماً مقرونةً بضمير الفصل للتأكيد على أنها لله وحده لا يشاركه فيها غيره ، لذلك قال : ﴿فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٩﴾ [الشورى]

وقال سبحانه : ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ۝٤٣ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ۝٤٤﴾ [النجم] فهذه أفعالٌ لا يقدر عليها إلا الله وحده ، فمعنى أضحك وأبكى أوجد فيك غريزة الضحك وغريزة البكاء ، بدليل أنها موجودة فى كل بنى آدم وفى كل الجنسيات ، الضحك واحد عند العرب ، وعند الهندى ، وعند الروسى ومثله البكاء فهى إذن غريزة ، وكذلك مسألة الحياة والموت هى لله وحده لا يقدر عليها أحدٌ سواه .

وفى قصة سيدنا إبراهيم يقول وهو يُعدِّد نعمَ الله عليه : ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ۝٧٨ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ۝٧٩ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۝٨٠ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ۝٨١﴾ [الشعراء]

ففى الأمور التى فيها شبهة فعْل لغير الله يأتى بضمير الفصل (هو) لتأكيد أن الفعل لله وحده كما فى ﴿فَهُوَ يَهْدِينِ ۝٧٨﴾ [الشعراء] لأن الهداية قد تأتى على يد أحد من البشر ، وفى ﴿يُطْعِمُنِي

وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ [الشعراء] فالأب مثلاً قد يظن فيه أنه الذى يُطعمنى ويَسْقِين ، كذلك فى ﴿يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾﴾ [الشعراء] لأن الطبيب قد يظن البعض أن بيده الشفاء ، أما فى الأفعال التى لا شبهة لتدخّل أحد فيها فيأتى بها دون توكيد لأنها خالصة لله تعالى دون منازع ﴿وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾﴾ [الشعراء]

وإحياء الموتى يُراد به البعث فى الآخرة ، وقد رأينا مثالاً له فى الدنيا كقصة العُزَير[1] التى حكاها القرآن : ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾﴾ [البقرة]

ذلك لأن الشعور بالزمن يأتى من الأحداث ، فحين تنعدم الأحداث ينعدم الشعور بالزمن ، لذلك لما مات عُزير مائة عام قال لما أحياه الله : لبثتُ يوماً أو بعض يوم ، فأراد الحق سبحانه أنْ يُثبتَ له صدقه فى يوم أو بعض يوم بنظره إلى طعامه الذى كان معه حيث وجده كما هو لم يتغير ولم يتلف ، وأن يثبت صدق الحق سبحانه فى المائة عام ، فقال له : انظر إلى حمارك وكيف صار عظاماً بالية ، وهذا لا يحدث إلا فى مائة عام .

وقوله تعالى : ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾﴾ [الشورى] دلتْ

(١) كان عزير عبداً صالحاً حكيماً ويقول ابن كثير فى قصص الأنبياء : « المشهور أن عزيراً من أنبياء بنى إسرائيل وأنه كان فيما بين داود وسليمان وبين زكريا ويحيى وأنه لما لم يبق فى بنى إسرائيل من يحفظ التوراة ألهمه الله حفظها فسردها على بنى إسرائيل فأتاهم بالتوراة من غير كتاب فادعوا أنه ابن الله » .

على طلاقة القدرة لله تعالى ، وهذه القدرة مُشاهدة فى آياته الكونية فى السموات وفى الأرض وفى الأنفس ، كلها تشهد لله بالقدرة المطلقة .

نعم ، الله على كل شىء قدير وقد أرانا نماذجَ من إحياء الموتى فى الدنيا لنأخذ منها دليلاً على صدقه تعالى فى إحياء الموتى فى الآخرة ، مرت بنا قصة إحياء العزير الذى أماته الله مائة عام .

نموذج آخر فى قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (٢٤٣) ﴾ [البقرة]

ومن عظمة الحق سبحانه وقدرته على كل شىء أنْ يُعدى إلى خلقه شيئاً من قدرته ، فيجعل مثلاً سيدنا إبراهيم قادراً على إحياء الموتى بإذن الله ، القوى من البشر مثلاً حين يرى ضعيفاً يعينه ويعدى إليه أثر قوته فيحمل له متاعه ويظل الضعيف ضعيفاً .

أما الحق سبحانه فإنه حين يُعدِّى قوته إلى عبده يجعله يفعل بنفسه وينقل إليه شيئاً من قدرته ومن صفاته تعالى فتصير القوة فيك ذاتية . تعرفون قصة سيدنا إبراهيم لما أراد أنْ يرى عملية إحياء الموتى بنفسه فطلب من ربه ذلك : ﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي (٢٦٠) ﴾ [البقرة]

يعنى : يا رب أنا مؤمن ومصدِّق لكن أريد الاطمئنان ، أريد الترقى إلى مرتبة أعلى فى الإيمان ، بعض المستشرقين يقولون فى التعليق على هذه الآية : هل الإيمان غير اطمئنان القلب ؟ وما دام طلب اطمئنان القلب فالإيمان إذن ناقص .

نقول : سيدنا إبراهيم عليه السلام لم يقُلْ : رب هل تحيى

الموتى أم لا ؟ لقد قال : ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ (٢٦٠)﴾ [البقرة] فهو مؤمن بإحياء الله للموتى ومُصدِّق بقدرة الله على ذلك ويريد أن يعرف الكيفية ، فالاطمئنان للكيفية لا لإثبات الصفة لله تعالى ، كما لو قلتُ لك : كيف بنيتَ هذا المسجد ، هل أنا أشكّ فى بنائه ؟ لا فهو موجود بالفعل لكن أريد أن أعرف الكيفية .

لذلك الحق سبحانه ردَّ على نبيه إبراهيم رداً منطقياً ، فكيفية إحياء الموتى لا تُعرف بالكلام إنما بالفعل والممارسة ، فجعله يمارس هذا الفعل بنفسه ويزاول عملية إحياء الموتى ويعاينها ﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ [1] إِلَيْكَ (٢٦٠)﴾ [البقرة] يعنى : تأكد منهن ومن علاماتهن ثم اذبحهن ﴿ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ .. (٢٦٠)﴾ [البقرة] إذن : أنت الفاعل بنفسك ، وهذه من عظمة الخالق سبحانه .

إذن : ﴿وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ (٩)﴾ [الشورى] يعنى : عملية مقصورة عليه سبحانه ، حتى وإنْ عداها لمن يشاء من عباده فهو صاحبها ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٩)﴾ [الشورى] تجد بعض المخلوقات لها قدرة كما فى بعض البشر مثلاً ، أو بعض الملائكة التى اتخذوها من دون الله ، لكنها قدرة محدودة فإنْ قدرتْ الملائكة مثلاً على فعل شىء عجزتْ عن أشياء ، أما الحق سبحانه فقدرته مطلقة لا يعجزها شىء ، قدرة كاملة على كل شىء .

﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (١٠)﴾

---

(١) فصرهن إليك : أى : قطعهن وضمهنَّ إليك . [القاموس القويم ٣٨٦/١] .

الاختلاف هو عدم التقاء الآراء فى قضية ما ، وينقسم الجمع إلى فريقين أو أكثر ، كُلٌّ يؤيد رأيه ويعارض رأى الآخر ، ويقابله الوفاق والآراء تختلف إما فى نقاش جاد مُثمر يُراد منه الوصول للحقيقة ، وإما جدل ولجاجة لا فائدةَ منها ومراءٌ بالباطل .

لذلك يُعلمنا الحق سبحانه ماذا نفعل حين نختلف ، أنْ نردَّ الأمر والحكم لله ، لذلك لما اختلفوا مثلاً فى الروح وسألوا عنها رسول الله ﷺ أنزل الله تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴿٨٥﴾ ﴾ [الإسراء]

كذلك علَّمنا الحق سبحانه أدبَ الخلاف وألاَّ نتعجل فى الحكم ، وأن نبحثه بموضوعية ، فقد يكون المختلفون متفقين فى واقع الأمر وهم لا يعلمون وجه هذا الاتفاق ، ففى غزوة الأحزاب بعد أن عادت قريش إلى مكة ، واليهود إلى أماكنهم أخبر الحق سبحانه نبيه ﷺ أن اليهود هم سبب هذه الحرب ، وأصل هذه البلوى ، فاذهب إليهم ولا تخلع لباس الحرب ، فذهب رسول الله إلى جيشه العائد من الحرب وقال لهم : « مَنْ كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يصلين العصر إلا فى بنى قريظة »[1] .

يريد الحرب ، فعاد الصحابة وتوجَّهوا إلى بنى قريظة ، فدخل عليهم وقت المغرب وهم فى الطريق فاختلفوا فى صلاة العصر ، فريق يقول يجب أن نصليها الآن قبل فوات وقتها ، وفريق يقول : لا بل نصليها فى بنى قريظة كما أمر رسول الله .

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٤١١٩) وكذلك مسلم فى صحيحه - كتاب الجهاد والسير (ح ٦٩) من حديث ابن عمر رضى الله عنهما أن النبى ﷺ نادى فيهم يوم انصرف عنهم الأحزاب : « ألا يصلين أحد الظهر إلا فى بنى قريظة » وفى لفظ « العصر » .

إذن : رأى تعصَّب للزمـان ، ورأى تعصَّب للمكان ، فـمَنْ تعصَّب للزمان صلى فى الطريق ومن تعـصَّب للمكان صلى فى بنى قريظة ، حتى إذا ما الـتقوْا برسول الله عرضـوا عليه هذا الخلاف ، فـأقرَّ كلاًّ منهم على رأيه ، ولم يعارض هذا ولا ذاك.

إذن : كان اختلافاً شكليـاً ، وهم لا يدرون أنهم جميعاً على الحق ، وأنهم فى وفاق ، إذن : حين نخـتلف علينا أنْ نردَّ الأمر إلى الله وإلى رسول الله ، وأنْ نكون مـوضوعـيين دون تعصُّب ، هـذا فى الخلاف بين المؤمنين .

كذلك إنْ كان الخلاف مع أهل الكتـاب اليهود أو النصارى ، رُدُّوا خلافكم معهم إلى الله ، لأن عندهم كتـباً سماوية : التوراة والإنجيل ، وفيها تصديق بمحمد خاتم الرسل ، وفـيها بشارة به ، وفيها صفاته وعـلاماتـه ، بدليل أن منهم مَنْ آمن بعد بعـثـة رسول الله ، فـرُدوا خلافكم معهم إلى الله لتقطعوا عليهم طريق اللجج والعناد والخصومة .

ومعنى ﴿ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ⟨١٠⟩ ﴾ [الشورى] وأيضاً إلى رسول الله لأنه نائب عن الله فى الأحـكام ، وقـد أعطاه الله حَقَّ التـشـريع بدليل قوله تعالى : ﴿ وَمَـا آتَاكُـمُ الرَّسُـولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ⟨٧⟩ ﴾ [الحشر] وهذه مَيزة لم ينَلْها أحـدٌ من الرسل قبل رسـول الله ، حيث كان عليهم البلاغ فقط ، أما سيدنا رسـول الله ﷺ فقد فوّضـه ربه فى التشـريع . لذلك لما قـال أحد المـجادلين : ما الدليل عـلى أن الصبح ركعتـان ، والظهر أربع ، والمغرب ثلاث ؟ قال : الـدليل قوله تعالى : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ⟨٧⟩ ﴾ [الحشر]

وكوْنك تحكِّم الحق سـبحانه فى مـسألة خلافـية وتعرضـها على قول الله وقول رسـول الله ، هذه الرجعة تُنهى الخلاف وتُنهى المراء ،

ولا غضاضةَ على أحد أنْ يحتكم إلى قوة أعلى تلتقى عليها القلوب فى صفاء ورضا بحكمه تعالى ، الأ تَرى أن الحكم عليك إنْ جاء من بشر مثلك ربما لا تقبله حتى لو كان صواباً ، أما حين يكون الحكم لله فلا غضاضةَ ولا حرج .

﴿ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴿١٠﴾ ﴾ [الشورى] ﴿ ذَٰلكم ﴾ اسم إشارة للتعظيم ، فـ ﴿ ذا ﴾ إشارة ، واللام للبُعْد ، والكاف للخطاب ﴿ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّى ﴾ تقولها وأنت فخور بها ، مُعتز بالانتساب إليه سبحانه ، وكأنه شىء عالٍ فوق كل تصورٌ ، والرب قلنا : هو الذى يتولَّى التربية والعطاء ، ومنه الفضل والإنعام ، وعليه أتوكل فى كل أمرى ﴿ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ ﴾ [الشورى] أرجع وأعود فى الآخرة للحساب والجزاء .

وحين أقول ﴿ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّى ﴿١٠﴾ ﴾ [الشورى] فأنا معتز بالربوبية التى تُربى وتعطى ، ومعتز بالألوهية التى تكلف ، لأن التكليف من تمام التربية ، ومقتضى تربيتى أن تكون دنياى سعيدة ، لكن الدنيا موقوتة ومنتهية ، فالتربية الحقة إذن أنْ أربيك لشىء أبقى وأدوم وهى الآخرة التى لا ينقطع نعيمها ولا أغادرها بموت ولا تغادرنى بفناء .

البعض يقول : التربية هنا للمادة ، نقول : للمادة وللقيم والروح أيضاً ، لذلك يقول تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الأنفال] ما معنى (يحييكم) هنا ألم يخاطبهم وهم أحياء يسمعون ؟ إذن : المراد حياة أخرى غير حياة المادة ، المراد حياة القيم والروح ، الحياة الخالدة التى لا تفوتك ولا تفوتها .

لذلك يُسمَّى المنهج الذى يمنحك هذه الحياة روحاً قال تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا (٥٢)﴾ [الشورى] نعم روحاً ، تعطيك الحياة الأبدية أما الروح الأولى فتعطيك فقط الحياة الدنيا ، ويُسمى كذلك الملك الذى ينزل بالمنهج روحاً : ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣)﴾ [الشعراء]

إذن : نفهم أن الحياة المطلوبة ليستْ هى الحياة الدنيا ، إنما الدنيا وسيلة وأداة مُوصِّلة إلى غاية أفضل منها ، ولكى أصل إلى هذه الغاية ينبغى علىَّ أنْ أستقيم على منهج مَنْ سيعطينى هذه الحياة .

إذن ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي (١٠)﴾ [الشورى] جمعت بين لفظ الألوهية والعبادة والتكليف وبين لفظ الربوبية التى تُربِّى وتعطى وتمنح .

وتأمل آداء القرآن فى مسألة التوكل (عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ) أهل اللغة يسمون هذا الأسلوب أسلوبَ قصر بتقديم الجار والمجرور (عَلَيْهِ) مُقدَّم على الفعل (توكَّلْتُ) وهذا يفيد القصر والحصر ، فتوكّلى على الله لا على سواه على الله فحسب ، أما لو قلت : توكلت على الله يجوز أنْ تزيد عليها : وعلى فلان . فأسلوب القصر يقصر التوكل على الله وحده .

قالوا : والتوكل على الله رصيدُ مَن فقد الأسباب وخرج من حَوْله وقوته إلى قوة ربه وخالقه ؛ لأن الله تعالى جعل لكل شىء أسباباً ، فإذا عزَّتْ الأسباب نلجأ إلى المسبِّب سبحانه : ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ (٦٢)﴾ [النمل]

والمضطر هو الذى استنفد كل الأسباب المتاحة ، وعندها لا يُسلِم نفسه للأحداث ولا ييأس ، إنما يقول : إن لى رباً فوق الأسباب ،

فهو خالقها ومُسببِّها ولن يتخلى عنى حين ألجأ إليه .

وسبق أن ذكرنا لكم قصة سيدنا موسى عليه السلام لما أدركه فرعون وجنوده وحاصروهم عند شاطىء البحر ، حتى قال أصحاب موسى ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١)﴾ [الشعراء] فواقع الأحداث أن البحر أمامهم والعدو خلفهم ولا مفرّ ، لكن لموسى مع ربه حسابات أخرى ، فقال رداً عليهم : ﴿قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢)﴾ [الشعراء]

وهذا هو التوكل الذى يعتمد على الثقة بالله ، توكل المضطر الذى عزَّتْ عليه أسبابه ، ولم يَبْقَ له إلا أنْ يلجأ إلى الله ، لذلك جاء الجواب من الحق سبحانه معجزةً خالدة باهرة : ﴿أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣) وَأَزْلَفْنَا[1] ثَمَّ الآخَرِينَ (٦٤) وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ (٦٥) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ (٦٦)﴾ [الشعراء]

كذلك فى ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (١٠)﴾ [الشورى] أسلوب قصر بتقديم الجار والمجرور على الفعل يعنى : أرجع إليه وحده لا إلى أحد سواه . وتلحظ على الأسلوب هنا أن التوكل جاء بصيغة الماضى ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ (١٠)﴾ [الشورى] أما الإنابة فجاءت بصيغة المضارع ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (١٠)﴾ [الشورى] هذه الدقة فى التعبير ، لأن المتكلم بهذا الكلام هو الله .

فطبيعى أن تجد هذه الحبكة والدقة اللغوية ، ذلك لأن التوكل

---

(١) ﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخَرِينَ (٦٤)﴾[الشعراء] أى قرَّبنا من موسى وقومه هناك الآخرين وهم فرعون وقومه ليطمعوا فى إدراكهم فيدخلوا البحر مثلهم ليغرقوا . [القاموس القويم ١/ ٢٨٨] .

عقيدة راسخة من أول الأمر وقبل أنْ تتكلم فى التوكل ، فهو ناشئ أولاً وموجود ، أما الإنابة إليه والرجوع فيكون وقت الحدث فى المستقبل حينما نرجع إليه سبحانه .

ثم يتحدث عن حيثية أخرى من حيثيات قدرته تعالى وأنه هو الولى الحق :

﴿ فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾ ﴾

وقال تعالى فى أول سورة فاطر : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿١﴾ ﴾ [فاطر] الفاطر هو الخالق الذى يخلق الشئ على غير مثال سابق ، ولا نموذج يُحتذى ، كما يحدث مثلاً فى عالم الصناعة الآن ، فهناك دول متقدمة صناعياً فتأتى دول أقلّ منها تأخذ صناعاتها وتُقلِّدها وتصنع على مثالها ، صحيح تُطوِّر فيها وتُجدِّد وتضيف لكن للدولة الأولى السَّبْق فى النموذج الأول .

فمعنى ﴿ فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿١١﴾ ﴾ [الشورى] خالقهما ومبدعهما على غير مثال سابق ﴿ جَعَلَ لَكُم ﴿١١﴾ ﴾ [الشورى] دلتْ على أن كل الأشياء مخلوقة لخدمة بنى آدم هذا الخليفة الذى استخلفه الله فى الكون ؛ لذلك ورد فى الحديث القدسى : « يا ابن آدم خلقت الأشياء من أجلك ، وخلقتُك من أجلى ، فلا تنشغل بما هو لك عما أنت له »(١) .

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٤/٢٣٨) : « ورد فى بعض الكتب الإلهية : يقول الله تعالى : ابن آدم خلقتك لعبادتى فلا تلعب ، وتكفلت برزقك فلا تتعب ، فاطلبنى تجدنى ، فإن وجدتنى وجدت كل شئ ، وإن فتُّك فاتك كل شئ ، وأنا أحب إليك من كل شئ » وقد أخرج أحمد فى مسنده (٢/٣٥٨) عن أبى هريرة رفعه : « قال الله : ابن آدم تفرغ لعبادتى أملأ صدرك غنىً وأسدُّ فقرك وإلا تفعل ملأت صدرك شغلاً ولم أسد فقرك » .

وقوله تعالى : ﴿ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا (١١) ﴾ [الشورى] يراد بالأزواج هنا الذكورة والأنوثة ، كما في قوله تعالى : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ (٣٦) ﴾ [يس]

وهذه حقيقة أثبتها العلم الحديث أن الزوجية موجودة في كل شيء حتى في الجمادات ، فَهِمْنَاهَا في الموجب والسالب في الكهرباء ، ورأيناها في ذرات المادة ، قديماً كانوا يعرفونها في الأحياء في الإنسان والحيوان والنبات ، وبالتقدم العلمي وجدناها في كل شيء خلقه الله .

وهذا دليل صِدْق قوله تعالى : ﴿ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ (٣٦) ﴾ [يس]

ومن عجائب الخلق في هذه المسألة أنْ ترى نباتاً يحمل خصائص الذكورة وآخر للأنوثة ، ويتم التلقيح بينهما عن طريق الهواء أو الفراشات مثلاً ، وفي نبات آخر تجد فيه خصائص الذكورة والأنوثة معاً في شجرة واحدة ، فشجرة الجميز مثلاً منها ذكر وأنثى والنخل كذلك ، أما شجرة المانجو فهي واحدة تُلقَّح نفسها ، ومثلها سنبلة القمح وعود الذرة ، فهذه كلها تُلقِّح نفسها ، لأن فيها عناصرَ للذكورة وأخرى للأنوثة في نفس النبات .

ومعنى ﴿ مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا (١١) ﴾ [الشورى] يعني : من نفس النوع ومن نفس جنسكم ، والطبيعة تجذب كلاً من النوعين الذكر والأنثى إلى الآخر فيحدث تعايش بينهما ينشأ عنه غريزة هي غريزة الجنس ، وهذه يصاحبها متعة . ومن التقاء الذكر والأنثى يحدث

النسل ، فالإنسان أخذها للنسل وللمتعة معاً ، أما الحيوان فأخذها للنسل فقط ، فترى الذكر منجذباً إلى الأنثى حتى يحدث الحمل ، بعدها لا يقربها .

أما الإنسان فغير ذلك ، الإنسان أخذها متعة وبعد ذلك يتهم الحيوان ويقول : شهوة بهيمية ، هى فى الواقع شهوة إنسانية ، فلِمَ نظلم البهائم ؟

ومن نعمه تعالى على خَلْقه أنْ جعل الأزواج من جنس واحد ليتم التوافق والانسجام بين النوعين ويحدث التناسل وبقاء النوع ؛ لذلك امتنَّ الحق سبحانه على أمة محمد ﷺ بأن جعل لهم رسولاً من أنفسهم يحمل إليهم منهج الله ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ[1] حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة]

نفهم من ذلك حرص الإسلام على الحياة الأسرية ، وأن هذه الحياة ينبغى أن يسودها الوُدّ والوفاق والأُنْس ، وأنْ تُبنى على المحبة ، لذلك قال سبحانه : ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴿٢١﴾﴾ [الروم]

والأزواج جمع زوج ، وزوج لا تعنى الاثنين كما يفهم البعض ، إنما تعنى (فَرْدا) معه مثله ، كذلك كلمة توأم .

﴿وَمِنَ الأَنْعَامِ أَزْوَاجًا ﴿١١﴾﴾ [الشورى] سبق فى سورة الأنعام : ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ

---

(١) العنت : المشقة . وقال أبو إسحاق : العنت فى اللغة المشقة الشديدة . ومعنى (عزيز عليه ما عنتم) أى : شديد عليه ما وقعتم فيه من المشقة . [لسان العرب – مادة : عنت] .

﴿الإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ ..(١٤٤)﴾ [الأنعام]

إذن : ما دام قال لنا ثمانية أزواج ، ثم عدّد أربعة فكلٌّ نوع مكوَّن من زوجين زوج وزوج ﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ (١١)﴾ [الشورى] أى : فى الجعل ويذرؤكم يعنى يكثركم ، نلحظ أنه تعالى لم يقُلْ يذرأكم به يعنى : يُكثركم بالجعل ، إنما ﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ (١١)﴾ [الشورى] وفيه تأتى بمعنى بسببه .

كما فى الحديث الشريف « دخلتْ امرأةٌ النارَ فى هِرَّة حبستْها »(١) يعنى : بسبب هرة ونقول مثلاً لما واحد فتوة يعمل جريمة نقول (أهو راح فيها) يعنى : بسببها .

وقوله تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ (١١)﴾ [الشورى] له مناسبته هنا ، فلما تكلم الحق سبحانه عن الأزواج فى كل شىء أراد سبحانه أن يُنزِّه ذاته تعالى عن هذه المسألة ، فقال ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ (١١)﴾ [الشورى] ولنفى المماثلة نقول : ليس مثله شىء ، أما هنا فقال : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ (١١)﴾ [الشورى]

إذن : جعل لنفسه مثلاً ، لأن العرب تنطق بالمثل وتريد به الإنسان نفسه ، فإذا حدث من شخص أمرٌ ما يقولون له : مثلك لا يفعل هذا ، يعنى : أنت لا يصح أنْ تفعله ، لأن مثلك لا يفعله ، مثلك

---

(١) عن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال : « دخلت امرأة النار فى هرة ربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض » أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٣١٨) قال ابن حجر فى الفتح (٦/٣٥٧) : « المراد (بخشاش الأرض) هوام الأرض وحشراتها من فأرة ونحوها » .

لا يجبُنُ عند الحـرب ، لكن لماذا لا يقولون أنت لا تجـبن عند الحرب وأتى بالمثل ؟

تأمَّل هنا المـرحليـة اللغوية ، حـين تقـول : زيد مثل الأسـد هذا يعنى أنه دون الأسد ، فأنت شبَّهـته بالأعلى فى الصفة . إذن : المثل أقلّ من الأصل ، ولو فُرض أن الحق له مثل لا نقول : إن الله له مثل لأن مثله أدنى منه . إذن : لا مِثْلَ له ، وهذا معنى قول الشاعر[(١)] :

وَلَمْ أَقُـلْ مِثْلَكَ أَعْـنِى بِـــه   سِـــوَاكَ يَا فَرْداً بِلاَ مُشْبِهِ[(٢)]

إذن : الأسلوب هنا فى نفى المـثليـة أن يقول ليس مـثله شىء ، إنما أراد سبــحانه أن يؤكـد هـذه المسـألة ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ⑪﴾ [الشورى] يعنى : لو كان هناك مثل لله لا يكون له شبه ، فكيف بالله تعـالى ؟ وكلمـة ﴿شَيْءٌ ⑪﴾ [الشـورى] تطلق على جنس الأجناس يعنى : كل ما يُقال له شىء فكل ما يُطلق عليه شىء ليس كمثله .

﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ⑪﴾ [الشورى] أتى هنا بصفـتين شركة بين الحق سبحانه وبين خَلْقه ، فأنت تسمع والله يسمع ، وأنت تبصر والله يبـصر ، لكن ينبـغى أن نأخذ هذه الصـفات لله تعـالى فى إطار ﴿لَيْسَ كَمِـثْلِهِ شَيْءٌ ⑪﴾ [الشـورى] فليس السـمع كـالسـمع وليس

---

(١) هو أبو الطيب المـتنبى أحـمـد بن الحـسين ، ولـد بالكوفة (٣٠٣ هـ /٩١٥ م) شاعـر حكيم ، نشأ بالشام ثم تنقل فى البادية ، قال الشعر صبياً ، تنبأ فى بادية السماوة ، وأُسِر وسُجن حـتى تاب ورجع ، مدح سـيف الدولة بن حمـدان صاحب حلب ، قُـتل ببغـداد عام (٣٥٤هـ/٩٦٥م) عن ٥١ عاماً .

(٢) البيت مـن قصيـدة للمتنبى من بـحـر السـريع ، عدد أبيـاتها ٣٥ بيـتاً ، وهذا هو الأخـير فيها .

البصر كالبصر . معنى ﴿ السَّمِيعُ (١١) ﴾ [الشورى] أي : للأصوات ﴿ الْبَصِيرُ (١١) ﴾ [الشورى] للمرئيات .

وفي موضع آخر يقول سبحانه : ﴿ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (٧١) ﴾ [المائدة] فالسمع نفسه عمل ، والقول عمل والبصر عمل ، وسبق أن أوضحنا أن العمل قول وفعل ، والقوْلُ خاصٌّ باللسان ، والفعل يشمل عمل كل الجوارح عدا اللسان ، وبذلك يكون اللسانُ وحده قد أخذ شطر العمل ، لأن القول به البلاغ ، وبه إعلان الإيمان ، وبه يُعبِّر المرء عن نفسه .

وهذه الآية ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ (١١) ﴾ [الشورى] تُعلِّمنا كيف نُنزِّه الله تعالى عن كل شبيه أو نظير أو مثيل ، وتُعلِّمنا أن نأخذ كل وصف مشترك بين الحق وبين الخلْق في هذا الإطار الإيماني .

ولِمَ لا ونحن حتى في صفات البشر نتفاوت ، وفي إمكانياتنا نتفاوت ، فتجد مثلاً (شيخ الغفر) له بيت و (مصطبة) لاستقبال الضيوف ، وشيخ البلد والعمدة كل واحد له بيت وله مصطبة أو حجرة جلوس على قدره ، أما المأمور مثلاً فهو أعلى من هؤلاء جميعاً ، وعنده ما ليس عندهم ، هذا تفاوت بين البشر ، فما بالك بالصفات المشتركة بيننا وبين ربنا عز وجل ؟

﴿ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ (١٢) ﴾

أولاً : لاحظ هنا أسلوب القصر في ﴿ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ (١٢) ﴾ [الشورى] بتقديم الجار والمجرور ، فمقاليد السموات والأرض له وحده وملْكه وحده ، ومقصورة عليه سبحانه لا يشاركه فيها أحد .

كلمة ﴿ مَقَالِيدُ (١٢) ﴾ [الشورى] جمع مقلاد وهو المفتاح ؛ لذلك قال تعالى في موضع آخر ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ ..

(٥٩)﴾ [الأنعام] فله سبحانه مفاتيح الخير فى السموات وفى الأرض ، ومعنى مفاتيح أنها تغلق على شىء نافع ومفيد .

والغيب خزينة من هذه الخزائن المغلقة ، فحين يعطى الله مفتاحها لأحد ويُطلعه على شىء من الغيب يُجريه على لسانه مكرمة وفضلاً منه تعالى عليه ، ولا يعنى هذا أنه أصبح عالماً للغيب ويفتح مكتبَ علم الغيب ، بل يأخذ حاجته التى أكرمه الله بها ويعطى المفتاح لصاحبه ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ .. (٥٩)﴾ [الأنعام] فمَنْ يدَّعى علم الغيب لا يعرف كيف يتأدب مع الله .

ونحن نستخدم هذه الكلمة (مَقَاليد) فى لغتنا العامة الآن فنقول : فلان بيده مقاليد الحكم أو مقاليد الأمور فى الشركة أو المصنع ، يعنى : هو المسئول الذى يملك القرار وبيده مفاتيح العمل وأسراره .

وقوله تعالى : ﴿ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ .. (١٢)﴾ [الشورى] أى : هنا بمفتاح ومقلاد من هذه المقاليد هو مفتاح الرزق ، يبسطه سبحانه لمن يشاء ويُوسعه ويُيسِّره ، وأيضاً يقبضه ويُضيقه على مَنْ يشاء من عباده ، والمقاليد على الأرزاق تشرح لنا قوله تعالى : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ (٢١)﴾ [الحجر] يعنى : بسط الرزق أو يقبضه بعلم وبقدر وبحكمة .

لا تظن أن الأرزاق توزع هكذا كما اتفق لا ، لأن الموزِّع لها عليم بخَلْقه وخبير بأسرارهم وخفاياهم ، حكيم يضع الشىء فى موضعه ، لذلك لا تتعجب حينما ترى الغنى المترف الذى يملك الملايين وجاره لا يجد قوت يومه ، لا تتعجب حينما ترى مثلاً أصحاب المحلات

التجارية ، هذا يبيع ويشترى وعنده رزق وفير وبجواره محل مثله لا يدخله أحد ، لا تتعجب لأن وراء هذا وذاك حكمة عرفها مَنْ عرفها وجهلها مَنْ جهلها .

ويكفى أنْ تقرأ : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ ﴾ [الحجر] وهنا ذيَّل الآية بقوله : ﴿ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾ [الشورى] يعلم مَنْ يعطى ومن يمنع ، ولذلك يقول سيدنا رسول الله ﷺ وهو يجلى لنا هذه الحِكَم ، يقول : قال الله عزوجل فى الحديث القدسى : « إن من عبادى مَنْ إذا أغنيته لَفسد حاله ، ومنهم مَنْ إذا أفقرتُه لصلح حاله »(١) .

والحق سبحانه يقول : ﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ﴿٦﴾ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴿٧﴾ ﴾ [العلق]

ففَقْر الفقير لحكمة ، والغنَى عند الغنى لحكمة ، فلا تعترض وتأمل فربما كان المال عندك أداة سطو وبطش وتعدٍّ وطغيان ، وربما دعاك المال إلى العصيان أو ولَّد عندك نزوعاً للشر ، فحين يمنعك الله هذه الأداة فإنما منعك ليرحمك بالفقر ، فالغنَى لا يناسبك ، وصلاحك فى الفقر ، وفى شىء من الرضا بما قَسَمَه الله لك ، وألاَّ تمدّ عينيك إلى مَنْ هو أعلى منك فى متاع الدنيا وزخرفها .

كثيراً ما نرى أولاد الأغنياء فاسدين بسبب كثرة المال فى أيديهم ،

---

(١) أخرجه البيهقى فى (الأسماء والصفات) (ص ١٢١ - مصر) والبغوى فى شرح السنة (١٤٢/١) وأبو بكر الكلاباذى فى مفتاح المعانى (١٩٠) . وأورده الألبانى فى السلسلة الضعيفة والموضوعة (٢٥٦/٤) وقال : ضعيف جداً . وأوله : « من أهان لى ولياً فقد بارزنى بالمحاربة » الحديث بطوله .

فى حين تجد ابن الفقير مُعَافى من هذا ، وربما يكون أحسنَ حالاً من ابن الغنى ، وفى واقعنا نماذج كثيرة من ذلك .

والمؤمن مُطَالب أن يعيش فى حدود إمكانياته المادية ، والذى يتعب الناس الآن أنك تجد الواحد منا يفرض لنفسه مستوى معيشة معين قبل أن يفرض لنفسه دخلاً يوازى هذا المستوى الذى اختاره لنفسه ، فلما يحدث العجز يُضطر للحرام للغش وللسرقة وللرشوة وغيرها من وسائل الكسب الحرام ليغطى نفقات معيشته .

قال تعالى ﴿ **لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا** (٧) ﴾ [الطلاق]

المؤمن يدخل السوق فيجد فيه ما لَذَّ وطاب ، الرومى واللحوم والأسماك والفاكهة ، وقد تشتاق نفسه إليها لكن يتحلَّى بالرضا ويَقْنع بما فى مقدوره ، فيشترى كيلو فول أخضر ونصف كيلو جبنة ، ويذهب ليأكل فى وسط أولاده فيجد لهذه الأكلة البسيطة طعماً ولذة ربما لا يجدها الغنى .

أما إن امتدتْ عينه إلى فوق مستواه فتراه يشترى بالدَّيْن ويأكل كما يأكل الأغنياء ، بل ربما أسرف على نفسه ودخل فى منطقة التبذير ، ثم بعد أيام يأتى مَنْ يطرق بابه يطالبه بدَيْنه فيجد من مذلة المطالبة أضعاف ما وجد من لذة الطعام .

لذلك الحق سبحانه يخاطب ابن آدم : « يا ابن آدم ، خلقتُكَ للعبادة فلا تلعب ، وقسمتُ لك رزقك فلا تتعب - ولا يعنى هنا تعب الجوارح إنما تعب الفكر والهَمّ وشغل البال - فإنْ رضيتَ بما قسمتُه لك أرحْتُ قلبك وبدنك وكنتَ عندى محموداً ، وإنْ أنت لم تقنع بما

قسمتُه لك فوعزتى وجلالى لأسلطنّ عليك الدنيا تركض فيها ركْضَ الوحش فى البرية ، ثم لا ينالك منها إلا ما قسمتُه لك وكنتَ عندى مذموماً . يابن آدم خلقتُ السموات والأرض ولم أَعْىَ بخلقهن أيُعيينى رغيفٌ أسوقه إليك ، يابن آدم لا تطلب منى رزق غَد كما لا أطالبك بعمل غد ، يابن آدم أنا لك مُحِبٌّ فبحقى عليك كُنْ لى مُحباً »[(١)] .

وحين يرضى الفقير بما قسمه الله له ، ولم يتطلع إلى أعلى من مستواه يقول الله له : رضيتَ بقدرى ، فالآن أعطيك على قَدْرى . لذلك تجد كل عظماء العالم وقادته بدأوا حياتهم فى فاقة وفقر مدقع[(٢)] وقد حدثونا عن تاريخ بعض هؤلاء ، وكيف أنهم جاءوا من قاع المجتمع .

ولما تتأمل مسألة تضييق الرزق على بعض الخَلْق تجد له حكمة اجتماعية ، هذا التفاوت يؤدى إلى نوع من التكامل بين عناصر المجتمع ، وتصور لو أن المجتمع كله أغنياء مبسوط لهم الرزقَ ، مَنْ سيقوم على خدمتهم ؟

مَنْ يصنع لهم ويزرع ويقضى المصالح الأدنى ؟ إذن : لا بدَّ من وجود طبقة الفقراء لتقوم بهذا الدور ، لا عن تفضُّل إنما عن حاجة يحتاج العامل أجره فيعمل ، ويحتاج الخادم أجره فيخدم ويمسح

(١) أورده ابن كثير فى تفسيره (٤٢٦/٧ طبعة دار الشعب المحققة) وعزاه لبعض الكتب الإلهية مختصراً ، وأورده إسماعيل حقى (ت١٧١٥م) فى تفسيره (روح البيان فى تفسير القرآن) (٥٩/٧) سورة النحل آية ٧١ ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ ۝٧١﴾ [النحل] أورده بطوله .

(٢) الدقعاء : التراب الدقيق على وجه الأرض . والمدقع : الفقير الذى قد لصق بالتراب من الفقر . [لسان العرب مادة : دقع] .

ويكنس ، فالحاجة والمنفعة هى التى تربط عناصر المجتمع .

ومن العجيب أنك ترى الآن رجال الأعمال وأصحاب المصالح يشتكون من العمال ، يقول لك العامل ما دام معه فلوس وجيبه (مليان) لا يعمل إلى أن ينتهى ما معه من نقود فيعود إلى العمل ، وهكذا ..

وأذكر من نوادر أستاذنا الشيخ موسى شريف رحمه الله أنْ كان يقول ذات مرة : اللهم ارزق العلماء واغْنهم وافقر الصّناع ، فلما سألناه قال : لأن العالم إنْ لم يكُنْ غنياً ربما أذلته فتوى ، أما الصانع أو العامل فإنه لا يعمل إلا إذا كان محتاجاً للمال .

وسبق أنْ قلنا : إن الإنسان منا إذا اجتهد فى عمله وأخلص له مدة عشر سنين يعيش مرتاحاً باقى عمره ، وإن اجتهد عشرين سنة ارتاح وأراح أولاده من بعده ، وإن اجتهد ثلاثين سنة أراح أحفاده ، إذن : على قَدْر العمل يكون العطاء .

ثم ينبغى أن نظل على ذكر لتقلُّب الأحوال ، والحق سبحانه يقول : ﴿ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ .. (١٤٠) ﴾ [آل عمران] فالنعمة وبسطة الرزق عندك اليوم ، وقد تصبح عند غيرك أو تمسى .

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ (١٣) ﴾

هذه الآية هى المذكرة التفصيلية أو التفسيرية للآية الثالثة فى

أول السورة : ﴿ كَذَٰلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٣ ﴾ [الشورى] والتفصيل بعد الإجمال أسلوب من أساليب القرآن الكريم .

قوله تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ .. ۝١٣ ﴾[الشورى] يعنى : سَنَّ لكم وبيَّن ووضَّح ، ومن هذه المادة شَرَعَ شَرَّع وشريعة يعنى طريقة واضحة ، والإنسان فيه جانبان المادة والروح . فكما أن الحق سبحانه ضمن له بقاء حياة المادة بالماء والطعام والهواء ، كذلك جعل له حياة لروحه حياة بالقيم والأخلاق .

هذه القيم هى منهج الله الذى نزل على قلب رسوله ﷺ ، وبهذا المنهج تحيا القلوب والأرواح كما تحيا الأبدان بالطعام والشراب ، وهذا الشرع وهذه القيم ليست جديدة فى موكب الرسالات ، بل هى سنة الله فيمَنْ سبق كان لهم دين وشرع ، كل بما يناسبه .

لذلك قال بعدها : ﴿ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا .. ۝١٣ ﴾[الشورى] يعنى : ما أمر به نوحاً وألزمه من التكاليف ، واختار نوحاً لأنه كان أول رسول فى العموميات ، وقد قال بعض العلماء أن نوحاً أُرسل كذلك للناس كافة على اعتبار أن الناس فى زمنه كانوا هم ركاب السفينة ، فعموميته خاصة بالموجودين معه على السفينة ، أما عمومية رسالة محمد ﷺ فكانت عامة للناس فى كل مكان على وجه الأرض .

ثم تأمل هنا دقة الأداء القرآنى فى ﴿ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا .. ۝١٣ ﴾[الشورى] ما هنا اسم موصول بمعنى الذى ، وكان المنطق أن يقول بعدها : وما أوحينا إليك . باسم الموصول (ما) لكن هنا الكلام عن الوحى إلى رسول الله ﷺ ، فجاء بالذى وهى أم

الموصولات كلها ، ومع غيره جاءت (ما) وهى كما يقول النحويون اسم موصول بمعنى الذى ، ثم تلاحظ الفعل (وصى) هكذا بالمفرد ، إنما مع رسول الله قال : ﴿وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ .. (١٣)﴾ [الشورى] بنون الجمع ويسمونها نون العظمة .

ثم بعد ذلك يعود السياق إلى استخدام (ما) مرة أخرى : ﴿وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ .. (١٣)﴾ [الشورى] وهذه تدل على خصوصية لسيدنا رسول الله من بين سائر الرسل عليهم جميعاً السلام .

قوله تعالى شرع ووصى ، بماذا ؟ تأتى بعده (أنْ) ويسمونها أن التفسيرية ، يعنى : تفسر لنا مدلولَ شرع ووصى ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ .. (١٣)﴾ [الشورى] ومثله قوله تعالى : ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ .. (٧)﴾ [القصص] إذن : وصَّى الله هؤلاء الأنبياء بأن يقيموا الدين وبعدم التفرق فيه والاختلاف .

وإقامة الشىء أى جَعْله قائماً ، والقيام هو العمدة فى الدلالة على القوة والمقدرة ، فالإنسان لا يقوم إلا حال قوته ، فإن تعب من القيام قعد ، فإنْ تعب من القعود يضطجع ، فالحق يريد منا أنْ نجعل الدين قائماً يعنى : نقوم به لا نقعد ولا ننام ، فالقيام هنا كناية عن الاهتمام به والمحافظة عليه ﴿وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ .. (١٣)﴾ [الشورى] نهى عن الاختلاف فيه .

كلمة التفرق هذه وردتْ فى قصة سيدنا يوسف عليه السلام ، اقرأ : ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّى أَرَانِى أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الآخَرُ إِنِّى أَرَانِى أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا

نراكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٣٦)﴾ [يوسف] قوله : ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٣٦)﴾ [يوسف] دلَّتْ على أن الحسْن مُقدَّر حتى عند المسيء فالمعنى : ما جئناك إلا لأنك من المحسنين ، ودرجة الإحسان لا تأتى منحة من الله إنما تأتى بالعمل والاستقامة على المنهج .

وقد بيَّن لهم هذا المنهج الذى رفعه إلى درجة الإحسان فقال : ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٣٧) وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ (٣٨)﴾ [يوسف]

لذلك أراد سيدنا يوسف عليه السلام أن يُفهمنا أن الوصول إلى درجة الإحسان يسير ، وأن يشرح لهما الطريق أولاً ، فلم يُحدِّثهما أولاً عن تفسير الرؤيا إنما استغل الموقف لصالح دعوته ورسالته كداعية إلى الله ورآهما فى حاجة للتوجيه والوعظ والنصح .

ثم إن حاجتهم إليه لتفسير الرؤيا ستجعل الآذان مُصغية لكلامه ، لذلك دخل معهما فى هذا الحوار الإيمانى الدعوى : ﴿يَـٰصَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٣٩)﴾ [يوسف] ثم راح يُحدِّثهم فى العقيدة وتصفيتها من شوائب الشرك ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٤٠)﴾ [يوسف]

وبعد أن أنهى مهمته كداعية ، أخذ يفسر لهما الرؤيا : ﴿يَـٰصَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ (٤١)﴾ [يوسف]

ولو أن يوسف عليه السلام قدَّم تفسير الرؤيا على النصيحة ما كان أخذ من صاحبيه الاهتمام المطلوب ، لأن العادة أن يكون الإنسان رَهْن حاجته فإنْ قضاها انصرف عنك ، وهذه المسألة تعلمنا : إذا كان لك حاجة عند المحتاج إليك فابدأ بها لتجد الاهتمام المطلوب ، لأنه فى مجيئه إليك شعور بأنك الأعلى .

إذن : قوله سبحانه :﴿ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ .. (١٣) ﴾[الشورى] لا تأخذوا أرباباً من دون الله ، أو لا تتفرقوا فى الدين شيعاً وأحزاباً ، كما فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ .. (١٥٩) ﴾ [الأنعام] فساعة تتشتت الجماعة فِرَقاً اعلم أنهم جميعاً جانبوا الصواب ، لأن الحق واحد يجب أنْ نلتفَّ جميعاً حوله .

﴿ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ .. (١٣) ﴾[الشورى] كلمة كبُر بالضم يعنى عَظُم عليهم وشَقَّ عليهم ، أما كبَر بالفتح فتُقال للسنِّ ، فالمشركون عَظُم عليهم ما تدعوهم إليه من التوحيد وإخلاص العبادة لله تعالى ، وشَقَّ عليهم أنْ ينطقوا بكلمة الشهادة لا إله إلا الله ، وهم يفهمون جيداً معناها ومقتضاها ، فهى عندهم ليستْ كلمة تقولها الألسنة إنما هى منهج حياة لها متطلبات ، وإلا لكانوا قالوها .

عَظُم فى أنفسهم وشَقَّ عليهم أنْ يكون الناسُ سواسيةً كأسنان المشط لا فرقَ بينهم إلا بالتقوى والعمل الصالح ، وهم السادة أصحاب السلطة الزمنية من قديم ، فكيف يأتى الإسلام ويُسوِّى بين السادة والعبيد فكبُر عليهم ذلك ، وعَظُم فى أنفسهم .

لذلك وقفوا فى وجه رسول الله وعادوه وأخذوا منه موقفَ اللدد والخصومة ، لكن الحق سبحانه يُطمئن رسوله فيقول بعدها :

﴿ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ ﴾ [الشورى]

الحق سبحانه وتعالى يطمئن رسوله ﷺ يقول له : لا تهتم بموقفهم العدائى لك ومصادمتهم لدعوتك ، فهذا أمر طبيعى فَوُقوُفُهُم فى وجهك شهادة لك أنك على حق ، لأنك ستأخذ منهم وتسلبهم السيادة التى كانت لهم ، وتمنع الفساد المنتشر فى مجتمعهم وهم منتفعون بهذا الفساد ، والناس مُستكينة لهم لأنهم مُسْتضعفون لا حيلةَ لهم .

إذن : عداؤهم لك أمر طبيعى ، فهم يسيرون وفق طبيعتهم وأنت تسير وفق طبيعتك ، يعنى من شيمتهم الأعتداء والعناد والمكابرة ، ومن شيمتك التحمُّل للأذى .

فكأنَّ قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ ﴾[الشورى] إشارة إلى أن هؤلاء الصناديد المعاندين للدعوة سوف يكون منهم أنصار لها وأعلام فى سمائها ، فلا تعجل ولا تحزن ولا تهتم ، سوف نأخذهم إلى ساحة الإيمان واحداً تلو الآخر ، وبالفعل صدق الله فيما أخبر به رسوله ، فقد دخل فى الإسلام عمر وخالد وعمرو وعكرمة وغيرهم .

كلمة (يجتبى) بمعنى يختار ويصطفى من عباده مَنْ يشاء لنصرة دينه ، وهذا الاصطفاء كأنه مقدمة للهداية ، لذلك قال بعدها : ﴿ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ ﴾ [الشورى] فيصطفيهم أولاً بأن يبعدهم عن عداوة الدعوة ، ويُحبِّب إليهم الإيمان كأنه يجهزهم لهذه المهمة .

قرأنا فى تاريخ الغزوات مثلاً أن أحد الصحابة يعود من الحرب

حزيناً لأنه أفلت منه خالد أو عمرو أو عكرمة ويقول : كنتُ على وشك أنْ أقتله لولا كذا وكذا ، وهو لا يدرى أن الله يدخره لنصرة دينه وإعلاء كلمته ، فالله تعالى كان يدخر هؤلاء وكان يُعدهم ويجتبيهم ، ثم بعد فترة هداهم للإسلام ، فكانوا هم حمَلَة رايته وقادة مسيرته .

وقبل أن نترك هذه الآية ينبغى أن نشير إلى الفتنة التى أثارها بعض المستشرقين حول قوله تعالى ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ .. (١٣) ﴾ [الشورى] يقولون : ما الضرورة إذن لمجيء الرسالة الآخرة ما دامت الوصية لجميع الرسل واحدة ، ثانياً : قالوا بوجود تعارض بين الآيات ، لأن الله تعالى قال فى موضع آخر : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا .. (٤٨) ﴾ [المائدة]

إذن : فلكل نبى شريعة ، وعند محمد أشياء غير ما وصى به .

وللرد على الشبهة الأولى نقول : إن الحق سبحانه وتعالى له أشياء ضرورية ، ألزم بها جميع الرسل فى موكب الرسالات ، فهم جميعاً متفقون فى هذه الأمور ، أولها التوحيد وعدم الشرك بالله ، ثم الإيمان بالكتب السماوية وبالرسل ، ثم الإيمان بالبعث .

فهذا قَدْر مشترك عند جميع الرسل لا يتغير ، لأنها ثوابت الدين وأعمدته ، وهى المرادة فى قوله تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ .. (١٣) ﴾ [الشورى]

فالوصية هنا بالأشياء الضرورية والثابتة فى كل الأديان

السماوية ، فالتوحيد دعوة كل رسل الله ، والصلاة وجدناها فى كل الشرائع السابقة ، وكذلك الزكاة ، لذلك لا يمكن أبداً أنْ تخلو رسالة من الرسالات من هذين الأمرين .

ففى قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام عندما أسكن من ذريته بواد غير ذى زرع علَّل ذلك بقوله : ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ (٣٧)﴾ [إبراهيم] ويقول تعالى فى نفس القصة : ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا[1] لإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لاَّ تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (٢٦)﴾

[الحج]

وفى قصة سيدنا شعيب عليه السلام يقول له قومه : ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا .. (٨٧)﴾ [هود]

وفى قصة سيدنا زكريا عليه السلام : ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ .. (٣٩)﴾ [آل عمران]

والزكاة كذلك من الثوابت التى جاءت فى كل الأديان ، اقرأ مثلاً قوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ (١٤) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ (١٥) بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (١٦) وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (١٧) إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَىٰ (١٨) صُحُفِ[2] إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ (١٩)﴾ [الأعلى]

---

(١) بوَّأنا : هيَّأنا له ومكنَّا منه . ومنه قوله تعالى : ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ .. (١٢١)﴾ [آل عمران] أى : تنزلهم وتمكنهم من مقاعد للقتال لا يفارقونها . [القاموس القويم ١/٨٨ - بتصرف] .

(٢) روى الآجرى من حديث أبى ذر قال قلت يا رسول ، فما كانت صحف إبراهيم ؟ قال : كانت أمثالاً كلها .. أيها الملك المتسلط المبتلى المغرور إنى لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها على بعض ولكن بعثتك لترد عنى دعوة المظلوم ، فإنى لا أردها ولو كانت من فم كافر » الحديث أورده القرطبى فى تفسيره (٢٠/٢٥) [سورة الأعلى ١٩] .

كذلك اتفقت كل الأديان السماوية فى تطهير النفس والجوارح من الآثام والمعاصى التى تضر بالنفس وبالمجتمع ، لأن التخلية من الآثام تسبق التحلية بالطاعات .

خذ الجوارح من أول القلب إلى القدم تجد كل الأديان السماوية تدعو إلى تطهيرها ، فالقلب وهو قائد الجوارح والأم بينها ، لذلك قال عنه سيدنا رسول الله ﷺ : « ألا إن فى الجسد مُضْغة إذا صلُحتْ صلُح الجسد كله ، وإذا فسدتْ فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب »(١) .

ومطلوب للقلب عدة أشياء : أولاً : عدم الإشراك بالله ، ثم عدم الإصرار على المعصية ، ثم لا يأمن مكر الله ولا يقنط من رحمة الله . هذه كلها عقيدة ينبغى أن تستقر فى القلب .

كذلك اللسان وهو عمدة البيان والتبليغ يجب أنْ يتطهر من عدة أشياء : أولها : شهادة الزور ، ثم قَذْف المحصنات ، ثم اليمين الغموس(٢) وهو يمين ليس له كفارة ، ثم يتطهر اللسان من أنْ يقول الطلاسم التى يقولها السحرة .

تعالَ إلى البطن ينبغى أنْ تتطهر وتبرأ من عدة أشياء : شرب الخمر ، أكل الربا ، أكل مال اليتيم .

وكذلك اليدان تبرأ من السرقة ومن القتل . وكذلك العورات تبرأ

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٢) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير رضى الله عنه .

(٢) اليمين الغموس : أى التى تغمس صاحبها فى الإثم ثم فى النار . وقيل : هى اليمين الكاذبة التى تُقتطع بها الحقوق . وقال ابن مسعود : أعظم الكبائر اليمين الغموس وهو أن يحلف الرجل وهو يعلم أنه كاذب ليقتطع بها مال أخيه . [لسان العرب - مادة : غمس].

من الزنا وغيره مما حرَّمه الله عليها ، وكذلك الرِّجْلان تبرأ من التولى يوم الزحف ، ومن السعى إلى كل ما هو محرَّم .

ومن هذه الثوابت عقوق الوالدين ، فهو محرم فى كل الأديان كذلك وهو عام فى كل الجوارح ، وقد حرمه الحق سبحانه لأن بر الوالدين تدريب ورياضة لطاعة الله ، ذلك لأن الوالدين سبب الوجود المباشر ، والحق سبحانه وتعالى سبب الوجود غير المباشر .

فكأن طاعة الوالدين وبرَّهما باب ومدخل لطاعة الله . وهذا البر محفوظ لهما ، حتى وإنْ كانا مشركين : ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا .. (١٥)﴾ [لقمان]

لذلك الحق سبحانه وتعالى يُعلِّمنا بر الوالدين فى موكب الرسالات كلها ، ففى قصة سيدنا عيسى عليه السلام ، ولأنه جاء من أم بلا أب ، وقد تكون هذه المسألة مدخلاً من مداخل الشيطان على سيدنا عيسى ، فيُوصيه ربه بأمه فقط :﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢)﴾ [مريم] حتى يقطع على الشيطان مدخله .

أما فى قصة سيدنا يحيى عليه السلام فقال : ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا (١٤)﴾ [مريم] بوالديه يعنى : أباه وأمه ، ونلحظ فى القصتين أن سيدنا عيسى عليه السلام هو الذى يتكلم عن أمه ويقول ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي .. (٣٢)﴾ [مريم] فهذا إقرار واعتراف منه .

أما فى قصة سيدنا يحيى ، فالحق سبحانه هو الذى يحكى عنه أنه كان براً بوالديه ، ونصَّ على البر فى قصة سيدنا يحيى ، لأن السببية فى والديه مفقودة ، فأبوه قد بلغ من الكبر عتياً ، وأمه

كانت عاقراً ، إذن : كيف يأتى الولد وهذا أيضاً مدخل من مداخل الشيطان على سيدنا يحيى .

إذن : فالحق سبحانه يريد للجميع أنْ يكون نظيفاً طاهراً من كل هذه الآثام ، لذلك طهَّر الجوارح كلها وجعلها أداة بناء ومودة وتراحم ، وبنى المجتمع على أسس قويمة تكفل لأفراده الحياة السعيدة المطمئنة ، وهذا قاسم مشترك فى كل ديانات السماء ، وهذه الأمور هى المرادة بقوله سبحانه : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا .. (١٣) ﴾ [الشورى]

أما قوله تعالى : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا .. (٤٨) ﴾ [المائدة] فيُراد بها الشرائع والأحكام الخاصة بكل ديانة ، وهذه الشرائع تختلف باختلاف المجتمعات والبيئات والداءات الموجودة والآفات المنتشرة بين القوم ، فالشرائع تأتى لمعالجة الآفات فى مجتمعها ولذلك تختلف من دين لآخر .

فجماعة نتشرت بينهم الرذيلة والفاحشة ، وجماعة طففوا(١) المكيال والميزان ، وجماعة عبدوا الأصنام ، وآخرون عبدوا الكواكب أو الملائكة . وهكذا ، فلا بد إذن أنْ تختلف الشرائع فى هذه الأمور الاجتماعية .

من هذا نعلم أن اعتراض المستشرقين لا محلَّ له ، فلكل آية موضوعها .

---

(١) طفف الكيل : طوَّل أعلاه وجعل له طفاً فوقه ، وذلك حين يضع يده أو يديه بجانبه فيمنع الحَبَّ الزائد من التساقط ثم يسرع بوضعه فى إنائه ليأخذ أكثر من حقه ويظلم من يبيع له السلعة . [القاموس القويم ١/٤٠٣] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا (١) بَيۡنَهُمۡۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ﴿١٤﴾ ﴾

البيئة المكيَّة كان بها كفار مكة وهم وثنيون يعبدون الأوثان ، وكان فيها أهل كتاب يهود أو نصارى ، وكان الخلاف بينهما قائماً ومستمراً ، ومن غيظ أهل الكتاب من الكفار كانوا يقولون لهم : لقد أطلَّ زمانُ نبى منكم سيأتى ونتبعه ونقتلكم به قتْل عاد وإرم .

والحق سبحانه يخبر عن أهل الكتاب : ﴿ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا ﴾ أى : محمد ﴿ كَفَرُوا بِهِ.. ﴿٨٩﴾ ﴾ [البقرة]

نعم لقد بشرتْ الكتب السماوية بمجىء محمد وزمانه ومكانه ، وكان أهل الكتاب يعرفونه وعندهم أوصافه ، وقد اعترف منهم كثيرون بأن محمداً على الحق ، وأنه نبى مرسل ، ومن هؤلاء عبد الله ابن سلام .

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٩/٦٠٥٥) : « (بَغْيًا بَيْنَهُمْ) أى : بغياً من بعضهم على بعض طلباً للرياسة ، فليس تفرقهم لقصور فى البيان والحجج ، ولكن للبغى والظلم والاشتغال بالدنيا » .

الحق سبحانه يقول عنهم وعن معرفتهم لرسول الله بأوصافه : ﴿ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ .. (١٤٦) ﴾ [البقرة] لذلك يقول أحدهم[(١)] : والله إنى لأعرف محمداً كمعرفتى لابنى ، ومعرفتى لمحمد أشد[(٢)] ، ذلك لأن أوصافه مذكورة فى كتبهم . ومع ذلك لما جاءهم بالحق كفروا به وعاندوه .

يقول تعالى : ﴿ وَمَا تَفَرَّقُوا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ .. (١٤) ﴾ [الشورى] أى : العلم به فى كتبهم التى بشَّرتْ به وذكرتْ أوصافه ﴿ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ .. (١٤) ﴾ [الشورى] وهى وعْده سبحانه بإمهالهم ﴿ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى .. (١٤) ﴾ [الشورى] هو يوم القيامة ﴿ لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ .. (١٤) ﴾ [الشورى] أى حُكِم بينهم بهلاك الكافرين واستئصالهم ونجاة المؤمنين ، والحق سبحانه لم يقْضِ بإهلاكهم واستئصالهم ، بل أخَّرهم لأنه سيكون منهم مَنْ يؤمن ويصير جندياً من جنود الحق .

﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ (١٤) ﴾

[الشورى] قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ .. (١٤) ﴾ [الشورى] هم اليهود والنصارى المعاصرون للنبى ﷺ ﴿ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ .. (١٤) ﴾

---

(١) هو : عبد الله بن سلام بن الحارث الإسرائيلى أبو يوسف ، صحابى أسلم عند قدوم النبى ﷺ المدينة وكان اسمه الحصين فسماه رسول الله عبد الله وشهد مع عمر فتح بيت المقدس . أقام بالمدينة إلى أن توفى عام ٤٣ هـ . (الأعلام للزركلى ٤/ ٩٠) .

(٢) قال ابن كثير فى تفسيره (١/ ١٩٤) : « قال القرطبى : يُروى عن عمر أنه قال لعبد الله ابن سلام : أتعرف محمداً كما تعرف ولدك ؟ قال : نعم وأكثر ، نزل الأمين من السماء على الأمين فى الأرض بنعته فعرفته ، أما ابنى فإنى لا أدرى ما كان من أمه » .

[الشورى] أى من كتابهم ﴿مُرِيبٍ (١٤)﴾[الشورى] يدعو إلى الريبة والتردد والحيرة ، ذلك لأنهم أخذوا فى كتابهم مآخذ عدة أدت بهم إلى هذا الشك وإلى هذه الريبة .

أولاً : نَسُوا بعضه كما أخبر الحق عنهم : ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ..(١٤)﴾ [المائدة] كما أخبر عن اليهود فى الآية التى قبلها : ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ .. (١٣)﴾ [المائدة]

والنسيان يعنى عدم الاهتمام بالمنسىِّ ، فلو كان مهماً لكانَ على بالهم دائماً وفى بؤرة اهتمامهم ، وما لم يُنْسَ من الكتاب تناولوه بالتحريف ، ولو كان لهم عذر فى النسيان ، فما عذرهم فى التحريف ؟

ثم بعد ذلك كتموا ما أنزل الله ، قال تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ (١٨٧)﴾ [آل عمران]

ويا ليتهم وقفوا بمسخ كتابهم عند هذا الحد ، إنما تمادوا فى مسخه إلى أنْ يؤلفوا الكلام من عند أنفسهم ، ويقولون هو من عند الله ، قال تعالى فى حقهم : ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ (٧٩)﴾ [البقرة]

﴿فَلِذَٰلِكَ[1] فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ١٥﴾

الإشارة فى قوله تعالى : ﴿ فَلِذَٰلِكَ .. ١٥ ﴾ [الشورى] إشارة للكلام السابق ، فلأنهم تفرقوا واختلفوا وكتموا الكتاب وحرفوه ، ما داموا فعلوا ذلك ، فقُمْ أنت بمهمة الدعوة لتصلح ما أفسد هؤلاء ، وتقيم ميزان الحياة بالحق وبالعدل ، وترد هؤلاء عمَّا هم فيه .

ولاحظ هنا أن التعبير يجمع بين القول والعمل ﴿ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ .. ١٥ ﴾ [الشورى] يعنى : ليكُنْ قولك موافقاً لحركتك ، كما قال فى موضع آخر : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا .. ٣٠ ﴾ [فصلت]

وسبق أنْ قلنا : إن الخط المستقيم هو أقرب طريق بين نقطتين ، فاستقم يعنى كُنْ على الجادة وعلى الطريق السَّوِىِّ ، وقد سمَّاه القرآن (الصراطَ المستقيم) وسمَّاه (سواء السبيل)[2] وهو الذى

---

(١) ذكر القرطبى فى تفسيره (٩/ ٦٠٥٥) فى قوله تعالى : ﴿ فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ .. ١٥ ﴾ [الشورى] أى : إلى ذلك فادع . فاللام بمعنى إلى ، كقوله تعالى : ﴿ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ٥ ﴾ [الزلزلة] أى : إليها .

(٢) وصفه بالصراط المستقيم كما فى قوله تعالى : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ٦ ﴾ [الفاتحة] . وسماه (سواء السبيل) كما فى قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ١٠٨ ﴾ [البقرة] وسواء السبيل وسطه فكلمة سواء تدل على معنى التوسط ، أى وسط الطريق الموصِّل للخير .

يُوصِّلك إلى غايتك من أقرب طريق .

فكأن الحق سبحانه حينما يأمر نبيه محمداً ﷺ بذلك إنما يقول له : استقم ، لأن استقامتك على المنهج الذى جئتَ به أدْعَى إلى القبول وإلى تصديقك والاستماع لك .

ومعلومٌ أن التعليم والنصح بالعمل أجْدَى وأنفع من الكلام النظرى ؛ لذلك لما سأل أحد الصحابة رسول الله فقال : يا رسول الله ، قُلْ لى فى الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك قال له : « قُلْ آمنتُ بالله ثم استقم »[(١)] .

وهذا من جوامع كلمه ﷺ .

وبعد أنْ أمره ربُّه بالاستقامة على منهج الحق نهاه عن اتباع أهواء القوم : ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ .. ⦗١٥⦘﴾ [الشورى] فالهوى سبيل الاختلاف والتفرق ، ومن هذه الأهواء قولهم لرسول الله : تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة[(٢)] ، وفيها نزلت سورة الكافرون : ﴿وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ .. ⦗١٥⦘﴾ [الشورى] كتاب هنا نكرة أفادتْ الشمول ، يعنى : آمنتُ بكل كتاب أنزله الله من قبل .

وكأنها رسالة إلى أهل الكتاب من اليهود والنصارى : لماذا آمنتم بالديانات السابقة عليكم ، ولم تؤمنوا برسالة محمد ، وهى ديانة كباقى

---

(١) عن سفيان بن عبد الله الثقفى قال : قلت يا رسول الله قل لى فى الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك ، قال : قل آمنت بالله ثم استقم ، أخرجه مسلم فى صحيحه (٣٨) وأحمد فى مسنده (٤/٣٨٥) .

(٢) ذكر الواحدى فى أسباب النزول (ص٢٦١) فى سبب نزول سورة الكافرون أن رهطاً من قريش قالوا : يا محمد هلم اتبع ديننا ونتبع دينك ، تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة ، فإن كان الذى جئت به خيراً مما بأيدينا قد شركناك فيه وأخذنا بحظنا منه ، وإن كان الذى بأيدينا خيراً مما فى يدك قد شركت فى أمرنا وأخذت بحظك ، فقال : معاذ الله أن أشرك به غيره ، فأنزل الله ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ⦗١⦘﴾ [الكافرون] .

الديانات ، إذن : لكم سوابق فى الإيمان ، فلماذا وقفتم عند رسالتى وكذبتم ؟ كذَّبوا لأن عندهم مسائل يجادلون بها الضعاف من المسلمين .

مثلاً يقولون لهم : ديننا أقدم من دينكم ، وكتابنا أقدم من كتابكم ، ورسولنا أقدم من رسولكم ، وقرآنكم يشهد لنا ، ألم يقل القرآن : ﴿ يَـٰبَنِى إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٢٢) ﴾ [البقرة] فنحن إذن مُفضلون على العالمين بشهادة القرآن .

والأفضلية هنا ليستْ على إطلاقها ، بل هى مُقيدة بزمانهم . يعنى : فضلتكم على العالمين من أهل زمانكم ، وإلا كانوا أفضل من إبراهيم وإسحق ، وهم لا يقولون بذلك .

وقوله تعالى : ﴿ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ .. (١٥) ﴾ [الشورى] العدل أنْ تزن بميزان غير جائر ، فكل واحد منهم يأخذ حقه ، وأنْ يكون الجميع أمامك سواسية ، فمثلاً لا تَنْهَ واحداً وتترك الآخر ، ولا تفضل أحداً على أحد فى مرآك ولا فى مجلسك ولا فى نظرك .

لذلك كان ﷺ إذا جلس بين أصحابه يُوزِّع نظره عليهم جميعاً ، فلا يهتم بواحد دون الآخر .

فالجميع أمامه سواسية ، ولو اهتم بواحد بعينه لظنّ أن له أفضلية أو سلطة زمنية أو قوة مركزية ، أبداً كانوا جميعاً فى نظره سواء ، هذه كلها من عدالته ﷺ بين الناس .

وقوله : ﴿ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ .. (١٥) ﴾ [الشورى] يعنى : ليس ربنا وحدنا ، إنما هو ربكم أيضاً ، وما دام ربنا وربكم فلا بد أن تكون

التربية واحدة لنا جميعاً ، وقد أنزل لكم منهجاً له زمن ، وأنزل عليَّ منهجاً خاتماً .

ومن كمال التربية : ﴿ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ .. (١٥) ﴾ [الشورى] فكلٌّ مُجازَى بعمله ﴿ لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ .. (١٥) ﴾ [الشورى] لا حجاج ولا جدال ، لماذا ؟ لأن الجدل معهم يوصل إلى اللدد والعناد والخصومة ولا يُوصل إلى الحق ، والمعنى : أننا لن نلتقى فكُلٌّ منا له طريق .

والحق سبحانه قد تناول هذه المسألة فى سورة (الكافرون) : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ (٤) وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (٦) ﴾ [الكافرون]

إذن : لا مجالَ للجدال لأن المسألة منتهية ، الآن علَّمتنا السياسة أن الدول قد تختلف فتقطع العلاقات بينها وبين بعض ، ثم تضطرهم ظروف الحياة إلى إعادة العلاقات مرة أخرى وإلى التصالح ، أما فى مسألة الإيمان والكفر فهما نقيضان لا يمكن أبداً أن يلتقيا .

لذلك لما تدقق فى سورة (الكافرون) تجدها تنفى هذا الالتقاء فى الحاضر الآن وفى المستقبل ، اقرأ : ﴿ لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) ﴾ [الكافرون] أى : فى الحاضر ﴿ وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ (٤) وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (٦) ﴾ [الكافرون] أى : فى المستقبل .

وقوله : ﴿ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (١٥) ﴾ [الشورى] يعنى : ما دُمْنا لم نجتمع على الحق فى الدنيا فسوف يجمعنا الله جميعاً يوم

القيامة للحساب ، حيث يجازى كلاً بعمله ، ويعطى كل ذى حَقٍّ حقه ، وكوْنك تردُّ الأمر فى الحكومة إلى عادل ، فهذا دليل على أنك على الحق ، وكفى بالله حكماً ﴿وإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ⓯﴾ [الشورى] المرجع والمآب .

﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ(١) حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ(٢) عِندَ رَبِّهِمۡ وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٌ وَلَهُمۡ عَذَابٌ شَدِيدٌ ⓰﴾

قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِى اللَّهِ .. ⓰﴾ [الشورى] أى يجادلون فى دين الله ، يجادلون مَنْ ؟ يجادلون الذين استجابوا لدعوة الحق ﴿مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ .. ⓰﴾ [الشورى] يقولون لهم : ديننا أقدم من دينكم ، ورسولنا أقدم من رسولكم ، والقرآن يشهد لنا أننا الأفضل فى العالمين ، يريدون من ذلك الجدل أنْ يردوهم عن إيمانهم .

هؤلاء ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ .. ⓰﴾ [الشورى] يعنى : حجة باطلة لا تُقبل عند الله تعالى ، ولا يصح أنْ يُلتفت إليها أبداً

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٦٠٥٦/٩) : « الهاء فى (له) يجوز أن يكون لله عز وجل ، أى من بعد ما وحَّدوا الله وشهدوا له بالوحدانية ، ويجوز أن يكون للنبى ﷺ أى : من بعد ما استجيب لمحمد ﷺ فى دعوته من أهل بدر ونصر الله المؤمنين » . وقد جمع ابن كثير فى تفسيره (١١٠/٤) بين القولين فقال : (أى : يجادلون المؤمنين المستجيبين لله ولرسوله) .

(٢) حجتهم داحضة : باطلة . ودحض الحجة : أبطلها [القاموس القويم ٢٢٢/١] ودحضت الشمس عن كبد السماء زالت . [تفسير القرطبى ٦٠٥٧/٩] .

﴿ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ .. (١٦) ﴾ [الشورى] أى : غضب من الله ، لماذا ؟ لأنهم لم يكتفوا بأنهم كافرون فى أنفسهم ، إنما أرادوا أنْ يأخذوا غيرهم إلى الكفر ، وبذلك يحملون أوزارهم وأوزار مَنْ أضلوهم ، فاستحقُّوا هذا المصير ، وهو غضب الله عليهم ، والغضب هو أول مراحل العذاب .

لذلك فى حديث قدسى بيَّن الحق سبحانه حال جماعة غضب الله عليهم ، ثم أمر بالحجاب عنهم ، ثم لعنهم ثم طردهم من رحمته تعالى ، ولتوضيح هذه المسألة نقول - ولله المثل الأعلى - مثل رجل عنده شركة فيها موظفون وفيها عمال ، فواحد منهم ارتكب خطأ أغضب صاحب الشركة فتغيَّر قلبه من ناحيته لكن تركه فى عمله ثم ارتكب خطأ آخر ، فقال له : ابتعد عنى لا تجعلنى أرى وجهك وكأنه ضرب بينه وبينه حجاباً حتى لا يراه ، ثم فى المرحلة الأخيرة قال : هذا الموظف لا بدَّ أنْ يُطرد من العمل .

كذلك الحق سبحانه غضب على هؤلاء ، ثم ضُرب دونهم حجابٌ ثم لعنهم ثم طردهم من رحمته تعالى ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ (١٦) ﴾ [الشورى] أى : فى الآخرة .

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ (١٧) ﴾

قوله تعالى : ﴿ بِالْحَقِّ .. (١٧) ﴾ [الشورى] الحق هو الشىء الثابت الذى لا يتغير ، والحق غالب لا محالة ، وإنْ عَلاَ عليه الباطل

فى فترة من الفترات فإنما لحكمة ، هى أنْ يعض الباطل الناس ليشحنهم بالحمية للحق ويُشوقهم إليه ، فالعاقبة للحق مهما طال الباطل وصَالَ وجَالَ ، لذلك قلنا : إن الباطل جندى من جنود الحق .

واقرأ هذه الصورة التى رسمها الحق سبحانه يوضح لنا بها الحق والباطل ، يقول تعالى : ﴿ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ (١٧) ﴾ [الرعد]

فالحق هو الباقى ، والباطل زائل زاهق .

لذلك نرى بعض أعداء القرآن يحاولون أنْ يعيبوا أسلوبه ، فيقولون مثلاً فى قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا (٤٠) ﴾ [التوبة] أنه أسلوب غير سليم ، لأن القياس أن يقول : وكلمة الله العليا كما قال فى الأولى : كلمة الذين كفروا السفلى ، وهذا الاعتراض نتيجة عدم الفهم عن الله وعدم وجود الملَكة التى تُمكِّنهم من فَهْم أساليب اللغة .

فكلمة الذين كفروا السفلى أى : جعلها الله سفلى فهى مفعول جعل ، أما كلمة الله هى العليا فليست جَعْلاً كالأولى ، بل هى فى أصلها عليا ، يعنى : لم تكُنْ سفلى وجعلها الله عليا ، بدليل أنها جاءتْ بالرفع على أنها خبر .

وقوله : (والميـزان) أتى بشىء حسِّى وهو الميـزان ، والميزان هو أداة إقامـة الحق ، فالمسـألة ليستْ هكذا (بالزوفة) إنمـا هناك ميزان حساس قائم على العدل والمساواة .

والميـزان يختلف باخـتلاف الموزون ، فـميزان القـمح أو البطاطا مثلاً غـير ميزان الذهب ، تجد الآن عنـد الصائغ ميزاناً حاسـاً يضعه فى صندوق من زجـاج ، لماذا ؟ ليـحجز عنه الهـواء لأن الهواء قـد يتلاعب بالميزان ، فيُـخرجه عن الدقة المطلوبة فى الوزن ، وأقل ميل فى ميزان الذهب له ثمن بخلاف ميزان البطاطا مثلاً .

إذن : كلمـة المـيزان تعنى الضـوابط التى تضـبط مـا بين الحق والباطل[1] نقرأ فى سـورة الحديد ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ .. (٢٥)﴾ [الحديد] يعنى : بالعدل والحق ، إذن : جاء الميزان ليـعطى كل ذى حق حقه ، ويضبط الحقوق لأصحابها ، فلا يأخذ أحدٌ أكثر من حقه ، ولا يغتصب أحدٌ حقَّ الآخر ، ولا يطمع فيما ليس له .

---

(١) هذا هو المـعنى الجـامع فى معنـى هذه الكلمة فى هـذا السيـاق ، وقد ذكـر القـرطبى فى تفسيره (٦٠٥٨/٩) عدة أقوال :
- الميزان : العدل . قاله ابن عباس وأكثر المفسرين .
- الميزان : ما بُيِّن فى الكتب مما يجب على الإنسان أن يعمل به .
- الميزان : العدل فيما أمر به ونهى عنه . قاله قتادة .

قال القرطبى : وهذه الأقوال متقاربة المعنى .
- الميزان : هو الجزاء على الطاعة بالثواب وعلى المعصية بالعقاب .
- الميزان : هو المـيزان نفسه الذى يوزن به ، أنزله من السماء وعلَّم العـباد الوزن به لئلا يكون بينهم تظالم وتباخس . قاله مجاهد .
- وقيل : الميزان محمد ﷺ يقضى بينكم بكتاب الله » .

وقوله سبحانه : ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ (١٧)﴾ [الشورى] لأنهم سبق أنْ طلبوا من الرسول أن يأتى بها ، كما حكى القرآن عنهم : ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣٨)﴾ [الأنبياء] طلبوها على وجه الاستهزاء والسخرية والتكذيب بها . والفعل دَرَى يدرى أتى مرة بصيغة المضارع هنا ﴿وَمَا يُدْرِيكَ .. (١٧)﴾ [الشورى] وأتى بصيغة الماضى فى قوله تعالى : ﴿الْحَاقَّةُ (١) مَا الْحَاقَّةُ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ (٣)﴾ [الحاقة]

معنى ﴿وَمَا أَدْرَاكَ (٣)﴾ [الحاقة] فى الماضى يعنى شىء قديم لم تعرفه من زمان ، لكن تعرفه الآن . أما ﴿وَمَا يُدْرِيكَ .. (١٧)﴾ [الشورى] يعنى : لا أحدَ يخبرك بها إلا نحن ﴿لا يُجَلِّيهَا(١) لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ .. (١٨٧)﴾ [الأعراف] ، أما صيغة المستقبل فلم تأتِ أبداً .

﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَآ إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ(٢) فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (١٨)﴾

---

(١) جلا فلان الأمر يجلوه : أظهره . وجلاَّه بالتضعيف للمبالغة : أظهره أيضاً ، قال تعالى : ﴿لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ .. (١٨٧)﴾ [الأعراف] أى : لا يظهر الساعة فى ميعادها إلا الله . [القاموس القويم ١/١٢٦] .

(٢) يمارون : يشكُّون ويخاصمون فى قيام الساعة . [تفسير القرطبى ٩/٦٠٥٩] . وامترى فى الشىء : شك فيه ولم يستيقن . وتمارى القوم به : تجادلوا . وتمارى فى الشىء : تشكك فيه [القاموس القويم ٢/٢٢٤] .

قوله تعالى ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا .. (١٨)﴾ [الشورى] أى : بالساعة ﴿الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِهَا .. (١٨)﴾ [الشورى] ولأنهم لا يعرفونها ولا يؤمنون بها ولا يعرفون ما يحصل فيها يطلبونها من رسول الله ، يقولون له : هَاتِ لنا هذه القيامة نريد أنْ نراها ، هذا على وجه الاستهزاء بها ، ولو علموا شيئاً عن أهوالها ما تجرَّأوا على طلبها وما تهكَّموا بها . هذا حال غير المصدِّقين بيوم القيامة .

أما المؤمنون بها فلهم شأن آخر ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا .. (١٨)﴾ [الشورى] خائفون من أهوالها لما يعلمونه من صدقها ودقة الحساب فيها وشدة كربها ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ ..(١٨)﴾ [الشورى] ولم يُقلْ حق إنما قال (الحق) يعنى : هى الحق بعينه ، فلا مجالَ فيها للتكذيب ، ولا حتى للشكِّ فى أمرها .

لذلك وصف الذين يجادلون فيها مجرد جدال بأنهم فى ضلال بعيد ﴿أَلا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلالٍ بَعِيدٍ (١٨)﴾ [الشورى] والمراء : هو الجدل العقيم الذى لا يوصل إلى الحقيقة .

ووصفهم بأنهم فى ضلال بعيد ، لأن مجرد النظر العقلى يثبت يوم القيامة وضرورته بالنسبة للحياة الدنيا ، فلو تأملوا واقع حياتهم لوجدوا أنهم فى أمور دنياهم يأخذون بمبدأ الثواب والعقاب ، فلا بدَّ لتستقيم الأمور من مجازاة المحسن بإحسانه ، ومعاقبة المسىء على إساءته .

فى واقع حياتهم تعليم وتلاميذ فى المدارس يُجرون لهم اختبارات شهرية يُصوَّب فيها الخطأ بالأحمر ليعرف التلميذ خطأه ويُصححه ، أما فى امتحان آخر العام فلا تُصوَّب الأخطاء ، إنما

تُعطى عليها درجة يترتب عليها نجاح أو رسوب ، هذا هو الحساب والجزاء .

فإذا كنتم تفعلون ذلك فى أمور دنياكم ، فلِمَ تكذبون به مع الله عز وجل ، وفى البشر فى رحلة الحياة المؤمن والكافر والطائع والعاصى والمجرم والمحسن ، كيف إذن يتساوى كُلُّ هؤلاء ؟

الرجل الذى قال : لن يموت ظَلُومٌ حتى ينتقم الله منه ، لأن العقل يقول ذلك ولا يصح أنْ يفلت بجرائمه دون عقاب ، فلما رأى ظالماً مات سالماً لم يُصبْه شىء قال ماذا ؟ قال : لا بدّ أن وراء هذه الدنيا حياةً أخرى يُعاقب الظالم على ظلمه ، لا بدَّ وإلا فقد فاز المجرمون الظالمون وأفلتوا بجرائمهم ، وضاع حَقُّ المظلومين والضعاف فى الدنيا وفى الآخرة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾ ﴾(١)

معنى ﴿ لَطِيفٌ .. ﴿١٩﴾ ﴾ [الشورى] أى رفيق فى معاملة العباد ،

(١) ذكر القرطبى فى معنى (اللطيف) أقوالاً كثيرة ذات معانٍ قلبية طيبة ، فمنها أنه : البارّ بعباده ، الرفيق بهم ، اللطيف بالبر والفاجر حيث لم يقتلهم جوعاً بمعاصيهم . هو الذى يجبر الكسير وييسر العسير . وهو الذى لا يعاجل من عصاه ولا يخيب من رجاه . وهو الذى لا يرد سائله ولا يوئس آمله . وهو الذى يعفو عمن يهفو . [تفسير القرطبى ٩/٦٠٦٠] .

يعفو عن الكثير ولا يُؤاخذ عبده بأول جريمة ؛ لذلك لما جاءوا بامرأة سرقتْ فى عهد عمر . قالت له : والله ما سرقت قبل ذلك وهذه أول مرة ، فقال لها : كذبت ما كان الله ليفضحك من أول جريمة[1] . ويقول عز وجل : ﴿ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ۝٣٠ ﴾ [الشورى] يعنى : عن كثير من سيئاتكم ولا يؤاخذكم إلا على البادى منها .

ومن معانى اللطيف أنه الدقيق الذى يتغلغل فى الأشياء ، وسبق أنْ قلنا فى الماديات : إن الشىء كلما دَقَّ وصَغُر عَنُف وصَعُب التحصُّن منه ، ومثَّلنا لذلك بمَنْ بنى بيتاً فى الخلاء ووضع على الشبابيك شبكةً من الحديد تمنع الذئاب والوحوش ، ثم وجد فى البيئة ذباباً وناموساً فجاء بشبكة أخرى أدق وأضيق .

وهكذا ، فمن صفاته تعالى أنه لطيف يعنى : لا يحتجب دونه شىء ، ولا يخفى عليه شىء مهما دَقَّ ومهما صَغُر ، ونحن نقول للإنسان المهذَّب صاحب الخُلُق : فلان لطيف يعنى ليِّن فى التعامل .

فمن لطفه سبحانه بنا أنْ جعل لنا توبةً مقبولة ، وجعل لنا مواسم للعبادة تُضَاعف فيها الحسنات وتُمحى السيئات ، وكأنها (أوكازيونات) للطاعة وتحصيل الحسنات ، من لطفه تعالى بنا أنْ

---

(١) أخرج البيهقى فى السنن الكبرى (٨/٢٧٦) من حديث أنس أن عمر أُتى بسارق فقال : والله ما سرقت قط قبلها . فقال : كذبت ما كان الله ليسلم عبداً عند أول ذنب . فقطعه . وأخرجه كذا أبو داود فى الزهد (١/٥٨) وكذا المتقى الهندى فى كنز العمال مسند عمر (حديث ١٣٩٤٩) قال ابن حجر فى أطرافه : « رواه ابن وهب فى جامعه وهو موقوف حكمه الرفع لنبيه لصحة سنده » .

جعل الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، أما السيئة فواحدة[١] .

وقوله تعالى : ﴿ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿١٩﴾ ﴾ [الشورى] يرزق لأنه الخالق ، وهو سبحانه الذى استدعى هذا الخلق لذلك تكفل له برزقه ، وهو سبحانه القوى لأن اللطف لا يكون إلا من قوة ، وهو سبحانه العزيز الغالب الذى لا يمتنع عنه شىء ولا يغلبه شىء .

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ ﴾

المعنى السطحى لكلمة الحرث هى حرث الأرض بالمحراث وإثارتها لبذر النبات فيها ، ذلك لأن النبتةَ الصغيرة لا تَقْوى على شَقِّ التربة الجامدة فنشق لها التربة ليسهل عليها النمو ، ثم هى فى حاجة إلى الهواء ، والحرث يُقلِّب التربة ، ويجعل الهواء يتغلغل فيها .

ولما كان الحرث هو سبب الثمرة سُمِّى بها ، فالحرث معناه الثمرة المرجوة من الزرع ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ ﴾ [البقرة] وقوله تعالى : ﴿ وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٣٠) كتاب الإيمان ، وأحمد فى مسنده (٦٨٩٨ ، ٨٩٥٧ ، ١٠٠٦١) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه بلفظ : « من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة ، فإن عملها كتبت له عشر حسنات ، ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب عليه فإن عملها كُتبت عليه سيئة واحدة » .

نَفَشَتْ(١) فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ .. ﴿٧٨﴾ ﴾ [الأنبياء] أى : فى الزرع .

فمعنى : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ .. ﴿٢٠﴾ ﴾ [الشورى] يعنى : ثوابها الدائم ونعيمها الخالد فى جنات عدن ، فالحق سبحانه يوضح لنا الأمور الدينية بصور من واقع حياتنا ليُقرِّبها للأذهان ، اقرأ مثلاً : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ﴾ [المؤمنون] أفلح مَن أفلح الأرض إذا حرثها وأعدَّها للزراعة ، فهو يوشك أنْ يجنى الثمرة ، كذلك المؤمن فاز بالثواب الدائم والنعيم المقيم .

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ .. ﴿٢٠﴾ ﴾ [الشورى] يعنى : يجده فى الآخرة أزيد مما كان ينتظر ، وأيضاً لا يُحرم من ثمرتها فى الدنيا ﴿ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا .. ﴿٢٠﴾ ﴾ [الشورى] أى : من ثمرات الدنيا ، فالإنسان لا يُحرم ثمرةَ جهده وتعبه فى الدنيا ﴿ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً ﴿٣٠﴾ ﴾ [الكهف]

فمَنْ عمل للدنيا لا يُحرم مُتعتها ولذَّتها ، لكن حين تُعجَّل له الطيبات فى الدنيا يُحرَم منها فى الآخرة ﴿ وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الشورى] أى لا حظَّ له فى ثواب الآخرة ، لأنه عمل فى دنياه للجاه وللشهرة أو للغنى والثروة ، فطالما أخذ بأسباب الشىء يناله حتى لو كان كافراً بالله ، والمؤمن إنْ تكاسل وقعد عن السعى يُحرم لأنه لم يأخذ بالأسباب .

---

(١) نفشت : انتشرت فى المرعى بغير راعٍ ولا ضابط . [القاموس القويم ٢/٢٧٩] .

والحق سبحانه لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصاً ، ومَنْ كان يريد حرث الدنيا لم يكُنْ الله أبداً فى باله ، لذلك كثيراً ما يسأل الناس عن العلماء والمخترعين الذين خدموا البشرية باختراعاتهم واكتشافاتهم ، ما مصيرهم ؟ نقول : مصيرهم النار لأنهم عملوا للبشرية لا لله ، عملوا للشهرة وقد أخذوها فى الدنيا .

﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ ﴾

يعنى : لماذا كذَّبوا محمداً ولم يؤمنوا بما جاء به ؟ ألهم شركاء وضعوا لهم شرعاً ومنهجاً يتبعونه ، وديناً يدينون به ويتركون دين محمد ؟ والشركاء أى : الأشياء التى عبدوها من دون الله ، منهم مَنْ عبد الشمس ، ومنهم من عبد القمر أو الشجر أو الحجر أو الملائكة ، فهل هذه الآلهة المدَّعاة لها شرع ؟ هل قالت لهم : افعلوا كذا ولا تفعلوا كذا ؟

إذن : آلهة بلا منهج وبلا تكاليف فعبادتها باطلة ، وهم ما عبدوها إلا لذلك ، لأنها بلا منهج وبلا تكاليف ، فقط تُرضى ما فى نفوسهم من الرغبة فى التديُّن ، وما أسهلَ أن يكونَ للإنسان دينٌ بلا تكاليف . والعبادة ما هى إلا طاعة العابد للمعبود فى أمره ونهيه ، ثم ماذا أعدَّتْ هذه المعبودات لمن أطاعها ، وماذا أعدَّتْ لمَنْ عصاها ؟

إذن : هذه جمادات لم تقُلْ لكم شيئاً ، ولم تأمركم بشيء ، ولم تشرع لكم ديناً ، بل أنتم شرَّعتم لأنفسكم واتبعتم أهواءكم لإرضاء عاطفة فى نفوسكم ، آلهتكم من صُنْع أيديكم أو أفكاركم السقيمة الضالة .

لذلك يقول تعالى : ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (١٠٣)﴾ [المائدة]

نعم هؤلاء قوم يفترون على الله الكذب ، ويختلقون من عند أنفسهم أشياء ما أنزل الله بها من سلطان ، فمن أين أتوا بالبحيرة والسائبة والوصيلة والحام ؟ هذه أشياء اخترعوها من عندهم افتراءً على الله وكذباً .

فالبَحيرة هى الناقة التى ولدتْ خمس مرات ، فهى عندهم أدَّتْ ما عليها ، فيشقون أذنها ويتركونها سائبة لا تُركب ولا يُشرب لبنها ، ولا تُدفع عن الماء ولا عن المرعى ، وهذه أمور ما شرعها الله ، وقد أحلَّ الله لهم حتى الانتفاع بلحمها .

كذلك السائبة : كانوا إذا اشتكى الواحد منهم من وجع أو نزلتْ به نازلة قال : إذا حصل كذا وذهب المشكو منه أجعل ناقتى هذه سائبة لا تُركب ولا يُشرب لبنها ، ولا تُرد عن الماء ولا عن المرعى .

والوصيلة هى الشاة كانت إذا ولدتْ ذكراً جعلوه للآلهة وذبحوه للخدم والسَّدنة ، وإذا ولدت أنثى أخذوها لهم لتُنجب عندهم ، أما إذا ولدتْ ذكراً وأنثى احتفظوا بهما لأن الأنثى وصلتْ أخاها ، فلم يُؤخذ للآلهة بل يظل معها .

والحام : هو البعير حمى ظهره من أنْ يركب إذا أنتج عشرة أبطن فيقولون : إنه أدى ما عليه ، فلا يُركب ولا يُردّ عن الماء ولا عن المرعى .

هذه كلها أمور أحلَّها الله لهم وحرَّموها على أنفسهم ، لذلك قال سبحانه فى سورة الأنعام : ﴿ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ نَبِّئُونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٤٣) وَمِنَ الإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَـٰذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٤٤) ﴾ [الأنعام]

فالحق سبحانه يقول لهم : أخبرونى مَنْ حرَّم هذه الأشياء ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَـٰذَا .. (١٤٤) ﴾ [الأنعام] أى : بهذا التحريم الذى شرَّعتموه من عندكم افتراءً على الله ، إذن : أنتم جعلتم المشرَّع له مُشرِّعاً ، شرع لنفسه بدل أنْ يتلقى التشريع من الله .

﴿ وَلَوْلا كَلِمَةُ الْفَصْلِ .. (٢١) ﴾ [الشورى] أى : الحكم بعدم إهلاكهم وتأخير عذابهم إلى الآخرة ﴿ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ .. (٢١) ﴾ [الشورى] يعنى : حُكم عليهم بالعذاب العاجل .

حين ننظر فى الأشياء التى أحلَّها الله والأشياء التى حرَّمها نجدها تعتمد على مراعاة المنفعة ودفع المضرة عن الإنسان ، فالحلال فيه نفع والحرام فيه ضرر ، لذلك نجد بعض المستشرقين يعترضون على أشياء حرَّمها الحق سبحانه على بنى إسرائيل مثلاً وهى غير ضارَّة ، وغيرهم يأكلها ولا تضره .

نعم حرَّم الله على بنى إسرائيل كُلَّ ذى ظفر من البقر والإبل ، وغير مشقوقة الأصابع مثل : البط والأوز والنعام ، وحرَّم عليهم الدهون ﴿إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا[1] أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ .. (١٤٦)﴾ [الأنعام] وهذه كلها أشياء حلال لغير بنى إسرائيل وليس فيها ضرر ، إنما حُرِّمت عليهم عقاباً لهم وتأديباً فليستْ العلة فى التحريم الضرر .

قال تعالى : ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ .. (١٦٠)﴾ [النساء] فلما ظلموا أدَّبهم الله بأنْ حرَّم عليهم ما أحلَّ لغيرهم .

ثم نلحظ على الآية أنها عبَّرتْ عن باطلهم الذى جاءوا به من عند أنفسهم بأنه دين ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ .. (٢١)﴾ [الشورى] فسمى الباطل ديناً تجاوزاً ، لأنهم مؤمنون به ويعتبرونه ديناً ، كما قال تعالى : ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (٦)﴾ [الكافرون] على اعتقادهم ، والدين ما يدين به الإنسان .

﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢١)﴾ [الشورى] الظالم إما يظلم غيره ، وإما يظلم نفسه ، وهذا أشنع أنواع الظلم ، فقد يعقل أن يظلم الإنسان عدوه ، إنما يظلم نفسه التى بين جنبيه ؟! فكيف يكون ظلم الإنسان لنفسه ؟ يظلمها حين يُعرِّضها للعقوبة ، ويحرمها من الثواب والنعيم ، وأشد أنواع ظلم الإنسان لنفسه أنْ يظلمها فى مسألة العقيدة والإيمان بالله ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣)﴾ [لقمان]

---

(١) الحوايا : الأمعاء ، وهى مشتقة من حوى يحوى لأنها تحتوى على الطعام . [القاموس القويم ١/١٧٩] .

﴿ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعُۢ بِهِمۡۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوۡضَاتِ ٱلۡجَنَّاتِۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ٢٢ ﴾

كلمة ﴿ ترى .. ٢٢ ﴾ [الشورى] تدل على كل ما يتأتى منه الرؤيا ﴿ مُشْفِقِينَ .. ٢٢ ﴾ [الشورى] خائفين مرعوبين ﴿ مِمَّا كَسَبُوا .. ٢٢ ﴾ [الشورى] مما فعلوا من السيئات ، قلنا : إن الفعل كسب يكسب من الزيادة على رأس المال أى الربح ، وأنها دائماً تأتى فى كسْب الخير ، أما اكتسب فهى على وزن افتعل فيها افتعال ومحاولة وتأتى فى الشر ، لكن هنا استخدم كسب للسيئات .

وكما فى قوله تعالى : ﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ .. ٨١ ﴾ [البقرة] قالوا : استخدم كسب هنا لأن السيئة أصبحتْ عنده عادةً وأمراً طبيعياً يشبه فعل الخير عند أهل الخير ، فهو يفعل السيئة فلا تتعبه لأنه ألفها .

قوله : ﴿ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا .. ٢٢ ﴾ [الشورى] تصوير لموقفهم يوم القيامة ، لأنهم فى الدنيا ما خافوا وما عملوا لهذا اليوم حساباً ﴿ وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ .. ٢٢ ﴾ [الشورى] يعنى : لا محالة فى ذلك لأنه وَعْد الله وحكمه الذى أخبر به .

أو خائفين وهم ما يزالون فى سعة الدنيا ، وفى هذا دليل على وجود الضمير والنفس اللوامة فى الإنسان ، فهو يعرف السيئة

ويعرف جُرْمه ، ويعرف أنه محاسب عليه ، لذلك يخاف منه ويؤنبه ضميره .

وفى المقابل ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٢٢) ﴾ [الشورى] هذا إخبار من الله تعالى وهو حق ، فعاقبة الإيمان والعمل الصالح روضات الجنات يعنى ملاذها وأطيب أماكنها يجدونها يوم القيامة ، ويجدونها حتى فى الدنيا بالتخيل لها والشوق إليها .

فالشهيد الذى يجود بنفسه فى سبيل الله لم يُقدم على ذلك إلا لثقته فى هذا النعيم ، وأنه إذا قُتِل فى سبيل الله سيذهب إلى خير من هذه الحياة .

وقد ذكرنا قصة الصحابى الذى سمع من رسول الله جزاء الشهداء ، فقال : يا رسول الله أليس بينى وبين الجنة إلا أنْ أقاتل هؤلاء فأُقتل ؟ قال ﷺ : بلى . فألقى الصحابى تمرة كانت فى فمه وبادر إلى الشهادة ، ولم ينتظر حتى يمضغ التمرة التى كانت فى فمه[1] ، لماذا ؟ لأنه واثق من صدق الجزاء فى قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) ﴾ [آل عمران]

نعم الشهداء أحياء ، وأحياء عند مَنْ ؟ عند ربهم ، وهذه قمة

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (حديث ٣٧٤٠) عن جابر بن عبد الله قال : قال رجل للنبى ﷺ يوم أحد : أرأيت إن قُتلت فأين أنا ؟ قال : فى الجنة . فألقى تمرات فى يده ثم قاتل حتى قُتِل . وكذا أخرجه النسائى فى سننه (حديث ٣١٠٣) وأحمد فى مسنده (حديث ١٣٧٩٤) .

الشرف والعز والنعيم ، وهى خصوصية لم ينلْهَا غيرهم ، فالشهادة نقلتهم من حياة لحياة ، فلا يموتون بعد ذلك ، ويُبعثون مع الناس وهم أحياء .

وقد عبَّر الشاعر(١) عن هذا المعنى حين قال فى سيد الشهداء حمزة ابن عبد المطلب عم رسول الله :

أَحمْزةُ عَمّ المصْطفى أنتَ سَيِّدٌ ... عَلَى شُهَداء الأرض أجمعِهمْ طُرّا

وحَسْبُكَ مِنْ تلْكَ الشَّهادة عصْمةٌ ... مِنَ الموت فى وصلِ الحياتين بالأُخْرى

وقوله : ﴿فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ .. (٢٢)﴾ [الشورى] روضات جمع روضة ، وهى الحديقة أو البستان الملىء بالخضرة والنضرة والأزهار والثمار ، بحيث إذا دخلتها تنفحك بأريج عطرها ، وفى خلال ذلك أنهار تجرى بالماء العذب .

فالذين آمنوا وعملوا الصالحات فى روضات الجنات يعنى : فى أفضل أماكنها وأطيبها ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ .. (٢٢)﴾ [الشورى] فهذه العندية أشرف وأعظم من أىِّ نعيم آخر ، فهم فى نعيم الجنات وملاذِّها ، يفوق ذلك كله أنهم عند ربهم ، لذلك ختم الآية بقوله : ﴿ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٢٢)﴾ [الشورى] أى : تفضُّلاً من الله وتكرُّماً عليهم .

والإنسان منا حين يتأمل هذا النعيم الدائم المقيم الذى أعده الحق سبحانه لعباده المؤمنين تهون عليه كلُّ مشاق الطاعات والعبادات ،

---

(١) من شعر الشيخ رحمه الله .

ويرى أنها يسيرة إذا ما قُورنت بالجزاء عليها .

فالإنسان يتعب فى الدنيا ويجتهد فى طلب العلم عشرات السنين ، أو فى تعلُّم صنعة أو مهنة ويتحمل مصاعبها وأخطارها ، كلّ ذلك ليوفر لنفسه مجرد ضروريات الحياة ، فإن اجتهد أكثر وعرق وبذل الجهد ، ربما يصل إلى مرحلة الرفاهية ، فيكون له خادم يخدمه أو طباخ مثلاً يُعد له الطعام ، وهؤلاء يعملون عنده بأجر وربما قصَّروا فى أعمالهم ، وربما أغضبوك وتمردوا عليك .

لكن حين تعمل للآخرة تجد الأمر مختلفاً تماماً ، فالعبادة أمرها يسير ، لا تحتاج منك إلى كل هذا الجهد وهذا العرق وسهر الليل وعمل النهار وانشغال البال والذهن ، ومع يُسْرها وسهولتها فالجزاء عليها عظيم لا تحدُّه حدود ولا يخطر على بال .

قلنا : إن قصارى ما توصَّل إليه البشر فى التقدم العلمى فى مجالات الخدمة الفندقية مثلاً أنْ تضغط على زر فى ماكينة ينزل لك منها الشاى أو القهوة ، وهذه آلة يمكن أنْ تتعطل وخلفها عامل يُعدُّ لك الشاى أو القهوة ، أمَّا فى الجنة فالنعيم هناك صَافٍ لا يُنغِّصه شىء ودائم لا ينقطع ، لا يحتاج منك إلى طلب ولا ضغط على زر ولا مناداة على خادم ، مجرد أن يخطر الشىء ببالك تجده بين يديك ، وصدق رسول الله ﷺ : « فيها ما لا عَيْن رأت ، ولا أذن سمعتْ ، ولا خطر على قلب بشر »(١) .

واقرأ مثلاً فى سورة البقرة : ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٨٢٤) وأحمد فى مسنده (٢/٤٦٦) وأبو نعيم فى الحلية (٢/٢٦٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

الصَّالحَات أَنَّ لَهُمْ جنَّات تَجْرِى من تَحْتهَا الأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا منْهَا من ثَمَرَة رِّزْقًا قَالُوا هَـٰذَا الَّذى رُزِقْنَا من قَبْلُ وَأُتُوا به مُتَشَابهًا وَلَهُمْ فيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ(١) وَهُمْ فيهَا خَالدُونَ (٢٥)﴾ [البقرة]

ففى الجنة إنْ شاء الله سنجد أشياء كنا نأكلها فى الدنيا ، فنتصور أنها مثل نعيم الدنيا ، لكن حين نتذوقها نجدها شيئاً آخر ﴿قَالُوا هَـٰذَا الَّذى رُزِقْنَا من قَبْلُ وَأُتُوا به مُتَشَابهًا .. (٢٥)﴾ [البقرة] ذلك لأن كمالات الحق سبحانه لا تتناهى ، فلا تظل على حالة واحدة رتيبة ، إنما فيها ارتقاء فى النعمة .

إذن : نحن أمام نعيم دائم يهون فى سبيله كلُّ تعب وكلُّ مشقة ، ووالله لو لم يكُنْ للطاعة جزاء إلا سلامة الإنسان وسعادته فى الدنيا لكانتْ كافية ، يكفينا من الطاعة راحة البال وهدوء النفس والطمأنينة ، وقد عبَّر الشاعر عن هذا المعنى فقال(٢) :

قَالَ المنجِّمُ وَالطَّبيبُ كلاَهُمَا ... لاَ تُبعَثُ الأجْسَادُ قُلْتُ إليكُمَا
إنْ صَحَّ قولكُما فَلَستُ بخاسرٍ ... أَوْ صَحَّ قَوْلى فَالخَسَارُ عليكُمَا(٣)

---

(١) قال الطبرى فى تفسيره (١/٣٩٥) : « قوله (مطهرة) أنهن طُهرن من كل أذىً وقذى وريبة ، مما يكون فى نساء أهل الدنيا من الحيض والنفاس والغائط والبول والمخاط والبصاق والمنى وما أشبه ذلك من الأذى والأدناس والريب والمكاره » .

(٢) الشاعر هو : أبو العلاء المعرى ، أحمد بن عبد الله ، شاعر وفيلسوف ولد فى معرة النعمان عام (٣٦٣هـ/٩٧٣م) ، قال الشعر وهو ابن ١١ سنة رحل إلى بغداد عام ٣٩٨ ، لما مات وقف على قبره ٨٤ شاعراً يرثونه . كان يحرم أكل اللحم . له (لزوم ما لا يلزم) ، (سقط الزند) (ضوء السقط) . توفى عام (٤٤٩ هـ / ١٠٥٧هـ) .

(٣) هذان البيتان من قصيدة من بحر الكامل ، عدد أبياتها ٧ أبيات .

لذلك الحق سبحانه وتعالى لما أراد أنْ يصف لنا الجنة لم يصف الجنة ذاتها إنمـا مثلاً لها ، لأن الجنة وما فـيها فوق تصـور البشر ، وإذا كان فيها مـا لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، فكيف إذن تُوصَـف لنا على حقيـقتهـا ؟ لأن الإنسان لا يضع اللفظ إلا لمسـمى معلوم عنده ، أما الشيء الذى لا نعرفـه فلا نعرف بالتالى اللفظ الدالَّ علـيه ، فليس فى لغتنا ألفـاظ تصف هذا النعيم ، لذلك اقرأ : ﴿ مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ .. (٣٥) ﴾ [الرعد] فيها كذا وكذا .

ثم إن هذا النعـيم المـقـيم جـزاء لمن ؟ لمن آمن وقـرن الإيمـان بالعمل الصـالح ، ودائماً يقرن الـقرآن بين الإيمان والعـمل الصـالح ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) ﴾ [فصلت]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ (٢٣) ﴾

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ .. (٢٣) ﴾ [الشورى] إشارة إلى نعيم الجنة ﴿ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ .. (٢٣) ﴾ [الشورى] والبشارة هى الإخبار بالخير قـبل أوانه ، ثم ينتقل السياق إلى قضية

أخرى متعلقة برسول الله ﷺ وأمر الدعوة ﴿قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا .. (٢٣)﴾ [الشورى] يعنى : قل لهم يا محمد : إننى لا أريد منكم أجراً على الدعوة والمهمة التى أقوم بها من أجلكم ، وأنت لا تقول هذه الكلمة إلا إذا كنت قد عملتَ عملاً تستحق عليه أجراً بالفعل .

فالمعنى كأنه يقول : إن العمل الذى أقوم به من أجلكم كان يجب أن يكون لى عليه أجر ، لأننى أنصحكم وأدلكم على ما ينفعكم ، ومع ذلك لا أريد منكم أجراً .

وكل رسل الله قالوا هذه الكلمة ، لأن الإنسان عادة يجازى مَنْ أسدى إليه جميلاً أو دلَّه على خير أو أشار عليه مشورة تريحه ، لذلك فى كثير من مواكب الرسالات نقرأ : ﴿وَيَـٰقَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِىَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ .. (٢٩)﴾ [هود] نعم على الله ، لماذا ؟ لأنه عمل عظيم نفيس وشريف ، لا يمكن لبشر أنْ يُقدره قدره ، أو يعطى عليه ما يستحق من أجر ، إذن : لا يعطينى أجرى إلا الله الذى بعثنى .

قلنا : كل الرسل قالوا هذه الكلمة إلا سيدنا إبراهيم وسيدنا موسى عليهما السلام ، لماذا ؟ قالوا : لأن سيدنا إبراهيم أول ما دعا دعا أباه آزر ، فكيف يطلب منه أجراً ؟ كذلك سيدنا موسى أول ما دعا دعا فرعون ، وكان له عليه فضل التربية .

إذن : لا أريد منكم أجراً على مهمة الدعوة التى أقوم بها ، فأجرى فيها على الله الذى بعثنى ، وهو الذى يُقدِّرها قدرها ، شىء واحد أريده منكم ﴿إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِى الْقُرْبَىٰ .. (٢٣)﴾ [الشورى] يعنى : مودتكم لقرابتى . والمودة : ميل القلب إلى مَنْ تواده ثم معاملته بما يستحق من تكريم وتقدير .

فكأن رسـول الله ﷺ يقول لهم : لقـد أُرسلْتُ إلى الناس كـافة ، وقد قـابلتمونى بالإيذاء وجـابهتمـونى بالعداء واضطهدتم أصـحابى ، وألجأتمونى إلى غيركم مرة إلى الطائف ، ومرة إلى القبائل الأخرى ، وألجـأتم أصحـابى إلى أن يتركـوا بلادهم وديارهم ، وأنا لى فى كل بطن من بطون قـريش قرابة حتى فـى المدينة حيث أخـوالى من بنى النجار ، فـلا أقلَّ من أنْ تعطونى حقى فى قـرابتى ، وحق القرابة ألاَّ تؤذونى ، فأنا لا أجبركم على الإسلام ولا أفعل ما يدعو إلى الإيذاء ، كذلك من حق القرابة ألاَّ تُسْلمونى لعدوى ، فهذا حقى عليكم .

أو يكـون المـعنى ﴿إِلاَّ الْمَـوَدَّةَ فِي الْقُـرْبَىٰ .. ﴿٢٣﴾﴾ [الشـورى] يعنى : أقاربى وأهل بيتى ، ذلك لأن أقارب رسـول الله ﷺ حرموا من مُعـين على العيش ، فليـسوا كبـاقى المسلمـين ، حيث حُرِّمـتْ عليهم أمـوال الزكاة التى يسـتحـقهـا الفقـير من غـيرهم ، فـلا أقلَّ من أن تعاملوهم بالحسنى وبالمعروف ، وتراعوا منزلتهم منى .

لذلك نجـد لهم أحاديث كـثيـرة فى إكـرام أهل البيت يقـولون أن غيرهـم قالها ، من ذلك : مَنْ مات على حب آل بيت رسـول الله مات شهيداً ، مات مغفوراً له ، مـات وتُحيِّيه الملائكة فى قبره ، مات وفى قبـره باب يؤدى به إلى الجنة ، ومن أبغض آل محـمد فـهو آيس من رحمة الله[1] .

---

(١) أورده القـرطبى فى تفسـيره (سـورة الشورى آية ٢٣) بلفظ : « من مـات على حب آل محمـد مات شهيداً ، ومن مات على حب آل مـحمد جعل الله زوار قبره المـلائكة والرحمة ، ومن مات على بغض آل محمـد جاء يوم القيامة مكتوباً بين عينيـه أيس اليوم من رحمة الله ومن مات علـى بغض آل محمـد لم يرح رائحة الجنة ، ومـن مات على بغض آل بيـتى فلا نصيب له فى شـفاعتى » . وأورده الزمخـشرى مطولاً فى تفسيـره (الكشاف) (٩٩٢) وذكره الألبانى فى السلسلة الضعيفة (٤٩٢٠) وقال : « باطل موضوع » .

قالوا هذا لأن النبى ﷺ قال كلاماً مثل هذا ، قال : « أحبوا الله لما يغذوكم من النعم وأحبونى بحبِّ الله ، وأحبوا أهل بيتى لحبى »(١) وهذا معنى آخر من معانى ﴿ إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ .. (٢٣) ﴾ [الشورى]

أو يُراد بها معنى ثالث ﴿ إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ .. (٢٣) ﴾ [الشورى] قرباكم أنتم يعنى كل منكم يودُّ قريبه ويعطيه ويرعى حَقَّ قرابته ، ولو أن كل إنسان واجد عنده سعةٌ من الرزق يعطى قرابته ويكفيهم ويساعدهم على المعيشة الكريمة ما وُجد بيننا فقير ولا محتاج ، والمجتمع عبارة عن دوائر متداخلة ، فلو فعلنا ذلك لَعمَّ خير الله جميع خَلْق الله .

ثم إن الأقارب لهم حَقّ فى مالك غير الزكاة ، لذلك قال أحد الأغنياء : أنا أعطى أخى الفقير من مال الزكاة ، فقلنا له : والله لو يعلم أنك تعطيه من مال الزكاة ما قبلها ، إذن أعطه من نسبة ٩٧,٥٪ لا من ٢,٥٪ اترك هذه النسبة اليسيرة للفقراء الأباعد عنك .

وآخر يقول : أضع مال الزكاة فى بناء مدرسة ، وآخر يقول : فى بناء مستشفى أو مسجد ، سبحان الله وهل نسبة ٢,٥٪ تكفى كل هذا ؟ اجعلوها لأصحابها كما فرضها الله ليستقيم حال المجتمع ، ثم لو فعلنا كل هذا من مال الزكاة ماذا سنفعل فى نسبة ٩٧,٥٪ .

إن وضع مال الزكاة فى موضعه كما علَّمنا الحق سبحانه يحمى المجتمع ويستر عوراته ، فلا تجد فيه عارياً ولا جائعاً ولا مريضاً لا يجد ثمن العلاج ، لكن لما عطلنا أحكام الشرع فى هذه المسألة ظهرت عورات المجتمع المسلم كما نرى ونشاهد .

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه (٣٧٢٢) والحاكم فى مستدركه (٤٦٩٩) والطبرانى فى المعجم الكبير (٢٥٧٣ ، ١٠٥١٦) والبيهقى فى شُعب الإيمان (٤٣٧ ، ١٣٦٨) كلهم من حديث ابن عباس رضى الله عنه ، كلهم من طريق يحى بن معين بسنده إلى ابن عباس . قال الترمذى : هذا حديث حسن غريب إنما نعرفه من هذا الوجه .

الحق سبحانه وتعالى وزَّع خَيْرَهُ على كل خَلْقه و (هندس) اقتصاد المجتمع ، بحيث لو نُفِّذت تعاليمه فى هذه المسألة لعاشَ الفقير فى نفس مستوى معيشة الغنى .

ومن هذه العدالة فى توزيع الخير على الناس تجد مثلاً رجلاً غنياً فى بلدة ما هى موطنه منذ مولده ، ومع ذلك يحنُّ إلى موطن آخر فيذهب إليه ويعمر فيه ويفيض من خيره على أهله ، قالوا : إذا رأيتَ مثل هذا الرجل فاعلم أن وجوده فائضٌ عن حاجة أهل بلده ، فنقله الله إلى مكان آخر محتاج إليه .

وإذا كنا نفعل هذا مع أقاربنا ، فرسول الله أَوْلَى بالمؤمنين من أنفسهم ، فقرب رسول الله أَوْلى ، لأن رسول الله علم أنه سوف تأتى عهود يُضطهد فيها أهل بيته ، والتاريخ شاهد على ذلك ، وقد رأيتم آل البيت وقد تشتتوا فى سائر البلاد ، بل وقُتل منهم مَنْ قُتل ، وتعلمون مدى حبِّ شعب مصر لآل بيت رسول الله ﷺ ، كذلك نحب أبا بكر وعمر ، وليس بيننا شيعى واحد .

والمودَّة والقربى أول ما تكون تكون لله تعالى ولرسوله ﷺ ، وإذا كانت المودة ميل القلب لمن تهواه ، فهذا الميْل له تبعات ، فلا تراه محتاجاً وأنت واجد ، ولا تراه جاهلاً وأنت متعلم ، وهكذا .

ومن المودة فى القربى بر الوالدين . وقلنا : إن الحق سبحانه وتعالى جعل بر الوالدين دُرْبة ورياضة للإيمان بالله ، لأنهما سبب الوجود المباشر ، وهو سبحانه سبب الوجود الأعلى ، فقال سبحانه : ﴿ وَوَصَّيْنَا الإنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا .. ⑧ ﴾ [العنكبوت] وفى آية أخرى ﴿ وَوَصَّيْنَا الإنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا .. ⑮ ﴾ [الأحقاف]

حتى فى حالة عصيانهما فى أعلى منطقة وهى منطقة العقيدة والتوحيد أمَرَ ببرهما ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا .. (١٥)﴾ [لقمان] وأعطى الاهتمام الأكبر للأم فى قوله تعالى : ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ .. (٨)﴾ [العنكبوت] أى : الاثنين ولم يذكر حيثية للأب ، إنما ذكر حيثية الأم فقال ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ .. (١٤)﴾ [لقمان] لأن دور الأم كان فى حال الصِّغر وعدم التعقُّل لما تفعل ، فدورها غائب عنك ، سابق لوعيك وإدراكك للأمور ، فلما كبرت عرفت دور الأب ، لذلك ذكَّرك الحق سبحانه بدور الأم الذى غاب عنك .

ثم نجد القرآن يحتاط فيراعى حقَّ التربية ، حتى إنْ ربَّى غير الوالدين فيقول : ﴿وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (٢٤)﴾ [الإسراء] فمَنْ ربَّى كان فى منزلة الوالدين واستحقَّ البر مثلهما تماماً .

وقوله تعالى : ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ[(١)] حَسَنَةً .. (٢٣)﴾ [الشورى] يعنى : يفعل طاعة لله ﴿نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا .. (٢٣)﴾ [الشورى] فالأمر لا يقف عند حد المودة ، إنما أيضاً ترعاهم فيما يحتاجون إليه ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ (٢٣)﴾ [الشورى] غفور وشكور صيغة مبالغة من غافر وشاكر ، فالحق سبحانه واسع المغفرة كثير الشكر ، يغفر لمن تاب إليه ويشكر مَنْ أطاعه ، والشكر يكون بالزيادة كما قال سبحانه : ﴿لَئِن

---

(١) يقترف : أى يكتسب . والاقتراف : الاكتساب . [تفسير القرطبى ٩/٦٠٦٧] واقترف الذنب : أتاه وفعله . واقترف الحسنة : فعلها . ومثله قوله تعالى : ﴿وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ (١١٣)﴾ [الأنعام] أى : وليرتكبوا ما يشاؤون من الآثام . [القاموس القويم ٢/١١٤] .

شكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ .. ﴿٧﴾ ﴾ [إبراهيم]

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ ﴾

الكلام هنا عن كفار مكة الذين اتهموا رسول الله ﷺ بأنه كذب القرآن من عند نفسه ونسبه إلى الله ﴿ أَمْ يَقُولُونَ .. ﴿٢٤﴾ ﴾ [الشورى] أى الكفار ﴿ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ..﴿٢٤﴾ ﴾ [الشورى] يعنى : جاء بالقرآن من عنده . والافتراء منهم هم ، فهم أهل الكلام وأصحاب القصائد والخطب ، وما عرفوا عن محمد - وقد عاش بينهم - أنَّ له ريادة فى هذا المجال .

إذن : أنتم أصحاب هذا الفن ولسانكم طويل ، فلماذا لم تأتوا بمثل ما جاء به ؟ ولو حتى بسورة واحدة ؟ فلو أن الافتراء وارد فى حق محمد فأنتم أولَى ، فلماذا تحداكم القرآن ولم تأتوا بشىء ؟ لا بعشر سور ولا بسورة واحدة .

وفى موضع آخر يرد القرآن عليهم بالمنطق وبالحسنى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [هود]

لذلك ينتقل سياق الآية من الحديث عن الكافرين وافترائهم على رسول الله إلى مخاطبة الرسول ﴿ فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ .. ﴿٢٤﴾ ﴾ [الشورى] يعنى : إنْ حدث منك أن افتريت القرآن وجئتَ به

من عند نفسك ، فالله قادر أنْ يختم علـى قلبك يا محمد فتنسى الذى تحـفظـه ، وهل حـدث ذلك لرسـول الله ﷺ ؟ لا بل ظـل القـرآنُ فى صدره يتلوه آناء الليل وأطراف النهار ويُعلِّمه للناس .

إذن : محمد لم يكذب القرآن ، ولم يفـتر على الله بل أنتم المفترون . والقـرآن فى مواضـع كثـيـرة يكشف افتـراءهم ويردُّ عليـهم بالعـقل وبالمنطق وبالتى هى أحسن ، فيحكى كيف يتمحكون فى هذه المسألة : ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ .. (١٠٣)﴾ [النحل] فقد اتهموا رسول الله أنه يخـتلف إلى رجل أعجـمى يُعلِّمه القـرآن ، فيرد عـليهم الحق سبحانه ﴿لِّسَانُ الَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ (١٠٣)﴾ [النحل]

فالرجل الذى تقـولون إن محمداً يتـردد عليه ليُعلمـه القرآن رجل أعجمى والقرآن بلسان عربى واضح ، فأين عقولكم ، وإنْ كنتَ كذوباً فكُنْ ذكُوراً حتى لا ينكشفَ زيفُك وباطلك .

ويحكى القـرآن عنهم لوناً آخـر من التـعنت والعناد : ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَـٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥) قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٦)﴾ [يونس]

نعم جاء مـحمد بالقـرآن بعد الأربعين ، وهو بين أظهـرهم ، وما رأوه خطيباً ولا شاعراً ، ولم يُعرف عنه شىء من ذلك .

فلما يئـسوا قالوا : القـرآن لا بأس به ، لكن يعيـبه أنه نزل على

محمد بالذات : ﴿ وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ (١) عَظِيمٍ (٣١) ﴾ [الزخرف]

ثم يفضح الحق سبحانه موقفهم ويُبيِّن غباءهم ولَدَدهم فى الباطل ، وأن هذه الخصومة ما هى إلا عناد وتكبُّر عن قبول الحق ، فيقول : ﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢) ﴾ [الأنفال] ، فهل هذا كلام عقلاء ، أم هو الحقد على محمد بذاته ؟

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٢٤) ﴾ [الشورى] الفعل يمحو وحُذفت الواو تخفيفاً ، والذى يُمحَى هو الباطل الذى قالوه ، والافتراء الذى كذبوه على رسول الله ، هذا يمحوه الله وفى المقابل ﴿ وَيُحِقُّ الْحَقَّ .. (٢٤) ﴾ [الشورى] يثبته ويُقويه ﴿ بِكَلِمَاتِهِ .. (٢٤) ﴾ [الشورى] أى المنزلة على قلب سيدنا رسول الله ﷺ فى القرآن الكريم .

أو يُراد بالكلمات كلمة كُنْ فيكون ﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٢٤) ﴾ [الشورى] يعنى : عليم بخفاياها والذى لا يستطيع الإنسان التعبير عنه باللسان فيكتمه فى نيته وفى نفسه ، كما قال سبحانه ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ (١٩) ﴾ [غافر]

---

(١) القرية : البلدة الكبيرة تكون أقل من المدينة ، أو هى مكان اتصلت به الأبنية . والمقصود بالقريتين هنا : مكة والطائف . [القاموس القويم ٢/١١٥] . وقد ذكر غير واحد منهم قتادة أنهم أرادوا بذلك الوليد بن المغيرة وعروة بن مسعود الثقفى . وعن ابن عباس أنهم يعنون الوليد بن المغيرة وحبيب بن عمرو الثقفى . قال ابن كثير فى تفسيره (٤/١٢٧) : « الظاهر أن مرادهم رجل كبير من أى البلدتين كان » .

إذن : ظلَّ هؤلاء القـوم يعـاندون رسـول الله ويحـقـدون عليـه ويصـادمون دعـوته ويتهـمونـه ، إلى أن كشف الله باطلهم وأزهقـه ، وانتهى أمرهم إما بالإسلام أو الهزيمة أو شملهم عفو رسول الله يوم فتح مكة يوم أنْ قال لهم : « ما تظنون أنى فاعل بكم » قالوا : خيراً أخ كريم وابن أخ كريم ، قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء »(١) .

إذن : جاء نصر الله والفـتح ، وزهق الباطل ، وثبت الحق ، وعلا وانتصـر ، وهل يُعقل أنْ يرسل الله رسولاً لهـداية الخلق ، ثم يُسلمه لأعدائه أو يخذله فى مواجهته للباطل ؟

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) ﴾ [الصافات]

وأخـيـراً نلحظ على هذه الآية أن البـعض ظنَّ أن الفـعل يمـحـو معطوف على (يشأ) وأنه مـجزوم مثله بعد إنْ الشرطيـة وهذا غير صحيح ، لأن (الفعل يمحو) جاء كـلاماً جديداً مستقلاً بدليل تكرار لفظ الجلالة ورفع (ويحقُّ) ، فهو فعل مرفـوع وحُذِف الواو تخفيفاً أو لالتقاء ساكنين .

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (٢٥) ﴾

من لُطْف الله بعباده ورحمته بهم أنْ شرع لهم التوبة وجعل بابها

(١) قال ابن إسحاق : حدثنى بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ قام فى خطابه على باب الكعبة فقـال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، صدق وعـده ونصر عبده وهزم الأحـزاب وحده . إلى أن قال : ما ترون أنى فاعل فيكم ؟ قالوا : خـيراً أخ كريم وابن أخ كريم قال : فاذهبوا فأنتم الطلقاء . [السيرة النبوية لابن هشام ٤١٢/٤] .

مفتوحاً لا يُغلق ، والتوبة أمل يتعلق به المسيء ويجد فيه حبل النجاة فيعود وتحسن سيرته ويتقوَّم سلوكه وينتفع به مجتمعه ، أما إنْ أغلقنا باب التوبة في وجهه وألجأناه إلى اليأس تمادى في عصيانه فشَقِي وشَقِي به مجتمعه .

والتوبة تعنى رجوع المسيء إلى الله ، ولها مراحل : شرع الله التوبة ومجرد مشروعيتها فضل من الله ، ثم إذا تاب العبد قبلَ الله منه توبته ، لذلك قال تعالى ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا (١١٨)﴾ [التوبة] تاب عليهم . يعنى : شرع لهم التوبة ليتوبوا فيقبل توبتهم .

والتوبة ليست كلمة تقال : أستغفر الله العظيم الذى لا إله إلا هو وأتوب إليه ، إنما التوبة منهج متكامل ، وقد بيَّنها لنا الإمام على رضى الله عنه عندما أقيمت الصلاة فسمع رجلاً فى الصف يقول : أستغفر الله العظيم ، الله أكبر ، فلما انتهى من الصلاة قال له : لقد استعجلتَ فى التوبة فتوبتك تحتاج توبة[١] .

إذن : ليست مجرد كلمة ، إنما منهج وبرنامج تستعرض فيه أولاً ما فاتك من سيئات وما حدث منك من تفريط ، فتندم أولاً على ما بدر منك ، وقد ورد فى الحديث : « الندم توبة »[٢] .

---

(١) ذكره الرازى فى تفسيره مفاتيح الغيب (١٣/ ٤٣٤) تفسير آية ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ .. (٢٥)﴾ [الشورى] روى جابر أن أعرابياً دخل مسجد رسول الله ﷺ وقال : اللهم إنى أستغفرك وأتوب إليك وكبَّر ، فلما فرغ من صلاته قال له على بن أبى طالب : يا هذا إن سرعة اللسان بالاستغفار توبة الكذابين فتوبتك تحتاج إلى توبة » .

(٢) أخرجه ابن ماجه فى سننه (٤٢٤٢) ، وأحمد فى مسنده (٣٣٨٧ ، ٣٨٠٩ ، ٣٨١١ ، ٣٩١٤) والبيهقى فى سننه (١٠/ ١٥٤) والحاكم فى مستدركه (٧٧٢٠) والبيهقى فى شُعب الإيمان (٦٧٧٠ ، ٦٧٧١) كلهم من حديث عبد الله بن مسعود .

وفى قصة ابنى آدم : ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ۝٣٠ ﴾ [المائدة] فعندما هدأتْ عنده سَوْرة الشر والخصومة عاد إلى الصواب فندم على ما فعل ، ثم تتذكر ما فاتك من فروض الصلاة فتقضيها أو تجبرها بصلاة النوافل .

ثم ترد المظالم إلى أهلها . فهذه شروط ينبغى توافرها ، ثم زِدْ على ذلك أن تذوب فى الحسنة كما ذُبْتَ فى السيئة ، وأنْ تذوق مرارة مشقة الطاعة كما ذقتَ حلاوة المعصية .

والقياس فى اللغة أن نقول : يقبل التوبة من عباده ، لكن الحق يقول ﴿ عَنْ عِبَادِهِ .. ۝٢٥ ﴾ [الشورى] فكأن الحق سبحانه يرد عنهم ذنوبهم حين يقبل منهم التوبة ، فتكون النتيجة مغفرة الذنوب التى ارتكبوها لكن الذنوب التى ارتكبوها لها صفات من الحق تطلب حقَّها فيه .

فحين يفعل العبد الذنب تأتى صفة القهار والجبار والمنتقم وهى صفات الجلال ، وهذه الصفات تقتضى العقاب ، ثم تأتى صفات الجمال من الحق سبحانه صفة الغفور الرحيم التواب .. الخ .

لذلك قال فى حديث آخر رمضان : « شفع المؤمنون ، وشفع النبيُّون ، وشفعتْ الملائكة ، وبقيت شفاعة أرحم الراحمين »[1] .

فإذا كان المؤمنون والنبيون والملائكة سيشفعون عند الله تعالى فعند مَنْ يشفع أرحم الراحمين ؟ قالوا : لأن لله صفات جلال وصفات

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٦٩) وأحمد فى مسنده (١١٤٦٣) عن أبى سعيد الخدرى أن الله قال : شفعت الملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون ولم يبق إلا أرحم الراحمين فيقبض قبضة من النار فيُخرج منها قوماً لم يعملوا خيراً قط قد عادوا حمماً فيلقيهم فى نهر فى أفواه الجنة » الحديث بطوله .

جمال ، فإذا أخذتْ صفات الجلال حقَّها من المذنب العاصى تأتى صفات الجمال لتشفع له عند صفات الجلال فى نَفْى مستحقاتها عنده .

إذن ﴿ وَهُوَ الَّذِى يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ .. (٢٥) ﴾ [الشورى] عبَّر بـ (عَنْ) مع أن التوبة منهم ، فقال عنهم ليحملها عنهم . لذلك تجد دقة فى استخدام هذه الحروف فى القرآن الكريم ، ولكل منها معنى لا يؤديه غيره ، اقرأ مثلاً قوله تعالى : ﴿ فَلأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ النَّخْلِ .. (٧١) ﴾ [طه]

ومعلوم أن الصَّلْب يكون على الجذوع ، لذلك قال بعض المفسرين أى : على جذوع النخل ، لكن لماذا عدل القرآن عن (على) إلى (فى) لابدَّ أنَّ لها معنى لا تؤديه (على) . إذن : المراد لأصلبنكم تصليباً شديداً مُحكماً ، بحيث تدخل بعض أجزاء المصلوب فى المصلوب عليه ، لذلك قال ﴿ فِى جُذُوعِ النَّخْلِ.. (٧١) ﴾ [طه]

كذلك فى قوله تعالى ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ .. (٣٩) ﴾ [إبراهيم] بعضهم قال : يعنى مع الكبر . كيف و (على) ثلاثة أحرف و (مع) حرفان . فلا بدَّ أن لها معنى لا تؤديه مع ، ما هو ؟

قالوا : (على) تفيد الاستعلاء ، فالكبر كان مانعاً من الإنجاب ، لكن قدرة الله وإرادته علَتْ وغلبتْ هذا المانع . ومثلها تماماً قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ .. (٦) ﴾ [الرعد] فكأن المعصية التى فعلوها كانت تستوجب العقوبة ، لكن عفو الله ومغفرته ورحمته بعباده علَتْ على العقوبة .

وقوله : ﴿ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ .. (٢٥) ﴾ [الشورى] أى : يمحوها

﴿ويَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (٢٥)﴾ [الشورى] لأن علمه تعالى محيط شامل لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ، فإذا كنتَ قد اقترفت سيئة ولا يعلم بها أحد فالله يعلمها ولا بدَّ أنْ تتوب عنها ، حتى خواطرك التى تجول فى نفسك ولم تظهر على جوارحك يجب أنْ تتوب عنها .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ (٢٦)﴾

أي : ويستجيب الله للذين آمنوا وعملوا الصالحات . والفعل ﴿ويَسْتَجِيب .. (٢٦)﴾ [الشورى] دل على سرعة الاستجابة ، لذلك لم يَقُلْ يجيب ﴿ويَزِيدُهم مِّن فَضْلِه .. (٢٦)﴾ [الشورى] تدل أيضاً على أن الاستجابة من الله لهم ، وفى المقابل ﴿والْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيد (٢٦)﴾ [الشورى] والعذاب الشديد للكافرين هو نهاية المطاف ، لأن أول ما يُقابلون به : الغضب من الله ، ثم الحجاب ، ثم اللعنة والإبعاد من رحمته ، ثم العذاب .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ (٢٧)﴾

---

(١) سبب نزول الآية : نزلت فى قوم من أهل الصُّفَّة تمنوا سعة الدنيا والغنى . قال خباب بن الأرت : فينا نزلت هذه الآية ، وذلك أنَّا بطرنا إلى أموال قريظة والنضير فتمنيناها . فأنزل الله هذه الآية [أسباب النزول - الواحدى النيسابورى ص ٢١٣ - طبعة المكتبة الثقافية - بيروت] .

هذه الآية تقرر طبيعة فى النفس الإنسانية ، كما قال سبحانه فى موضع آخر : ﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ (٧) ﴾[العلق] لأن الرزق عندما يكون مبسوطاً ميسَّراً لا يشغل المرء به ولا بالحركة من أجله ، فلا يكد ولا يتعب ويتفرغ لأمور أخرى تشغله ومنها البغى .

لذلك لما تحدَّث القرآن عن قارون ، وهو أوضح مثال للغنَى الطاغى ، قال سبحانه : ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ .. (٧٦) ﴾ [القصص] إذن : النعمة والثراء قد يدعوان الإنسان إلى الطغيان والبغى بغير الحق ، وبسطة الرزق تعنى سعته وتيسير سُبُله ، وهى فى هذه الحالة نوع من الابتلاء .

وقوله : ﴿ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ (٢٧) ﴾ [الشورى] أى : يسوق الرزق بقدر معين وبحساب على مقتضى علمه سبحانه وحكمته فى تدبير شئون خلقه ، فيعطيهم بحساب بحيث لا يصل العبد إلى مرحلة الطغيان والبغى ، وهو سبحانه أعلم بطباع عباده وأعلم بما يصلحهم ، لذلك ورد فى الحديث القدسى : « إن من عبادى مَنْ إذا أغنيته لفسد حاله ، ومنهم إذا أفقرته لصلح حاله »(١) .

وقد اهتم الإسلام بالجانب الاقتصادى فى حركة الحياة وفرضَ الزكاة من أجل استطراق الخير فى المجتمع ، وعلَّمنا أن نُفرِّق بين الفقر عن عجز واحتياج ، والفقر عن حرفة وخداع ، فمَنْ يتخذ الفقر حرفة ليس له نصيب ، ولا يصح أنْ تعينه على التكاسل والقعود عن العمل .

---

(١) أورده الألبانى فى السلسلة الضعيفة والموضوعة (٤/٢٥٦) وقال : أخرجه البيهقى فى (الأسماء والصفات) (ص ١٢١ - مصر) والبغوى فى شرح السنة (١/١٤٢) وأبو بكر الكلاباذى فى مفتاح المعانى (١٩٠) وقال : ضعيف جداً ، وأوله : « من أهان لى ولياً فقد بارزنى بالمحاربة » الحديث بطوله .

أما العاجز فمستحق ، لأنه غير قادر على الكسب ، لذلك جعل الله له جزءاً فى مال القادر يصل إليه ، وهو مُعزَّز لا يريق ماء وجهه للقمة العيش ، بل يحفظ له الحقُّ سبحانه كرامته ، ويجعلك أنت أيها الغنى القادر تذهب إليه وتطرق عليه بابه وتعطيه ليعلم أن الله حين سلبه قدرته سَخَّر له قدرات الآخرين .

كذلك مثلاً فى فريضة الحج ترى غير المستطيع حزيناً لأنه لم يحج ، والواقع أنه أحظُّ عند الله من المستطيع الذى يحج ؛ لأن المستطيع قد يؤدى ولا يقبل منه ، أما غير المستطيع فقد سقط عنه الفرض أصلاً . ويقولون : إن نسبة تسعين بالمائة من الناس لم يروا البيت يعنى لم يطوفوا به ، فهل يعنى هذا أن الله يحرمهم رؤيته ؟ لا بل لهم منه نصيب كما قيل : « من الناس مَنْ يطوف بالبيت ، ومن الناس مَنْ يطوف بهم البيت »(١) .

ثم إن حالة الفقر هذه أو العجز لا تدوم لأنها مداولة بين الناس ، كما قال سبحانه : ﴿ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا(٢) بَيْنَ النَّاسِ .. ﴿١٤٠﴾ ﴾ [آل عمران]

وسبق أنْ بيَّنا أن الفقر فى المجتمع له حكمة ، لأن حركة المجتمع ومصالح الناس لا يمكن أنْ تقوم على التفضُّل ، إنما تقوم على الحاجة ، فحين تُلجئك الحاجة تعمل ولا تستنكف من العمل

---

(١) وقفت على بيت شعر لعبد القادر الجيلانى المتصوف (ت ٥٦١هـ/١١٦٦م) :

كل قطب يطوف بالبيت سبعاً   وأنا البيت طائف بخيامى

(٢) دالت الأيام : تحولت من قوم إلى قوم آخرين . والدُّولة : الشىء المتداول بين القوم . وقد قال تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ .. ﴿١٤٠﴾ ﴾ [آل عمران] أى : نصرفها بينهم فيجعل الله تعالى النصر فيها لهؤلاء مرة ولغيرهم مرة أخرى . [القاموس القويم ١/٢٣٧] .

الشاق أو الحقير ، وإلا فمَنْ سيقوم بهذه الأعمال .

ورأينا العامل حين يرضى بقدر الله فيه ويخلص فى عمله يقول الله له : رضيتَ بقدرى فسأعطيك على قدرى . فتراه بعد فترة أصبح صاحب عمل بعد أنْ كان أجيراً ، لأنه أخلص لصاحب العمل ولم يحقد عليه ، ولم يكره النعمة عنده .

إذن : الحق سبحانه لا يضيق الرزق ولا يعطى بقدر إلا فى مظنة الضرر ، فمَنْ علم الله منه أنَّ بسطة الرزق تفسده يُضيِّق عليه منافذ الرزق ليصلحه بالفقر . فالأصل أنه تعالى جواد كريم يبسط رزقه لعباده ، لذلك يقول فى الآية بعدها :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ(١) مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ ﴾

﴿ الْغَيْث .. ﴿٢٨﴾ ﴾ [الشورى] المطر ينزل بعد انقطاع وجفاف ، فيغيث الناس وينقذهم من الجفاف والجوع والقحط الذى هم فيه ﴿ مِنْ بعْدِ مَا قَنَطُوا .. ﴿٢٨﴾ ﴾ [الشورى] يئسوا من نزوله .

﴿ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ .. ﴿٢٨﴾ ﴾ [الشورى] يبسطها لعباده جميعاً ﴿ وَهُوَ الْوَلِيُّ .. ﴿٢٨﴾ ﴾ [الشورى] المتولى أمور عباده المحسن إليهم ﴿ الْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الشورى] أى : المحمود على

(١) الغيث : المطر . وسُمى الغيث غيثاً لأنه يغيث الخلق .. والغيث ما كان نافعاً فى وقته ، والمطر قد يكون نافعاً وضاراً فى وقته وغير وقته . قاله الماوردى . [تفسير القرطبى ٦٠٧٢/٩] .

نعمه التى أسداها إلى الناس وتفضَّل بها عليهم ، لأنه أنعم عليك قبل أن يوجدك فخلق لك السماء والأرض والكون كله سخَّره فى خدمتك ، فطرأتَ على كونٍ مُعَدٍّ وجاهز لاستقبالك ، فيه كُلُّ مقومات حياتك .

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ ﴾

كلمة ﴿ آياته .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [الشورى] مفردها آية ، وهى الشىء العجيب الذى يدعوك إلى التأمل ، كما نقول : فلان آية فى الأدب أو فى العلم . وقلنا : إن الآيات فى القرآن الكريم وردتْ بمعانٍ ثلاثة : آيات كونية تدل على قدرته تعالى وبديع صُنْعه كالشمس والقمر والليل والنهار ، وآيات معجزات تدل على صِدْق الرسل فى البلاغ عن الله ، ثم الآيات الحاملة للأحكام وهى آيات القرآن الكريم .

الحق سبحانه وتعالى هنا يُحدِّثنا عن بعض آياته الكونية ﴿ وَمِنْ آيَاته خَلْقُ السَّمَاوَات وَالأَرْضِ .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [الشورى] فهما شىء عجيب فى الخَلْق دلَّ على قدرة الله وحكمته وطلاقة قدرته ، وفى موضع آخر قال : ﴿ لَخَلْقُ السَّموَات وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [غافر]

نعم أكبر ، لأن الإنسان يُولد ويموت ، يموت طفلاً ويموت شاباً ، بل ويموت فى بطن أمه ، وحتى لو عاش مائة عام سيموت ، فأين هو إذن مَنْ خلق السموات والأرض وما فيهما من آيات كونية تعمر ما يشاء الله ؟

إذن : على الإنسان أنْ يتذكر هذه الحقائق ويقول لنفسه : هل يُعقل أن تكون هذه الآيات أطول عمراً منى وهى مُسخَّرة فى خدمتى ؟ إذن : لا بدَّ أن لى عمراً آخر يناسب منزلتى ، وما فضَّلنى الله به على هذه المخلوقات ، إذن : لى حياة أخرى أبقى فيها وأخلد حين تفنى كل هذه المخلوقات .

وقوله : ﴿ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. (٢٩) ﴾ [الشورى] يعنى : وما فيهما لأنهما ظرف مظروف فيه مخلوقات كثيرة ، لذلك قال فى موضع آخر : ﴿ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ .. (٢٨٤) ﴾ [البقرة]

ومعنى ﴿ وَمَا بَثَّ .. (٢٩) ﴾ [الشورى] أى نشر ﴿ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ .. (٢٩) ﴾ [الشورى] أى : فى السموات وفى الأرض ، فما يدب فى الأرض أى : ما يمشى عليها من إنسان وحيوان وطير ، وما يدبّ فى السماء يقصد به الملائكة .

﴿ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ .. (٢٩) ﴾ [الشورى] يعنى : يوم القيامة ﴿ قَدِيرٌ (٢٩) ﴾ [الشورى] أى : قادر ، كما قال : ﴿ يَوْمَ الْجَمْعِ لا رَيْبَ فِيهِ .. (٧) ﴾ [الشورى]

بعض العلماء ذهب إلى وجود مخلوقات أخرى فى العلو ، وهم أمثالنا مكلَّفون ، ففى المجموعة الشمسية عوالم أخرى غير الأرض مثل عطارد والزهرة والمريخ والمشترى وغيرها . والعظمة فى جمع كل هؤلاء .

﴿ وَمَا أَصَـٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ (٣٠) ﴾

كلمة أصاب مأخوذة من إصابة السهم للهدف ، فإذا كان الرامى حاذقاً أصاب الهدف دون انحراف ، فكأن المصائب فى الدنيا سهام أُطلقتْ بالفعل ، وهى لا بدَّ صائبة أصحابها . لذلك يقولون : إن المصيبة ليست ناشئة حال وقوعها ، إنما هى مُقدَّرة أزلاً ، وسهم أُطلق بالفعل ، فوقتها هو مسافة سفر السهم إليك ، كما سبق أنْ قُلْنا فى مصيبة الموت .

فهو إذن مسألة مفروغ منها وأمر مُسجَّل ومكتوب عليك أزلاً ليس حادثاً ، فالكون كله له (ماكيت) مُسجَّل ومُوضَّح به كل شىء . لذلك قال تعالى : ﴿ **مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا**[1] **إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ** (٢٢) ﴾ [الحديد] إذن : لا مفرَّ أبداً من المصيبة ولا مهربَ منها ، ولا يمكن أبداً أنْ نحتاطَ لها ، لأن السهم الذى أُطلق لا يُرد .

والمصائب التى تصيب الإنسان على نوعين : نوع لك فيه دَخْل ويد ، ونوع لا دخلَ لك فيه ، فمثلاً التلميذ الذى يرسب آخر العام لأنه أهمل دروسه ولم يجتهد لا شكَّ أن له دخلاً فى هذه المصيبة التى حلَّت به آخر العام ، فإذا كنت لا تريد أن تصيبك هذه المصيبة فخُذْ بأسباب النجاح واحذر أسباب الفشل وسوف تجد النجاح .

الأخرى : مصيبة لا دخْلَ لك فيها ، كالتلميذ يذاكر ويجتهد ويحفظ دروسه لكن يصيبه دوار ساعة الامتحان أو مرض مفاجىء

---

(١) برأ الله النسمة وخلق السماوات والأرض . قال ابن سيده : برأ الله الخلق : خلقهم . [لسان العرب - مادة : برأ] .

فلا يستطيع إكمال الامتحان فيرسب ، هذا حدث بقدر الله والذى أجرى عليه القدر ربه عز وجل ، ولا بُدَّ أنَّ له فيه حكمة ، لذلك يجب الرضا بهذه المصيبة على أنها قضاء الله وقدره ، والمصيبة تهون مهما كانت عظيمة حينما يؤمن المصاب بها أنها من الله لا من أحد سواه .

وسبق أنْ أوضحنا هذه المسألة بمثال من الواقع . قلنا : هَبْ أنك جالس فدخل عليك ابنك الصغير ووجهه يسيل منه الدم ، إن أول ما يتبادر إلى ذهنك أن تسأله : مَنْ فعل بك هذا ؟ إذن : لم تحكم على الحدث إنما سألتَ عن صاحبه ؛ لأن الحدث فى ذاته لا يُحزن ولا يُفرح إلا بمصاحبة الفاعل .

فإنْ قال لك الولد : عمِّى فلان ضربنى تهدأ . وتقول له : لا بدَّ أنك فعلتَ شيئاً يستحق العقاب ، أما إنْ قال لك : ضربنى فلان جارنا تغضب وتقيم الدنيا ولا تقعدها .

إذن : الحدث إنْ كان من مُحبٍّ قبلناه ، وعلمنا أن وراءه مصلحة ورضينا به ، وإنْ كان من عدو فلا مصلحةَ فيه واعترضنا عليه .

فالحق سبحانه يريد أنْ يُعلِّمنا كيفية استقبال المصائب وأنَّ كلَّ مصيبة تأتى لها سبب ، فإنْ عرفناه كان بها ، وإنْ جهلناه قلنا لابدَّ أن لله فيه حكمة ودخلنا من باب الرضا والتسليم بدل أنْ ندخل من باب السخط والاعتراض .

فالطالب الذى أصابه دوار ولم يُؤدِّ الامتحان يقول فى نفسه : لعلّنى كنت مغروراً ، فأراد الله أنْ يقضى على غرورى ، أو لعلّنى كنت سأحصل على مجموع أقل مما أريد ، أو لعلَّ الله دفع عنى بذلك عيون الحاسدين .

ألم يقل الحق سبحانه فى حق نبيه ﷺ : ﴿وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ (١) بِأَبْصَارِهِمْ .. (٥١)﴾ [القلم]

والحق سبحانه وتعالى فى سورة الكهف يعطينا مثالاً ونموذجاً يُعلِّمنا كيف نستقبل الأحداث ؟ وكيف نتقبل المصائب ؟ فما دام أنه لا دخْلَ لك فيها فلا بدَّ أن الله فيها حكمة ، تقرأون قصة العبد الصالح (٢) مع سيدنا موسى عليهما السلام ، فالعبد الصالح لم يكُنْ نبياً ومع ذلك تعلَّم منه النبى وطلب مصاحبته ، فالعبد حينما يرتقى فى علاقته بربه يفتح الله عليه فتوحات من عنده ويعلمه علماً لا يعطيه إلا لخاصته .

العبد الصالح كان يعبد الله على منهج سيدنا موسى ، ومع ذلك تبعه موسى ليتعلم منه ، لأن مهمة الرسول أن يصل المرسل إليه بربه ، فإذا ما وصله بربه تركه وشأنه مع الله ، وعندها يكون كل عبد (وشطارته) فى علاقته بالله تعالى ، فهذا العبد الصالح تقرَّب إلى الله ودخل معه سبحانه فى وُدٍّ ، فكان له معه شأن خاص .

انظر سيدنا موسى يقول للعبد الصالح : ﴿قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا (٦٦) قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا

(١) أزلقه : جعله يزلق كأن أبصارهم أدوات إزلاق لشدة حسدهم وحقدهم . [القاموس القويم ١/ ٢٨٩] قال أبو إسحاق : مذهب أهل اللغة فى مثل هذا أن الكفار من شدة إبغاضهم لك وعداوتهم يكادون بنظرهم إليك نظر البغضاء أن يصرعوك . [لسان العرب - مادة : زلق] .

(٢) العبد الصالح هو الخضر عليه السلام ، تُنسج حوله القصص والروايات والأساطير وأنه حى موجود وليس هناك دليل قط على هذا ، والأظهر أنه نبى لقوله تعالى : ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي .. (٨٢)﴾ [الكهف] ولا يصح عنه إلا ما ذكره القرآن .

(٦٧) ﴾ [الكهف] ذلك لأنك سترى أموراً لا تعجبك وأفعالاً لا تدرك أنت حكمتها ﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا (٦٨) قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا (٦٩) قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا (٧٠) ﴾ [الكهف]

ثم تبدأ الرحلة وينطلق موسى فى صحبة العبد الصالح ، وأول حدث بينهما كانت السفينة ﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا[1] (٧١) ﴾ [الكهف]

هذا أول اعتراض من موسى ، لأن الفعل فى ظاهره غريب يستحق الاعتراض .

﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٢) قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا (٧٣) فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا (٧٤) ﴾ [الكهف] يعنى : منكراً .

نعم موسى لم يستطع أن يصبر وهو يرى هذا الفعل العجيب المنكر فى نظره ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٥) قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا (٧٦) فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا (٧٧) ﴾ [الكهف]

وكانت هذه هى الثالثة ، وتحقق الشرط الذى قطعه موسى على

---

(١) الإمْر (بكسر الهمزة) : الأمر المنكر والخطأ الجسيم والأمر العظيم . [القاموس القويم ١/٣١] . قال أبو إسحاق : أى جئت شيئاً عظيماً من المنكر . وقيل : الأمر الشنيع . وقيل : العجيب . [لسان العرب - مادة : أمر] .

نفسه ، فقرر العبد الصالح مفارقته ، لكن قبل أنْ يفترقا قال له : تعالَ أوضح لك ما لم يحتمله صبرك في هذه الأحداث :

﴿ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا (٧٨) أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا (٧٩) ﴾ [الكهف] أى : يأخذ كل سفينة صالحة .

ولا شكَّ أن خرق السفينة مصيبة لأصحابها في ظاهر الأمر ، لكن لله تعالى فيها حكمة ، حيث كان وراء هؤلاء المساكين ملك ظالم يأخذ كل سفينة جيدة ويغتصبها ، فأردتُ أنْ أُحدثَ بها عيباً حتى لا يأخذها .

إذن : فنحن هنا لا نقارن بين سفينة مخروقة وسفينة صالحة ، إنما بين سفينة مخروقة وعدم وجود سفينة أصلاً ، فخرْق السفينة أهونُ بالنسبة لأصحابها من أخذها كلية ، ثم بإمكانهم أنْ يُصلحوها بعد ذلك ، المهم أنْ تسلم لهم من هذا الملك .

﴿ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا (٨٠) فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا (٨١) ﴾ [الكهف] ففي علم الله تعالى أنه سيكون ولداً عاقاً يُحدث فتنة لأبويه ، كما قال سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ .. (١٤) ﴾ [التغابن] فكان في القضاء عليه حكمة .

فإنْ قلت : فما ذنبُ الغلام يُقتل وهو صغير ؟ قالوا : لا ذنب له لكنه لم يخْلُ من مصلحة وخير يلحقه هو أيضاً حيث أُخذ وهو صغير ،

فقد اختصرنا له الحياة فلم يُعانِ فيها ، ولم يقترف شيئاً من سيئاتها ، ومات قبل سنِّ التكليف فلن يُحاسب على شيء ، ثم سيكون فى عداد الشهداء ، ومسكنه فى الجنة يتجول فيها حيث أراد ويدخل منها أىَّ مكان حتى على رسول الله ، فهو من (دعاميص)[1] الجنة ، إذن : فقتله جاء رحمة به .

﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا (٨٢) ﴾ [الكهف]

أولاً عرفنا أن هذه القرية فيها ناس لئآم لا خير فيهم ، بدليل أنهم منعوهما الطعام ومَنْع الطعام فيه لُؤْم وخِسَّة ، لأن الذى يسأل الطعام غير الذى يسأل المال ، الذى يسألك مالاً ربما ليكنزه ، أمَّا سؤال الطعام فلا يكون إلا عن حاجة .

لذلك قالوا : أصدق سؤال مَنْ يسألكم طعاماً ، فلما منعوهما الطعام كان أمراً عجيباً أنْ يبنى لهم العبد الصالح الجدار ، فما قصته ؟ كان الجدار لغلامين يتيمين فى المدينة ، وتصوَّر حال اليتيمين بين هؤلاء اللئام ، كيف لو ظهر لهم هذا الكنز ؟

---

(١) الدعاميص جمع دعموص ، والدعموص : دويبة صغيرة فى مستنقع الماء . قيل : والدعموص الدخَّال فى الأمور أى أنهم سيَّاحون فى الجنة دخَّالون فى منازلها لا يُمنعون من موضع . وقد جاء فى الحديث : « عن أبى حسان قال قلت لأبى هريرة : إنه قد مات لى ابنان فما أنت مُحدِّثى عن رسول الله ﷺ بحديث تُطيِّب به أنفسنا عن موتانا . قال : نعم صغارهم دعاميص الجنة يتلقى أحدهم أباه أو قال أبويه فيأخذ بثوبه فلا ينتهى حتى يدخله الله وأباه الجنة » أخرجه مسلم فى صحيحه (٤٧٦٩) .

وقد فهمنا من هذه المسألة أن صلاح الآباء ينفع الأبناء ، وأن الغلامين كانا توأماً ، بدليل قوله تعالى ﴿أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا .. (٨٢)﴾ [الكهف] فلو كان أحدهما أكبر من الآخر ربما أخذه لنفسه ، وأن العبد الصالح بنى الجدار بناء موقوتاً ، بحيث يعيش فقط حتى سِنّ البلوغ لهذين الغلامين ، ثم ينهار فيجدا الكنز ويستطيعا حمايته من هؤلاء اللئام ، ثم فى بناء الجدار عقاب لهؤلاء البخلاء وقصاص منهم على بخلهم ، حيث منعهم من أخذ أموال هذا الكنز .

وأخيراً لم يَفُتْ العبد الصالح أنْ يُبيِّن لسيدنا موسى أنَّ ما فعله لم يكُنْ من عنده ، إنما بأمر من الله ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِى .. (٨٢)﴾ [الكهف] إنما عن أمر الله ، إذن : حين تنزل المصيبة وليس لك فيها دَخْل فابحث عن الحكمة منها ، ولا بدَّ أنك ستجدها وتهتدى إليها .

والخطاب فى ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ .. (٣٠)﴾ [الشورى] خطاب للعموم يشمل المؤمنين والكفار ، الكافر لأنه دخل المعركة فهُزم فإنْ أخذ ماله أو قتل فبكفره ، أما المؤمن فقد يكون ارتكب مخالفات ومعاصىَ تستوجب أنْ يعاقب كما فى حدّ الزنا ، وحدّ شرب الخمر مثلاً ، أو أن يُعزَّر .

والحق سبحانه وتعالى أوحى إلى رسوله ﷺ أنْ يُنبِّه أمته ، وأنْ يُعلِّمها كيف تستقبل المصائب ، فقال ﷺ : « ما يصيب المؤمن من نصب ولا وصب[1] حتى الشوكة يُشاكها إلا كفَّر الله بها من خطاياه »[2] .

(١) النَّصَب : التعب والإعياء والمرض والداء والبلاء والشر . أما الوصب فهو : الوجع والمرض . وشدة التعب مع دوام واستمرار [لسان العرب - مادتا : نصب ، وصب . بتصرف] .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٢١٠) ، وأحمد فى مسنده (٧٦٨٤ ، ٨٠٧٠ ، ١٠٧١٤، ١١٠٢٤) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

لذلك يقول أحد العارفين : إنِّى لأعرف مقامى عند ربى من خُلُق دابتى ، يعنى : حين تحرَن منه دابته أو تتعثَّر يسأل نفسه : ماذا فعلتُ حتى تحرنَ الدابة ؟ وسيدتنا أسماء[1] بنت سيدنا أبى بكر كان يلازمها شىء من الصداع ، فكانت تمسك برأسها وتقول : بذنبى ويعفو الله عن كثير .

ولتوضيح هذه المسألة قلنا : إن الحق سبحانه خلق الإنسان وحدَّد مهمته فى الحياة ، ووضع له منهجاً يحميه ويُنظم حركته فيها ، فإنْ خالف هذا المنهج لا بدَّ أنْ يحدث له عطب ، مثل الآلة يصنعها الإنسان ، ويضع لها (كتالوجاً) يوضح كيفية استخدامها ، فإنْ خالفت هذه التعليمات تعطلتْ الآلة .

فالحق سبحانه يريد منَّا أنْ نعىَ هذه القضية ، ليطمئن المؤمن حين تصيبه مصيبة أو تنزل به نازلة ، فيصبر ولا يجزع ولا يتسخط ، بل يبحث عن الحكمة أو ينظر فى نفسه : ماذا فعلتُ لتنزل بى هذه المصيبة ، فهى ولابدَّ تغسل عنى شيئاً اقترفتُه وذنباً ارتكبته .

هذا حال المؤمن الناصح أنْ يعود لنفسه وأنْ يحاسبها ؛ لأنه يعلم مما علَّمه الله أن الدنيا دارُ عمل لا دار جزاء ، الجزاء فى الآخرة ﴿ الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ .. ﴿١٧﴾ ﴾ [غافر] إذن : ما يقع لى

---

(١) هى : أسماء بنت أبى بكر الصديق ، ولدت عام ٢٧ قبل الهجرة : أمها قتيلة بنت عبد العزى ، أسلمت قديماً بمكة وكان إسلامها بعد سبعة عشر شخصاً وكان عمرها ١٥ سنة ، كان لها دور كبير فى حادث الهجرة إلى المدينة وسميت ذات النطاقين . تزوجت الزبير بن العوام ، روت عن النبى ﷺ ٥٨ حديثاً . توفيت عام ٧٣ هجرية بعد قتل الحجاج لابنها عبد الله بن الزبير .

فى الدنيا من ابتلاءات ومصائب ليس جزاءً ، إنما لفْتُ نظر للعمل الصالح ، ولأتعلم من مادية الأشياء أنَّ المخالفة لا بدَّ أنْ يكون لها عقاب .

ثم نحن نشاهد المصائب تحلُّ بالصديق وبالزنديق وتعمُّ الجميع حتى الأنبياء ، لذلك ورد فى حديث سيدنا رسول الله ﷺ : « أشدُّ الناس بلاءً : الأنبياء ، ثم الأولياء ، ثم الأمثل فالأمثل »(١) .

فالابتلاءات للأنبياء ليستْ لذنوب ارتكبوها ، إنما امتحان فى التكليف وأُسْوة للغير ، أُسْوة تصلح حال القوم وتُعلِّمهم الصبر عند المصيبة ، فحين تنزل بنا المصائب نتذكر مصائب الأنبياء ، وكيف أنهم صبروا فنصبر مثلهم ، ونُصحِّح من سلوكنا مع الله .

وقوله : ﴿ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الشورى] يعنى : كثير من ذنوبنا وخطايانا ، ولولا عفوه تعالى ورحمته بخَلْقه ما نجا أحد .

لذلك نقول لمن تصيبه مصيبة (كفارة إنْ شاء الله) يعنى : جعلها الله كفارةً لذنوبك ، وقد ورد فى الحديث القدسى : « وعزَّتى وجلالى لا أُخرِج عبدى من الدنيا وقد أردتُ به الخير حتى أُوفيه ما عمله من السيئات ، من مرض فى جسمه ، أو خسارة فى ماله ، أو فَقْد ولده ، فإذا بقيتْ عليه سيئة ثقَّلْتُ عليه سكرات الموت حتى يأتى كما ولدتْه أمه . وعزتى وجلالى لا أُخرج عبدى من الدنيا وقد أردتُ

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (١/١٧٢) والترمذى فى سننه (٢٣٩٨) وابن ماجه (٤٠٢٣) من حديث سعد بن أبى وقاص . قال الترمذى : حديث حسن صحيح . وتمام الحديث : « ويُبتلى الرجل على حسب دينه ، وما زال البلاء بالعبد حتى يمشى على الأرض ليس عليه خطيئة » .

به الشر حتى أُوفّيه ما عمله من الحسنات : من صحة فى جسمه ، وكثرة فى ماله ، وسلامة فى ولده حتى يأتى يوم القيامة ، وليس له عندى حسنة ، لأننى قلت : لا أضيع أجر من أحسن عملاً »[1] . نعم يغدق الله عليه الخير فى دار الفناء لأنه لا حظَّ له فى دار البقاء .

﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾﴾

الحق سبحانه وتعالى يخاطب القوم الذين عاندوا رسول الله ﷺ ، وصادموا دعوته وجادلوه ، يقول لهم : لن تُفلتوا من عدالة السماء ، ومَنْ أفلت من عقاب الدنيا منكم لن يفلت من عقاب الآخرة ، كما قال سبحانه مخاطباً نبيه ﷺ : ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [غافر]

وهنا يقول لهم ﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى الأَرْضِ .. ﴿٣١﴾﴾ [الشورى] المُعْجز هو الذى ينسبنى للعجز ، ويُعجزنى يعنى : يأتى بأمر لا أقدر أنا عليه ، فالحق يقول لهم : لن تعجزونا ولن تهربوا منا أبداً ، فأينما كُنتم سنأتى بكم .

لذلك اتضح لنا ذكاء الجن ، حينما قالوا : ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِى الأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا ﴿١٢﴾﴾ [الجن] فالجن وهم أقدر على

---

(١) أورده الألبانى فى ضعيف الترغيب والترهيب : عن أنس أن رسول الله ﷺ قال : إن الرب سبحانه وتعالى يقول : وعزتى وجلالى لا أخرج أحداً من الدنيا أريد أغفر له حتى أستوفى كل خطيئة فى عنقه بسقم فى بدنه وإقتار فى رزقه » ذكره رزين ولم أره قاله المنذرى ولم يذكر الألبانى درجة ضعفه .

الهرب من الإنس ، ومع ذلك يعترفون أنه لن يستطيع أحد منهم أنْ يهرب أو يفر من الله عز وجل .

لذلك مدح سيدنا رسول الله المؤمنين من الجن لما قرأ سورة الرحمن على بعض صحابته ، ثم قال لهم : « لقد قرأتُ هذه السورة على الجن ، فكانوا أحسن استجابةً منكم ، كانوا كلما سمعوا ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ ﴾ [الرحمن] قالوا : ولا بشيء من نعمائك ربنا نُكذِّب فلك الحمد »[1] .

ثم إن الحق سبحانه يُملي للظالم ويُمهله ، حتى إذا أخذه لم يُفْلته ، فكوْن الحق سبحانه يُملي لهؤلاء لا يعنى أنه عاجز عن أَخْذهم ، لأنه سبحانه قوى قادر وله طلاقة القدرة ، بحيث يأتى بهم متى شاء ، أما الضعيف فإنه يستغل أول فرصة للانتقام ولا يُفوِّتها ، لأنه يعرف أنها لن تعود ، كما قال الشاعر[2] :

وَضَعيفَة فإذا أصابَتْ فُرصَةً قَتلَتْ كذلك قدرة الضُّعَفاء[3]

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾ ﴾ [الشورى] الولى : القريب أو الصديق المقرَّب منك دائماً ،

---

(١) أورده السيوطى فى الدر المنثور (٧/ ٦٩٠) وعزاه للترمذى وابن المنذر وأبى الشيخ الأصفهانى فى العظمة والحاكم وابن مردويه والبيهقى فى دلائل النبوة عن جابر بن عبدالله.

(٢) الشاعر هو أبو تمام ، حبيب بن أوس الطائى ، أحد أمراء البيان ، ولد بجاسم من قرى حوران بسوريا عام (١٨٨هـ/٨٠٣ م) فى شعره قوة وجزالة ، له تصانيف منها : فحول الشعراء ، وديوان الحماسة . نزل مصر واستقدمه المعتصم إلى بغداد ثم ولى بريد الموصل فلم يتم سنتين حتى توفى بالموصل عام (٢٣١م/٨٤٥م) عن ٤٤ عاماً .

(٣) البيت من قصيدة لأبى تمام من بحر الكامل ، عدد أبياتها ٣٠ بيتاً .

والمفروض فيه أن يدفع عنك المصيبة قبل أن تقع ، والنصير : المعين الذى ينصرك ويُعينك إذا وقعتْ بك المصيبة . فالحق سبحانه يُعلمنا أنْ يستقيم فينا أمر التكليف ، وأنْ تكون صلتنا بالله مباشرة ، وألاَّ نعتقد أننا نَفوت منه سبحانه ، وألاَّ نعتقد فى أحد من خَلْقه أن يكون ولياً لنا أو نصيراً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ ﴾

الجوار فى البحر صفة لشىء معروف هى السفن ، فهى التى تجرى على صفحة الماء ، والآن نرى سفناً عملاقة وبواخرَ ذات أوزان عالية يحملها الماء بإذن الله ، كما نجد سيارات النقل والحاويات ذات الأوزان العالية تُحمل على الهواء فى العجلات ، وهذه من آيات الله أنْ يحمل الخفيف الثقيل .

ومعنى ﴿ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الشورى] الأعلام : مفردها علَم ، وهو الجبل ، سُمِّى علماً لعُلوِّه وظهوره ، لذلك قالت الخنساء[1] فى رثاء أخيها صخر :

كَأنهُ عَلَمٌ فِى رَأْسِهِ نَارٌ[2]

---

(١) الخنساء : هى تماضر بنت عمرو بن الحارث ، من بنى سُليم ، أشهر شواعر العرب من أهل نجد ، عاشت أكثر عمرها فى العهد الجاهلى ، وأدركت الإسلام فأسلمت ، لها ديوان شعر وكان لها أربعة بنين شهدوا حرب القادسية واستشهدوا جميعاً . توفيت عام (٢٤هـ/ ٦٤٤م) .

(٢) البيت من قصيدة للخنساء من بحر البسيط عدد أبياتها ٣٦ بيتاً ، وتمامه فى الموسوعة الشعرية :

وإن صخراً لتأتم الهداة به   كأنه علَم فى رأسه نار

فقوْل الخنساء عن أخيها : كَأنه عَلَم فى رأْسه نَارٌ . كناية عن أنه مشهور معروف للجميع ، ولما سمع سيدنا رسول الله ﷺ هذا البيت قال : « قاتلها اللهُ ، ما اقتنعت تجعله كالجبل فجعلتْ فوقه ناراً » [١] .

وفى هذه الآية مظهر من مظاهر الإعجاز وآية للنبى ﷺ ، فلو سألنا رجال الاقتصاد والصناعة : متى وُجدت السفن العملاقة المكوَّنة من عدة أدوار والتى تشبه جبلاً يتحرك على صفحة الماء ؟ قالوا : فى القرن الثامن عشر ، إذن : محمد لم يَرَ مثل هذه السفن ، فمَنْ أخبره بهذا التطور ؟ ومَنْ قال له أنها ستكون كالأعلام ؟ إنه الله الذى يعطينا الآيات الدالة على صدق نبيه ﷺ .

ثم إن الجَوارِ [٢] التى تجرى فى البحر تحتاج إلى طاقة تُجريها ، فمن أين هذه الطاقة ؟ لما بدأتْ السفن كانت تجرى بقوة الهواء أو بقوة دَفْع الماء لها ، فإنْ كانت تسير فى نفس اتجاه التيار أجراها التيار معه ، وإنْ كانت تسير ضد اتجاه التيار استخدموا الهواء فى دَفْعها باستخدام القِلْع ، فإنْ سكن الريح يظللن رواكد على ظهره .

إذن : هى تجرى بأمر الله وتسكن بأمر الله ، وإن كانت تسير فى نهر وتسبح ضد تيار الماء جاءوا بالعمال وبالحبال ليشدُّوا السفينة وهم على الشاطئ ويسيرون بها :

---

(١) أورد هذا الخبر الألوسى فى تفسير هذه الآية (١٨/ ٢٨٠) : « قاتلها الله تعالى ما رضيت بتشبيهه بالجبل حتى جعلت على رأسه ناراً » . وكذا الرازى فى مفاتيح الغيب (١٣/ ٤٤٠) .

(٢) الجوارى : جمع جارية ، وهى السفن الجارية فى البحر ، سُميت جارية لأنها تجرى فى الماء . والجارية : المرأة الشابة ، سُميت بذلك لأنها يجرى فيها ماء الشباب [تفسير القرطبى ٩/ ٦٠٧٦] .

﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾﴾

معنى ﴿فَيَظْلَلْنَ .. ﴿٣٣﴾﴾ [الشورى] أى السفن ﴿رَوَاكِدَ .. ﴿٣٣﴾﴾ [الشورى] ثوابت ساكنة لا تتحرك ، قد يُحرِّكها الموج فى مكانها لكنها ثابتة لا تسير ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ .. ﴿٣٣﴾﴾ [الشورى] صبار فعَّال وهذه صيغة مبالغة من صابر لأن جريان السفن يحتاج إلى مجهود وإلى مشقة ، فلا بدَّ له من الصبر الطويل .

وكذلك ﴿شَكُورٍ ﴿٣٣﴾﴾ [الشورى] على وزن فعُول ، وهى أيضاً صيغة مبالغة من شاكر ، فجريان السفن من آيات الله التى تستوجب شكره عليها .

ثم إن هذه الآية جاءتْ بعد قوله تعالى ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ .. ﴿٣٠﴾﴾ [الشورى] فالمصائب أيضاً تحتاج إلى الصبَّار الشكور ؛ لأن المصيبة حين تنزل بالمرء لا تصيب كلَّ الأعضاء ولا تأتى عليه كله ، فالله يصيبك فى شىء ويُعافيك فى أشياء ، فالمصاب يحتاج إلى صبر والمعافى يحتاج إلى شكر .

لذلك رُوِى أن سيدنا عبد الله بنِ جعفر[1] لما ذهب إلى الشام

(١) هو : عبد الله بن جعفر بن أبى طالب ، صحابى ، ولد بأرض الحبشة عام ١ هجرية لما هاجر أبواه إلى الحبشة ، وهو أول من وُلِد بها من المسلمين وأتى البصرة والكوفة والشام ، كان أحد الأمراء فى جيش على يوم « صفين » ومات بالمدينة عام (٨٠هـ/ ٧٠٠م) [الأعلام للزركلى ٤/٧٦] .

جُرِحَتْ رِجْله وهو فى الطريق ، ولم يجد مَنْ يعالجه لطول المسافة ، فقاحتْ وحدث بها تلوث وأصابتها الغرغرينة ، فلما بلغ دمشق ونزل فى ضيافة الخليفة أتوا له بالأطباء . فقرروا بترها والتمسوا له (مُرقِّد) وهو مثل البنج الآن كى لا يُحس بالألم ، لكنه رفض ذلك وقال : والله ما أحبُّ أنْ أغفل عن ربى طرفة عين ، وفعلاً قطعوا رِجْله دون تخدير ، لأن الذى يتمتع بهذه المعية ويشعر بهذا الشعور حقيقٌ ألاَّ يشعر بألم وهو فى معية الله .

هذه المعية التى احتمى بها سيدنا رسول الله وصاحبه فى الغار حين قال له : لا تحزن إن الله معنا ، أبو بكر يقول : يا رسول الله لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا ، فيقول له ﷺ : « يا أبا بكر ، ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟ »[1] ذلك لأنهما فى معية الله ، والله لا تدركه الأبصار ، وكذلك من كان فى معية الله منحه الله شيئاً من هذه الصفة .

فلما قال سيدنا عبد الله بن جعفر : ما أحبُّ أن أغفل عن ربى طرفة عين قطعوا رِجْله وهو فى هذه الحالة فلم يشعر بألمها ، فلما أرادوا أنْ يدفنوها أمسك بها وقال : اللهم إنْ كنتَ ابتليتَ فى عضو فقد عافيتَ أعضاء . إذن : هذا مثال للعبد الصبار الشكور ، صبار على المصيبة شكور على النعمة .

وفى قوله سبحانه : ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ .. (٣٣)﴾ [الشورى] لون آخر من الإعجاز القرآنى ، لأن السفينة قديماً كانت لا تسير إلا

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٦٦٣) ومسلم فى صحيحه (٢٣٨١) من حديث أبى بكر الصديق رضى الله عنه .

بالهواء ، فكيف وهى الآن تسير بقـوة الوقود أو بالكهرباء ولا تحتاج إلى الريح ، فهل يعنى اسـتغناء السفن عن الريح أن الآية لم يَعُـدْ لها مجال الآن ؟ قالوا : لا بل هى خالدة باقية لهـا معنى يُعتبر إلى قيام الساعة ، لأن من معانى كلمة الريح أى القوة أياً كانت .

واقـرأ إنْ شئتَ قـوله تعـالى ﴿ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ .. (٤٦) ﴾ [الأنفال] أى : قوتكم ، فـإن استغنيـتم عن الريح بقى معنى القوة ، سواء أكانت بالبخار أو غيره

وقوله ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣٣) ﴾ [الشورى] بعد ﴿ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ .. (٣٣) ﴾ [الشورى] إشارة لأصحاب السفن وركابها ، أنها إذا توقفت عن السير بسبب سكون الريح فلا تحزن ، واستقبل هذه المسألة بشىء من الصبر ، واشكر الله أنْ جاءت الشدة على هذه الصـورة ، ولم تكنْ أكثـر من ذلك كـأن يصيبهـا عطب أو إعصار أو غير ذلك من المصائب ، يعنى : اصبر على ما فاتك واشكر على ما بقى لك .

﴿ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ[1] عَن كَثِيرٍ (٣٤) ﴾

معنى ﴿ يُوبِقْهُنَّ .. (٣٤) ﴾ [الشورى] يعنى إما أن يظللن رواكد على

(١) فعـل يعفـو هنا مجـزوم أى محـذوف منه حرف العلة . وهى القـراءة الفـاشيـة كمـا قال القشيـرى . وبسبب هذا الجزم قـد يفهم البعض أن معنى الآية هى تعليـق العفو بالمشيـئة وكأن يعف معطوفـة على (إن يشأ) . قال القرطبى فى تفـسيره (٦٠٧٧/٩) : « وليس المعـنى ذلك بل المعنى الإخبار عن العـفو من غيـر شرط المـشيـئة ، فهـو إذاً عطف على المجزوم من حيث اللـفظ لا من حيث المعنى . وقد قرأ قوم (ويعفـو) بالرفع وهى جيدة فى المعنى » .

ظهره أو يُغرقهن ﴿بِمَا كَسَبُوا .. (٣٤)﴾ [الشورى] بما فعلوا من المعاصى كشرب الخمر ولعب القمار وغيره ﴿وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ (٣٤)﴾ [الشورى] أى : يعفو عن كثير من ذنوبهم فلا يؤاخذهم بها .

وفى موضع آخر يشرح الحق سبحانه هذه المسألة : ﴿هُوَ الَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِى الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٢٢) فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ .. (٢٣)﴾ [يونس]

ثم يقول سبحانه :

﴿وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ(١) (٣٥)﴾

يعنى : ما لهم من ملجأ ولا مهرب من عذاب الله ، فالذين يجادلون رسول الله فى آيات الله ويكذبونه يعلمون قدرة الله عليهم ، وأنه سبحانه إنْ شاء أخذهم أخْذ عزيز مقتدر .

و « حاص » فى المكان . أى : ذهب إلى هنا أو هناك ، ولا يجد راحة ، ونجد فى تعبيرنا العامى ما يُصور ذلك وهو قولنا « فلان حايص » أى : لا يجد مكاناً يرتاح فيه . ولا يعرف إلى أين يذهب ، فلا مهربَ ولا مَنْجى .

﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٣٦)﴾

---

(١) ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ (٣٥)﴾ [الشورى] أى : لا مفر لهم ولا ملجأ . والمحيص : المهرب . [القاموس القويم ١/١٨١] .

قوله : ﴿ مِّن شَىْءٍ .. ﴿٣٦﴾ ﴾ [الشورى] يعنى : كل ما يقال له شىء من مُتَع الحياة ، كالمال والأولاد والزوجات والمناصب والصحة والجاه .... إلخ . كل هذا متاع الحياة الدنيا فحسب تتمتع به فى الدنيا ، والدنيا بالنسبة لك ليست هى الفترة من آدم إلى قيام الساعة ، بل هى مدة بقائك أنت فيها لا دَخْلَ لك بمدة حياة الآخرين ، فأنت لا تمر على الدنيا إنما الدنيا هى التى تمر عليك .

إذن : مهما كان متاعك فهو موقوت بعمرك فى الدنيا وينتهى ﴿ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الشورى] لأنك فى الدنيا تتمتع على قدر جهدك فيها وعلى قدر إمكانياتك ، أما فى الآخرة فالمتعة على قدْر الحق سبحانه ، وإنْ كان متاع الدنيا يزول فمتاع الآخرة باقٍ دائم خالد .

إذن : عندما تقيس مستوى النعمة التى تعيشها فى الدنيا بمستوى النعمة فى الآخرة تعلم أن ما عند الله خيرٌ وأبقى ، وحين تعلم هذه الحقيقة ينبغى عليك أنْ تعمل لها ، لأن هذه الخيرية ، وهذا البقاء موقوفٌ على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ، فهنا عقيدة وعمل بالأسباب .

وفَرْق بين مَنْ يتوكل على الله بأن يأخذ أولاً بالأسباب ثم يتوكل على الله ، ومن يتواكل أى يقول توكلت على الله ويترك السَّعْى والأخْذ بالأسباب . إذن : المؤمن يتوكل بقلبه ويعمل بجوارحه .

وقد نزلتْ هذه الآية ﴿ فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. ﴿٣٦﴾ ﴾ [الشورى] فى جماعة من صناديد قريش وعلى رأسهم الوليد ابن المغيرة ، لما حسدوا رسول الله وحقدوا عليه لما اصطفاه الله للرسالة فقالوا :

﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾ [الزخرف] يعنى : عنده كذا وكذا ، فردَّ الله عليهم أن هذا كله متاع دنيوى زائل ،

وما عند الله خير منه وأبقى .

﴿ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

معنى ﴿ يَجْتَنِبُونَ .. ﴿٣٧﴾ ﴾ [الشورى] أى : يبتعدون عن الأسباب المؤدية إلى ﴿ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ .. ﴿٣٧﴾ ﴾ [الشورى] الكبائر هى الذنوب الكبيرة التى توعَّد اللهُ فاعلها وجعل لها عقوبة . والفواحش كل ما عظُم فُحْشه وقُبْحه ، وهذه كلها ذنوب تُوجب إقامة الحدِّ على فاعلها .

وسبق أنْ قلنا : إن مواكب الرسل المختلفة اتفقتْ فى تحريم هذه الكبائر ، وحثَّتْ الجوارح النفسية أنْ تتبرأ من عيوبها ، فالقلب يتبرأ من الشرك ومن الإصرار على المعصية ، وألاَّ يأمن مكر الله ، وألاَّ ييأس من رحمة الله .

واللسان يبرأ من شهادة الزور وقوْل الزور وقَذْف المحصنات واليمين الغمُوس الذى يُغمس صاحبه فى النار ، وهو الحلف كذباً على شيء حصل فى الماضى ، وهذا اليمين ليس له كفارة ، لكن إنْ حلف على شيء فى المستقبل ، وظهر له ما هو أفضل يسمح الله له أنْ يأتى الأفضل ويُكفِّر عن يمينه .

كذلك البطن تبرأ من شرب الخمر وأكْل مال اليتيم وأكْل الربا . والفَرْج يبرأ من كل اتصال لا يحلّ ، واليد تبرأ من السرقة والقتل ، والرِّجْل تبرأ من التولِّى يوم الزحف . وفوق هذا كله تبرأ كلُّ هذه الجوارح من عقوق الوالدين .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ (٣٧) ﴾ [الشورى]
الغضب فوران الغريزة الغضبية من شيء أغضبك أو أتعبك ، وهذا الشيء حدث من شخص ما فتتولد لديك رغبة الانتقام أو مشاعر الحقد والحسد نحوه .

فالحق سبحانه يُعلِّمنا كيف نغفر ونعفو ونصفح ، وإذا كنتَ تحب أن يغفر لك فاغفر لمَنْ أساء إليك ، وإذا تأملنا أحوال الناس نلاحظ أن عاقبة الصفح والغفران حميدة ، وعاقبة البطش والانتقام وخيمة .

لذلك الحق سبحانه وتعالى يرشدنا إلى أن نأخذ جانب العفو ، ونحذر سَوْرة الغضب ، وألاَّ ننساق معها ، وألاَّ نتجاوز الحدود حين تأخذنا هذه السَّوْرة حتى فى مسألة القصاص : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى ..(١٧٨) ﴾ [البقرة]

فبعد أنْ يُشرع لنا القصاص يُذكِّرنا بما هو أَوْلَى بنا وأرشد وهو العفو ﴿ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ..(١٧٨) ﴾ [البقرة] فشرع القصاص ليحفظ الحق لصاحبه ، ثم فتح باب العفو .

لذلك نجد الدين يمنع أى شخص أنْ يشفع فى حَدّ من حدود الله إلا القتل تجوز فيه الشفاعة ، لأن وليَّ المقتول حين يعفو عن القاتل يُفشى الودَّ فى المجتمع ، ويصير القاتل مُداناً له لأنه يعلم أن روحه رَهْن بهذا العفو .

واقرأ قول الله تعالى : ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٣٥) ﴾ [فصلت]

هذه حقيقة يقررها الخالق سبحانه وهو أعلم بعباده ، لذلك نجد البعض فى هذه المسألة يقول لك : والله أنا دفعتُ بالتى هى أحسن

دون فائدة ، نقول له : عليك أنْ تراجع نفسك ومدى صدْقك في تصرفاتك ، فأنت تظن أنك دفعتَ بالتي هي أحسن ، لكن الواقع غير ذلك ، فأنت تجرِّب مع الله والتجربة مع الله شكٌّ ، فلو صدقتَ لصدقتْ الآية معك . وصدق القائل[1] :

يا مَنْ تُضَايقُكَ الفعَـ ـالُ مِنَ التى وَمِنَ الذى
ادْفَع فَديْتُـك بالتـى حَتَّـى تَـرَى فَـإذَا الـذى

ثم تأمل لماذا أكَّدتْ الآية الفاعل في ﴿ يَغْفِرُونَ (٣٧) ﴾ [الشورى] بذكر الضمير المنفصل (هم) ؟ فقال تعالى[2] : ﴿ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ (٣٧) ﴾ [الشورى] قال : هـم ليؤكد أنهم أصحاب القرار ، فالغفران منهم هم ، ليس مجاملة لأحد ، ولا إجباراً من أحد ، لأنك قد ترسل لصاحب الحق مَنْ يشفع لك عنده ، فحين يغفر صاحب الحق يكون الجميل للشافع ، فلماذا إذن تحرم نفسك الثواب ، لماذا لا تجعلها لك خالصة ؟

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ (٣٨) ﴾

قوله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ (٣٨) ﴾ [الشورى] أي :

---

(١) من شعر الشيخ محمد متولي الشعراوي رحمه الله .

(٢) نقل القرطبي في تفسيره (٦٠٧٩/٩) أقوالاً أن هذه الآية نزلت في كبار الصحابة ، قال : نزلت في عمر حين شُتم بمكة . وقال ابن عباس : شتم رجل من المشركين أبا بكر فلم يرد عليه شيئاً فنزلت الآية . وعن علي قال : اجتمع لأبي بكر مال مرة فتصدق به كله في سبيل الخير فلامه المسلمون وخطَّأه الكافرون فنزلت الآيات : ﴿ فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ (٣٦) ﴾ [الشورى] إلى قوله : ﴿ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ (٣٧) ﴾ [الشورى]

بالإيمان وهذه تمثل العقيدة ﴿وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الشورى] تمثل العمل والتطبيق .

هذه آية من آيات كثيرة قرنتْ بين الصلاة والزكاة ، لأن بهما يستقيم حال المجتمع المؤمن ، الزكاة تنازلٌ عن بعض مالك للمحتاجين فأنت إذن تضحى فيها بالمال ، كذلك فى الصلاة زكاةٌ أبلغ من زكاة المال ، لأنك فى الصلاة تُضحِّى بالوقت الذى هو مجال العمل وسبب كسب المال .

الجديد فى هذه الآية فى مسألة الجمع بين الصلاة والزكاة ذكْر مسألة الشورى بينهما ، والمتحدِّث بهذا هو الحق سبحانه ، فلا بدَّ لنا أنْ نقف هنا ونتلمَّس الحكمة : لماذا جعل الشورى بين هذين الأمرين اللذين اجتمعا دائماً فى آيات الذكر الحكيم ؟

نقول : معنى (أقاموا الصلاة) يعنى : أدَّوْهَا على أكمل وجه ، وهذا يكون فى جماعة المسجد ، فكأنه ينتهز فرصة الاجتماع هذه ويأمرهم بأنْ يكون أمرهم شورى بينهم ، والشورى لا تكون فى أمر وصَّانا الله به ، ولا فى أمر وصَّانا به رسوله ﷺ ، إنما تكون فى الأمور الخلافية التى لم يأت فيها نصٌّ ، فيكون الحكم فيها شورى بين أهل الاختصاص كما نرى فى مسألة الفتوى [١] .

لذلك ندعو إلى أن تكون الفتوى جماعية لا فردية ، فلما تتناقش

---

(١) من جميل مواقف الشورى مشاورة عمر رضى الله عنه للهرمزان حين وفد عليه مسلماً ، فشاوره فى أمر المغازى ، فقال له الهرمزان : مثلها ومثل من فيها من الناس من عدو المسلمين مثل طائر له ريش وله جناحان ورجلان ، فإنْ كُسر أحد الجناحين نهضت الرِّجْلان بجناح والرأس ، وإنْ كُسر الجناح الآخر نهضت الرجلان والرأس ، وإنْ شُدخ الرأس ذهب الرِّجْلان والجناحان . والرأس كسرى والجناحان واحد قيصر والآخر فارس ، فَمُرِ المسلمين فلينفروا إلى كسرى . [تفسير القرطبى ٩/٦٠٨١] .

الجماعة لا بدَّ أنْ يصلوا إلى الصواب ، ولا مانع أن تدافع عن رأى الجماعة حتى لو كان لك رأى مخالف .

ثم تأمل ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ.. (٣٨) ﴾ [الشورى] ولم يقل : تشاور . فعبّرَ بالمصدر ليؤكد أن أمرهم هو نفسه الشورى ، كما تقول : رجل عادل ورجل عَدْل ، فجعلته العدل ذاته ، وقد ورد أن الإمام علياً رضى الله عنه قال لرسول الله ﷺ : يا رسول الله ترد علينا أمور لا نَرَى لله فيها حكماً ، ولا نرى لسنة نبيه فيها حكماً ، فماذا نصنع ؟ قال ﷺ : اجمعوا العباد ، واجعلوها شورى ولا تقتدوا برأى واحد[١] .

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ (٣٩) ﴾

معنى ﴿ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ (٣٩) ﴾ [الشورى] لحقهم ظلم واعتداء والبغى : مجاوزة الحد فى الظلم ﴿ هُمْ يَنتَصِرُونَ (٣٩) ﴾ [الشورى] أى : ينتقمون من الظالم بنفس القدر دون زيادة ، وهذه الآية تُقرِّر حكماً لله عز وجل هو جواز الانتقام من الظالم[٢] ، لكن لا تنتهى المسألة عند هذا الحكم ، إنما يُتبعه الحق سبحانه بحكم آخر لتكتمل

---

(١) أخرجه الطبرانى فى المعجم الكبير (حديث ١١٨٧٤) من حديث ابن عباس أن على بن أبى طالب قال : يا رسول الله أرأيتَ إن عرض لنا أمر لم ينزل فيه قرآن ولم يخصص فيه سنة منك ؟ قال : « تجعلونه شورى بين العابدين من المؤمنين ولا تقضونه برأى خاصة » . وعزاه السيوطى له فى الدر المنثور فى تفسير ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) ﴾ [النصر] قال الهيثمى : فيه عبد الله بن كيسان . قال البخارى : منكر الحديث .

(٢) هناك حالتان للظالم أو الباغى قالهما القاضى أبو بكر بن العربى ونقلهما القرطبى فى تفسيره (٩/٦٠٨٢) : **الأولى** : أن يكون الباغى معلناً بالفجور وقحاً فى الجمهور مؤذياً للصغير والكبير فيكون الانتقام منه أفضل . **الثانية** : أن يكون ظلمه فلتة أو يقع ذلك ممن يعترف بالزلة ويسأل المغفرة ، فالعفو ها هنا أفضل .

الصورة ، فيقول تعالى فى الآية بعدها :

﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾

الحق سبحانه وتعالى رحيم بعباده لطيف بهم ، وحينما أجاز لهم الرد بالمثل فى القصاص وفى المظالم أراد سبحانه أنْ يُرضى مواجيد المظلوم وعواطفه ، وأنْ يريحه بالانتقام من ظالمه ، لكن ضيَّق هذا الباب فى حين أوسع باب العفو ورغّب فيه ، ضيّق عليك باب الانتقام حينما قال : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [النحل]

فالحق سبحانه حينما قال ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ..﴿٤٠﴾ ﴾ [الشورى] إنما ليريح قلبك ويُنهى العداوة والبغضاء بين الطرفين ، لكن أتضمن حين تنتقم أنْ ترد بالمثل ؟ إن المثلية هنا أمر شاقّ جداً لا يقدر أحد عليه ، ففى أبسط الأمور لو شخص ضرب الآخر ضربة ، أو لطمه لطمة على وجهه ، أيستطيع أنْ يردَّ بمثلها دون زيادة ؟ ولو زاد عليها لكان هو الآخر ظالماً . إذن : فى العفو سَعة ومخرج من هذا الحرج ومن هذا التضييق .

لذلك يُحكى أنه كان فى إيطاليا رجل مُراب[1] أقرض شخصاً لأجَل ، لكن اشترط عليه إذا لم يُؤدّ فى الموعد المحدد بينهما أنْ يقطع رطلاً من لحمه مقابل هذا الدَّيْن ، فلما جاء الموعد ولم يدفع المدين ما عليه

---

(١) هو رجل يهودى اسمه شايلوك ، والقصة كلها مسرحية لشكسبير الكاتب الإنجليزى (تاجر البندقية) - دار الشروق - ترجمة حسين أحمد أمين - ١٩٩٤م .

رفع الدائنُ أمره إلى القاضى ، فأقره القاضى على شرطه وقال له من حقك أنْ تأخذ رطلاً من لحمه لكن تذكَّر إنْ زاد أخذنا الزيادة من لحمك أنت ، وإنْ نقص أكملناه من لحمك أنت ، فلم يملك المرابى إلا التراجع عن شرطه .

لذلك يقول تعالى : ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الشورى] وكأن الانتقام لا بدَّ وأنْ يجر صاحبه إلى منطقة الظلم .

وعن الإمام على رضى الله عنه قال رسول الله ﷺ : « إذا كان يومُ القيامة نادى مُنادٍ يقول : مَنْ كان أجره على الله فليقُم للجنة ، فلم يرد أحد ، فقال : من كان أجره على الله فليقم للجنة - يعنى بغير حساب - فقالوا : ومَنْ الذى أجره على الله ؟ قال : العافى عمَّنْ أساء إليه »[1] .

ورُوى أن سيدنا رسول الله ﷺ كان ذات يوم بين أصحابه فضحك فسأله عمر رضى الله عنه : ما أضحكك يا رسول الله ؟ قال : رأيتُ ربى يفصل فى خصومة بين اثنين . فقال أحدهما : ربِّ إن هذا أساء إلىَّ فخُذْ من حسناته وأعطنى بقدر إساءته ، فقال له : ليس له حسناتٌ ، لكن انظر ، فنظر فإذا بقصور وأشياء عجيبة ، فقال : لمَنْ هذه يا ربِّ ؟ قال : لمن عفا عن أخيه . فقال : عفوت عنه ، فقال :

---

(١) أخرج الطبرانى فى المعجم الأوسط (٢٠٧٢) عن أنس بن مالك أن النبى ﷺ قال : « ... ثم نادى مناد : ليقم من أجره على الله فليدخل الجنة . ثم نادى الثانية : ليقم من أجره على الله فليدخل الجنة قال : ومن ذا الذى أجره على الله ؟ قال : العافين عن الناس ... » وأورده القرطبى فى تفسيره الآية ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ ﴿١٣٤﴾﴾ [آل عمران] وقال : ذكره الماوردى .

فخُذْ بيد أخيك وادخُلا الجنة[١] .

ولك أنْ تتأمل كـيف يصلح الخالق الخَلْق بهذه القـيم ، وما علينا إلا أنْ نُخرجها من المجال النظرى إلى التطبيق والعمل .

والسيئة فى قوله تعالى : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا .. (٤٠) ﴾ [الشورى] يعنى : عـمل فيـه إساءة لك بقـول أو فـعل ، وليست سـيئـة الذنوب والمعاصى فى حقِّ الله تعالى .

﴿ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ (٤١) إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٢) ﴾

قوله تعالى ﴿ وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ .. (٤١) ﴾ [الشورى] يعنى : انتقم من ظالمه ﴿ فَأُولَـٰئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ (٤١) ﴾ [الشورى] يعنى : لا مؤاخذة عليهم لأنهم ما تعدَّوْا حـدود الانتصار للنفس والانتقام لها

---

(١) أخرجه الحاكم فـى مستدركه (حديث ٨٨٦٩) عن أنس بن مالك قـال :« بينما رسول الله ﷺ جالس إذ رأيناه ضحك حتى بدت ثناياه . فقال له عمر : ما أضحكك يا رسول الله بأبى أنت وأمى ؟ قال : رجـلان من أمتى جثيا بيـن يدى رب العزة . فقال أحدهـما : يا رب خذ لى مظلمتـى من أخى ، فقال الله تبـارك وتعالى للطالب : فكيف تصنع بأخـيك ولم يبق من حسناته شىء ؟ قال : يا رب فليحمل من أوزارى . قال : وفاضت عينا رسول الله بالبكاء . ثم قال : إن ذاك اليـوم عظيم يحتـاج الناس أن يحمل عـنهم من أوزارهم . فقـال الله تعالى للطالب : ارفع بصـرك فانظر فى الجنان فرفع رأسـه . فقـال : يا رب أرى مدائن من ذهب وقصوراً من ذهب مكللة باللؤلؤ لأى نبى هذا أو لأى صدِّيـق هذا أو لأى شهيد هذا ؟ قال : هذا لمن أعطى الثمن . قال : يا رب ومَنْ يملك ذلك ؟ قـال : أنت تملكه . قال : بماذا ؟ قال ؟ بعفـوك عن أخيك . قال : يا رب فـإنى قد عفـوت عنه . قال الله : فـخذ بيد أخـيك فأدخله الجنة » قال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه (أى البخارى ومسلم) .

﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ .. (٤٢)﴾ [الشورى] أي : سبيل المؤاخذة ﴿عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَـٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٢)﴾ [الشورى]

ثم يأخذ الحق سبحانه بأيدى العباد إلى طريق أسلم من الانتقام وأحمد فى العاقبة ، فيقول تعالى :

﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (٤٣)﴾

جاء فى وصية لقمان لابنه : ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ (١٧)﴾ [لقمان] هكذا دون توكيد باللام التى هنا ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ (٤٣)﴾ [الشورى]

صحيح أن المعنى العام واحد وهو الدعوة إلى الصبر ، لكن فرْق بين الصبر على مصيبة ليس لك فيها غريم ، والصبر على مصيبة لك فيها غريم ، فوجود الغريم يحتاج إلى قوة فى الصبر وتحمُّل ، لأنك كلما رأيتَ غريمك هاجتْ عندك دواعى الانتقام ، فلقمان يوصى ولده بالصبر على مصيبة ليس فيها غريم ، فلم يحتج إلى توكيد .

أمَّا هنا فالكلام عن الصبر حينما يكون لك غريم تفكر فى الانتقام منه وردّ السيئة بمثلها ، فأنت فى حاجة إلى قوة تُعينك على الصبر وطاقة تأخذك من مجال الانتصار للنفس إلى مجال العفو والصفح ، لذلك أكَّد الكلام باللام مرتين فى الآية .

وقوله تعالى : ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ .. (٤٣)﴾ [الشورى] يعنى : أننا أمام مرحلتين : الصبر على الإساءة ثم غفران الإساءة ، فكثير من الناس يصبر على مَنْ أساء إليه لكنه لا يغفر له إساءته ، لأن مرحلة الغفران تحتاج إلى قوة إيمان وقوة عزيمة ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ

الأُمُورِ ﴿٤٣﴾ [الشورى]

يعنى : الأمور المهمة التى تحتاج منك إلى عزيمة وثبات وقوة تطفىء بها نار الحقد والثأر والانتقام ، وقوة أخرى تستمد منها طاقة للمغفرة ، وهذه لا تكون إلا للمؤمن الواثق بأن ما عند الله خيرٌ وأبْقى ، وأنه سينال بالعفو ما لم يَنَلْهُ بالانتقام .

إذن : الحق سبحانه أباح لك أنْ تنتقم لنفسك ، ثم دعاك إلى العفو ورغَّبك فيه ، فمتى يكون الانتقام ؟ ومتى يكون العفو ؟ قالوا : العفو أوْلَى من الانتقام والانتصار للنفس ، إلا إذا كان المسىء الظالم من الجاهلين الذين لا يزيدهم العفو إلا تمادياً فى الظلم ، ولا يزيده حِلْمك عليه إلا طمعاً فيك ، فهذا لا بدَّ له من المعاملة بالمثل ليرتدع ولا يتمادى فى ظلم الناس .

وقد تنبه إلى هذه الحقيقة كثير من الشعراء العرب القدماء ، يقول المتنبى(١) :

مِنَ الحِلْمِ أنْ تستْعمِلَ الجهْلَ دُونَه   إذَا اتَّسَعَتْ فى الحِلْمِ طُرقُ المظَالِمِ(٢)

وقال أيضاً :

إذَا أنْتَ أكْرمْتَ الكَرِيمَ ملَكْتَهُ   وإنْ أنتَ أكْرمْتَ اللئِيمَ تَمرَّدَا

---

(١) المتنبى هو : أحمد بن الحسين أبو الطيب شاعر حكيم ولد (٣٠٣هـ / ٩١٥م) بالكوفة فى كندة وإليها نسبته ، ونشأ بالشام ، قال الشعر صبياً وتنبأ فى بادية السماوة ، وسُجن حتى تاب ورجع عن دعواه . قتل فيما بعد على يد فاتك بن أبى جهل الأسدى عام (٣٥٤هـ / ٩٦٥م) .

(٢) البيت من قصيدة لأبى الطيب المتنبى من بحر الطويل ، عدد أبياتها ٣٦ بيتاً . [الموسوعة الشعرية] .

وَوَضعُ النَّدى فى مَوْضعِ السَّيْفِ بالعُلا　　مُضِرٌ كوضْعِ السَّيْفِ فى موْضعِ النَّدى[(١)]

وقال آخر[(٢)]:

ولاَ خَيْر فى حِلْم إذَا لم تكُنْ لَهُ　　بَوَادِرُ تَحمْي صَفْوَهُ أنْ يُكدَّرا[(٣)]

وفى تاريخ قبائل العرب ما يؤكد ذلك، فبعض القبائل كانت شرسة وقوية لا تقبل الضيم مثل بنى مازن، كانت حجة فى الانتصار لنفسها، فصار الناس يرهبونها، ولا يجرؤ أحد على التعدى عليها، ومن القبائل التى كانت تجهل وتغتر بعفو مَنْ عفا عنها قبيلة بنى اللقيطة من بنى ذهل.

أما طىء فكانت قبيلة مسالمة تعفو وتصفح وتقابل السيئة بالإحسان، لذلك طمع فيها بنو ذهل وتمادوا فى التعدى عليها حتى فاض بشاعرهم بعد أنْ استباحوا أرضه وأخذوا إبله، فضاق بما عليه قبيلته من العفو عمَّنْ لا يستحق العفو، فقال فى وصفهم:

كَأنَّ ربَّكَ لَمْ يخلُقْ لخَشْيته　　سِواهُمْ مِنْ جَمِيع النَّاسِ إنْسَانَا

---

(١) البيتان من قصيدة للمتنبى من بحر الطويل أيضاً، عدد أبياتها ٤٢ بيتاً، وهما البيتان (٢٩، ٣٠) من القصيدة. [الموسوعة الشعرية].

(٢) الشاعر هو النابغة الجعدى، قيس بن عبد الله أبو ليلى العامرى، ولد ٥٤ قبل الهجرة وتوفى ٥٠ بعد الهجرة، عاش ١٠٤ عاماً، سُمى النابغة لأنه أقام ثلاثين سنة لا يقول الشعر ثم نبغ فقاله، كان ممن هجر الأوثان ونهى عن الخمر قبل الإسلام، وفد على النبى ﷺ فأسلم.

(٣) البيت للنابغة الجعدى من قصيدة من بحر الطويل، عدد أبياتها ٨٥ بيتاً: هو البيت (٨٠) فيها. [الموسوعة الشعرية].

وَيَجْزُونَ من ظُلْم أهْلِ الظلْمِ مَغْفِرَةً   وَمِنْ إسَاءَة أهْلِ السُّوء إحْسَانَا[1]

ثم قال[2] قصيدته المشهورة فى الأدب العربى :

صَفَحْنَا عَنْ بَنِى ذُهْـل[3]   وَقُلْنَا القَـوْمُ إخْـوَانُ

عَسَى الأيَّامُ أنْ يرجعْنَ   قَـوْماً كَـالذى كَـانُوا

فَلمَّـا صَـرَّحَ الشـرُّ   وَأمْسَى وَهْـو عُرْيَـانُ

مَشَيْنَـا مشْـيَةَ اللـيْث   غَـدَا وَاللـيْـثُ غَضبَانُ

بِضَرْبٍ فيـه تَوْهِيـنٌ   وَإضْـعَـافٌ وإقْـرَانُ

وَطَعْـنٍ كَـفَـمِ الـزِّقِّ[4]   غَـدَا وَالـزِّقُّ مَـلآنُ

---

(١) هذان البيتان :

– ذكرهما ابن داود الأصفهانى فى (الزهرة) وعزاهما لرجل من بنى العنبر ، من قصيدة أولها : لو كنت من مازن لم تسبح إبلى   بنو اللقيطة من ذهل بن شيبانا

ولكنه خلف ترتيب البيتين . ونحوه عند العبيدى فى (التذكرة السعدية) وذكر اسمه (قريط ابن أنيف) .

– وذكر الجاحظ فى (الحيوان) البيت الأول فقط وقال : قال آخر حين اعتل عليه قومه فى القتال بالورع .

– وذكرهما ابن عبد ربه الأندلسى فى العقد الفريد كما هو فى النقطة الأولى وقال : قال رجل من العرب يذم قومه وأغارت بنو شيبان على إبله فاستنجدهم فلم ينجدوه وكان فيهم ضعف ، فقال ما قاله . وكذا عبد القادر البغدادى فى (خزانة الأدب) .

– وذكرهما ابن قتيبة الدينورى فى عيون الأخبار تحت فصل : شعر لرجل من بنى العنبر يمدح بنى مازن ويهجو قومه يُعيرهم بجنبهم .

(٢) القائل هو : الفند الزمانى واسمه سهل بن شيبان بن ربيعة ، من بكر بن وائل ، شاعر جاهلى كان سيد بكر فى زمانه وفارسها وقائدها ، شهد حرب بكر وتغلب وقد ناهز عمره المائة ، سمى الفند لعظم خلقته تشبيهاً بفند الجبل وهو القطعة منه . [الموسوعة الشعرية] .

(٣) ذُهْل : قبيلة . وذهل : حى من بكر وهما ذهلان كلاهما من ربيعة . أحدهما ذهل بن شيبان ، والآخر ذهل بن ثعلبة . [لسان العرب – مادة : ذهل] .

(٤) الزق : السقاء . والزق من الأهُب (الجلود) : كل وعاء اتخذ لشراب ونحوه . وقال أبو حنيفة : الزق هو الذى يُنقل فيه . [لسان العرب – مادة : زقق] .

وَبَعْضُ الحِلْمِ عِنْدَ الجَهْلِ لِلذِّلَةِ إِذْعَانُ
وَفِى الشَّرِّ نَجَاةٌ حِينَ لاَ يُنْجِيكَ إِحْسَانُ(١)

وما أجمل قول الإمام على رضى الله عنه :

لَئِنْ كُنْتُ مُحتَاجاً إلى الحِلْمِ إنّنى إِلَى الجَهْلِ فى بَعْضِ الأحَايينِ أحْوَجُ
وَلى فَرَسٌ لِلحِلْمِ بِالحِلْمِ مُلْجَم وَلِى فَرَسٌ لِلْجَهْلِ بالجهْلِ مُسْرَجُ
فَمَنْ رامَ تَقْويمى فإنِّى مُقَوَّم وَمَنْ رامَ تَعْويجِى فَإنِّى مُعْوجُ(٢)

﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّـٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ ﴾

قوله تعالى ﴿ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ .. ﴿٤٤﴾ ﴾ [الشورى] يعنى : يحكم الله عليه بالضلال ، لأن الهدى هدى الله ، وهو سبحانه قد بيَّن للناس طريق الخير وطريق الشر بالدلالة على الخير والنهى عن الشر .

وهذه الهداية التى نسميها هداية الدلالة والإرشاد جعلها الحق سبحانه للمؤمن وللكافر ، فالله دلَّ الجميع ، المؤمن أخذ هذه الهداية

---

(١) الأبيات من قصيدة للفند الزمانى ، من بحر مجزوء الوافر ، عدد أبياتها ٢٦ بيتاً ، مع اختلاف كبير فى ألفاظ الأبيات عما أورده الشيخ الشعراوى رحمه الله ، ففى بعضها (صفحنا عن بنى ذهل) وفى بعضها (كففنا عن بنى هند) .

(٢) هذه الأبيات وردت فى الموسوعة الشعرية منسوبة لاثنين من الشعراء :
– محمد بن حازم الباهلى بصرى سكن بغداد ومات فيها عام ٢١٥ هـ
– محمد بن وهيب الحميرى ، بصرى عاش ببغداد توفى عام ٢٢٥ هـ ولكنى أظنهما شخصاً واحداً .

فعمل بما فيها وسار على نهجها فى الأمر وفى النهى ، فزاده الله هدى .

أما الكافر فتجاهل هذه الهداية ولم يعمل بها فزاده اللهُ من الضلال الذى اختاره لنفسه ، فالذى يريد شيئاً ويعشقه يزيده الله منه سواء المؤمن أو الكافر ، لذلك قال عن المؤمن : ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧) ﴾ [محمد] أما الكافر فقد ختم على قلبه حتى لا يخرج منه كفره ولا يدخله نور الإيمان .

وقوله : ﴿ فَمَا لَهُ مِن وَلِيٍّ .. (٤٤) ﴾ [الشورى] أى : يُواليه وينصره ﴿ مِنْ بَعْدِهِ .. (٤٤) ﴾ [الشورى] أى : من بَعْد الله تعالى ﴿ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ (٤٤) ﴾ [الشورى] هل من طريق للرجوع إلى الدنيا مرة أخرى لنتوب ونعمل العمل الصالح ؟ استفهام العاجز الذى لا حيلة له ، وما حيلتهم للرجوع وقد عاينوا العذاب الذى طالما كذَّبوه وكفروا به فى الدنيا .

والحق سبحانه يُكذِّبهم فى هذا الزعم ، ففى آية أخرى يقول سبحانه : والخطاب لسيدنا رسول الله :﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٧) بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٢٨) ﴾ [الأنعام]

وفى موضع آخر قال سبحانه فى الرد عليهم ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٠٠) ﴾ [المؤمنون]

﴿ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ (٤٥) ﴾

قوله سبحانه : ﴿ وَتَرَاهُمْ (٤٥) ﴾ أى الكفار ﴿ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا (٤٥) ﴾ على النار ﴿ خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ (٤٥) ﴾ أى : خاضعين أذلاء من شدة الخوف ، لذلك ﴿ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ (٤٥) ﴾ [الشورى] يعنى : يختلسون النظرة ولا يستطيعون المواجهة بأعينهم ، فما هم فيه من خزى يكسر أعينهم .

لذلك تقول لخصمك الذى يفترى عليك كذباً (هات عينى فى عينك) لماذا ؟ لأن المواجهة بالأعين تُظهر الحق ، فصاحب الحق عينه قوية جريئة ، تستمد قوتها من قوة الحق الذى يُدافع عنه ، أما عين المبطل فمُنكسرة ذليلة تتوارى من شعاع الحق الذى يكشف زيفها .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ (٤٥) ﴾ [الشورى] هذه المقولة يُردِّدها المؤمن الذى نجا من العذاب وفاز بالجنة ، يقول : إن الخسارة الحقيقية هى ما فيه هؤلاء ، لأنهم خسروا كل شىء ﴿ أَلا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ (٤٥) ﴾ [الشورى] يعنى : دائم لا ينقطع .

﴿ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ (٤٦) ﴾

الكلام هنا عن يوم القيامة ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَاءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ (٤٦)﴾ [الشورى] أى : يدفعون عنهم العذاب الذى حلّ بهم ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن سَبِيلٍ (٤٦)﴾ [الشورى] يعنى : ما له من طريق للهداية لأن الله تعالى هو الذى يهدى ، يضع نموذجاً للهداية .

وسبق أنْ بيّنا أن الهداية على ضربين : هداية الدلالة والإرشاد ، وهداية التوفيق والمعونة ، لذلك رأينا بعض المستشرقين يقفون أمام بعض الآيات يتهمون القرآن بالتعارض بين آياته ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ (١٧)﴾ [فصلت] وقوله تعالى : ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ (٥٦)﴾ [القصص] وفى موضع آخر : ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٢)﴾ [الشورى]

فأثبت الهداية مرة ونفاها مرة أخرى ، والخطاب هنا لسيدنا رسول الله ﷺ ، واعتراض هؤلاء على أسلوب القرآن ناتج عن عدم فهمهم لكلام الله ، فالنفى والإثبات هنا لأن الجهة مُنفكة ، فمتعلق إثبات الهداية له معنى ، ومتعلق نَفْيها له معنى آخر .

وسبق أنْ أوضحنا أن الهداية نوعان : هداية إرشاد وهداية معونة وتوفيق ، فرسول الله يملك هداية الإرشاد والدلالة ، ولا يملك هداية التوفيق والمعونة ، هذه بيد الله وحده يهدى إليه مَنْ يشاء .

فقوله : ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ (٥٦)﴾ [القصص] نفى عنه هداية التوفيق والمعونة لأنها لله تعالى ، وقوله : ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٢)﴾ [الشورى] أثبت له هداية الإرشاد والدلالة . إذن : الجهة منفكة وليس هناك تعارض بين الموضعين .

واقرأ مثلاً قوله تعالى مخاطباً رسوله ﷺ : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ﴿١٧﴾ ﴾ [الأنفال] فى الفعل وأثبته فى موضع واحد ، لأن الجهة أيضاً منفكة ، ولكل فعل منهما معنى .

وكذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴿٧﴾ ﴾ [الروم] يعنى : لا يعلمون حقائق الأشياء إنما يعلمون ظاهرها .

وفى واقعنا اليومى نستخدم هذا الأسلوب فى نفى الفعل وإثباته فى موضع واحد ، فلما ترى ولدك يفتح الكتاب وينظر فى سطوره وهو منشغل عنه ، أو تسأله بعد المذاكرة فلا يجيب فتقول له : ذاكرتَ وما ذاكرتَ ، يعنى : ذاكرتَ شكلاً ولم تذاكر موضوعاً أو مضموناً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ ﴾

هنا أمر بالاستجابة لأمر من ؟ لأمر الرب ﴿ لِرَبِّكُم ﴿٤٧﴾ ﴾ [الشورى] والرب هو الذى خلقك من عدم وأمدَّك من عُدْم ، وتولّى تربيتك ورعايتك وتفضَّل عليك ، وهو سبحانه صاحب المنهج ومالك الجزاء وقادر عليه ، فإليه وحده المرجع والمآب . إذن : فهو حقيق بالاستجابة إذا أمر وأَوْلى بالطاعة ، فالعاقل هو الذى يسارع بالاستجابة لله تعالى .

ونلاحظ هنا أن القرآن عبَّر بالاستجابة ، بدل الإجابة ، لأن الاستجابة فرع الطلب ، لذلك قال سبحانه : ﴿ وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴿٢٦﴾ ﴾ [الشورى] أى : يستجيب الله للذين آمنوا وعملوا الصالحات .

فالحق سبحانه حينما يناديك ويدعوك للصلاة مثلاً يجب أنْ تجيب النداء ، لأنه دعاك لمصلحتك أنت ، دعاك ليعطيك شحنة إيمانية لوجودك فى معية الله ، فنداء الله أكبر يعنى : تعال حَىَّ على الصلاة ، حَىَّ على الفلاح ، تعالَ قابلنى .

فالرب سبحانه هو الذى يدعوك للمقابلة ، ويرحب بك فى بيته وفى معيته ليصلحهم ، فإذا لم يجيبوا كانوا آثمين مذنبين عاصين يستحقون العذاب ، والحق سبحانه لا يستفيد من ذلك بشىء .

ولو عقدنا مقارنة بين لقاء الحق سبحانه ولقاء رئيس أو مسئول لكان الفرق واضحاً ، فأنت الذى تطلب المقابلة ، ولو أُتيحت لك حدّد لك الموعد وموضوع الحديث ومكان اللقاء ونهاية اللقاء ، فأنت لا تملك من عناصره شيئاً .

أما لقاؤك بربك عز وجل فهو الذى يدعوك لحضرته لا مرة بل خمس مرات فى اليوم والليلة ، ويفتح لك الباب لأنْ تقول كل ما تريد ، وتُنهِى اللقاء متى تحب .

وفى اللقاء يمنحك شحنة إيمانية تُعينك على أمر دينك ودنياك وتصلح ما فسد فى نفسك أو خواطرك ، وتغفر ما كان منك من صغائر الذنوب وتشرح صدرك ويطمئن بها قلبك .

وقد يسأل سائل : وكيف يحدث لى هذا كله ؟

نقول : الله سبحانه غيب ، فحين يصلحك يصلحك بغيبه ، وحين يعطيك يعطيك بغيبه من حيث لا تشعر ومن حيث لا تحتسب . لذلك سيدنا رسول الله ﷺ كان إذا حزبه أمر قام إلى الصلاة (١)

وكان ﷺ يقول عن الصلاة : « أرحنا بها يا بلال » (٢) وعليك أن تقتدى به ، فإذا ضاقت بك الأسباب ، وإذا ألمَّ بك همّ أو غمّ فاهرع إلى الصلاة .

وطبيعى أن تكون الاستجابة لأمره تعالى موقوتة بالحياة الدنيا فهى مجال العمل ، لذلك قال ﴿ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الشورى] أى : يوم القيامة الذى لا يرده أحد ، ولا يُؤخِّره عن وقته .

﴿ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الشورى] أى : تلجئون إليه ويحميكم من العذاب ﴿ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الشورى] ينكر عذابكم أو يعارضه ويستنكره .

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ ۗ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ ﴾

---

(١) أخرجه أبو داود فى سننه (١١٢٤) ، وأحمد فى مسنده (٢٢٢١٠) والبيهقى فى دلائل النبوة (١٣٣٥) والبيهقى فى شعب الإيمان (٣٠٣١ ، ٣٠٣٢) وأبو عوانة فى مستخرجه (٥٥٠٥) وأبو نعيم فى معرفة الصحابة (٤٢١٦) من حديث حذيفة بن اليمان .

(٢) أخرجه أبو داود فى سننه (٤٣٣٣) وأحمد فى مسنده (٢٢٠٠٩) وابن أبى عاصم فى الآحاد والمثانى (٢١٢٠) والطبرانى فى الكبير (٦٠٩١) عن رجل من أسلم .

قوله تعالى : ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا ..(٤٨)﴾ [الشورى] أى : عن كل هذه المسائل وتركوك وانصرفوا عن المنهج الذى جئتهم به ، ومنه قوله سبحانه : ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ (٨٣)﴾ [الإسراء] فإن انصرفوا عنك يا محمد ﴿فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاغُ .. (٤٨)﴾ [الشورى]

هذه تسلية لسيدنا رسول الله ﷺ ، لأنه كان دائماً حريصاً على هداية القوم يحزنه إعراضهم وانصرافهم عن الهدى الذى جاء به ، وقد كان يشق على نفسه فى هذه المسألة حتى يكاد أن يهلكها ، لذلك خاطبه ربه فى أكثر من موضع يُسلِّيه ويُخفِّف عنه وينهاه أنْ يُحمِّل نفسه فوق طاقتها .

قال تعالى : ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣)﴾ [الشعراء] وقال فى الكهف : ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا (٦)﴾ [الكهف]

وهنا يقول له : ﴿فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا .. (٤٨)﴾[الشورى] يعنى : مراقباً لهم مَنْ آمن وَمَنْ كفر ، فمهمتك يا محمد هى مجرد البلاغ ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاغُ ..(٤٨)﴾ [الشورى] وليس لك أنْ تجبر أحداً على الإيمان .

ثم يُقرر الحق سبحانه حقيقة طبع عليها الإنسان ﴿وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا .. (٤٨)﴾ [الشورى] هذا أمر منطقى أنْ يفرح الإنسانُ بالرحمة وبالخير يُساق إليه ، والفرح هنا بمعنى البطر ، والإنسان هنا اسمُ جنس يفيد العموم .

﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الإِنسَانَ كَفُورٌ (٤٨)﴾

[الشورى] لاحظ أن الرحمة لم تُنسب إلى الإنسان لأنها ليستْ من عمل يده ، إنما نُسبت إليه السيئة لأنها نتيجة سَعْيه وجنى يديه .

إذن : لا تُنسب السيئة إلى الله لأنها بعملك أنت ، فإنْ نسبتَها لله فقد كفرتَ به ﴿ فَإِنَّ الإِنسَانَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ ﴾ [الشورى] كفور لنعمة الله عليه ، ومن كفران النعمة أنْ تنسب الأسباب لغير المسبب .

وكفران النعمة وجحودها طَبْع فى الإنسان إلا مَنْ رحم الله ، فمثلاً يأتيك رجل يطرق بابك لتتوسط له فى مصلحة فتقف إلى جواره وتساعده حتى يقضى مصلحته ، الحقيقة أن الله هو الذى يقضى ويُيسِّر ، وما أنت إلا سبب ، وقد صادف تدخلك فيها وقت قضائها . يعنى : كانت ستُقضى بدون واسطة .

إذن : شفاعتك لم تأتِ بالمصلحة للغير إنما صادفتْ القبول ، العجيب بعد ذلك أنْ تجد الإنسان مُتغطرساً لا يعترف بالجميل لصاحبه وينسبها لنفسه : أنا عملتُ كذا وكنتُ على استعداد لكذا وكذا ، لماذا ؟ لأن الجميلَ إحسانٌ ، والإحسانُ يجعلك ذليلاً لمن أحسن إليك .

أحسنْ إلَى النّاسِ تستعبدِ قُلُوبَهُم فَطَالَما اسْتَعْبَدَ الإنْسَانَ إحْسَانُ[1]

فمَنْ ينكر الجميل يريد أنْ يتحرر من هذه الذِّلة ، وما أشبه مُنكر الجميل بقارون الذى قال : ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي.. ﴿٧٨﴾ ﴾

---

(١) قائل البيت هو أبو الفتح البستى على بن محمد ولد فى بُست قرب سجستان له ديوان شعر صغير فيه بعض شعره ، توفى عام ٤٠٠ هجرية . والبيت من قصيدة شهيرة له مطلعها : زيادة المرء فى دنياه نقصان وهى من بحر البسيط عدد أبياتها ٦٤ بيتاً . [الموسوعة الشعرية] .

[القصص] وقديماً قالوا : اتَّقِ شر مَنْ أحسنتَ إليه ، لماذا ؟ لأنك تُذكِّره بحال ضعفه وحاجته للمساعدة .

إذن : ﴿ فَإِنَّ الإِنسَانَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ ﴾ [الشورى] أى : للنعمة يحب أنْ ينسبها لنفسه ، وفى ذات الوقت يُبعد عنها الشر والسيئة ، وكلاهما كُفرانٌ لنعمة الله .

والحق سبحانه حينما يُحدِّثنا عن نعمته يقول : ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا ﴿٣٤﴾ ﴾ [إبراهيم] أولاً : استخدام (إنْ) التى تفيد الشك ، لأن نِعَم الله من الكثرة بحيث لا تُعَدّ ، ولا يُقدم أحد على عَدِّها لأنك لا تقبل على العَد إلا لشىء مظنة الإحصاء ، فلا أحدَ يقول مثلاً : أعد حبَّات الرمال .

كذلك نِعَم الله فوق إمكان العَدِّ والإحصاء ، ثم جاء بلفظ ﴿ نِعْمَتَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [إبراهيم] بصيغة المفرد ولم يقل نِعَم ، فالنعمة الواحدة لا تُعدُّ ، فما بالك بالنِّعَم ؟

وهذه الآية ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا ﴿٣٤﴾ ﴾ [إبراهيم] جاءت بهذا اللفظ فى موضعين من كتاب الله ، واحدة خُتمتْ بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [إبراهيم] والأخرى بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ ﴾ [النحل]

فاختلاف تذييل الآيتين له معنى ، لأن أمر النعمة له عناصر ، مُنعِم وهو الله عز وجل ، ومُنعَم عليه وهو العبد ، ثم النعمة وهى التى لا تُعَدُّ ولا تُحصَى .

فصفة المنعِم سبحانه أنه كريم يعطى عبده ويتفضَّل عليه حتى

وإنْ جحد النعمة أو كفر بها ، لذلك قال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٨) ﴾ [النحل] والمنعَم عليه من صفته أنْ يجحد النعمة ، وأنْ يكفرَ بها ظلماً وعدواناً ، لذلك قال فى الأخرى : ﴿ إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤) ﴾ [إبراهيم]

﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٥٠) ﴾

الحق سبحانه يتكلم هنا عن ملكيته تعالى للسماوات وللأرض كظرف للأشياء ، وفى أول السورة تكلم عن ملكيته تعالى لما فى السماوات وما فى الأرض ، فقال : ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (٤) ﴾ [الشورى]

إذن : لله تعالى مُلْك السموات والأرض وما فيهما من شىء ، وهذا الأسلوب ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ (٤) ﴾ [الشورى] و﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. (٤٩) ﴾[الشورى] يُسمى أسلوب قَصْر ، حيث قدّم الجار والمجرور على المبتدأ لإفادة القصر ، فالمعنى : لله وحده ما فى السموات وما فى الأرض مقصور عليه ، ولله وحده مُلْك السماوات والأرض ، فالملكية هنا ليس لها شريكٌ ولا منازعٌ .

ومادة (م ل ك) تُنطق فيها الميم على وجوه ثلاثة : الفتح والضم والكسر ، كلمة ملك بالكسر هو كل ما فى حوزتك وتتصرَّف فيه ، وبالضم وهو التصرّف فى ملك مَنْ يملك ، وهو المعروف فى

نظام المملكة ، وبالفتح مثل قوله تعالى : ﴿مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا .. (٨٧)﴾ [طه] يعني : غصْباً عنا وبغير إرادتنا .

أما اللام في ملك فتأتي أيضاً بالكسر ملك ، وهو مَنْ يُملِّك في غيره في تصرفه وفي إرادته ، وبالفتح ملَك وهو المخلوق الأعلى من الملائكة . وملاَك الأمر . يعني ؛ جوهره وحقيقته .

وقوله تعالى : ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ .. (٤٩)﴾ [الشورى] يعني : هو صاحبها وهو خالقها ومُبدعها ، لأنك قد تملك ما لا تعمل .

﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ (٤٩)﴾ [الشورى] يعني : خلقه وفق إرادته ومشيئته هو ، وله طلاقة القدرة في مسألة الخلق لا يعجزه فيها شيء ولا يستعصى عليه أمر .

لذلك يعطينا الدليل على ذلك من واقع حياتنا المشَاهد في المجتمع وكلنا يعرفه ، اقرأ : ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا .. (٥٠)﴾ [الشورى] أولاً لاحظ أن هذه المسألة هبة من الله الخالق سبحانه ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ (٤٩)﴾ [الشورى] يعني : ليستْ حقاً لأحد ، وليست حقاً لكل مَنْ ملَك أسبابها ، فقد تتوافر الحياة الزوجية ولا يأتي لها ثمرة إنجاب ويُبتلَى الزوجان بالعقم وهو أيضاً هبة من الله .

والذي يرضى بهذه الهبة ويؤمن أنها من الله يُعوِّضه الله ويرى من أولاد الآخرين من البر ما لا يراه الآباء ، ويتمتع بهذا البر دون تعب ودون مشقة في تربية هؤلاء الأولاد ، وفي واقع حياتنا قد يأتي الابن ويكون عاقاً لوالديه .

ثم تلاحظ أن الحق سبحانه قدّم الإناث على الذكور ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩)﴾ [الشورى] لماذا ؟ لأن الإناث كان النوعَ المبغوض غير المرغوب فيه في الجاهلية ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم

بالأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ[1] (٥٨) يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٥٩)﴾ [النحل]

ولم ينته الأمر عند حَدِّ الكراهية للبنات ، بل تعدَّاه إلى قتلهن ووأدهن كما قال سبحانه : ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (٨) بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ (٩)﴾ [التكوير] ذلك لأن البنت ضعيفة لا تَقْوى على العمل ولا تشارك قومها في حروبهم المستمرة ، وهي عِرْض ينبغي المحافظة عليه .

فلما جاء الإسلام غيَّر هذه الصورة تماماً ، ورفع من شأن الأنثى ، وجعل النساء شقائق الرجال ؛ لذلك قدَّم هنا الإناث على الذكور ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩)﴾[الشورى] ورقَّق قلوب هؤلاء الغلاظ نحو الأنثى ، وحبَّبهم فيها وعلَّمهم أنها وعاؤكم الذى خرجتم منه ، فهى صاحبة فضل على كل ذكَر .

علَّمهم أن الأنثى لا يستقيم أمرها فى مجتمعها إلا حين تُرْعى ويحافظ عليها ويهتم بها وليُّها ؛ لأن كراهية الأنثى تحملها على الاعوجاج وتُرغمها على التخلِّى عن دورها ، فالبنت حين يحبها أهلها ويكرمونها ويحنُّون عليها تتعود على الكرامة وعزة النفس ولا تقبل الإهانة من أحد ، لأنها شبَّت على أنها غالية عند أهلها عزيزة لديهم ، فلا يجرؤ أحد على التعدِّى عليها ولو بكلمة .

على خلاف البنت التى هانت على أهلها ، وشبَّت بينهم على

---

(١) كظيم : مكظوم . من كظمه الغيظ أى كربه وأحزنه وأسكته وشقَّ عليه . [القاموس القويم ١٦٣/٢] . ورجل مكظوم وكظيم : مكروب قد أخذ الغم بكظمه فهو يتجرع الغيظ ويحتمل سببه ويصبر عليه . [لسان العرب – مادة : كظم] .

مشاعر الكراهية والاحتقار ، فنراها تهون على نفسها ، ونراها رخيصة تفرط فى كرامتها وتستميلها ولو بكلمة .

ثم يُرقِّى الحق سبحانه عطاءه للعبد ، فيقول ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا .. (٥٠)﴾ [الشورى] يعنى : يزاوج بين النوعين ، فيهب لك الذكور ويهب لك الإناث .

﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا (٥٠)﴾ [الشورى] يعنى : يحرم هذه الهبة لحكمة أرادها الله .

وحتى لا يفخر أحد على أحد ، ولا يتعالى أحد على أحد يُعلِّمنا ربنا عز وجل أن مسألة الإنجاب هذه أو عدم الإنجاب لا تؤثر على منازل العباد عند الله تعالى ، فحين أهَب الذكور أو الإناث أو أزاوج بينهما لا يعنى هذا رضاى عن عبدى ، وحين أحرمه لا يعنى هذا سخطى على عبدى ، إنما هى سنتى فى خَلْقى أنْ أهبَ الذكور وأنْ أهبَ الإناث ، وأنْ أجعل مَنْ أشاء عقيماً .

لذلك تجدون هذه السُّنة نافذة حتى فى الرسل الذين هم أكرم الخَلْق على الله ، فسيدنا لوط وسيدنا شعيب وهبهما اللهُ الإناثَ ، وسيدنا إبراهيم وهبه الله الذكور ، وسيدنا محمد وهبه الله الذكور والإناث ، فكان له عبد الله والقاسم وإبراهيم وزينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة .

إذن : لكم فى رسول الله أسْوة حسنة . والذين يستقبلون أقدار الله فى هذه المسألة بالرضا ، ويرتفع عندهم مقام الإيمان والتسليم ، ويؤمنون أن هذه هبة من الله حتى العقم يعتبرونه هبة ، هؤلاء يُعوِّضهم الله ، فحين ترضى مثلاً بالبنات وتُربِّيهن أحسن تربية ، وتُحسن إليهنَّ يجعل الله لك من أزواجهن مَنْ يُعوِّضك عن الولد ، وربما كانوا أبرَّ بك من الأبناء بآبائهم .

وتختتم الآية بقوله تعالى : ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٥٠)﴾ [الشورى] والعليم يهب على قَدْر علمه بالأمور ، وبما يصلح عبده وما لا يُصلحه ، فهو وحده سبحانه الذى يعلم أن هذا يصلح هنا ، وهذا يصلح هنا ، ثم هو سبحانه ﴿قَدِيرٌ (٥٠)﴾ [الشورى] له القدرة المطلقة فى مسألة الخَلْق ، لا يعجزه شىء ولا تقيده الأسباب .

ثم يقول الحق سبحانه[(١)] :

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ (٥١)﴾

نعم . هذه وسائل ثلاث لا بدَّ من وجود واحدة منها ليتمَّ اتصال الحق سبحانه بالبشر ، ذلك لأن للبشر طبيعة تكوينية لا تَقوَى على مباشرة الأعلى سبحانه ، فلله صفات الجلال والكمال المطلق ، ولا يمكن أنْ يلتقى الأعلى بالأدنى دون وسائط ، منها الإلهام مثل الزبور الذى نزل على سيدنا داود ، فلم ينزل عليه بوحى من الله بواسطة رسول كما نزل القرآن ، إنما جاء إلهاماً قذفه الله فى روع سيدنا داود .

يقول تعالى : ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ

---

(١) سبب نزول الآية : ذكر الواحدى فى أسباب النزول (ص ٢١٤) أن اليهود قالوا للنبى ﷺ : ألا تكلم الله وتنظر إليه إن كنت نبياً كما كلم الله موسى ونظر إليه ؟ فإنَّا لن نؤمن بك حتى تفعل ذلك . فقال : لم ينظر موسى إلى الله . وأنزلت الآية . وذكره أيضاً القرطبى فى تفسيره (٦٠٩٧/٩) وقال : « ذكره النقاش والواحدى والثعلبى » .

حِجَابٍ .. (٥١)﴾ [الشورى] كما كلم سيدنا موسى ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً .. (٥١)﴾ [الشورى] يعنى : يرسله بالوحى ، والرسول هنا من الملائكة ، كما أرسل الله جبريل بالقرآن ، وإنْ نزل فى صورة بشر ليكون أقربَ إليهم وآنسَ لهم .

فقوله : ﴿إِلاَّ وَحْيًا ..(٥١)﴾ [الشورى] أى : إلهاماً يقذفه الله فى قلب مَنْ يشاء ، فإنْ قلتَ : فكيف نعرف الإلهام من وسوسة الشيطان ؟ قالوا : الإلهام من الله لا يناقضه مخالفة ، بل يدخل عليك مُسلَّمة لا جدالَ فيها ، وقلنا : إن وارد الرحمن لا يزاحمه وارد الشيطان أبداً .

ومثَّلنا لذلك بقوله تعالى فى قصة سيدنا موسى وأمه : ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧)﴾ [القصص]

هذا وحى من الله بطريق الإلهام ، لذلك لم تناقشه أم موسى ولم تجادل فيه ، بل أقبلتْ على تنفيذه راضية مطمئنة ، وإلاَّ فأىُّ قياس عقلى يقول للأم ، إذا خِفْتِ على ولدك فألقيه فى اليمِّ .

ونذكر هنا وقفة للمستشرقين حاولوا فيها أنْ يجدوا على القرآن مأخذاً ، فقالوا بتكرارها ، لأن الحق سبحانه قال فى موضع آخر : ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ (٣٨) أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي (٣٩)﴾ [طه]

والمتأمل فى الموضعين يجد الآية الأولى كانت تمهيداً للحدث بدليل ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ ..(٧)﴾[القصص] فإذا للمستقبل ، أما قوله تعالى : ﴿أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ .. (٣٩)﴾[طه] فكان وقت التنفيذ .

وقوله ﴿أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ .. (٥١)﴾ [الشورى] قلنا : كما كلَّم الله سيدنا موسى عليه السلام ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ .. (٥١)﴾ [الشورى] الوحى هنا ليس إلهاماً كالأول ، إنما وحى مباشر بواسطة رسول من الملائكة ، كما حدث فى نزول القرآن الكريم على قلب سيدنا رسول الله بواسطة أمين الوحى جبريل ، وكان يأتى رسول الله مباشرة ويعطيه ما شاء الله من القرآن .

إلا أن الله تعالى أراد أنْ يُثبِّت هذه المسألة عندهم ، فمرة يأتيهم جبريل فى صورة رجل حسن المنظر لا يُرى عليه أثر السفر ، كما ورد فى الحديث ، ويسأل رسول الله ويُصدِّقه ليتعلّم الناسُ منه أمور الدين ، فلما انصرف قال سيدنا رسول الله « إنه جبريل أتاكم يُعلِّمكم أمور دينكم »[١] .

وهذه المسألة نرد بها على الذين طلبوا أنْ يكونَ الرسولُ من الملائكة ، لأن الرسول لو جاء ملَكاً لجاءهم فى صورة رجل ليتمكنوا من التلقِّى منه ، ثم إن الرسول أسْوة وقدوة سلوك ، والقدوة لا تتم بالملائكة لأنه إنْ قال لى افعل كذا وكذا لى أن أقول له لا أقدر على ذلك ، فأنت ملَك وأنا بشر لى قدرة محدودة .

إذن : نقول إن القرآن لم يأت إلهاماً ولا نَفْثاً فى الرَّوع ، ولم يأتِ من وراء حجاب ، إنما جاء بالوحى المباشر بواسطة الملَك ، وقد رأى سيدنا رسول الله جبريل على صورته الحقيقية ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً

---

(١) حديث صحيح متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٨ ، ٤٤٠٤) ومسلم فى صحيحه (١٠ ، ١١) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه . وكذا أحمد فى مسنده (٩١٣٧) ، وورد عند أحمد من حديث ابن عمر (٣٥٢) .

أُخْرَىٰ (١٣) عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ (١٤)﴾ [النجم] ومسـألة الوحى والتلقى عن الحق سبحانه تقوم كلها على الاصطفاء ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ (٧٥)﴾ [الحج]

فليستْ كل الملائكة تتلقَّى عن الله ، بل مَن اصطفاه الله لذلك ، ثم يصطفى من الناس رسـلاً تتلقَّى عن الملَك ، فالمصطـفى من الملائكة ومعـه المصطفى من البـشر يُمكنهـما التلقّى عن الله ، وتـذكرون أننا مثَّلنا لذلـك بـ (الترانس) أى المحـول الذى يعطى الجهـاز الكهرباء على قدْر حاجته وإمكانياته ، ولو ارتفع التـيارُ لاحترق الجهاز ، كذلك البشر لا يمكن أنْ يتلقوا عن الله مباشرة .

لذلك خُتمتْ الآيةُ بقوله سبحانه : ﴿إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ (٥١)﴾ [الشورى] يعنى : أعلى من أن يـخاطب البـشـر مـباشـرة ، فـالله أعلى من ذلك ﴿حَكِيمٌ (٥١)﴾[الشـورى] فى اخـتـياره فـيـمن يصطفـيه لـلتلقِّى عنه سبحانه .

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٢)﴾

قوله تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ ..(٥٢)﴾ [الشورى] إشارة إلى ما سبق بيـانه فى الآية السابقـة من وسائل الوحى الثـلاثة ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ (٥٢)﴾ [الشورى] يا محـمد ﴿رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا (٥٢)﴾ [الشورى]

الروح هنا : هو جبريل عليه السلام أمين الوحى فسمَّى الله جبريل روحاً كما سمى القرآن نفسه روحاً ، فشبَّهه بالروح التى يلقيها الحق سبحانه فى الإنسان فتدبّ فيه الحياة والحركة بعد أنْ كان قطعة لحم لا حِرَاكَ فيها ولا حياة .

تعرفون أن الإنسان خلقه اللهُ من طين ، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ، وحين يتكوَّن الجنين فى بطن أمه يرسل الله له ملَكاً ينفخ فيه من روحه تعالى بعد ١٢٠ يوماً من حمله ، فتسرى فيه الحياة ، وتعمل الجوارح ، وتتحرك الأعضاء .

فكما كانت الروحُ حياةً للأبدان كان القرآنُ حياةً للقلوب وللقيم ، من هنا سمَّى اللهُ جبريلَ روحاً ، وسمَّى القرآنَ روحاً ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ .. (٢٤) ﴾ [الأنفال]

فالحق سبحانه يخاطبهم وهم أحياء حياةَ البدن والمادة ، إذن : الحياة هنا حياة الروح ، والقلب ، حياة القيم والمبادىء ؛ لأن الحق سبحانه ما كان ليعطى عبده روحاً تُحرِّك مادته وتُسيِّر جوارحه ، ثم يترك قيامه بدون منهج وبدون قيم وبدون أخلاق .

ومن كرامة الإنسان على الله تعالى أن يمنحه هذه الروح التى يحيا بها قلبه وقيمه وأخلاقه ؛ لأن حياة البدن والمادة حياة موقوتة فانية تفنى بفناء البدن .

أما حياة القيم والمنهج فحياة باقية دائمة تصل حياتك فى الدنيا بحياتك فى الآخرة ، وهذه هى الحياة المقصودة فى قوله سبحانه وتعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ .. (٢٤) ﴾ [الأنفال]

وقوله تعالى : ﴿ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ .. (٥٢) ﴾ [الشورى] أى : لا تعرف شيئاً عن القرآن أو لا تعرف الكتابة ، ولا تعرف الإيمان يعنى الشرائع التفصيلية ، وقلنا : إن الأمية شرف فى حق رسول الله ، وشرف فى حَقِّ أمته ، فالأمية مذمومة إلا فى رسول الله وفى أمة رسول الله .

ولو كان محمد متعلماً يقرأ ويكتب لقالوا إنه جاء بالقرآن من عند نفسه ، ولو كانت أمته أمةَ تعليم وحضارة لَقالُوا عن الإسلام قفزة حضارية يريدون أنْ يسودوا بها العالم .

فمن عظمة محمد أنْ يقول له ربه : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ (٥٢) ﴾ [الشورى] ويُرْوى أن الخليفة المأمون[1] قال لرجل يريد الذم : أنت أمى ، فقال الرجل : إن رسول الله أمى ، فقال له المأمون : الأمية فى رسول الله شرف ، وفيك تلف[2] .

لذلك أمر الحق سبحانه نبيه فى موضع آخر أنْ يقول : ﴿ قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلا

---

(١) المأمون : هو عبد الله بن هارون الرشيد ، سابع الخلفاء العباسيين في العراق ، أحد أعاظم الملوك في سيرته وعلمه وسعة ملكه . ولد ١٧٠ هجرية وتوفى ٢١٨هـ عن ٤٩ عاماً . [الأعلام للزركلى ٤/١٤٢] .

(٢) أورد ابن الأبار فى (إعتاب الكتاب) أنه قيل للمأمون : إن من أعظم آيات النبى أنه أدى عن الله رسالته ، وحفظ عنه وحيه وهو أمى لا يعرف من فنون الخط فناً ، ولا يقرأ من سائره حرفاً فبقى عمود ذلك فى أهله ، فهم يشرفون بالشبه الكريم فى نقص الخط كما يشرف غيرهم بزيادته ، وإن أمير المؤمنين أخص الناس برسول الله والوارث موضعه والمتقلد لأمره ونهيه ، فعلقت به المشابهة الجليلة وتناهت إليه الفضيلة فقال المأمون : يا محمد لقد تركتنى لا آسى على الكتابة ولو كنت أمياً .

تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [يونس]

نعم أين عقولكم ، فلقد لبث محمد بين أظهركم عمراً قبل الرسالة ، وأنتم أدْرَى الناس به ، وتعلمون أنه أُمي لا يعرف القراءة ولا الكتابة ولم تَرَوْهُ من قَبْلَ خطيباً ولا شاعراً ، لذلك كان من غبائهم وعنادهم أن اتهموا رسول الله أنه يختلف إلى رجل أعجمي يعلمه القرآن ، فكشف القرآن زيفهم وقال : ﴿لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [النحل]

إذن : ما نزل على محمد شيء جديد ليس من صنع بشر ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ..﴿٥٢﴾ ﴾ [الشورى] كلمة ﴿جَعَلْنَاهُ ..﴿٥٢﴾ ﴾[الشورى] أي : القرآن ﴿نُورًا .. ﴿٥٢﴾ ﴾ [الشورى] ضياءً يزيح ظلام الجهل والكفر ، وهذا النور هو الذي يهدي مَنْ يشاء الله له الهداية فيسير في الأرض على هدى وعلى بصيرة بحيث لا يصطدم بشيء .

والتصادم يعني الخسارة والهلاك فإن اصطدمتَ بما هو أقوى منك حطَّمك ، وإن اصطدمتَ بما هو أضعف منك حطمته ، لذلك قلنا : إننا في واقع حياتنا لا بدّ أنْ نحتفظ بشيء من الضوء ، حتى حال النوم نترك (ونَّاسة) خافتة لنهتدي بها في ظلمة الليل حتى لا نتخبط إذا قُمْنا بالليل .

ومن نور المادة نرتقي إلى نور الروح والقلب ، وإلى المنهج الذي يُنير حياتنا المعنوية ، هذا النور الذي قال الله عنه : ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ ﴾ [النور]

قلنا : والإنسان ينير مجال حركته في الحياة على قدره ، فواحد يُنوِّر حياته بشمعة ، وآخر بلمبة جاز ، وآخر بالكهرباء وهكذا ، لكن

إذا سطعتْ الشمس غطى نورها على كل الأنوار كأنها تقول لنا : أطفئوا أنواركم فقد جاءكم نور الله ، وحين نرتقى من النور المادى إلى النور القيمى نقول : إذا جاءكم نور المنهج من الله فأوقفوا كل مناهجكم .

وإذا جاءكم الحكم من الله فأوقفوا كلَّ أحكامكم وكل آرائكم ومقترحاتكم ، ففى شرع الله ما يغنيكم عن كلِّ هذا ، فكما أنك لا تحتاج إلى ضوء مصباحك أثناء النهار ، كذلك لا تحتاج إلى أىِّ منهج آخر مع منهج الحق سبحانه فاستغنوا به عن غيره .

فإذا ما قارنت نور الله بنور البشر ظهر لك الفرقُ واضحاً ، فى النور المادى أو المعنوى ، فأنت تأتى بالشمعة مثلاً وتضع فيها فتيلاً ، وتأتى بالكبريت لتشعلها ، ومع ذلك لو هبَّتْ عليها ريح تُطفئها ، واللمبة الكهرباء تحتاج إلى أدوات لصناعتها وإلى (ترانس) ينظم الكهرباء وخلافه وبعد شهر تحتاج غياراً ، ولو زاد عليها التيار تحترق وهكذا .

أما الشمس فتضىء العالم كله ، لا تحتاج منك إلى مزاولة شىء ولا إلى قطعة غيار ولا صيانة ، ثم إن ضوءك يعمر بقدر عمرك ، أما ضوء الشمس فباقٍ دائم دوامَ الكون وبقاء الدنيا من قبل آدم وإلى قيام الساعة .

كذلك الفرق واضح فى النور المعنوى ، فأنتم ترونَ مناهج البشر وقوانينهم لا تخلو من أخطاء ومن سلبيات ، فإنْ ناسبتْ جماعة تعارضتْ مع جماعة أخرى ، لذلك نراهم يلجأون إلى تغيير هذه القوانين من حين لآخر ، فهى مناهج قاصرة قصور البشر .

أما مناهج السماء فهى كاملة خالية من الأخطاء تراعى كل الظروف ، وتصلح لكل زمان ولكل مكان ، لأنها جاءتْ من الله العليم بحال خَلْقه ، الخبير بما يُصلحهم ، وبما يقيم حياتهم .

إذن : الحق سبحانه مَا كان ليمنحنا النور المادى ويحرمنا النور المعنوى لأنه أهمُّ وأقوى فى حياتنا من النور المادى ، ألاَ ترى أن الأعْمى يستطيع أنْ يتحسَّس طريقه ، ويستطيع أنْ يأتى بمَنْ يقوده ويُوصِّله إلى غايته .

أما مَنْ فقد النور المعنوى فتراه يتخبط فى متاهات الحياة دون هدى ، وينتهى به الحال لا محالة إلى الضياع ، ثم إن نور المادة مرتبط بها ويفنى بفنائها ، أما نور القيم فبَاقٍ ممتدّ من الدنيا إلى الآخرة ، وهو أصل الخلافة فى الأرض .

لذلك الحق سبحانه يشرح لنا هذه المسألة فى سورة النور ، فيقول سبحانه : ﴿ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ ﴾ [النور]

فمعنى ﴿ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ﴿٣٥﴾ ﴾ [النور] يعنى : نور الهداية والقيم على نور المادة لتسير فى دنياك على هدى وعلى بصيرة ، وتسلم من الانحراف والضلال فى الدنيا ، ثم يُوصِّلك هذا النور إلى سلامة الآخرة والفوز فيها ، وهذا مثل ﴿ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ﴿٣٥﴾ ﴾ [النور] ليوضح لهم ما خَفِى عليهم ، فالنور المادى دليل على المعنوى ، والمؤمن يرتقى من النور المادى إلى النور المعنوى .

ثم يُبيِّن لنا الحق سبحانه مصدر هذا النور فى الآية التى بعدها : ﴿ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ

وَالآصَالِ (٣٦)﴾ [النور] يعنى : يا مَنْ أردتَ هذا النور المعنوى فالتمسْه فى بيوت الله فهى مصدر إشعاعه ، التمسْه فى الصلاة وفى ذكر الله وفى تنفيذ المنهج الذى جاءك من الله .

فالقرآن إذن نور عام حين نُوظِّفه يعطينا نوراً آخر هو نور الطاعات والعبادات ، وأسْمَى مصدر لهذا النور هو المسجد .

لذلك العلماء لمَّا بحثوا فى متعلق الجار والمجرور فى ﴿فِى بُيُوتٍ .. (٣٦)﴾ [النور] قالوا هو مُتعلِّق بقوله ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ (٣٥)﴾ [النور] كأنك تقول : نور على نور فى بُيوت أذن الله أن تُرفع وهى المساجد . وهذه البيوت متصل فيها تسبيح الصباح بتسبيح المساء ، وعُمَّار هذه المساجد يُوصفون بأنهم ﴿رِجَالٌ (٣٧)﴾ [النور] نعم ومَنِ الرجال إذا لم يكن هؤلاء ؟

إذن : الحق سبحانه يعطينا النور المعنوى المتمثل فى منهجه تعالى بافعل ولا تفعل ، وبهذا المنهج تستقيم بالبشر أمور الحياة ، لكن سرعان ما يحدث منهم غفلة أو نسيان أو انفلات من هذا المنهج فيقعون فى المعصية ، وتطرأ عليهم أقضية جديدة ومشاكل بقدر انفلاتهم وما يُحدثون من الفجور ومخالفة المنهج .

لذلك رأينا الرسل جاء الواحد بعد الآخر بمناهج مُترقِّية ، كل منهج منها يناسب القوم ويُصلح العلل الموجودة فى هذا الوقت ، مع أن هذه الشرائع اتحدتْ جميعها فى أمور العقائد والأخلاق ، وفى ثوابت الدين مثل الصلاة والزكاة ، ثم بعد ذلك يأتى الرسول بأحكام خاصة تناسب حال قومه وتعالج أدواءهم .

والمتأمل فى موكب الرسالات يجد أنها تتطور بتطوُّر حركة

الحياة وما يستجد فى حياة الناس من أقضية ، نحن مثلاً فى الريف نجعل بين الحقول سكة ضيقة تسع مثلاً مرور شخص واحد ، أو حماراً محملاً ويُسمُّونها (مدقّ) غرضه أنْ نصل من خلاله إلى حقولنا لكن إنْ أردنا طريقاً بين قريتين نُوسعه بعض الشيء ليسع سيارة مثلاً ، فإن كان بين مدينتين كان أوسع .

وهكذا رأينا تطوراً كبيراً فى إنشاء الطرق تطوراً يناسب حركة الحياة التى تطورتْ ، انظر مثلاً طريق مصر الإسكندرية الصحراوى تجده طريقاً متسعاً واسعاً ليسع حركة المرور عليه ، وهو اتجاهان ذهاب وإياب ، به استراحات فيها كل ما تحتاجه لأنه طريق طويل .

الحق سبحانه حدَّثنا عن هذه المسألة فقال : ﴿ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْداً وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً .. (٥٣) ﴾ [طه] وسيدنا عمر لما أرادوا أنْ يُخططوا مدينة البصرة[1] قال لهم : اجعلوا الطريق متسعاً لجملين محملين متقابلين ، وهذا هو ما نفعله فى العصر الحديث .

وفى سورة سبأ قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِى بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّاماً آمِنِينَ (١٨) ﴾ [سبأ]

القرى الظاهرة هى المحطات فى الطريق الطويل والاستراحات التى تجد فيها حاجتك وترتاح فيها ، فالطريق الطويل لا بدَّ أنْ يُقسَّم إلى مراحل ليكون السفر مريحاً غير شاق ، وكلما ارتقتْ حركة الحياة ترتقى معها هذه الوسائل ، حتى أننا نرى فى بعض الاستراحات أماكن للراحة وللنوم .

لذلك الحق سبحانه يحكى عن الذين تعدَّوْا وظلموا أنفسهم من

---

(١) البصرة : مدينة عراقية تقع فى أقصى الجنوب الشرقى على رأس الخليج العربى يتجاوز سكانها ٢,٦ مليون نسمة ، هى المنفذ البحرى الوحيد للعراق على العالم ، بها أعراق وديانات كثيرة بين مسيحيين وسريان وأشوريين وصابئة والمسلمين . [موسوعة ويكيبيديا] .

الأعيان وأصحاب المراكب الفارهة حتى قالوا : ﴿ رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا .. (١٩) ﴾ [سبأ] لماذا مع أن السفر وبُعْد السفر مشقة ؟ قالوا : لأنهم أصحاب غِنى ومراكب لا تتوافر لغيرهم ، فأرادوا بذلك ألاَّ يقدر على السفر غيرهم ، ولا يسلُك هذه الطرق للتجارة إلا الأغنياء .

هذا مثل للارتقاء أيضاً فى التشريع ، فكلما جَدَّ جديد وكلما وجد أقضية جديدة ارتقى التشريعُ من رسول لآخر ليعالج هذه الأقضية ، إلى أنْ جاء التشريع الخاتم الصالح لكل زمان ومكان ، والذى قال الله عنه : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا .. (٣) ﴾ [المائدة]

وقوله تعالى : ﴿ وَلَـٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٢) ﴾ [الشورى] الكلام هنا عن القرآن ، جعله الله نوراً يهدى الله به مَنْ يشاء من عباده ، فأثبت أن الهداية لله بهذا النور المنزَّل فى الكتاب المحكم .

ثم أثبت أيضاً الهداية لرسول الله وفوَّضه فى أنْ يُشرِّع للناس بدليل قوله تعالى : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا .. (٧) ﴾ [الحشر]

فهداية الحق سبحانه فى الأصول والثوابت وهى ما ورد فى آيات الذكر الحكيم ، ثم هداية الرسول فى الفروع ، وفى بيان هذه الأصول وشرحها ، فإنْ جَدَّ فى حياتكم جديد ، وطرأ عليها من المسائل ما لم يأت بشأنه نَصٌّ ، لا من الكتاب ولا من السنة فأجمعوا أمركم وليكون الرأى شورى بينكم ، ولا تقضوا فى هذه المسائل برأى الفرد ، إنما برأى الجماعة .

لذلك ورد فى الحديث : « لا تجتمع أمتى على ضلالة »[1]

وما أجمل ما قاله شوقى[2] رحمه الله :

رأىُ الجماعَةِ لاَ تَشْقَى البلادُ بهِ   رَغْم الخلاَف ورأىُ الفرْدِ يُشْقِيها[3]

لذلك جعلوا الإجماع هو المصدر الثالث من مصادر التشريع الإسلامى .

فهذه الآية أثبتت الهداية لله تعالى بالقرآن ﴿وَلَـٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ..(٥٢)﴾ [الشورى] وهذه خاصة بالأصول وثوابت الدين التى ورد بها نص فى كتاب الله .

ثم أثبتت هداية أيضاً لرسول الله فى الفروع ، وفى توضيح ما أُجملَ فى كتاب الله ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِى إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٢)﴾ [الشورى] وأعطتْ سيدنا رسول الله الحق وفوّضته فى التشريع للناس ، لذلك كانت سنته ﷺ هى المصدر الثانى للتشريع .

وقلنا : إن هداية الحق سبحانه للعبد هدايةُ بيان وإرشاد ودلالة ،

---

(١) أخرج أبو داود فى سننه (٣٧١١) قال رسول الله : « إن الله أجاركم من ثلاث خلال : أن لا يدعو عليكم نبيكم فتهلكوا جميعاً ، وأن لا يظهر أهل الباطل على أهل الحق ، وأن لا تجتمعوا على ضلالة » عن أبى مالك الأشعرى . وأخرج ابن ماجة فى سننه (٣٩٤٠) عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : « إن أمتى لا تجتمع على ضلالة ، فإذا رأيتم اختلافاً فعليكم بالسواد الأعظم » .

(٢) هذا البيت لحافظ إبراهيم وليس لأحمد شوقى . وحافظ وُلد (١٨٧١م) وتوفى عام ١٩٣٢م . نشأ يتيماً ونظم الشعر فى أثناء الدراسة ، تخرج فى المدرسة الحربية عام ١٨٩٢م ، لقب بشاعر النيل .

(٣) البيت من قصيدة من بحر البسيط ، عدد أبياتها ٨ أبيات ، أولها :

يا رافعاً راية الشورى وحارسها   جزاك ربك خيراً عن مُحبيها

فإنْ أطاع استحقَّ هداية التوفيق والمعونة ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧)﴾ [محمد] وهداية رسول الله هداية إرشاد وبيان فقط ، وقد أوضحنا هذه المسألة .

قوله تعالى : ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٢)﴾ [الشورى] أى : ترشد وتدل ، والصراط المستقيم هو الطريق السَّوى المستقيم الذى يُوصِّلك إلى غايتك فى أسرع وقت وبأقل مجهود ودون عناء ، لأن الطريق كلما اعوج ازداد زمنه ومشقته ، ثم إن هذا الطريق صراط يعنى محدد مثل الشعرة ، وهذا يعنى أنك لا بدّ أنْ تسير عليه بانضباط ، لا تنحرف عنه يميناً ولا شمالاً ، لذلك قال فى موضع آخر ﴿سَوَاءَ السَّبِيلِ (١)﴾ [الممتحنة] يعنى : وسطه .

والمراد بالصراط المستقيم المنهج الذى جاء به سيدنا رسول الله ، هذا المنهج الذى يصحبك فى الدنيا لتستقيم به أمور حياتك ، ثم يعطيك الجزاء فى الآخرة ، لذلك الحق سبحانه علّمنا أنْ ندعو ونقول : ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ .. (٧)﴾ [الفاتحة]

ثم يوضح الحق سبحانه طبيعة هذا الصراط :

﴿صِرَاطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ(١) أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ (٥٣)﴾

قوله تعالى : ﴿صِرَاطِ اللَّهِ .. (٥٣)﴾ [الشورى] أضاف الصراط

(١) صراط الله . قال على بن أبى طالب : هو القرآن . وقيل : هو الإسلام . ورواه النواس بن سمعان عن النبى ﷺ . (ذكره القرطبى فى تفسيره ٩/٦١٠٤) .

إليه سبحانه ، فهو صاحبه وواضعه ليس من إنشائكم . يعنى : لا دَخْلَ للعبد فيه ، وطالما أنه من الله فينبغى عليكم اتباعه والحذر من الانحراف عنه .

ثم يصف الحق سبحانه نفسه بهذه الصفة ﴿الَّذِى لَهُ مَا فِى السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ ..﴿٥٣﴾﴾ [الشورى] يعنى : صاحب هذا الصراط له ملْك ما فى السماوات وما فى الأرض ، يعنى فى الدنيا ، ثم تصير الأمور إليه وحده فى الآخرة .

﴿أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾ [الشورى] وهذا أسلوب قصر يعنى : إلى الله وحده لا إلى أحد غيره .

إذن : هذا الصراط وهذا المنهج وضعه لكم الذى يملك الدنيا ويملك الآخرة ، فمَنْ سار على منهجه فى الدنيا لم يُحرم الجزاء فى الآخرة .

فالدنيا كلها (من) بداية صائرة إلى غاية هى الآخرة ، والغاية هذه إلى الله وحده ، فما بين (من) و (إلى) أحسنوا أموركم فيها لأنكم صائرون منها إلى الله ، وتذكّروا أن دار العمل موقوتة ، وأن دار الجزاء خالدة باقية ، هذه دار شَقاء وعَنَت ، وهذه دار نعيم ، فيها ما لا عَيْنٌ رأت ، ولا أذن سمعتْ ، ولا خطر على قلب بشر ، ومَنْ يخطب الحسناء يُغْلها المهر .

وتأمل كيف خُتمتْ هذه السورة بقوله تعالى : ﴿أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾ [الشورى] (أَلاَ) أداة تنبيه . والتنبيه لا يكون إلا لأمر مهم ينبغى الاهتمام به ولا نغفل عنه ، قلنا : لأن المتكلم هو الذى يعى كلامه ووقته ولا يغفل عنه ، أما المخاطب فقد يغفل عما يُقال

فيحتاج إلى تنبيه فى الأمور المهمة .

هذا الأمر المهم ما هو ؟ هو ﴿ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الشورى] هذه برقية موجزة فى ختام السورة فى طياتها كلام كثير ، حتى فى البشر حينما يوصى الإنسان أولاده مثلاً قبل موته لا يُوصيهم بكل تفاصيل حركة الحياة ، إنما بالأمور المهمة .

فقوله سبحانه ﴿ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الشورى] يعنى : تنبهوا أنّ المسألة كلها من الله وإلى الله ، من الله منهج ، وإلى الله مرجع ومصير .

فانظر فى حركتك واجعلها موافقة لهذا المنهج ، واعلم أنك راجع إليه ، وأمرك صائر إليه وحده ، لأنه سبحانه لم يخلقنا عبثاً ، ولن يتركنا سُدى . هذه حقيقة ينبغى ألاَّ تغيب أبداً عن عقولنا .

• • •

سُورَةُ الزُّخْرُفِ

سورة الزخرف(١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ حمٓ ﴿١﴾ ﴾

سبق أنْ تحدثنا عن الحروف المقطعة فى بدايات بعض سور القرآن ، وأن لها حكمة مرادة من الحق سبحانه نحوم حولها ، ثم نقول : والله أعلم بمراده(٢) .

---

(١) سورة الزخرف هى السورة رقم ٤٣ ، عدد آياتها ٨٩ آية ، وهى مكية بإجماع كما قال القرطبى فى تفسيره . والزخرف : الزينة . وقال ابن سيده : الزخرف الذهب هذا الأصل ثم سُمِّى كلّ زينة زخرفاً ثم شبه كل مُموه مزوَّر به .

(٢) اختلف المفسرون فى الحروف المقطعة التى فى أوائل السور :

- فمنهم من قال : هى مما استأثر الله بعلمه . فردوا علمها إلى الله ولم يفسرها . حكاه القرطبى فى تفسيره عن أبى بكر وعمر وعثمان وعلى وابن مسعود . وقاله عامر الشعبى وسفيان الثورى والربيع بن خيثم واختاره أبو حاتم بن حبان .
- ومنهم من فسَّرها ، واختلف هؤلاء فى معناها :
- فقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، إنما هى أسماء السور .
- وقيل : هى اسم من أسماء الله .

قال ابن كثير فى تفسيره (٣٧/١) : مجموع الحروف المذكورة فى أوائل السور بحذف المكرر منها أربعة عشر حرفاً وهى (أ ل م ص ر ك هـ ى ع ط س ح ق ن) يجمعها قولك : نص حكيم قاطع له سر .

﴿ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) ﴾

الواو هنا للعطف ، يعنى ﴿ حم (١) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) ﴾ [الزخرف] هما شىء واحد ، وهما قرآن يُقسم الله به ، لكن فصل بينهما بالعطف ، لأن ﴿ حم (١) ﴾ [الزخرف] نقرؤها ونؤمن بها ولا نعرف معناها ، بل نردها إلى المتكلم بها سبحانه ، أما ﴿ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) ﴾ [الزخرف] أى : الواضح البيِّن المظهر للأشياء ، لذلك نفهمه ونعرف معانيه

﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٣) ﴾

هذا هو المقسَم عليه ، فالحق سبحانه يقسم بهذه الحروف العربية ، وبالكتاب المكوّن من هذه الحروف أنه جعله ﴿ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٣) ﴾ [الزخرف] سماه كتاباً لأنه مكتوب فى السطور ، وسماه قرآناً لأنه مقروء ، ووصفه بأنه عربى ليؤكد على أنه نزل بلسان القوم ، كما قال سبحانه : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ .. (٤) ﴾ [إبراهيم]

إذن : لابدَّ أنْ يكون الرسول بلسان قومه ليفهموا عنه ولتتم عملية البلاغ . فإنْ قلتَ : فكيف إذن أُرسِل محمد ﷺ إلى الناس كافة على اختلاف لغاتهم ؟

نقول : أُرسِل بلسان قومه الذين عاصروه وباشروا تلقِّى توجيهاته الأولى ، فلما فهموها واقتنعوا وآمنوا بصدقها حملوها إلى

غيرهم من الأمم ، وساحوا بها فى أنحاء الأرض حركةً وعملاً وسلوكاً وتطبيقاً .

هذا معنى الرسالة إلى الناس كافّة ، فالإعجاز فيها فى السلوك العملى والتطبيق ، لذلك يقول لنا التاريخ : إن الإسلام انتشر فى البلاد بالسلوك القويم الذى بهر الناس جميعاً فدخلوا فى دين الله أفواجاً ، واقرأ : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٣) ﴾ [فصلت]

ويقول سبحانه عن هذه الأمة : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا .. (١٤٣) ﴾ [البقرة] وهكذا كلف الخلفاء جميعاً بحمل هذه الرسالة ، فالرسول يشهد أنه بلَّغنا ، والأمم الأخرى تشهد أننا بلَّغناهم .

إذن : باللغة فهمتْ هذه الأمة وترجمتْ هذا المنهج إلى عمل ، فتحوَّلَتْ من أمة أمية جاهلة لا نظام لها ولا قانون إلى أمة راقية جذبتْ إليها أرقى أمم الأرض مثل فارس فى الشرق ، والروم فى الغرب ، لقد زلزلوا هاتين الحضارتين حينما طبَّقوا تعاليم المنهج الذى جاءهم به محمد ﷺ ، هذا هو الذى لفتَ الأنظار إلى الإسلام .

لذلك لما نتأمل فى سورة سيدنا يوسف عليه السلام نجد هذا النموذج العملى التطبيقى للإيمان ، اقرأ : ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّى أَرَانِى أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الآخَرُ إِنِّى أَرَانِى أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٣٦) ﴾ [يوسف]

لقد نال يوسف هذه المنزلة وصار مقصداً للسائلين ، لماذا ؟ لأنه وصل

إلى درجة الإحسان ، وهى القمة فى التطبيق العملى للمنهج الذى جاء به ، ثم يُوضح هو هذا المسلك العملى الذى أوصله إلى منزلة التأويل ، فيقول :

﴿ قَالَ لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٣٧) وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ (٣٨) ﴾ [يوسف]

يعنى : لو فعلتم مثلى لأصبحتم قادرين على فهم الرؤيا وتأويلها مثلى تماماً .

هذا المسلك العملى هو نفسه الذى جعل سيدنا يوسف عليه السلام يستغل الفرصة ليؤدى مهمته الدعوية ، فقبل أن يعطى السائلَيْن ما أرادا أعطاهما ما أراد هو أولاً من الدعوة إلى الله ، وهما فى وقت الحاجة إليه ، والاستماع لكل كلمة يقولها .

لذلك نراه يسرع بهذا الملخص الإيمانى العقدى فيقول : ﴿ يَٰصَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٣٩) مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٤٠) ﴾ [يوسف] ثم بعد ذلك يفسر لهما الرؤيا .

إذن : سلوك يوسف هو الذى لفت إليه الأنظار ، وكذلك السلوك الحق المستقيم فى كل زمان ومكان هو الذى يلفت إليك الأنظار ، ويجذب إليك القلوب .

﴿ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ ﴿٤﴾ ﴾ [الزخرف] أى : الكتاب المبين الذى سبق وَصْفه ، وهو القرآن الكريم ﴿ فِى أُمِّ الْكِتَابِ ﴿٤﴾ ﴾ [الزخرف] أم الكتاب يعنى : الكتاب الأصل أو اللوح المحفوظ الذى أخذتْ منه كل رسالات السماء ، وسجِّل فيه كل الأحداث ﴿ لَدَيْنَا ﴿٤﴾ ﴾ [الزخرف] عندنا : عند الله . يعنى : لم يُعطِه لأحد ، وهذا يعنى أنه مَصُون محفوظ .

﴿ لَعَلِىٌّ ﴿٤﴾ ﴾ [الزخرف] أى : فى ذاته ، والعلو الارتقاء ، لأنه هو الكتاب الخاتم لجميع الرسالات قبله والمهيمن عليها .

وهيمنة القرآن على الكتب السابقة أنه اتفق معها فى الثوابت العقدية والأعمال العبادية والأخلاق ، ثم نسخ من الرسالات مثله ما لا يناسب العصر ، ونفض عنها الفساد الذى لحق بها من تبديل وتغيير أو تحريف .

فالقرآن حكى عنهم أنهم نَسُوا حظاً مما ذُكِّروا به ، وما لم ينسوه كتموه ، وما لم يكتموه حرَّفوه ، بل زادوا على ذلك كله ولم يقفوا عند حَدِّ التحريف ، إنما جاءوا بكلام من عندهم وقالوا : هو من عند الله ، واقرأ : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ .. ﴿٧٩﴾ ﴾ [البقرة]

هذه هى هيمنة القرآن على ما سبقه من الكتب وعُلُوِّه عليها .

وقوله ﴿ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾ [الزخرف] الحكيم هو الذى يضع الشىء

فى موضعه من حيث زمنه ومكانه الذى يناسبه ، فترى كل شىء فيه منضبطاً ، والقرآن هو الكتاب الذى خُتمتْ به الكتب السماوية ، ومحمد ﷺ هو خاتم الرسل جميعاً .

فإنْ قلتَ : فلماذا يحفظ الحق سبحانه كلامه فى أم الكتاب ، وهو سبحانه لا يضل ولا ينسى ، ويحيط علمه بكل شىء ولا تَخْفى عليه خافية ؟

قالوا : حفظ الله تعالى كلامه فى أم الكتاب من أجل الملائكة ، فحينما يروْنَ اللوح المحفوظ يجدون فيه كلاماً قديماً تُصدِّقه الأحداث ومواقف الناس فى الكون ، ويأتى الواقع وفْقَ ما أخبر الحق فى كلامه ، فيزدادوا حباً فى الله وعنايةً به ، ويحكموا بأن الله هو العليم الحكيم .

هذا سرُّ الكتابة ؛ لأنهم أى الملائكة سبق أنْ قالوا فى مسألة خَلْق الإنسان : ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ[1] فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ (٣٠)﴾ [البقرة]

بعضهم قال فى ﴿أُمِّ الْكِتَابِ (٤)﴾ [الزخرف] ليس هو اللوح المحفوظ لقوله تعالى عن القرآن : ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ .. (٧)﴾ [آل عمران] فأم الكتاب هنا أى : الآيات

---

(١) بعض غير المسلمين الذين يستهويهم الطعن فى القرآن يقولون : كيف يخاطب الملائكة الله بهذا الاستفهام يستنكرون به أن يخلق الله آدم ويجعله خليفة فى الأرض ؟ وقول الملائكة هذا ليس على وجه الاعتراض على الله ولا على وجه الحسد لبنى آدم ، وقد وصفهم الله بأنهم لا يسبقونه بالقول أى : لا يسألونه شيئاً لم يأذن لهم فيه ، وإنما سؤالهم سؤال استعلام واستكشاف عن الحكمة فى ذلك . [عادل أبو المعاطى] .

المحكمات . فقد يكون فى هذا المعنى تنبيه لنا بأن هذه السورة (الزخرف) من الآيات المحكمات ، ليس فيها آية واحدة من المتشابهات .

وقد بيَّن لنا الرسول ﷺ حُكْم المحكم والمتشابه ، فقال : « ما عرفتم منه فاعملوا به ، وما لم تعرفوا فآمنوا به »[1] .

قال تعالى فى المتشابه : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ.. (٧) ﴾ [آل عمران] ونقف ، ثم ﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ (٧) ﴾ [آل عمران] إذن : نعمل بالمحكم ونؤمن بالمتشابه .

﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ (٥) ﴾

الهمزة هنا تحمل معنى الاستفهام الإنكارى ، ومعنى ﴿ أَفَنَضْرِبُ (٥) ﴾ [الزخرف] أى : نترك . نقول : ضربتُ عن العمل وأضربتُ عن العمل أى : تركتُه وامتنعتُ عنه . ومنه : أضرب العمال عن العمل .

فالحق يقول لهم : أنترك تذكيركم ، ونُعرض عنكم ونترككم هكذا هَمَلاً ، لأنكم أسرفتُم على أنفسكم وكذَّبتم بالذِّكْر وكفرتم به ؟

لا بل سنُوالى لكم التذكير والبيان ، ونلزمكم الحجة والبرهان ،

---

(١) أخرج الحارث فى البغية (١٨) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال : « يا قوم لا تجادلوا بالقرآن فإنما ضل من كان قبلكم بجدالهم ، إن القرآن لم ينزل ليُكذب بعضه بعضاً ، ولكن نزل ليصدق بعضه بعضاً ، فما كان من محكمه فاعملوا به ، وما كان من متشابهه فآمنوا به » . وكذا فى الآحاد والمثانى لابن أبى عاصم (٧٤٩) .

فإنْ لم تؤمنوا بالحجة ولم تُصدِّقوا جاء دور الغزو والفتح والنصر عليكم حتى تؤمنوا . وهذه رحمة من الله بهم لأنهم عباده وصنعته ويريد لهم النجاة ، وهو أرحم بهم من الوالدة بولدها حتى وهم كافرون به .

فلو تركهم وما أرادوا لتمادوا فى فسادهم ، واستحقوا الهلاك والعذاب ، والكافر حينما يؤمن يرحمه الله بالإيمان ، ويرحم المجتمع من شرِّه وفساده إنْ ظلَّ على كفره ، فالذكْر والمراد به هنا الوحى رحمةٌ من الله وخير يُقدِّمه لعباده رحمة بهم .

لذلك قالوا : إنْ كان لك عدو فلا تَدْعُ عليه بالهلاك ، إنما ادْعُ له بالهداية لأنك لا تنتفع بهلاكه ، إنما تنتفع بسلوكه ويعود عليك خيره إن اهتدى ، فثمار الخير تفيد المجتمع كله ، ومن هذا المنطلق نهانا الإسلام عن كَتْم العلم لأنك حين تكتم علماً تحرم مجتمعك من خيره ، فحين تُعلِّم غيرك تنتفع بخيره وتأمن شرَّه .

إذن : من رحمة الله بهم أنْ يُوالى لهم نزول القرآن رغم عنادهم وكفرهم وتماديهم فى الضلال ، وفعلاً مع مرور الوقت وتتابع نزول الوحى أسلم صناديد الكفر واحداً بعد الآخر ، أسلم عمر ، وأسلم عمرو وخالد وعكرمة وغيرهم كثير .

ثم يقول لهم الحق سبحانه : أنتم فى حاجة إلى قراءة التاريخ وأَخْذ العبرة من موكب الرسالات لتروْا عاقبة المكذِّبين للرسل ، فتاريخ الرسالات يؤكد انتصار رسل الله على المكذِّبين لهم ، لأن هذه سنةُ الله فى الرسل أنْ ينصرهم الله فى النهاية ، وأن تكون العاقبة لهم على مُكذِّبيهم ، يأخذهم الله على قدر تكذيبهم : ﴿ فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ .. ﴿٤٠﴾ ﴾ [العنكبوت]

وقد خاطبهم الحق سبحانه بقوله : ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٣٨) ﴾ [الصافات] يعنى : المسألة ليستْ كلاماً نظرياً ، إنما واقع مُعَاش ومُشَاهد عليكم أنْ تعقلوه ، وأنْ تتعلموا منه الدرس حتى لا ينزل بكم من العذاب مثل ما نزل بهم .

﴿ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي ٱلْأَوَّلِينَ ۝٦ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٧ ﴾

كم هنا تفيد الكثرة[1] ﴿ فِى الأَوَّلِينَ (٦) ﴾ [الزخرف] فى الأمم السابقة الذين كانوا يُكذِّبون الرسل ويستهزئون بهم .

﴿ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٨ ﴾

يعنى : يا كفار قريش خذوا عبرة من الأمم السابقة ، وممن أهلكهم الله وكانوا أشد منكم قوة فلم تمنعهم قوتهم ، ولم تدفع عنهم عذاب الله ﴿ وَمَضَىٰ مَثَلُ الأَوَّلِينَ (٨) ﴾ [الزخرف] يعنى : قصتهم وما حَلَّ بهم ؛ لأن هذا وعد الله للرسل .

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) ﴾ [الصافات] فلابدَّ أن تجدوا عاقبة هذا التكذيب : إما أنْ تُهزموا فى الدنيا ، وإما أنْ يُدَّخر لكم العذاب فى الآخرة .

---

(١) كم : تأتى على وجهين : خبرية بمعنى كثير . واستفهامية بمعنى أى عدد . وهى هنا خبرية تفيد الكثرة . ويقول تعالى فى سورة النساء ﴿ وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ .. (١٦٤) ﴾ [النساء] .

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا(١) وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

الحق سبحانه يريد أنْ يُبيِّن لهم أنهم يُكذِّبون رسول الله ، ويُصادمون دعوته استكباراً وعناداً ، ولا يعتمدون فى ذلك على منطق العقل والحكمة ، ويأخذ هذه الحقيقة ويُثبتها من لسانهم هم : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ﴾ [الزخرف]

وفى موضع آخر : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. ﴿٨٧﴾ ﴾ [الزخرف] فهذه حقيقة لا ينكرونها ويعترفون بها ، لأن مسألة الخَلْق هذه لم يدَّعِها أحدٌ لنفسه ولم يقُمْ لها منازع .

أولاً عجيبٌ منهم أنْ يؤمنوا بأن الله هو الخالق ، وأنه عزيز وعليم ، ومع ذلك يقفون من رسول الله هذا الموقف المعاند ، ثم لماذا لم يقولوا مثلاً خلقهنَّ الله لأنه ليس له منازع ، ووصفوا الحق سبحانه بالعزيز العليم ؟ قالوا : لأنهم اتبعوا مناهج آبائهم وظنوا أنها الأحسن ، فقالوا : ﴿ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا .. ﴿١٧٠﴾ ﴾ [البقرة] فصدَّهم هذا عن اتباع الحق .

---

(١) مهد الشىء مهْداً : وطَّأه وجعله سهلاً ليناً . [القاموس القويم ٢/٢٤٢] وقال القرطبى (٩/٦١٠٨) : مهداً فراشاً وبساطاً . وقال ابن كثير فى تفسيره (٤/١٢٣) : « أى فراشاً قراراً ثابتة تسيرون عليها وتقومون وتنامون وتنصرفون مع أنها مخلوقة على تيار الماء لكنه أرساها بالجبال » .

ومعنى ﴿ الْعَزِيزُ﴾ [الزخرف] أى : الغالب الذى لا يُـغلب ، فهم إذن ردُّوا على أنفسهم ، فهم مهما عملوا فلابدَّ أنْ يُغلبوا .

وقولهم فى وَصْف الحق سبحانه ﴿الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ⑨﴾ [الزخرف] من باب أن المتكلم يمـكن أنْ يزيد من عنده ما لم يُلْقَ إليه ، كـما لو أنك أرسلتَ شخـصاً برسالة وقلتَ لـه : اذهب إلى فلان . هكذا بدون ألقاب وبدون أوصاف - وقُلْ له كذا وكذا .

فحين يذهب الرسول يقـول : والله فلان قال لى اذهب إلى الشيخ فلان ، أو الأسـتاذ فلان ، وقُلْ له كـذا وكذا فيـزيد الوصف من عند نفسه ، كـذلك هؤلاء يقولون ﴿خَلَقَـهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ⑨﴾ [الزخرف] لأنهم يعلمون أن الله تعالى عزيز وعليم .

ثم أراد سبحانه أنْ يُبيِّن لـهم قدرته وعلمه ، فقال : ﴿الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا .. ⑩﴾ [الزخرف] والمهـد فى الأصل هو الفراش الممهَّـد الذى يستريح فيه الطفل جُلُوسـاً أو نوماً ، ومنه نقول طريق مُمهَّد يعنى : مُعد ومُسوَّى بحيث يريح مَنْ يمشى عليه .

فالحق يُشـبِّهنا بالأطفال ، والطفل لا يسـتطيع أنْ يُمهِّد لنفـسه ، فلولا أن الله مهَّد لنا الأرض ما قدرنا نحن على تمهيدها .

﴿وَجَـعَلَ لَكُـمْ فِـيـهَـا سُـبُـلاً .. ⑩﴾ [الزخـرف] يعنى : طرقـاً تسلكونها وتنتقلون عليها من مكان لآخر ، لأن مصالح الخَلْق تقتضى الانتقال من مكان إقامتهم إلى أماكن مصالـحهم ﴿لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ⑩﴾ [الزخرف] أى : فى سيركم إلى مصالحكم وأغراضكم .

الحق سبـحانه حين يمـتنُّ عليهم ببعض نِعَمه عليهم إنمـا ليُرقِّق

قلوبهم ويستميلهم إلى ساحته ، لعلهم يهتدون إليه ويؤمنون به ويُصدِّقون برسوله .

﴿ وَالَّذِى نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ[١] بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ ﴾

قوله ﴿ مِنَ السَّمَاءِ .. ﴿١١﴾ ﴾ [الزخرف] أى : من جهة السماء ﴿ بِقَدَرٍ .. ﴿١١﴾ ﴾ [الزخرف] بحساب معين ومقدار محدَّد حسب ما تقتضيه حكمة الله ، بحيث ننتفع بهذا الماء ونُحيى به الأرض دون مُنغِّصات ، لأن الماء قد يكون وسيلة إهلاك ودمار كما رأينا فى قصة سيدنا نوح .

لذلك قيَّد نزول الماء هنا بقوله ﴿ بِقَدَرٍ .. ﴿١١﴾ ﴾ [الزخرف] يعنى : على قدْر حاجتكم وعلى قدر ما يُصلحكم ، لذلك علَّمنا سيدنا رسول الله ﷺ أن نقول عند نزول المطر . « اللهم حوالينا لا علينا ، اللهم على الآكام[٢] والجبال والآجام والظراب والأودية ومنابت الشجر »[٣] .

---

(١) فأنشرنا به بلدة ميتة : أى أحييناها بماء المطر لأنها كانت ميتة من قبل . [القاموس القويم ٢/٢٦٦] .

(٢) الآكام : جمع أكمة ، وهى التل دون الجبل ، وهو الموضع الذى هو أشد ارتفاعاً مما حوله . [لسان العرب مادة : أكم] . والآجام : منابت الشجر الملتف . [مادة أجم] . والظراب جمع ظرب : وهو الجبل المنبسط الصغير وقيل الروابى الصغار . [مادة ظرب] .

(٣) أخرجه البخارى فى صحيحه (٩٥٧ ، ٩٥٨ ، ٩٦٠) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٤٩٣) من حديث أنس بن مالك .

ومعنى ﴿فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا .. (١١)﴾ [الزخرف] أى : أحييناها بالنبات ، كما قال سبحانه فى موضع آخر : ﴿وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٥)﴾ [الحج]

فالأرض الميتة التى لا نباتَ فيها ، لذلك فى الفقه تجد باب إحياء الموات ، وفى الحديث الشريف قال رسول الله ﷺ : «مَنْ أحيا أرضاً مَوَاتاً فهى له »[(١)] .

وهذه قاعدة لو أخذتْ بها دول العالم لَقضيْنا على الفقر ولعَمَّ الخير كُلَّ بقاع الأرض ، ولمَا وجدنا شبراً واحداً صحراء .

وعندنا فى مصر مثال واضح : لما ضيَّقتْ الحكومة على الناس ومنعت انتشارهم فى الصحراء ازدحم الناس فى الوادى والدلتا وحدثتْ الفاقة ، ولم نستطع أنْ نُوفر الاكتفاء الذاتى من المحاصيل الزراعية .

ولما سمحتْ الدولة بزراعة الصحراء وشجعتْ الناس عليها ماذا حدث ؟ رأينا الصحراء تخضر وتُخرِج لنا مَا لَذَّ وطابَ من الخضر والفاكهة ، ومَنْ يسير فى الطريق الصحراوى يرى ذلك .

وقد بيَّن الحق سبحانه أن الماء ينزل من السماء فينتفع الناسُ به فى زراعة الأرض وما زاد عن حاجتهم تمتصُّه الأرض حتى يتكوَّن بداخلها أنهار تحت سطح الأرض ، قال تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِى الأَرْضِ .. (٢١)﴾ [الزمر]

---

(١) أخرجه أبو داود فى سننه (٣٠٧٢) عن عروة قال : أشهد أن النبى ﷺ قضى أن الأرض أرض الله ، والعباد عباد الله ، ومن أحيا مواتاً فهو أحق به ، جاءنا بهذا عن النبى ﷺ الذين جاءوا بالصلوات عنه . وأخرج الطبرانى فى المعجم الكبير (١٥٢١٧) من حديث فضالة بن عبيد قال : قال ﷺ : « الأرض أرض الله ، والعباد عباد الله ، من أحيا مواتاً فهى له » .

كلمة (ميتاً) ميْت بالسكون . يعنى : ما جرى عليه الموت بالفعل ، أما ميِّت بالتشديد فهو ما يُحكم عليه بالموت وإنْ كان على قيد الحياة .

وتسألنى تفسير ميْت وميِّت   فدونك قد فسرت إن كنت تَعْقلُ
فمن كان ذا روح فذلك ميِّتٌ   وما الميْت إلا من إلى القبْر يُحملُ

ومن ذلك قوله تعالى مخاطباً نبيه ﷺ :

﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ (٣٠) ﴾ [الزمر]

وقال الشاعر[١] فى مدح سيدنا رسول الله :

أَخُوكَ عِيسَى دَعَا مَيْتاً فَقَامَ لَهُ   وأنْتَ أحييْتَ أَجْيَالاً مِنَ العَدَمِ[٢]

وقوله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ (١١) ﴾ [الزخرف] كذلك يعنى : مثلما نُحيى الأرض الميتة نحييكم ونخرجكم من قبوركم فخذوا مما تشاهدونه فى الأرض دليلاً على ما غاب عنكم من أمور البعث وإحياء الموتى ، فحين نقول لكم أن الله يُحييكم بعد موتكم فصدِّقوا .

﴿ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ (١٢) ﴾

كلمة ﴿ الْأَزْوَاجَ .. (١٢) ﴾ [الزخرف] جمع : زوج . والزوج كما قلنا هو المفرد الذى معه مثله ، والزوجان كل متقابلين مثل : أبيض وأسود ، حُلو وحامض ، فوق وتحت ، يمين وشمال .

---

(١) الشاعر هنا هو أحمد شوقى ، أشهر شعراء العصر الحديث أمير الشعراء ، مولده ووفاته بالقاهرة (١٨٦٨ - ١٩٣٢ م) نشأ فى ظل البيت المالك فى مصر ، أُرسل إلى فرنسا عام ١٨٨٧ م لمتابعة دراسة الحقوق ، مارس أكثر فنون الشعر مديحاً وغزلاً ورثاء ووصفاً .

(٢) البيت من قصيدة لأحمد شوقى ، من بحر البسيط ، عدد أبياتها ، ١٩٠ بيتاً وهو البيت رقم (١١٦) فيها . أولها : ريم على القاع بين البان والعلم .

والزوجية كما أخبر الحق سبحانه موجودة فى كل شىء ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٤٩) ﴾ [الذاريات] ومنها ما نعلمه ومنها ما لا نعلمه ؛ لذلك قال هنا ﴿ وَالَّذِى خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا .. (١٢) ﴾ [الزخرف] كلمة ﴿ كُلَّهَا ﴾ أى : مما نعلمه كالذكر والأنثى ومما لا نعلمه .

وأهل الفكر والتدُّبر يقفون عند هذه الآية يلتمسون ما فيها من حكمة ، فالحق سبحانه يمتنُّ بأنْ خلق الأزواج كلها ليُثْبتَ لنا أنه سبحانه فرْد لا زوجَ معه ، فقانون الاستقصاء العلمى يقول : إن الزوج يعنى الاثنين ، أو ما يقبل القسمة على اثنين .

فحين نأخذ الترتيب من أوله نقول : إن الواحد الذى ليس له ثانٍ ، واثنان يعنى واحداً انضمَّ له واحد آخر .

إذن : الاثنان كرقم يحتاج إلى الواحد ، أما الواحد فلا يحتاج إلى شىء ، إذن : المفرد الحق هو الذى لا يحتاج لشىء ، وهذه لا تكون إلا لله عز وجل .

إذن : الزوج يحتاج إلى الفرد ، والفرد لا يحتاج إلى الزوج .

وما دام أنه سبحانه خالق الأزواج كلها . إذن : هو فرد لا مثيلَ له ، والمتأمل يجد أنَّ الزوجين مختلفان فى الصفات مثل الذكر والأنثى ، لكل منهما صفاته مع وجود صفات مشتركة بينهما .

فالصفات المشتركة تعنى أن لكل زوج منهما مثلاً ، والصفات المختلفة تعنى أن كلاً منهما فيه نقص عن الآخر ، والله سبحانه وتعالى فرد لا مثْلَ له ، وكامل لا نقصَ فيه ، فكأن الآية تثبت أن الله تعالى فرد خالقَ لا يحتاج إلى شىء ، ويحتاج إليه كلُّ شىء .

وقوله : ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ (١٢) ﴾ [الزخرف] الفلك . أى : السُّفن . ومن الأنعام التى تُركب مثل الإبل ، كما قال سبحانه : ﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ .. (٧) ﴾ [النحل]

فالمعنى : خلق لكم من الفلك والأنعام ما تركبونه ، لكنه قال ﴿ مَا تَرْكَبُونَ (١٢) ﴾ [الزخرف] ولم يقل ما تركبونها ليطمر الفلك فى الأنعام ، والسفن لا نركبها إنما نركب فيها ، لذلك سماها ﴿ الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١٤٠) ﴾ [الصافات] وقال : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ .. (٢٢) ﴾ [يونس]

إذن : نحن نركب على الأنعام ونستوى على ظهورها ، ونركب فى السفن ، حتى السفن القديمة كان لها جدران وبداخلها مقاعد ، فما بالُكَ بالسفن المكوّنة من أدوار مثل البيوت والتى وصفها القرآن بأنها كالأعلام(١) .

لكن لماذا غلَّب الأنعام وطمر فيها السفن ؟ لابدَّ أنَّ هنا حكمة ، لأن الحق سبحانه هو الذى يتكلم ، لذلك تجد كل لفظة فى موضعها بدقة تعبيرية ، فغلَّب الأنعام وقال ﴿ مَا تَرْكَبُونَ (١٢) ﴾ [الزخرف] لأننا نركب على الأنعام ، أما السفن ففى السفن .

ثم لأن الأنعام خَلْقُ الله المباشر ، والفلك خَلْق الإنسان ، كما أن الحق سبحانه يخاطب بهذه الآية العرب فى المقام الأول ، والعرب لم يكُنْ عندهم دراية بالسفن ولا يركبونها ، إنما كانت وسائلهم فى الانتقال والحمل هى الأنعام ، فهى معهودة لهم .

---

(١) الأعلام : جمع علم وهو الجبل : فالأعلام الجبال ، قال تعالى فى وصف السفن الضخمة الحجم : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ (٣٢) ﴾ [الشورى] ، وقال : ﴿ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ (٢٤) ﴾ [الرحمن] فهى تمخر البحر كأنها جبل يسير على صفحة الماء .

﴿ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ **لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ** .. ﴿١٣﴾ ﴾ [الزخرف] الاستواء هنا يدل على الراحة ، فبعد أنْ كنتَ تسير وتتحمَّل مشقة السير ركبت على دابة مُذللة لك ، لذلك طلب منك أنْ تتذكر أنها نعمة من الله عليك تستوجب شكره وذكره ، والحذر من الغفلة عن تذكُّر النعم وشكْر المنعم ، والدابة تسير بك على أربعة قوائم تجعلها مُمهَّدة لك سهلة السير .

والسفن تحتاج فى سَيْرها إلى ثلاثة عناصر : السفينة ، والبحر الذى تسير فيه ، والهواء الذى يُحركها ، فساعة تسير بك تتذكر كلّ هذه النعم التى اجتمعتْ لك لتسير بك حيث تريد .

ثم يُعلِّمنا ربنا عز وجل كيفية الذكْر المناسب لهذه النعمة ، وهو أن نقول كما جاء فى القرآن : ﴿ **سُبْحَانَ الَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ** ﴿١٣﴾ ﴾ [الزخرف]

والنبى ﷺ علَّمنا دعاء السفر[1] والركوب ، وعلَّمنا أن نذكر الله كلما باشرنا عملاً جديداً ، لذلك قال سبحانه فى قصة السفينة ﴿ **بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا** .. ﴿٤١﴾ ﴾ [هود] وذكر الله هو الطاقة التى

---

(١) كان رسول الله ﷺ إذا وضع رجْله فى الغرز وهو يريد السفر يقول : باسم الله اللهم أنت الصاحب فى السفر ، والخليفة فى الأهل ، اللهم ازْوِ لنا الأرض وهوِّن علينا السفر ، اللهم إنى أعوذ بك من وعثاء السفر وكآبة المنقلب ، ومن سوء المنظر فى المال والأهل ، [أخرجه مالك فى الموطأ بلاغاً] .

نستمد منها العون ، القوة على السفر أو على أداء العمل .

وأنت حين تدعو بدعاء الركوب وتقول « سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين »[(١)] إنما تنفى عن نفسك الغرور ، وتعترف أنك تركب هذا المركب لا بقدرتك عليه ، إنما بقدرة الله الذى سهّله لك وسخَّره لخدمتك ، ولولا أن الله سخّره ما استطعتَ السيطرة عليه ولا اعتلاء ظهره .

فالسفينة ربما تغرق بمَنْ فيها ، والدابة ربما تَنْفَق منك فى وسط الطريق ، إذن : تذكَّر دائماً قدرة الله فى هذه المسألة ، وبادر بذكر الله عند الركوب .

هذه الدوابّ التى تركبها وتحمل عليها ، ألَكَ فَضْلٌ فيها ؟ حتى السفن التى هى صناعة يدك لولا أن الله علَّم نوحاً صناعة السفن ما كان الإنسان عرفها ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ[(٢)] (١٣)﴾ [القمر] وقال : ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا .. (٣٧)﴾ [هود] فالفكرة الأولى فيها من الله عز وجل .

تذكر أن الحصان الذى تركبه ، والجمل الذى تحمل عليه أقوى منك ، وإذا حَرَنَ[(٣)] لا تستطيع السيطرة عليه ؛ لذلك قال تعالى فى هذه الدواب ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٣٩٢) وأبو داود فى سننه (٢٢٣٢) والترمذى فى سننه (٣٣٦٩) وأحمد فى مسنده (٦٠٢٩ ، ٦٠٨٦) كلهم من حديث ابن عمر .

(٢) الدسُر : جمع دِسار وهو المسمار أو حبل من ليف تُشدُّ به ألواح السفينة . [القاموس القويم ١/٢٢٧] .

(٣) حرنت الدابة وهى حرون : وهى التى إذا استُدرَّ جريُها وقفت . وإنما ذلك فى ذوات الحوافر خاصة . ونظيره فى الإبل اللجان والخلاء . [لسان العرب - مادة : حرن] .

مَالِكُونَ (٧١) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (٧٢)﴾ [يس] فلولا أن الله ذلّلها ما ذللناها .

وسبق أنْ قلنا : إن الطفل الصغير يقود الجمل ويركبه ويُنيخه ، والجمل يطاوعه فى يُسْر وسهولة ، صحيح منظر يدعوك إلى التأمل فى قدرة الله الذى سخَّر هذا المخلوق الضخم لخدمة هذا الطفل الصغير الذى لا يقدر على شىء .

وفى المقابل ، تجد البرغوث مثلاً يقُضّ مضجعك ويُقلقك طوال الليل ، ولا تستطيع أن تفعل له شيئاً ، لماذا ؟ لأن الخالق سبحانه سخَّر لك هذا ولم يُسخِّر لك ذاك ، فتأمل ولا تظن أنك تركب هذه المراكب بقوتك ولا بقدرتك عليها .

ومعنى ﴿وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ (١٣)﴾ [الزخرف] أى : مطيقين أو غالبين ، يعنى : ليس لنا قدرة عليه ولا سيطرة ولا تحكّم إلا بتسخير الله له ﴿وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ (١٤)﴾ [الزخرف] أى : راجعون وآيبون .

﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ (١٥)﴾

قوله سبحانه ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا .. (١٥)﴾ [الزخرف] إشارة إلى الذين نسبوا إلى الله تعالى الولد ، تعالى الله عن ذلك علُواً كبيراً ، ذلك لأن الولد جزء من أبيه ، وفى الحديث الشريف قال ﷺ : « فاطمة بضعة منى »(١) يعنى : قطعة منى .

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٤٣٧ ، ٣٤٥٠ ، ٣٤٨٣ ، ٤٨٢٩) ومسلم أيضاً فى صحيحه (٤٤٨٢ ، ٤٤٨٣) وقد ورد الحديث بألفاظ كثيرة : « فاطمة بضعة منى ، فمن أغضبها أغضبنى » « إن فاطمة بضعة منى وإنى أكره أن يسوءها » « فإنما هى بضعة منى ، يريبنى ما أرابها ويؤذينى ما آذاها » .

ولما نسبوا لله تعالى الولد مرة سمَّوْهُ ابن الله ، ومرة قالوا : الله ، ومرة قالوا : ثالث ثلاثة . والعجيب أنهم وقعوا فى هذا الخطأ مع مَنْ ؟ مع النبى الذى أرسله الله إليهم ، فجعلوا النبى ذاته وسيلة للشرك .

الأمر الثانى : أن الجزء المنفصل عن الأبوين إما ذكر وإما أنثى ، ومعلوم أن الذكر عندهم أشرف من الأنثى ومُقدَّم عليها ، بدليل قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ .. ﴿٥٩﴾ ﴾ [النحل]

وهؤلاء لما نسبوا لله تعالى الولد نسبوا له الأنثى ، وهى مذمومة عندهم ، تعلمون قصة أبى حمزة لما تزوج من امرأة لا تلد ذكراً ، فهجرها إلى غيرها ، فقالت تُنفِّس عن نفسها[1] :

مَا لأَبِى حَمْزَةَ لاَ يأْتينَا ... يَظَلُّ فِى البَيْتِ الذى يلِينَا
غَضْبَانَ ألاَّ نلِدَ البَنِينَا ... تَاللَّه مَا ذَلِكَ فِى أَيْدِينَا
فنَحنُ كالأَرْضِ لغَارسِينَا ... نُعطِى الذى غَرَسُوه فِينَا[2]

وهكذا أخبرتْ المرأة العربية قديماً ما أثبته العلم الحديث من أن

---

(١) هى زوجة أبى حمزة الضبى ، شاعرة عباسية ، هجرها زوجها عندما ولدت له بنتاً ، ومر يوماً بخبائها فسمع منها أبياتاً من الشعر فرقّ لها وصالحها .

(٢) هذا البيت جاء فى الموسوعة الشعرية هكذا :

وإنما نأخذ ما أعطينا ... ونحن كالأرض لزراعينا
ننبت ما قد زرعوه فينا

والأبيات من بحر الرجز ، عدد أبياتها أربعة أبيات .

المرأة غير مسئولة عن الذكورة أو الأنوثة فى الولد ، فهى مُتلقية وحاضنة فقط ، والرجل هو المسئول عن هذه المسألة .

والقرآن يقول : ﴿ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ (٤٥) مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ (٤٦) ﴾ [النجم] والنطفة هى ماء الرجل الذى يُلقح البويضة ، ويتحكم فى الذكورة والأنوثة .

ولأن نسبة الولد إلى الله تعالى أمرٌ عظيم وفادح ذُيِّلَتْ الآية بقوله سبحانه : ﴿ إِنَّ الإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ (١٥) ﴾ [الزخرف] تأمل دقة التعبير هنا الذى يناسب فداحة الاتهام ، فـ﴿ إِنَّ .. (١٥) ﴾ للتوكيد و ﴿ لَكَفُورٌ (١٥) ﴾ [الزخرف] صيغة مبالغة من كافر . و﴿ مُّبِينٌ (١٥) ﴾ [الزخرف] يعنى : بيِّن وواضح الكفر ، فكفره لا يَخْفى على أحد .

﴿ أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم(١) بِالْبَنِينَ (١٦) ﴾

الحق سبحانه يرد عليهم بهذا الاستفهام الذى يفيد التعجب ﴿ أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ (١٦) ﴾ [الزخرف] يعنى : أيُعقل وهو سبحانه الخالق أنْ يصطفيكم بالبنين وهم الجنس الأعلى ويختصُّ نفسه بالبنات وهُنَّ الجنس الأدنى ؟

وفى موضع آخر يقول سبحانه : ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ

---

(١) أصفاكم : اختصكم وأخلصكم بالبنين . يقال : أصفيته الود أخلصته له . وصافيته وتصافينا : تخالصنا . [القرطبى ٩/ ٦١١٤] .

وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لا جَرَمَ(١) أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾ [النحل]

ثم يعطينا الحق سبحانه الدليل على كذبهم وافترائهم عليه :

﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ ﴾

قوله تعالى ﴿ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلاً .. ﴿١٧﴾ ﴾ [الزخرف] كناية عن البنات اللاتى نسبوها إلى الله وجعلوها مثيلاً له سبحانه ؛ لأن الولد كما قلنا مثيلٌ لأبيه وجُزْءٌ منه ، وهم فى حين ينسبون لله البنات يكرههن ويسودّ وجه الرجل منهم إذا بُشِّر بالبنت .

﴿ وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ ﴾ [الزخرف] يعنى : يملؤه الغيظ والنكد والغم .

إذن : كيف تنسبون لله ما لا تقبلونه لأنفسكم ، لذلك عبَّر القرآن عن هذه المسألة بأنها قسْمة جائرة ظالمة ، فقال تعالى فى سورة النجم : ﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴿٢٢﴾ ﴾ [النجم]

واختار هذا اللفظ الغريب الذى لم يأتِ فى القرآن إلا مرة واحدة ليدلّ بغرابة اللفظ على غرابة القول الذى قالوه .

﴿ أَوَمَن يُنَشَّؤُا(٢) فِى الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ ﴾

---

(١) لا جرم : أى لا محالة ولابُدَّ ، وتحولت إلى معنى القسم فصارت بمنزلة قولنا حقاً . [القاموس القويم ١/١٢١] .

(٢) يُنشَّأ : يُربَّى ويشب . والنشوء : التربية . يقال : نشأت فى بنى فلان نشوءاً إذا شببت فيهم . والمعنى يُربَّى ويكبر فى الحلية . [القرطبى ٩/٦١١٦] .

الهمـزة هنا أيضاً للاستـفهام ، يقول سـبحانه : أتسـتوى عندكم البنت التى تُنشَّـأ فى الحلية بالولد . ومـعنى ﴿أَوَ مَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ (١٨)﴾ [الزخرف] يعنى : تُربَّى فى الزيـنة والرفاهيـة ، فـالبنت عندنا مثلاً نهتم بهـا وبملبسـها ومظهرها ، نُلبسـهـا الحلَق والأسْورة والثياب الجميلة على خلاف الولد .

﴿وَهُوَ فِي الْخِصَامِ .. (١٨)﴾ [الزخرف] أى : فى مواقف الجدل والدفاع ﴿غَيْرُ مُبِينٍ (١٨)﴾ [الزخرف] يعنى : ليس له قوة فى إظهار الحجة .

إذن : البنت التى نسبوها لله تُربَّى على الرفـاهية والنعمة ، ولبس الحرير والذهب والزينة ، لأنها خُلقَتْ للاسـتمالة ، ونحن نحرص على مظهر البنت وشكلها ونُزيِّنها أولاً وأخيراً لتتزوج .

وفى الغالب نلجأ للزينة وللجمال الـصناعى حينما لا يتوفر للبنت الجمال الطبيعى ، بدليل أن العرب كانـت تسمى المرأة الجميلة غانية . يعنى : استغنت بجمالها الطبيعى عن أىِّ زينة .

أمـا الذكـر فعلى خـلاف ذلك ، الذكـر مع أبيـه فى الحـقل وفى المصنع ، وفى الخصام والجدال ، وفى كل عمل شاقّ ، فهل يستويان ؟

وهذا لا يعنى أن هذه قاعدة عامـة فى الجنس كله ، فقد نجد فى النسـاء صاحـبة الرأى السـديد والحـجة القـوية التى فاقتْ الرجـال .

تذكرون لما مُنع الرسـول ﷺ وصحابته من دخـول مكة للعمرة وهم على مشـارفها ، واضطرَّ رسـول الله لأنْ يبرم مـعاهدة الحديبـية مع كفار مكة على أنْ يعودَ هذا العام ويحجّ فى العام الذى يليه .

عندها غـضب الصحـابة وثاروا وعزَّ عليـهم أنْ يُمنعوا من البـيت

وهم على مشارف مكة ، حتى أن سيدنا عمر ثار وقال : يا رسول الله ألسنا على الحق ؟ قال : بلى ، قال : أليسوا على الباطل ؟ قال : بلى ، قال : فلِمَ نعطى الدَّنية(١) فى ديننا ؟

وكان القوم يخرجون عن طاعة رسول الله ويعصون أوامره ، حتى دخل خباءه على السيدة أم سلمة وهو مُغْضَب ، فقالت له : ما لى أراك مُغْضباً يا رسول الله ؟ فقال : هلك القوم ، أمرتُهم فلم يمتثلوا .

فقالت : يا رسول الله ، اعذرهم فهم قوم مكروبون ، وقد جاءوا من المدينة على شوق للبيت ، ويشقّ عليهم أنْ يُمْنَعوه وهم على مشارف مكة ، فاذهب يا رسول الله إلى ما أمرك الله ، فافعله أمامهم ، فلو رأوْكَ تفعل علموا أن الأمر عزيمة لا جدالَ فيه ، فلما فعل الرسول أمامهم فعلوا مثله ، وانتهت المشكلة وعادوا إلى المدينة(٢) .

ورحمةً بغيرة المسلمين على دينهم نزل الوحى على سيدنا رسول الله وهو فى الطريق وقبل أنْ يصلوا المدينة يوضح لهم الحكمة

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٥٢٩ ، ٢٩٤٥ ، ٤٤٦٦) وكذا مسلم فى صحيحه (٣٣٣٨) وأحمد فى مسنده (١٥٤٠٨) من حديث سهل بن حنيف . والدنية : أى الخصلة المذمومة بمعنى الضعيف الخسيس [لسان العرب - مادة : دنا] .

(٢) لفظ البخارى فى صحيحه (٢٥٢٩) أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه : قوموا فانحروا ثم احلقوا . فوالله ما قام منهم رجل حتى قال ذلك ثلاث مرات ، فلما لم يقم منهم أحد دخل على أم سلمة فذكر لها ما لقى من الناس . فقالت أم سلمة : يا نبى الله أتحب ذلك ؟ اخرج ثم لا تكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بُدنك وتدعو حالقك فيحلقك فخرج فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك ، نحر بُدنه ودعا حالقه فحلقه ، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضاً حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غماً » .

الإلهية من عودتهم هذا العام ، فقال تعالى :

﴿ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا[1] أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٢٥) ﴾ [الفتح]

إذن : الحكمة من العودة هذا العام أن مكة كان بها كثير من المسلمين الذين أخفوْا إسلامهم ، فلو دخلتم مكة عُنْوة ، وحدث بينكم وبين الكفار قتال فسوف يصيب إخوانكم المسلمين ، وسوف تُلحقون بهم الضرر دون علم منكم . وهكذا علموا صواب رأى رسول الله ، وأنه ﷺ على الحق .

هذا مثال لسداد الرأى فى النساء ، والتاريخ ملىء بنماذج من نساء تفوقن على الرجال فى الجدل وقوة وسداد الرأى لأن الخالق سبحانه لا يخلق بطريقة ميكانيكية ، إنما بقدرة وحكمة فليس شرطاً أن يكون الرجال جميعاً عندهم قوة فى الجدال ، والنساء جميعاً عندهُنَّ ضعف فى الرأى وعدم قدرة على الجدال ، فالقاعدة لابدَّ أنْ يكون لها شواذ .

فإذا كانت القاعدةُ فى النساء ﴿ أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ (١٨) ﴾ [الزخرف] فطلاقة القدرة لله عز وجل تجعل من هذا الضعف قوة تتفوق على قوة الرجال ، فنرى من النساء مَنْ كانت ملكة على قومها ، مثل ملكة سبأ مثلاً التى قص القرآنُ قصَّتها مع سيدنا سليمان .

---

(١) معكوفاً : محبوساً عن أن يبلغ محله (الطبرى ٢٣٩/٢٢) . أى : محصراً ممنوعاً من الوصول إلى البيت العتيق (القرطبى ٣٧٩/٢) .

فهل وضلت للمُلْك لعدم وجود الرجال ؟ أبداً ، بل تفوقتْ بذكائها وقوة رأيها حتى سلم لها الرجال وقدَّموها عليهم .

وحين نقرأ قصتها فى سورة النمل نجد ما يدل على هذا الذكاء وهذه الفطنة والسياسة والقدرة على الجدل ، فلما وصفها الهدهد قال : ﴿إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ[١] وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣)﴾ [النمل]

ولما وصلها كتاب سليمان لم تستأثر بالرأى ، إنما شاورت أهل الرأى : ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (٢٩)﴾ [النمل] وأخذت بمبدأ الشورى ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ (٣٢)﴾ [النمل]

ثم تحاول حَلَّ المسألة بطريقة ودية بعيدة عن العنف وإراقة الدماء لأنها تعلم طبيعة الملوك : ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ (٣٤) وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ (٣٥)﴾ [النمل]

وتأمل لباقتها وسياستها فى الرد لما نكّروا[٢] لها عرشها

---

(١) تملكهم : أى تتصرف بهم ولا يعترض عليها أحد ، وهى بلقيس بنت شراحيل . [الألوسى فى تفسيره روح المعانى] .

(٢) نكِّروا لها عرشها : التنكير هنا التغيير يقول : غيِّروا سريرها إلى حال تنكره إذا رأته . [فتح القدير للشوكانى] وقال ابن الجوزى فى زاد المسير : للمفسرين فى كيفية تغييره ستة أقوال :

أحدها : أنه زِيدَ فيه ونقص منه ، رواه العوفى عن ابن عباس .

والثانى : أنهم جعلوا صفائح الذهب التى كانت عليه مكان صفائح الفضة .

والثالث : أنهم نزعوا ما عليه من فصوصه وجواهره .

الأقوال الثلاثة السابقة قالها ابن عباس .

الرابع : أنهم جعلوا ما كان منه أحمر أخضر ، وما كان أخضر أحمر . قاله مجاهد .

الخامس : أنهم جعلوا أسفله أعلاه ومُقدَّمه مؤخره وزادوا فيه ونقصوا منه . قاله قتادة .

السادس : أنهم جعلوا فيه تماثيل السمك . قاله أبو صالح .

وسألوها : ﴿أَهَكَذَا عَرْشُكِ ..(٤٢)﴾ [النمل] ؟ ﴿قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ .. (٤٢)﴾ [النمل] ولما انتهى الأمر بإسلامها قالت : ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٤)﴾ [النمل] فهى لم تُسلم خوفاً من سليمان ، ولا إرضاء له ، إنما أسلمتْ معه لله ، فأنا وهو سواء فى إسلام الوجه لله تعالى .

وعندنا فى مصر (شجر الدر)[1] ، وكان لها رأى سديد وحنكة سياسية مكنَّتها من تجاوز الأزمة لمَّا مات زوجها فأخفتْ نبأ موته ، وأدارت هى دفّة الحكم حتى لا تفُتّ فى عَضُد الجيش الذى كان خارج البلاد فى مهمة حربية (شجر الدر) هى التى أوصلتنا بالكعبة وهى التى كستْهَا ، وهى امرأة .

وهذه الأمثلة ليستْ فى تاريخ الإسلام فحسب ، إنما أيضاً فى الجاهلية وجدنا نساء بارزات لهُنَّ رأى وحكمة تفوق الرجال .

ويُروَى أن أُمامة[2] بنت الحارث بن عمر تزوجتْ من عوف بن مُحلِّم الشيبانى[3] وأنجبتْ له بنتاً اسمها أم أُناس ، وكانت جميلة ،

(١) هى أم خليل الملقبة بعصمة الدين ملكة مصر ، أصلها من جوارى الملك الصالح نجم الدين أيوب ، اشتراها فى أيام أبيه وحظيت عنده وولدت له ابنه خليلاً فأعتقها وتزوجها . كانت معه فى الشام مدة طويلة ، ثم لما انتقل إلى مصر ، كانت تدير أحياناً أمور الدولة ، كانت ذات عقل وحزم كاتبة قارئة ، أخفت وفاته وتوفيت عام ٦٥٥ هجرية . (الأعلام للزركلى ١٥٨/٣) .

(٢) هى : أمامة بنت الحارث الشيبانية ، فصيحة نبيلة جاهلية ، كانت زوجة عوف بن محلِّم الشيبانى (الأعلام للزركلى ١١/٢) .

(٣) من أشراف العرب فى الجاهلية ، كان مطاعاً فى قومه قوياً فى عصبيته وكانت تُضرب له قبة فى سوق عكاظ . توفى عام (٤٥ هـ / ٥٨٠م) (الأعلام للزركلى ٩٦/٥) . وكانت قبته لا يدخلها جائع إلا شبع ولا خائف إلا أمن . (كتاب المحبَّر)

تسامع العرب بجمالها وفصاحتها ، فأراد أنْ يتزوجها عمرو بن حُجْر أمير كندة ، وكان سيِّداً من سادات العرب .

فقال عمرو لصاحبه ابن سنان : أرأيتَ يا بن سنان لو أنِّى خطبتُ من أىِّ حَىٍّ من العرب أيردُّوننى ؟ قال : نعم ، أعرف مَنْ يردك ، قال : مَنْ ؟ قال : عوف بن مُحلِّم ، قال : فهيا نذهب إليه .

فلما ذهبا ودخلا عليه قال : مرحباً بك يا عمرو ، ماذا جاء بك ؟ قال : أتيتُكَ خاطباً ، قال له : ولكنك لستَ هنالك - يعنى : لستَ كُفؤاً لأنْ تتزوج ابنتى . سمعت امرأة عوف هذا الحوار فقالت له : يا عوف ما رجلٌ جاء إليك راكباً فلم يُطِلْ معك الكلام ؟

فقال : إنه عمرو بن حجر سيد من سادات العرب ، فقالت : ولماذا لم تستنزله ؟ يعنى : تستضيفه وتكرمه - قال : لأنه استهجننى ، قالت : بماذا ؟ قال : أتانى خاطباً ، قالت : إنْ كان سيداً من سادات العرب وجاءك خاطباً ، فمَنْ تُزوِّج بناتك إنْ لم تُزوِّجهن سادات العرب ؟ الحق به واسترضه .

لحق عوفٌ بعمرو وصاحبه ابن سنان وناداه : يا عمرو اربع علىَّ ولك عندى ما تحب ، فرجع عمرو وصاحبه ، فقال عوف : أتيتنى وأنا مُغْضَب وقلتُ لك ما قلتُ ، ولكن راجعتُ نفسى ، وأخذه إلى البيت .

وكان عند عوف ثلاث بنات : كبرى ووسطى وصغرى . فجاء إلى الكبرى . وقال لها : يا ابنتى إن عمرو بن حُجْر جاء يخطبك ، فقالت : لا يا أبى ، قال : لم ؟ قالت : إنِّى امرأة فىَّ ردة - يعنى فى وجهى شىء يردُّ الناظر إليها - وفى خُلُقى شدة ، والحارث ليس بجار لك

ولا أنا بنت عمه ، وأخشى إنْ حدث شيء منى أنْ يطلقنى فيصبح ذلك سُبَّة لى ، قال : قُومى بارك الله فيك .

ثم ذهب إلى الوسطى فقال لها ما قال لأختها ، فقالت : لا يا أبى إنِّى امرأة لستُ جميلة ولا صَنَاع[1] وأخشى أنْ يُطلِّقنى فيصبح ذلك سُبَّة لى .

فقال لها : قومى بارك الله فيك .

ثم جاء بالصغرى وقال لها مثل ما قال لأختيْها ، فقالت له : نعم يا أبى ، فأنا الحسنة خُلُقاً ، والجميلة خَلْقاً ، والصَّنَاع يداً ، فإنْ طلَّقنى فلا باركَ الله له ولا أخلف عليه .

فخرج عوف وقال لعمرو : زوَّجتُكَ ابنتى الصغرى بهيسة ، ثم أعدَّ له خباءً فى بيته ليدخل فيه على عروسه ، فلما دخل عليها قالت له : لقد كنتُ أحببتُك واحترمتُك ، لكنى الآن زهدتُ فيك ، قال : لم ؟ قالت : أيكون هذا عند أبى وبين إخوتى ، والله لا يكون أبداً .

فقال : إذن نرحل إلى ديارنا .

وأمر صاحبه ابن سنان أنْ يسير مع الركْب ، وتخلَّف هو فى جانب الطريق ودخل عليها ، فقالت : أهكذا كما يُفعل بالسَّبية الأخيذة ، والله لا يكون أبداً إلا حين تذهب إلى حَيِّكَ وتنحر وتذبح وتُطعم الناس ، وتصنع ما يصنع مثلُك لمثلى .

فلما وصل إلى حَيِّه ذبح الذبائح وأطعم الناس ، ثم أراد أنْ يدخل

(١) المرأة الصَّناع : أى الحاذقة الماهرة بعمل اليدين . وقال ابن السكيت : امرأة صناع إذا كانت رقيقة اليدين تُسوى الأشافى المثاقب وتخرز الدلاء وتفريها . [لسان العرب مادة : صنع] .

عليها ، فقالت : يا عمرو أترغب فى النسـاء وفى العرب حَيَّانِ يقتتلان ، اذهب فأصلح بينهما أولاً ، ثم لا يفوتك من أهلك شىء .

خرج عـمرو وأصلح بين الحـيَّيْن ودفع دِيَة القـتلى من الجانـبين ثلاثة آلاف بعيـر من ماله ، ثم عـاد إلى زوجتـه فلما علمتْ بمـا فعل قالت لـه : الآن يا حارث[١] . هذه أمـثلة من النساء اللاتى كـان لهُنَّ عقل راجح ورأى سديد وقدرة على الجدل .

ولما أراد عـمر خطبـة أم أُناس[٢] بنت عوف دعـا امرأة من كندة اسمـها عصام ، وقـال لها : اذهبى حتى تعـلمى لى عِلْمَ ابنة عوف ، فذهبتْ إلى بيت عوف وقـابلتْها أمامة ، وعـرفتْ منها سبب مجيـئها ، جعلتْ أُمامة لبنتها خيمة وقـالت : اجلسى فيها وستدخل عليك عصام فلا تستـرى عنها شيـئاً أرادت النظر إليه من وجه وخَلْق ، وناطقـيها فيما استنطقتك به ، لأنها جاءت لكذا وكذا .

دخلتْ عصام عـلى أم أُناس فوجدتها كمـا أرادتْ ، لم تُخْفِ عنها شيـئاً . فقالت : تَرَكَ الخـداع من كَشَفَ القناع[٣] ، فصـارت مـثلاً عند العرب حتى الآن .

---

(١) ذكر هذه القـصة بكاملها أبو الفـرج الأصبهانى فـى كتاب (الأغانى) ، وابن حـمدون فى (التذكرة الحمدونية) الباب الثالث فى الشرف والرياسة .

(٢) أم أُناس بنت عوف ، كان أبوها قد أراد أن يئدها ثم قال : دعها لعلها أن تلد أناساً فسُمِّيت أم أناس .

(٣) هذا المثل ذكره ابن عبد ربه فى (العقد الفريد) والزمخشرى فى (المستقصى فى أمثال العرب) ، وأبو حـاتم السجسـتانى فى (المعـمرون والوصايا) وأبـو هلال العسكرى فى (جمهرة الأمثال) ، والميدانى فى (مجمع الأمثال) .

فلما انتهت إلى عمرو قال لها : ما وراءك يا عصام ؟ قالت : أبدى المخض عن الزبد – يعنى : الرحلة جاءتْ بالنتيجة المرضية – فقال لها : ناطقينى ، قالت : أخبرك حقاً وصدقاً ، ثم أخذتْ تصف له أم أُناس (من ساسها لرأسها) ونكتفى هنا بوصف ما لا يحرم .

قالت : رأيتُ جبهة كالمرآة الصقيلة ، يُزينها شعر كأذناب الخيل المضفورة ، إن مشطته خلْتَه السلاسل ، وإنْ أرسلتْهُ قلتَ : عناقيد كَرْم جلاَها الوابل(١) ، تحتَه حاجبان مُتقوِّسان كأنما خُطَّا بقلم أو سُوِّدا بحمم ، قد تقوَّسا على عينى الظبية العبهرة(٢) التى لم يرعها قانص(٣) ، ولم يُفزعها قسورة(٤) .

بينهما أنف كحدِّ السيف المصقول لم يخنس به قصَر ، ولم يُمعن به طول ، حلَّقت به وجنتان كالأرجوان فى بياض محض كالجُمان ، فيه فم كالخاتم لذيذ المبتسم ، ذو ثنايا غُرّ ، وفيه لسان مُلىء بياناً ، يزينه شفتان حمراوان كأنهما الورد ، يجلبان ريقاً كالشهد ، وتحته عنق كإبريق الفضة اتصل به عضدان ممتلئان .. إلى آخر ما قالتْ عصام فى الوصف(٥) .

---

(١) عناقيد كرم جلاها الوابل : أى عناقيد عنب قد جلاها ماء المطر .

(٢) العبهرة : الممتلئة الجسم وجمعت الحسن والجسم والخلق . [لسان العرب – مادة : عبهر] . والعبهرة : المرأة الحسناء . (خزانة الأدب) لعبد القادر البغدادى .

(٣) القانص : الصائد . ولم يرعها قانص : أى لم يفزعها ، فعين الغزالة التى لم يفزعها صائد تجدها واسعة حالمة من الهدوء والدعة والراحة ، كذلك هذه المرأة .

(٤) القسورة : الأسد . وقيل : هم الرماة من الصيادين . وفى القرآن الكريم ﴿فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ۝٥١﴾ [المدثر] .

(٥) أورده ابن عبد ربه الأندلسى فى (العقد الفريد) فصل : صفات النساء وأخلاقهن . والمحب الدمشقى (ت ١٦٩٩ م) فى كتابه (خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر) والميدانى فى مجمع الأمثال (مثل ما وراءك يا عصام) والنويرى فى (نهاية الأرب فى فنون الأدب) حرف الميم : قولهم ما وراءك يا عصام .

وقبل أنْ تغادر أم أُناس بيت أبيها إلى بيت زوجها لم يَفُتْ أمامة بنت الحارث أنْ توصى ابنتها هذه الوصية الغالية التى تضمن لها السعادة الزوجية ، إنْ هى التزمت بها ، واسمع أمامة تقول[1] :

أىْ بُنيَّة .. إن الوصية لو تُركَتْ لفضل أدب تُركت لذلك منك ، ولكنها تذكرة للغافل ومعونة للعاقل ، ولو أن امرأة استغنتْ عن الزوج لِغنَى أبويها وشدَّة حاجتهما إليها كنتِ أغنى الناس عنه ، ولكن النساء للرجال خُلِقْنَ ، ولهُنَّ خُلِق الرجال .

أى بنية .. إنك مفارقة الجو الذى منه خرجتِ ، وخلفتِ العُشَّ الذى فيه درجْتِ ، إلى وكْر لم تعرفيه ، وقرين لم تألفيه ، فاحفظى له خصالاً عشراً يكُنْ لكِ ذُخراً :

أما الأولى والثانية : فالرضا له بالقناعة ، وحُسْن السمع له والطاعة . وأما الثالثة والرابعة : فالتفقُّد لمواقع عينيه وأنفه ، فلا تقع عينُه منكِ على قبيح ، ولا يشُمّ أنفه منكِ إلا أطيب ريح .

وأما الخامسة والسادسة : فالتفقد لوقت منامه وطعامه ، فإنَّ تواتُرَ الجوع مَلْهبة ، وتنغيص النوم مَغْضبة . وأما السابعة والثامنة : فالإحراز لماله ، والإرعاء على حَشَمه وعياله ، ومِلاك الأمر فى المال حُسْن التدبير وفى العيال حُسْن التقدير .

وأما التاسعة والعاشرة : فلا تَعصِينَّ له أمراً ، ولا تُفشِينَّ له سراً ، فإنك إنْ خالفت أمره أوغرتِ صدره ، وإن أفشيتِ سِرَّه لم تأمنى غدره .

---

(١) ذكر هذه الوصية الأبشيهى فى كتابه (المستطرف فى كل فن مستظرف) باب : ذكر النساء وصفاتهن - الفصل الأول .

ثم إياك والفرح بين يديه إنْ كان مُهتماً ، والكآبة بين يديه إنْ كان فَرحاً ..هذه نماذج من النساء صاحبات العقل الراجح والتفكير السديد . ولو أخذت الزوجاتُ بهذه النصيحة لكفَتْنا شراً كثيراً من الخلافات الزوجية التى نعانى منها اليوم .

﴿ وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا ۚ أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴿١٩﴾ ﴾

هذه دعوى أخرى من دعاواهم وافتراءاتهم على الله ، وتأتى هذه الآية بعد أنْ نسبوا إلى الله الولد ﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا ..﴿١٥﴾ ﴾ [الزخرف] ثانياً نسبوا إلى الله البنات واستأثروا لأنفسهم بالبنين ، وقد أوضح الحق سبحانه فساد معتقداتهم وردَّ عليهم بالحجة وبالدليل من واقعهم المعاش .

وهنا يصفون الملائكة الذين هم عباد الرحمن بالأنوثة وهذا افتراء آخر ، يردّ الله عليهم ﴿ أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ ..﴿١٩﴾ ﴾ [الزخرف] يعنى : كيف يحكمون هذا الحكم على الملائكة ، أشهدوا خلق الملائكة وعلموا أنهم إناث ، ثم يهددهم ﴿ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ [الزخرف] ستُكتب وتُسجَّل عليهم ويُسألون عنها يوم القيامة ، ويُحاسبون على كل هذه الافتراءات .

وفى موضع آخر يقول سبحانه ﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ ﴾ [الكهف]

وجاء الواقع ليثبت صدق هذه الآية ، ورأينا المضلين فى كل زمان يُضلون الناس ويصرفونهم عن الحق ، بدايةً من الذين نسبوا لله الولد ، ونسبوا لله البنات ، ووصفوا الملائكة بأنهم إناثٌ إلى الذين

قالوا بأن الإنسان أصله قرد وتطور .

ونسأل كل هؤلاء : أشهدتُم خلق الله ؟ الله الخالق يقول : ﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ (٥١) ﴾ [الكهف] إذن : لا تُصدِّقوا هؤلاء فهم كذابون ومُضلون ، وقد سخرهم الله تعالى لخدمة الحق ، وجعلهم دليلاً على صدق كلامه .

ومن هؤلاء المضلين قوم أنكروا سنة رسول الله ﷺ وقالوا : نأخذ بما فى القرآن فقط ولا نعترف بالسنة ، وقد جاءت هذه الجماعة دليلاً على صدق سيدنا رسول الله الذى أخبر بمجيئهم قبل أربعة عشر قرناً ، فقال ﷺ :

« يوشك رجل منكم يتكىء على أريكته يقول : بيننا وبينكم كتاب الله فما وجدنا فيه من حلال حللناه ، وما وجدنا فيه من حرام حرَّمناه ، ألاَ وإنَّ ما قال رسول الله كما قال الله »[1] .

﴿ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم[2] مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (٢٠) ﴾

هذه دعوى أخرى من دعاواهم وافتراءاتهم على الله ، لذلك يرد الله

(١) عن المقدام بن معد يكرب أن رسول الله ﷺ قال : « يوشك الرجل يتكىء على أريكته يُحدَّث بحديثى فيقول : بينى وبينكم كتاب الله ، فما وجدنا فيه حلالاً استحللناه وما كان فيه حراماً حرمناه ، وإن ما حرم رسول الله ﷺ كما حرم الله » . أخرجه أحمد فى مسنده (٤/١٣٢) والترمذى (٢٦٦٤) وابن ماجه (١٢) والدارقطنى (٤/٢٨٦) فى سننهم ، واللفظ للدارقطنى .

(٢) علَّقوا كفرهم وشركهم على أنه مشيئة الله وقدره ، ولو أراد الله ما عبدنا ما عبدنا . وهى دعوى باطلة صحيح أنه لا يحدث شىء فى كونه إلا بعلمه ولكنه لا يريد لعباده الكفر ولا يرضاه لهم .

عليهم بأن هذا الكلام كذب وافتراء تقولونه دون وعى ودون علم ﴿ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ[(١)] ٢٠ ﴾ [الزخرف] يعنى : ما هم إلا يكذبون فى هذا الادعاء .

﴿ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ٢١ ﴾

لماذا يفعلون هذا ؟ هل جاءهم بذلك رسول يقول لهم هذا الكلام ، أو يجيز لهم أنْ يعبدوا الأصنام ﴿ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ٢١ ﴾ [الزخرف] يعنى : بقوة .

﴿ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ٢٢ ﴾

إذن : القضية قضية تقليد أعمى دون تفكير أو تأويل ، فقالوا ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ ٢٢ ﴾ [الزخرف] يعنى : على دين أو على ملَّة أو طريقة مقصودة من الفعل (أمَّ) يعنى : قصد ﴿ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم ٢٢ ﴾ [الزخرف] على طريقتهم ﴿ مُّهْتَدُونَ ٢٢ ﴾ [الزخرف] يعنى : هذه الطريقة هى التى تدلنا وتهدينا .

والقرآن الكريم تناول هذه القضية بتفصيل فى مواضع أخرى ، ففى آية قال سبحانه : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ ١٧٠ ﴾ [البقرة]

---

(١) يخرصون : يكذبون . والخرَّاص : الكذاب . [القاموس القويم ١/١٩١] . والخرْص : الحزْر والحدْس والتخمين بما لا علم لهم به .

وفى آية أخرى قال سبحانه : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ (١٠٤) ﴾ [المائدة]

وتأمل دقة الأداء القرآنى فى هاتين الآيتين ، وكيف خُتمت كل آية بما يناسبها ، أولاً تجد أن المعنى العام للآيتين واحد ، لكنهم فى الأولى قالوا : ﴿ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا (١٧٠) ﴾ [البقرة] وفى الأخرى قالوا : ﴿ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا (١٠٤) ﴾ [المائدة]

فاستخدموا أسلوب القصر والحصر ، وقصروا عبادتهم على ما وجدوا عليه الآباء ، فالإعراض فى هذه أقوى من الأولى ، لذلك جاء ذيل الآية بما يناسب إعراضهم .

ففى الأولى قال تعالى رداً عليهم بهذا الاستفهام التعجبى ﴿ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ (١٧٠) ﴾ [البقرة] وقال فى الأخرى : ﴿ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ (١٠٤) ﴾ [المائدة] فما الفرق بين ﴿ لا يَعْقِلُونَ (١٧٠) ﴾ [البقرة] و ﴿ لا يَعْلَمُونَ (١٠٤) ﴾ [المائدة] ؟ يعقلون يعنى : هو الذى يستنبط المسائل بنفسه وبعقله ، أمَّا يعلمون . أى : لا يقدر على الاستنباط إنما يعلم من استنباط غيره .

﴿ وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا(١) إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ (٢٣) ﴾

---

(١) الترف : التنعُّم . والمترفون : المتنعمون المتمادون فى الترف فأدى إلى طغيانهم وبطرهم . [القاموس القويم ١/٩٩ بتصرف] .

قوله تعالى : ﴿مِّن نَّذِيرٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الزخرف] يعنى : من رسول ، فما من رسول أُرسل إلا وُوجه بهذا التكذيب وبهذا العناد ﴿إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا ﴿٢٣﴾﴾ [الزخرف] المترفون هم المنعَّمون المنغَمسون فى الشهوات ، فهم دائماً قادة الكفر وقادة التكذيب للرسل ﴿عَلَىٰ أُمَّةٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الزخرف] على ملَّة أو على طريقة ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الزخرف] يعنى : سائرون وسالكون نفس طريقتهم .

﴿قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾﴾

هذا يدل على تصميمهم على الإعراض وتمسكهم بالضلال الذى هم عليه وآباؤهم .

﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾﴾

لأن هذه سُنة الله فى الرسل وفى كل مُكذِّب للرسل ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات]

ثم يأتى الحق سبحانه بما يفسد عملية التقليد هذه ويبطلها ويُبيِّن كذبهم فيها ، فيقول تعالى :

﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ﴿٢٦﴾﴾

يريد الحق سبحانه أنْ يكشف زيفهم ويفضح كذبهم فى قولهم ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا (١٧٠)﴾ [البقرة] ويسوق لهم الدليل الواقعى من واقع حياتهم ، فها هو سيدنا إبراهيم الخليل أبو الأنبياء ومحطّ أنظار العرب جميعاً يُقدِّسونه ويفتخرون بالانتساب إليه .

يقولون : نحن من نسل إبراهيم ، وإبراهيم لم يُقلِّد أباه فى عبادته للأصنام ، فلماذا تُقلدون أنتم آباءكم ولم تقلدوا إبراهيم ؟

فالحق سبحانه ينقض مسألة التقليد عملياً فى قصة سيدنا إبراهيم وينقضها فلسفياً أيضاً ، فلو تتبعتَ الوجود الأول لم نجد إلا آدم عليه السلام ، وآدم جاء بمنهج وسار عليه وسار عليه أولاده من بعده ، فكيف حدث الانحراف عن هذا المنهج ؟

إذن : لا بدَّ أنه جاء مع مرور الزمان أُناسٌ خرجوا على المنهج وقلبوا الحقائق لهوىً فى أنفسهم ، ومن هؤلاء جاء جيل يعبد الأصنام ، لأنهم غير محكومين بمنهج السماء ولا بقضية التكاليف : افعل ولا تفعل ، فناسبهم عبادة آلهة لا تكليفَ عندها ، لذلك عبدوا الأصنام .

قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ (٢٦)﴾ [الزخرف] دار حولها جدلٌ واسع بين العلماء[1] : أهو أبوه الحقيقى أو هو عمه آزر ؟

---

(١) قال الألوسى فى تفسيره (روح المعانى) [الأنعام - ٧٤] : « أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس أن اسم أبى إبراهيم يازر واسم أمه مثلى . وإلى كون آزر ليس اسماً له ذهب مجاهد وسعيد بن المسيب وغيرهما . واختلف الذاهبون إلى ذلك فمنهم من قال : إن آزر لقب لأبيه . ومنهم من قال : اسم جده . ومنهم من قال : اسم عمه والعم والجد يُسميان أباً مجازاً . ومنهم من قال : هو اسم صنم . ومنهم من قال : هو وصف فى لغتهم ومعناه المخطىء أو الأعوج أو الشيخ الهرم » .

المتتبع لكلمة (أبيه) فى القرآن يجد أنها وردت ثمانى مرات ، أولها فى سورة الأنعام ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ (٧٤) ﴾ [الأنعام] وآخرها فى سورة الممتحنة ، ولم تأت كلمة (لأبيه) بعد ذلك إلا مرة واحدة فى قصة سيدنا يوسف ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ (٤) ﴾ [يوسف]

إذن : لم تأت آزر إلا فى آية الأنعام فقط ، وهى أول الآيات الثمانية ، فكأن الحق سبحانه حسم الخلاف فى هذه المسألة ، فأراد أنْ يُبيِّن لنا أن آزر عمه ، بدليل أنه قال ﴿ لأَبِيهِ آزَرَ (٧٤) ﴾ [الأنعام] وفى باقى المواضع قال (لأبيه) أى : الذى عرفتموه أولاً . أى : فى سورة الأنعام .

وهذا أمر شائع فى لغتنا أن نقول للعم أب ، فحين يسأل رجل : أبوك موجود ؟ تفهم أنه يريد الأب الحقيقى ، إنما لو قال لك : أبوك محمد موجود ؟ فهو يقصد عمك لأنه حدَّده بالعَلَم بعد الوصف .

والقرآن يُدخل العَمَّ ضمن الآباء فى قوله تعالى : ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِى قَالُوا نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ (١٣٣) ﴾ [البقرة]

فكلمة ﴿ آبَائِكَ (١٣٣) ﴾ [البقرة] جمع يشمل إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ، وإذا اجتمع جمع فى حكم جمع تكون القسمة مفردة ، فتأخذ أب هو إبراهيم ، وأب هو إسماعيل ، وأب هو إسحاق ، فهؤلاء الثلاثة آباء ليعقوب ، وإسماعيل أخو إسحاق ، وإنْ كان إسماعيل هو الأب إذن إسحاق ليس أباً ، بل هو عَمّ . إذن : سُمِّىَ العَمُّ أباً .

لذلك الحق سبحانه فى أول آية تتكلم عن سيدنا إبراهيم ذكر ﴿ لأَبِيهِ آزَرَ (٧٤) ﴾ [الأنعام] ليُبيِّن أن آزر الذى جادله إبراهيم وناقشه

فى مسألة التوحيد ليس أبا إبراهيم الحقيقى ، إنما هو عمه .

ونجد دليلاً على ذلك من سنة سيدنا رسول الله ﷺ حيث قال فى الحديث عن أصله ﷺ : « ما زلتُ أنتقل من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات ، فأنا خيارٌ من خيار »(١) .

وسلسلة النسب النبوى تصل إلى أبيه إبراهيم ، فلا يصح إذن أنْ يكون أبو إبراهيم كافراً عابداً للأصنام .

وقوله : ﴿إِنَّنِى بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦)﴾ [الزخرف] براء بمعنى برىء ، والفرق بينهما أن براء تُقَال للمفرد وللمثنى وللجمع ، وللمذكر والمؤنث ، أما برىء فتُثنَّى وتُجمع ، وتُذكَّر وتُؤنَّث ، وفى موضع آخر وصفهم بالعدو : ﴿فَإِنَّهُمْ (٧٧)﴾ [الشعراء] أى : الأصنام ﴿عَدُوٌّ لِّى إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧)﴾ [الشعراء] فما دام فى المسألة شِرْك أو كفر بالله فأنا أتبرأ منه .

﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ۝٢٧﴾

معنى : ﴿فَطَرَنِى (٢٧)﴾ [الزخرف] خلقنى وأبدعنى ﴿فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (٢٧)﴾ [الزخرف] دلَّتْ على أن المنهج لا بدَّ أن يكون من الذى خلق ، فهو الذى يضع المنهج ، وهو الذى يهدى ، ولا يصح أن الله يخلق والناس تضع المنهج .

كما قلنا فى مسألة الصانع الذى يضع (كتالوج) لصيانة

---

(١) هذا الحديث بهذا اللفظ ذكرته معظم كتب التفسير ولم يذكروا له سنداً أو راوياً أو من أخرجه ولم يعزه أحد منهم إلى أى كتاب . ولكن ورد عند ابن عساكر فى تهذيب تاريخ دمشق (٢٧٨/١) عن أنس قال : قرأ رسول الله ﷺ ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة] بفتح الفاء وقال : « أنا أنفسكم نسباً وصهراً وحسباً ليس فى آبائى من لدن آدم سفاح ، كلنا نكاح ».

صَنْعته لأنه الأدْرى بها الخبير بما يُصلحها .

هنا قال : ﴿ فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (٢٧) ﴾ [الزخرف] بالسين الدالة على الاستقبال ، وفى موضع آخر قال ﴿ فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) ﴾ [الزخرف] بالمضارع ، وهذا يدل على الهداية من الله متصلة فى الحاضر والمستقبل .

ولأن الهداية والمنهج لا يكون إلا من الذى خلق ؛ استخدم أسلوب القصر : ﴿ فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (٢٧) ﴾ [الزخرف] وفى آية الشعراء ﴿ الَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) ﴾ [الشعراء]

فقدَّم الضمير المنفصل على الفعل ، ليدل على قَصْر الفعل على الله تعالى ، لأن هذه الأفعال بها شُبْهة المشاركة مع الله تعالى ، أما فى الأفعال التى لله وحده لا شبهةَ للمشاركة فيها ، فتأتى بدون قَصْر : ﴿ وَالَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) ﴾ [الشعراء]

﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٨) ﴾[(1)]

قوله تعالى ﴿ وَجَعَلَهَا (٢٨) ﴾ [الزخرف] أى سيدنا إبراهيم جعل كلمة البراءة من الشرك ، أو كلمة التوحيد التى وردتْ فى قوله تعالى : ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِىَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٣٢) ﴾ [البقرة]

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٩/٦١٢٢) أن الضمير فى (جعلها) عائد على قوله ﴿ إِلَّا الَّذِى فَطَرَنِى .. (٢٧) ﴾ [الزخرف] . وضمير الفاعل فى (جعلها) لله عز وجل ، أى : وجعل الله هذه الكلمة والمقالة باقية فى عقبه وهم ولده وولد ولده . أى : أنهم توارثوا البراءة عن عبادة غير الله .

جعل هذه الكلمة ﴿ بَاقِيَةً (٢٨) ﴾ [الزخرف] سائرة ﴿ فِى عَقِبِهِ (٢٨) ﴾ [الزخرف] فى ذريته من بعده ، وما زالت هذه الكلمةُ باقيةً ودائرة على ألسنة الناس حتى يوم القيامة ، لأنها كلمةٌ طيبة ، والكلمة الطيبة ضَمنَ الحق سبحانه لها البقاء فى قوله تعالى : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِى أُكُلَهَا (١) كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا (٢٥) ﴾ [إبراهيم]

وسماها كلمة مع أنها كلام ، لأن الكلمة فى اللغة تُطلق على الكلام ، كما نقول : ألقى فلانٌ كلمة فى الحفل ، وابنُ مالك فى الألفية يقول :

وكِلْمَةٌ بِهَا كَلاَمٌ قَدْ يُؤَمّ .

يعنى : نقصد بالكلمة الكلام الكثير .

﴿ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰؤُلَاءِ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ (٢٩) وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ (٣٠) ﴾

قلنا : إن المنهج ينطمس وينصرف الناسُ عنه بمرور الزمن حتى تدعوَ الحاجةُ لنبى جديد يُعيد الناس إلى الجادَّة ، لأن الحق سبحانه خلق فى النفس البشرية مناعة طبيعية لأنه خليفة الله فى أرضه ، فهو الذى سيعمر هذه الأرض ، فلا بدَّ أن يُوفر له أسباب الاستقامة

---

(١) الأُكل : ما يُؤكل أو الثمر الصالح للأكل . [القاموس القويم ١/٢٣] والأكل : ثمر النخل والشجر ، وكل ما يُؤكل فهو أُكل . [لسان العرب مادة : أكل] .

والحركة الإيجابية التى يعمر بها الأرض .

لذلك نرى الإنسان السَّوى حينما يفعل المعصية حين غفلة منه عن منهج ربه يُسرع بالتوبة والندم ، لأن الاستقامة وبذرة الإيمان فى ذاته ، فإذا أصيب المرْءُ فى ذاته وفقد هذه المناعة تأتى المناعة من المجتمع ، المجتمع الواعى المدرك لدوره الجماعى فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فإذا فقد المجتمع هو الآخر هذه المناعةَ لم يَبْق إلا أن تتدخَّل السماء برسول جديد ومنهج جديد .

إذن : حدث الانصرافُ عن المنهج بعد إبراهيم وإسماعيل ، فكانت رسالة محمد ﷺ ، فسيدنا إبراهيم جعل كلمة التوحيد باقية فى عقبه ﴿ لَعَلَّهُمْ (٢٨) ﴾ [الزخرف] أى : ذريته من بعده ﴿ يَرْجِعُونَ (٢٨) ﴾ [الزخرف] أى : إلى الله .

لكن لم يحدث ، فقال سبحانه : ﴿ بَلْ مَتَّعْتُ هَـٰؤُلاءِ (٢٩) ﴾ [الزخرف] أى : كفار مكة ﴿ وَآبَاءَهُمْ (٢٩) ﴾ [الزخرف] بالجاه والسلطان والنعيم والأمن ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ (٦٧) ﴾ [العنكبوت] وجعل لهم منزلة وقداسة بين العرب لمكانتهم من البيت ، وظلَّتْ لهم هذه المنزلة ﴿ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ (٢٩) ﴾ [الزخرف] أى : القرآن ﴿ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ (٢٩) ﴾ [الزخرف] أى : محمد ﷺ و ﴿ مُّبِينٌ (٢٩) ﴾ [الزخرف] يعنى : يظهر الحقَّ على يديه وفى كل شىء فيه .

لكن هل آمنوا بهذا الحق ، وصدَّقوا بهذا الرسول ؟ لا ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَـٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ (٣٠) ﴾ [الزخرف] أى : أن القرآن سحرٌ يَسحر مَن استمعه ، وفى موضع آخر قالوا عن الرسول أنه ساحر .

وقلنا : إن الرد على هذا الافتراء سهلٌ ، فلو كان القرآن سحراً ولو كان محمدًا ساحراً سحر المؤمنين به ، فلماذا لم يسحركم أنتم أيضاً ، وتنتهى المسألة ؟ إذن : وجودكم على الكفر دليلُ صدق محمد ، وأنه نبى ليس بساحر .

ولما لم تفلح هذه الشبهة قالوا : ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [النحل] أى : أن رسول الله يختلف إلى رجل فارسى [1] يُعلِّمه القرآن ، فرد الله عليهم ﴿لِّسَانُ الَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [النحل]

فقالوا عنه ﷺ : مجنون ، فردَّ الله عليهم : ﴿مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [القلم] والمجنون لا يكون صاحب خُلُق عظيم ، لأن الخُلُقَ يضبط سلوك صاحبه .

فلما أبطل الحق سبحانه دعاواهم وافتراءاتهم وردّ عليهم بما يُظهر غباءهم قالوا :

---

(١) ذكر ابن الجوزى فى زاد المسير (تفسير آية ١٠٣ النحل) تسعة أقوال فيمن ادعوا أنه كان يُعلم رسول الله :
- غلام لبنى المغيرة يقال له « يعيش » يقرأ التوراة . ويقال : كان رومياً .
- فتى كان بمكة يسمى «بلعام» وكان نصرانياً أعجمياً .
- أنه نزلت فى كاتب كان يكتب لرسول الله .
- أنه غلام أعجمى لامرأة من قريش يقال له « جابر » وكان جابر يأتى رسول الله فيتعلم منه فقال المشركون : إنما يتعلم محمد من هذا .
- أنهم عنوا به سلمان الفارسى . وفيه بُعْد من جهة أن سلمان أسلم بالمدينة وهذه الآية مكية.
- أنهم عنوا به رجلاً حداداً كان يقال له « بُحنَّس » النصرانى .
- أنهم عنوا به غلاماً لعامر بن الحضرمى وكان يهودياً أعجمياً واسمه يسار ويكنى أبو فكيهة.
- أنهم عنوا غلاماً أعجمياً اسمه « عايش » وكان مملوكاً لحويطب وكان قد أسلم . قاله الفراء والزجاج .
- أنهما رجلان يقال لأحدهما « يسار » وللآخر « جبر » وكانا يصنعان السيوف بمكة ويقرآن الإنجيل .

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) ﴾(١)

وهذا إقرار منهم بأن القرآن حَقّ ولا اعتراضَ عليه ، إنما اعتراضهم على شخص رسول الله ، وأنه من أوسط الناس وليس عظيماً من عظمائهم ، ولا سيداً من ساداتهم فى القريتين أى : مكة والطائف . وقد كان فى الطائف عروة بن مسعود الثقفى ، وفى مكة الوليد بن المغيرة وغيرهم . فردَّ الله عليهم :

﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا(٢) بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٣٢) ﴾

يعنى : إذا كنا قسمنا بينهم أبسط الأشياء وهى معايشهم فى الدنيا أيريدون هم أنْ يقسموا رحمة الله وفضل الله حسْب أهوائهم ، ورحمة الله يختصُّ بها مَنْ يشاء من عباده ، فهى فى يده سبحانه لا دخْلَ لأحد فى توزيعها .

---

(١) رُوى أن الوليد بن المغيرة - وكان يسمى ريحانة قريش - كان يقول : لو كان ما يقوله محمد حقاً لنزل علىَّ أو على أبى مسعود (يقصد عروة بن مسعود الثقفى من الطائف) . [تفسير القرطبى ٩/٦١٢٨] .

(٢) قال قتادة : تلقاه ضعيف القوة قليل الحيلة عيى اللسان وهو مبسوط له ، وتلقاه شديد الحيلة بسيط اللسان وهو مُقتّر عليه . [ذكره القرطبى فى تفسيره ٩/٦١٢٨] .

فقوله تعالى ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ (٣٢)﴾ [الزخرف] دلَّ على عجز الإنسان ، وأن حركة الحياة لا تنصلح إلا بمنهج الله الذى ينظمها .

ومن حكمة هذه القسمة أنْ جعل بعضَ الناس أغنياء وبعضهم فقراء ، بعضهم سادةٌ وبعضهم خَدَم ، ولولا هذه القسمة ما استقامتْ حركة المجتمع وما وجدنا مَنْ يقوم بالأعمال الشاقة أو الأعمال الحقيرة .

وسبق أنْ أوضحنا أن حركة المجتمع وتقدمه لا يقوم على التفضُّل ، إنما على الحاجة ، فحاجة الفقير هى التى تدفعه للعمل .

والرحمة المرادة هنا ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ (٣٢)﴾ [الزخرف] هى النبوة ، فهم يطمعون فى أنْ يجعلوها اختياراً يختارونه من ساداتهم وكبراء القوم فيهم ، فالحق سبحانه يُصحِّح لهم ويقول : كيف تطمعون فى ذلك وأنتم لا تقدرون على قسمة أبسط الأشياء ؟

ثم تلاحظ أن كلمة ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ (٣٢)﴾ [الزخرف] كلمة مبهمة تعنى أن الكلّ مرفوع ومرفوع عليه ، مرفوع فى شىء ، ومرفوع عليه فى شىء آخر .

وهكذا يتكامل الخَلق ، وتتم المصالح ، وتُقضى حاجات المجتمع كما قال الشاعر :

النَّاسُ للناسِ مِنْ بَدْوٍ وحَاضِرةٍ ... بَعْضٌ لبعْضٍ بمَا لاَ يعلموا خَدَمُ

فأنت مرفوع فيما تُحسنه من الأعمال ، ومرفوع عليك فيما لا تجيده ، هذا معنى قوله تعالى ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا (٣٢)﴾ [الزخرف]

﴿ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٣٢) ﴾ [الزخرف] المراد برحمة ربك هنا الرسالة والمنهج الذى يهدى الخَلْق إلى طريق الحق ، هذه الرحمة فى الحقيقة خيرٌ من هذا المتاع الزائل الذى تتنافسون عليه فى الدنيا ، لأن الإنسان مهما وصل فى الدنيا إلى الرفاهية والترف والنعيم فسوف يموت ويتركه ولن يبقى له منه شىء .

أما منهج الله فيُورثك فوزاً باقياً تسعد به فى الدنيا وتفوز به فى الآخرة . إذن : هو خير وهو أبْقى ، وهو أنفع لك وأدوم ، هذا المنهج يضمن لك صلاحَ الدنيا وسلامة الآخرة ؛ لذلك كان هو ﴿ خَيْرٌ (٣٢) ﴾ [الزخرف] من كل ما تراه من بريق الدنيا .

ثم يتكلم الحق سبحانه عن الكافرين الذين ملكوا الدنيا ، وأخذوا كل مظاهر الزينة والترف والنعيم ، وتحكموا حتى فى قوت ومصائر المسلمين ، وبيَّن أن هذا الزخرف شكلٌ ظاهرى زائل ، والعاقبة لا بدَّ أنْ تكون لأهل الإيمان فى النهاية :

﴿ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ[1] عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (٣٣) وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ (٣٤) وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ (٣٥) ﴾

---

(١) معارج : جمع معراج ، ومعنى ﴿ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (٣٣) ﴾ [الزخرف] أى : يركبونها ويصعدون فيها إلى أعلى وقد تحقق ذلك بالمصاعد الكهربية فى البيوت العالية . [القاموس القويم ٢/١٣] .

معنى ﴿ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴿٣٣﴾ ﴾ [الزخرف] يعنى : على دين واحد مجتمعين على الكفر ، ولولا أن الناس يرونْ الكافرين مُنعَّمين فيفتنون بهم لجعلتُ لهم كلَّ هذا النعيم ، بحيث لا يكون أحدٌ أفضلَ منهم لأن هذا النعيم نعيم الدنيا ينتهى بنهايتها ولا يدوم ، وإنْ كانت الدنيا لحساب الكافرين فالآخرة للمتقين .

والقرآن هنا يخبر بارتقاءات البشر التى عرفوها بعد أربعة عشر قرناً من نزول القرآن ، فالمعارج يعنى : المصاعد أو السلالم التى يُصعد عليها ﴿ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الزخرف] يعنى : يصعدون ويرتقون .

فكأن الحق سبحانه يُهوِّن من أمر تنعُّم الكافرين ، حتى لا نغتر نحن بهم ، ولا نتمنى ما هم فيه من زخرف زائل .

وبعد ذلك يُبيِّن لنا أن المنعَّمين والمترفين يأتى عليهم وقت يحبون فيه الرجوع إلى الأصل الأول وإلى بساطة الطبيعة ، فتراهم مثلاً فى نهاية الأسبوع يخرجون إلى الخلاء ويرتمون فى أحضان الطبيعة يأكلون مما تنبت الأرض ويعيشون على الكفاف ، لماذا ؟ لأنهم ملُّوا حياة الرفاهية الزائدة ، ملُّوا حياة التحضر وما فيها من عيوب وسلبيات .

﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ ﴾

معنى : ﴿ يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الزخرف] يعنى : يُعرض

عنه أو يتعامى ويغفل عنه ، ولأنه غفل عن شيء هام لا ينبغى أن يغفل عنه أو يعرض يعاقبه الله ﴿ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا (٣٦) ﴾ [الزخرف] نعد له شيطاناً ونهيء له شيطاناً ﴿فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (٣٦) ﴾ [الزخرف] يعنى : ملازم له يضله ويوسوس له .

قلنا : لأن الحق سبحانه الغنى عن خَلْقه ، وهو ربّ المؤمن وربّ الكافر ، لذلك يُعين كلاً على ما يريد ، فمَنْ أراد الهداية أعانه عليها وزاده منها ، ومَنْ أراد الكفر ختم على قلبه بحيث لا يدخله إيمان ولا يخرج منه الكفر ، لذلك أتَى هنا بصفة (الرحمن) .

لذلك أكثر ما يجيء الشيطان للإنسان وقت الصلاة ليفسد عليه علاقته بربه ، قلنا : إنه يأتى المسجد ولا يأتى الخمارة ، لذلك قال كما حكى عنه القرآن : ﴿لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ﴾ [الأعراف]

ذكرنا قصة الرجل الذى وضع مالاً فى مكان ما ، ثم نسيه ، فقال له صديقه : اذهب إلى أبى حنيفة[1] فعنده مَخْرج لكل المسائل ، لأننى ذهبتُ إليه استفتيتُه فى طلاق زوجتى لأننى قلت لها وهى على السُّلم : أنت طالق إنْ نزلت ، وطالق إنْ صعدت ، فقال له أبو حنيفة : قُلْ لها تُلقى بنفسها من على السُّلم .

المهم ذهب صاحبنا إلى أبى حنيفة وقال له : لقد وضعتُ مالاً فى مكان كذا ، ونسيتُ موضعه ، فماذا أفعل ؟ قال أبو حنيفة : ليس

---

(١) أبو حنيفة إمام الحنفية هو النعمان بن ثابت فقيه مجتهد محقق ، أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة ، قيل : أصله من فارس ، كان يبيع الخز ويطلب العلم فى صباه ولد ٨٠ هجرية وتوفى ببغداد عام ١٥٠ هجرية عن ٧١ عاماً .

فى هذا علم ، لكنّى سأحتال لك : إذا جاء الليل اذهب وصلِّ لله ركعتين لأن رسول الله ﷺ كان إذا حزبه أمر يُهرع إلى الصلاة(١) .

وفعلاً ذهب الرجل ، وهو فى صلاته جاءه الشيطان يُوسوس إليه بمكان المال حتى ذكَّره به ، وفى الصباح قابل الرجلُ أبا حنيفة وقصَّ عليه ما حدث ، فضحك أبو حنيفة وقال : والله لقد علمتُ أنه لنْ يدعك تُتم ليلتك مع ربك ، فهلا أتممتها شُكراً لله ؟ قال : سأفعل إن شاء الله .

﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

أى : هؤلاء القرناء قرناء السوء ﴿ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الزخرف] يعنى : يصرفونهم ويمنعونهم عن الحق وعن الطريق المستقيم ﴿ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الزخرف]

لذلك قال فى موضع آخر : ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً ﴿٢٧﴾ يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلاً ﴿٢٨﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً ﴿٢٩﴾ ﴾ [الفرقان]

وقرناء السوء قرناء فى الدنيا فحسب ، أما فى الآخرة فسيكونون أعداء ، يلوم كلٌّ منهم صاحبه ﴿ الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٥/٣٨٨) وأبو داود فى سننه (١٣١٩) من حديث حذيفة رضى الله عنه . وحزبه الأمر يحزبه : نابه واشتد عليه . وأمر حازب : شديد . والمقصود إذا نزل به أمر شديد أو أصابه غم .

الْمُتَّقِينَ (٦٧) ﴾ [الزخرف]

كذلك الشيطان سيتبرأ من أتباعه ويخذلهم فى الآخرة : ﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم (٢٢) ﴾ [إبراهيم]

وقد علَّمنا ربنا سبحانه وتعالى كيف نتحصَّن من الشيطان ، فقال : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ (٢٠٠) ﴾ [الأعراف]

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ (٣٨) ﴾

قوله تعالى : ﴿ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ (٣٨) ﴾ [الزخرف] بُعْد المشرق من المغرب ، وهذا الأسلوب يُسمَّى فى اللغة (التغليب) ، لأن المشرق يقابله المغرب ، والعرب فى المتقابلات تُغلب أحدهما على الآخر ، كما يقولون مثلاً فى الشيخين أبى بكر وعمر يقولون (العمرين).

وحينما نتامل فى المشرق والمغرب من الناحية الفلكية الجغرافية نجد أن المشرق مغرب آخرين ، والمغرب مشرق آخرين ، إذن : كلاهما مشرق ، وكلاهما مغرب .

﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (٣٩) ﴾

لأن هذه بلوى عامة تشمل الجميع ، فالبلوى حينما تصيب رجلاً

واحداً من بين الناس يعز عليه ذلك ، ويشق عليه أن يحزن والآخرون سعداء ، لكن لمَّا تعمُّ البَلْوى تهون ويخفّ وَطْؤها على الجماعة لمشاعر المشاركة ، حتى ولو كانت المشاركة فى الحزن .

وهذا المعنى عبَّرتْ عنه الخنساء[1] فى رثائها لأخيها صخر حين قالت :

وَلَوْلاَ كَثْرَةُ البَاكِينَ حَوْلى　　عَلَى إخْوانهِمْ لَقَتلْتُ نَفْسى
وَمَا يَبْكُونَ مِثْلَ أخِى وَلكِنْ　　أُعَزِّى النَّفْسَ عَنْهُ بِالتَّأسِّى[2]

وقال آخر :

وَهوَّنَ فجَعاتِ المصَائِب أنَّنى　　وإنْ هَصرَتْنى لَسْتُ فى مُرِّهَا وَحْدِى

نعم ، إذا عمَّتْ المصائب هانتْ ، لكن هذا فى مصائب الدنيا ، أما مصيبة الآخرة فلا تهون ولا تُخفَّف ﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ (٣٩) ﴾ [الزخرف] أى : يوم القيامة ﴿ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (٣٩) ﴾ [الزخرف]

﴿ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ ﴾

---

(١) الخنساء : هى تماضر بنت عمرو بن الحارث من بنى سليم من أهل نجد ، عاشت أكثر عمرها فى الجاهلية أدركت الإسلام فأسلمت ووفدت على رسول الله ، أكثر شعرها وأجوده رثاؤها لأخويها صخر ومعاوية ، كان لها أربعة بنين شهدوا حرب القادسية (عام ١٦ هجرية) فجعلت تحرضهم على الثبات حتى قتلوا جميعاً فقالت : الحمد لله الذى شرَّفنى بقتلهم ، توفيت ٢٤ هجرية (الأعلام للزركلى) .

(٢) البيتان من قصيدة للخنساء من بحر الوافر عدد أبياتها ١٥ بيتاً . وهى قالت البيت الأول ثم تخيلت أن قائلاً قال لها : لقد ساويت أخاك بالهالكين من إخوان الناس ، فكيف أفرطت فى الجزع عليهم دونهم ؟ فاحترست من ذلك بقولها : وما يبكون مثل أخى ولكن أعزى النفس عنه بالتأسى .

المعنى - والخطاب هنا لسيدنا رسول الله ﷺ - وفِّر نفسك يا محمد ، ولا تُجهدها ولا تُحملها مَا لا تُطيق فى سبيل هداية هؤلاء .

ووصفهم بالصمم وبالعمى مع أنهم فى واقع الأمر يُبصرون ويسمعون ، يسمعون الحق ولا يتبعونه ، ويرونْ الطريق المستقيم ولا يسلكونه ، فصار مثل الأصم الذى لا يسمع ، ومثل الأعمى الذى لا يرى .

لذلك قال سبحانه فى موضع آخر : ﴿ فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَـٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الحج] إذن : هم مُعرضون معاندون متكبِّرون عن قبول الحق .

وهذا هو معنى الضلال فى ﴿ وَمَن كَانَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الزخرف]

وهل هناك ضلال أبْيَن وأوضح من ضلال مَنْ يرى الحق ولا يتبعه؟

والحق سبحانه وتعالى لا يخاطب نبيه ﷺ هذا الخطاب إلا إن كان فعلاً يشقُّ على نفسه ، ويكاد أن يهلكها فى سبيل دعوته ؛ لذلك خاطبه ربه بقوله : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَـٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ ﴾ [الكهف] وخطابه بقوله ﴿ إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاغُ ﴿٤٨﴾ ﴾ [الشورى] ذلك لأن رسول الله كان محباً لرسالته ، ومحباً لمنهجه ، محباً لأمته جميعاً يريد أنْ يُذيقهم ما ذاق من حلاوة الإيمان ، يريد أنْ يُطبِّق فى نفسه أنْ تحب لأخيك ما تحبّ لنفسك .

﴿ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ[1] الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾

(١) قال ابن عباس : قد أراه الله ذلك يوم بدر ، وهو قول أكثر المفسرين . وقال الحسن وقتادة : هى فى أهل الإسلام يريد ما كان بعد النبى ﷺ من الفتن . [تفسير القرطبى ٩/٦١٣٩] .

يعنى : يا محمد اطمئن ، فإنْ متّ فسوف نُريك عذابهم وانتقامنا منهم فى الآخرة ، وإنْ كنتَ موجوداً على قيد الحياة سنُريك عذابهم المعجَّل لهم فى الدنيا . .

ومعنى ﴿ الَّذِى وَعَدْنَاهُمْ (٤٢) ﴾ [الزخرف] يعنى : عذاب الدنيا قبل عذاب الآخرة ﴿ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ (٤٢) ﴾ [الزخرف] مقتدرون : مبالغة من قادر ، يعنى : نحن مقتدرون عليهم متمكِّنون من إنزال العذاب بهم ، ولن يُفلتوا منا .

﴿ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِى أُوحِىَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٤٣) ﴾

يعنى : تمسَّك بقوة بما يُلْقَى إليك من الوحى ، ولا يغرنك إعراضهم عن دين الله ، لأنك أنت على الحق وهم على الباطل ﴿ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٤٣) ﴾ [الزخرف] طريق قويم معتدل .

﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ (٤٤) ﴾

قوله تعالى ﴿ وَإِنَّهُ (٤٤) ﴾ [الزخرف] أى : القرآن الكريم الذى أُرسلْتَ به يا محمد ، هذا الكتاب منهج حياة وهو معجزة باقية خالدة إلى قيام الساعة ، وهذا القرآن ﴿ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ (٤٤) ﴾ [الزخرف] يعنى : شرف وعزَّة وفَخْر لك ولقومك - أى العرب - لأنه نزلَ بالعربية ، وكم عزَّ أقوام بعزِّ لغات .

فشرفٌ للعربية ، وشرفٌ لكلِّ عربى أنْ ينزل القرآن بها ، والإنسان فى طبْعه يحب الفخر ، ويحب الشهرة وذيوع الصيت ،

ولا يخفى على أحد الآن أن القرآن هو الذى أعطى العربية مكانتها بين لغات العالم .

ولولا القرآن لاندثرتْ العربية كمـا اندثر غيرها من اللغات ، ونجد الآن كثيرين من أمم أخرى يُقبلون على تعلُّم العربية وإجادتها ليتمكَّنوا من حفظ القرآن وتفسيره وفهْم معانيه .

﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾

هنا وقفة تأمل لنفهم الآية ﴿ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا ﴿٤٥﴾ ﴾ [الزخرف] كيف يسألهم رسول الله وهم أموات ، لماذا يأمره ربه عزَّ وجل هذا الأمر ؟ وإذا أمر الحق سبحانه رسوله أمراً وجب عليه أن يطيع .

وقد هيَّأ الحق سـبحانه هذه الفرصة لنبيه ﷺ فى رحلة الإسراء والمعـراج حيث التقى فـعلاً بإخوانه الأنبيـاء السابقين ، واجـتمع بهم وصلى بهم إمـاماً فى بيت المـقدس وهم أمـوات بقانون المـوت وهو حَىٌّ بقانون الأحياء .

وثبت أنه خاطب بعـضهم ، وتحـدث معه كـما تحدث مع سـيدنا موسى عليـه السلام ، وأنه راجعـه فى أمر الصلوات الخمـسين ، إلى أنْ جعلها الله خمساً(١) .

---

(١) أخرجـه البخارى فى صـحيحـه (٣٣٦) من حديث أنس بن مالك أن رسـول الله ﷺ قال : فرض الله على أمتى خمسين صلاة فرجـعت بذلك حتى مررت على موسى فقال : ما فرض الله لك على أمتك ؟ قلت : فرض خمسين صـلاة . قال : فارجع إلى ربك فإن أمتك لا تطيق ذلك .. إلى أن قـال الله : هى خـمس وهى خمـسـون لا يبدل القـول لدىَّ . وهو أيضـاً فى صحيح مسلم (حديث ٢٣٤) .

فـإنْ قلتَ : كـيف يجتـمع الضِّـدان (مـيت) و (حى) ويكون بينهـما كـلامٌ وتفاهم ؟ نقـول : يجوز ذلك لأنه فـعل القدرة وطـلاقة القدرة لله تعالى ، فطلاقة القدرة لا ترتبط بقوانين الحيِّ والميت .

وسـبق أنْ قلنا : إنه ينبغى أنْ ننـسب الفعل للفـاعل لنستـريح ، فهذه المـسألة غَيْبٌ نؤمن به وننسب كلَّ عجيب فـيها إلى مُنشىء هذا العجب .

تذكرون قـصة سيـدنا إبراهيم لما ألقوْهُ فى النار ، مـاذا حدث ؟ القانون أن النار تحرق ، لكن ماذا إنْ أرادها الله بَرْداً وسلاماً وهى ما زالت ناراً مشتعلة ؟ لمـا أرادها الله كانت بَرْداً وسلاماً على إبراهيم ، وتعطَّل فيها قانون الإحراق .

ولو شاء سـبحـانه لسخَّر لهـذه النار سحـابة تمطر عليهـا حتى تنطفىء ، ولو شاء مـا تمكَّنوا من إبراهيم ولا أمسكوا بـه ، لكن لتتم المعجزة مكَّنهم الله من إبراهيم وألقوه بالفعل فى النار وهى تشتعل ، ومع ذلك لم تحرقه ، فهذه هى طلاقة القدرة .

كذلك رأينا طلاقة القدرة فى قصة عصا سيدنا موسى لما ضرب بها البحرَ فانفلقَ ، وتجمَّد فـيه الماءُ حتى صار كل فِرْق كالطوْد العظيم ، وهى نفس العصا ضرب بها الحجر فـانفجرتْ منه اثنتا عشرة عيناً ، فالحـق يعطينا لقطاتٍ لطلاقة القـدرة وخَرْق العـادة والقوانين لنـقيسَ عليها .

بعض المفسِّـرين يستبعدون هذه المـسألة . أى : اللقاء بين الحى والمـيت - ويُؤوِّلون المعنى بمـا يوافق ميـولهم ، فيـقولون : المراد

واسأل أتباع الرسل قبلك لأنهم أخذوا الدين عنهم . وأصحاب هذا الرأى يريدون أنْ يُفلتوا من مسألة التقاء الحيِّ بالميت ، ومن إثبات هذه المعجزة الخارقة للعادة ، لكن لا غرابةَ فى ذلك ولا عجبَ لأن الفاعل مَنْ ؟ الله .

أو : أن المراد بالسؤال فى ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ (٤٥)﴾ [الزخرف] ليس السؤال فى ذاته ولا الجواب فى ذاته ، إنما المراد العظَة والاعتبار على حَدِّ قول الخطيب مثلاً فى خطبة الجمعة : سَل الأرض مَنْ أجرى فيها الأنهار ، ومَنْ أنبت فيها الأشجار ، سَل الروض مُزداناً ، سَل الماء جارياً .. الخ . إذن : ليس المراد أنْ نسأل الأرض ، إنما نسأل أنفسنا ونتفكر ونتأمل .

كذلك فى قوله سبحانه : ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا (٤٥)﴾ [الزخرف]

لكن أسألَ رسولُ الله مَنْ قبله من الرسل عن هذه المسألة[1] ﴿أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ (٤٥)﴾ [الزخرف] ؟ الواقع أنه لم يسأل ، لماذا ؟ لأن عنده من اليقين ما يجعله فى غِنىً عن هذا السؤال ،

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٩/٦١٤٢) : (اختلف أهل التأويل فى سؤال النبى للأنبياء من قبله على قولين :

أحدهما : أنه سألهم فقال الرسول : بُعثنا بالتوحيد . قاله الواقدى .

الثانى : أنه لم يسألهم ليقينه بالله عز وجل . وقد قال ابن عباس وابن زيد أن رسول الله لما فرغ من الصلاة بالأنبياء فى مسجد بيت المقدس ليلة الإسراء والمعراج قال له جبريل : (سل يا محمد من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يُعبدون) فقال رسول الله : « لا أسأل قد اكتفيت ») . وذكره ابن الجوزى فى زاد المسير وقال : رواه عطاء عن ابن عباس . وهذا قول سعيد بن جبير والزهرى وابن زيد .

فرسولُ الله ليس فى حاجة لمَنْ يؤكد له أنه ليس مع الله آلهةٌ تُعبد .

لذلك ورد عن الإمام على كرَّم الله وجهه أنه قال : لو كُشفَ عنى الحجاب ما ازددتُ يقيناً . يعنى : أنا مؤمن بالغيبيات إيماناً راسخاً مستقراً ، وكأنى أطلع عليه وأراه ، ولو كُشف لى ما زاد فى يقينى شيء ، لأن إخبار الله لرسوله بالشيء أصدقُ من رؤيتنا له .

اقرأ : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) ﴾ [الفيل] ومعلوم أن الرسول وُلد عام الفيل ، يعنى لم يَرَه ، لكن أخبره الله ﴿ أَلَمْ تَرَ (١) ﴾ [الفيل] يعنى : ألم تعلم ، تعلم بأى وسيلة ؟ تعلم بحواسك ، أو تعلم بخبر خالق هذه الحواس . إذن : إخبار الحق آكد وأصدق من رؤية العين .

والاستفهام فى ﴿ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ (٤٥) ﴾ [الزخرف] يُراد منه النفى والإنكار ، فعبادةُ غير الله أمر غير وارد من الرسل ، إذن : هو من صُنْع البشر ، استحدثوه لإرضاء أهوائهم فى أنْ يكونَ لهم معبود ، لكن معبودٌ على هواهم ، معبود لا يُقيد شهواتهم ورغباتهم بمنهج (افعل كذا) و (لا تفعل كذا) .

ومن هنا عبدوا الأصنام وعبدوا الشمس والقمر والكواكب وغيرها ، وكلها معبوداتٌ بزعمهم هم - ما أنزل الله بها من سلطان ، ولا شرَّعها فى أىِّ شريعة من الشرائع .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٦) ﴾

قلنا : الآيات هى المعجزات الدالة على صدق الرسول فى البلاغ عن الله ، وسيدنا موسى عليه السلام كان من أكثر الرسل حيازةً للمعجزات وخوارق العادات ، وهذا يعنى أن قومه كانوا أكثر خَلْق الله عناداً وإعراضاً عن المنهج ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ (١٠١) ﴾ [الإسراء]

ما مناسبة أنْ يأتى القرآنُ بلقطة من قصة سيدنا موسى فى هذا الموضع ؟ قالوا : لأن كفار مكة كانوا قد اجتمعوا ووقفوا فى وجه الدعوة ، واعترضوا على أنْ تأتى الدعوة على يد محمد بالذات ، فقالوا : ﴿ وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) ﴾ [الزخرف]

يقصدون مكة وكان فيها الوليد بن المغيرة ، والطائف وكان بها عروة بن مسعود الثقفى ، وغيرهما من سادة القوم أصحاب المال والجاه والهيبة فى القوم .

إذن : لم يكُنْ الاعتراض على القرآن ، إنما الاعتراض على مَنْ جاء القرآنُ على يديه .

لذلك أراد الحق سبحانه أنْ يعطيهم مثلاً من موكب الرسالات ، فهذا موسى - عليه السلام - لم يكُنْ صاحبَ مال ، ولا صاحبَ جاه ولا سلطان ، وأرسله الله إلى مَنْ هو أشدّ كفراً من أهل مكة وصناديدها ، أرسله إلى فرعون الذى لم يكُنْ يعارض الدعوة إلى الله فقط ، إنما كان يقول : أنا إله .

إذن : لا عجبَ فى إرسال محمد ، وهو من عامة القوم وفقرائهم إلى السادة الأغنياء ، وهل الوليد وعروة وغيرهما من رؤوس الكفر كانوا أشدَّ من فرعون .

فالرسـالة إذن لا يُطلب فيـها أنْ يكون الرسولُ صـاحبَ مال ولا صاحبَ جـاه ولا سلطان ، ثم هذه رحمـة الله يقسمـها كـيف يشاء ، ويختار لها مَنْ يشاء ، ويصطفى من عباده .

والمتـأمل فى رسالتَىْ مـوسى ومحمـد يجد أن حيـاة موسى فى مجتمعه أقل من حياة محـمد فى مجتمعه ، لأن موسـى تربَّى فى بيت فرعون إلى أنْ شبَّ وحدَثتْ حادثة القتل التى قـتلَ فيها موسى واحداً من القوم ، ثم جـاء رجل من أقصى المـدينة ، وقال ﴿ يَـٰمُوسَىٰ إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ (٢٠) فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢١) ﴾ [القصص]

بعد ذلك وصل إلى مديْنَ وهناك وجد : ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ[1] وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ[2] وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣) فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (٢٤) ﴾ [القصص]

أولاً : نقـول إن هذه الأيام تعطينا منهجـاً ودستـوراً للتعـامل مع المرأة المـسلمة ، وكيف ومـتى تخرج من بيـتها ، فـالعلة فى خروج هاتين المـرأتين أن أباهما شـيخ كبـير ، ولا يوجـد مَنْ يقضى لهـما حاجتهما .

---

(١) مدين مدينة وتسمى أيضاً بايلة وهى مدينة كانت موجودة فى شمال غرب الجزيرة العربية وكان أهلها يعملون بالتجارة ، وقد بعث الله فيهم نبيه شعيباً عليه السلام لكى يحضهم على المتاجرة الشريفة .

(٢) الرعاء : جمع راعٍ . ومثله : الرعاة والرعـيان . وهو مـأخوذ من الرعاية والحـفظ وإحاطة الراعى بما يرعاه من دواب . [القاموس القويم ١/ ٢٦٩] .

إذن : لا تخرج المرأة من بيتها إلا لضرورة ، وإذا خرجتْ تحشَّمتْ وتحجبتْ ولم تخالط الرجال ، ثم مهمة المجتمع الإيمانى أنْ يراعى حَقَّ المرأة وأنْ يأخذ بيدها فيما تريده من عمل ، لأنه مجتمع الرحمة والقربى بين المسلمين جميعاً .

وأذكر أننا أول مرة سافرنا مكة سنة ١٩٥٠ كنا نسكن فى بيت رجل مُوسِر ، كان يتطوع ويُوصِّلنا إلى العمل بسيارته الخاصة ، وفى مرة ونحن نسير وجد أمام أحد البيوت لوحاً من الخشب الذى يُوضع عليه العجين ، وكان بابُ البيت مغلقاً فنزل وأخذ اللوح فى سيارته وذهب .

فلما سألتهُ عن ذلك قال : والله عندنا عادة لما نرى البابَ مُغلقاً ، وأمامه شىء مثل هذا ، نعرف أن صاحبَ البيت غائبٌ وأهلُ البيت يحتاجون شيئاً فنقضيه لهم ، المهم أخذ الرجل لوحَ العجين وملأه بالخبز ، وبما قدَّره الله عليه ، وأعاده إلى أصحابه .

وهذا هو المعنى الذى تعلّمناه من قصة سيدنا موسى ﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا (٢٤) ﴾ [القصص] ونعود إلى القصة ﴿ ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (٢٤) ﴾ [القصص] يعنى : موسى كان رجلاً فقيراً ، لا يملك من الدنيا سوَى قوته البدنية ، فهذا الذى يجلس تحت ظل شجرة ليس له مأوى ، أبعد ذلك مسكنة وضعف ؟

هذا يدل على أنه كان رجلاً (غلبان) لا يملك من حطام الدنيا شيئاً ، ولو قارنّا بينه وبين محمد نجد محمداً أطولَ إقامة فى قومه ، فقد نشأ بينهم منذ مولده ، وكان يرعى الغنم لأهله بأجرة ، ولما كبر اشتغل بالتجارة ، وكان كما نقول (مدير أعمال) السيدة خديجة ،

وكان يكسب ومعه مالٌ .

ومع ذلك أرسل اللهُ موسى الذى هو أضعف من محمد إلى فرعون الذى هو أقوى وأشدّ من الوليد وعروة وغيرهم . وبهذا نفهم لماذا أتى ذكْرُ سيدنا موسى فى هذا الموضع : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الزخرف]

ثم هناك نقطة ضَعْف أخرى فى رسالة سيدنا موسى أنه أُرسلَ إلى فرعون الذى تربّى فى بيته ، لذلك الحق سبحانه يُعلِّمه كيفية الدخول إليه فى أمر الدعوة لأنه كان يمتنُّ عليه .

﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الشعراء]
فعلَّمه الله أن يقول له القول اللين ﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ ﴾ [طه]

وقوله : ﴿ بِآيَاتِنَا ﴿٤٦﴾ ﴾ [الزخرف] أى : بالمعجزات الظاهرات التى صاحبتْ دعوة سيدنا موسى لتؤيده وتُثبت للقوم صدْقه فى البلاغ عن الله ، وقلنا : إنه يُشترط فى المعجزة أنْ تكون موضعاً للتحدى ، بحيث لا يقدر أحدٌ على الإتيان بمثلها ، وأنْ تكونَ من جنس ما نبغ فيه القوم ليكون التحدى له معنى ، وإلا كيف أتحدَّاك بشىء لا تعرفه أنت ولا تجيده ؟

ولأن قوْم موسى نبغوا فى السحر كانت معجزةُ العصا من المعجزات التى أعطاها الله تعالى لسيدنا موسى ، وقد درَّبه ربُّه عز وجل على استخدام هذه العصا وعرَّفه ما فيها من أسرار قبل لقائه بفرعون .

واقرأ : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ (١٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ[1] بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ (١٨) قَالَ أَلْقِهَا يَـٰمُوسَىٰ (١٩) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ (٢٠) ﴾ [طه]

كان هذا الموقف تدريباً لموسى على استخدام معجزته أمام فرعون ، وعندها علم موسى أنه إذا كانت مآربه من عصاته أنْ يتوكأ عليها ويهشَّ بها على غنمه ، فلله تعالى مآربُ أخرى غير هذه المآرب الظاهرة .

لذلك رأينا بعض المستشرقين يقولون : إن القرآن كرَّر قصة عصا موسى هذه فى أكثر من موضع ، والواقع أن القصة لا تكرارَ فيها ، بل هى مواقف مختلفة للعصا مع موسى ، فالمرة الأولى كما قلنا كانت تدريباً لموسى حتى لا يُفاجأ بما تفعله العصا إذا ألقاها أمام فرعون .

وكانت المرة الثانية أمام فرعون ، والثالثة لما جمع فرعونُ السَّحرةَ .

إذن : ليس فى المسألة تكرار ، إنما هى مواقفُ مختلفة لشىء واحد ، والقرآن حينما عرض لنا هذه القصة علَّمنا الفرق بين السحر والمعجزة ، السحر : تخييل وخداع للنظر إنما المعجزة حقيقة واقعة .

لذلك قال عن العصا : ﴿ فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ (٢٠) ﴾ [طه] يعنى : على وجه الحقيقة ، ولما تكلَّم عن حبال السحرة قال : ﴿ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ (٦٦) ﴾ [طه] والدليل على ذلك أن السَّحرة وأهل التمرُّس والخبرة فى هذا المجال لما رأوا العصا ساعة انقلبت حيَّة

---

(١) هش الشجر : ضربه بعصا ليسقط ورقه لتأكله الماشية ، فكان موسى يضرب الشجر بعصاه فتسقط أوراقها على غنمه فتأكله . [القاموس القويم ٢/٣٠٣] .

خرُّوا سُجّداً وآمنوا بموسى وبما جاء به ، لأنهم أدْرى القوم بهذه المسألة ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَـٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾﴾ [طه]

والحق سبحانه فى موضع آخر يقول ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ[1] ﴿١١٦﴾﴾ [الأعراف] معنى : سحروا أعين الناس أن الأمر فى السحر موقوف عند العين وعند النظر ، فهو تخييل فى مرأى العين فحسب .

وواقع حياتنا أيضاً يشهد بذلك ، فأذكر أننى كنتُ رئيس بعثة الأزهر فى الجزائر ، وهناك تعرفتُ على سفير السعودية بالجزائر الشيخ رياض الخطيب بن فؤاد الخطيب[2] الشاعر العظيم ، وحدث بينى وبينه مودة ، وصادف أنه نُقلَ من الجزائر إلى باكستان ، وبعدها سافرتُ أنا إلى باكستان ونزلتُ على الشيخ رياض .

وفى يوم تحدَّثنا عن السحر فقال : سأريك مسألة غريبة ، هنا ساحر هندى يفعل كذا وكذا . فقلت : والله فرصة نرى ماذا يفعل ، وفى الصباح ذهبنا إلى قرية وأتوْا بالساحر الهندى ، فقعد وعمل (نصبة) وأتى بقطن جعله على هيئة حبل ولَواه هكذا ، وكان معه ولد صغير ، أشار إليه أنْ يصعد على هذا الحبل حتى رأى جميعُ

---

(١) أرهبه ورهَّبه واسترهبه : أخافه وفزَّعه . واسترهبه : استدعى رهبته حتى رهبه الناس . وبذلك فسّر قوله تعالى : ﴿ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾﴾ [الأعراف] . أى أرهبوهم . [لسان العرب - مادة : رهب] .

(٢) هو فؤاد بن حسن بن يوسف الخطيب ، شاعر نقى الديباجة محكم المعانى من أعضاء المجمع العلمى العربى بدمشق ، ولد ١٨٧٩ م ، ولد قرب بيروت ، استكمل دراسته فى الجامعة الأمريكية عام ١٩٠٤ م ، لقب بشاعر ثورة الحجاز ، توفى ببلدته شحيم عام ١٩٥٧ م . [سيرته بالتفصيل فى الأعلام للزركلى ٥/ ١٦٠] .

الجالسين الولد فعلاً طالعاً على الحبل .

في اليوم التالى وبعد أنْ راجعتُ آيات السحر فى كتاب الله أخذتُ معى كاميرا فوتوغرافيا وأحببتُ أنْ أُصوِّر هذا المشهد ، وفعلاً صوَّرته ، فى اليوم التالى وجدت الصورة بعد تحميضها بيضاء ليس بها شىء أبداً .

فقال لى صاحبى : إذن بمَ تفسِّر هذا التخييل الذى رأيناه ؟ قلت : والله من حديث القرآن عن الجن نعلم أنه يتشكل بكل الصور ، ولا مانعَ أبداً أن الساحر يستعين بالجن ، قال تعالى : ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ⟨٦⟩﴾ [الجن]

إذن : لا مانع عقلاً أنْ يُسخِّر الساحر من الجن مَنْ يساعده فى هذه المسألة ، ويتشكل له كما يريد .

والقرآن الكريم نصَّ على أن الآيات والمعجزات التى أُرسلَ بها سيدنا موسى كانت تسع آيات : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لأَظُنُّكَ يَـٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ⟨١٠١⟩﴾ [الإسراء]

وقال فى موضع آخر : ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلاَّ هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا .. ⟨٤٨⟩﴾ [الزخرف] وهذا يعنى أنها كانت آيات كثيرة واضحة ظاهرة بينة .

وقوله سبحانه ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ⟨٤٦⟩﴾ [الزخرف] الملأ : هم القوم ، خاصةً الوجهاء منهم ، وأصحاب المنزلة من قولنا : فلان ملءَ العين . وفى آية أخرى قال : ﴿وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ ⟨٣٩⟩﴾ [العنكبوت]

وقوله تعالى : ﴿فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٦)﴾ [الزخرف] ملخص لرسالته وموجز لما جاء به .

﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ (٤٧)﴾

فى آية العنكبوت السابقة بينت رد فعلهم وهو الاستكبار ، والاستكبار هنا يعنى أنهم علموا أن موسى على الحق ، وأنه صاحب معجزات ومع ذلك استكبروا على أنْ يؤمنوا به ، وهنا بينتْ الآيةُ وجهاً آخر للاستكبار .

﴿إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ (٤٧)﴾ [الزخرف] يضحكون إما إعجاباً بالمعجزة وللآية التى رأوها ، وأنها خارقة للعادة وخلاف كل ما رأوْهُ من السحرة ، أو يضحكون سُخرية واستخفافاً .

﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤٨)﴾

معنى ﴿ آيَةٍ (٤٨)﴾ [الزخرف] يعنى : معجزة ﴿إِلاَّ هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا (٤٨)﴾ [الزخرف] يعنى : كل معجزة أعظم وأوضح من سابقتها ، وهذا يعنى أن الإعجاز واضح فى جميع الآيات على كثرتها ، فكل آية كبيرة من جهة ما ؛ لأن المقصود من الآيات الإعجاز وإثبات شىء ليس فى مقدور البشر ولا طاقتهم ، وما دام أن كل آية تؤدى هذا الغرض فهى آية كبيرة .

وقوله :﴿وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ (٤٨)﴾ [الزخرف] أى : عاقبناهم على تكذيبهم بالعذاب ، وقد أوضح الحق سبحانه هذا العذاب فى موضع

آخر ، فقال : ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ[(١)] وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٣٠)﴾ [الأعراف]

وتأمل تذييل هاتين الآيتين ، مرة : ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤٨)﴾ [الزخرف] ومرة ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٣٠)﴾ [الأعراف] فالحق سبحانه لا يُعذِّب خَلْقه لأنه يحب أن يعذبهم إنما يعذبهم ليعودوا إليه ، فحتى العذاب هنا رحمة بهم .

فَقَسَا لِيَزْدَجِرُوا ومَنْ يَكُ حَازماً فَلْيَقْسُ أَحْيَاناً عَلَى مَنْ يَرْحَمُ[(٢)]

وقوله : ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤٨)﴾ [الزخرف] أى : عن المكابرة والجدال والعناد ، لكن هل رجعوا ؟ أبداً ظَلُّوا على كفرهم وجحودهم ، حتى بعد أنْ أخذهم اللهُ بالسنين يعنى : القحط وجَدْب الأرض وجفافها ، فنتج عن ذلك نقص الثمرات وضيق العيش .

ثم بعد ذلك كله . ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ[(٣)]

---

(١) السِّنون : بالقحط والجدوب عاماً بعد عام . قاله الفراء . وقال قتادة : أما السنون فكانت فى بواديهم ومواشيهم ، وأما نقص الثمرات فكان فى أمصارهم وقراهم . قال ابن الجوزى فى زاد المسير « إنما أخذهم بالضراء لأن أحوال الشدة ترق القلوب وتُرغِّب فيما عند الله وفى الرجوع إليه » .

(٢) البيت من قصيدة لأبى تمام من بحر الكامل عدد أبياتها ٦٠ بيتاً هو البيت ٣٩ منها . وأبو تمام هو حبيب بن أوس الطائى ولد بسورية عام ١٨٨ هـ ، فى شعره قوة وجزالة له كتب : فحول الشعراء ، وديوان الحماسة ، ونقائض جرير والأخطل . توفى عام ٢٣١ هجرية . [الموسوعة الشعرية] .

(٣) قال ابن الجوزى فى زاد المسير (الأعراف ١٣٣) فى القمَّل ٧ أقوال :
- أنه السوس . - أنه الدَّبى قاله مجاهد وعطاء وابن عباس . والدبى هو أولاد الجراد
- دواب سود صغار - أنه الجعلان .
- أنه القمل . - أنه البراغيث - أنه الحمنان وهو نوع من القردان . قاله أبو عبيدة .

وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلاتٍ (١٣٣)﴾ [الأعراف] يعنى : آيات واضحة الدلالة بيِّنة ، فأصبحوا فى ضيق وهُزَال مشغولين بلقمة العيش ، فذهبوا إلى موسى عليه السلام بعد أنْ يئسوا وقالوا :

﴿وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ (٤٩)﴾

كلمة الساحر هنا لا تعنى اعترافهم بتفوقه فى مجال السحر فحسب ، إنما تعنى الرجل الماهر فى كل شىء ، المتفوق عليهم فى السحر وفى العلم وفى الإحاطة بأمور الحياة ، يعنى لا مثيل له .

وهذا يُذكِّرنا بموقف من سيرة سيدنا رسول الله ﷺ حيث وفد عليه الزبرقان بن بدر[١] وعمرو بن الأهتم[٢] وهما من سادة العرب ، فقال النبى ﷺ لعمرو بن الأهتم : ما تقول فى الزبرقان بن بدر ؟ فقال : يا رسول الله مطاع فى ناديه شديد العارضة[٣] ، مانع لما وراء ظهره . فقال الزبرقان : يا رسول الله والله إنه ليعلم منى أكثر مما وصفنى به ولكنه حسدنى .

فقال عمرو : والله يا رسول الله إنه زَمِرُ[٤] المروءة ضيق العطن[٥] لئيم الخال أحمق الموالد ؛ فقال رسول الله ﷺ لعمرو بن الأهتم : وما

(١) الزبرقان بن بدر التميمى السعدى صحابى من رؤساء قومه ، ولاه رسول الله ﷺ صدقات قومه فثبت إلى زمن عمر وكفَّ بصره فى آخر عمره وتوفى فى أيام معاوية عام ٤٥ هجرية ، كان فصيحاً شاعراً فيه جفاء الأعراب . [الأعلام للزركلى ٤١/٣] .

(٢) عمرو بن الأهتم هو عمرو بن سنان التميمى المنقرى أبو ربعى : أحد السادات الشعراء الخطباء فى الجاهلية والإسلام من أهل نجد ، وفد على النبى ﷺ فأسلم ، شعره جيد . توفى عام ٥٧ هجرية . [الأعلام للزركلى ٧٨/٥] .

(٣) ذو جَلَد وقدرة وبديهة ورأى جيد .

(٤) قليلها .

(٥) قليل الصبر والحيلة عند الشدة .

حملك على أنْ تقولَ ما قُلْتَ ؟ فقال : يا رسول الله رضيت . فقلت أحسن ما أعلم ، وغضبتُ فقلتُ أسوأ ما أعلم ، فقال رسول الله ﷺ : « إنَّ منَ البيَانِ لسحْراً »(١) .

الشاهد هنا أن السحر يأتى بمعنى التفوق عامة فى أىِّ ناحية من نواحى الحياة . إذن : لما رأوا تصرُّفات موسى خضعوا له وسلَّموا له بالتفوق عليهم ، وإنْ كانوا لم يؤمنوا به ، ولكن لأنهم مقتنعون بتفوقه بل وبصدق دعوته ذهبوا إليه وطلبوا منه أنْ يدعو لهم ، وأنْ يُفرِّج عنهم ما هم فيه من ضَنْك العيش .

فقالوا ﴿يَـٰأَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ (٤٩)﴾ [الزخرف] إذن : يعترفون بصلته بربه ، لكن ربه هو لا ربهم أيضاً بدليل ﴿ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ (٤٩)﴾ [الزخرف] ولم يقولوا مثلاً : ربنا .

﴿بِمَا عَهِدَ عِندَكَ (٤٩)﴾ [الزخرف] لأن ربك يطاوعك ويفعل لك ما تريد ، ووعدك بكشف العذاب عمَّنْ آمن بك ﴿إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ (٤٩)﴾ [الزخرف] يعنى : لو كشفتَ عنَّا ما نحن فيه فسوف نهتدى ونؤمن بك .

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ۝٥٠﴾

إذن : قولهم ﴿إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ (٤٩)﴾ [الزخرف] كانت مجرد كلمة تُقال نفاقاً من طرف اللسان ، ليس لها رصيد من صدق الواقع ؛ لأن الحق سبحانه كشف عنهم العذاب فعادوا لما كانوا عليه ، ومعنى

---

(١) أخرجه الحاكم فى مستدركه (٦٦٤٥ ، ٦٦٤٦) من حديث ابن عباس ومن حديث أبى بكرة الأنصارى وعنده أن رسول الله قال : « إن من البيان لسحراً ، وإن من الشعر لحكمة » . وأخرجه أيضاً الطبرانى فى المعجم الكبير (١٨٢٠) (قطعة من المفقود) وكذا فى المعجم الصغير (٧٨٨٦).

﴿ يَنكُثُونَ ۝٥٠ ﴾ [الزخرف] يرجعون إلى ما كانوا عليه ، وينقضون العهد الذى قطعوه على أنفسهم بأنْ يهتدوا .

﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ(١) تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٥١ ﴾

هنا يشعر فرعون بالخطر ، وتهتز مكانته أمام قومه ، يشعر أن موسى يسحب البساط من تحت قدميه حيث تتجه إليه الأنظار خاصة بعد حادثة السحرة الذين آمنوا بربِّ هارون وموسى ولم ينتظروا إذناً من فرعون .

وبعد أنْ نزل بهم القحط ، وأصابهم الجدْب حتى يئسوا فتوجَّهوا إلى موسى وطلبوا منه كشْف ما هم فيه ، لذلك نرى فرعون يحاول أنْ يعيد مكانته ويُحسِّن صورته أمام قومه .

﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ ۝٥١ ﴾ [الزخرف] بماذا نادى مُناديه ؟

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلا تُبْصِرُونَ ۝٥١ ﴾ [الزخرف] يعنى : انتبهوا إلى مكانتى ومُلْكى وقدرتى عليكم ولا تهتموا بأمر موسى ، فأنا لا أزال ملك مصر ، والأنهار تجرى من تحتى . يعنى : لا أزال ولىَّ نعمتكم .

---

(١) ورد فى معنى كلمة الأنهار هنا أقوال كثيرة ، منها :
– أنها فروع أربعة للنيل : نهر الملك ، ونهر طولون ، ونهر دمياط ، ونهر تنيس .
– أنها القواد والرؤساء والجبابرة يسيرون تحت لوائى . قاله الضحاك .
– أنها الأموال وعبَّر عنها بالأنهار لكثرتها وظهورها . [تفسير القرطبى ٩/٦١٤٥] .
وللشيخ الشعراوى رحمه الله كلام قيم فى هذه الآية يأتى قريباً .

﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾﴾ [الزخرف] لكن نلاحظ فى ندائه هذا أنه لم يقُلْ شيئاً عن ألوهيته . ولم يقُلْ : أنا ربكم الأعلى فقد تنازل عن هذه الشعارات التى لم يَعُدْ لها موضع بعد ما حدث مع موسى .

ثم تأمل صيغة النداء ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ ﴿٥١﴾﴾ [الزخرف] بهذا الاستفهام التقريرى ، يعنى : قُولوا لى ألم أزل ملكاً عليكم ، ولم يأت مثلاً بأسلوب الخبر : أنا ملك مصر .

إذن : يتحدثُ فرعون الآن من موقف الضعف ، نعم لأنه كان يقول ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [النازعات] والآن يقول : ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ ﴿٥١﴾﴾ [الزخرف]

كلمة ﴿مُلْكُ ﴿٥١﴾﴾ [الزخرف] مادتها م ل ك ، نلاحظ أن الميم تأتى مرة بالكسر ، ومرة بالفتح ، ومرة بالضم ، فالميم المكسورة مِلك . يعنى : كل ما تمتلكه ولو حتى اللباس الذى تلبسه يسمى مِلك .

ومُلْك بالضم تعنى الإدارة والسيطرة على مَنْ له مِلك . يعنى : يملك مَنْ يملك ، ومَلك بالفتح يعنى الإرادة والاختيار ، كما فى قوله تعالى : ﴿مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا ﴿٨٧﴾﴾ [طه] أى : بإرادتنا .

وفى اسم الفاعل نقول ملك ومالك ، مالك تقال لكل منا يُسمَّى مالك ، حتى لو كان يملك مجرد ملابسه . أما ملك فلا تُقال إلا لمَنْ يملك ويتحكم فى المالك .

لكن حين نقرأ مثلاً فى سورة الفاتحة : ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾﴾ [الفاتحة] ولم يقُلْ ملِك ، صحيح هى فى إحدى

القراءات[١] ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ لكن الأشهر (مَالِك) ، فما الحكمة أنْ يعدل عن اللفظ الأقوى إلى الأقل منه ؟

قالوا : اختار الحق سبحانه لفظ مالك ليقول أنه سبحانه مالكٌ ليوم القيامة ، وغيره يملك الأرض وما عليها ، فقوله ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤)﴾ [الفاتحة] يعنى : غيره لا يملك هذا اليوم ، فهى لله وحده ، لذلك قال : ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦)﴾ [غافر]

هكذا بالقصر عليه سبحانه دون غيره . إذن : لفظة مالك هى المطلوبة هنا ، وهى التى تؤدى المعنى المراد ، فهى الأدلُّ على المعنى وإنْ كانت أدْنى من ملك .

كما قلنا مثلاً فى كلمة (كبير) و (أكبر) ، أكبر : أفعل تفضيل من كبير فهى أقوى ، ومع ذلك فى نداء الصلاة نقول : الله أكبر وليس فى أسماء الله أكبر ، بل من أسمائه سبحانه الكبير ، فلماذا عدل عن الكبير إلى أكبر ؟

قالوا : قال الله أكبر لحكمة ، هى أنَّ الأقلّ هنا له موضع ؛ لأنك حين تدعو الناس إلى الصلاة تُخرجهم من عمل وسَعْى مشروع هو قوام حياة الناس ومعايشهم ومصالح الناس وأعمالهم ليس بالشيء

---

(١) هذه الكلمة (مالك) قرئت فى سورة الفاتحة بعدة قراءات :
- مالك : قرأها عاصم والكسائى وخلف ويعقوب : مالك بألف .
- مالكَ : قرأها ابن السميقع وابن أبى عبلة كذلك إلا أنهما نصبا الكاف .
- ملْك : قرأها أبو هريرة وعاصم الجحدرى بإسكان اللام من غير الألف مع كسر الكاف .
- ملَك : قرأها أبو عثمان النهدى والشعبى بكسر اللام ونصب الكاف من غير ألف .
- مَلِكُ : قرأها سعد بن أبى وقاص وعائشة وموَرِّق العجلى إلا أنهم رفعوا الكاف .
- مليك : قرأها أبو رجاء العطاردى . [زاد المسير لابن الجوزى - سورة الفاتحة] .

التافه الذى لا قيمةَ له فى دين الله ، إنما هو من الأمور المطلوبة للشرع .

فهو إذن مهم وكبير ، لكن إذا جاء وقت الصلاة فاعلم أن الله أكبر . يعنى : أكبر من العمل ومن السَّعْى .

وهذه المسألة بيَّنها لنا الحق سبحانه فى سورة الجمعة : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِىَ لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ (٩) ﴾ [الجمعة] ثم بعد انقضاء الصلاة قال : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِى الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ (١٠) ﴾ [الجمعة]

إذن : أخذك للصلاة من العمل ، ثم أعادك إليه مرة أخرى ، لأن به يتم إعمار الأرض وقضاء مصالح الخَلْق . إذن : أكبر هى الأنسب فى أداء المعنى المراد .

قوله : ﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِ (٥١) ﴾ [الزخرف] فرعون لم يُناد هو ، إنما أمر مَنْ ينادى فى القوم بهذا النداء ، فلما كان النداء بأمره نسب إليه ، وقوله ﴿ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ (٥١) ﴾ [الزخرف] يعنى : القطر كله لا العاصمة ، كما نقول نحن اليوم (مصر) على القاهرة ، فمصر التى ملكها فرعون كانت من الأسكندرية إلى أسوان .

ومصر علَم على هذه البقعة ، وهى مُكوَّنة من ثلاثة أحرف . أولها : كسرة ، ووسطها ساكن والسكون يعطى خفَّةً فى النطق ، فهى اسم سهل فى النطق ، وجاء على أقلِّ صيغ تكوين الاسم فى اللغة ، لأن الاسم فى العربية أقلُّه ثلاثة أحرف ، وأكثره خمسة إذا كان مُجرداً من أحرف الزيادة .

والمتأمل يجد أن مكةَ وهى بلدُ الله الحرام ومحلُّ بيته المقدس

ذُكِرَتْ فى كتابه الكريم مرتين : ﴿وَهُوَ الَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ ﴿٢٤﴾﴾ [الفتح]

وجاءتْ بلفظ بكة فى قوله تعالى : ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [آل عمران]

أما مصر فذكرها الحق سبحانه فى كتابه خمس مرات : ﴿أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ .. ﴿٥١﴾﴾ [الزخرف] وفى : ﴿وَقَالَ الَّذِى اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ ﴿٢١﴾﴾ [يوسف] وفى ﴿ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ [يوسف] وفى ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا[(١)] لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا ﴿٨٧﴾﴾ [يونس] وفى ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ﴿٦١﴾﴾ [البقرة]

وجاءت مصر فى الآية الأخيرة هكذا بتنوين الفتح . وقال المفسرون : يعنى أىَّ مصر من الأمصار يكون فيه ما تريدون ، ولو اعتمدنا هذا التفسير فمصر فى هذه الحالة داخلة فيه لأنها مصرٌ من الأمصار .

وقوله : ﴿وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِى مِن تَحْتِى ﴿٥١﴾﴾ [الزخرف] كلمة ﴿مِن تَحْتِى ﴿٥١﴾﴾ [الزخرف] تدل على التمكُّن والسيطرة ، وبالفعل كانت قصوره على النهر مباشرة وكأن النهر يمرُّ من تحتها .

وجَمَع الأنهار ، مع أننا نعرف أن فى مصر نهراً واحداً هو نهر النيل ، وأنه يتفرع إلى فرعين دمياط ورشيد ، فلماذا قال ﴿وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ ﴿٥١﴾﴾ [الزخرف]

---

(١) تبوأت المنزل : اتخذته سكناً . ومعنى قوله ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا .. ﴿٨٧﴾﴾ [يونس] أى : انزلا واتخذا منها بيوتاً أى مساكن . [القاموس القويم ١/٨٨] .

قالوا : كانت على أيام الفراعنة خمسة أنهار ، أى : أنهم فرَّعوا من النهر خمسة فروع ليزيدوا من الشواطىء ، وبهذا كان لديهم عشرة شواطىء تُبنى عليها قصورهم .

وأذكر فى هذا المقام أنه كان لنا شيخٌ فاضل اسمه الشيخ عمر العمروسى من طنطا الجزيرة ، وكنت أجلس إليه وأستفيد من علمه ، ومعى الشيخ سيد شرف والدكتور ياسين عبد الغفار[(١)] .

وفى يوم من الأيام سألنى ، وهو يعرف أننى فى الأزهر فقال لى : يا شعراوى ، ماذا فعلتُم فى مسألة : ﴿وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي (٥١)﴾ [الزخرف]

قلتُ له : فى قراءة التاريخ وجدنا أن مصر فى أيام الفراعنة كان بها خمسة أنهار ، نهر اسمه الملك لأن على شاطئه قصر الملك ، ونهر اسمه دمياط ، ونهر اسمه تنِّيس[(٢)] والعجيب أن منها نهراً يسمى طولون ، ونحن نعرف أحمد بن طولون[(٣)] وكان فى القرن التاسع

---

(١) الدكتور ياسين عبد الغفار هو مؤسس معهد الكبد (١٩٩٠م) وهو من أبناء محافظة المنوفية ، مواليد ٢٦ يناير ١٩١٧م ، توفى مايو ١٩٩٩ م عن ٨٢ عاماً ، حاصل على بكالوريوس الطب والجراحة ١٩٤٠ م وعضوية الكلية الملكية بلندن ١٩٤٤ ، الدكتوراه من جامعة القاهرة ١٩٤٥م ، والدكتوراه الفخرية من اسكوتلاندا ١٩٩١ ، تولى عدة مناصب ونال العديد من الأوسمة .

(٢) تنيس : مدينة قديمة وهى كلمة هيروغليفية تعنى صناعة الحرير ، وهى الآن مدينة المنزلة أحد مراكز محافظة الدقهلية فى الشمال الشرقى لمصر .

(٣) أحمد بن طولون أبو العباس الأمير صاحب الديار المصرية والشامية والثغور تركى مستعرب ولد ٢٢٠ هجرية ، كان شجاعاً حسن السيرة موصوفاً بالشدة على خصومه ، بنى الجامع المعروف بالقاهرة وقلعة يافا بفلسطين . يؤخذ عليه أنه كان حاد الخلق . توفى بمصر بعد مرضه عام ٢٧٠ هجرية عن ٥١ عاماً . [الأعلام للزركلى ١/ ١٤٠] .

الميلادى فكيف سُمِّى باسمه ، وبعد البحث عرفنا أن ابن طولون هو الذى ردم هذا الفرع من النهر فسُمِّى باسمه .

والنهر الخامس كان يسمى الخليج. إذن : زادوا من تفريعات النهر الرئيسى لتزداد فُرَص البناء المطلّ على النهر ، وهذا إنْ دَلَّ فإنما يدلُّ على ترف الحياة حين ذاك .

أما الشيخ عمر فكان له فى تفسير الأنهار رأىٌ آخر ، قال : اسمع يا ابنى أنت وهو ، الفراعنة جعلوا مصر على هيئة نموذج للجنة ، فجعلوا بها أربعة أنهار . واقرأوا القرآن : ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى (١٥)﴾ [محمد]

لكن من أين عرف الفراعنةُ هذه الصورة عن الجنة فحاكوها على أرض مصر ؟ قالوا : لأنهم كانوا يسيرون فى أمور حياتهم وفى سياستهم خلف الكهنة ، والكهنة كانوا على علم ، وقرأوا الكتب السماوية السابقة .

حتى أنهم قالوا : إن العلوم التى عرفها الفراعنة وبنوا بها الأهرامات وأبا الهول والمعابد الموجودة الآن والتى لم نصل بعد تطور العلوم إلى أسرار بنائها ، وعملية تحنيط الموتى وغيرها من الأسرار عرفوه من الكهنة .

وما دامت من الكهنة فمصدرها وَحْى السماء ، بدليل أنه لما انتهى عصر الكهنة ولم يَعُدْ لهم وجود لم نجد لهذه العلوم أثراً حتى الآن .

وأذكـر أننـى فى أثناء تولِّى المـهندس حسب الله الـكفـراوى[١] اقترحتُ عليـه إعادة حفر هذه الأنهار ، بحيث تلـتقى كلها عند القناطر الخيـرية ، ونزيد مساحة الشـاطىء عندنا ، واقترحتُ عليـه لحلِّ أزمة البناء ، وبـدلاً من البناء على الأرض الـزراعـيـة أن نـبنى المـسـاكن والمرافق الحكومية فوق فروع الترُّع والرياحات ، لأنها تحتل مساحات واسعة .

ومعظمـها عليـه طرق من اليمـين ومن الشمال ، ويمـكن أنْ نقيمَ أعمدة مسلَّحة على هذه الرياحات ، ونبنى فـوقها كُلَّ مؤسسات الدولة بدل التكدُّس فى العاصـمة ، فوعدنـى بدراسة هذه المقتـرحات لكن لم يُنفذ منها شىء .

المفسرون يقولـون فى ﴿ وَهَـٰذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِى مِن تَحْتِـى (٥١) ﴾ [الزخرف] أن الأنهار كـانت تجرى من تحت قصوره بالفـعل ، قالوا : حـتى أنه جعـل من تحت سـريره الذى يـنـام عليـه مـجرى مـائيـاً كالنهر[٢] .

(١) من مدينة كفـر سليمان مركز كفر سـعد محافظة دمياط بمـصر ، حاصل على بكالوريوس الهندسة قسم مدنى جامـعة الإسكندرية عام ١٩٥٠م ، وهو وزير إسكان أسـبق ولمدة ١٦ عاماً من ١٩٧٧ إلى ١٩٩٣ عين محـافظاً لدمياط عام ١٩٧٦م وهيئة المجتمـعات العمرانية عام ١٩٨٠م ، ونقيباً للمهندسين عام ١٩٩١م .

(٢) ذكره الألوسى فى تفسيره (روح المعانى) قـال : قال غير واحد : كانت أنهار تخرج من النيل وتجـرى من تحت قصـره وهو مشـرف عليهـا . وقيل : كـان له سرير عظيم مـرتفع تجرى من تحته أنهار أخرجها من النيل .

﴿أَمْ[1] أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ[2] وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾﴾

فرعون يُجرى هذه المفاضلة بينه وبين موسى فيقول : أنا خير من هذا يقصد موسى ، واكتفى بالإشارة إليه امتهاناً به (مَهين) يعنى : ضعيف حقير ، حيث لا قوةَ تحميه ، وليس له جند يُدافعون عنه .

﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾﴾ [الزخرف] أى : يُبين عن نفسه ويفصح عنها . والمعنى : لا يستطيع الكلام بإبانة وطلاقة ، ذلك لأن موسى عليه السلام كان به لثغة فى لسانه .

لذلك قالوا أنه طلب من ربه عز وجل أنْ يُعينه على هذه المسألة بأن يرسل معه أخاه هارون ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا[3] يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾﴾ [القصص]

---

(١) فى كلمة (أم) هنا قولان :

الأول : أنها بمعنى بل . أى : بل أنا خير من موسى الذى هو مهين . قاله السدى وبعض نحاة البصرة .

الثانى : أنها للاستفهام . تبعاً للاستفهام فى الآية قبلها .

قال ابن كثير فى تفسيره (٤/ ١٣٠) : وعلى كل تقدير فإنما يعنى فرعون بذلك أنه خير من موسى وقد كذب فى قوله .

(٢) وصفه لموسى بأنه (مهين) يقصد به أنه حقير قاله سفيان . وقال قتادة والسدى يعنى ضعيف . وقال ابن جرير : يعنى لا ملك له ولا سلطان ولا مال . وذهب القرطبى إلى معنى هو مقتضى هذه الأقوال فقال : أى لا عز له فهو يمتهن نفسه فى حاجاته لحقارته وضعفه . وهو يلمس طبيعة النظرة الفرعونية إلى الناس والبشر .

(٣) الردء : المعين والناصر . [القاموس القويم ١/ ٢٦٠] وأرداه : أعانه وترادأ القوم : تعاونوا . وفلان ردء لفلان أى ينصره ويشد ظهره . [لسان العرب - مادة : ردأ] .

ويُروى أن سبب هذه اللثغة فى لسانه أنه وهو صغير قال كلمة فيها جرأة على فرعون حتى شكَّ فى أمره وتخوَّف منه ، فقالوا له : إنه صغير لا يعرف شيئاً . وليثبتوا لفرعون ذلك أتوا لموسى بتمرة وجمرة ، فأخذ الجمرة فلسعتْه فى لسانه ، وأحدثتْ به هذه اللثغة[1] .

﴿ فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾

هذه هى الصورة المادية التى يتصوَّرها فرعونُ للرسول أنْ يأتى يرتدى الأسْورة من الذهب ، وهى دلالةٌ على القوة والسيطرة والعظمة ، أو يأتى ومعه ملائكة مصاحبون له يُؤيدونه ويشهدون بصدقه .

﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾

الاستخفاف يعنى العجلة والطيش وعدم التدبّر فى المسائل ، أى : استخفهم فرعونُ بهذا الكلام فأطاعوه على الضلال الذى هو فيه ووافقوه على الفساد ، ولا يوافق على الفساد إلا المنتفع به ، أو وجدهم أهلَ طيش ورعونة وعدم تفكّر فى الأمور ، فضحك عليهم بهذا الكلام .

---

(١) ذكره ابن كثير فى تفسيره فى قوله تعالى : ﴿ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا .. ﴿٣٤﴾ ﴾ [القصص] وقد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله ﴿ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الزخرف] قال : كانت بموسى لثغة فى لسانه . ذكره الشوكانى فى فتح القدير والسيوطى فى الدر المنثور .

﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ سَلَفٗا وَمَثَلٗا لِّلۡأٓخِرِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾

معنى ﴿آسَفُونَا ﴿٥٥﴾﴾ [الزخرف] أغضبونا فكانت النتيجة ﴿انتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴿٥٥﴾﴾ [الزخرف] كيف ﴿فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الزخرف] وبالغرق جعلهم الله (سَلَفاً) السلف مَنْ تقدَّم . أى : جعلهم الله قدوة وعبرةً لمنْ يأتى بعدهم ﴿وَمَثَلاً لِّلآخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الزخرف] عبرةً لغيرهم من الكافرين .

﴿ ۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوۡمُكَ مِنۡهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ ﴾

هنا الفعل (ضُرِب) مبنى لما لم يُسَمَّ فاعله ، فمَن الذى ضرب ابن مريم مثلاً ؟ الحق سبحانه وتعالى هو الذى جعل ابن مريم مثلاً ، لأنه وُلِد لأم بلا أب ، وجاء من نفخة الحق سبحانه فى مريم ، فنسبوه إلى الله ، تعالى الله عن ذلك علُواً كبيراً ، فردَّ الله عليهم بأن عيسى فى الخَلْق مثل آدم .

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾[آل عمران] فإذا كان عيسى بلا أب ، فآدم بلا أب وبلا أم ، والذى يقدر على الأعلى يقدر على الأدنى من باب أَوْلَى ، فلا تُفتنوا فيه .

وبعد أن نزل قوله تعالى : ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ

حَصَبُ[١] جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴿٩٨﴾ ﴾ [الأنبياء] تبيَّن أنه الضّال بعبادة غير الله هو ومعبوده فى جهنم معاً ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴿٩٨﴾ ﴾ [الأنبياء] يعنى : وقودها .

وجاء رجل اسمه عبد الله بن الزبعرى[٢] قبل أنْ يسلم إلى رسول الله ﷺ وقال له : يا محمد أهذه الآية لنا أم لجميع الخلْق ؟ قال ﷺ : لجميع الخلْق ، فقال له : كيف وعيسى عُبد من دون الله ، والعُزير عُبد من دون الله ، والملائكة عُبدوا من دون الله ، أيذهب هؤلاء مع عابديهم إلى النار[٣] ؟

فلم يُجبْه رسولُ الله إلى أنْ نزل قول الله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾ [الأنبياء]

ولما بلغتْ هذه المسألة سيدنا علياً رضى الله عنه قال : (ما)

---

(١) الحصب : كل ما يُلقى فى النار لتسعّر به . [القاموس القويم ١/١٥٥] والحصب : الحجارة والحصى . [لسان العرب - مادة : حصب] .

(٢) هو عبد الله بن الزبعرى بن قيس السهمى القرشى أبو سعد ، شاعر قريش فى الجاهلية ، كان شديداً على المسلمين إلى أن فتحت مكة فهرب إلى نجران فقال فيه حسان أبياتاً ، فلما بلغته عاد إلى مكة فأسلم واعتذر ومدح النبى ﷺ توفى عام ١٥ هجرية . [الأعلام للزركلى] .

(٣) ذكر الرازى فى تفسيره « مفاتيح الغيب » فى تفسير سورة الأنبياء (٢١) : « أن عبد الله ابن الزبعرى أقبل فرأى مشركى قريش يتهامسون فقال : فيم خوضكم ؟ فأخبره الوليد بن المغيرة بقول رسول الله ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ .. ﴿٩٨﴾ ﴾ [الأنبياء] فقال عبد الله : أما والله لو وجدته لخصمته فدعوه ، فقال ابن الزبعرى : أأنت قلت ذلك ؟ قال : نعم . قال : قد خصمتك ورب الكعبة أليس اليهود عبدوا عزيراً والنصارى عبدوا المسيح وبنو مليح عبدوا الملائكة . ثم روى فى ذلك روايتان : إحداهما أن رسول الله سكت ولم يُجبْ فضحك القوم . والثانية أنه أجاب وقال : بل هم عبدوا الشياطين التى أمرتهم بذلك » .

هنا لغير العاقل ، فلا يدخل فى هذا الحكم عيسى ولا العُزير ولا الملائكة ، وهذه من حكمة الإمام على الذى تربَّى فى حضن النبى وتعلَّم فى مدرسته منذ صغَره ، وجاءت ثقافته من نور النبوة .

لذلك ورد فى الحديث الشريف قوله ﷺ : « أنا مدينة العلم ، وعلىٌّ بابها »[(١)] .

وكان من الفقهاء أصحاب الاستنباط الواعى حتى أمام كبار الصحابة ، حتى إن عمر بن الخطاب الذى كان ينزل القرآن وفْق رأيه يقف فى مسألة لا يحلُّها إلا على ، حيث عُرضَتْ عليه مسألَة المرأة التى ولدتْ لستة أشهر فقال بإقامة الحدِّ عليها ، لأن المشهور فى أشهر الحمل تسعة أشهر .

فقال : يا أمير المؤمنين لا شىء عليها لأن الله يقول : ﴿ **وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ**[(٢)] **ثَلاثُونَ شَهْرًا** ﴿١٥﴾ ﴾ [الأحقاف] ويقول : ﴿ **وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ** ﴿٢٣٣﴾ ﴾ [البقرة] إذن : مدة الحمل يمكن أن تكون ستة أشهر[(٣)] .

---

(١) أخرجه الحاكم فى مستدركه (٤٦١٢) والطبرانى فى المعجم الكبير (١٠٨٩٨) والطبرى فى تهذيب الآثار (١٤١٥) . قال الحاكم : حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه . وتمام الحديث : « فمن أراد المدينة فليأت الباب » . وفى لفظ : « فمن أراد العلم فليأته من بابه».

(٢) الفصال : الفطام لأن الطفل ينفصل به عن أمه . [القاموس القويم ٢/٨٣] فمجموع الحمل والفطام ثلاثون شهراً ، لذلك قال ابن عباس : إذا وضعت المرأة لتسعة أشهر كفاه من الرضاع أحد وعشرون شهراً ، وإذا وضعت لسبعة أشهر كفاه من الرضاع ثلاثة وعشرون شهراً ، وإذا وضعته لستة أشهر فحولين كاملين . ذكره ابن كثير فى تفسيره (٤/١٥٧) .

(٣) قال ابن كثير فى تفسيره (٤/١٥٧) : « أقل مدة للحمل ستة أشهر ، وهو استنباط قوى صحيح ووافق علياً عليه عثمان وجماعة من الصحابة » .

ومرة دخل على سيدنا عمر ومعه درّة ، يريد أن يضرب بها سيدنا حذيفة فقال له : ما لى أراكَ مُغضباً يا أمير المؤمنين ؟ قال : سألتُ حذيفة كيف أصبحتَ ؟ فقال : أصبحتُ أحب الفتنة ، وأكره الحق ، وأصلى بغير وضوء ، ولى فى الأرض ما ليس لله فى السماء . فقال على : صدق والله يا أمير المؤمنين .

فقال عمر : أتقولها يا أبا الحسن ؟ قال : أما الفتنة فقال تعالى : ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ (٢٨)﴾ [الأنفال] والحق الذى يكرهه هو الموت ، ويصلى على النبى ﷺ بغير وضوء ، وله فى الأرض زوجة وولد وليس لله زوجة ولا ولد .

عندها قال عمر : بئس المقام بأرض ليس فيها أبو الحسن[(١)] .

ومن لطائف ما رُوى عنه رضى الله عنه أنه مرّ بجماعة اختلفوا فى أيِّ مخلوقات الله أشد وأكثر قوة ، فسألوه : ما أشدّ جنود الله يا أبا الحسن ؟ فكانه كان على علم مُسْبق بهذه المسألة ، وأنه سيُسأل عنها ، لذلك قال - وحصر العدد قبل المعدود : وأشار بيده أنها عشرة : الجبال الرواسى ، والحديد يقطع الجبال ، والنار تذيب الحديد ، والماء يطفىء النار ، والسحاب يحمل الماء ، والريح يحمل السحاب ، وابن آدم يغلب الريح يستتر بالثوب ويمضى إلى حاجته ، والسُّكْر يغلب ابن آدم ، والنوم يغلب السُّكْر ، والهم يغلب النوم ، فأشدُّ جنود الله الهَمُّ .

---

(١) أورده إسماعيل حقى فى تفسيره قال : حُكى أن رجلاً أتى عمر فقال : إنى أحب الفتنة وأكره الحق وأشهد بما لم أره فحبسه عمر فبلغت قصته علياً فقال على ما ساقه هنا ، حتى أن عمر بن الخطاب قال : « لولا على لهلك عمر » .

وفى بعض أحاديثنا مع الإخوان طلبوا منى أنْ أذكر لهم خطبة الإمام على التى قالها لما ماتتْ فاطمة بنت محمد ، وكنتُ كلما ذكرتها لهم قالوا أعِدْ مرة أخرى ، قلتُ : لما ماتت فاطمة دُفنَتْ بجوار رسول الله والصحابة .

وبعد أنْ دُفنَت قالوا له : يا على لو أننا أبحنا لكل أولاد الرسول أنْ يُدفنوا إلى جواره لضاقَ المسجد بالناس ، فقال : ضعوها نهارنا وسوف أنقلها ليلاً كى لا تحدث فتنة ، وبالليل نقلها إلى البقيع .

وكان مما قاله الإمام على وهو يدفن فاطمة إلى جوار أبيها ، قال : السلام عليك يا رسول الله ، منى ومن ابنتك النازلة فى جوارك السريعة اللحاق بك ، قَلَّ يا رسول الله عن صفيتك صبرى ، ورَقَّ عنها تجلُّدى[1] ، إلا أن لى فى التعزِّى بمصيبتك موضعَ سَلْوى[2] .

فقد وسَّدتُك يا رسول الله فى ملحودة قبرك ، وفاضتْ بين سَحْرى ونحرى نفسُك ، أما ليلى فمسهَّد[3] ، وأما حزنى فسَرْمد[4] إلى أنْ يختار الله لى داره التى أنت فيها مقيم ، وستخبرك ابنتك عن حال أُمتك فأصْفِهَا السؤال ، واستخبرها الحال - هذا ولم يطل منك العهد، ولَم يخل منك الذكر .

---

(١) الجلد : القوة والشدة والصلابة والجلادة . والتجلُّد : إظهار الجلد وقوة التحمل وشدة الصبر . [لسان العرب - مادة : جلد بتصرف] فرغم محاولة على رضى الله عنه إظهار الجلد والتحمل إلا أنه لم يستطع .

(٢) السلوى : التصبر والتسلى عن المصيبة بما يصرفنا عنها .

(٣) سَهِد يسْهد : لم ينم . ورجل سهد : قليل النوم . والسُّهاد : الأرق . وقد سهَّده الهم والوجع . [لسان العرب - مادة : سهد] .

(٤) السرمد : الأبدى الدائم الذى لا ينقطع . وقد قال تعالى : ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا (٧٢)﴾ [القصص] .

فلما أراد أنْ ينصرف قال : والسَّلام عليكما سلامَ مُودِّع لا قالٍ ولا سَئِم ، فإنْ أنصرف فلا عن ملالة ، وإنْ نُقِم فلا عن سوء ظن بما وعد الله به عباده الصابرين .

ومعنى ﴿ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [الزخرف] أى : يرفعون أصواتهم بالضحك والسخرية من رسول الله .

﴿ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾

يعنى : كان هدفهم من الحديث عن عيسى والعُزَير والملائكة ، وسؤالهم : أيدخلون النار مع عابديهم ، مجرد جدل ، وهذا جدل مذموم ، لأنهم يريدون أنْ يُبرروا باطلهم . إذن : جدل باطل ممنوع ، أما الجدل المحمود الذى شرعه الشارع فهو الجدل البنَّاء الموصِّل إلى الحق .

لذلك قال الحق عنهم : ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الزخرف] معنى (خصم) يعنى : مبالغة فى الخصومة ، وهى الجدل بالباطل ، واللَّدد والعناد . نقول : خاصمنى فلان فخصمْتُه يعنى : انتصرتُ عليه .

﴿ إِنۡ هُوَ إِلَّا عَبۡدٌ أَنۡعَمۡنَا عَلَيۡهِ وَجَعَلۡنَٰهُ مَثَلٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ ﴾

﴿ إِنْ هُوَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [الزخرف] هنا تفيد النفى يعنى : ما هو أى سيدنا عيسى ﴿ إِلاَّ عَبْدٌ ﴿٥٩﴾ ﴾ [الزخرف] عبد لله كسائر الخلْق يعنى ليس إلهاً كما يدَّعون ﴿ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِّبَنِى إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾ ﴾

[الزخرف] مثلاً يعنى عبرة أو عجيبة من عجائب الخَلْق تظل باقية أبد الدهر ، أليس عجيباً أن يتكلم عيسى فى المهد ؟

فلما سُئلَتْ عنه أمه لم تشأ أنْ تتكلم ، لأن كلامها لن ينفى عنها تهمة القوم ، فأشارت إليه ، عندها تعجبوا ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (٢٩)﴾ [مريم] فنطق عيسى وهو فى مهده : ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ (٣٠)﴾ [مريم]

فكان أول كلامه أنْ أثبت عبوديته لله ، وهذه المسألة يُخفيها بعض النصارى ، لأنها تتعارض ومعتقداتهم فى المسيح .

وعجيب أنْ يقول بعد ذلك ﴿آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠)﴾ [مريم] هكذا بصيغة الماضى وهو ما يزال فى مهده ، كيف ؟ لقد آتاه اللهُ الكتابَ وجعله نبياً بعد أنْ كبر وبلغ مبلغَ التكليف وحمل الرسالة ، إذن : ما يريده الله سوف يحدث لا محالة ، وقد أخبره الله بذلك وهو فى مهده .

وكلمة ﴿عَبْدٌ (٥٩)﴾ [الزخرف] محل العطاء الأوفى من الله ، ما دُمْتَ تخلص العبودية لله . هذا الإخلاص الذى رفع العبد الصالح إلى أنْ يسير موسى عليه السلام فى ركابه ويتعلم منه ، وقال الله عنه : ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا (٦٥)﴾ [الكهف]

وفى الإسراء قال تعالى : ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ (١)﴾ [الإسراء] فكأن العبودية هى محلُّ العطاء ، عطاء الرسالة وما هو فوق الرسالة .

وهنا أيضاً كانت عبودية المسيح هى محلُّ ﴿أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ (٥٩)﴾

[الزخرف] بماذا ؟ أنعمنا عليه بالاصطفاء للرسالة ، وخلقناه على غير مثال سابق فى الخلق ؛ لذلك قال سبحانه : ﴿ وجعلنا ابن مريم وأمه آية (٥٠) ﴾ [المؤمنون] أى : معجزة عجيبة دالة على طلاقة القدرة .

وقال هنا ﴿ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِّبَنِى إِسْرَائِيلَ (٥٩) ﴾ [الزخرف] لأنهم قوم ماديون لا يؤمنون بالغيبيات ، ودائماً يطلبون الشيء المادى الذى تقع عليه حواسّهم .

ألم يقولوا لموسى : ﴿ أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً (١٥٣) ﴾ [النساء] وهو سبحانه غَيْب ﴿ لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ (١٠٣) ﴾ [الأنعام]

ولما أنزل الله عليهم المنَّ والسَّلْوى ، وهو من أجود الطعام وأحسنه قالوا : ﴿ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا(١) وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِى هُوَ خَيْرٌ (٦١) ﴾ [البقرة]

﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَائِكَةً فِى الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ (٦٠) ﴾

يعنى : لو أراد الحق سبحانه لجعل بدلاً منهم - أى : بنى إسرائيل - ملائكة يخلفونهم فى عمارة الأرض ، ولا يكون ذلك إلا بهلاكهم وإبادتهم ، فهذا الأمر ليس بعسير على قدرة الله ، وفى الآية دليلٌ على طلاقة القدرة ، وأنه سبحانه يفعل ما يريد ، فلو شاء لَفعلَ .

---

(١) فى الفوم ثلاثة أقوال :
- أنه الحنطة . قاله ابن عباس والسدى عن أشياخه .
- أنه الثوم . وهو قراءة عبد الله وأبىّ . واختاره الفراء .
- أنه الحبوب . ذكره ابن قتيبة والزجاج . [زاد المسير لابن الجوزى] .

﴿ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٦١) ﴾ (١)

﴿ وَإِنَّهُ (٦١) ﴾ [الزخرف] أى : عيسى عليه السلام ﴿ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ (٦١) ﴾ [الزخرف] يعنى : علامة من علاماتها يدلُّ على قرب وقوعها ﴿ فَلا تَمْتَرُنَّ بِهَا (٦١) ﴾ [الزخرف] لا تشكُّون فيها ولا تجادلون فى وقوعها لأنها حق لا مرية فيه .

﴿ وَاتَّبِعُونِ (٦١) ﴾ [الزخرف] كونوا تابعين لى مقتنعين بكلامى مُقلِّدين لى ، لأنى أُسْوة لكم فى حركة الحياة وفى العبادة ﴿ هَٰذَا (٦١) ﴾ [الزخرف] أى : ما جئتكم به ﴿ صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٦١) ﴾ [الزخرف]

والحق سبحانه وتعالى جعل للساعة علامات واضحة تدل عليها ، لأنها من الغيب الذى لا يطلع عليه أحدٌ إلا الله ولا يعرفها أحد ، وكلُّ ما نعرفه عن الساعة علاماتها الدالة عليها .

والذى نعتقده فى سيدنا عيسى أنه حَىٌّ فى السماء ، وأنه سينزل

---

(١) الضمير فى (وإنه) يعود على :

- القرآن . قاله الحسن وقتادة وسعيد بن جبير . لأن القرآن يدل على قرب مجىء الساعة . أو به تُعلم الساعة وأهوالها وأحوالها .

- خروج عيسى عليه السلام . قاله ابن عباس ومجاهد والضحاك والسدى وقتادة أيضاً . وذلك من أعلام الساعة لأن الله ينزله من السماء قبيل قيام الساعة ، كما أن خروج الدجال من أعلام الساعة .

- محمد . قاله القرطبى [٦١٥٤/٩] قال : [ويحتمل أن يكون المعنى (وإنه) وإن محمداً ﷺ لعلم للساعة بدليل قوله عليه السلام : « بُعثت أنا والساعة كهاتين » . وقال الحسن : أول أشراطها محمد] .

إلى الأرض .

وفى حديث الإسـراء أنه نزل وصلَّى خلف رسول الله ، وهو وإنْ كان حياً فى السماء إلا أنه سينزل إلى الأرض ويموت ويُدفن .

ونقـول لمن يعارض هـذه المسـألة ، وكـيف أن عيـسى حَىٌّ فى السماء : لقد أُسرِى برسول الله ﷺ وعُرِج به إلى السماء ، وظل هناك فـترة من الزمـنَ طالتْ أم قصـرتْ ، فـحين نقـول : إن عـيـسى فى السماء ، فـالخلاف فقط فى مسألة الفتـرة ، والذى يمكث فى السماء ساعة أو ساعتين يمكث أكثر .

﴿ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ ﴾

يعنى : لا يمنعكم ولا يصـرفكم عن الحق والهدى ﴿ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ ﴾ [الزخرف] يعنى : واضح العداوة ، وعـداوته لكم راسخة وقديمة منذ أبيكم آدم ، فلا تعـطوه الفرصة لأنْ يصدكم عن الحق أو يفتح لكم أبواب الشبـهة ، لأنه يتصيَّد مواطن الخـلاف ويحوم حولها حتى يُوقعكم فى الضلال .

فـهو القائل : ﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ﴾ [الأعراف] أى : فى أمـاكن الطاعة ليـفـسدها عليـهم ، والحق سـبـحـانه يُعلِّـمنا كـيف نتحصّن منه ﴿ وَإِمَّا يَـنزَغَـنَّكَ مِنَ الشَّـيْطَانِ نَـزْغٌ فَاسْـتَعِذْ بِاللَّـهِ ﴿٢٠٠﴾ ﴾ [الأعراف] فاسـم الله هو الذى يطرد عنك وساوسَ الشـيطان ونزغاته ، لأن وارد الشيطان لا بقاء له أبداً مع وارد الرحمن .

قلنا : لو أن لصـاً يحوم حـول بيتك فـسمـعك تقول إحم ، فـإنه يتراجع وينصـرف ولو قلتها حـتى مصادفة ، فـأىُّ نزغ من الشيطان

ساعةَ تشعر بأنه يحوم حولك ، مـا عليك إلا أنْ تذكر الله وتستعيذ به من وساوسه .

تقول : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم تقـولها بصوت عَال ، وقد اعترف الشيطان نفسه بأنه لا سلطانَ له على الذين آمنوا وأخلصوا لله تعالى : ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣)﴾ [ص]

﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدۡ جِئۡتُكُم بِٱلۡحِكۡمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي تَخۡتَلِفُونَ فِيهِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (٦٣)﴾

﴿بِالْبَيِّنَاتِ (٦٣)﴾ [الزخرف] الآيات والمعجزات ﴿قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ (٦٣)﴾[الزخرف] يعنى : الإنجيل وما فيه من أحكام ﴿وَلأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ (٦٣)﴾ [الزخرف] والذى اختلفوا فيه قبل عيسى أو بعد أن انتقل عـيسى ، فقالوا عنه : ابن الله . وقالوا : ثالث ثلاثة . واليهود قالوا أكثر من هذا .

الحق سـبـحـانه يقـول : أنا أعطيتُـه الحكمـة يعنى : الإنجـيل . والحكمة تعنى : وضع الشيء فى موضعه ، وعيسى عليه السلام جاء بعد اليهودية ، وكانت اليهودية مسرفة فى المادية ومنها ينطلقون فى كل شيء .

وقلنا : إن هـذه المـادية هى الـتى دعـتـهم إلى أنْ يطلبـوا من رسولهم رؤية الله ﴿فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً (١٥٣)﴾ [النساء] فلا مجالَ للغيبيات فى حياتهم ، حـتى فى طعامهم وشرابهم لما أنزل الله عليهم

المنّ والسَّلْوى لم يقتنعوا به ، وأرادوا طعاماً يصنعونه بأيديهم ، فقال لهم : ﴿ اهْبِطُوا مِصْرًا(١) فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ (٦١) ﴾ [البقرة]

لذلك حينما تقرأ التوراة لا تجد فيها ذكراً لليوم الآخر وكذلك التلمود ، مع أن اليوم الآخر والإيمان به ركن من أركان الإيمان ، لكنهم لماديتهم لا يُصدقون به ؛ لذلك لما جاءت رسالة عيسى عليه السلام جاءت كلها روحانيات لتَجْبُرَ النقص الروحى فى اليهودية ولتستوى كفّة الاعتدال فى الخَلْق .

لذلك لا نجد فى الإنجيل شيئاً عن تقنينات المجتمع ، فإنْ أرادوا شيئاً من ذلك أخذوه من التوراة ، وقد اضطروا - مع ما بينهم من عداء - إلى أنْ يجمعوا التوراة والإنجيل فى كتاب واحد وأسْموه العهد القديم ؛ لأن عيسى عليه السلام سُئِلَ مرة عن الميراث فقال : أنا لم أُبعث مُورِّثاً .

إذن : لما طغَتْ المادية قابلها بروحانية ، ليحدثَ الاعتدالُ فى حركة الحياة لأن الروحانيةَ هى التى تدفع الحركة المادية ؛ لذلك جاءت رسالة عيسى تُربِّى المواجيد الدينية وترتفع بالروحانيات .

فالحياة تحتاج للجانبين معاً الحركة المادية التى تتفاعل مع الكون والطبيعة ، ففى الكون أشياء تعطيك دون أنْ تتفاعل معها كالشمس والقمر والنجوم والماء والهواء ، فأنت فقط مُستقبل ، وأشياء أخرى

---

(١) (اهبطوا مصراً) بالتنوين ، فيه قولان :
- أنه اسم لمصر من الأمصار غير معين . قاله ابن مسعود وابن عباس . وإنما أُمروا بالمصر لأن الذى طلبوه فى الأمصار .
- أنه أراد البلد المسمى مصر . وهذا قول أبى العالية والضحاك . [زاد المسير لابن الجوزى] .

لا تعطيك إلا حين تتفاعل معها ، كالأرض تزرعها وتحرثها وترعاها فتعطيك الزرع .

ولأن اليهودية بالغتْ فى المادية بالغتْ كذلك المسيحية فى الروحانية ، ومن أقوال السيد المسيح عليه السلام أنه لما رآهم يرجمون امرأة قال[١] : « مَنْ كان منكم بلا خطيئة فليرجمها » ، وقال[٢] : من ضربك على خَدِّك الأيمن أعطه خدك الأيسر .

وهذه رهبانية لم يكتبها الله عليهم ، إنما تطوعوا بها ، وآفة ذلك أنهم ما رعوْهَا حَقَّ رعايتها ، يقول تعالى : ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (٢٧) ﴾ [الحديد]

إذن : الذى أُخذ عليهم ليس الرهبانية ، إنما أُخذ عليهم أنهم ما رَعوْهَا حَقَّ رعايتها ، وما دامت اليهودية بالغتْ فى المادية ، وجاءت المسيحية روحانية صِرْفة ليس فيها شىء من قوانين تنظيم المجتمع ، كان لابدَّ من إصلاح الحالتين ، واحتاجت حركة الحياة لدين جديد ورسالة جديدة تراعى الجانبين الروحانى والمادى ، فكانت هى رسالة الإسلام .

---

(١) جاء هذا فى إنجيل يوحنا ونصه (يوحنا ٨ : ٧) : « من كان منكم بلا خطيئة فليرمها أولاً بحجر » .

(٢) وذلك فى إنجيل متى أصحاح ٥٥ عدد ٣٩ ونصه : « لا تقاوموا الشر بل من لطمك على خدك الأيمن فحوِّل له الآخر أيضاً » .

وتأمل كيف ضرب القـرآن مثلاً لمحمد وأمتـه ، مرة فى التوراة ، ومرة فى الإنجيل :

﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ[1] فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ (٢٩) ﴾ [الفتح]

هكذا جمعتْ أمة الإسلام بين الروح والمادة ، فالمسلم لم يُطبع على الشدة ، ولم يُطبع على الرحمة ، بل يُشكِّله الموقف ، لكن أشداء على مَنْ ؟ ورحماءُ لمَنْ ؟

وتأمل دقة التعبير القرآنى فى إعطاء مَثَل لأمة الإسلام فى التوراة وفى الإنجيل ، فلأن اليهود كانوا قوماً ماديين أعطاهم الجانب الروحى فى الإسلام : ﴿ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ (٢٩) ﴾ [الفتح]

أما فى الإنجيل فذكر الجانب المادى فى الإسلام : ﴿ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ (٢٩) ﴾ [الفتح]

فكأن الإسلام بجمعه بين المادية والروحية هو المنهج المناسب

---

(١) شطء الزرع : ما خرج وتفرع منه من ورق وأغصان وفروع . [القاموس القويم ٣٤٨/١] . (فآزره) أى : قوّاه . والأَزْر : القوة . [القاموس القويم ١٨/١] . قال ابن كثير فى تفسيره (٢٠٤/٤) : « فكذلك أصحاب رسول الله ﷺ آزروه وأيدوه ونصروه فهم معه كالشطء مع الزرع » .

الصالح لقيادة حركة الحياة ، فالروحية لا تستقيمُ أبداً بدون المادية ، فالعابد مثلاً لا يقيم عبادته إلا برغيف يقيم أَوْده وثوب يستر عورته ، فمن أين يأتى بالرغيف ؟ ومن أين يأتى بالثوب ؟ الرغيف يحتاج إلى فلاح يزرع ويحصد ، ويحتاج إلى مطحن ، وإلى مخبز وعمال .. إلخ وكذلك الثوب وكلها حركة مادية .

لذلك جعل الحق سبحانه القرآن مهيمناً على الكتب السابقة ﴿ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴿٤٨﴾ ﴾ [المائدة] وقال : ﴿ وَإِنَّهُ فِى أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾ [الزخرف] أى : يعلو على كُلِّ الكتب السماوية .

وقوله تعالى : ﴿ وَلأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ﴿٦٣﴾ ﴾ [الزخرف] مثل الأشياء المحرمة على اليهود ، والتى أحلَّها الله لهم مثل الإبل ، كما قال تعالى : ﴿ وَلأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴿٥٠﴾ ﴾ [آل عمران] وقال : ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا[1] أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ﴿١٤٦﴾ ﴾ [الأنعام]

﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ ﴾

نلاحظ هنا استخدام الضمير المنفصل ﴿ هُوَ ﴿٦٤﴾ ﴾[الزخرف] الذى يفيد القصر ، فالله هو ربى ، ليس غيره رباً لى ولا لكم ﴿ فَاعْبُدُوهُ ﴿٦٤﴾ ﴾[الزخرف] لأنه حق ﴿ هَٰذَا ﴿٦٤﴾ ﴾[الزخرف] أى : ما أدعوكم إليه ﴿ صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ ﴾ [الزخرف] طريق سوىّ لا عِوجَ فيه .

---

(١) الحوايا : الأمعاء وهى مشتقة من حوى يحوى لأنها تحتوى على الطعام [القاموس القويم ١/١٧٩] .

وقلنا : إن الصراط المستقيم هو الطريق (العدل) الذى يُوصِّلك للغاية من أقرب مسافة وبأقل مشقَّة ، وإذا كان الطريق يوصلك من إلى ، فالطريق إلى الله يُوصِّلك من الله إلى الله ، من الله تكليفاً ، وإلى الله ثمرة وأجْراً ، حيث الرجوع إليه وحده .

﴿ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ[(1)] مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ ﴾

﴿ الأَحْزَابُ ﴿٦٥﴾ ﴾ [الزخرف] جمع : حزب وهم الجماعة من الناس يجمعهم فكرٌ واحد واعتقاد واحد ، واختلاف الأحزاب يدل على أنها على خطأ وأنها أحزابُ الشيطان ، لأن حزبَ الله واحد يأخذ فكره ومعتقداته من كتاب الله : ﴿ أُوْلَـٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [المجادلة]

﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ ﴾ [الزخرف] ويل يعنى : هلاك ، هلاك ممَّنْ ؟ من الله والفعل كما قلنا يُقاس بقوة الفاعل ، فما بالك إنْ كان العذابُ والهلاكُ من الله ؟

وقالوا : ويْلٌ وادٍ فى جهنم ﴿ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا ﴿٦٥﴾ ﴾ [الزخرف] أى : ظلموا أنفسهم بالشهوات وبالمعاصى ، أو ظلموا غيرهم من الناس

---

(١) المقصود بالأحزاب هنا أحد قولين ذكرهما القرطبى فى تفسيره (٩/٦١٥٦) :
– أنهم أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، خالف بعضهم بعضاً . قاله مجاهد والسدى .
– أنهم فرق النصارى من النسطورية والملكية واليعاقبة (أى : الكاثوليك والأورثوذكس والبروتستانت بتعبير العصر الحديث) الذين اختلفوا فى عيسى فقالت النسطورية : هو ابن الله . وقالت اليعاقبة : هو الله . وقالت الملكية : ثالث ثلاثة أحدهم الله . قاله الكلبى ومقاتل.

﴿مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ (٦٥)﴾ [الزخرف] فما بالك بالعذاب نفسه ، إذا كان اليوم الذى يحدث فيه العذاب يوماً مؤلماً ، فكيف يكون العذاب ؟

والعذاب يُوصف بأنه أليم يعنى : مؤلم للحسن . ويُوصف بأنه مقيم يعنى : دائم لا ينقطع . ويُوصف بأنه عظيم وشديد ، ويُوصف بأنه مُهين لمَنْ أراد الله إهانته وإذلاله فوق العذاب ، إذن : لكل مُجَرَّمٍ ما يناسبه من العذاب .

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٦٦)﴾

أى : لا ينتظرون إلا الساعة أى القيامة ﴿أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً (٦٦)﴾ [الزخرف] أى : فجأة ﴿وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (٦٦)﴾ [الزخرف] فإذا علم أنها تأتى فجأة وجب الاستعدادُ لها ، حيث لا أحَد يعرف موعدها ﴿لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ (١٨٧)﴾ [الأعراف]

وقلنا : إبهام القيامة وإبهام الموت هو عين البيان وغاية التوضيح ، فالإبهام الزمنى يُوسع العظة فتستعد وتنتظره فى كلِّ وقت ، كذلك إبهام السبب وإبهام المكان . ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ (٣٤)﴾ [لقمان] والموت من دون أسباب هو السبب .

﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ (٦٧)﴾

الكلام هنا عن يوم القيامة ، حيث تنقلب موازين الإخاء والخُلَّة ، قوله تعالى : ﴿الأَخِلاَّءُ (٦٧)﴾ [الزخرف] جمع : خليل ، وهو الصاحب الذى تودّه وتحبه حتى كأنك تداخلتَ فى أعضائه واختلط بلحمه ودمه ، كما قال الشاعر[١] :

وَلَمَّا التقيْنَا قَرَّبَ الشَّوْقُ جَهْدَهُ   خَليليْنِ ذَابَا لَوْعَةً وَعِتَابَا
كَأَنَّ خَليلاً فِى خِلالِ خَليلِهِ   تسرّب أَثْنَاءَ العِنَاقِ وَغَابَا[٢]

والخُلَّة إمَّا أنْ تكونَ فى الخير ، وإما أنْ تكون فى الشر ، خُلَّة الخير هى التى تُعينك على منهج الله ، والخليل الحق هو الذى إنْ رآك على الخير أعانك ، وإنْ رآك على غير ذلك نصحك وأخذ بيدك .

يقول تعالى فى وصف الذين آمنوا : ﴿إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣)﴾ [العصر]

وهذان هما الخلان اللذان عَنَاهُمَا رسول الله فى الحديث الشريف : « سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله ، ومنهم : ورجلان تحابَّا فى الله اجتمعا عليه وتفرَّقا عليه »[٣] وهذه خُلة الحق وخُلَّة

---

(١) هو إسماعيل صبرى باشا من شعراء الطبقة الأولى فى العصر الحديث ، امتاز بجمال مقطوعاته وعذوبة أسلوبه ، ولد ١٨٥٤ م ، درس الحقوق فى فرنسا ، كان يكتب شعره على هوامش الكتب والمجلات ، توفى بالقاهرة عام ١٩٢٣ م عن ٦٩ عاماً . [الموسوعة الشعرية] .

(٢) البيتان لإسماعيل صبرى وهما قصيدة من بحر الطويل ، وفي لفظهما فى الموسوعة الشعرية اختلاف بسيط ، ففيها (شجيين فاضا) بدل (خليلين ذابا) وكذلك (كأن حبيباً في خلال حبيبه) بدل (كأن خليلاً فى خلال خليله) .

(٣) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٠٣١) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه . وأول السبعة : إمام عادل . وكذا أخرجه الإمام مالك فى موطئه (١٥٠١) ، والبخارى فى صحيحه (٦٢٠ ، ١٣٣٤ ، ٦٣٠٨) .

الصدق التى تدوم فى الدنيا وتتصل مودَّتها إلى يوم القيامة ، فهُم أخلاء فى الدنيا ، أخلاَّء فى الآخرة .

أما الأخلاَّء فى الشَّر الذين يجتمعون على الشهوات وعلى انتهاك حُرمات الله ، فهؤلاء تنقلب خُلَّتهم فى الآخرة إلى عداوة وبغضاء ، حيث يلوم كلٌّ منهم صاحبه ، فالشر الذى اجتمعوا عليه فى الدنيا أهلكهم فى الآخرة ، والمعاصى التى تحابُّوا من أجلها هى التى ألقتْهم فى العذاب المقيم .

فكلٌّ واحد منهم يرى فى الآخر عدواً له لأنه لم يزجره ولم ينهه . ومن هنا اهتمَّ الإسلام باختيار الصديق والصاحب ، وعلَّمنا كيف نختار الجليس الصالح والرفيق الصالح .

إذن : ساعة الجزاء ينكشف زَيْفُ العلاقات ، ولا تبقى إلا وشائج الخير التى تربط الأخ بأخيه ، والقرآن الكريم فى أكثر من موضع يُصوِّر لنا ما يدور بين هؤلاء الأخلاء فى الدنيا الأعداء فى الآخرة .

من ذلك قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الأَسْفَلِينَ (٢٩) ﴾ [فصلت]

﴿ يَـٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ (٦٨) ﴾

كلمة عبد تُجمع على : عبيد وعباد ولكل منهما معنى ، عبيد تشمل كل الناس المؤمن والكافر والطائع والعاصى ، لأنهم جميعاً عبيد بمعنى خاضعين لله فى قَهْريات لا يمكنهم أبداً الفكاك عنها كالمرض والموت وغيره ، كلنا مشتركون فيها ، وكلنا عبيد بهذا المعنى .

أما العباد فَهُم الخاصَّة الذين اختاروا الله ، وأخلصوا له العبادة ، وتنازلوا عن اختيارهم لاختيار ربهم ومراده فاستحقوا هذه المنزلة .

﴿يَٰعِبَادِ ﴿٦٨﴾﴾ [الزخرف] فنسبهم الله إليه وأضافهم إلى ذاته تعالى ، ولم يأت لفظ عباد خلاف هذا المعنى إلا في موضع واحد في معرض الحديث عن يوم القيامة : ﴿أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰؤُلَاءِ ﴿١٧﴾﴾ [الفرقان] فسمَّاهم عباداً مع أنهم ضالون . قالوا : لأن الكلام هنا عن يوم القيامة حيث لم يَعُدْ لأحد اختيار في أنْ يؤمن أو يكفر ، فالجميع هنا طائع لا اختيارَ له فسمَّاهم عباداً .

فالحق سبحانه يكرمنا بهذا النداء ﴿يَٰعِبَادِ ﴿٦٨﴾﴾ [الزخرف] ويشرفنا بالانتساب إليه سبحانه على حَدِّ قول الشاعر[1] :

وَممَّا زَادَنى شَرَفاً وَعِزاً ... وَكِدْتُ بأخمُصى أطَأُ الثُّرَيَّا

دُخولى تحتَ قوْلكَ يا عَبادى ... وَأنْ صَيَّرتَ أحمدَ لى نبيّاً[2]

وقوله : ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الزخرف] نعم فأيُّ خوف ونحن عباد الله ؟ أيُّ خوف يصيبنا بعد أن التحمنا به تعالى ، ألسنا في الدنيا نقول : لا كرب ، وأنت ربّ ؟ إذن : ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الزخرف] أى : على ما فاتكم من نعيم الدنيا لأنكم مُقبلون على ما هو خير وأبقى من نعيم الدنيا .

---

(١) هو : محمد الهلالى الحموى ، شاعر من شعراء العصر الحديث ، له المنظومات الهلالية . ولد ١٨٢٠ م وتوفى ١٨٩٤ م عن ٧٥ عاماً . له ٣٠٨ قصيدة ، عدد أبياتها جميعاً ٦٠٥٩ بيتاً . [الموسوعة الشعرية] .

(٢) البيتان من قصيدة من بحر الوافر ، عدد أبياتها ٦ أبيات . [الموسوعة الشعرية] .

﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾

هذه الآية تبين أن هناك فرقاً بين الإيمان والإسلام ، الإيمان عمل القلب ، والإسلام عمل الجوارح التى تنفذ المنهج الذى أمرك به الله ، لذلك رأينا المنافقين هم أسبقُ الناس إلى الصلاة ، مع أن قلوبهم ليست كذلك .

واقرأ قوله تعالى : ﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَـٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا ﴿١٤﴾ ﴾ [الحجرات] لذلك كانوا يقفون فى الصف الأول لينفوا عن أنفسهم تهمة النفاق ، ومن العجيب أن يظهر النفاق فى المدينة وهى بلد الأنصار ومنطلق الإسلام ، ولم يظهر فى مكة معقل الكفر والأصنام ، وأشد البلاد عداءً للإسلام .

ولما تأملنا هذه الظاهرة قلنا : إن النفاق لا يظهر إلا أمام قوة ترهب فيظهر مَنْ ينافقها ، وقد أصبح رسول الله فى المدينة قوة ترهب ، وله شوكة وأنصار وجيش ، أما فى مكة فكان فى موقف ضعف واضطهاد ، فعلامَ يُنَافَق ؟

قوله تعالى : ﴿ الَّذينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا ﴿٦٩﴾ ﴾ [الزخرف] أى : اقتنعتْ قلوبهم بها ، والاقتناع له مراتب : علم اليقين حين يخبرك مَنْ تثق فى صدقه ، وعين اليقين حين تشاهد الشىء بعينك ، وحق اليقين حين تباشره وتُجرِّبه بحواسِّك أنت .

أذكر أننى سافرت مرة إلى أندونيسيا ، ورأيت هناك أصابع الموز الأصبع الواحد نصف متر ، فتعجبتُ وأخذت منها معى حين عودتى

إلى مصر ليراها أولادى ، فلما عدت قلتُ لهم تصوَّروا لقد رأيت فى إندونيسيا كذا وكذا ، طبعاً تعجبوا وهم يعرفون أنِّى لا أكذب عليهم ، هذا يُسمَّى علم اليقين .

ثم قلتُ لهم : افتحوا هذه الحقيبة ، ففتحوها ووجدوا بها أصابع الموز كما أخبرتهم ، هذا يسمى عين اليقين ، فلما أخرجوها وتذوَّقوا طعمها وباشروا ملمسها ولونها أصبح الأمرُ حق اليقين ، وهكذا .

فالذى يؤمن علمَ اليقين هل يُنفذ ما آمن به ، الذى يعمل وينفذ مسلم ، والذى لا ينفذ منافق ، لأنه آمن باللسان ولم يعمل بما آمن به .

والأعراب لما سمعوا هذه الآية اطمأنوا إلى أنهم سيؤمنون فى المستقبل ، لأنهم يعرفون معنى (لما) ، فهى تفيد نفى الماضى والحاضر دون المستقبل .

فقوله تعالى : ﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ (١٤) ﴾ [الحجرات] إذن : سيدخل فيما بعد .

﴿ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ (٧٠) ﴾ (١)

---

(١) وردت عدة أقوال فى معنى قوله تعالى ﴿ تحبرون ﴾ ذكرها القرطبى فى تفسيره (٦١٥٩/٩) :

- تُكرمون . قاله ابن عباس . والكرامة فى المنزلة .
- تفرحون . قاله الحسن . والفرح فى القلب .
- تُنعمون . قاله قتادة . والنعيم فى البدن .
- تُسرون . قاله مجاهد . والسرور فى العين
- تعجبون . قاله ابن أبى نجيح . والعجب هاهنا دَرْك ما يُستطرف .
- هو التلذذ بالسماع . قاله يحى بن أبى كثير .

قلت : هى حالة من الفرح والسرور تجمع كل هذه المعانى التى ذكرها المفسرون تلازم المؤمن فى الجنة فهو تنعُّم يشمل كل حواسه وجوارحه وقلبه [عادل أبو المعاطى] .

هذا هو الجزاء ، جزاء الذين آمنوا وكانوا مسلمين ، يقول الله لهم أى يوم القيامة : ﴿ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [الزخرف] وخصَّ الأزواج لأن كلَّ متعة يتمتعها الإنسان ويُسَرُّ بها تدبُّ فيه غرائز المراهقة ، ويميل إلى أنْ تكونَ له زوجة تشاركه متعته وسروره ، وهى كذلك .

فالزوج إذن - سواء الزوج أو الزوجة - هو المرافق المشتهى أولاً ، والمعين ثانياً سكناً ومودَّة ورحمة ، السكن والمودة معروفة بين الزوجين ، أما الرحمة فمتى تكون ؟

الرحمة نراها بين الزوجين فى فترة الكِبَر والشيخوخة حينما يكون كلٌّ منهما فى حاجة إلى الرحمة من الآخر ، الرحمة قبل أىِّ مشاعر أخرى .

ومعنى ﴿ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [الزخرف] الحبور : شدة السُّرور ، وهو شىء من الصفاء والوضاءة والبهاء تعلو وجه الإنسان حينما يفرح فرحاً لا يُنغّصه شىء ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ ﴾ [المطففين]

﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٧١﴾ ﴾

الحديث هنا عن نعيم الجنة ، والصحاف : جمع صحفة وهى (الطبق) الواسع الذى تأكل فيه الأسرة كلها ، والأكبر منها قصعة ، والأكبر من القصعة جفنة ، لذلك ورد فى الحديث الشريف أن رسول

الله أخبر عن ابن جدعان[١] أنه كان له جَفْنة كبيرة حتى أنه كان يُستظلُّ بظلها من حَرِّ الشمس[٢] .

وفى قصة سيدنا سليمان والجن الذى سخَّره الله لخدمته ، قال تعالى : ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ[٣] وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ .. (١٣) ﴾ [سبأ]

كذلك فى الجنة صحاف لكن من ذهب .

﴿ وَأَكْوَابٍ (٧١) ﴾ [الزخرف] جمع كوب ، وهو إناء يُشرب فيه ليستْ له عُرْوة ، وهناك الأباريق جمع إبريق ، وهو إناء يُشرب فيه له عروة وفتحة من أعلى ، وهناك الكأس وهى الكوب إذا كان ملآناً بالشراب .

﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ (٧١) ﴾ [الزخرف] هذا وَصْف مُوجز للمتعدِّد الذى يطول المقام بذكر تفاصيله ، فالذى يُقدَّم فى هذه الصحاف وفى هذه الأكواب مما تشتهيه الأنفسُ من الطعام والشراب ، هذا من حيث الطعم .

﴿ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ (٧١) ﴾ [الزخرف] يعنى : لونه رائقٌ لك جميل فى

---

(١) عبد الله بن جدعان التيمى القرشى ، أحد الأجواد المشهورين فى الجاهلية أدرك النبى قبل النبوة ، له أخبار كثيرة أورد الأصفهانى وغيره بعضها وسماه اليعقوبى بين حكام العرب فى الجاهلية . [الأعلام للزركلى ٤/٧٦] .

(٢) قال إسماعيل حقى فى تفسيره : « كان لعبد الله بن جدعان من رؤساء قريش وهو ابن عم عائشة رضى الله عنها جفنة يُستظل بظلها ويصل إليها المتناول من ظهر البعير ووقع فيها صبى فغرق ، وكان يطعم الفقراء كل يوم من تلك الجفنة » .

(٣) الجفان جمع جفنة وهى القصعة الكبيرة ، والجوابى جمع جابية وهى الحوض الكبير يُجْبى فيه الماء . [زاد المسير لابن الجوزى] .

عينك ، مـجرد النظر إليـه فيه لـذة ، فما بالك بطعـمه ومـذاقه ، لذلك حينمـا تستـضيف مثـلاً عزيزاً لديك تقول لـه : ماذا تحب أن تأكل ، لماذا ؟ لتصنع له ما يشتهيه وما تميل إليه نفسه .

يعنى : المسـألة ليست (حشو بطن) فحـسب . وتلحظ أنه ذكر الصِّحاف أولاً ، ثم الأكـواب ، لأن الإنسـانَ عادة يأكل ثم يشـرب ، ففيها ترتيب للأهمية .

وذكر لذة الأعين بالطعام ، لأنك تجد بالنظر إليـه متعة ربما تفوق متـعةَ الأكل ، لذلك قـال تعالى فى مـوضع آخر ﴿انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ[1] (٩٩)﴾ [الأنعام] فجمع إلى لذة الطعام لذة النظر إليه .

وقوله : ﴿وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٧١)﴾ [الزخرف] لأن هذه دارُ بقاء وخلود ، ليس فيها موت ، وليس فيها انقطاعٌ للنعمة فلا تفوتك النعمة ولا تفوتها ، يعنى : لذة صـافية لا يُنغِّصها شىء ، كـما قال تعالى : ﴿لا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ (٣٣)﴾ [الواقعة] لأنها عطاء الله ، وعطاءُ الله دائمٌ لا ينقطع .

﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٧٢)﴾

قوله ﴿أُورِثْتُمُوهَا (٧٢)﴾ [الزخرف] أخذتموها إرثاً ، والإرث يكون بعد مـوت صاحبـه كالميت يمـوت ويترك ملكه وتركتـه لمن بعده من أولاده وأقاربه ، إذن : هؤلاء يملكون التركـة بدون عقد وبدون ثمن ، لكن ورثوا مَنْ ؟

---

(١) أينع الثمـر : أدرك ونضج وحـان قطافـه . والوصف مـنه يانع أى ناضج قـال تعـالى : ﴿انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ (٩٩)﴾ [الأنعام] أى : ونضجه واختلاف طعمه بعد نضجه . [القاموس القويم ٢ / ٣٧٣] .

يقول تعالى فى آية أخرى : ﴿أُولَـٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾﴾ [المؤمنون] قالوا : الحق سبحانه وتعالى حين خلق الخَلْق أحصاه عدداً وكتب فى الميقات الأزلى كل شىء ، وقد صحَّ أن القلم قد جَفَّ على ذلك[(١)] .

ولما سُئل المأمون : ما شُغل ربك الآن وقد صَحَّ أن القلم قد جَفَّ ؟ قال : أمور يُبديها ولا يبتديها ، يرفع أقواماً ، ويخفض آخرين[(٢)] .

قالوا فى مسألة الإرث هذه أن المؤمنين فى الجنة ورثوا الكافرين وأخذوا أماكنهم فى الجنة ، لأن الحق سبحانه جعل لكل إنسان مكاناً فى الجنة ومكاناً فى النار ، حتى إنْ جاء كُلُّ الخَلْق مؤمنين طائعين كانت لهم أماكن تكفيهم فى الجنة ، وكذلك إنْ كفروا جميعاً وُجدتْ لهم أماكن فى النار .

فساعة يدخل أهلُ النار النارَ تخلُو أماكنهم فى الجنة فيجعلها الحق سبحانه من حَقِّ المؤمنين ويُورِثهم إياها تفضّلاً منه وتكَرُّماً أولاً ، ثم جزاء تفوقهم فى الإيمان والعمل الصالح فى الدنيا .

---

(١) أخرج الترمذى فى سننه (٢٥٦٦) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص قال قال رسول الله ﷺ : « إن الله عز وجل خلق خلقه فى ظلمة فألقى عليهم من نوره ، فمن أصابه من ذلك النور اهتدى ، ومن أخطأه ضل فلذلك أقول : جف القلم على علم الله » . قال الترمذى : حديث حسن . وكذا أحمد فى مسنده (٦٣٥٦ ، ٦٥٥٩)

(٢) أورده الشوكانى فى فيض القدير (٢/٢٩٢) أن عبد الله بن طاهر أمير خراسان سأل المأمون الحسين بن الفضل عن قوله تعالى ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾ [الرحمن] فقال : هى شئون يبديها ولا يبتديها ، فقام إليه وقبَّل رأسه . وذكره الزمخشرى فى الكشاف ، وكذلك [الفواكه الدوانى على رسالة ابن أبى زيد القيروانى ١ / ١٥٦] .

لذلك قال : ﴿ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٧٢) ﴾ [الزخرف] فالعمل الصالح إذن هو المعوّل الأساس فى دخول الجنة ، وفى إرث أماكن أهل النار .

ونلاحظ فى مسألة الإرث أنه ينقل ملكية الشىء من المورِّث إلى وارثه ، ويكون هذا الإرث حلالاً للوارث بصرف النظر عن مصدره من أين ، من حلال أو من حرام ، فلو أن رجلاً كسب مالاً من حرام فيتحمَّل هو وزره وحده ويُطوَّق به يوم القيامة .

فإن انتقل إلى الوارث كان بالنسبة له حلالاً لا شىء عليه فيه ، لأن المسئولية هنا لا تتعدى ، وقد حسم سيدنا رسول الله ﷺ هذه المسألة لما قال : « شرّكم مَنْ ماتَ بشرٍّ ، وتركَ عياله بخير »(١) .

لذلك الوارث ليس له أنْ يسأل عن مصدر هذا المال الذى ورثه ، فهو مثل الزوجة لا تسأل زوجها عن مصدر النفقة التى يدفعها لها ، ومثل الولد دون البلوغ ليس له أنْ يسألَ والده من أين يأتى بالمال الذى ينفقه عليه .

لكن للولد ذلك لما يبلغ ويصبح قادراً على الكسب ، فله أنْ يسأل لأنه أصبح قادراً على الكسب من الحلال بنفسه .

ذلك قياساً على قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا بَلَغَ الأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ (٥٩) ﴾ [النور] فبعد البلوغ لم يبْق له حَقٌّ على أبيه ، بل انتقل الحقُّ منه لأبيه إلا أنْ يتفضل الأب .

وقلنا : إن قضية تفضُّل الأب عندنا أثَّرتْ بالسلب على

---

(١) أخرجه القضاعى فى مسنده (الشهاب) (٢/ ٢٤) (٣٠٤) من حديث ابن عمر بلفظ : «الويل كل الويل لمن ترك عياله بخير وقدم على ربه بشرٍّ » . وعزاه العجلونى فى كشف الخفاء للديلمى (ح ٢٩٧٧) . وقد حكم الألبانى فى السلسلة الضعيفة والموضوعة (١٥٧/٤) بوضعه .

اقتصادياتنا ، لأن حنانَ الآباء الزائد وتدليلَ الأولاد جعل فترة الطفولة تمتدُّ فى شبابنا إلى سنِّ الخامسة والعشرين بل والثلاثين ، والولد فيها عَالةٌ على أبيه يريد منه كل شىء ، حتى الشقة والجهاز والزواج ، ركن الشباب عندنا إلى الراحة وألقوْا بالمسئولية على الآباء ، وهذا يضيع علينا طاقات كثيرة لا تُستغل .

لذلك تفوَّق علينا الغرب فى هذه المسألة ، ففى مثل هذه السِّنِّ يخرج الشابُّ عندهم إلى الحياة وإلى ساحة العمل ، ويتحمَّل مسئوليته بنفسه ، ويستقل كليةً عن الأسرة ، صحيح أنهم وقعوا فى خطأ فى هذا الموضوع أنهم سَوَّوْا بين الفتى والفتاة ، لأن الفتاة لها وَضْع آخر ، لذلك هنا نحتضنها إلى أنْ تتزوج ، فلا تخرج من بيت أبيها إلا إلى بيت زوجها .

﴿ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾

سبق أنْ ذكر الحق سبحانه الطعام والشراب فى الجنة وأنها فى صحَاف وفى أكواب وهذه معروفة للعرب ، وهنا يذكر أن من نعَم الجنة الفاكهة ، والعرب لم تكُنْ تعهد الفاكهة ولا تعرف الكثير منها ، لذلك خَصَّ الفاكهة بعد ذكر الطعام والشراب ، والفاكهة بعد الطعام والشراب دليل على الرفاهية والمتعة التامة ، والفاكهة من التفكّه . يعنى : ليست من الضروريات بل من الرفاهية (فنططية يعنى) .

الحق سبحانه وتعالى أعطانا ضروريات الحياة من المأكل والمشرب والملبس ، ثم زادنا ما نُرفِّه به حياتنا ، اقرأ مثلاً : ﴿ **يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ** .. ﴿٢٦﴾ ﴾ [الأعراف] فاللباس الذى يُوارى السوءة من الضروريات ورياش للزينة والترفّه ، ثم نبَّه إلى ما هو أهمّ من اللباس المادى ،

إنه اللباس المعنوى الذى يسترك فى دنياك وأُخْراك ، إنه لباسُ التقوى .

وبعد أنْ أعطانا الحق سبحانه صورة موجزة لأهل الجنة وبعض ما فيها من نعيم ليعطينا المقابل لتتضح الصورة أكثر ، وهذه سمَة من سمات الأسلوب القرآنى ، لأن النفسَ حين تذكر لها ما تنبسط له ، ثم تذكر ما تنقبض له يظهر لها الفرق ، مثل قوله تعالى : ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤)﴾ [الانفطار]

وهنا يقول تعالى :

﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (٧٤) لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (٧٥)﴾

الحق سبحانه يقرر لنا حقائق ثلاث عن المجرمين : أنهم خالدون فى العذاب فهو عذاب ممتدٌّ لا نهاية له ، ثم ﴿لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ .. (٧٥)﴾ [الزخرف] يعنى : لا يُخفف عنهم ﴿وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (٧٥)﴾ [الزخرف] يعنى : متحسِّرون يائسون من النجاة ، يائسون من الخير لا أملَ عندهم فى الخروج منها ، وهكذا جمع عليهم كلَّ جوانب الألم والحسرة واليأس وقَطْع الرجاء .

﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ (٧٦)﴾

لأن ما صاروا إليه من العذاب جزاءَ عملهم ليس ظُلْماً لهم ، لأننا هديناهم وبينَّا لهم الخير والشر ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (١٠)[1]﴾ [البلد]

---

(١) النجدان : أى طريق الخير وطريق الشر . كذا فى معظم المعاجم اللغوية . وقال الزجاج : أى الطريقين الواضحين . قال فى تهذيب اللغة : فالمعنى ألم نُعرفه طريق الخير وطريق الشر بيِّنين كبيان الطريقين العاليين .

وقال : ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ⑧ ﴾ [الشمس] ومع ذلك ظلموا أنفسهم حين تعجَّلوا لها الشهوات ، وأخذوها فى الحرام فحرمهم الله من المتعة الحلال الأبدية فى الآخرة ، وشرُّ الظلم أنْ يظلمَ الإنسانُ نفسه ، وظُلم النفس حُمْق وتَعدٍّ .

﴿ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ ⑦⑦ لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ⑦⑧ ﴾

الكلام هنا عن أهل النار والعياذ بالله ينادون مالكَ خازن النار ﴿ يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ .. ⑦⑦ ﴾ [الزخرف] يعنى : بالموت لنستريحَ ممَّا نحن فيه من العذاب الدائم الذى لا ينتهى ، لأن الحق سبحانه يقول ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ .. ⑤⑥ ﴾ [النساء]

وقلنا : إن العلوم الحديثة أثبتتْ أن الجلد هو موضع الإحساس ، بدليل أنك حين تأخذ حقنة مثلاً لا تشعر بالألم إلا بمقدار نفاذ الإبرة من الجلد ، وقد سبق القرآن كل العلوم فى بيان هذه الحقيقة ، لذلك يطلب أهل النار الموتَ لينقذهم من هذا العذاب .

لكن نلحظ أن الفعل ﴿ لِيَقْضِ .. ⑦⑦ ﴾ [الزخرف] جاء بصيغة الأمر ، واقترنَ أيضاً بلام الأمر ، فهل الحق سبحانه وتعالى يُؤمر وخاصةً من أهل النار ؟ قلنا : إن الطلب إنْ كان من الأعلى للأدنى فهو أمر ، وإنْ كان من المساوى لك فهو التماس ، وإنْ كان من الأدنى للأعلى فهو دعاء ، فنحن إذن لا نأمر الله إنما ندعوه .

(قال) أى مالك ﴿ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ ⑦⑦ ﴾ [الزخرف] باقون فى النار خالدون فيها ، لأنه لا عذرَ لكم ﴿ لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ .. ⑦⑧ ﴾ [الزخرف] أى : الدين الحق والمنهج الحق ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ⑦⑧ ﴾ [الزخرف]

وهذا معنى ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ (٧٦) ﴾ [الزخرف]

ثم يُوجه السياقُ الحديثَ إلى سيدنا رسول الله ، وكثيراً ما يخاطبه ربه ليُسلِّيه ويُخفِّف عنه لأنه لاقى من عَنَت قومه وعنادهم الكثير ، وآذوه فى نفسه وذاته حينما أغروا به سفهاءهم ورَمَوْه بالحجارة حتى أدْموا قدميه[(١)] ، وألقوا سقط البعير والقاذورات على ظهره وهو يصلى[(٢)] .

وآذوه فى معنوياته فقالوا عنه : ساحر وكاهن وكذاب وشاعر ومجنون ، فالحق سبحانه يُبيِّن له أنه جاء على فترة من الرسل بعد أنْ فسدَ الخَلْق وانتشر الشرُّ ، ووراء هذا الفساد قومٌ يستفيدون منه ويدافعون عنه ، وطبيعى أنْ يصادموك وأنْ يقفوا فى وجه دعوتك ، لأنهم يريدون الإبقاء على مكانتهم وانتفاعهم بهذا الفساد .

وقد وصل كُرْه هؤلاء لرسول الله أنْ بيَّتوا للقضاء عليه والخلاص من دعوته ، قال تعالى : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ[(٣)] أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٣٠) ﴾ [الأنفال]

---

(١) أورده ابن القيم فى كتابه زاد المعاد (٣ / ٢٨) فصل الخروج إلى الطائف ، قال : « فخرج رسول الله إلى الطائف رجاء أن يؤوه وينصروه على قومه .... ولكنهم أغروا به سفهاءهم فوقفوا له سماطين (أى صفين على الجانبين) وجعلوا يرمونه بالحجارة حتى دميت قدماه » .

(٢) أورده صاحب (سبل الهدى والرشاد) فى كتابه (٢/٤٣٦) وعزاه للشيخين والبزار والطبرانى عن ابن مسعود أنه قال : ما رأيت رسول الله ﷺ دعا على قريش غير يوم واحد ، فإنه كان يصلى ورهط من قريش جلوس وسلا جزور نحرت بالأمس قريباً ، فقال أبو جهل : من يأخذ سلا هذا الجزور فيضعه على كتفى محمد إذا سجد فانبعث أشقاهم عقبة بن أبى معيط فجاء به فقذفه على ظهره فضحكوا وجعل بعضهم يميل إلى بعض والنبى ﷺ ما يرفع رأسه وجاءت فاطمة فطرحته عن ظهره ودعت على من صنع ذلك .

(٣) قوله (ليثبتوك) للمفسرين فيه قولان (زاد المسير لابن الجوزى) :
الأول : ليثبتوك فى الوثاق ، قاله ابن عباس والحسن .
والثانى : ليثبتوك فى الحبس . قاله عطاء والسدى وآخرون .

وهنا يخاطب الحق سبحانه رسوله ﷺ[1] :

﴿ أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾

يعنى : أحكموا كيداً لك يا محمد وبيَّتوه واتفقوا عليه ، فلا تهتمَّ لأننا لهم بالمرصاد ﴿ فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [الزخرف] يعنى : نحكم كيداً كما أحكموا كيداً . ونحن نعلم ما يُبيِّتونه ولا يخفى علينا ، وهم لا يعلمون ما نُبيِّته لهم ، إذن : أىُّ الفريقين أقوى ؟

﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾

أيظنون أنَّا لا نسمع ما يُبرمونه وما يُحكمون تخطيطه لإيذاء رسول الله ، ولا نسمع سرهم ، والسر هو الحديث تُسرُّ به إلى آخر ، أو السرُّ إذا سمعتَ شيئاً وبقى سراً فى صدرك لا يطلع أحدٌ عليه .

والنجوى هى الحديث الخافت بين اثنين بحيث لا يسمعهما ثالث لكن الله يسمع سرَّهم ويسمع نجواهم ، ولا يخفى عليه شىء من أمرهم ، بل وأكثر من ذلك ﴿ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [الزخرف] يعنى : نسمعهم ونُحصى عليه ما قالوا ، فلنَا رسل وملائكة تكتب

---

(١) ذكر القرطبى فى تفسيره (٦١٦٦/٩) فيما نقله عن مقاتل قال : نزلت فى تدبيرهم بالمكر بالنبى ﷺ فى دار الندوة حين استقر أمرهم على ما أشار به أبو جهل عليهم أن يبرز من كل قبيلة رجل ليشتركوا فى قتله فتضعف المطالبة بدمه ، فنزلت هذه الآية ، وقتل الله جميعهم ببدر .

وتسجل ما يقولون وما يفعلون .

فلو قلتَ : إذا كان الحق سبحانه يعلم ويسمع ولا يخفى عليه شيء من أمرهم ، فما فائدة التسجيل عليهم وكتابة سِرِّهم ونجواهم ؟

قلنا : الكتابة تفيد الملائكة فهى من أجلهم ، حتى إذا ما رأوا الأحداث تحدث كما سُجِّلتْ فى اللوح المحفوظ يعلمون أن الله عليم حكيم فيزدادوا يقيناً فوق يقينهم ، وإيماناً على إيمانهم .

﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾

هذا أمر لسيدنا رسول الله ﷺ (قُلْ) يا محمد لمنْ يدَّعى أن للرحمن ولداً ﴿ قُلْ ﴿٨١﴾ ﴾ [الزخرف] أى على سبيل الفرض ﴿ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ [الزخرف] وعلى اعتبار (إنْ) شرطية فالمعنى[١] إنْ كان للرحمن ولد وهو سبحانه الذى يخبرنى بهذه الحقيقة فأنا أولُ العابدين له ، لأننى آخذ ثقافتى وآخذ أوامرى من ربى لا منكم .

وبعضهم[٢] قال (إنْ) هنا نافية ، مثل قوله تعالى : ﴿ مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلاَّ اللاَّئِي وَلَدْنَهُمْ ﴿٢﴾ ﴾ [المجادلة] فالمعنى : قُلْ ما كان للرحمن ولد فأنا أول مَنْ ينفى ذلك لأننى أول العابدين ، وأول

(١) هذا معنى افتراضى للحوار معهم فقط ، فإنه يستحيل أن يكون له ولد ، وهو كما تقول لمن تناظره : إذ ثبت ما قلت بالدليل فأنا أول من يعتقده ، وهذا مبالغة فى الاستبعاد ، أى : لا سبيل إلى اعتقاده .

(٢) منهم ابن عباس والحسن والسدى . أى : قل ما كان للرحمن ولد . فيكون الكلام على هذا تماماً ثم تبتدئ (فأنا أول العابدين) أى : الموحدين من أهل مكة على أنه لا ولد له .

المؤمنين بوحدانية الله تعالى .

الحق تعالى وصف نفسه سبحانه بوصفين ، البعض يظن أنهما بمعنى واحد ، لكن طالما هما لفظان مختلفان فلا بدَّ أن لكل منهما معنىً خاصاً لا يؤديه الوصفُ الآخر ، الحق وصف نفسه بأنه واحد أحد .

قلنا : واحد يعنى فرد لا ثانىَ له فهى تنفى التعددية ، أما أحد أى واحد فى ذاته ليس له أجزاء ، لأن الشىء المكوَّن من أجزاء يكون كل جزء فيه محتاجاً إلى الأجزاء الأخرى .

وطالما أنه تعالى أحد فى ذاته إذن ليس له ولد لأن الولد جزء من أبيه ، وفى الحديث الشريف قال ﷺ : « فاطمة بضعة منى »[1] يعنى : جزء منى .

وإذا أخذنا بهذا المبدأ وسلْسَلْنا نسب كلٍّ منا لا بدَّ أنْ نصلَ إلى أبينا آدم عليه السلام ، وعرفنا أن كلاًّ منَّا فيه بضعة أو ذرة من أبيه آدم ، هذه الذرة هى التى شهدت العهد الأول الذى أخذه الله تعالى على بنى آدم وهم فى مرحلة الذَّرِّ :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣) ﴾ [الأعراف]

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٤٣٧ ، ٣٤٥٠ ، ٣٤٨٣) وكذا مسلم فى صحيحه (٤٤٨٣) من حديث المسور بن مخرمة ، ولفظ مسلم : « إنما فاطمة بضعة منى يؤذينى ما آذاها » .

وهذه الذرّة هى بذرة الخير وموضع الإيمان فى الإنسان ، ومنها تنطلق حركةُ الخير ، ألا تراه يندم على الذنب ويعزم على التوبة ؟ إنه عملُ هذه الذرة وأثرها فى النفس الإنسانية لأنها أول مَنْ سمع نداء الله وبلاغٌ عن الله .

والقرآن الكريم أفاد أن الجنَّ أوعى من الإنس فى هذه المسألة ، فإذا كان الإنسانُ قد تجرأ على الحق سبحانه وتعالى ونسب له الولدَ ؛ فالجنُّ نفتْ ذلك ونزَّهتْ الله عن الولد وعن الصاحبة ، واقرأ قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ[1] رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا (٣) ﴾ [الجن]

يعنى من عظمته تعالى أنه لم يتخذ لا صاحبة - يعنى زوجة - ولا ولداً ، والمتأمل يجد أن الصاحبة والولد من أسباب الفساد فى الكون ، يقول تعالى : ﴿ إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ (١٤) ﴾ [التغابن]

ونحن نقول مثلاً فى أعراف البشر : تزوج مبكراً لتنجبَ ولداً يعولك فى شيخوختك ، وهل الحق سبحانه يتخذ الولد لأنه فى حاجة إليه كما نحتاجه نحن ؟ ثم الذين قالوا إن عيسى ابنُ الله ما قولهم فى الزمن قبل عيسى ألم يكُنْ لله فيه ولد ؟ وما بعد عيسى أين الولد الذى اتخذه الله ؟ إذن : هذا كله افتراءٌ على الله .

﴿ سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٨٢) ﴾

---

(١) الجدُّ : العظمة والمجد . ومعنى الآية أى : أنه تعالت عظمة ربنا وتعالى أى مجد ربنا . [القاموس القويم ١/١١٨] .

من المناسب أنْ تبدأ هذه الآية بكلمة ﴿سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ (٨٢)﴾ [الزخرف] بعد الحديث فى الآية السابقة عن نَفْى الولد عن الله تعالى ، كلمة (سُبْحان) يعنى : تنزيهاً لله تعالى عن كلّ ما يدور بخاطرك .

لذلك لا تأتى كلمة سبحان الله إلا مقترنة بشىء عجيب فوق تصوّر العقل البشرى : ﴿سُبْحَانَ الَّذِى خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ (٣٦)﴾ [يس] . ﴿سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا (١)﴾ [الإسراء]

يعنى : حينما تقف عقولكم عند هذه المسائل قولوا سبحان الله ، ونزِّهوا الله عن مشابهة الخَلْق ، ولا تقيسوا قوته بقوتكم ، ولا فعله بفعلكم ، ولا قدرته بقدرتكم ، نزِّهوا الله فى أسمائه وفى صفاته وفى أفعاله .

ثم تأمل كيف يأتى الحق سبحانه فى هذه الآية بالصفات التى تناسب نَفْى الولد عنه سبحانه ، فيقول ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ .. (٨٢)﴾ [الزخرف] وهل مالك السموات ض ومَنْ فيهن بحاجة إلى الولد ؟ وفى آية أخرى يقول : ﴿لَخَلْقُ ـوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٥٧)﴾ [غافر]

وأعظم من السموات والأرض العرش (رب العرش) إذن : هو سبحانه فى غنىً عن اتخاذ الولد . وقوله : ﴿عَمَّا يَصِفُونَ (٨٢)﴾ [الزخرف] عمَّا يكذبون فيه ، أو عمّا يصفون اللهَ به من اتخاذ الولد .

وقلنا : إن تسبيح الله دائرٌ فى الزمن كله وثابتٌ لله تعالى قبل الزمن ، فالله مُنزَّه وهى صفة ذاتية فيه سبحانه قبل أنْ يخلقَ مَنْ يُسبِّح ، فكلمة (سبحان) ذاتية لله قبل أنْ يخلق الخَلْق . فلما أوجد

هـــذا الكـون سبَّح الكونُ لله ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ (١)﴾ [الحشر]

وهذا التسبـيح مستمـر فى الحاضر والمسـتقبل ﴿يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ (٢٤)﴾ [الحشر] وطالما أن الكونَ منظومة واحدة مُسـبِّحة لله تعالى فـلا تشذ أيها الإنسـان عن هذه المنظومة وكُنْ أنت أيضاً مُسبِّحاً : ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى (١)﴾ [الأعلى]

﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَـٰقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (٨٣)﴾

هذا أمر لسيدنا رسول الله ﷺ ﴿فَذَرْهُمْ (٨٣)﴾ [الزخرف] اتركهم يا محمد وما يخوضون فيه من هذا الحديث الكاذب ، وكلمة ﴿يَخُوضُوا (٨٣)﴾ [الزخرف] من الخـوض . وأصـلها خَـوْض الإنسان فى لُجـة الماء الكـثير ، ثم اسـتُعملَتْ مجـازاً فـيمَنْ يخوض فـى الحديث دون دراية .

وأكثر اسـتعمالهـا فى الحديث الباطل ، والخوض توحى بالـتخبط والمـشى فى أماكن مـجهـولة لا تدرى مـا يقابلك فـيهـا من أخطار ، فـتكون أنت الجـانى على نفـسك . إذن : لا بدَّ أن تتـحـسَّس قـبل أنْ تخوضَ ، واحذر الخوض فى الباطل .

وقوله : ﴿وَيَلْعَبُوا (٨٣)﴾ [الزخرف] لأنى أمرتهـم أنْ يجدُّوا فى الحياة ، فإذا هم يلعبون فيها . فالجدّ يقابله اللهو واللعب ، والفرْق بين اللهو واللعب أن اللعب أنْ تعمل شيئاً لا فائدةَ منه إلا التسلية ، وهذا قبل

أوان التكليف ، فإذا كان مُكلَّفاً وفعل ما لا فائدةَ منه فهو لهو .

ومنه قوله تعالى : ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا ﴿١١﴾﴾ [الجمعة] إذن : اللهو أنْ تنشغلَ بلعب لا يفيد عن واجب طُلبَ منك .

وقوله تعالى : ﴿حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [الزخرف] إذن : أوعدهم الله بهذا اليوم ولم يتركهم هملاً ولم يخلقهم عبثاً ، بل بيَّن لهم الحق والباطل ، ووعدهم الجزاء كلٌّ بما يستحق ، فالفعل ﴿يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [الزخرف] من أوعد من الوعيد ، وهو الإنذار بالشر قبل أوانه لتتجنبه .

وهناك وَعَد من الوعْد ، والوعد لا يكون إلا بالخير .

إذن : الذين يدخلون النار لم يظلمهم اللهُ ولم يأخذهم على غرَّة ، بل أوعدهم وحذرهم من هذا المصير . والقرآن مليء بالوعد والوعيد ، واقرأ : ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ[1] ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾﴾ [الليل]

فالحق سبحانه وتعالى قدَّم لعبده الخير في وعده وفي وعيده ، نعم حتى الوعيد فيه خير لأن الذي يحذرك من الشر قبل أنْ تقع فيه يُسدي لك جميلاً يستحق عليه الشكر .

وفي ضوء ذلك فهمنا قوله تعالى وهو يُعدِّد نعمه علينا في سورة الرحمن ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ[2] مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾

---

(١) استغنى هنا بمعنى أنه إذا رأى نفسه غنياً فإنه يغتر ويطغى ، وذلك مثل قوله تعالى ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ﴿٦﴾ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴿٧﴾﴾ [العلق] . [القاموس القويم ٢/٦٢] .

(٢) الشُّواظ (بضم الشين وكسرها) : القطعة من اللهب ليس فيها دخان . [القاموس القويم ١/٣٦١] .

﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٦)﴾ [الرحمن] فهل النار والشواظ والنحاس يمكن أن يكون فى عداد نعم الله ؟ نعم هى نعمة من الله لأنه يحذرك من أسباب الوقوع فيها ويبعدك عنها .

فالآية إذن ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِى يُوعَدُونَ (٨٣)﴾ [الزخرف] دعوة لرسول الله أنْ يُهوِّن الأمر على نفسه ولا يشقّ عليها بسبب عناد قومه وتماديهم فى ضلالهم .

فالحق سبحانه يُسلِّى رسوله ويُخفف عنه ، كما خاطبه فى آيات كثيرة بهذا المعنى مثل قوله سبحانه : ﴿فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٨)﴾ [فاطر]

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ (٨٤)﴾

البعض يظن أن الله تعالى فى السماء ، فإذا دعاه دعاه بصوت عَالٍ ليسمعه . والله سبحانه فى كل مكان وفى كل زمان ، ليس له مكانٌ يَسَعه ولا زمانٌ يحتويه ، لأنه سبحانه خالق الزمان وخالق المكان ، والمخلوق لا يسع الخالق .

لذلك لا نستعمل أين ولا متى مع الله ﴿وَهُوَ الَّذِى فِى السَّمَاءِ إِلَـٰهٌ وَفِى الأَرْضِ إِلَـٰهٌ (٨٤)﴾ [الزخرف] إذن : فهو فى كل مكان ، وهذه الصفة (إله) ذاتية فيه سبحانه ، وهى صفة كمال لا تفارقه ولا تنفكّ عنه ، لا فى السماء ولا فى الأرض .

وكان للمستشرقين وقفة عند هذه الآية بسبب تكرار النكرة ﴿وَهُوَ

الَّذِى فِى السَّمَاءِ إِلَـٰهٌ وَفِى الأَرْضِ إِلَـٰهٌ ﴿٨٤﴾ ﴾ [الزخرف] فكلمة (إله) نكرة كُرِّرَتْ ، والقاعدة اللغوية أن النكرة إذا كررتْ كانت الثانية غير الأولى كما لو قلتَ : لقيتُ رجلاً ، وأكرمتُ رجلاً ، فرجل الثانية غير الأولى .

أما المعرفة إذا كُررتْ كانت الثانية هى عَيْن الأولى كما لو قُلْت : لقيتُ الرجل فأكرمتُ الرجل ، إذن : هو هو . وهذه القاعدة وضعتْنا فى إشكال مع هذه الآية ، ومَنْ يقول بإله فى السماء وإله آخر فى الأرض ؟!

وفى حديث سيدنا رسول الله ﷺ ما يُؤكِّد هذه القاعدة ، لأنه حين قرأ : ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ ﴾ [الشرح] قال : « ولن يغلب عُسْرٌ يُسْرَيْنِ »[1] فالعُسْر جاءت معرفة ، واليُسْر جاءتْ نكرة .

وهذه الآية لها معنا قصة مع الناس الدراويش فى المسجد الأحمدى بطنطا ، ففى يوم من الأيام جاءنا الشيخ محمود شلتوت[2]

---

(١) أخرج الحاكم فى مستدركه (حديث ٣٩١٠) من حديث الحسن البصرى مرسلاً قال : خرج النبى ﷺ يوماً مسروراً فرحاً وهو يضحك وهو يقول « لن يغلب عسر يُسْرين ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ ﴾ [الشرح] » وكذا أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان (٩٦٥٧) .

(٢) الشيخ محمود شلتوت ، فقيه مفسر مصرى ، ولد فى منية بنى منصور بالبحيرة عام ١٨٩٣ م ، وتخرج بالأزهر (١٩١٨م) وتنقل فى التدريس إلى أن نقل للقسم العالى بالقاهرة (١٩٢٧) وكان داعية إصلاح نير الفكرة يقول بفتح باب الاجتهاد ، أعيد إلى الأزهر (١٩٣٥) حتى أصبح شيخاً للأزهر (١٩٥٨) إلى وفاته (١٩٦٣ م) . له ٢٦ كتاباً مطبوعاً منها التفسير . (الأعلام للزركلى ٧/١٧٣) .

وكان شيخاً للأزهر ليزور مدينة طنطا ، وجاء المسجد الأحمدى ليصلى ، وبعد الصلاة سأله الشيخ أبو العينين وكان أستاذاً للتفسير وقال له : الحمد لله يا مولانا أننى وجدتك هنا لأننى فى درس التفسير أمس وقفتُ أمام الآية : ﴿وَهُوَ الَّذِى فِى السَّمَاءِ إِلَـٰهٌ وَفِى الأَرْضِ إِلَـٰهٌ ﴿٨٤﴾﴾ [الزخرف] والقاعدة أن النكرة إذا كُرِّرتْ كانت الثانية غير الأولى ؟

وبمجرد أنْ بدأ الشيخ شلتوت فى الجواب وقال : والله العلماء قالوا إن القاعدة أغلبية ، وعندها دخل رجل لا نعرفه قبل ذلك ولا عرفناه بعدها ، وكان عارىَ الرأس وفى يده عصا ، وقال : يا علماء أنتم نسيتم اسم الموصول ﴿وَهُوَ الَّذِى ﴿٨٤﴾﴾ [الزخرف] اسم الموصول معرفة وما بعده صلته ، إذن : الكلمة المكررة صلةٌ لموصول واحد ، يعنى هو هو ، ثم انصرف الرجلُ وجلسنا نحن لم يتكلم منا أحدٌ لمدة نصف ساعة .

وقوله : ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾﴾ [الزخرف] الحكيم : الذى يضع الشىء فى موضعه بحكمة ، والعليم بما يصلح خَلْقه وبما يُعينهم على معايشهم وعلى معَادهم ، فما كان سبحانه ليُعطيهم مُقوِّمات المادة بالطعام والشراب والهواء ثم يتركهم دون منهج ودون قيم تُغذِّى أرواحهم كما غذَّى أبدانهم .

لذلك سمَّى هذ المنهج روحاً ، فهو للقلوب مثل الروح للأبدان ، والفرق بين الروحين أن الروح التى فى البدن لها موعد تفارق فيه البدنَ بالموت ، أما روح القيم والمنهج فهى باقية خالدة تلازمه فى الدنيا ، وتصاحبه إلى الآخرة .

﴿ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾

كلمة ﴿ وَتَبَارَكَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [الزخرف] كلمة جامدة لا اشتقاقَ فيها ، تعنى : تعالى قَدْره وكَثُر عطاؤه . وتبارك من البركة يعنى : كثرة الخير حيث يُعطيك القليلُ الكثيرَ الذى ما كنتَ تنتظره .

وقوله سبحانه : ﴿ لَهُ مُلْكُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴿٨٥﴾ ﴾ [الزخرف] وفى آية أخرى قال : ﴿ لَهُ مَا فِى السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ ﴿٦٤﴾ ﴾ [الحج] يعنى : له الظرف والمظروف .

وفى سورة طه قال سبحانه : ﴿ لَهُ مَا فِى السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ ﴿٦﴾ ﴾ [طه]

وهكذا استوعبتْ الآياتُ الكونَ كله ، وجعلته ملكاً لله تعالى ، الكون كله بسمائه وأرضه ، ما فى السماء وما فى الأرض ، وما بين السماء والأرض وما تحت الأرض كله ملْك الله .

وأخيراً عرفنا أن الخير كلَّه مطمورٌ تحت الثرى يُطلع اللهُ عباده عليه إذا شاء حَسْب تطور حياتهم ورُقيها ، ففى باطن الأرض الآن الماء والبترول والمعادن والأحجار الكريمة والأشياء النفيسة .

وكأن الحق سبحانه ينبهنا بقوله ﴿ وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ ﴿٦﴾ ﴾ [طه] إلى الاهتمام بباطن الأرض وحَفْرها ، والتنقيب فيها لاستخراج خيراتها .

لذلك نرى علماء الجيولوجيا وعلماء الحفريات والبترول يجوبون

البلاد من أقصاها إلى أقصاها بحثاً عن هذه الخيرات حتى فى البحار ، لأنها تدخل فى هذا المعنى ، فهى من الأرض وإنْ كانتْ تمثل ثلاثةَ أرباع الأرض .

ثم يأتى قوله تعالى : ﴿وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٥)﴾ [الزخرف] هكذا بأسلوب القصر فى الموضعين ، حيث قدَّم الجار والمجرور ليفيد قصر علم الساعة على الله وحده دون سواه .

كذلك ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٥)﴾ [الزخرف] إليه هو دون سواه ، لا ترجعون إلا إليه ، وكأنها رسالة موجزة إلى الإنسان أنْ تذكّر نهايتك وآخرتك ، وتذكّر الجزاء على العمل ، ولا تغرنّك النعمة فبعدها حسابٌ وجزاء .

﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ (٧) إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ (٨)﴾ [العلق] فكلُّ شىء من الله وإلى الله : من الله خَلْقاً وإمداداً وتربيةً ، وإلى الله مرجعاً ومآباً .

﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ
إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٨٦)﴾

أىَ : الذين يدعونهم من دون الله كالشمس والقمر والنجوم والأصنام ، هذه المعبودات معبودات باطلة ، بدليل أنهم لا يملكون الشفاعة ولا يملكون دَفْع الضّر عنهم ، وهم لا يملكون الشفاعة لأن الشفاعة عند مَنْ ؟ عند الله .

وكيف يقبل اللهُ شفاعتهم ، وهم السبب فى ضلال هؤلاء ﴿إِلاَّ مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٨٦)﴾ [الزخرف] هذا استثناء يعنى : لا يشفع

عند الله إلا مَنْ شهد بالحق[١] .

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾

إذن : هؤلاء يؤمنون ويعترفون بأن الله هو خالقهم ، وفى آية أخرى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٦١) ﴾ [العنكبوت] وعجيب منهم بعد هذا الاعتراف ألا يؤمنوا بالله ولا يصدقوا رسوله .

لذلك ذيَّل الآية بقوله تعالى : ﴿ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٨٧) ﴾ [الزخرف] كيف يُصرفون عن هذا الحق وهم يعترفون به ويشهدون لله بأنه خالقهم وخالق السموات والأرض .

لذلك يتعجب الحق سبحانه فى سورة البقرة من كفرهم ، الذى لا مبرر له ولا حيثيات ، يقول تعالى : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٨) ﴾ [البقرة]

﴿ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾

كلمة (قيله) مصدر لقال ، نقول : قال قولاً ومقالاً وقيلاً ، فمعنى (قيله) يعنى قوله ، قول مَنْ ؟ قول سيدنا رسول الله

---

(١) يقول رسول الله ﷺ : « إذا رأيت مثل الشمس فاشهد وإلا فدَعْ » وفى لفظ « على مثلها فاشهد أو فدع » أخرجه البيهقى فى شُعَب الإيمان (حديث ١٠٥٣٩) من حديث ابن عباس أن رسول الله سُئل عن الشهادة فقال : هل ترى الشمس : قال : نعم .

يخاطب ربه ﴿يَا رَبِّ إِنَّ هَـٰؤُلَاءِ (٨٨)﴾ [الزخرف] كفار مكة ﴿قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ (٨٨)﴾ [الزخرف]

لاحظ أنه ﷺ أُوذى من هؤلاء القوم فى نفسه إيذاءً وفى معنوياته برميه بما ليس فيه من السحر والشعر ، والكهانة والجنون ، وفى أهله ، ولاقى منهم الأمرَّيْن ، ومع ذلك لم يذكر شيئاً عن هذا كله ، وكل ما اهتم به هو مسألة إيمان القوم ، فلم يقُلْ : يا رب إن قومى آذونى وفعلوا كذا وكذا ، إنما قال ﴿يَا رَبِّ إِنَّ هَـٰؤُلَاءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ (٨٨)﴾ [الزخرف]

هذا الذى حَزَّ فى نفسه وأغضبه ﷺ ، وقد ثبت فى الحديث الصحيح أنه ﷺ ما انتقم لنفسه قطّ ولا غضب لنفسه قط ، إنما كانت غَيْرته وغضبه لله وللحق الذى جاء به ودعا الناس إليه .

هذا المعنى الذى عبَّر عنه أحمد شوقى فى قوله[1] :

فَإِذَا غَضِبْتَ فَإنما هِىَ غَضْبَةٌ   لِلحقِّ لاَ ضِغْنَ ولاَ شَحْنَاء

ومعنى الواو فى أول الآية (وَقِيله) هذه الواو بمعنى القسم ، فكأن الحق سبحانه يقسم بقول رسول الله ﴿يَا رَبِّ إِنَّ هَـٰؤُلَاءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ (٨٨)﴾ [الزخرف] يقول : وبحق هذا القول .

وجواب القسم هنا محذوف للعلم به ، أى : لأُعذبنهم عذاباً يشفى صدرك منهم ، فلا تهتم بعدم إيمانهم ولو شئت لأرغمتهم على الإيمان ولخلقتهم على هيئة الملائكة ، وكُلُّ ما عليك يا محمد أنْ تصفح عنهم .

---

(١) لفظ البيت فى الموسوعة الشعرية :

وإذا غضبت فإنما هى غضبة   فى الحق لا ضغن ولا بغضاء

وهو من قصيدة لأمير الشعراء أحمد شوقى ، وهو من قصيدة نهج البردة من بحر الكامل عدد أبياتها ١٣١ بيتاً ، والبيت الذى معنا هو البيت رقم (٣٣) .

﴿ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلامٌ (٨٩) ﴾ [الزخرف] لأن الصفح عنهم سيجذبهم إلى ساحة الإيمان بك ، وسوف يكون من هؤلاء جند من جنود الإسلام ، وبالفعل رأينا خالد بن الوليد وعكرمة بن أبى جهل وعمرو بن العاص وغيرهم من صناديد الكفر يصيرون قادةً فى صفوف المسلمين .

وفى آية أخرى قال سبحانه : ﴿ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ (٨٥) ﴾ [الحجر] لأنك قد تصفح عَمَّنْ أساء إليك ، لكن يبقى عندك شىء من الغيظ والغضب أو الحقد عليه ، أما الصفح الجميل فهو الصفح الذى يصاحبه تسامح يقتلع كلَّ جذور الغضب والغيظ والحقد .

وكأن الحق سبحانه يقول لرسوله ﷺ : اصفح عنهم صَفْحاً جميلاً ولا تغضب ، لأن غضبك يؤثر فيك ويؤثر فى تكوينك ووراءك رَبٌّ يغضب لك فلا تغضب أنت ، وهذا أدب عَالٍ يُعلِّمنا إياه الإسلام .

معلوم أن الشارع الحكيم لا يحاسبك على خواطر نفسك وخلجات صدرك طالما لم تُترجم إلى عمل ونزوع ، وبعد ذلك يسمو بك فيدعوك إلى التخلّص من مجرد هذه الخواطر إنْ كانت خواطر شَرٍّ تجاه الآخرين .

وهذه مراحل تعلّمناها من قوله تعالى : ﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) ﴾ [آل عمران] فالمرحلة الأولى كظم الغيظ ، والثانية العفو ، وفى هذه المرحلة تتخلص من كلِّ خواطر الشر فى نفسك ، بحيث تراها صافية ليس فيها بقايا من غيظ أو كُرْه أو حقد .

ثم المرحلة الأخيرة وهى أنْ تُحسن لمَنْ أساء إليك ، وهذه مرحلة

الخواصّ الذين عـرفوا سماحـة الشرع ونظروا إلى ما عند الله . كثـير من الناس يتعـجَّبون من مـسألة أنْ تُحسن إلى مَنْ أسـاء إليك ، كيف يلزمنا بها الشرع ؟

نقول : هَبْ أن أحد أولادك ضرب الآخـر ، وجاء المضروب يبكى ويشـتكى ، فإلى مَـنْ تحِنُّ وعلى مَنْ تعطف ؟ على الضـارب أم على المضروب ، كذلك الحـق سبحانه يكون فى جانب الضعـيف المتسامح الذى يُحسن إلى مَنْ أساء إليه .

والحسن البصرى رضى الله عنه بلغه أن رجلاً شتمه فأرسل إليه هدية طبـقـاً من الرُّطَب ، فـلمـا سُئِل عن ذلك قـال : لأنه أهدى إلىَّ حسناته[١] .

وقوله : ﴿ وَقُلْ سَلامٌ ﴿٨٩﴾ ﴾ [الزخرف] والتقدير : قُلْ لهم سلام عليكم . ونفـهم من هـذا أن كلمـة (سلام) هـكذا بدون (عليك) وحدها تُقال لمَـنْ كان بينك وبينه خصومة وتريـد أنْ تفارقه ، ونحن نقولها فى واقع حـياتنا حينما تختلف مع شخص آخـر ولا تصل معه إلى حَلٍّ تقول له سـلام ، لذلك سيدنا إبراهيم فى جداله مع أبـيه قال له : ﴿ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّى ﴿٤٧﴾ ﴾ [مريم] أى : سلام وَدَاع ومفارقة لا سلامَ تحية .

وقوله : ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [الزخرف] يعنى : لما تفعل هذا سوف يعلمـون عاقـبةَ ما قُلتـه ، وسوف يعلمون كـيف أُعاقـبهم على تكذيبهم لك .

---

(١) ذكره أبو حامد الغزالى فى إحيـاء علوم الدين (٣/ ١٥٤) أن رجلاً قال للحسن : إن فلاناً قد اغـتابـك فبـعث إليه رطباً على طبق ، وقال : قـد بلغنى أنك أهديت إلىَّ من حـسناتك ، فأردت أن أكافئك عليها فاعذرنى فإنى لا أقدر أن أكافئك على التمام .

سُورَةُ الدُّخَانِ

سورة الدخان (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ ﴾

سورة الدخان من سور الحواميم . أى : التى تبدأ بالحروف المقطَّعة (حَم) وقد تحدَّثنا فى هذه الحروف بما يُغنى عن الإعادة هنا ، وهذه الحروف تقف العقول عند حدِّ النطق بها كما هى ، وكما نطق بها رسول الله ، ولا نسأل أنفسنا عن معانيها ، ولا حَجْرَ على العقول أنْ تحوم حولها محاولةً استنباطَ بعض المعانى ، ولو لنقنعَ أنفسنا بشىء من الصواب حول معانيها ثم نقول والله أعلم بمراده منها .

ذلك لأن الدين منه أمور تتصل بالعقيدة ، وأمور تتصل بالأحكام ، وأمور تتصل بالقرآن المعبِّر عن العقيدة والأحكام .

---

(١) سورة الدخان سورة مكية باتفاق إلا قوله تعالى : ﴿ إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلاً .. ۝١٥ ﴾ [الدخان] وهى سبع وخمسون آية . وهى السورة رقم (٤٤) فى ترتيب المصحف الشريف . وقد ورد فى فضلها عن أبى رافع قال : « من قرأ الدخان فى ليلة الجمعة أصبح مغفوراً له ، وزُوِّج من الحور العين » أخرجه الدارمى فى مسنده .

وفى كل واحدة من هذه الثلاثة غَيْبٌ ومَشْهد ، الغيب ويُوكل العلم به إلى الله تعالى حتى يظلّ الإنسانُ عاجزاً أمام علم الله وأمام مسائل لا يفهمها ، ولكن يؤمن بها لمجرد أن الله أخبر بها فى كتابه ، أو على لسان رسوله ﷺ ، وهو لا ينطق عن الهوى .

ففى العقائد مثلاً مسألة الإيمان بإله واحد ، هذا غيْب لكن يمكن للعقل أنْ يُدلِّلَ عليها لأنه لو كان فيهما آلهةٌ إلا الله لفسدتا ، ولو كانت آلهةً متعددةً يختصُّ كلّ واحد منها بشىء من الخَلْق لكانَ كل واحد منها محتاجاً إلى الآخرين ولا يصلح لأن يكون إلهاً .

إذن : يمكن بالعقل أنْ نثبتَ أن الله إله واحد . لكن هناك فى العقائد أمور غيبية لا يمكن للعقلِ التدخّل فيها ، ويقف فيها عند ما سمعه مثل أمور : القبر والبرزخ والحساب والآخرة .

وكذلك فى الأحكام غيْبٌ ومشهد ، فالصلاة فى ظاهرها المشَاهد أنها تُحدث استطراقاً عبودياً فى الكون ، فساعة نسمع الله أكبر نذهب إلى المساجد ، ونُقيم أنفسنا بين يدى ربنا رُكعاً وسُجَّداً يستوى فى ذلك الرئيس والمرؤوس ، الغنى والفقير ، القوى والضعيف ، الكل ضارع لله .

هذا جانب مُشاهد فى الصلاة ، وفيها أيضاً غَيْب لا دخْلَ للعقل فيه ، فالصلاة من حيث عدد ركعاتها غيْب لا نعرف له تفسيراً ، لماذا كان الصبح ركعتين ، والظهر أربعاً ، والمغرب ثلاثاً ؟ لذلك فالسؤال الذى يدور حول عدد الركعات سؤال باطل .

كذلك الحال فى القرآن ، فيه غَيْبُ لا مجالَ للعقل فيه ، وهو هذه الحروف المقطَّعة التى نكلُ العلم فيها إلى قائلها سبحانه وتعالى .

وقوله سبحانه : ﴿ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) ﴾ [الدخان] أى : الظاهر الواضح المحيط بكل شىء ، وهذا يُمثِّل المشهد أى الذى نعرفه ويتدخَّل فيه العقل . إذن : جمع الحق سبحانه فى صدر هذه السورة بين الغيب فى (حم) والمشهد فى ﴿ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) ﴾ [الدخان] كلاهما من الله ؛ فلا قسم على هذا .

أو أن الأسلوبَ هنا أسلوبُ قسم ، أقسم بحم ، وأقسم بالكتاب المبين الظاهر الذى تفهمه العقول ، وهما الاثنان من الله . والمقسم عليه :

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ(١) إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ (٣) فِيهَا يُفْرَقُ(٢) كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ (٤) أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٥) ﴾

مسألة الإنزال تعنى إنزال شىء من أعلى إلى أسفل ، وتقتضى : مُنزِل ، ومُنزَل ، ومُنزَل إليه ، فالذى أنزل هو الله ، وما دام أن المنزِل هو الله فالإنزال من جهة العلو بصرف النظر عن المكانية ، لأنه قال عن

---

(١) الليلة المباركة ليلة القدر لقوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (١) ﴾ [القدر] قال قتادة وابن زيد : أنزل الله القرآن كله فى ليلة القدر من أم الكتاب إلى بيت العزة فى سماء الدنيا. وقال عكرمة : الليلة المباركة هنا هى ليلة النصف من شعبان . قال القرطبى (٩/ ٦١٧٥) : الأول أصح أنها ليلة القدر . وقال القاضى أبو بكر بن العربى : جمهور العلماء على أنها ليلة القدر . ومنهم من قال : إنها ليلة النصف من شعبان ، وهو باطل لأن الله تعالى قال فى كتابه الصادق القاطع ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ .. (١٨٥) ﴾ [البقرة] فنصَّ على أن ميقات نزوله رمضان . [نقله القرطبى فى تفسيره ٩/٦١٧٦] .

(٢) يُفرق أى : يُفصل ويُحدَّد ويُميَّز . وقيل : يكتب . والقرآن أمر حكيم أُنزل فيها ومُيِّز من غيره . [القاموس القويم ٢/ ٧٩] . قال ابن كثير فى تفسيره (٤/ ١٣٧) : ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ (٤) ﴾ [الدخان] أى : فى ليلة القدر يفصل من اللوح المحفوظ إلى الكتبة أمر السنة وما يكون فيها من الآجال والأرزاق وما يكون فيها إلى آخرها » .

الحديد : ﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الحديد] والحديد فى باطن الأرض ، والإنزال يُشْعر بعلُوّ المنزل .

ثم الشىء المنزَل هو القرآن الكريم ﴿ أَنزَلْنَاهُ ﴿٣﴾ ﴾ [الدخان] إلى مَنْ أنزل إلى الناس ﴿ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ ﴿٣﴾ ﴾ [الدخان] هى ليلة القدر يعنى : زمنَ النزول العام للقرآن .

وقال ﴿ فِي لَيْلَةٍ ﴿٣﴾ ﴾ [الدخان] لأن الليل محل السكون والهدوء ، حيث لا لَغَطَ ولا ضوضاء ولا صَخَب يُمكن أنْ يُشوّش على المنزَل ، كذلك يكون الإنسان ساكناً غيرَ منشغل الجوارح بشىء .

إذن : فى الليل يتوفر للعقل كُلُّ مُقوِّمات الانتباه والاستيعاب وصفاء النفس ، لذلك اقرأ فى أول سورة المزمل : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ[1] اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ ﴾ [المزمل]

إذن : نزل القرآن ليلاً لأنه أنسبُ وقت لنزوله ، ونزل على قلب رسول الله بمكة ، فهى ليلة مكة لا غيرها ، ومكة وسط العالم[2] ومركزه ، لذلك قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا

---

(١) ناشئة الليل هى النفس الناهضة فيه للعبادة ، أو هى العبادة الناشئة الحادثة فى الليل . [القاموس القويم ٢/٢٦٥] . وقال الزجاج : ناشئة الليل ساعات الليل كلها ، ما نشأ منه أى ما حدث فهو ناشئة . [لسان العرب - مادة : نشأ] .

(٢) توصل الدكتور حسين كمال الدين أستاذ الهندسة المساحية والفلك الكروى بجامعة الملك سعود إلى أن مكة المكرمة تتمركز فى قلب دائرة تمر بأطراف كل القارات السبع التى تكوّن اليابسة . وقد ثبت بعد الدراسات أن أقصى أطراف الأرض فى أفريقيا وأوروبا وآسيا ، كل الأطراف . تقع على مسافة ٨ آلاف كيلو متر من مكة .

﴿ شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا (١٤٣) ﴾ [البقرة]

البعض قال عن هذه الليلة : هى ليلة القدر لقوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ (١) ﴾ [القدر] وآخرون قالوا : بل هى ليلة النصف من شعبان ، والمسألة هذه تحتاج منا إلى تمحيص لأنه نزل فى واحدة منها .

نقول : القرآن قبل أنْ ينزل ويباشر مهمته فى الوجود كان فى أىِّ مكان ؟ كان فى اللوح المحفوظ ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (٧٧) فِى كِتَابٍ مَّكْنُونٍ (٧٨) لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ (٧٩) ﴾ [الواقعة] وقال : ﴿ وَإِنَّهُ فِى أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ (٤) ﴾ [الزخرف]

فالنزول الأول للقرآن كان جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا ، لكن هل نزل ما سُجِّل فى اللوح المحفوظ أو نسخة منه ؟ قالوا : بل نسخة منه بعد استنساخه .

ثم بعد ذلك نزل مُنجَّماً حسْب الأحوال والأحداث ، نزل به الملَكُ جبريل على قلب سيدنا رسول الله ، كل نَجمْ منه فى مناسبة .

إذن : عندنا مراحل ثلاث لنزول القرآن : الأولى استنساخه من اللوح المحفوظ ، وهذا له زمن ، ثم نزوله جملةً واحدة إلى سماء الدنيا وله زمن ، ثم نزوله مُنجماً حسْب الأحوال ، وهذا النزول له زمن ممتدّ على مدى الأحداث استغرق عدة سنوات .

ومن الممكن أنْ نجد فى هذه المراحل الثلاث مخرجاً من إشكال : أهو فى ليلة القدر أم فى النصف من شعبان ؟ ولا مانع من اشتراك الليلتين فى هذا الفضل فى أىِّ مرحلة من مراحله .

ثم إن ليلة النصف من شعبان لها شرفها وكرامتها الخاصة بها ،

وهى مسألة تحويل القبلة التى هى متجه المسلمين جميعاً فى كلِّ بقاع الأرض ، ثم إن الاتجاه إلى بيت المقدس كان له زمن وله حكمة ، ثم التحول إلى الكعبة كان أيضاً له زمن وله حكمة .

فليستْ المقارنة هنا بين حَقٍّ وباطل ، بل الفرق بين أمرين حكيمين ، لكن هذا له زمن وهذا له زمن ، لذلك الحق سبحانه لم يشأ أنْ يجعل تحويل القبلة فى فرض من أوله ، إنما فى أثناء الفرض قسمه الأمر بالتحويل قسمين ، فصلى نصف الصلاة الأولى إلى بيت المقدس ، ونصفها الآخر إلى الكعبة[1] .

وهذا إنْ دَلَّ فإنما يدلّ على أن بيتَ المقدس داخلٌ فى مقدسات المسلمين كالكعبة تماماً ، وحادثة الإسراء من بيت المقدس تؤكد ذلك .

إذن : شاء الله تعالى أنْ يكون متجه الصلاة مرة إلى بيت المقدس ، ومرة إلى الكعبة لحكمة فى كليهما . الأولى : أنْ يكون بيتُ المقدس من مقدَّسات المسلمين . الثانية : أن رسول الله ﷺ كان له أُلْفة بقبلة إبراهيم عليه السلام .

لذلك قال تعالى : ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ .. (١٤٤) ﴾ [البقرة]

والصلاة فُرِضَتْ على رسول الله بعد معراجه إلى السماء من بيت المقدس ، والصلاة هذه بها متجه القبلة ، فالقبلة لابدّ أنْ تأخذَ الاثنين

---

(١) عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : بينما الناس فى صلاة الصبح بقباء إذ جاءهم آتٍ فقال : إن رسول الله ﷺ قد أُنزل عليه الليلة وقد أُمر أن يستقبل الكعبة فاستقبلوها وكانت وجوههم إلى الشام فاستداروا إلى الكعبة . أخرجه مسلم فى صحيحه (٨٢٠) والبيهقى فى السنن الكبرى (٢/٢) .

مبدأ التشريعى ومبدأ الاستبقائى ، وهذا جعله الله فتنةً[1] للمسلمين ولغير المسلمين ، لأن القِبْلَةَ لما كانت إلى بيت المقدس قالوا : ما الذى حوّله عن قبلة إبراهيم إلى قبلة داود وسليمان ، وقلنا : لكى تدخل فى مقدسات الإسلام ولا يستبدوا بها .

واليهود التقطوا هذه المسألة وجعلوها شبهة وقالوا : إذا كان محمد رافضاً لديننا فكيف يتبع قبلتنا ؟ إذن : كانت فتنةً للطرفين لكى يلتزم الإنسانُ التوجيهات الإلهية بدون تدخّل للعقل فيها .

وقالوا فى الليلة المباركة : إنها ليلة البراءة وليلة الصّك وليلة الرحمة ، ليلة البراءة مأخوذة من البراءة التى كان يُعطيها العامل على الزكاة للمموِّل حين يعطيه حَقَّ الله فى المال وهو الزكاة ، فيعطيه العامل صك البراءة الذى يدلّ على أدائه للزكاة وبراءة ذمته منها ، والصَّك بنفس المعنى .

وليلة الرحمة ، قالوا : رحمة برسول الله ﷺ أولاً ، لأن نفسه كانت تتُوق للتوجُّه نحو قِبْلة إبراهيم .

وقوله سبحانه : ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣﴾ [الدخان] بعد أنْ ذكر الإنزال ذكر الإنذار ، فالإنزال للإنذار ، لأن القاعدةَ الشرعية أنَّ درْءَ المفسدة مُقدَّم على جلب المصلحة[2] فذكر (منذرين) قبل مبشِّرين .

---

(١) جعله الله فتنة أى : امتحاناً وابتلاء واختباراً .

(٢) من أدلة الفقه وأصوله قول الفقهاء (درء المفاسد أولى من جلب المصالح ودفع أعلاها) يعنى أن الأمر إذا دار بين درء مفسدة وجلب مصلحة كان درء المفسدة أولى من جلب المصلحة ، وإذا دار الأمر أيضاً بين درء إحدى المفسدتين وكانت إحداهما أكثر فساداً من الأخرى ، فدرء العليا منهما أولى من درء غيرها .

وسبق أنْ قلنا : هَبْ أن واحداً يرمى لك تفاحة ، وفى ذات الوقت آخر يرميك بحجر ، فبأيِّهما تنشغل ؟ لا شكَّ أنك تحرص أولاً على دَفْع الحجر عنك وتُقدِّمه على استقبال التفاحة .

كذلك الحال فى هذا الأسلوب القرآنى ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ③﴾ [الدخان] كلمة (كُنَّا) دلتْ على الماضى مع أن الإنذار مستمر ولا يزال ، لأن الحق سبحانه لا يحكمه زمن معين ، لأنه سبحانه خالق الزمن ، وما دام الزمن من خَلْق الله فالمخلوق لا يتحكم فى الخالق .

فالماضى والحاضر والمستقبل فى حقنا نحن البشر ، أمَّا فى حقِّ الله تعالى فالزمن كله سواء ، فحين تقرأ مثلاً ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ⑤⓪﴾ [الأحزاب] تقول : كان ولا يزال وسيكون فى المستقبل ، لأنه ما دام كان فى الأزل ، وهو سبحانه لا يعتريه تغيير فهو من الأزل إلى الأبد غفور رحيم .

وقوله تعالى : ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ④﴾ [الدخان] أى : فى هذه الليلة ﴿يُفْرَقُ ④﴾ [الدخان] بمعنى يُوضَّح ويُفصَّل ويُبيَّن ، والفرق هنا ليس بين حق وباطل ، إنما بين أمرين كلاهما حق ، وله حكمة فى زمنه .

وتأمل وصف الأمر ذاته بأنه (حكيم) لأنه أمر الله ﴿أَمْرًا[1] مِّنْ عِندِنَا ⑤﴾ [الدخان] يعنى : ليس هناك حكمة ترتقى إلى هذا الأمر

---

(١) كلمة (أمراً) هنا ذكر فيها القرطبى (٩/٦١٧٧) معنيين :
الأول : هو القرآن أنزله الله من عنده . قاله النقاش .
الثانى : هو ما قضاه الله فى الليلة المباركة من أحوال عباده . قاله ابن عيسى .
وقال ابن كثير فى تفسيره (٤/١٣٨) : ﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا .. ⑤﴾ [الدخان] أى : جميع ما يكون ويُقدره الله تعالى وما يوحيه فبأمره وإذنه وعلمه .

الذى يأتى من قِبَل الحق سبحانه ﴿ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ ﴾ [الدخان] يعنى : لم نترك خَلْقنا هملاً إنما خلقناهم وأرسلنا لهم مَنْ يأخذ بأيديهم إلى الصراط المستقيم ويدلُّهم على الهدى ويُبيِّن لهم .

فالحقّ أول ما خلق الخَلْق أرسل الرسل لهدايتهم ، لذلك كان آدم عليه السلام وهو أول البشر رسولاً ، لأن الخالق سبحانه خلق الإنسانَ ، لماذا ؟

لأنه خلقه لعمارة الأرض ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ..﴿٦١﴾ ﴾ [هود] يعنى : طلب منكم عمارتها ، والعمارة تقتضى الصلاح وتمنع الفساد ولا أقلَّ من أنْ نترك الصالح على صلاحه إذا لم نَزِد فى الصلاح .

وقد أوضحنا هذه المسألة بالبئر فى الصحراء . وقلنا : إذا لم تَرْتَق به بأنْ تبنى حوله سوراً وحافَّة تحميه من زَحْف التراب عليه ، أو تجعل عليه آلة لرفْع الماء ، فلا أقلَّ من أنْ تتركه على حاله ولا تهدمه .

كذلك حالُ الإنسان فى عمارة الأرض عليه أنْ يُعملَ عقله فى البدهيات ليصل منها إلى نظريات ترتقى بها حياته ، عندنا مثلاً الصوف والوبر والشعر ، لكلٍّ منها صفاته الخاصة وما يصلح له ، لذلك قال القرآن ﴿ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا [1] وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ ﴾ [النحل]

ومعلوم أن الوبر للجمال ، والصوف للغنم ، والشعر للماعز ، ولكل نوع منها خصائصُ يستخدمه الإنسان فى ثيابه ومسكنه ، وهذا

(١) الأثاث هو المال وقيل المتاع وقيل الثياب . والصحيح أعم من هذا كله فإنه يُتخذ من الأثاث البُسُط والثياب وغير ذلك ويتخذ مالاً وتجارة . قاله ابن كثير فى تفسيره (٣/ ٥٨٠).

من عمارة الأرض ، حـتى لو نظرنا إلى القواعد الهندسـية والنظريات نجدها تعتمد فى بدايتها على أمر بديهى موجود فى الكون .

إذن : كلُّ ارتقاء فى الكون أتى من أمـر بديهى موهوب من الله ، وعمل العقول فى البدهيات من عمارة الأرض .

لذلك عندمـا تتأمل أسلوبَ القـرآن فى مخـاطبة الناس تجـده يبدأ بأمور بسـيطة بعيـدة عن التعـقيـد الفكرى ، فيُحـدِّثهم أولاً عن أصل المنهج وما به تستقيم حياتهم وتنسجم حركاتهم فى الحياة ، ويُحدِّث العقول بما يناسب ارتقاءها الفكرى .

فـإذا ما نضج الـفكر الإنسانـى وتمكّن المنهج فى الناس سلوكـاً وتطبـيـقاً بـدأ يُحدِّثـهم عن نظريات عـقليـة ويقـول لهم : إن الأرضَ كروية ، وأنها تدور حـول الشمس لأن العقول أصبح عندها اسـتعداد للبحث والتقصِّى .

انظر مـثلاً إلـى الطرق ، وكيف كـانت بدائيـة ، مـجرد مـدقّ فى الصحراء يسع البـعير الواحد ؟ وكيف تطورتْ الآن ومـا توفّر لها من أسباب الراحة والأمـان والسرعة والسلامة وغيرها ، إنـه العقل حينما يعمل ليرتقى .

ألم يتعلّم الإنسان من الغراب كـيف يدفن الموتى ؟ ألم نتعلم من الكلاب ونستخدمها الآن رغم التطور العلمى فى تقصِّى الأثر والتعرف على المجرمـين باستخدام حاسـة الشم ؟ إذن : أخذنا الأمور الفطرية التى وهبها الله لنا وبنيْنَا عليها ، وطوَّرناها لعمارة الأرض .

وعمارة الأرض لا تقـوم إلا إذا استقام المنهجُ أولاً ، فـهو أساس

الارتقاء وأساس الإصلاح ، لأن الخالق سبحانه لما خلق الخَلْق جعل له منهجاً يحكمه ويُنظم حركته فى الحياة بافعل كذا ولا تفعل كذا .

فإن استقام على منهج ربه وخالقه استقامتْ حياته ، وإنْ شذَّ وانحرف ظهرتْ عورة المجتمع وبدَتْ مظاهر الفساد تدبُّ فى أوصاله .

وسبق أنْ مثَّلنا ذلك (بالكتالوج) الذى يضعه الصانع لحماية صنعته وصيانتها ، كذلك أنت إنْ سرْتَ على منهج خالقك لا يصيبك عَطَبٌ أبداً . ومن هنا كانت مهمة الرسل ، للبيان وللتذكير بالمنهج (افعل كذا) و (لا تفعل كذا) ، حتى سيدنا آدم ماذا حدث له لما خالف المنهج ؟ ربنا قال له : كل من الجنة كما شئت إلا هذه الشجرة فأكلا منها[1] ، ماذا حدث ؟

لما خالف حدث له العطب ، وظهرت عورته لمَّا أكل من الشجرة واضطر لما لم يعهده من قبل من خروج الريح والغائط واضطراب البطن ، وهذه أمور لم يكن يشعر بها قبل المخالفة .

وقوله سبحانه : ﴿ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ ﴾ [الدخان] يعنى : مرسلين رسلاً إلى مَن استخلفناه فى الأرض حتى تسْلَم حركةُ الحياة من العطب ، وحتى يسلَمَ المجتمعُ من الشرور ، ويتساند ولا يتعارض .

﴿ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦﴾ ﴾

---

(١) قال تعالى : ﴿ وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [البقرة] .

أى : أن الإرسال رحمة من الله بالعباد ، لأنه أمر لنا أنا وأنت من أعلى منا ، لا نجد غضاضة فى ذلك ، فلا أحدٌ منَّا يتعالى على الآخر ، لأننا نتلقى أوامرنا من الله ، ولذلك الناس البسطاء فى الفلاحين يقولون (الأصبع الذى يجرحه الشرع ميخرش دم) لأن الكل يُذعن لأمر الله ويخضع لحكمه ويرضى به .

إذن : تستقيم بنا الحياةُ حين نسير على المنهج ، لذلك سماه (الصراط المستقيم) وسماه (سواء السبيل) يعنى : فى الوسط لا يميل هنا ولا هنا ، لأنه يريد أنْ يُوفر عليك المجهود ويوفر الوقت ، كل هذا ثمرة المنهج والسير على الصراط المستقيم .

وهذه رحمة من الله بنا ، نعم رحمة بنا ألاَّ يتركنا للتجربة يموج بعضُنا فى بعض حتى نصلَ إلى الصواب وإلى الحق وإلى الصراط المستقيم ، من رحمته بنا ألاَّ يتركنا نتعاند ونتصادم بعضُنا ببعض ، بل جعل لنا قوانين ، وجعل لنا منهجاً نسير عليه من بداية الطريق .

وفرْق بين أمر يُلجئك إلى أنْ تُعدِّل مسارك وبين أمر معتدل من البداية ، من رحمة الله بنا أنْ يجعلنا نسير فى اتجاه واحد بحيث تكون كُلُّ الحركات فى اتجاه البناء ، وكل المجهودات إلى غاية واحدة ، يتعاون فيها كل الأفراد ، ويتساند فيها كل الأفراد .

وإلاَّ لو كانتْ الحركاتُ متصادمة فهى تهدم وتدمر ، وما فائدة أنْ تبنى وغيرُك يهدم ، على حَدِّ قول الشاعر[(١)] :

(١) الشاعر هو : بشار بن بُرْد العقيلى ، ولد ٩٥ هجرية ، أشعر المولدين على الإطلاق ، أصله من طخارستان ونسبته إلى امرأة عقيلية قيل إنها أعتقته من الرق ، كان ضريراً ، نشأ فى البصرة وقدم بغداد ، أدرك الدولتين الأموية والعباسية ، اتهم بالزندقة فمات ضرباً بالسياط ودفن بالبصرة عام ١٦٧ هجرية عن ٧٢ عاماً . (الموسوعة الشعرية) .

مَـتَى يبلُغ البُنْيَـانُ يَوْمـاً تَمـامَـهُ   إِذَا كُنْتَ تَبْنِيـه وَغَـيْـرك يَهْـدِمُ(١)

وتأمل لفظ القـرآن ﴿رَحْـمَـةً مِّن رَّبِّكَ ⟨٦⟩﴾ [الدخـان] ولم يقُلْ رحمة من الله ، لأن الربّ هو مُتولِّى التـربية والرعاية ، وسبق أنْ قلنا إن الألوهية تكليف والربوبية عطاء ، فهـذه الرحمة رحمة الرب الراعى الرحيم كالأم تربى طفلها الصغير وتحنو عليه وتُقوِّيه .

وما دام هو سبحانه ربكـم ومُربِّيكم وخالقكم كان يجب عليكم أنْ تطيعوه وألاَّ تخرجوا عن منهجه ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ⟨٦⟩﴾ [الدخان] السـميع لكل آلام الناس وشكاواهم إنْ جـهروا بهـا ، وهو (العليم) بأحوالهم وما يختلج فى صدورهم إنْ كـتموها فى أنفسـهم ، وإنْ كان الخطاب هنا بصيغة المفرد ومُوجهاً إلى سيدنا رسول الله .

﴿رَحْـمَـةً مِّن رَّبِّكَ ⟨٦⟩﴾ [الدخان] أى : يا مـحـمـد . وهذه عناية خاصة من الله برسوله وبيان لمنزلتـه ﷺ من الله ، فعيْنُ الله تحرسـه ، وعزيزٌ عليه أنْ يصيبه أذىً أو ألم من قومه ، فهو أغلى البشر عنده ، لذلك ربَّاه التربيةَ التى تجعله لا مهدياً فى نفسه فحسـب ، إنما وهادياً للناس .

﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ⟨٧⟩﴾

بعد أنْ قال سبحانه ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ⟨٦⟩﴾ [الدخان] أكَّدها بقوله ﴿رَبِّ السَّمَـوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ⟨٧⟩﴾ [الدخان] ثم ردَّ الأمر إلى يقـينهم ﴿إِن كُنتُم مُّـوقِنِينَ ⟨٧⟩﴾ [الدخـان] كـأنه واثقٌ أنهم عندمـا

(١) البيـت وحده قصـيدة لبشار بن برد من بحـر الطويل . وهو عند صـالح بن عبـد القدوس (توفى ١٦٠ هـ) بتمامه ضمن قصيدة له من بحر الطويل ، عدد أبياتها ٨ أبيات .

يُسألون لن يقولوا إلا هذا ، فما دُمتم موقنين بأن الله هو خالق السموات والأرض وما بينهما ، فلماذا كذَّبتم رسوله ؟!!

إن الآيات الكونية واضحة الدلالة على خالقها عز وجل ، هذه السماء التى تُظلكم ، وهذه الأرض التى تُقلكم[1] وما بينهما من خيرات وأسرار ، بل وما تحت الثرى من ثروات كلها تدل على الله . وإذا كان هذا الذى نراه فى الأرض والسماء عالم الملك ، فما بالك بعالم الملكوت ؟

عالم الملك تستطيع أن تقف عليه بحواسِّك ، أما عالم الملكوت فغيْبٌ لا نعرف منه إلا ما أخبرنا الله به ، كما قال تعالى فى شأن سيدنا إبراهيم :
﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ .. (٧٥) ﴾ [الأنعام]

وقوله ﴿ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ (٧) ﴾ [الدخان] اليقين استقبال القضية بدون شك علماً أو عَيْناً أو حقيقة ، كما سبق أنْ أوضحنا علم اليقين ، ثم عين اليقين ، ثم حقيقة اليقين ، فاليقين هو الاعتقاد الثابت الذى لا يتغيَّر بالحكم عليه فى الوجود علماً وعَيناً وحقيقة .

وهذه المراحل الثلاث ذُكرَتْ فى قوله تعالى : ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (٥) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (٦) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ (٧) ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ (٨) ﴾ [التكاثر]

وقال فى سورة الواقعة : ﴿ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ (٩٢) فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ (٩٣) وَتَصْلِيَةُ[2] جَحِيمٍ (٩٤) إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ (٩٥)

---

(١) تُقلكم : تحملكم . وأقلَّ الشىء واستقلَّه : حمله ورفعه . [لسان العرب - مادة : قلل] .

(٢) صلاَّه الله النار تصلية : أدخله إياها . فتصلية جحيم أى إدخال الجحيم . [القاموس القويم ١/٣٨٢] وقد أعطى ابن كثير (٤/٣٠١) المعنى زيادة فقال : « وتصلية جحيم أى : وتقرير له فى النار التى تغمره من جميع جهاته » . فليس الأمر أمر إدخال فقط .

﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٩٦)﴾ [الواقعة]

لكن أكان هؤلاء القوم فعلاً موقنين بأن الله رَبُّ السموات والأرض وما بينهما ؟ القرآن يقول لهم : ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ (٧)﴾ [الدخان] وإنْ هنا أفادت الشكَّ في يقينهم ، لأنهم لو كانوا موقنين لآمنوا برسول الله وصدَّقوه ، فهم يعترفون بأن الله خالقهم وخالق الكون كله ، ومع ذلك صادموا دين الله ، لماذا ؟

لأن الدين يُقيِّد حركتهم ويحرمهم من الشهوات ومن الاستفادة بالفساد الموجود في مجتمعهم الدين الحق يحرمهم من السيادة ، ويُسوِّى بينهم بين السادة والعبيد ، إذن : كرهوا الدين الحق للمنهج الذى جاء به ، ومالوا لدين باطل لأنه خَالٍ من المنهج ، ليس فيه أوامر ولا نَواه .

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ (٨)﴾

الحق سبحانه وتعالى يريد منا أنْ تنسحب مقولتنا على أفعالنا ، كلمة ﴿لا إِلَٰهَ (٨)﴾ [الدخان] الإله هو المعبود الحق ، لأنهم لما عبدوا الأصنام سمَّوْها آلهة ، نعم آلهة بزعمهم وفى تصورهم هم ، لكنها آلهة باطلة وتسمية باطلة ، لأن الإله هو المعبود بحقٍّ والذى له منهج ويقوم على ذلك الدليل .

أما دعواهم فدعوى ليس لها دليل ، اللهم إلا أنها عبادةٌ تُرضى ما فى نفوسهم من ميْل للتدين حتى لو كان المعبودُ صنماً لا تكاليفَ له ولا منهجَ عنده .

فالتدين كما قلنا فطرة فى الإنسان ، والواقع والتجربة تُثبت ذلك ، فلما تضيق الأسباب بالإنسان حتى الكافر يقول : يا رب ويلجأ إلى المعبود الحق ولا يخدع نفسه ، لأن الشدة التى نزلت به يعرف أنها لا كاشفَ لها إلا الله .

لذلك لم يقُلْ أحدٌ يا لات ولا يا عزى ، لكن للأسف حين يكشف الله عنهم ويُفرج كربهم يعودون إلى ما كانوا عليه ، وكثيراً ما تحدَّث القرآن حول هذا المعنى ، قال تعالى : ﴿ **وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** (١٢) ﴾ [يونس]

ويغيب عن أذهان الناس أن الدين عندما يُقيد حركتك فيما لا يجوز وأنت فرد يُقيد حركة الناس جميعاً من أجلك . فقال لك : لا تسرق من الناس . وقال للناس جميعاً أن لا يسرقوا منك . إذن : أنت المستفيد الأول من تطبيق منهج الله .

وبعد أن قال : ﴿ **لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ** .. (٨) ﴾ [الدخان] أتى بالدليل عليها ﴿ **يُحْيِي وَيُمِيتُ** .. (٨) ﴾ [الدخان] لأن مسألة الإحياء والإماتة لله وحده لا منازع له فيها ، والذين يتمتعون بالحياة لا يعكر عليهم صفو هذه المتعة إلا أنهم يرونَ الموت حولهم يحوم ويوشك أنْ يصيبهم .

إذن : الحق سبحانه وتعالى أتى هنا فى الشىء الذى يحبه ، فالذى يملك حياتك ويملك موتك هو الله ، فلا يليق بك أنْ تغفلَ عنه ، أو أنْ تنصرفَ عن منهجه وسبيله إلى سبيل غيره .

وقوله ﴿ يُحْيِي وَيُمِيتُ .. ﴿٨﴾ ﴾ [الدخان] واقع بالفعل على الغير وإنْ كان من صفاته أنه حَيٌّ قيوم ، كما فى آية الكرسى : ﴿ اللَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ .. ﴿٢٥٥﴾ ﴾ [البقرة] والبعض يقول : الحى اسم الله الأعظم لأنه أصْلٌ ، وكل صفة أخرى أو اسم آخر فرع منه .

قالوا : الحى هو الاسم الأعظم فى العطاء ، والله الاسم الأعظم فى العبودية ، لأن معنى كلمة الله المعبود المطاع فى كُلِّ أوامره .

وما دام مطاعاً فى كل أوامره . إذن : أنت عندما تسأل الله تقول : بسم الله ، يعنى : بسم الله أقبل على هذا العمل ، لأن العمل يحتاج إلى طاقة ، ويحتاج إلى عقل يفكر قبل أنْ تشرعَ فى العمل ، ويحتاج إلى حكمة .

وهذه الأشياء ممَّن تستمدها ؟ من الله ، لأنه وحده الذى يجمع كلَّ صفات الكمال ويفيض عليك من صفاته فوجبَ الاستعانة به والتوكل عليه ، فالذى قال : إن الاسم الأعظم (الحى) نظر إلى العطاء ، والذى قال (الله) نظر إلى التكليف .

وقوله سبحانه : ﴿ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ ﴾ [الدخان] أراد سبحانه أنْ يجادل الكفار المعاصرين للرسول ﷺ لأنهم قالوا : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ [1] وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الزخرف] فأراد

(١) على أمة : أى على طريقة ومذهب . قاله عمر بن عبد العزيز . وكان يقرأ هو ومجاهد وقتادة (على إمة) بكسر الألف . وقال قتادة وعطية (على أمة) أى على دين . قاله القرطبى فى تفسيره (٦١١٩/٤) ورجح ابن كثير فى تفسيره (١٢٦/٤) المعنى الأخير .

أنْ يُبيِّن كذبهم فى هذه المقولة ، فلو أنهم مقتدون فعلاً بالآباء لسَاروا على منهج آدم عليه السلام ، لكنهم شذُّوا عنه وانحرفوا عن هديه حتى تغيَّر منطق الدين ، وتعددتْ رسلُ الله لهدايتهم .

﴿ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ ۝٩ ﴾

الحق سبحانه وتعالى هنا جمع لهم وصفين : أنهم فى شَكٍّ من دين الله ، وأنهم يلعبون يعنى : غير جادين فى هذه المسألة ، ولو كان وصف واحد منهما لكان كافياً لإبعادهم عن ساحة الإيمان .

﴿ هُمْ فِى شَكٍّ.. ۝٩ ﴾ [الدخان] لنعرف معنى الشك نقول : إن النسب العقلية فى القضايا ستُّ نسب . منها : **العلم** : وهو أن تعتقد قضية يُؤيدها الواقع . **والجهل** : أنْ تعتقد قضية مخالفة للواقع . **والتقليد** : وهو أنْ تعتقد قضية ولا تستطيع التدليلَ عليها كالطفل يُقلِّد أباه فيقول : الله أحد لكنه لا يقيم الدليل عليها . ثم **الشك** وهو أنْ يستوى عندك أمران لا ترجح أحدهما على الآخر ، فإنْ رجحت أحدهما فالراجح ظنٌّ ، والمرجوح وَهْم .

فالشك إذن أنْ يستوىَ عندهم الكفر والإيمان ، وليتهم فى شَكٍّ فقط ، إنما أيضاً ﴿ يَلْعَبُونَ ۝٩ ﴾ [الدخان] فلو كانوا فى شَكٍّ وجادِّين فى البحث والتأمل لوصلوا إلى الحق ، لكنهم هازلون لاعبون ، لا حرصَ عندهم للوصول إلى الحق .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ [(١)] ﴿١٠﴾ يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ
هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ إِنَّا مُؤۡمِنُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

الحق سبحانه يُبيِّن أنه لن يترك هؤلاء الشاكِّينَ المكذِّبين لرسوله ، اللاهين اللاعبين وأن لهم يوماً يقتصّ فيه منهم ، فيقول ﷺ ﴿ فَارْتَقِبْ ﴿١٠﴾ ﴾ [الدخان] انتظر ﴿ يَوْمَ تَأْتِى السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ ﴾ [الدخان] أى : دخان ظاهر وكثيف .

والدخان : غازات تتداخل وتملأ الجو مثل الشبورة التى نراها فى الصباح ، ولكثافتها تؤدى إلى حَجْب الرؤية ، لأن تداخلَ الذرات يسُد الفجوات التى ينفذ منها البصر ، ثم تُسبب ضيقاً فى الهواء وفى التنفس ، فإذا جمعتَ عدم الرؤية مع ضيق التنفس تجد أن الكرْبَ عظيم لا يتحمله الإنسان .

قالوا : إن الدخانَ هنا دلالةٌ على الجدب الذى أصابهم والقحط الذى نزل بهم ، لأنهم لما بالغوا فى تكذيب رسول الله واشتدُّوا فى إيذائه وإيذاء أصحابه دعا عليهم وقال « اللهم اشْدُدْ وطأتَكَ على مُضَر ، واجعلها عليهم سنين كسِنى يوسف »[(٢)] .

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٦١٧٩/٩) : « فى الدخان ثلاثة أقوال :
١ - أنه من أشراط الساعة لم يجىء بعد ، وأنه يمكث فى الأرض أربعين يوماً يملأ ما بين السماء والأرض ، فأما المؤمن فيصيبه مثل الزكام ، وأما الكافر والفاجر فيدخل فى أنوفهم فيثقب مسامعهم ويضيق أنفاسهم ، وهو من آثار جهنم يوم القيامة . قاله على وابن عباس وابن عمر وأبو هريرة وغيرهم كثير .
٢ - أنه ما أصاب قريشاً من الجوع بدعاء النبى ﷺ حتى كان الرجل يرى بين السماء والأرض دخاناً . قاله ابن مسعود .
٣ - أنه يوم فتح مكة لما حجبت السماء الغبرة . قاله عبد الرحمن الأعرج .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٧٦٢ ، ٩٥١ ، ٢٧١٥ ، ٣١٣٤) وكذا مسلم فى صحيحه (١٠٨٢ ، ١٠٨٣) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

فأصابهم القحط والجدب حتى أكلوا الجِيَف والكلاب الميتة ، حتى أكلوا العلهز وهو الصوف أو الوبر المخلوط بالدم الجاف . إلى أنْ ضجُّوا وذهبوا إلى رسول الله يطلبون منه أنْ يدعوَ الله لهم أنْ يكشف عنهم ما نزل بهم .

وقد بيَّنَ الله لرسوله كذبهم ، فلو كشفنا عنهم العذابَ فلسوف يعودون إلى ما كانوا عليه من الكفر والتكذيب .

ومعنى ﴿ يَغْشَى النَّاسَ ⑪ ﴾ [الدخان] يعنى : يحيط بهم ويُغطيهم ﴿ هَـٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ⑪ ﴾ [الدخان] لأنه يمنع عنهم الرؤية ويُضيق التنفس فيجأرون ﴿ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ⑫ ﴾ [الدخان] والله يعلم أنهم كاذبون فى هذه المقولة .

لذلك يقول بعدها :

﴿ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ⑬
ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ⑭ ﴾

قوله : ﴿ أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ ⑬ ﴾ [الدخان] من أين لهم التذكُّر والاتعاظ ؟ ومن أين لهم الإيمان الذى يدَّعونه وقد جاءهم ﴿ رَسُولٌ مُّبِينٌ ⑬ ﴾ [الدخان] بأكبر من هذا الدخان : بينات معجزات قائمة ، كتاب حكيم معجز ، حكمة تسيِّر الكون على نظام بديع ، يسعد الفرد والمجتمع واضح الحجة ، واضح البيان ، كثير الخيرات ، محيط بكل وجوه الخير التى تعود عليهم ، فما كان منهم إلا الإعراض والتكذيب .

﴿ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ ⑭ ﴾ [الدخان] أعرضوا ﴿ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ⑭ ﴾ [الدخان] يعنى لم يُعرضوا عنه ويتركوه فى حاله ، إنما

تعدَّوْا علـيه بالقول والاتهـام الكاذب ﴿مُعَلَّمٌ .. ⦗١٤⦘﴾ [الدخان] أى : يعلمه غيره .

كما قال سبحانه فى موضع آخر : ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ⦗١٠٣⦘﴾ [النحل] فيـردّ الله عليهم ويُبطل اتهـامهم ﴿لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ(١) إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ⦗١٠٣⦘﴾ [النحل]

وقد قالوا أنه ﷺ يختلف إلى رجل فـارسى يُعلّمه القرآن ، وردّ عليهم فى قولهم (مجنون) فقـال سبـحانه ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ⦗٢٢⦘﴾ [التكوير] . وقال : ﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ⦗١⦘ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ⦗٢⦘ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ⦗٣⦘ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ⦗٤⦘﴾ [القلم]

وما دام على خُلُق عظيم فهو لا يتعدى مقاييس الفضيلة ، ولا تصدر عنه الأفعال إلا عن تدبّر وتعقّل وأدب ، وما أبعد هذا عن الجنون !!.

﴿إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ⦗١٥⦘﴾

أى : عـذاب الدنيا الذى نزل بهـم ، والذى سمّـاه القرآن العـذاب الأدنى ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ⦗٢١⦘﴾ [السجدة] سنكشف عنهم عذاب الدخـان والقحط والجوع الذى اضطرهم لأنْ يأكلوا المـيتـة ، سنكشـفه عنكم قلـيلاً لنثـبتَ لكم أنكم كاذبون ولو أمام أنـفسكم لتقتنعـوا بهذه الحقيقـة ؛ لأن المؤمنين بى يعرفونها ويشـهدون بها ، أما أنتم فتنكرونها .

(١) يلحدون هنا بمـعنى : يميلون إليه ويشـيرون . [القامـوس القويم ٢/١٨٩] وهم فى هذا يميلون عن القصد والصواب أى ينحرفون عنه .

أو يكشف كذبهم أمام الناشئة ، منهم الذين لم يتمكن منهم الكفر فيحدث خلخلة فى صفوفهم ، ويظهر الكافرون على حقيقتهم فلا يُقلدهم أبناؤهم الذين يتابعون هذه المواقف ، ويشاهدون كذبَ الآباء والأجداد .

وفعلاً رأينا من أبناء الكافرين مَنْ أسلم وأبلى فى الإسلام بلاءً حسناً أمثال عكرمة بن أبى جهل وغيره ، ممَّنْ عاينوا كذب الآباء وعدم وفائهم مع الله .

من هؤلاء مصعب بن عمير فتى قريش المدلّل ، وأغنى أغنيائها ، وكان يتقلَّب فى ألوان النعيم لما رأى ما عليه القوم من التناقض ، ترك الكفر إلى الإسلام ، وتركَ كلَّ مظاهر النعيم ورَضى بعيش التقشُّف .

وقد رآه سيدنا رسول الله ﷺ فى المدينة بعد أنْ هاجر يرتدى جلد شاة على كتفه ، فتعجَّب وقال : انظروا إلى صاحبكم ، كيف فعل الإيمان به(١) ؟ ولما مات مصعب لم يجدوا ما يكفنونه به(٢) . هؤلاء شبابٌ اختطفهم الإيمان من براثن الكفر .

وقوله : ﴿ إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [الدخان] يعنى : راجعون مرة أخرى إلى كفركم وعنادكم وتكذيبكم لرسول الله .

---

(١) عن عمر بن الخطاب قال : : نظر النبى ﷺ إلى مصعب بن عمير مقبلاً وعليه إهاب (جلد) كبش قد تمنطق به فقال ﷺ : « انظروا إلى هذا الرجل الذى قد نوَّر الله قلبه ، لقد رأيته بين أبوين يغذوانه بأطيب الطعام والشراب ، فدعاه حب الله ورسوله إلى ما ترون » أخرجه أبو نعيم فى حلية الأولياء (١٠٨/١) قال العراقى في تخريجه لأحاديث الإحياء (٢٩٥/٤) : إسناده حسن .

(٢) قُتل مصعب بن عمير يوم أُحُد ، ولم يترك إلا نمرة ، كنا إذا غطينا رأسه بدت رجلاه ، وإذا غطينا رجليه بدا رأسه ، فقال رسول الله ﷺ : « غطوا رأسه واجعلوا على رجليه من الإذخر » أخرجه الترمذى فى سننه (٣٧٨٨) وأحمد فى مسنده (٢٠١٦٥ ، ٢٥٩٥٦) والبيهقى فى سننه (٧/٤) ومشكل الآثار للطحاوى (٣٤١٩) .

﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ (1)

يعنى : اذكروا هذا اليوم ولا تغفلوا عنه ﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ ﴿١٦﴾ ﴾ [الدخان] البطش : الأخْذ بقوة والضربة القوية التى تستوعب كلَّ جوارح الجسم ولا تبالى على أىِّ عضو وقعتْ ، نقول : فلان بطش بفلان يعنى : ضربه بقسوة وعنف دون أنْ يراعى على أىِّ عضو وقع الضرب ، وبعد هذا الوصف سماها (الكبرى) تأكيداً على قسوتها وشدَّتها على الكافرين .

﴿ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [الدخان] والانتقام يدل على التكافؤ ، فالبطشة ليستْ اعتداءً منا ، بل جزاءَ ما قدّمتم من تكذيب وإيذاء لرسول الله .

فالبطشة إذن جزاءٌ من جنس العمل ، ولولا هذه البطشة لم تتحقق عدالة السماء بين المؤمنين والكافرين ، ولكانتْ مساواة بين المؤمنين الذين تحمَّلوا الإيذاء والعَنت والاضطهاد ، وبين الكافرين الظالمين المعتدين .

كان لا بدَّ أنْ تحدثَ هذه البطشةُ بالكافرين ليرى المؤمنون ثمرةَ إيمانهم ، وكيف أن الله نجَّاهم بالإيمان فيفرحون ، ويرى الكافرون ثمرةَ كفرهم وعنادهم فيتحسَّرون ويندمون ويتألمون .

---

(١) فى المقصود بالبطشة الكبرى عدة أقوال :
- أنها يوم بدر . قاله ابن مسعود وابن عباس وأبىّ بن كعب .
- أنها عذاب جهنم يوم القيامة . قاله الحسن وعكرمة وابن عباس أيضاً واختاره الزجاج .
- أنها دخان يقع فى الدنيا ، أو جوع وقحط يقع قبل يوم القيامة .
- أنها قيام الساعة . قاله الماوردى لأنها خاتمة بطشاته فى الدنيا . [تفسير القرطبى ٩/٦١٨٣] .

وفى أكثر من موضع حكى لنا القرآن الكريم حواراً بين أهل الجنة وأهل النار يُوضِّح فرح المؤمنين وندم الكافرين وتحسُّرهم : ﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ (٥٠) ﴾ [الأعراف]

فقوله تعالى ﴿ إِنَّا مُنتَقِمُونَ (١٦) ﴾ [الدخان] إشارة إلى عدالة السماء وكأن الله تعالى يقول لهم : لا تلومونا على أنْ أخذناكم هذه الأخْذة ، فأنتم صَنْعتنا ، ونحن أرأفُ بكم من الوالدة بولدها ، لكن لا بدَّ من الانتقام لتستوى الكفة ، وحتى لا تكون فتنةٌ .

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ (١٧) أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٨) ﴾

كأنه يقول لهم : لسْتم بدعاً فى ذلك ، فقد سبقكم أمم كذَّبوا الرسول فنزل بهم مثلُ ما نزل بكم ، كلمة ﴿ فَتَنَّا (١٧) ﴾ [الدخان] يعنى : ابتلينا واختبرنا ، والفتنة لا تُذمُّ لذاتها ، وإنما تُذم لنتيجتها مثل الامتحان لا يُمدح ولا يُذم لذاته ، إنما حسْب ما يترتب وما ينتج عنه .

وتعرفون قصة قوم فرعون ﴿ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ (١٧) ﴾ [الدخان] هو سيدنا موسى عليه السلام ، فهو كريم على الله الذى أرسله ، ومن كرامته جعله كليماً يُكلِّمه من وراء حجاب ، ذلك لأنه سيتعرَّض لا لفساد خُلُقى ولا لفساد اجتماعى ، إنما لفساد عَقَدىّ .

وكأنَّ الله تعالى يُعد للقائه مع رأس الكفر ، وهو فرعون الذى وصل به الضلال إلى أنْ يدَّعى الألوهية ، ويقول للناس : أنا ربكم الأعلى .

ومن هنا كانت مهمة موسى عليه السلام مهمة صعبة وشاقة ، لذلك درَّبه ربه عز وجل على استخدام الآيات والمعجزات قبل أنْ يُظهرها أمام فرعون .

اقرأ : ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَـٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ [طه]

فالحق سبحانه عرَّف موسى مهمة العصا فى المعركة العقدية التى سيخوضها مع فرعون ودربه على التعامل معها ، حتى إذا واجه فرعون واجهه بثقة وثبات واطمئنان إلى نصر الله وتأييده له ، لذلك قلنا : إن المستشرقين تصيّدوا هذه القصة ، واتهموا القرآن بالتكرار .

وهذا يدل على عدم فهمهم للآيات فى سياقها ، فقصة العصا فعلاً وردتْ ثلاث مرات ، مرة بين موسى وربه عز وجل كتدريب ومران على هذه المسألة ، والمرة الثانية كانت أمام فرعون ، والمرَّة الثالة كانت أمام سحرة فرعون .

إذن : كان لكلٍّ مرحلة حكمة ، والمسألة ليستْ فيها تكرار ، إنما هى مواقف مختلفة ، كلٌّ فى موعدها .

وقوله سبحانه :﴿أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ ﴿١٨﴾﴾ [الدخان] ساعة تسمع ﴿أَدُّوا إِلَيَّ ﴿١٨﴾﴾ [الدخان] تعرف أن هناك أمانة يجب تأديتها ، فما الأمانة التى يطلب موسى من قومه أنْ يؤدوها إليه ؟

قالوا : الحق الذى طالب به موسى قوم فرعون هو أنْ يأخذ بنى إسرائيل ، وأنْ يخرجهم من العذاب المهين الذى يُلاقونه من قوم فرعون وهذه هى مهمة موسى الأولى ، أما دعوته لفرعون فكانت

على هامش المهمة الأساسية ، وكلامه مع فرعون زائد على مهمته وعن التشريع الذى أتى به بنى إسرائيل .

وسبب اضطهاد قوم فرعون لبنى إسرائيل أن الهكسوس[1] لما دخلوا مصر عاثوا فيها فساداً ، وكان بنو إسرائيل يعاونون الهكسوس ويساعدونهم ، فلما خرج الهكسوس من مصر لم يَعُدْ لهم عدو إلا بنى إسرائيل لذلك اضطهدوهم .

وكما حكى القرآن : ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ﴿٤٩﴾﴾ [البقرة] فجاء سيدنا موسى أصلاً لإنقاذ بنى إسرائيل من العذاب وليُخرجهم من مصر .

فالحق سبحانه وتعالى لطف ببنى إسرائيل لأنهم كانوا هم المؤمنين فى هذا الوقت وكان الآخرون وثنيين .

إذن معنى : ﴿أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ ﴿١٨﴾﴾ [الدخان] يعنى : اعطونى بنى إسرائيل الذين تُعذِّبونهم واتركُونى وشأنى .

ومن إعجاز القرآن أنه لما تكلَّم عن حاكم مصر سمَّاه فرعون ، إلا فى فترة سيدنا يوسف عليه السلام سماه الملك : ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ ﴿٤٣﴾﴾ [يوسف]

وقد ثبت أن الهكسوس أثناء وجودهم فى مصر غيَّروا اسم الفرعون وقالوا (الملك) وكان وجودهم فى مصر أيام سيدنا

(١) الهكسوس هم قوم ينحدرون من الأموريين نزحوا من العراق إلى مصر قبل حوالى ١٧٨٩ سنة قبل الميلاد ، وقد حكموا مصر ما بين ١٦٤٨ إلى ١٥٤٠ ق. م أى أنهم حكموا مصر ١٠٨ سنة . عُرفوا باسم الملوك الرعاة شكلوا حكام الأسرتين ١٥ ، ١٦ . اتخذ الهكسوس عاصمة لهم فى شرق الدلتا أطلقوا عليها اسم (أواريس) . وهم أصحاب بشرة بيضاء ساميون . [موسوعة ويكيبيديا] .

يوسف عليه السلام .

وقوله : ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٨) ﴾ [الدخان] يعني : مؤتمن على رسالتي من الله أؤديها كما يجب أن يكون الأداء .

﴿ وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ ۖ إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (١٩) وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ (٢٠) ﴾

قوله : ﴿ وَأَن لاَّ تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ (١٩) ﴾ [الدخان] أرجع الأمر إلى مصدره الأول ، فلم يقُلْ أنْ لا تعلوا عليَّ إنما على الله ، يعني : افهموا أن المعركة ليست بيني وبينكم ، بل بينكم وبين الله الذي أرسلني ، فحين تعلون وتعاندون لا تعلون عليَّ ، إنما على الله الذي كلّفني وأرسلني إليكم .

﴿ إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (١٩) ﴾ [الدخان] يعني : بحجة واضحة وآية بينة وهي العصا ، والعصا آية من جنس السحر الذي نبغ فيه قومُ فرعون ، ولكنها ليستْ من نوعه ؛ لأن السحر في حقيقته تخييلٌ للأعين كما قال سبحانه : ﴿ سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ (١١٦) ﴾ [الأعراف]

لذلك لما رأى السَّحرةُ عصا موسى تلقَفُ ما صنعوا خرُّوا ساجدين لا لموسى ، بل لربه دون أن ينتظروا إذناً من فرعون ؛ لماذا ؟

لأنهم رأوا شيئاً غير السِّحْر ليس تخييلاً للأعين ، إنما حقيقة واقعة ، وهم أدرى الناس بماهية السحر .

وقوله ﴿ وَأَن لاَّ تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ (١٩) ﴾ [الدخان] يعني : لا أتكلم من عند نفسي إنما بأمر السماء ، وفيه إشارةٌ أيضاً إلى إبطال ألوهيتهم

المدّعـاة ، يعنى : أنتم بينكم وبين أنفسكم تعلمون أنكم لستم آلهة ، وأن هذا ادعاء كاذب ، لذلك خوَّفهم بالإله الحق .

﴿ وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ (٢٠) ﴾ [الدخان] يعنى : لجأتُ إليه وتحصَّنتُ به من أذاكم ، وتأمل ساعة قالها موسى وكيف أنه استعاذ بمعاذ ، ولجأ إلى ركن شديد لا يُضام مَن التجأ إليه .

ماذا حدث بعد أن استعاذ بالله ؟ سخَّر الله له رجلاً من قوم فرعون يُصدق موسى ويدافع عنه .

وهذه الاستعاذة أيضاً ستنفعه فى المستقبل فى قضية انفلاق البحر ، لما أدركه فرعون وجنوده عند شاطئ البحر ، حتى قال أصحاب موسى ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١) ﴾ [الشعراء] حيث لا أمل فى النجاة .

أما موسى فلديه رصيدٌ من الثقة بربه ، فقال : ﴿ كَلاَّ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ (٦٢) ﴾ [الشعراء] قالها وهو واثق بها لأنه جرَّبها قبل ذلك وأفلح بها .

إذن : لمَّا حزبه الأمر وضاقتْ به أسبابه لجأ إلى الله لجوءَ الواثق المطمئن فأوحى الله إليه ﴿ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ (٦٣) ﴾ [الشعراء] لم يُكذِّب موسى الأمر ولم يتردد فيه مع أنها كانت شيئاً عجيباً يفوق تخيُّل العقل ، لكنّ صدْقَ الله معه فى الأولى ، شجَّعه أنْ يطيع الأمر وألاَّ يتردد فيه .

﴿ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ (٦٣) ﴾ [الشعراء] فكانت المعجزة أن انفلق البحرُ ، فكان كل فرْق كالطوْد العظيم ، ونجَّى الله موسى ومَنْ معه ، وأهلك فرعون وجنوده ، وهذا من طلاقة القدرة أنْ يهلك ، وأنْ ينجى بالشىء الواحد ، لأن الأشياء لا تنفعل لذاتها ، إنما لإرادة الله .

وقوله ﴿أَن تَرْجُمُونِ (٢٠)﴾ [الدخان] دلَّ على أن الرجم كان موجوداً فى الأمم السابقة التى كانت تكذِّب رسولها .

﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى فَٱعْتَزِلُونِ (٢١) فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ (٢٢)﴾

يعنى : إنْ لم تُصدِّقونى فيما أقول ؛ فلا أقلَّ من أن تعتزلونى وتتركونى وشأنى فلا تؤذوننى .

وقوله ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَٰؤُلاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ (٢٢)﴾ [الدخان] فيه إشارة إلى يأسه من صلاحهم حتى شكاهم إلى الله ، وطلب الخلاصَ منهم .

﴿فَأَسْرِ(١) بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ (٢٣) وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا(٢) إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ (٢٤)﴾

الحق سبحانه وتعالى يقى أولياءه ويعطيهم الحصانة اللازمة ، فالأمر لموسى أنْ يخرج ببنى إسرائيل ليلاً ، ويخبره بما سيحدث من فرعون وقومه ، وأنهم سيتبعونهم فلم يتركه للمفاجأة بل أعطاه حقنة وقاية بالعلم بالشىء ، وهذه من أسباب النصرة والتأييد .

---

(١) أسْرِ (بهمزة قطع) هو قراءة الجمهور من أسرى . وقرأ أهل الحجاز (فاسر) بوصل الألفِ وكذلك ابن كثير من (سرى) . ذكره القرطبى فى تفسيره (٩/٦١٨٥) .

(٢) رهواً : أى اترك البحر ساكن الأمواج ليغتروا وينزلوا فيه . أو أن تكون أنت يا موسى هادئ النفس مطمئناً إلى النجاة . [القاموس القويم ١/٢٧٩] . ولـ (رهواً) معنى ثالث هو : الفرجة بين الشيئين . يقال : رها ما بين الرِّجْلَيْن أى فرج . فقوله (رهواً) أى منفرجاً . [القرطبى فى تفسيره ٩/٦١٨٧] .

وهذا هو الذى شجَّعه أنْ يقول (كلا) لن يدركونا ولن ينتصروا علينا ، ونحن مُؤيَّدون من الله ، والذى أمرنى أنْ أسرى بعباده ، وأخبرنى ما سيكون من عدوى لن يخذلنى .

إذن : كل لقطة فى هذه القصة دلَّتْ على طلاقة القدرة التى تعمل فى الأشياء كلها ، وتنقل الشىء إلى ضده . وقوله : ﴿ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا (٢٤) ﴾ [الدخان] هذا الأمر جاء بعد الأمر بضرب البحر بالعصا فى موضع آخر .

إذن : هى لقطات متفرقة بين الآيات تتكامل لتخدم فكرة واحدة ، وتكون نسيجاً واحداً للقصة ، فهناك قال له ﴿ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ (٦٣) ﴾ [الشعراء] وهنا أمره ﴿ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا (٢٤) ﴾ [الدخان] كلمة (رَهْواً) مصدر من رها يرهو رهواً . مثل : عدا يعدو عدواً . عدا يعنى : جاوز المكان جرياً . وضده رها يعنى : سكن فى مكانه .

فموسى حين ضرب البحر تجمَّد الماء وسكن فى مكانه على شكل جبلين كبيرين بينهما يابس ، ورأى موسى هذا اليابس طريقاً مُمهداً فعبره إلى الجانب الآخر .

وطبيعى وحسْب تفكير العقل أنْ يفكر أنْ يضرب البحر مرة أخرى ليعود إلى سيولته ، ويمنع فرعون وجنوده من اللحاق به ، لكن لله تعالى فى الأمر تدبير آخر ، فقال له : ﴿ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا (٢٤) ﴾ [الدخان] أى : على سكونه .

موسى يفكر ببشريته ، والحق سبحانه يأمر بحكمته ، وهذه ليس فيها غضاضة على موسى ، لأن الذى يُصوِّب له هو ربُّه عز وجل ، وهذا شرف لموسى وعظمة .

وسيدنا رسول الله ﷺ الذى نقل لنا هذا التصويب حين يُخطئ الرسل فى أمر لم يردْ فيه نصّ ، كذلك صوَّب الله له فى قوله : ﴿ يَـأَيُّها النَّبىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغى مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ (١) ﴾ [التحريم] وعاتبه ربه بقوله : ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ (٤٣) ﴾ [التوبة] فمَن الذى أخبرنا بهذا التصويب وبهذا العتاب ؟ إنه رسول الله الصادق فى البلاغ عن ربه .

إذن : الحق سبحانه صوَّب لنبيه موسى عليه السلام وقال له ﴿ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا (٢٤) ﴾ [الدخان] لأنِّى أريد أنْ أُهلك فرعون وجنوده بنفس الشئ الذى نجيَّتك به ، وهذه من طلاقة قدرة الله ، ففرعون لا بدّ أنْ يغترّ بهذا الطريق اليابس الذى يراه وسوف يعبره خلفك .

وفعلاً ما أنْ وصل موسى إلى الناحية الأخرى من البحر حتى كان فرعونُ فى وسطه ، وعندها أمر الله الماء أنْ يعود إلى استطراقه وسيولته ، وأغرق فرعونَ وجنوده ﴿ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ (٢٤) ﴾ [الدخان] ؛ فبطلاقة القدرة أنجى الله سبحانه وأهلك بالشيء الواحد .

ثم يُبيِّن لنا الحق سبحانه ما كان فيه هؤلاء من النعمة ، وما آلوا إليه من النقمة والعذاب :

﴿ كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٢٥) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٢٦) وَنَعْمَةٍ(١) كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ (٢٧) ﴾

---

(١) النَّعمة (بفتح النون) : التنعيم والتقلب فى حُسْن النِّعمة وغضارتها . أما النِّعمة فهى اليد البيضاء الصالحة والصنيعة والمنَّة وما أنعم به عليك . [لسان العرب - مادة : نعم] بتصرف .
وقال ابن عمر : المراد بالنعمة نيل مصر . وقال ابن لهيعة : المقصود بها الفيوم . وقال ابن زياد : أرض مصر عامة لكثرة خيرها . [تفسير القرطبى ٩/٦١٨٨] .

يعنى : بعد أنْ أغرقهم الله تركوا هذا النعـيم ، (كَمْ) خبرية تفيد الكثرة ﴿مِن جَنَّاتٍ (٢٥)﴾ [الدخان] حـدائق وبسـاتين نضـرة ﴿وَعُيُونٍ (٢٥)﴾ [الدخان] يعنى : عيون الماء العذب الذى يجرى خلال هذه البساتين .

﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٢٦)﴾ [الدخان] مَقام بفتح المـيم اسم مكان القيام إذا كنت جالساً ، قمت ، واسم مكان الإقامة مُقام بضم الميم لموضع الإقامـة ، والمُقـام لا يُوصف بأنه كريم إلا إذا توفـرتْ لمن يقيم فـيه سُبـل الراحة والرفـاهية ، فـالمقـام نفسـه فيـه كرم . يعنى : يجـمع لصاحبه كلَّ وسائل الخير حين يقوم وحين يجلس .

وكأن الخير تابع له مطيع لأوامره ، ولا يكون ذلك إلا إذا كان له تابعون وهو مـتبـوع ، وهؤلاء التابعون يؤدون له أوامـره فى قيـامه وفى قعوده .

والإنسان حينما يكون قاعداً أو نائمـاً أو مضطجعاً ما الذى يجعله يقوم ؟ أمـر جَدَّ عليه فأقـامه ، وهذا الأمر نوعـان : إما خير يُفـرحه ويهشّ إليه فيقوم له مثل حـبيب أو صديق غائب وهو يعود ، أو أمر يُحزنه ويفزعه فيقوم له .

كما وردتْ كلمة (مُقام) بضـم الميم ، وهى بمعنى مكان الإقامة فى قوله تعالى : ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٦٦)﴾ [الفرقان] ، وفى قوله تعالى : ﴿خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٧٦)﴾ [الفرقان]

وقوله : ﴿وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ (٢٧)﴾ [الدخان] كلمة (نعمة) أيضـاً وردتْ بفتـح النـون مرتين كـما هنـا ، ووردت بكسر النون مثل ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ .. (٤٠)﴾ [البقرة] فى ٣٤ موضعاً إما مُفردةً وإما مُضافةً إلى الله ، ووردتْ نعمتى ونعمتك ونعمته للغائب .

والفرق بينهما أن نعمة بالكسر تعنى : ما يتنعَّم به ، ولكن يلاحظ أن المتنعم به أشياء خارجة عن الذات ، فمرة توجد النِّعمة وتُوجد القدرة على التنعُّم بها ، ومرة توجد النِّعمة ولا توجد القدرة على التنعّم بها . أما النَّعمة بالفتح فتعنى وجود النِّعمة ، ووجود القدرة على التنعُّم بها .

وقوله ﴿ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ (٢٧) ﴾ [الدخان] من التفكُّه والتلذُّذ ، مأخوذة من الفاكهة وهى تدلُّ على الرفاهية ، لأن الطعام منه أشياء ضرورية أساسية ، وهى التى بها قوَام الحياة واستبقاؤها ، وطعام آخر للترف والمتعة كالفاكهة تُؤكل بعد الطعام .

وهذه الأشياء التى تؤكل للترف والمتعة يمكن الاستغناء عنها لأنها ليستْ من الضروريات ، بدليل أن كثيراً من الناس لا يعرفون أكل الفاكهة وهم أحياء يُرزقون . إذن : كانوا فى رفاهية من العيش وفى متعة فضلاً عن الضروريات .

﴿ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ (٢٨) ﴾

﴿ كَذَٰلِكَ (٢٨) ﴾ [الدخان] يعنى : مثل هذا ، سلبها الله منهم وأعطاها لغيرهم ، ولو سُلِبَتْ منهم فقط لكانتْ أخفَّ عليهم ، إنما سُلِبَتْ منهم وأُعطيَتْ لغيرهم فهذا أنكى .

لذلك الذى جعل الحسد مذموماً أن الحاسد يتمنى زوال النعمة عن الغير ولو لم تأتِ إليه ، المهم أنْ تذهبَ عن فلان لأنه يكره النعمة عنده ، وحين يكره النعمة تكرهه ولا تأتيه .

ومقابل الحسد الغبطة ، وهى أنْ تحبَّ النعمة عند الغير ، وتتمنَّى

مثلها لنفسك ، وحين تحب النعمة تحبك وتأتيك ساعة تقول : « اللهم بارك له فيها ، وأنعِمْ علىَّ بمثلها » .

لكن مَنْ هم القوم الآخرون الذين ورثوا النعمة بعد قوم فرعون ؟ هم بنو إسرائيل القوم الذين عُذِّبوا ، الذين ذبحتم أبناءهم واستحييْتُم نساءهم ، ومطلق التذبيح فيه إذلال وإهانة ، وأفظع منها ما يُفعل بالنساء بعد موت الرجال ؛ لذلك كان العرب إذا خرجوا للحرب أخذوا معهم نساءهم كيْلا يتركُوهنّ للأعداء لو نزلتْ بهم الهزيمة .

﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

تثبت هذه الآية أن للجمادات عاطفةً ، وأنها تحب وتكره ، وتبكى وتفرح ، فالعاطفة إذن موجودة فى كُلِّ المخلوقات على قدْر الحاجة ، فالعاطفة فى الإنسان باقية ، فتراه مثلاً يحب ولده ، حتى لو كان الولد غبياً أو مشاغباً ، ويستمر معه هذا الحب ، وربما يعطف عليه أكثر من السَّوِىِّ .

لذلك لما سألوا الأعرابى[1] : منْ أحبّ بنيك إليك ؟ قال : الصغير حتى يكبر ، والغائب حتى يعود ، والمريض حتى يشفى[2] .

أما الحيوان فعاطفته على قدْر الحاجة ، فترى الحيوان يعطف على ولده الصغير ويدافع عنه ، فإذا ما كبر تركه وكأنه لا يعرف عنه شيئاً ، ولو ذُبح أمامه ما شعر نحوه بشىء ، لأن عاطفته بقدر حاجة الصغير للتربية .

---

(١) هو غيلان بن سلمة الثقفى (ذكره الأصفهانى فى الأغانى) ، وهو هوذة بن على الحنفى (عند الميدانى فى مجمع الأمثال ، وابن عبد ربه فى العقد الفريد) .

(٢) أورد هذا القول الأصفهانى فى الأغانى (٤٧٧/٣) أخبار غيلان .

كذلك الجماد ، الحق سبحانه يرتقى به ويجعل له عاطفة ، ومن هذه العاطفة أن السماء والأرض ما بكتْ على هؤلاءء المهلكين لأنهم خالفوا منهج الله .

لذلك خاطب اللهُ الجمادات ، وجعلها فى منزلة أُولى الألباب المستنيرين الذين يفهمون ويعقلون ، بدليل أن الله تعالى خَيَّر السماوات والأرض والجبال فى مسألة حَمْل الأمانة :

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا.. (٧٢)﴾ [الأحزاب]

فدلَّ ذلك على أن لها اختياراً وتعقلاً ، وبعضهم قال : إن السماء والأرض مُسخَّران ومقهوران على العبادة ، قلت : لا بل كل شىء فى الوجود عدا الله خُيِّر ، فمنها مَنْ تنازل عن اختياره لاختيار ربه ، وعن مراده لمراد خالقه ، ومنها مَن اختار أنْ يكون مختاراً وهو الإنسان .

وقلنا : فَرْق بين وقت التحمل ووقت الأداء ، فأنت تضمن وقت التحمل وتثق به ، لكنك لا تضمن وقت الأداء ، إذن : كانت الجمادات أكثر موضوعيةً من الإنسان فى هذه المسألة لأنها اختارتْ بداية أنْ تكون مقهورةً لربها ، أما الإنسانُ فاختار أنْ يكون مُخيَّراً ، وعند الأداء منهم مَنْ آمن ومنهم مَنْ كفر ، منهم مَنْ أطاع ، ومنهم مَنْ عصى .

فإنْ قلتَ : فبأىِّ لغة تتكلم الأرض والسماء ؟ وكيف تفهم ؟ نقول : يخاطبها ويفهم منها خالقها سبحانه ، فهو الذى يعلم لغتها ؛ لذلك يعطينا الحق سبحانه أمثلةً لكلام هذه المخلوقات وتسبيحها لله تعالى ، فقال : ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ (٧٩)﴾ [الأنبياء] وقال : ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَـٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ.. (٤٤)﴾ [الإسراء]

وفى قصة سيدنا سليمان عليه السلام تكلَّم الهدهد كلاماً دلَّ على علمه وفَهْمه لقضية التوحيد كأحسن ما يكون الفهم ، وتكلَّمت نملة ووجدنا عندها مقاييس الحق والعدالة .

ووالله إن الإنسان ليتعجب حينما يقرأ قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (١٨) ﴾ [الحج]

فكلُّ الكائنات تُسبِّح على إطلاقها ودون استثناء ، إلا الإنسان هو المخلوق الوحيد الذى يشذ عن هذه المنظومة المسبِّحة .

لذلك قلنا : إن المخلوقات الأخرى غير الإنسان كانتْ أكثر فهماً منه حين رفضتْ التخيير وتنازلتْ عن مرادها لمراد ربها . إذن : لا تغترّ أيها الإنسان ، واعلم أن المخلوقات من حولك لها دور ولها منزلة عند الله ، وقد خُلِق فيها مثل ما خُلِق فيك من الفهم والعاطفة .

وقد ورد فى الحديث الصحيح عن سيدنا رسول الله ﷺ ما يُؤيد هذه المسألة ، فقال عن أُحُد : « أُحُد جبل يُحبنا ونُحبه »(١) .

وثبت أن الجبل اهتزّ به هو وصحابته ، فقال له « اثبُتْ أُحُد ، فإنما عليك نبىٌّ وصِدِّيق وشهيدان »(٢) .

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (١٣٨٧) حديث أبى حميد الساعدى ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٤٦٦) ، والبيهقى فى دلائل النبوة (٢٠٢٠) . ولفظه أن أبا حميد قال : أقبلنا مع النبى ﷺ من غزوة تبوك حتى إذا أشرفنا على المدينة قال هذه طابة وهذا أُحُد جبل يحبنا ونحبه .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٣٩٩ ، ٣٤١٠) وأبو داود فى سننه (٤٠٣٢) والترمذى فى سننه (٣٦٣٠) وقال : حديث حسن صحيح . « أن النبى ﷺ صعد أُحداً وأبو بكر وعمر وعثمان فرجف بهم فقال : اثبت أحد فإنما عليك نبى وصدِّيق وشهيدان » أما النبى فهو رسول الله ، وأما الصدِّيق فهو أبو بكر ، وأما الشهيدان فهما عمر وعثمان .

وقال : « والله إنِّى لأعرف حجراً كان يُسلِّم علىَّ بمكة قبل البعثة »[(١)] .

وثبت أيضاً فى الحديث أن الأرض تبكى لموت المؤمن وتفرح لموت الكافر[(٢)] . والعرب تقول (نبَتْ به الدار) يعنى : كرهته .

وما هذا إلا لأن هذه الجمادات لها فَهْم وتعقّل على كيفية ما ، وأنها مُنسجمة تماماً مع منهج الله ، فهى طائعة مُسبِّحة ، لذلك تحب مَنْ كان على شاكلتها من البشر وتكره مَنْ شذَّ منهم عن منهج الله وقضية التوحيد .

لذلك سيدنا الإمام على لما سُئِلَ : أتبكى السماء والأرض ؟ قال : نعم ، إذا مات المؤمن بكى عليه موضعان : موضع فى الأرض وموضع فى السماء . أما موضعه فى الأرض فموضعُ سجوده أو مُصلاَّه ، وأما موضعه فى السماء فمصعد عمله[(٣)] » فكأن هناك صحبة بين المكان والمكين فيه ، بين المكان والإنسان المؤمن .

وبهذا نفهم ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الدخان] وكيف تبكى السماء على هلاك عدو الله فرعون بعد أنْ بارز الحق سبحانه وادَّعى أنه إله من دون الله ؟

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٤٢٢٢) ، وأحمد فى مسنده (١٩٩١٢ ، ١٩٩٨٨) والطبرانى فى المعجم الكبير (١٨٧٤ ، ١٩٢٨ ، ٢٠٨٧) من حديث جابر بن سمرة .

(٢) عن أنس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ : « ما من مؤمن إلا وله فى السماء بابان : باب ينزل منه رزقه ، وباب يدخل منه كلامه وعمله ، فإذا مات فقداه فبكيا عليه ، ثم تلا ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [الدخان] أخرجه الترمذى فى سننه (٣١٧٨) وقال : هذا حديث غريب .

(٣) أورده السمرقندى فى تفسيره بحر العلوم (٤/١٢٣) من قول ابن عباس أنه سُئل : أتبكى السماء والأرض على أحد ؟ قال : نعم إذا مات المؤمن بكت عليه معادنه من الأرض التى كان يذكر الله تعالى فيها ويصلى وبكى عليه بابه الذى كان يُرفع فيه عمله . وأورده السيوطى فى الدر المنثور (سورة الدخان) من عدة طرق عن عدة من الصحابة .

وقوله : ﴿ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ (٢٩) ﴾ [الدخان] يعنى : مُؤخَّرين ومُؤجَّلين عن موعدهم الذى جعله الله نهاية لهم ، لأن أجل الله إذا جاء لا يُؤخّر .

﴿ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ (٣٠) مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ (٣١) ﴾[1]

قوله تعالى : ﴿ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ (٣٠) ﴾ [الدخان] العذاب هو المؤلم للمادة ويكون بالنار وبغيرها ، كقَطْع جزء من الجسم أو الجلد مثلاً ، وقد يُضاف إلى العذاب الحسىِّ عذابٌ آخر معنوى وهو الإهانة والإذلال ، وبعض الناس يتحمل العذاب الحسىَّ ، ولا يتحمل أنْ تُهينه بكلمة ربما كانتْ أشدَّ عليه من العذاب .

وبنو إسرائيل كانوا يعانون العذاب بتذبيح الأبناء ، ويعانون الإهانة باستحياء[2] النساء ، والنساء نقطة ضعف عند الرجل ، وعِرْض ينبغى المحافظة عليه ، لذلك كان التعدِّى على نساء الرجل أعظمُ إهانةَ له .

وقد تدارك الحق سبحانه برحمته بنى إسرائيل ونجَّاهم من العذاب المهين ﴿ مِن فِرْعَوْنَ (٣١) ﴾ [الدخان] فهو سببُ هذا العذاب .

﴿ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا (٣١) ﴾ [الدخان] يعنى : مُتكبراً على الناس مُسْتعلياً عليهم ﴿ مِّنَ الْمُسْرِفِينَ (٣١) ﴾ [الدخان] أى : المسرفين على أنفسهم ،

(١) أى : نجينا بنى إسرائيل من العذاب الذى كان يُنزله بهم الأقباط - أى المصريون - بأمر من فرعون من قتل الأبناء وترك النساء أحياء واستخدامهم واستعبادهم إياهم وتكليفهم بالأعمال الشاقة . [القرطبى ٩/٦١٩١ بتصرف] .

(٢) استحياه : استبقاه حياً ولم يقتله ، فهم كانوا يقتلون الذكور فقط ويتركون البنات والنساء على قيد الحياة . [القاموس القويم ١/١٨٣] .

والمسرف هو الذى يتجاوز الحدَّ الذى وضعه الله فيه إلى غيره ، ففرعون كان مُستكبراً ومسرفاً فى استكباره ، ويكفيه إسرافاً أنْ يدَّعى الألوهية ، ويقول للناس : أنا ربكم الأعلى ، وأنْ يخدع قومه ويُغرر بهم .

وقلنا : فرْقٌ بين أنْ يكونَ الإنسان ضالاً فى نفسه ، وأنْ يكون ضالاً ومُضلاً للآخرين . وفرعون ضَلَّ وأضلَّ أمة بأكملها واستعبدها ، وصدق القائل[1] : متى استعبدتم الناس وقد ولدتْهم أمهاتُهم أحراراً ؟

﴿ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾

الكلام هنا عن بنى إسرائيل ، وهم يتمسكون بهذه الآية ويبنون عليها أنهم شعب الله المختار ، فيقولون : إن الله الذى خلقكم وبعث إليكم رسولاً هو الذى اختارنا على العالمين .

وهذا ادعاء باطل لأن معنى ﴿ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الدخان] أى : العالمين فى زمانهم والمعاصرين لهم من قوم فرعون وغيرهم ، وهؤلاء كانوا فى الغالب وثنيين ، ففضَّل الله بنى إسرائيل عليهم لأنهم يؤمنون بالله وكانوا فى هذا الوقت خيرة خَلْق الله جميعاً .

لكنهم أرادوا أنْ يسحبوا هذا الحكم على الناس جميعاً ، وعلى العالمين فى كل زمان ومكان ، وهذا لا يجوز ، بدليل أنهم لما خالفوا منهج الله قطَّعهم فى الأرض أمماً ، وبعثرهم فى كل مكان عقاباً لهم .

حتى أنك تجد فى كل بلد من البلاد حارة باسمهم تسمى

---

(١) هو من قول عمر بن الخطاب ، ذكره صاحب كتاب (الولاية على البلدان) وذلك أن ابناً لعمرو بن العاص ضرب غلاماً قبطياً اعتماداً على سلطان أبيه ، فكتب أمير المؤمنين عمر لعمرو أن يحضر صحبة ابنه والقبطى ، فناول عمر القبطى سوطاً وأمره أن يقتص لنفسه من ابن عمرو ، ثم التفت إلى عمرو وقال قولته .

(حارة اليهود) ، تراهم مجتمعين ومنغلقين على أنفسهم لا ينسجمون ولا يذوبون فى المجتمع من حولهم .

حتى أن القرآن عبَّر عن هذا المعنى بقوله تعالى ﴿ **وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأَرْضِ أُمَمًا** (١٦٨) ﴾ [الأعراف] فكل جماعة منهم فى مكان تمثل أمة بذاتها ، لأنهم لا يذوبون فى غيرهم من الأمم .

والذى ينفى ادعاءهم هذا قوله تعالى : ﴿ **وَإِذْ تَأَذَّنَ**(١) **رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ** (١٦٧) ﴾ [الأعراف] وهذا هو الذى يحدث بالفعل ، فمن حين لآخر يُسلِّط الله عليهم مَنْ يسومهم سوء العذاب .

ثم يقول تعالى :

﴿ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌاْ مُّبِينٌ (٣٣) ﴾

وقوله : ﴿ **وَآتَيْنَاهُم مِّنَ الآيَاتِ مَا فِيهِ بَلاءٌ مُّبِينٌ** (٣٣) ﴾ [الدخان] الآيات هى : المعجزات التى صاحبتْ دعوة سيدنا موسى ، وبهذه الآيات نجَّاهم الله من الغرق ، ونجَّاهم من قوم فرعون .

والعجيب أنهم بمجرد أنْ نجَّاهم الله من الغرق ومن فرعون ، وبمجرد خروجهم سالمين رأوا قوماً يعبدون أصناماً لهم ، فقالوا لموسى عليه السلام ﴿ **اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ** (١٣٨) ﴾ [الأعراف] فأشركوا بالله ، وما تزال أقدامهم مُبتلة من عبور البحر .

وفى فترة التيه أكرمهم الله ، وأنزل عليهم المنَّ والسَّلْوى ، وهما

---

(١) تأذنَّ ليفعلن كذا . أى : أعلم على وجه التأكيد المؤيَّد بالقسم . [القاموس القويم ١/١٦] .

من أرْقى ما يكون الطعام ، وألذّ مـا يُؤكل ينزل عليهم دون تعب ودون مجهود ، لكنهم لماديتهم اعترضوا على المنِّ والسَّلْوى .

وقالوا لموسى : ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِى هُوَ خَيْرٌ .. (٦١)﴾ [البقرة] يريدون الشىء المادى الذى يباشرونه بأنـفسهم ويعلمون مصـدره ، بل بلغتْ بهم المادية إلى أنْ قال لنبى الله موسى : ﴿أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً (١٥٣)﴾ [النساء]

البعض قـال : إن موسى عليه السلام هو الذى فـتح لهم هذا الباب حينما قال : ﴿رَبِّ أَرِنِى أَنظُرْ إِلَيْكَ (١٤٣)﴾ [الأعراف]

وكلمة ﴿وَبَلاءٌ (٣٣)﴾ [الدخان] يعنى : امتحان واختبار لنعلم ردود أفـعالهم ، بعـد أنْ رأوا الآيات أو بعـد أنْ رأوا النعم ، وقلنا : الابتـلاء والامتحان لا يُذم ولا يُمدح لذاته ، إنما حسب النتائج المترتبة عليه .

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ (١) (٣٤) إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ (٣٥)﴾

الإشارة فى ﴿إِنَّ هَـٰؤُلاءِ لَيَقُولُونَ (٣٤)﴾ [الدخان] قد يُراد بها بنى إسرائيل ، لأنك لو نظرتَ إلى التـوراة أو التلمود لا تجد فيه شـيئاً عن اليوم الآخر ، مع أنه عنصر أساسى من عناصر الإيمان ، لكنهم قوم لا يؤمنون بهذا اليوم .

---

(١) ذكر الألوسى فى روح المعانى فى تفسير (الدخـان ٣٤) : المقصود بهم كفار قريش لأن الكلام فيهم . وكذا قاله الطبرى فى تفسيره .

والمسألة عندهم كما حكى القرآن قولهم : ﴿لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ (٢٤)﴾ [آل عمران] يعنى : ثم تنطفىء عنَّا وتنتهى المسألة . وقالوا فى آية أخرى : ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ (١٨)﴾ [المائدة]

أو يُراد بهؤلاء منكرو البعث عموماً ، سواء بنو إسرائيل أو غيرهم ، وقولهم ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ مَوْتَتُنَا الأُولَىٰ (٣٥)﴾ [الدخان] يريدون بالموتة الأولى العدم الذى سبق الخَلْق ، فيعتبرون العدم موتة ، ثم خلق الله آدم ومنه جاء سائر الخلق .

كما قال تعالى ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ (٢٨)﴾ [البقرة] يعنى : لن نموت إلا هذه الموتة ، وليس هناك موتة أخرى بعدها بعث ولا حساب ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ (٣٥)﴾ [الدخان] يعنى : مبعوثين أحياء بعد الموت .

﴿فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣٦)﴾

قلنا : إن الإيمان يعتمد على آيات الغيب فتؤمن بوجود الله وبالجنة والنار دون أنْ تراها ، هذا موطن الإيمان ، أما الآيات المشاهدة فلا إيمانَ فيها ، لا تقول : أؤمن بأن الشمس طالعة ، لكن هؤلاء للمادية التى تحكمهم يريدون آية الغيب مشاهدة ، فيقولون ﴿فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣٦)﴾ [الدخان] وليس مع العين أين .

هم لا يُصدِّقون إلا بالأمر الحسىِّ ، لذلك يريدون إعادة آبائهم من بعد الموت ليؤمنوا بأن البعث حقٌّ ، ونقول لهم : إنْ كنتم تريدون ذلك فعندكم كتب التاريخ والرسالات السماوية تحكى لكم مثل هذا الذى تريدونه مثل قصة العُزير :

﴿أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ [1] وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِى هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ [2] وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا [3] ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (٢٥٩)﴾ [البقرة]

كذلك فى قصة أهل الكهف ، يقول تعالى الذين أحياهم الله بعد ثلاثمائة سنة وتسع ، أيضاً ساعة قاموا من نومهم أو موتهم قالوا ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ (١١٣)﴾ [المؤمنون] لأن هذه هى الفترة المعتادة لنوم الإنسان .

وهذه وغيرها وقائع حدثتْ فى فترات رسل سابقين ، هم يعرفونهم ويؤمنون بهم ، كذلك فى قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ (٢٤٣)﴾ [البقرة]

وهؤلاء الذين أحياهم الله بعد الموت لا يعيشون إلا بقدر المعجزة

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (١/ ٣١٤) : « المشهور أن القرية هى بيت المقدس » . ثم اختلف فى المارِّ عليها فقال على : هو عزير . وهذا القول هو المشهور . وقيل : هو أرميا ابن حلقيا . قاله وهب بن منبه . وقيل : هو حزقيل بن بوار . وقال مجاهد بن جبر : هو رجل من بنى إسرائيل (دون تحديد) .

(٢) لم يتسنَّه : أى لم يتغير بعد مُضىِّ زمن عليه . وتسنَّه الطعام : تغيَّر . [القاموس القويم ١/ ٣٣٢] .

(٣) نُنشزها : نرفع بعضها إلى بعض . فالإنشاز تركيب العظام بعضها على بعض . [لسان العرب - مادة نشز] ، وذكر ابن كثير فى تفسيره (١/ ٣١٤) عن السدى قوله : « تفرقت عظام حماره حوله يميناً ويساراً فنظر إليها وهى تلوح من بياضها فبعث الله ريحاً فجمعتها من كل موضع من تلك المحلة ثم ركَّب كل عظم فى موضعه حتى صار حماراً قائماً من عظام لا لحم عليها (أى هيكل عظمى) ثم كساها الله لحماً وعصباً وعروقاً وجلداً. وذلك بمرأى من العزير . فعند ذلك لما تبين له هذا كله ﴿قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (٢٥٩)﴾ [البقرة] .

ثم يموتون . إذن : لا حجةَ لهؤلاء فى طلب إحياء آبائهم ، بدليل أن الله أحيا الموتى وبلَّغهم ذلك على لسان الرسل ، ومع ذلك لم يؤمنوا ، ولو أحيا الله لهم الآباء أيضاً لم يؤمنوا .

﴿ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ(١) وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾

الحق سبحـانه وتعالى يريد أنْ يقارن بين هؤلاء وبين مَنْ سـبقهم من الأمم المُكذِّبة ، ويقول لهم : لستُم بدْعاً فى ذلك ولستم بمنجىً عن هذا المصير الذى حاقَ بمَنْ كذَّب قبلكم .

﴿ أَهُمْ خَيْرٌ .. ﴿٣٧﴾ ﴾ [الدخان] يعنى : بنو إسرائيل ﴿ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الدخان] تبع الحميـرى من ملوك اليمن ، واليمن قـديماً كانت تُسمى الأرض الخضراء أو اليمن السعيد لكثرة خيراته .

وكان تُبع رجلاً صالحاً لكن خالفه قومه وكذَّبوه ، فأخذهم الله أخْذَ عزيز مقتدر بعد أنْ دمَّر السد الذى كان يُوفِّر لهم الماء للزراعة فبتدمير السدِّ دُمرت حياتهم كلها .

وهذه القـصـة ذكَّـرتنى بأيام كنـا فى الجـزائر ، وهناك بنوْا سـداً يحجز ماء المطر ، وسَمَّوه سدّ مأرب ، ولما ذهبنا مع الرئيس لافتتاحه قام أحدهم خطيباً ، وقال فـيما قال : والآن بُنى السد ، وسوف ترون

---

(١) هو تُبع الحميرى ، سار بالجيوش حتى حير الحيـرة ثم أتى سمرقند فهدمها وذُكر أن كعباً كان يقـول : نُعت نعت الرجل الصـالح ذم الله قومـه ولم يذمه . وكـانت عائشـة تقول : لا تسبوا تُبعـاً فإنه كان رجلاً صالحاً . وقال الألوسى فى تفـسيره (الدخان ٣٧) : هو تُبع الأكبر الحـميرى واسمـه أسعد بهمزة ، وفى بعـض الكتب سعد بدونها وكنيـته أبو كرب ، وكان رجلاً صالحاً .

أرضكم وزراعاتكم ، أمطرتْ السماء أم لم تمطر .

فاستوقفنى هذا الكلام ورأيتُ فيه مخالفةً ، لا للدين فحسْب بل للعقل وللمنطق ، فقلت لوزير خارجيتهم : قُلْ للسيد الخطيب : لو لم تمطر السماء ماذا يحجز هو أو السد ؟

وقوله : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (٣٧) ﴾ [الدخان] كلمة مجرم لا تُقال إلا لمَنْ بالغ فى المعصية وارتكاب الآثام مبالغة عظيمة . ومجرم يعنى : يأتى بالجُرْم الفاحش . هنا جاء بكلام على وجه العموم ﴿ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ (٣٧) ﴾ [الدخان]

وفى موضع آخر فصَّل الكلام فى هذا الإهلاك ، فقال : ﴿ فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُم[1] مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا .. (٤٠) ﴾ [العنكبوت]

وفى سورة الفجر : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ (١٠) ﴾ [الفجر]

هذه كلها أمم كان لها حضارات ، لكن لم تُمكِّنهم حضاراتهم أنْ يحتفظوا بها ، وأن يمنعوها من الزوال بحيث تنتهى كأنْ لم تكن . الحق سبحانه وتعالى كان يأخذ الأمم المكذِّبة أخْذَ عزيز مقتدر ، لأن الرسل

---

(١) أربعة عذابات مختلفة :

١ - إرسال الحاصب وهى ريح شديدة عاصفة تحمل حصباء الأرض فتلقيها عليهم وتقتلعهم من الأرض ثم تنكسهم على أم رؤوسهم ، وهم قوم عاد .

٢ - الأخذ بالصيحة ، فهى صرخة أخمدت الأصوات منهم والحركات . وهؤلاء قوم ثمود قاتلى ناقة صالح .

٣ - الخسف : وهذا كان من نصيب قارون الذى طغى وبغى فخسف الله به وبداره الأرض .

٤ - الإغراق بالماء : وهذا قد لحق فرعون ووزيره هامان وجنودهما عن آخرهم أُغرقوا فى صبيحة واحدة .

السابقين لم يُطلَب منهم القتال ، فقط تبليغ رسالات الله .

وكانت السماء هى التى تتولَّى تأديب المكذِّبين والانتقام منهم ، ولم يُؤذَن فى القتال إلا لنبينا محمد ﷺ ، لأنه هو المأمون على أنْ يسود البشر برأيه المشْبع بمنهج الله ، لذلك لم يأت بعده رسول ، وكونه لم يأتِ بعده رسول دليلٌ على شهادة الخير لأمته ، وسيظل فيها هذا الخير إلى قيام الساعة .

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾

يريد الحق سبحانه أنْ يلفت الأنظار إلى قضية كونية تستوعب الزمن كله فى الماضى وفى الحاضر ، هذه القضية هى صفة الثبات فى خَلْق السماوات والأرض ، فهى منذ خلقها الله تعالى تسير على نظام مُحكم لا يتخلَّف ولا يتبدَّل ولا يتغير .

هذا الثبات يعنى أنها خُلِقَتْ على الحق وبالحق ، فالحق هو الثابت أما الباطل فيتغير ، لذلك قلنا : لو نظرتَ إلى شاهد الزور أمام القاضى لا بدَّ أنْ تتضاربَ أقواله ، ويظلّ المحقق يحاوره حتى يُوقعه فى تناقض ويكشف الزُّور الذى يحاول أنْ يلبسه ثوب الحق .

ويأتى التناقض فى أقواله لأنه يستوحى باطلاً من نسج خياله ، أما الذى يستوحى الحق وينطق به ، فإنَّ أقواله لا تتغير ما دام متمسكاً بالحق ، فالحق ثابت وهو الواقع ، فيمن أين يأتى التناقض ؟

وللمحققين طرق وأساليب يكشفون بها الزور ، ويصلون بها إلى الحق ، لذلك قالوا : إنْ كنت كذوباً فكُنْ ذكوراً . لكن لا بدَّ فى مرة من المرات أنْ

تخونك الذاكرة ، ولا بدَّ أنْ ينتصر لسانُ الحق على لسان الباطل .

وأذكر عندنا فى دقادوس[1] أحد المزارعين وكان رجلاً (فشاراً) ، وفى مرة كنَّا عائدين من البندر (ميت غمر) وكان صاحبنا هذا يحكى بعض قصصه ، فقال : حدث هذا فى ليلة العيد الصغير والدنيا قمر ضهر .

سبحان الله ، كيف يكون القمر ظهراً فى ليلة العيد الصغير ؟ وحتى الناس العامة يقولون فى أمثالهم : (الكذب ملوش رجلين) ، نعم .

الحق هنا يقول : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (٣٨) ﴾ [الدخان] إذن : خلقناهما بالجد لا باللعب ، وبالحق لا بالباطل ، وفى آية بعدها قال : ﴿ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ (٣٩) ﴾ [الدخان] وهذا الثبات دلَّ على الدقة فى الخَلْق ، وأنها خُلقت بعناية وهندسة دقيقة محكمة ، وبقوانين لا تتعارض منذ خلقها الله وإلى قيام الساعة .

تأمل مثلاً الشمس فى مشرقها وفى مغربها ، وفى حركتها وسرعتها بالنسبة للأرض ، تأمل القمر وما يحدث من ظاهرتى الكسوف ، كل هذه الآيات تحدث بدقة متناهية وموازينَ لا تتخلَّف أبداً ولا تتعارض ، وهاتِ لى أيَّ آلة بشرية تعمل وتظل على هذه الدقة طوال الوقت .

والذى خلق السماوات والأرض على نظام دقيق لا يتعارض خَلْقها لغاية ، هذه الغاية هى هى منذ آدم عليه السلام وإلى آخر الدنيا .

قلنا ﴿ إِلَّا بِالْحَقِّ .. (٣٩) ﴾ [الدخان] الحق : الشىء الثابت الذى لا يتغير ، ويقول سبحانه : ﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) أَلَّا تَطْغَوْا

(١) قرية دقادوس تابعة لمركز ميت غمر محافظة الدقهلية بمصر ، ودقادوس فى الجهة الشمالية الغربية يُطلق عليها (حى ثانى ميت غمر) نظراً لارتباطها الشديد بالمدينة ، يوجد فيها مستشفى ميت غمر العام ومنزل الإمام محمد متولى الشعراوى وضريحه (موسوعة ويكيبيديا) .

فِي الْمِيـزَانِ (٨) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (٩)﴾ [الرحمن]

في هذه الآية إشارة لطيفة من الحق سبحانه . يقول : انظروا إلى السماء وما فيها من كواكب وأجرام ، هل رأيتم فيها خللاً أو تعارضاً ؟ أبداً لأنها مخلوقة بالحق وبالميزان وبالدقَّة كذلك ، إنْ أردتم أنْ تعتدل أمور حياتكم وتستقيم ، فخذوا بميزان الحق في كلِّ حياتكم ، وعندها لن تجدوا في المجتمع تناقضاً ولا تصادماً .

ولأن الحق هو الثابت فهو الباقي وهو الأعلى ؛ لذلك قالوا : الحق أبلج والباطل لجلج ، والحق لا ينطمس أبداً وإنْ علا الباطل عليه فلحين ، فالحق سبحانه يجعل للباطل جولة يعلو فيها حتى يعضّ الناس ويُشعرهم بأهمية الحق .

فكأن الباطل نفسه جنديّ من جنود الحق ، والكفر جندي من جنود الإيمان ، ولو لم يذُقْ الناسُ بطشَ الباطل وقسوته ما عرفوا لذة الحق ، لذلك لما جاء الإيمان ما أسرع إليه إلا أشدّ الناس معاناة من الكفر .

وقوله : ﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٣٩)﴾ [الدخان] لا يعلمون هذه الحقائق لأنهم مُعرضون عن آيات الله في الكون ، مُعرضون عن التأمل ، كما قال سبحانه : ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥)﴾

[يوسف]

﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَـٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٠) يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (٤١) إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ (٤٢)﴾

فإنْ كانوا مُعرضين عن آياتنا فى الدنيا فسوف يُعرضون علينا فى الآخرة فى يوم الفصل ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٠)﴾ [الدخان] يوم القيامة هو موعدهم حيث يجمعهم الله جميعاً ، التابع والمتبوع ، المؤمن والكافر ، الطائع والعاصى ، المكذِّبين والمصدِّقين بالرسل .

الكل سيجتمع ﴿يَوْمَ لا يُغْنِي مَوْلًى (٤١)﴾ [الدخان] لا ينفع صديقٌ صديقه ﴿عَن مَّوْلًى شَيْئًا (٤١)﴾ [الدخان] ولا يدفع قريبٌ عن قريبه .

وفى آية أخرى قال سبحانه : ﴿الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ (٦٧)﴾ [الزخرف] المتقون فقط هم الذين تبقى أُخوّتهم وخُلّتهم ، أما الأخلاء على حطام الدنيا ومصالحها فسوف يكونون أعداء يوم القيامة ، يُلْقى كلٌّ منهم بالتبعة على صاحبه لأنه رآه فى يوم ما على معصية فلم يزجره عنها ولم ينصح له .

﴿وَلا هُمْ يُنصَرُونَ (٤١)﴾ [الدخان] لا يجدون مَنْ ينصرهم من دون الله ﴿إِلاَّ مَن رَّحِمَ اللَّهُ (٤٢)﴾ [الدخان] رحمه أولاً فى الدنيا بأنْ أنقذه من الكفر ، وجعله مؤمناً به مُصدِّقاً برسوله ، رحمه بأنْ جعله على منهجه وعلى صراطه المستقيم حتى يلقاه ، وهذه الرحمة تمهيد للرحمة الكبرى يوم القيامة .

وكلمة (مَوْلَى) تتسع لتشمل الأولاد والأقارب والأصدقاء والخلاَّن ، وبعض الناس يتخذ العبيد والخدم ، ويدخل فيها كلُّ تابع لك ، وكل هؤلاء ﴿لا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا .. (٤١)﴾ [الدخان] يعنى : لا يدفع عنه ضُراً ، ولا يتحمل عنه وزراً ، لأن كلَّ واحد مشغول بنفسه ، ينوء بحمله هو ، هذا فى البشر ، وكذلك فى الأصنام لن تنفع عابديها . وفى كلِّ معبود سِوَى الله تعالى .

لذلك قال تعالى عن فرعون : ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .. (٩٨) ﴾ [هود] يعنى : يسبقهم إلى النار .

﴿ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ (٤٣) طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ (٤٤) كَٱلْمُهْلِ[1] يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ (٤٥) كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ (٤٦) ﴾

الحق سبحانه وتعالى هنا يعطينا صورةً لطعام أهل النار والعياذ بالله ، وفى موضع آخر يعطينا صورة لشرابهم ، لأن الطعام والشراب هما قِوَام الحياة ، فطعامهم الزقوم ، وهو شجرة صغيرة مُنتنة الرائحة ، وطعمها مُرٌّ .

أما شكلها ، فقال عنه سبحانه فى آية أخرى : ﴿ طَلْعُهَا[2] كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ (٦٥) ﴾ [الصافات] وهو تشبيه يؤدِّى المراد منه بدقة ، فالمراد إظهار بشاعتها وقُبح منظرها .

لذلك وجدنا بعض المستشرقين يعترضون على هذا التشبيه يقولون : كيف يُشبِّه مجهولاً بمجهول لأن أحداً لم ير رؤوس الشياطين ، والأصل فى التشبيه أنْ تُشبه مجهولاً بمعلوم ليتم الإيضاح .

يقولون هذا لأنهم لا يعرفون شيئاً عن إعجاز القرآن وطريقة أدائه للمعنى ، فلو أننا أجرينا مسابقة بين رسامى الكاريكاتير فى العالم وقلنا لهم : ارسموا لنا صورة الشيطان ، فكلٌّ واحد سيرسمها من

---

(١) المهل بضم الميم : المعدن المذاب والقطران وعكر الزيت المغلى والقيح . [القاموس القويم ٢/٢٤٢] .

(٢) طلع النخلة : هو نَوْرُها الذى هو أصل ثمارها ، ويكون صغير الحجم أبيض منظماً منضوداً. ومن طلعها يخرج القنوان المملوءة بالبلح . [القاموس القويم ١/٤٠٥] .

تخيُّله للقُبْح فى نظره هو .

وهكذا سيكون عندنا صور متعددة ، كلها قبيح مع أنها مختلفة ، لأن القُبْح له ألوان مختلفة ، والشىء البشع عند البعض قد لا يكون كذلك عند آخرين ، مثل مقاييس الجمال نجدها نسبية بين الناس ، فمثلاً البعض يرى الجمال فى الشفاه الرقيقة ، وآخر يراه فى الشِّفاه الغليظة .

وهكذا تختلف مقاييس القُبْح فى الذِّهْن الإنسانى ، والصورة التى تُفزع شخصاً قد لا تفزع الآخر ، فأراد الحق سبحانه بهذه الصورة أنْ يشيع قبحها وبشاعتها ، وأنْ يُقبِّحها قُبْحاً عاماً يستوعب كل نواحى القبح والبشاعة عند مختلف الناس .

إذن : الإبهام هنا أفضل ، لأنه يجعلك تذهب فى تصوُّر القبح كلَّ مذهب ، لذلك نستطيع أن نقول : إن الإبهام هنا هو غاية الإيضاح وعَيْن البيان .

إذن : هى شجرة كريهة فى شكلها وفى طعمها وفى رائحتها ، ثم يزيد على ذلك فيُشبِّه طعمها بأنه ﴿كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾﴾ [الدخان] المُهْل هو : المعدن المذاب الذى بلغ الغايةَ فى الحرارة ، أو هو الزيت المغلى .

فمثلاً نرى صانع (الطعمية) يغلى الزيت لفترات طويلة ، حتى يتحوَّل إلى مواد سامة سوداء اللون يُسمُّونها الدُّرْدى ، هذا الذى يسمونه المهل إذا كان من أصول ليِّنة ، وقد يكون من أصول صلبة كالمعادن مثل : الذهب والحديد والنحاس .

ومعنى ﴿يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾﴾ [الدخان] أن درجة حرارته - والعياذ بالله - لا تنخفض بشُرْبه ، فنحن مثلاً حين نشرب الشاى

ساخناً نشعر بلسْعة الحرارة فى الفم أثناء تناوله ، لكن حين ينزل إلى المعدة تنخفض هذه الدرجة .

أما الزَّقوم والعياذ بالله فيظلُّ يغلى حتى فى بطونهم ﴿ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ (٤٦) ﴾ [الدخان]

مثل غليان الماء الذى بلغ أقصى درجة ، وتناهتْ حرارته .

﴿ خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٤٧) ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ (٤٨) ذُقْ(١) إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (٤٩) ﴾

لو تأملتَ فعل الأمر هذا ﴿ خُذُوهُ .. (٤٧) ﴾ [الدخان] والآمر هو الحق سبحانه وتعالى تجده مُخيفاً مرعباً ، ووالله لو قالها ضابط شرطة لمجرم لكانتْ مخيفة ، فما بالكم لو قال الحق سبحانه ﴿ فَاعْتِلُوهُ .. (٤٧) ﴾ [الدخان] ؟ يعنى : جُرُّوه بشدة وغِلْظة ودون رحمة أو هوادة ، إلى أين ؟

﴿ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٤٧) ﴾ [الدخان] ولم يقلْ إلى الجحيم ، فسواء الجحيم يعنى : وسطها لأنه لو كان متطرفاً هنا أو هناك ربما أعطاه أملاً فى الخروج منها ، أو جاءه نسمة هواء تُخفِّف عنه ، إنما فى وسطها بحيث تكون الجحيم حوله من كل ناحية مُطبقة عليه .

ليس هذا وفقط ﴿ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ (٤٨) ﴾ [الدخان] فالغليان فى جوفه وفوق رأسه ، وبعد هذا العذاب الحسىّ

---

(١) ذكر الواحدى النيسابورى فى (أسباب النزول ص ٢١٤) : قال قتادة : نزلت هذه الآية فى أبى جهل وذلك أنه قال : أيوعدنى محمد ، والله لأنا أعز من بين جبليها . وقال عكرمة (مرسلاً) ، لقى النبى ﷺ أبا جهل . فقال أبو جهل : لقد علمت أنى أمنع أهل البطحاء وأنا العزيز الكريم . قال : فقتله الله يوم بدر وأذلّه وعيَّره بكلمته ونزل فيه ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (٤٩) ﴾ [الدخان].

يأتى العذاب المعنوى والسخرية والاستهزاء .

﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (٤٩) ﴾ [الدخان] لأن الذَّوق يستوعب جميع أعضاء الجسم ﴿ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (٤٩) ﴾ [الدخان] أى : فى الدنيا وظننتُ أنك ستكون كذلك فى الآخرة ، كما قال سبحانه :
﴿ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا (٣٦) ﴾ [الكهف]

وقوله : ﴿ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (٤٩) ﴾ [الدخان] على سبيل التهكُّم به والسخرية منه .

﴿ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ (٥٠) ﴾

﴿ هَٰذَا .. (٥٠) ﴾ [الدخان] أى : العذاب الذى نزل بهم ﴿ مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ (٥٠) ﴾ [الدخان] يعنى : تشكُّون فيه وتُكذِّبونه أصبح حقيقة واقعة .

ثم يذكر الحق سبحانه الصنف المقابل ، فيقول تعالى :

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ (٥١) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٢) يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ(١) وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ (٥٣) كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ (٥٤) ﴾

الجمع بين المتقابلات من أساليب الأداء القرآنى ، لأن التقابل يُزيد الصورة وضوحاً .

---

(١) السندس : رقيق الديباج وهو الحرير الذى يتلوَّن ألواناً . [القاموس القويم ١/٣٣١] .
والإستبرق : هو الديباج الخشن الغليظ ، فارسى معرَّب . [لسان العرب - مادة : برق] .

وقد فَطِن الشاعر العربى إلى هذا المعنى فقال[(١)]:

فَـالوَجْــهُ مِـثْلُ الصُّــبْحِ مُـبْـيضٌ ... وَالشَّـعْـر مِــثْل الليْل مُـسْـودّ

ضِـــدَّانِ لمـَّـا استـجْـمَـعَـا حَـسُـنَـا ... وَالضُّد يظهرُ حُـسْنَهُ الضدّ[(٢)]

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ (١٤) ﴾ [الانفطار] وعليك أنت أنْ تعقد مقارنة وأنْ تختار ، لذلك الحق سبحـانه بعد أنْ حدثنا عن مصـير المجرميـن وما أعدَّه لهم من ألوان العذاب يذكر سبحانه مصير المتقين وما أعدَّه لهم من النعيم .

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ (٥١) ﴾ [الدخان] والمتقى هو الذى يجعل بينه وبين صـفات جـلال الله وقايـةَ صفـات الجلال ، مـثل : القهـار الجبـار المنتقم ذى البطـش الشديد ، فاجـعل أيها المـؤمن بينك وبين هذه الصفات من الله وقايةً ، لأنك لا تحتمل صفات الجلال من الله .

لذلك قال تعالى ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ .. (٢٧٨) ﴾ [البقرة] وقال : ﴿ فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِى وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ .. (٢٤) ﴾ [البـقرة] لأنها جندى من جنود صفات القهر والجلال . إذن : هما يُؤدِّيان نفس المعنى .

---

(١) عزَتْ الموسوعة الشعرية هذيـن البـيتـين إلـى ثـلاثة مـن الشعراء : أبو الشيص الخـزاعى (توفى ١٩٦ هجرية) من أهل الكوفة - والثـانى هـو علـى بن جبـلة - العكـوك عـراقى (توفى عام ٢١٣ هجـرية) - والثالثة هو دوقلة المنبـجى تنسب إليه القـصيدة المشـهورة باليتيـمة التى منها هذان البيتان ثم غلب عـليها اثنان هما أبو الشيص والعكوك العـباسيان ، وتنسب فى بعض المصادر إلى ذى الرمة .

(٢) قصـيدة أبى الشـيص ٦٦ بيتـاً من بحر أحذّ الكامل (الـ ١٥ ، ١٦ منها) ، أمـا قصـيدة العكوك فهى ٦٥ بيتـاً من نفس البحر (الـ ١٥ ، ١٦ منهـا) ، أما قصـيدة دوقلة فهى ٦٠ بيتاً من نفس البحر (الـ ١٥ ، ١٦ منها) .

وقوله ﴿ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ (٥١) ﴾ [الدخان] المقام هو مكان الإقامة أو المسكن الذى تسكن فيه وله أجزاء ، تقعد فى جزء وتنام فى جزء وهكذا ، لكن من أهم مُقوِّمات المسكن أنْ يكون آمناً تأمن فيه على نفسك ومالك .

لذلك حينما نفكر فى إقامة مدينة سكنية لا بدَّ أنْ نوفر لها أولاً مقوِّمات الأمان لساكنيها ، وأول هذه المقوِّمات أنْ تكونَ بعيدةً عن مراتع الوحوش والحيوانات المفترسة ، كذلك آمناً من السرقة أو الخائن ، وهو البشر الذى يتغلغل فيك فى بيتك ، ويزعجك بحيث إذا كنت نائماً أو قاعداً قمتَ ووقفتَ له .

فالمكان الأمين أو المقام الأمين هو الذى تأمن فيه من كل شىء إذن : الأمن فى المَقام ، فوق الأمنِ فى المُقام بالضم . لذلك سيدنا إبراهيم دعا ربه ﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا آمِنًا .. (١٢٦) ﴾ [البقرة] يعنى : أمناً عاماً كما يشترط فى أىِّ بلد .

فلما أعطاه هذه دعا بالأمن الخاص ، فقال : ﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَـٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا .. (٣٥) ﴾ [إبراهيم] ثم أعطاه الحق سبحانه أمناً فوق هذا كله ، وهو حرمة البيت الحرام فقال : ﴿ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا .. (٩٧) ﴾ [آل عمران] حتى أن الرجل كان يَلْقَى فيه قاتلَ أبيه فلا يتعرَّض له لحرمة البيت .

لذلك لما حدثتْ أحداثُ البيت الحرام ، وأُطلقَ فيه النار وفُزِّع فيه الآمنون ، خرج علينا من الملاحدة مَن انتهز هذه الفرصة وأخذ يُشكِّك فى قوله تعالى : ﴿ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا (٩٧) ﴾ [آل عمران] لأن ما حدث يتعارض مع هذه الآية .

وينبغى هنا أنْ نُفرِّق بين أسلوبين من أساليب الأداء القرآنى ، فقوله تعالى : ﴿ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا (٩٧) ﴾ [آل عمران] لا يعنى الإخبار

بأن مَنْ دخله كان آمناً ، إنما المراد منه : أطلب منكم أنْ تُؤمِّنوا مَنْ دخله ، فهو أمر شرعى يحتمل أنْ نُطيعه فنُؤمِّن مَنْ دخله ، ويحتمل ألاَّ نطيع فنُروِّع مَنْ دخله .

إذن : الآية فيها إنشاء طلبى ، وليستْ خبراً ، ومعلوم أن الخبر يحتمل الصدق أو الكذب ، أما الإنشاء فلا يحتمل الصدق ولا يحتمل الكذب .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ **الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ** .. (٢٦) ﴾ [النور] البعض يفهم الآية على أن فيها إخباراً من الله تعالى بأن الخبيثات من النساء لابدَّ أنْ يكُنَّ للخبيثين من الرجال ، ثم يرى فى واقع المجتمع خلافَ ذلك فيشكّ فى صدق الآية .

لكن المعنى غير ذلك ، المعنى تشريعى : أعطوا الخبيثات للخبيثين ، وأعطوا الطيبات للطيبين ، فهذا أمر شرعىّ قد يُطاع من البعض ، وقد يُعصَى من آخرين .

والحكمة والصواب فى اتباع أوامر الله ليحصلَ التكافؤ بين الاثنين ، وتعتدل كفَّة الحياة الزوجية ، فلو تصوَّرنا رجلاً طيباً يتزوج بامرأة خبيثة ماذا يحدث ؟ يحدث خلاف وعدم توافق ثم يُعيِّرها الزوج بماضيها ويُذلها بسيئاتها السابقة ، أما إنْ أخذ الخبيثُ الخبيثةَ حدث التوافق ، وإنْ قال لها : أنت كنت ، قالت له : وأنت كنتَ .

إذن : الحق سبحانه فرض أشياءَ كونيةً لا تختلف أبداً ، ولا يعارضها واقعُ الحياة ، وفرْض أشياء شرعية متروكة لاختيار المكلّف يعمل بها أو لا يعمل ، فهذه الآية وأمثالها ليستْ أمراً كونياً ، إنما هى أمر شرعى ، كأن الله يقول : يا مَنْ تؤمن بأمر شرعى نفِّذ هذا الكلام .

وقوله تعالى : ﴿ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٢) ﴾ [الدخان] الجنات هى البساتين والحدائق ، وهى عند العرب شىء جميل ونعمة كبرى ، فإنْ كان الأمن من الضروريات فالجنات والعيون من الترف وزيادة النعمة .

وقال ﴿ وَعُيُونٍ (٥٢) ﴾ [الدخان] لأن الجنات لابدَّ لها من عيون تروى زرعها ، وتُغذِّى ثمارها ، وبعد أنْ ضمن لهم الأمن وترف الحياة يضمن لهم الملبس الحسن ﴿ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ (٥٣) ﴾ [الدخان]

السندس هو الحرير الرقيق ، والإستبرق الحرير السميك الغليظ ، وهذا يدل أيضاً على الرفاهية والرِّياش الدَّال على الفخفخة ؛ لأن اللباسَ منه الضرورىّ الذى يستر العورة ، ومنه الرياش ، لأنهم كانوا يُزينون اللباس بريش النعام ، لذلك يقولون حتى الآن (فلان متريش) يعنى : عنده رفاهية فى عيشه .

قال تعالى : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ .. (٢٦) ﴾ [الأعراف]

إذن : هذه ثلاثة أنواع من اللباس : لباس ضرورى يُوارى العورة ، ولباس الترف والزينة ، ولباس التقوى ، وهو أفضلها وخيرها ، لأن قُصارى ما تأخذه من اللباس هو ستْر عورتك فى الدنيا وإظهارك بمظهر حسن بين الناس ، فهو لباس موقوت بعمرك فى الدنيا ، وربما يموت الإنسان بعد أنْ ينزل من بطن أمه مباشرة ، فلا يكون له نصيب من هذا اللباس ، ولا يكون له عورة تُستر .

أما لباس التقوى فهو زينةٌ لك فى الدنيا ونجاةٌ لك فى الآخرة دار البقاء ودار الخلود ؛ لذلك قال سبحانه : ﴿ وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ .. (٢٦) ﴾ [الأعراف]

نلاحظ أن الحق سبحانه بعد أنْ ذكر ما أعدَّه للكافرين من عقاب ذكر ما أعدَّه للمؤمنين به المُصدِّقين برسله ، وجعل يوم القيامة يوماً للفصل بينهما ﴿ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٠) ﴾ [الدخان]

والفصل يكون بين شيئين اتحدوا فى أمر واختلفا فى آخر ، فالمؤمنون والكافرون اتحدوا فى الوجود وفى عطاء الربوبية والتمتُّع بنعم الله تعالى فى الدنيا ، فالله تعالى جعل مُقوِّمات الحياة للجميع : الماء والهواء والطعام .

فهم فيه سواء لأنه ربُّهم جميعاً وخالقهم ، وهو الذى استدعاهم للوجود ، فلابدَّ أنْ يضمَنَ لهم مُقوِّمات حياتهم ، لكن جعل هذه المقومات على مراتب ، فلما تكلَّم عن اللباس قال : ﴿ يَـٰبَنِى آدَمَ .. (٢٦) ﴾ [الأعراف] ولم يخُصَّ المؤمنين ، لأن هذا العطاء عطاء ألوهية .

﴿ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِى سَوْءَاتِكُمْ .. (٢٦) ﴾ [الأعراف] إذن : هما شركاء فى اللباس الضرورى الذى يُوارى العورة ، وفى الرياش الدال على الأُبَّهة والزينة الزائدة عن الضرورة ، وهذه كلها من مُتع الحياة الدنيا ، أما لباس التقوى ففصله عن سابقيه ، لأنه لباسٌ خاصٌ بأهل الإيمان .

إذن : بعد أنْ سوَّى الله بيننا جميعاً فى عطاء الربوبية لأن الجميع عباده جاء يوم الفَصْل ، حيث يأخذ كلٌّ منا ما يستحقه ، فالأمر فى الآخرة مختلف ، فللكافرين شجرة الزقوم التى تغلى فى البطون كغَلْى الحميم ، أما المتقون ففى جنات وعيون فى مقام أمين .

كلمة (سُنْدس) و (إستبرق) من أصل فارسى دخلتْ العربية ، واستعملها القرآن الكريم على أنها كلمة عربية سارتْ على ألسنة العرب ؛ لذلك وقف المستشرقون عند هذه الكلمات ومثلها القسطاس وغيرها ، ولا غضاضةَ أنْ تستخدم اللغةُ ألفاظ لغة أخرى .

وما دامتْ هذه الكلمات دخلتْ على العربى ، واستخدمها وفهم معناها حتى أصبحتْ جزءاً من لغته التى يتفاهم بها ، فما المانع من استخدامها ككلمات عربية ؟ ونحن الآن مثلاً نستخدم كلمة (بنك) وهى غير عربية ، وربما نجدها أخفَّ وأرقّ من كلمة مصرف العربية .

وقوله تعالى : ﴿ مُّتَقَابِلِينَ (٥٣) ﴾ [الدخان] فى وَصْف أهل الجنة وكيفية إقامتهم فيها ، والتقابل يدلُّ على الأُنْس حين تكون الوجوه متقابلة متواصلة متقاربة ، وضدها متدابرة ، والتدابر لا يكون إلا فى الخصام ، فكلمة ﴿ مُّتَقَابِلِينَ (٥٣) ﴾ [الدخان] تدل على أُنْس أهل الجنة بعضهم ببعض ، ومحبتهم وتآلفهم .

ثم يقول سبحانه : ﴿ كَذَٰلِكَ .. (٥٤) ﴾ [الدخان] يعنى : مثل هذا النعيم وزيادة عليه ﴿ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ (٥٤) ﴾ [الدخان] الفعل زوَّج يتعدَّى بنفسه ويتعدَّى بالباء ، تقول : زوَّجته فلانة يعنى : جعلتُها زوجة له ، وهو الزواج الشرعى المعروف بين الذكر والأنثى .

أما زوَّجته بكذا يعنى : أضفتُ إليه فرداً مثله يُكوِّن معه زوجاً ، وليس من الضرورى أن يكون أنثى ، فقوله تعالى ﴿ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ (٥٤) ﴾ [الدخان] تعدَّتْ بالباء .

فالمعنى انتقل من مسألة الزوجية التى نعرفها إلى الأُنْس بالجمال الذى هو قمة ما نعرف من اللذات ، وليس بالضرورى العملية إياها[(١)] ؛ لأننا فى الآخرة سنُخلق خَلْقاً جديداً غير هذا الخَلْق الذى نعيشه ، بدليل أنك تأكل فى الجنة ولا تتغوَّط .

---

(١) هذه النقطة ترد على الذين يطعنون فى الإسلام من غير المسلمين ومن يتبعهم ويصورون الأمر على أن جنة المسلمين كلها جنس ومعاشرة وليس فيها سمو روحى ولا ارتقاء ، فقول الشيخ الشعراوى رحمه الله هنا قاطع فى أن الأمر أُنْسٌ ومصاحبة ، ثم إن الباء هنا تفيد المصاحبة والمزاوجة وليس مقصوداً بها فعل الجنس [عادل أبو المعاطى] .

وعليه فالمعنى المزاوجة بين اثنين ، بصرف النظر عن الذكَر والأنثى ؛ لأن المتعة هناك متعة النظر ، ومتعة الكلام ، ومتعة الأُنْس بقيم أخرى غير التى نعرفها الآن .

وقوله ﴿ بِحُورٍ عِينٍ (٥٤) ﴾ [الدخان] حور : جمع حوراء وهى من نساء الجنة ، والحَوَر صفة فى العين تعنى : شدة البياض وشدة السواد فى العين (وعِين) جمع عَيْناء ، وهى الواسعة العينين مع جمالهما .

إنك إذا نظرتَ إلى فمها لوجدتَ أنه أصغر من عينها مرتين ، لذلك يصفون جمال الفم بأنه مثل خاتم سليمان ، ولك أنْ تتخيَّل هذا المنظر .

ولما كان زواجُ الرجل بالمرأة من أعظم مُتَع الدنيا ، ويحرص عليه كلٌّ من الرجل والمرأة حينما يبلغان الرشد جعله الله من مُتع الآخرة ، لكن على صورة أخرى أنقى ، جعله الله من متع الآخرة بصرف النظر عن العملية الجنسية إياها ، فالمسألة إيناسٌ بما كنتم تعتبرونه نعمةً فى الدنيا ، أما فى الآخرة فمقاييس أخرى ، فى الآخرة أنقى لكم الأشياء من مُنغِّصاتها التى كانت فى الدنيا .

أرأيتم مثلاً ما فى الدنيا من خمر وعسل ولبن ، لكم منها فى الآخرة ، لكن بعدَ أنْ نُصفِّيها لكم مما يُنغِّصها ، فجعل خمر الآخرة لذةً للشاربين ، وخمر الدنيا لا لذةَ فيه ، وجعل اللبن لا يتغيَّر طعمه ، وجعل الماء غير آسن .

كذلك جعل الزواج نقياً من شوائبه فى الدنيا ومُنغِّصاته ، حتى أزواج الدنيا حينما يجمعهم الله فى مُستقر رحمته فى الجنة يجد الزوجُ زوجته فى الدنيا على هيئة أخرى ؛ لأن الله تعالى طهَّرها له ونقَّاها من عيوبها التى كان يأخذها عليها فى الدنيا .

فلو كانتْ مثلاً غير جميلة وجدها على أجمل ما تكون النساء ، ولو كانت فى الدنيا طويلة اللسان وجدها على أحسنِ ما يكون ، لأن الله سيُنشئهنَّ نشأةً جديدة : ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا[1] أَتْرَابًا[2] ﴿٣٧﴾ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٣٨﴾﴾ [الواقعة] وقال ﴿وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ ..﴿١٥﴾﴾ [آل عمران]

إذن : قوله سبحانه : ﴿وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾﴾ [الدخان] هذه الباء نفهم منها أنه زواجٌ غير الذى نعرفه فى الدنيا بين الرجل والمرأة ، وأنه بعيد عن المسألة إياها ، لأن الحياة الأخرى لها نعيمٌ آخر ومقاييس أخرى غير ما نعرفه فى الدنيا .

وكلمة (حور عين) تلفت الأذهان إلى متعة النظر والتلذذ به ، كما ينظر الإنسان إلى صديق يحبه ، فإذا اقتنع واكتفى بهذه النعمة فأهلاً وسهلاً ، وإذا لم يقنعه النظر ، ففى الجنة ما تشتهيه الأنفسُ ويلذّ الأعين .

﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ ۖ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾﴾

معنى ﴿يَدْعُونَ .. ﴿٥٥﴾﴾ [الدخان] يطلبون ﴿فِيهَا .. ﴿٥٥﴾﴾ [الدخان] أى : فى الجنة ، فإنْ قلتَ : فلماذا يطلبونها وفى الجنة يأتيك

---

(١) العُرُب : جمع عَرُوب : المرأة المتحببة إلى زوجها . [القاموس القويم ٢/١٣] وقال ابن عباس : العُرُب : العواشق لأزواجهن وأزواجهن لهن عاشقون . ذكره ابن كثير فى تفسيره (٤/٢٩٢) .

(٢) الأتراب جمع ترب وهو المساوى فى السِّن للذكر والأنثى . قال ابن عباس : يعنى فى سن واحدة ثلاث وثلاثين سنة . (ابن كثير فى تفسيره ٤/٢٩٢) .

الشيء بمجرد أنْ تريده ، قالوا : المسألة أنه أكل الأكل الطبيعي أو الضروري ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ (٢١) ﴾ [الواقعة]

وبعد أنْ أكل يريد التفكه ، وما دام تشتهيها نفسك تأتيك حتى لو كانت ﴿ بِكُلِّ فَاكِهَةٍ .. (٥٥) ﴾ [الدخان] يعني : من كلِّ الأنواع ومن كلِّ الأشكال ، فالواحد منا مهما بلغ من نعيم الدنيا يأكل بعد وجبته الأساسية نوعاً أو نوعين من الفاكهة ، أما في الجنة فيدعون بكل فاكهة يعني يا رب هَات لنا بكلِّ الفواكه .

وهنا نسأل : ما البطن التي تتحمل وتتسع لكلِّ هذا ؟ وما هي النفس التي تستقبل كلَّ هذه الأشياء المتماثلة ؟ والله لو كنا في الدنيا لحدثتْ لنا مشاكل في المعدة وفي الأمعاء وغيرها ، أما في الجنة فالأمر مختلف .

وانظر إلى ذيل الآية ﴿ آمِنِينَ (٥٥) ﴾ [الدخان] فجاءت كلمة آمنين لتزيل كل استغراب وتعجُّب ، فهناك كُل كُلَّ ما تحب ، وكُلْ ما تشتهيه نفسُك .

إنه أكْل آمنٌ من معاطب الطعام التي عرفتها في الدنيا ، أكْلٌ أعدَّه لك ربُّك عز وجلَ ونقَّاه من كُلِّ ما يُنغِّصه ، ومن كُلِّ عيوب الطعام التي عرفتها في الدنيا ، ويكفي في نقائه أنك تأكل منه ما شئتَ ولا تتغوَّط . إذن : نعمة الجنة مُصفاة وخالصة من الشوائب ومن المتاعب .

وقوله سبحانه : ﴿ لا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلاَّ الْمَوْتَةَ الأُولَىٰ .. (٥٦) ﴾ [الدخان] أي : في الجنة أيضاً ، فالجنة ظرف وليس في الجنة موت ، إذن : كيف يستثني فيها ﴿ إِلاَّ الْمَوْتَةَ الأُولَىٰ .. (٥٦) ﴾ [الدخان] إذن : المعنى أنهم لا يذوقون في الجنة الموت ، فالموتُ بالنسبة لهم انتهى بالموتة الأولى التي حدثت لهم في الدنيا ، أما في الجنة فلا موت .

وكلمة ﴿يَذُوقُونَ .. (٥٦)﴾ [الدخان] جعلتْ حاسَّة الذوْق التى تقتصر على اللسان والمنطقة التى حوله المسئولة عن تذوُّق الأشياء، جعل هذه الحاسة عامة فى كُلِّ الجسم تستوعب كلَّ الحواس الأخرى.

كما قال سبحانه فى عذاب أهل النار ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (٤٩)﴾ [الدخان] فهو يذوق العذاب لا بلسانه، ولكن بكلِّ عضو فيه، وقال سبحانه فى آية أخرى: ﴿فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١١٢)﴾ [النحل] فجعل حاسَّة التذوُّق هنا كاللباس الذى يستوعب الجسم كله، فكأن كلَّ جزء من جسمه يذوق طَعْم العذاب.

وقوله: ﴿وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٥٦)﴾ [الدخان] أى: أولاً وقبل هذا النعيم وقاهم عذابَ الجحيم، فالوقاية من العذاب سابقة لدخولهم الجنة ومقدمة عليه، لأن القاعدة كما قلنا: التخلية قبل التحلية، لذلك قال سبحانه: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ .. (١٨٥)﴾ [آل عمران]

﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٥٧)﴾

أى: أن الجنة وما فيها من النعيم وقبل ذلك الوقاية من العذاب، كل هذا ﴿فَضْلاً مِّن رَّبِّكَ .. (٥٧)﴾ [الدخان] أى: تفضُّلاً منه سبحانه علينا وتكرُّماً منه على خَلْقه ليس بأعمالهم.

وهذه المسألة موضع خلاف بين العلماء، لأن الحق سبحانه قال فى آية أخرى ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٢)﴾ [النحل] وقال أيضاً: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٥٨)﴾ [يونس]

إذن: عندنا آيات تقول بفضل الله، وآيات تقول بالعمل، ولا بدَّ

أنْ يتصيَّد خصوم الإسلام مثل هذه المسائل ، ويحاولوا أنْ يُشكِّكوا في كلام رب العالمين ، وأنْ يتهموه بالتناقض ، تعالى اللهُ عن ذلك عُلواً كبيراً .

ولبيان هذه المسألة نقول : أنت حين تهتم بولدك وتنفق عليه وتعطيه دروساً ليتفوق ، تفعل ذلك لصالحه أم لصالحك أنت ؟ وحين يتفوَّق تأتى له بجائزة تحفزه على الاستمرار فى النجاح . إذن : أنت كلفتَ نفسك بأشياء ونفقات لا تعودُ عليك ، إنما تعود على ابنك .

كذلك الحق سبحانه وتعالى يتعامل مع خَلْقه ، فالله خلقنا وخلق لنا مُقوِّمات حياتنا ، ثم أعطانا المنهج وأثابنا عليه فانتفعنا بالاستقامة عليه فى الدنيا وبالثواب عليه فى الآخرة .

والحق سبحانه يفعل ذلك وهو الغنيُّ عنَّا ، فله سبحانه كلُّ صفات الكمال قبل أنْ يخلق هذا الخَلْق ، إذن : لا تنفعه طاعة ، ولا تضرُّه معصية .

وإياك أنْ تظنَّ أنك بطاعتك لله وعبادتك له سبحانه أنك تسند عرشه جَلَّ وعلا أو تزيد فى خلقه ، فأنت المستفيد أولاً وأخيراً بمنهج الله ، وشرفٌ أنْ تنتسبَ إلى هذا المنهج ، وأنْ تكونَ عبداً لله تعالى .

لذلك ورد فى الحديث القدسى : « يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قَلْب رجل واحد منكم ما نقصَ ذلك من مُلكى شيئاً . يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك فى ملكى شيئاً . يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم اجتمعوا فى صعيد واحد وسألنى كلٌّ واحد مسألته فقضيتُها له ما نقصَ ذلك فى

ملكى شيئاً إلا كما ينقص المخْيَطُ إذا أُدخلَ البحر ، ذلك أنِّى جواد ماجدٌ واجد ، عطائى كلام ، وعذابى كلام ، إنما أمرى لشىء إذا أردتُه أنْ أقول له كُنْ فيكون »(١) .

إذن : التكليف الذى يأتينا من الله تعالى لا ينتفع الله منه بشىء ، إنما يعود نفعه علينا ، ولو أخذنا المسألة بالعقل لقُلْنا أنه كان علينا أنْ ندفع الثمن ، فالثواب على الطاعة إذن مَحْضُ فضل من الله ، بل مجرد التشريع والمنهج الذى كلَّفك الله به محض فضل منه سبحانه .

لذلك قال تعالى : ﴿ فَضْلاً مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٥٧) ﴾ [الدخان] الفوز العظيم أننى حين أسير على وفْق منهج الله أنتفع به فى الدنيا وأُثاب عليه فى الآخرة .

أما قوله سبحانه : ﴿ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٢) ﴾ [النحل] قالوا : يعنى بسبب أعمالكم الصالحة ، فالعمل الصالح ليس ثمناً للجنة ولكنه سببٌ لدخولها ، وقد أوضح سيدنا رسول الله ﷺ هذه المسألة حين قال : « لا يدخل أحدٌ منكم الجنةَ بعمله ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أنْ يتغمَّدنى الله برحمته »(٢) .

وفى ضوء هذا الحديث نفهم قوله تعالى : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٥٨) ﴾ [يونس]

﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٥٨) ﴾

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه (٢٤١٩) ، وابن ماجه فى سننه (٤٢٤٧) وأحمد بن حنبل فى مسنده (٢٠٤٠٥ ، ٢٠٥٦٠) كلهم من حديث أبى ذر الغفارى رضى الله عنه ، قال الترمذى : هذا حديث حسن .

(٢) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٢٤١) ومسلم فى صحيحه (٥٠٣٧ ، ٥٠٣٨ ، ٥٠٤٠) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

الحق سبحانه يعود هنا لمخاطبة نبيه ﷺ وبيان نعمته عليه ، ومن هذه النعم أنه سبحانه يسَّر له القرآن يقرؤه بلسان عربى مبين ، فالضمير فى ﴿ يَسَّرْنَاهُ .. (٥٨) ﴾ [الدخان] يعود على القرآن بدليل قوله ﴿ بِلِسَانِكَ .. (٥٨) ﴾ [الدخان] فهذا إمداد لغوى ؛ حيث جعله الله بلسان ولغة عربية وهو لسان الرسول ﷺ ولغته التى ينطق بها .

وقوله : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٥٨) ﴾ [الدخان] دل على أنه بلسانك وبلسان قومك ، قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ (٤) ﴾ [إبراهيم] فهو بلسانك تبليغاً وبلسانهم تلقياً واستقبالاً ، ثم بلاغاً أيضاً لأنهم هم الذين سيقومون بمهمة البلاغ بعد رسول الله .

﴿ فَارْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ (٥٩) ﴾

﴿ فَارْتَقِبْ .. (٥٩) ﴾ [الدخان] يعنى : انتظر ﴿ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ (٥٩) ﴾ [الدخان] منتظرون ، فماذا ينتظر رسول الله ؟ وماذا ينتظر الكافرون ؟ رسول الله صاحبُ دعوة وهدى ، جاء بنور يهدى به هؤلاء القوم ، وهم مناهضون لدعوته يُناصبونه العداء ، ويريدون أنْ يُطفئوا هذا النور ، هو حريصٌ عليهم مُحب لهدايتهم رغم إيذائهم له وسخريتهم منه ، حتى إنه ليكاد أنْ يهلك نفسه فى سبيل دعوته .

لذلك كثيراً ما خاطبه ربه مُسلِّياً له مُخفِّفاً عنه ، يخبره ﴿ إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاغُ .. (٤٨) ﴾ [الشورى] ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣) ﴾ [الشعراء]

وقال : ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٣٣) ﴾ [الأنعام] يعنى : لا تحزن

يا محمد لما يقولونه عنك ، لأنهم يحبونك ، ويُقدِّرونك ويعلمون صدْقك ومكانتك ، فأنت عندهم أعلى من أنْ تكذبَ عليهم ، ولكن المسألة أنهم يجحدون بآياتي ، فالمسألة عندي أنا .

كلمة ﴿ فَارْتَقِبْ .. ۝٥٩ ﴾ [الدخان] جاءت في هذه السورة مرتين هنا ، وفي قوله سبحانه : ﴿ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۝١٠ ﴾ [الدخان] لما دعا رسول الله عليهم وقال : « اللهم اشْدُدْ وطأتك على مُضر ، واجعلها عليهم سنين كسِني يوسف »[1] .

فنزل بهم من القحط والجدب ما نزل حتى أكلوا الجيف والعِلْهز[2] وضجّوا يدعون الله أنْ يكشف عنهم ، والله يعلم أنه لو كشف عنهم لَعادوا لما كانوا عليه من التكذيب لرسوله .

لذلك خاطب الله رسوله بقوله : ﴿ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ۝٧٧ ﴾ [غافر]

فمعنى ﴿ فَارْتَقِبْ .. ۝٥٩ ﴾ [الدخان] أي : انتظر ما يحلُّ بهم من العذاب لأنهم يرتقبون ما يُريحهم منك ويُخلِّصهم من دعوتك ، لذلك ربنا سبحانه وتعالى يُعلِّم رسوله كيف يجادلهم ، فيقول لهم : ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ۝٥٢ ﴾ [التوبة]

يعني : قلْ لهم يا محمد : أنتم تتربصون بنا إحدى الحسنيين ،

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٧٦٢ ، ٩٥١ ، ٢٧١٥ ، ٣١٣٤) وكذا مسلم في صحيحه (١٠٨٢ ، ١٠٨٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) العلهز : وبر يُخلط بدماء الحَلَم كانت العرب في الجاهلية تأكله في الجدب . قال ابن الأثير : هو شيء يتخذونه في سني المجاعة يخلطون الدم بأوبار الإبل ثم يشوونه بالنار ويأكلونه . [لسان العرب مادة : علهز] .

إما النصر عليكم ، وإما أنْ نموت شهداء ، فإن انتصرنا عليكم علَا منهجُ الله وساد ، وإنْ متْنَا كنا شهداء أحياء عند ربنا نُرزق .

ونَحن نتربَّص بكم أنْ يُصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا ، إذن : نحن تربَّصنا بكم بشرٍّ لكم ، وأنتم تربصتم بنا بخير لنا .

سُورَةُ الجَاثِيَة

سورة الجاثية(١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢ ﴾

هذه السورة أيضاً من الحواميم ، وهى السور التى افتُتحت بقوله تعالى (حم) ، وسبق الكلام فيها ، لكن ما دام أن الحق كرَّرها فلا بدَّ لنا أنْ نتعرَّض لها بما يفتح الله به ولا يُعد هذا تكراراً .

فإذا نظرنا إلى الحياة التى نراها وجدنا فيها مُلكاً مشاهداً ، وملكوتاً غير مشاهد ، وكل ما غاب عن حواسِّك فهو غَيْبٌ لا يعلمه إلا الله ، خُذْ مثلاً العقائد والعبادات تجد أنها تقوم على هذين الجانبين

---

(١) سورة الجاثية هى السورة رقم ٤٥ فى ترتيب المصحف الشريف ، وهى سورة مكية كلها فى قول الحسن وجابر وعكرمة . وقال ابن عباس وقتادة : إلا آية هى ﴿ قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ .. ﴿١٤﴾ ﴾ [الجاثية] نزلت بالمدينة فى عمر بن الخطاب ذكره الماوردى . ولكن قال المهدوى والنحاس عن ابن عباس أنها نزلت بمكة أن رجلاً شتم عمر قبل الهجرة فأراد أن يبطش به فأنزل الله الآية . وهى سبع وثلاثون آية . ذكره القرطبى فى تفسيره (٦٢٠٦/٩) وترتيب نزولها هو نفس ترتيب وجودها فى المصحف نزلت بعد الدخان وقبل الأحقاف ، وهى السورة رقم ٦٤ فى ترتيب النزول .

الغيب والمشهد .

فأنت تستطيع بالعقل أنْ تبرهن على وحدانية الله ، وعلى وجوده سبحانه ، وأنه خالق هذا الكون كله ، فالإنسان طرأ على هذا الكون ووجده كما هو الآن ، الشمس والقمر والنجوم ، السماء والأرض ، الماء والهواء .

لذلك لم يدَّع أحدٌ أنه خلقه ، قال سبحانه ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. (٢٥)﴾ [لقمان] وقال : ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. (٨٧)﴾ [الزخرف]

هذا مشهد ، وفى العقائد أمور أخرى غَيْبٌ نؤمن بها لأن الله أخبرنا بها ، كأمور الآخرة والبعث والحساب والجنة والنار ، خُذْ مثلاً من العبادات الصلاة نستطيع أنْ نفهم لها عللاً عقلية ، فنقول : إن الله فرضها علينا خمْس مرات فى اليوم والليلة ليتردد العبدُ على خالقه ، وليستمدَّ منه القوة والعوْن ، وليأنس بلقائه ، وليأخذ من فيض عطائه وإشراقاته .

والصلاة كذلك تُسوِّى بين العباد الغنى والفقير ، الرئيس والمرؤوس الكل ساجد لله ، هذا استطراقٌ عبودىّ فى الكون ، هذا كله مشهد ، لكن بالله قُلْ لى : لماذا كان الصبحُ ركعتين ، والظهر أربعاً ، والمغرب ثلاثاً ؟ هذه غيْبٌ نؤمن به كما هو ، وكما أخبرنا به رسول الله المؤتمن على شرع الله .

كذلك فى القرآن الكريم غيب ومشهد ، غيب فى هذه الحروف المقطَّعة التى استأثر اللهُ بعلم معناها ، وباقى القرآن بعد ذلك مشهدٌ لأنه بيِّن واضح المعنى ظاهرُ المقصد ، لأن الحق سبحانه يريد أنْ يتعبَّدنا بالغيب كما تعبَّدنا بالمشهد .

والغيب هو محلُّ الإيمان ، أما المشهد فليس مجالاً للإيمان أو الكفر ، فلا تقول مثلاً : أومن بأن الشمسَ طالعةٌ ، لكن أقول : أومن باليوم الآخر .

فقوله تعالى هنا (حَم) يعنى : حروف مُقطَّعة فى بداية بعض سور القرآن هى غيب نؤمن به ونترك معناه لمنْزله سبحانه ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ .. ②﴾ [الجاثية] هذا هو المشهد ، وفى السورة قبلها (حم) غَيْب ﴿وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ②﴾ [الدخان] مشهد .

﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ ..③﴾ [الدخان] يعنى : الاثنان الغيب والمشهد مُنزّل من عند الله ، فهما سواء فى التعبد لله تعالى ، فكما تعبَّدك بالواضح المفهوم تعبَّدك بالغيب الذى لا تفهمه ، وكُل ما هنالك أننا نحوم حولها ، نحاول أنْ نستشفّ بعض أسرارها .

لذلك نقول : إن القرآن كله مبنىٌّ على الوَصْل فى الآيات وفى السور ، حتى أن آخر كلمة فى سورة الناس موصولة بأول كلمة فى الفاتحة ، فنقول : ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وهكذا .

لذلك نُسمِّى قارئ القرآن (الحالّ المرتحل) يعنى : ما يكاد ينتهى من القرآن حتى يبدأ من أوله .

أما الحروف المقطّعة فى أوائل السور فمبنيةٌ على الوقْف تقول : حا ، ميم ، ألف لام ميم ، فى حين أنك لا تقف على نفس الحروف فى ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ①﴾ [الشرح]

إذن : لكل نطق علَّة وله أسرار ، فهو أشبه بأسنان المفتاح الذى يفتح لك ، فمفتاح يفتح لك بسنٍّ واحد ، ومفتاح يفتح لك بسنَّيْن ، ومفتاح يفتح لك بثلاثة .

وقوله :﴿ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (٢) ﴾ [الجاثية] اختار هنا اسم العزيز ، لأن القرآن سينزل وسوف تجد من القوم مَنْ يكذِّبه ، فلا تهتم لذلك ولا يغرنَّك تكذيبهم ، فالله مُنزل هذا الكتاب عزيز لا يُغلب ، وهذه العزة ليستْ بقهر ، إنما عزة بحكمة ﴿ الْحَكِيمِ (٢) ﴾ [الجاثية] والحكيم : هو الذى يضع الشىء فى موضعه المناسب .

﴿ إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٣) ﴾

قوله تعالى ﴿ إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ .. (٣) ﴾ [الجاثية] جعل السموات والأرض ظرفاً فلا تنظر إلى السموات والأرض فى ذاتها ، بل انظر لما فيهما من الآيات والأسرار ، فهى مليئةٌ بالآيات التى يجلِّيها الله لوقتها ، وكلما تفتحتْ العقول وتطوَّرتْ العلوم ظهر لنا آية من آيات الله فى السماوات والأرض .

انظر مثلاً إلى الثورة فى مجال الاتصالات ، وما فى الهواء من ذبذبات وبثٍّ (للتليفزيون) ، ومع ذلك لا تختلط ولا تتداخل ، انظر إلى الفضاء الواسع وما توصَّل إليه الإنسان من غزو الفضاء وإطلاق سفن وصواريخ تصل إلى كواكب أخرى وتستقرّ عليها وترسل لنا صُوراً منها ، كلُّ هذه آياتٌ من آيات الله يُجلِّيها سبحانه لنا فى وقتها المناسب .

إذن : آياتُ الله كثيـرة فى السماوات والأرض بل وتحت الأرض ، لذلك يمـتنُّ الله بنعمـه علينا ، فيـقول : ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ ۝٦ ﴾ [طه]

لذلك سـيدنا عـبدالله بن مـسعود يـقول[1] : أثيروا القـرآن . يعنى (هيجوه) مثل الأرض حينما نحرثها لنأخـذ ما فيها من خيرات ، كذلك كل شىء منسوب إلى الله تعالى فيه ما لا يُحصَى من كنوز الخير .

وإذا كانـت السمـواتُ والأرض ظرفاً فلنا أنْ نسـأل : أيهمـا أثمن الظرف أم المظروف فيه ؟ فـالخطاب أو الرسالة أثمن أم الظرف الذى تُوضَع فيه ؟ الخزينة أو ما يوضع فيها أنفس .

كذلك السـماوات والأرض مع عظمهمـا وقُوتهما ، فـما فيهـما من آيات وعجائب أعظم منهما وأنفس ، لذلك تذكرون أننا حرَّمنا أنْ نضع شيـئاً بيـن أوراق المصحف ، لـماذا ؟ حتى لا يكون كتـاب الله تعالى ظرفاً لشىء ، مهـما كان غالياً وثمـيناً عندك ، لأن القرآن أثمن وأغلى من أى شىء آخر ، فلا تجعله ظرفاً لشىء .

وقوله : ﴿ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٣ ﴾ [الجاثية] آيات جـمع آية ، وهى الشىء البالغ فى الحُسْن مَبْلَغاً كـما نقول : فـلان آيةٌ فى الحسن أو فى البلاغة ، أو فى الكرم ، إذن : آية تعنى الشىء العجيب فى بابه .

وبيَّنا أن كلمـة آية تُطلق على معَانٍ ثلاثة : آيـات كونية تثبت قدرة

---

(١) أورد القرطبى فى تفسيره (١/٤٥٣) حـديث : أثيروا القرآن فإنه علم الأولين والآخرين . وفى رواية أخـرى : من أراد العلم فليـثوِّر القـرآن . ومـثله فى تفسـيـر اللباب لابن عـادل (١/٣٧٥) [تفسـير آية ٧١ البقـرة] وذكره معـزواً لابن مسعـود ابنُ منظور فى لسان العرب مادة ثور . وصاحب تاج العروس وكذلك ابن الأثير فى « النهاية فى غريب الأثر » .

الخالق سبحانه وحكمته ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ .. ﴿٣٧﴾﴾ [فصلت]

فإنْ كان هذا الشيء مُتفرداً بشيء عجيب دالٍّ على القدرة سُمِّى آية وحده ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ .. ﴿١٢﴾﴾ [الإسراء] فكلٌّ منهما آية وحده .

وقال في عيسى بن مريم عليه السلام وأمه مريم : ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً .. ﴿٥٠﴾﴾ [المؤمنون] فهما آية واحدة ، لأن وجه العجب فيهما واحد ، والجامع بينهما فى الإعجاز أمر واحد ، فكانا آية واحدة.

ثم بعد ذلك آيات معجزات تأتى مصاحبة للرسل لتؤيدهم وتُثبت صدقهم فى البلاغ عن الله مثل : عصا موسى ، وناقة صالح .

ثم النوع الثالث من الآيات هى آيات الذكر الحكيم فى القرآن الكريم ، ويُسمُّونها حاملة الأحكام .

فمعنى : ﴿لآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾ [الجاثية] يعنى : أيها المؤمنون بى تنبهوا لهذه الآيات لتُقنعوا بها غيركم ممَّنْ لم يؤمن من الكافرين والملاحدة ، لذلك نقعد (نُنادى) فيهم ونقول لهم : انظروا كذا وانظروا كذا ، تأملوا قدرة الله فى كذا وكذا .

هذه رسالتنا أنْ ندعو الناسَ ، وأنْ ندلَّهم على الله بماذا ؟ بآياته فى الكون ، لذلك ربنا سبحانه يُعلِّمنا كيف ندلُّ الناسَ بالآيات فيقول : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [فصلت]

يعنى : لا تغرنكم عظمة هذه الآيات ؛ فخالقها أعظم ، وأحلى من

الحُسْن مَنْ خلق الحسن ، فايَّاكم أنْ تنصرفوا بإعجابكم بالليل والنهار والشمس والقمر عن خالقها ، فهو المستحق للعبادة وليس هى ، وهذا يعنى أن الخالق سبحانه حريصٌ على صَنْعته ، حريصٌ على هداية الناس ونجاتهم مما يهلكهم .

فكأن هذه الآية تقول للمؤمنين بالله إنَّ هذه الآيات الكونية جعلها اللهُ لتقنعكم أولاً ، ثم تقنعون بها غيركم .

لذلك لو نظرنا إلى علماء الدين وعلماء الطبيعة فى مجالات الإنسان والحيوان والنبات والجمادات وجدنا علماءَ الطبيعة أسبقَ لأن علماء الدين يُبيِّنون للناس الحلال والحرام ، إنما ينطلقون أولاً من الإيمان بالله ، فبيان الأحكام فرعُ الإيمان ، فكأن النظر فى الآيات الكونية والاستدلال بها على خالقها عز وجل أهمّ .

ومن عجائب صُنْع الله فى خلقه أنهم فى أواخر العشرينيات قالوا عن السموات السبع أنها الكواكب السبع التى تدور حول الشمس ، وفى العام الذى يليه اكتشفوا كوكباً آخر إلى أنْ وصل عددهم إلى عشرة ، ثم اكتشفوا كوكب الزُّهرة ، وهكذا تغيرتْ كلّ النظريات القديمة .

ومن عجائب الخَلْق فى هذه الكواكب أننا نعرف أن اليوم أقلُّ فى الزمن من السنة ، لأن اليوم $\frac{١}{٣٦٥}$ من السنة ، وبعد أنْ عرفنا علم الهندسة الفراغية وجدنا الزهرة وهو ثانى نجم بعد الشمس ، وقبله عطارد ..

ومن العجيب أنهم وجدوا أن يوم الزهرة أطولُ من عام الزهرة ، فاليوم عندنا هو دورة الأرض حول نفسها ، والسنة دورتها حول الشمس ، فلما لاحظوا يوم الزهرة قياساً على يوم الأرض وجدوا أن

اليوم أطولُ من السنة ، فـيوم الزهرة ٢٤٤ من أيام الأرض ، والسنة ٢٢٥ من أيام الأرض .

وهذا صحيح لأن الجهة مُنفكّة ، فلكلٍّ نجم حركته ، وهذه الحركة قد تكون سـريعة فى دورانه حول نفـسه ، وبطيئـة فى دورانه حول الشمس أو العكس ، ومن هنا يأتى الاختلاف ولا مانعَ أنْ يكونَ اليومُ أطولَ من السنة ، وآخـر هذه الكواكب بلوتو وجدوا أن يومـه يساوى ٦,٥ يوم من أيام الأرض ، وسنته ٢٦٨ يوماً من أيام الأرض .

نفهم من هـذا قدرة الخالق سـبحانه ، وأن هذا الكـون خُلقَ بدقّة وإحكام ليس مصادفةً ، وليس مجرد نظام رتيب مثل القوالب الجامدة ، إنما طلاقة قدرة وقيومية تحرك هذا الكون وتديره بكلِّ دقَّة وإحكام .

ثم لو نظر الإنسـانُ فى نفسه لوجـد عالمـاً آخر مليـئاً بالآيات ، انظر إلى الناس واخـتلاف لغـاتهم ولهجـاتهم وتكوينهم وبصمـاتهم : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ (٢٢) ﴾ [الروم]

ولو شاء سبحانه لَجعلَنا على لون واحد ، ولسان واحد ، لكن من حكمته تعالى فى الخَلْق أنْ يجمعك بغيرك فى شىء متفق ، ثم يُميِّزك عنه بشىء آخر مختلف تماماً .

كنا نعـرف فى التمييز بين الناس ببصـمة الإصـبع ، الآن وجدوا بصمة للصـوت ، وبصمة للفكِّ ، وبصمة للرائحة ، كل هذه البصمات تميـز الإنسـان ، بمـعـنى أنها لا تتكرر فى شـخص آخر على كـثرة العدد ، أليـس هذا إعجازاً فى الخَلْق يـدعونا إلى الإيمان بالـخالق جلَّ وعلا ؟

قلنا : من عجائب الخَلْق فى جسم الإنسان أنه لا يحدث فيه استطراقٌ حرارىٌّ كما يحدث فى باقى الأجسام ، فحرارة الجسم العادية ٣٧° تجدها فى الإنسان عند خَطِّ الاستواء وفى الإنسان فى القطب المتجمد ، لأن الجسم يحتفظ فى داخله بهذه الدرجة ، ثم تجد لكل عضو من أعضاء الجسم حرارته المناسبة له كى يؤدى مهمته .

فتتعجب حين تعلم أن العين لا تزيد حرارتها عن ٩° ، فى حين أن الكبد لا تقلّ درجة حرارته عن ٤٠° ، وهما فى جسم واحد متصل ، ومع ذلك لا يحدث فيه استطراقٌ حرارىٌّ فتتعدَّى حرارة الكبد إلى حرارة العين مثلاً .

لذلك كما اهتمَّ الإسلام بتشريع الحلال والحرام وبيانه للناس اهتمَّ بدرجة أكبر ببيان آيات الله الكونية فى كُلِّ أنواع المخلوقات إنسان وحيوان ونبات وجماد .

واقرأ إن شئت : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ[1] بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ[2] سُودٌ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (٢٨)﴾ [فاطر]

هل هنا حكم شرعى فى الصلاة أو الحج أو الصيام ؟ كلها دعوة للنظر وللتأمل فى الكون ، والعلماء هنا هم علماء الكونيات لا علماء الدين ، فهم أعرفُ الناس بآيات الله ، وهم أعرفُ الناس بالله وهم أكثرُ الناس لله خشيةً ، لماذا ؟

---

(١) الجدد : أجزاء وقطع ذات ألوان مختلفة . والجدَّة من الشىء : الجزء منه يخالف لونه لون سائره . [القاموس القويم ١/١١٨] .

(٢) الغرابيب : جمع غربيب ، وهو الشديد السواد . [القاموس القويم ٢/٥٠] .

لأنهم وقفوا على آياته بأنفسهم ، فهم أعرفُ الناس بها ، لذلك لم يهمل الدين علماً من العلوم أبداً ، لأن العلم يخدم قضية الإيمان وقضية التوحيد .

الحق سبحانه وتعالى يعطينا فى القرآن كلَّ هذه الأمثال لنأخذ منها الدليل على وجوده تعالى ، ونأخذ منها صفات القهر والحكمة والعزة والرحمة .. الخ بل نأخذ من الآيات الكونية ما تستقيم به حياتنا وما نُصحِّح به مفاهيمنا عن الأشياء .

فمثلاً خُذْ علاقة الرجل بالمرأة ، البعض يرى أن الرجل ضد المرأة ؛ وأنهما على طرفى نقيض ، فنسمع أنصارَ المرأة ويقابلهم أنصار الرجل وكأنها معركة ، فى حين أننا نقرأ القرآن فنجد قوله تعالى : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ (١) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ (٢) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ (٣) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ (٤) ﴾ [الليل]

فالمخلوقات المتقابلة لا تعنى أنها متضادة ، وإياك أنْ تظنَّ أن الليل ضدُّ النهار ، نعم هو يقابله فى طبيعة الأشياء لكن لا يضاده ، فالليل يساند النهار ويساعده ، والنهار يساند الليل ويساعده فهما متكاملان ، الليل للراحة والنهار للعمل ، وكلاهما مُهم للآخر ، وكلاهما له مهمة فى الحياة ودَوْرٌ .

كذلك الحال فى الذكر والأنثى . إذن : هذه الآية الكونية تُعلِّمنا درساً فى حياتنا الاجتماعية ، وأنه لا داعىَ لكلِّ هذه الضجة حول علاقة الرجل بالمرأة ، وعودوا إلى القرآن ففيه الشفاء ، وفيه حلول كل مشاكلنا .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٤) ﴾

السياق القرآنى هنا ينقلنا من النظر فى آيات السموات والأرض إلى النظر فى ذات أنفسنا ، كما قال سبحانه : ﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ (٢١) ﴾ [الذاريات] فالدليل على الوجود الأعلى لا يقتصر على آيات السماوات والأرض ، فالإعجاز فى الذرَّة كما هو فى المجرَّة ، وفى جسم الإنسان وأعضائه آيات وعجائب .

وقد عبَّر الشاعر[1] عن ذلك حين قال :

وَتحسَبُ أنَّكَ جِرْمٌ صَغيرٌ وَفيكَ انْطَوَى العَالَمُ الأكبر[2]

وكلمة ﴿ خَلْقِكُمْ .. (٤) ﴾ [الجاثية] ساعة تسمع كلمة الخَلْق تفهم منها الإيجادَ من العدم ، كان الشىء معدوماً فأوجده الله ، والخَلْق لا يُطلق على الحدث إنما يُطلق على المخلوق ؛ لذلك قال تعالى : ﴿ هَٰذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ .. (١١) ﴾ [لقمان] فمعنى خَلْق هنا يعنى مخلوق . وبمعنى الحدث فى ﴿ مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ .. (١١) ﴾ [لقمان]

فقوله : ﴿ وَفِي خَلْقِكُمْ .. (٤) ﴾ [الجاثية] أى : من الآيات الكونية خلقكم أى البشر . عملية الخَلْق لها مراحل هى التى مَرَّ بها سيدنا آدم حيث لم يكُنْ موجوداً فأوجده الله من العدم ، فكان طيناً فسوَّاه

(١) هو الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه ابن عم رسول الله وزوج ابنته فاطمة ورابع الخلفاء الراشدين .

(٢) نص أبياته فى الموسوعة الشعرية من قصيدة من بحر المتقارب من أربعة أبيات

أتزعم أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

وهو فيها أيضاً من قول المفتى فتح الله من قصيدة من ٦ أبيات من بحر المتقارب أيضاً . وقد توفى المفتى فتح الله عام ١٢٦٠ هجرية .

ونفخ فيه الروح فـدبَّتْ فيه الحياة وصـار إنساناً ، ثم جعل نسله من بعده بالتزاوج بين الذكر والأنثى .

إذن : فى خَلْقنا مرحلتان مرحلة الخَلْق الأول لأبينا آدم ، ومرحلة البثِّ والنشْـر عن طريق التكاثر ، لذلك قال سـبحانـه فى آية أخرى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً .. (١) ﴾ [النساء]

إذن : لنا خَلْـق من عـدم وبَثٌّ أى نشر ، وانتشـار من التناسل ، أما الدواب فلم يذكر فيها إلا مرحلة البث ﴿ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ .. (٤) ﴾ [الجاثية] أى : ينشر ، فأين مرحلة خَلْقها ؟

أولاً : الدابة هى كلُّ مـا يدبّ على الأرض غـيـر الإنسـان ، وفى اللغـة لوْنٌ من الأسلوب يُسمُّـونه (الاحتـباك)[1] وهو باب من أبواب البلاغة يعرفه المتخصصون فيها .

والاحتباك أن يكون فى الكلام شيئان يُوضح أحدهما الآخرَ ، ويغنى عنه ، وأوضح مثال على ذلك فى القـرآن قوله تعالى : ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِى فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ .. (١٣) ﴾ [آل عمران]

فقـوله ﴿ وَأُخْـرَىٰ كَـافِـرَةٌ (١٣) ﴾ [آل عمـران] دلَّ علـى أن الأولى مـؤمنة ، أى : فئة مـؤمنة تقاتل فى سبيل الله ، وأخرى كـافرة تقاتل فى سبيل الشيطان ، فدلَّ المذكور على المحذوف بالمقابلة .

(١) نقل السـيوطى فى الإتقـان فى علوم القرآن (١/٢٩٩) فى الإيجـاز والإطناب قـال : قال الأندلسى فى شـرح البديعيـة : من أنواع البديع الاحـتباك وهو نوع عـزيز وهو أن يحـذف مـن الأول ما أثبت نظيره فى الثانى ، ومن الثانى ما أثبت نظيره فى الأول ، كقوله تعالى : ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ (١٧١) ﴾ [البقـرة] وتقديرها : ومثل الأنبيـاء والكفار كـمثل الذى ينعق والذى يُنعق به .

فالمعنى فى قوله تعالى : ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ (٤)﴾ [الجاثية] أتى بالخَلْق فى الأولى وترك البث ، وأتى بالبثِّ فى الثانية وترك الخَلْق ، وعليه يكون المعنى : وفى خلقكم وما بثَّ منكم ، وفى خلق الدواب وما بثَّ منها .

﴿آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٤)﴾ [الجاثية] فالحق سبحانه عرَّفنا كيفية الخَلْق الأول من العدم بخلقه لآدم ، وأخبرنا بمراحل هذا الخَلْق حتى استوى آدمُ إنساناً كاملاً يتحرَّك ويسعى فى الأرض ولم يذكر تفاصيل خَلْق غيره لنقيسَ نحن على ما عرفناه .

فلما تكلَّم عن حواء قال : ﴿الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا .. (١)﴾ [النساء] يعنى : على طريقتها ، كذلك لم يتكلم فى خَلْق الدواب لأنها تُقاس على خَلْق آدم .

ولا شكَّ أن المتأمل فى خَلْق الإنسان والدوابّ يجد الكثير من الآيات والمعجزات الدالَّة على طلاقة القدرة للخالق سبحانه ، ففى الخَلْق الأول طلاقةُ قدرة حيث خلق من العدم وعلى غير مثال سابق ، فأوجد آدم بلا أب وبلا أم ، ثم خلق منه حواء فكانت من أب بلا أم ، وخلق عيسى عليه السلام من أم بلا أب ، وخلق عامة الخَلْق من أب وأم .

إذن : طلاقة القدرة استوعبتْ كُلَّ احتمالات المسألة عقلياً ، حتى ولو مرة واحدة ليحدثَ بها الدليلُ والإعجاز وليثبت الحقّ لنفسه سبحانه : ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٨٢)﴾ [يس]

والذى يملك العطاء يملك المنع ، فقد تتوافر دواعى الخَلْق والإنجاب لكن لا يحدث ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ

(٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا .. (٥٠)﴾ [الشورى]

وتعرفون من قصة سيدنا زكريا عليه السلام كيف أنه لم يُنجب حتى بلغ من الكِبر عتياً ، وكانت امرأته عاقراً حتى إنه يئس من هذه المسألة ، فلما أراد الله أنْ ينجب طَوَّع له الأسباب وبشَّره بولد وأيضاً سمَّاه له .

هذه كلها آياتٌ من آياتِ الخَلْق ، وهى كثيرة وممتدة ، ففى كل مرحلة من مراحلها إعجازٌ وقدرة ، بدايةً من اللقاء بين الزوج والزوجة والتقاء الحيوان المنوى الذكرى بالبويضة الأنثوية ، فإنْ تمَّ تخصيب البويَضة حدث الحمل وتحوَّل الدم فى غذاء للجنين فهو رزقه حتى يُولد ، وإن لم يحدث الحمل نزل هذا الدم فى فترة الحيْض .

وهذا يعنى أن الخالق سبحانه حين يخلق الإنسانَ يخلق معه رزقه ، فالجنينُ لا يتغذَّى بغذاء أمه إنما بغذائه الخاص ، بدليل أن الأم لا تستفيد بهذا الدم إنْ لم يحدث حمل .

وقوله سبحانه : ﴿آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٤)﴾ [الجاثية] من اليقين وهو الإيمان والعقيدة الراسخة التى استقرتْ فى القلب ، بحيث لا يتطرق إليها شك ، وبحيث لا تطفو إلى العقل ليناقشها مرة أخرى ، فهى عقيدة يعنى القلب معقود عليها .

وسبق أنْ بيَّنا هذه المسألة بأن الحواسَّ تنقل المحسَّات والقضايا إلى العقل الذى يُفاضل بينها ويُغربلها ، فما اقتنع به استقرَّ فى القلب عقيدةً ومبدأ يسير عليه ويؤمن به بحيث لا يطفو للعقل مرة أخرى .

هذا اليقين درجاتٌ أولها علم اليقين ، وعين اليقين ، ثم حَقُّ

اليقين ، فعلم اليقين حين يُخبرك بالخبر صادقٌ لا تشكّ فى صدْقه ، وعين اليقين حين تراه بعينك ، وحَقُّ اليقين هو أنْ تباشره بنفسك .

وقلتُ : أننا ذهبنا مرة إلى إندونيسيا ، ورأينا هناك أصبع الموز قرابة نصف المتر ، فلما عُدْتُ أخبرتُ أولادى بذلك ، فصار عندهم علم بذلك لأنهم يثقون بى ويعرفون أنِّى لا أكذب .

فلما رأيتُهم مندهشين من الخبر فتحت (الشنطة) وأخرجتُ منها أصابع الموز ، فلما رأوْها صار عندهم عَيْنُ اليقين بهذه القضية ، لكن لعله شيء آخر غير الموز أو نموذج من مادة أخرى ، فأخذنا الموز وقطّعناه وأكلنا منه فتحوَّلت المسألة إلى حق اليقين .

وهذه المراحل الثلاث ذُكرَتْ فى القرآن الكريم فى سورة التكاثر : ﴿ كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (٥) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (٦) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ (٧) ﴾ [التكاثر] وفى سورة الواقعة : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ (٩٥) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٩٦) ﴾ [الواقعة]

﴿ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزۡقٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَتَصۡرِيفِ(١) ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ (٥) ﴾

(١) تصريف الرياح : تحويلها من جهة إلى جهة . قال ابن منظور فى لسان العرب [مادة صرف] : تصريف الرياح جعلها جنوباً وشمالاً وصَبا ودبوراً فجعلها أنواعاً وضروباً فى أجناسها .

أى : من آياته الكونية الدالة على قدرته تعالى اختلافُ الليل والنهار ، وفى آيات أخرى عرفنا أن الليل وحده آية والنهار وحده آية ، والكلام هنا عن اختلاف الليل والنهار ، ومجرد اختلافهما آية من آيات الله .

فالليل والنهار مختلفان من عدَّة وجوه : مختلفان فى ظلمة الليل ونور النهار ، ومختلفان طولاً وقصَراً ، وكذلك مختلفان فى المهمة ، وهما ظرفان لزمن الأحداث ، وقد يطول الليل ويقصر النهار ، أو يطول النهار ويقصر الليل ، ثم يتساويان فى المدة .

فمثلاً نجد الليلَ يطولُ فى الشتاء ويقصر فى الصيف ، وهذا لحكمة ، فنحن نعمل طوال يوم الشتاء حيثُ اعتدال الجو الذى يساعد على العمل ؛ لذلك نحتاج إلى فترة أطول للراحة ، فنجد ذلك فى ليل الشتاء الطويل .

ثم لو نظرتَ إلى الليل والنهار بصورة أوسع تشمل الكرةَ الأرضية كلها وجدتَ أنهما مُتداخلان ، فالنهار عندك ليلٌ عند غيرك ، والليل عندك نهارٌ عند غيرك ، فهما موجودان معاً ، لكن فى أماكن متباعدة من الأرض .

وهكذا تجد كلَّ لحظة من لحظات الزمن يبدأ فيها ليلٌ وينتهى نهار ، أو يبدأ فيها نهارٌ وينتهى ليل ، إذن : هى حركة دائرة لا تنتهى ، ومواقيت مختلفة فى الزمن كله .

فلو أخذنا مثلاً الأذان لوجدناه يدور فى كلِّ لحظة من لحظات الزمن بكلِّ لفظ من ألفاظه ، ففى اللحظة التى تقول فيها (الله أكبر) غيرك يقول (أشهد ألا إله إلا الله) وغيرك يقول (أشهد أن محمداً

رسول الله) وهكذا .

والأمر كذلك فى الصلاة ، فحين تُصلى الظهر ، غيرُك يصلى العصر ، وغيرُك يصلى المغرب ، وآخر يُصلى العشاء فى اللحظة ذاتها . إذن : نستطيع أنْ نقول بوجود كلِّ الأوقات فى كلِّ الأوقات ، وأن الحق سبحانه يُعبد فى كلِّ لحظة بكلِّ أنواع العبادات ، وأن ألفاظ الأذان دائرةٌ فى سَمْع الدنيا كلها ، تستوعب كلَّ الزمان وكلَّ المكان .

وهذا كلُّه من اختلاف الليل والنهار طُولاً وقِصَراً ، والطول والقِصَر ناتج عن حركة الشمس ، وهذه مسألة أخرى تحتاج إلى دقّة فى الملاحظة ، فالشمس حين تشرق عندك تغيب عند غيرك ، فكلُّ مشرق عند قوم مغربٌ عند آخرين .

وهذه تفسر لنا قوله تعالى : ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ (١٧)﴾ [الرحمن] فقال مشرقين ومغربين ، لأن المشرق عندك مغرب عند غيرك فى نفس الوقت .

فإذا نظرتَ إلى امتداد الزمان فى جزئياته الدقيقة بالثانية وجدتَ مشارق ومغارب ، كما قال سبحانه : ﴿بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ .. (٤٠)﴾ [المعارج] فإذا نظرتَ إلى المكان الواحد وجدتَ مشرقاً ومغرباً ، وقد قال سبحانه ﴿رَّبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ .. (٩)﴾ [المزمل] إذن : فهو صادق فى كُلِّ ما أخبرنا به سبحانه .

ومن آيات الليل والنهار أيضاً أن الله جعلهما خِلْفةً ، يعنى : الليل يخلُف النهارَ والنهارُ يخلُف الليلَ ، قال تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً (٦٢)﴾ [الفرقان]

وقد فهمنا من هذه الآية أن الأرض كُروية ، فـهذه النظرية العلمية الحديثـة أثبتهـا القرآنُ وسبق بهـا ، فمعنى أن الليلَ والنهـار خلفةٌ أن الأرض مثـل الكرة بحيث فى الخَلْق الأول خُلقـت الأرض مواجهـةً فى ناحية منها للشمس .

فكانت هذه الناحـية النهار والمـقابلة لهـا الليل ، إذن : خُلِقَ الليل والنهـار معـاً ، ووُلدا معـاً ، ثم لما دارتْ الأرضُ خلفَ الليلُ النَـهارَ ، وخلفَ النهارُ الليلَ ، ولو لم تكن الأرض مُكوَّرَة ما حدث هذا .

وهذه الحـقيـقة أكَّـدها الحق سبـحانه بصـورة أوضـح فى قـوله تعالى : ﴿لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ۝٤٠﴾ [يس] لأن العـرب كانوا يعـتقـدون أن الليل أسـبقُ من النهــار ، لذلك كـانوا يُؤرِّخـون للمنـاسك بدورة القـمـر ، فالشـمس نعرف منها اليـوم ، والقمر نعـرف منه الشهر ، ومن الشـهر تكون السنة .

كذلك رمضان يثبتُ بليله لا بنهاره ، لأنه يعتمد على ظهور الهلال ؛ لذلك اعتقدوا أن الليلَ أسبقُ من النهار فصوَّب لهم القرآن هذا الاعتقاد فقال : ﴿وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ .. ۝٤٠﴾ [يس] فوافقهم فى أن النهار لا يسبق الليل وعدَّل لهم ﴿وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ .. ۝٤٠﴾ [يس]

إذن : خُلقـا فى وقت واحـد ، وهذا لا يكون أبداً إلا إذا كـانتْ الأرضُ مكوَّرَة . فلا سبْقَ لأحدهما على الآخر .

وقوله سبحانه : ﴿وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا .. ۝٥﴾ [الجاثية] أنزل الله من السمـاء آيات كثيـرة منها المادى ومنها المعنوى ، المعنوى هو الكتاب الذى أنزله علَى رسول الله

لهداية الخلق ، والمادى مثل المطر وسماه رزقاً لأنه سببُ الرزق حين ينزل على الأرض فيُحييها بالنبات والثمار .

وكل رزق جاء من جـهة العلو الخالقـة فهو مُنزَّل ، حـتى لو كان فى باطن الأرض ؛ لذلك قال سبحانه عن الحديد : ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ .. (٢٥)﴾ [الحديد] لذلك جعله الله أداةً لإثبات قدرته تعالى للمعاندين للدين ، فقال فى ختام الآية : ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ .. (٢٥)﴾ [الحديد]

وقوله : ﴿مِنَ السَّمَاءِ .. (٥)﴾ [الجاثية] معلوم أن السماء ليستْ محـلاً للماء ، الماء فى السـحاب وهو كمـا قلنا ضاحيـة من ضواحى الأرض وتابعٌ لهـا ، أما السـمـاء فـشـىء آخر أبعـد من أنْ يتصـوّره العقل ، والمراد : من جهة السماء .

والمتأمل فى دورة الماء فى الطبيعة يجد أنه فى الأرض حيث ثلاثة أرباع الكرة الأرضيـة ماء ، وغالبه المـاء المالح ، وهذا لحكمة أنَّ نسـبة الملح فى المـاء تحـفظه من التغـيُّـر والعطن ، وبالبخـر تتكوَّن السُّـحُب وينزل المطر يحمل الماء العَذْب الصالح للشرب وللزراعة وغيرها .

ومن آيات الله فى الماء أنْ تتـسعَ رقعة المـاء المالح لتتسع رقـعة البخر ، وبالتـالى تزيد مساحة تبخُّر المـاء العَذْب الذى يكفى بعد ذلك لحـيـاة الأحـيـاء على الأرض ، ثم تجـد مُلوحـة المـــاء فى البـحـار والمـحيطات بالـقدر المناسب الذى يـحفظ المـاء من الفـساد ويسـمح بمعيشة الأسماك والحيوانات البحرية الأخرى .

ولو زادتْ الملوحة عن هذا الحد لماتتْ فيها الثروة السمكية ، كما نجد مثلاً فى البـحـر الميت ، حيث تزيد فيه نسـبة الملوحة لأنه مُغلَق

ولا يأتيه مَدَدٌ من روافد أخرى تُقلِّل من ملوحته .

ولنعرف قدرة الله فى إنزال الماء العذب من السحاب هذا الماء الذى يكفى للشرب ولزراعة الأرض ، انظر كم تتكلَّف زجاجة الماء المقطر حين تُعدُّها فى المعمل ، هذا الماء ينزل لك من السماء عَذْباً صافياً زلالاً[1] دون مجهود منك ودون نفقات .

هذا الماء فى حَدِّ ذاته آية من آيات الله ، لأن به تكون الحياة ، لذلك سمَّاه القرآن رزقاً ، البعض قال : يعنى سبب فى الرزق والبعض قال : لا بل هو نفسه رزق ، هو سبب فى الرزق حينما نروى به الزرع ، لكن هو رزقٌ حينما نشربه أو نُدخله فى الطعام .

وقوله : ﴿ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا .. ﴿٥﴾ ﴾ [الجاثية] وهذه آية أخرى ، والأرض الميتة هى الجرداء القاحلة التى لا نبْتَ فيها ، فالله يُحييها بالنبات كما قال فى آية أخرى : ﴿ وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ[2] .. ﴿٥﴾ ﴾ [الحج]

ثم ينتقل إلى آية أخرى ﴿ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ .. ﴿٥﴾ ﴾ [الجاثية]

تصريف الرياح يعنى : تغيير اتجاهها من هنا إلى هناك ، أو تغيير أحوالها ، فهى مرة نسيم لطيف ، ومرة ريح عاصف ، ومرة تكون حارة ، ومرة باردة ، مرة مُعمِّرة ومرة مدمرة . هذه كلها أحوال للرياح يُصرِّفها خالقها عز وجلّ كيف يشاء ، ولا يُصرِّفها غيره .

---

(١) الماء الزلال السريع النزول والمرّ فى الحلق . وماء زلال : بارد . وقيل : عذب . وقيل : صاف خالص . وقيل : الزلال الصافى من كل شىء . [لسان العرب - مادة : زلل] .

(٢) اهتزت وربت : شبَّه الله الأرض التى تهيأت لإنبات الزرع بالإنسان الحى يهتز وينشط ويتحرك حركة الحياة والعمل لإنتاج الخير أو بذل المعروف .

وحين تُدقِّق وتتأمل فى عملية تصريف الرياح تجد فيها مظهراً من مظاهر الإعجاز للخالق سبحانه ، انظر إلى هذه الأبراج وناطحات السحاب ، واسأل نفسك مَنْ يقيم هذه الأبنية العملاقة ؟ ومَنْ يسندها فلا تميل رغم هبوب العواصف عليها ؟

الذى يسندها هو الهواء الذى يحيط بها من كُلِّ ناحية ، ولو فرَّغْتَ جانباً منها من الهواء لانهارتْ فى هذا الجانب الفارغ من الهواء .

إذن : الهواء هو الذى يحفظ توازنها ، لذلك ساعة تجد القرآن يستعمل كلمة (الريح) بصيغة الجمع فاعلم أنها للعَمَار وللخير ، وساعة تكون مفردة فهى للدمار وللخراب .

الريح الواحدة تُدمر ، والرياح تسند وتُعمر ، لأن هذه تأتى من ناحية واحدة ، وهذه تأتى من جميع النواحى فتحدث التوازن المطلوب .

واقرأ هنا فى سياق الحديث عن آيات الله وتعداد نعمه : ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ .. ۝٥﴾ [الجاثية] وفى آية أخرى قال سبحانه : ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٢٤ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا .. ۝٢٥﴾ [الأحقاف] وقال : ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ[1] الْعَقِيمَ ۝٤١ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ۝٤٢﴾ [الذاريات]

وقوله : ﴿آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٥﴾ [الجاثية] لأن العقل هو الذى يستقبل الأحداث ويناقشها ويُفاضل بين القضايا ، ويستخلص منها الحقَّ ، ويُلقيه إلى القلب فيصير عقيدةً راسخة لا تقبل الشَّكَّ .

---

(١) الريح العقيم : الريح التى لا خير فيها بل هى تهلك وتدمر [القاموس القويم ٢/ ٣١] وقال فى لسان العرب : هى ريح لا تلقح الشجر ولا تنشىء سحاباً ولا تحمل مطراً . [مادة عقم] .

ورحم الله الفخر الرازى[١] الذى أجرى مقارنة علمية دقيقة بين هذه الآيات فى الجاثية بداية من قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٣) ﴾ [الجاثية] إلى ﴿ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٥) ﴾ [الجاثية] وبين الآية ١٦٤ من سورة البقرة :

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٦٤) ﴾ [البقرة]

أولاً وجد الاختلافَ الأول بين الموضعين أن الجاثية فيها ﴿ إِنَّ فِي السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. (٣) ﴾ [الجاثية] أما البقرة ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. (١٦٤) ﴾ [البقرة] وهما بمعنى واحد ، لأن الخَلْق حدثُ الإيجاد ، فالحدث نفسه يسمى خَلْقاً ، ويطلق أيضاً على المخلوق بدليل قوله تعالى : ﴿ هَٰذَا خَلْقُ اللَّهِ (١١) ﴾ [لقمان] أى : مخلوقه .

إذن : المعنى فى الموضعين واحد .

ثانياً : عدَّ الآيات الكونية المذكورة فى الجاثية فوجدها ست آيات ، وفى البقرة ثمانى آيات ، فلما بحث الزيادة فى البقرة وجدها فى قوله تعالى : ﴿ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ .. (١٦٤) ﴾

---

(١) هو : محمد بن عمر أبو عبد الله فخر الدين الرازى ، إمام مفسر ، قرشى النسب ، ولد ٥٤٤ هجرية ، أصله من طبرستان ومولده فى الرى (هى طهران الآن) توفى فى هراة عام ٦٠٦ هجرية ، له تفسيره (مفاتيح الغيب) و (معالم أصول الدين) و (محصل أفكار المتقدمين) .

[البقرة] ﴿ والسَّحاب الْمُسخَّر بيْنَ السَّماء والأَرْض .. (١٦٤) ﴾ [البقرة]

فقال : هاتان الآيتان فى الفلك وفى السحاب أغنى عنهما قوله تعالى فى الجاثية ﴿ وتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ (٥) ﴾ [الجاثية] لأنهما يجريان بحركة الرياح .

الاختلاف الأخير بين الموضعين أن آية البقرة خُتمتْ بمقطع واحد هو ﴿ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٦٤) ﴾ [البقرة] أما آيات الجاثية ففيها ثلاثة مقاطع هى : ﴿ لآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٣) ﴾ [الجاثية] ﴿ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٤) ﴾ [الجاثية] ﴿ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٥) ﴾ [الجاثية]

المؤمن ساعة يسمع من الله يُصدِّق ويؤمن بما أخبر الله به ، واليقين يكون لدى طالب الحقيقة الذى يبحث عنها فى قضية علمية يريد أن يصل إلى اليقين من خلالها .

والإنسان إذا لم يكُنْ مؤمناً واثقاً ولا طالباً للحقيقة فلا أقلَّ من قَدْر من العقل يُميِّز به بين الأشياء ، ويعرف به ماذا يأكل ؟ وماذا يشرب ؟ وماذا يأخذ ؟ وماذا يدع .

إذن : هذه المقاطع الثلاثة تمثل مراحلَ الإدراك السليم . والتعقُّل هو أدْنى مرتبة ، لذلك خُتمَتْ بها آية البقرة(١) .

﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ ﴾

(١) قال الرازى بعد عقد المقارنة : أنه تعالى ذكر فى سورة الجاثية ثلاثة مقاطع أولها (يؤمنون) وثانيها (يوقنون) وثالثها (يعقلون) وأظن أن سبب هذا الترتيب أنه قيل : إن كنتم من المؤمنين فافهموا هذه الدلائل ، وإن كنتم لستم من المؤمنين ولا من الموقنين فلا أقل من أن تكونوا من زمرة العاقلين فاجتهدوا فى معرفة هذه الدلائل .

﴿تِلْكَ .. (٦)﴾ [الجاثية] إشارةٌ إلى آيات القرآن ، أو إلى الآيات الكونية التى سبقتْ ﴿نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ .. (٦)﴾ [الجاثية] والحق كما قلنا هو الشىء الثابت الذى لا يتغيَّر ويقابله الباطل ، الحق هو الحكم بقضية مطابقة للواقع ، والباطل الحكم بقضية مخالفة للواقع .

لذلك قلنا : إن شاهد الحق لا تتغيَّر أقواله مهما أعدْتَ عليه السؤال ، أما شاهد الزور فهو لا بدَّ أنْ يُغيِّر فى أقواله ، ذلك لأن شاهد الحق يُصوِّر واقعاً فيأتى واحداً لا يتغير ، وشاهد الزور يُصوِّر أوهاماً وتخيُّلات فلا بدَّ أنْ تتغيَّر .

لذلك الحق سبحانه يريد منَّا أنْ نأخذَ بالحقِّ ، وأن نجعله مقياساً للأشياء كلها كما نتخذ المتر مثلاً وحدةً للقياس ولا نخرج عنها .

يريد منا أنْ نحكم بالحقِّ وأنْ نجعله أساساً فى بناء الأشياء ، فالساعة لا تضبط لك التوقيت إلا إذا كانتْ هى فى ذاتها منضبطة .

لذلك قال تعالى فى آيتى الشمس والقمر : ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥)﴾ [الرحمن] يعنى : مخلوقان بحساب دقيق ، ولأنهما خُلِقا بحسبان جعلهما الله تعالى آلةً لحساب الزمن ، فالشىء الذى تعتبره مقياساً لا بدَّ أنْ تقيسه أولاً على الحق وتُقيمه على الحق .

لذلك أخبر سبحانه أنه خلق السماوات والأرض بالحقِّ ، فهى تسير بميزان دقيق محكم لا يتخلف أبداً منذ خلق اللهُ هذا الكونَ وإلى قيام الساعة .

وقلنا : لأن الحق هو الشىء الثابت الذى لا يتغيَّر فهو الباقى ، وهو المنتصر ، وهو الذى يعلو فى نهاية الصراع ، وإنْ علاَ الباطل فلحين وليعطىَ فرصةً للباطل حتى يعضَّ الناس ويَشْقى به المجتمع فيعود الناسُ إلى ساحة الحق .

لذلك نقول : إن الباطل جندىٌّ من جنود الحق ، وإذا كان الإسلامُ قد عَلاَ فى جزيرة العرب لإعجاز القرآن ، فكيف علاَ وانتشر فى بلاد فارس والروم .

قالوا : لأنهم كانوا فى ذلك الوقت مقهورين بالباطل ، فلما رأوا عدل الإسلام وسماحته أسرعوا إليه ؛ لذلك فتح الإسلامُ نصف الدنيا فى نصف قرن من الزمان ، لأن الناسَ كانت مُتشوِّقة إلى مثل هذا الدين الحق .

والحق سبحانه يريد أنْ يعطينا صورة محسوسة تُصوِّر الحق وتصور الباطل فى لوحة واحدة ، فيقول عز وجل : ﴿ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا[1] وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً[2] وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ (١٧) ﴾ [الرعد]

وقوله سبحانه : ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ (٦) ﴾ [الجاثية] يعنى : إذا لم تقنعهم كلُّ هذه الآيات الكونية وكلُّ هذا

---

(١) زبد الماء : ما يعلوه عند جيشانه واضطرابه من الرغوة وحطام الأشياء . [القاموس القويم ٢٨٣/١] .

(٢) فيذهب جفاء : أى لا ينتفع به بل يتفرق ويتمزق ويذهب فى جانبى الوادى ويعلق بالشجر وتنسفه الرياح . [تفسير ابن كثير ٥٠٨/٢] .

الإعجاز ، وإذا لم يقنعهم كلام الله فبأىٍّ شىء يؤمنون بعد ذلك .
إذن : المسألة بالنسبة لهم عناد ولَدد ، فإذا لم يُقنعهم حديثُ الله فأىُّ حديث بعده يقنعهم .

ونسألهم : أهناك حديث أصدق من حديث الله ؟ أو إخبار أصدق من إخباره ؟ إنه سبحانه يتودَّد إليكم ببيان آياته فى كونه لتؤمنوا وليأخذ بأيديكم إلى ساحة الإيمان وهو الغنى عنكم ، فقط يحرص عليكم لأنكم عباده وصَنْعته ويريدكم فى أحسن حال .

لذلك أرسل لكم الرسل ، وأنزل لكم الكتب ، وبيَّن لكم الحلال والحرام والحق والباطل فَلِمَ اللدد ؟ ولِمَ العناد فى الإيمان ؟

مع أن الإيمان بالله شَرَفٌ ، والعبودية له سبحانه عزة ، كلمة عبودية كلمة ممقوتة تدل على الذلة والانكسار ، أما مع الله فهى شرف وكرامة وعزة .

﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ ﴾

كلمة (ويل) قالوا : وَاد فى جهنم ، أو هلاك لا مفرَّ منه ولا نجاة ، وكلمة الويل تختلف حَسَب قائلها المنذِر بها ، فحين يقول لك واحد مثلك : ويلٌ لك . تتوقع أن يكون الويل على قدره ، ويتناسب مع قدرته عليك ، وتمكّنه من تنفيذ ما هدَّدك به من بطشه وفتكه .

فإذا كان المتكلم بذلك التهديد هو الحق سبحانه فهمنا أنه هلاكٌ مُحتَّم لا قِبَلَ لأحد به ، وويل كبير لا يُردُّ ولا يُدفع .

فلمَن هذا التهديد ؟ ﴿ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ .. ﴿٧﴾ ﴾ [الجاثية] الأفَّاك من الإفك ، وهو قَلْب الشيء على وجهه أو قلْب الحقائق عَمْداً ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ ﴾ [النجم] وهى القرى التى قَلَبها الله تعالى رأساً على عقب وجعل أعلاها سافلها .

ومن ذلك أيضاً قصة الإفك فى حَقِّ السيدة عائشة ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ .. ﴿١١﴾ ﴾ [النور] إذن : الإفك هو أفظع أنواع الكذب ؛ لأنه كذب متعمد يصرف الناسَ عن الحق إلى الباطل .

وهو لا يضر واحداً ، إنما يقع ضرره على جَمْع من الناس فشرُّه يتعدَّى ويلزمه عقوبة تناسب هذا التعدِّى على الخَلْق ، لذلك ساعة تسمع كلة (ويل) فاعلم أنها لذنب كبير .

وكلمة ﴿ أَفَّاكٍ .. ﴿٧﴾ ﴾ [الجاثية] صيغة مبالغة على وزن فعَّال ، ولو كذب مرة واحدة لكان (آفِك) إنما تكرر منه هذا الذنب حتى بالغ فيه ومثله فى المبالغة ﴿ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ ﴾ [الجاثية] يعنى : كثير الإثم . فهى صيغة مبالغة أيضاً على وزن فعيل . أى : مُبالغ فى الآثام . تقول : آثم وأثيم . مثل : عالم وعليم .

فالمرء لو فهم علماً من العلوم سُمِّى عالم ، أما عليم فيعنى العلم فى ذاته ، لذلك لا تُقال إلا لله تعالى ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ ﴾ [يوسف] فكأن هذا الآثِم قد تمرَّس فى الإثم حتى صار طبعاً له وديدناً .

ثم يصف الحق سبحانه هذا الأفاك الأثيم ، فيقول : ﴿ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا .. ۝٨ ﴾ [الجاثية] كأن الحق سبحانه يريد أنْ يُعرفنا الإفك على حقيقته ، فالكذاب يكذب على مثله ، أو يكذب على أسرة أو جماعة ، لكن هذا يكذب على الدنيا كلها حين يُزوِّر الحقائق ويقلبها وهو متعمد .

وهذا معنى ﴿ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا .. ۝٨ ﴾ [الجاثية] ولذلك فى القانون يقولون مع سَبْق الإصرار والترصدُّ ﴿ مُسْتَكْبِرًا .. ۝٨ ﴾ [الجاثية] أى : متعالياً على الحق .

وفى الحديث الشريف « الكبر بَطر الحقِّ ، وغَمْط الناس[1] » فهو يتكبَّر لأنها تأتى له أى الآيات بواسطة من كان يعتقد أنه دونه ، وبذلك اعتدى على الحق واعتدى على مُحقٍّ ، كما حكى القرآن عنهم : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ۝٣١ ﴾[الزخرف]

إذن : المشكلة عندهم ليستْ فى القرآن ، لأنهم أهل فصاحة وبلاغة ويعلمون إعجاز القرآن وصدْقه لكن يحسدون الرجل الذى جاء القرآنُ على يديه ، يقيسونه بمقاييس الجاه والثراء عندهم .

فالرسالة فى نظرهم ينبغى أنْ تأتىَ على يد رجل غنى من عظماء القوم وأهل السيادة ، وهذا عجيبٌ منهم لأن رسول الله ﷺ كان له مكانة عظيمة بينهم قبل البعثة ، وكانوا يتحدثون بصدقه وأمانته ،

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٣١) باب تحريم الكبر من حديث عبد الله بن مسعود بلفظ (غمط الناس) وعند أبى عوانة (حديث ٦٨) (غمص الناس) وفى مسند الشاميين (حديث ٧٢٨) (غمض الناس) بالضاد . والغمص إذا لم يشكر النعمة واستصغر الشىء واحتقره ولم يره شيئاً ، ومثله غمط . [الصحاح فى اللغة] .

بدليل أنهم حكَّموه[1] فى أمر الحجر الأسود حينما أرادوا وضعه فى مكانه واختلفوا عليه ، فالتناقض فى مواقفهم نحوه ظاهر ، كانوا يقولون عنه ساحر وكاهن وكذاب وشاعر ، فلما فَتَر عنه الوحى قالوا : إن رب محمد قلاه[2] .

وقوله تعالى : ﴿ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ⑧ ﴾ [الجاثية] معلوم أن البشارة إخبارٌ بخير قبل أوانه ، وسمَّاها بشارة لأنها تُظهر البِشْر والسعادة على الوجوه ساعة تسمع خبراً يسرُّك ، فاستخدام البشارة فى العذاب تكون على سبيل التهكُّم والسخرية وهى لَوْنٌ من ألوان العذاب والإهانة ، مثل رجل كان يحثُّ ولده على المذاكرة والجد ، ولكن الولد خالف أوامر أبيه ، فلما ظهرتْ النتيجة وجد ولده راسباً فقال له : أبشر لقد رسبت ، يريد أنْ يتهكَّم به ويعاقبه على إهماله .

﴿ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ⑨ ﴾

لأنه بعد أنْ أصرَّ على الإعراض عن آيات الله ، وبعد أنِ استكبر عليها لا بدّ أنْ يعود فى لحظة ما إلى نفسه ويُعمل عقله فيما يسمع

---

(١) أورده ابن كثير فى السيرة النبوية (١/٢٧٣) قالوا : نُحكِّم بيننا أول رجل يخرج من هذه السكة ، فكان رسول الله أول من خرج عليهم فقضى بينهم أن يجعلوه فى مرط ثم ترفعه جميع القبائل كلهم .

(٢) ذكره الطبرى فى تفسيره من قول قتادة فى قوله تعالى : ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ③ ﴾ [الضحى] قال : أبطأ عليه جبريل فقال المشركون : قد قلاه ربه وودَّعه . وكذا ذكره عن الضحاك .

فيصله بعض العلم عن آيات الله ﴿ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا ..(٩)﴾ [الجاثية] جعلها مجالاً للسخرية والاستهزاء ﴿ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (٩)﴾ [الجاثية] وقبل ذلك بشَّره رب العزة بأن له عذاباً أليماً .

وهذه ألوان مختلفة من العذاب والعياذ بالله ، فالعذاب الأليم الذى يُؤلم الحواسَّ ويُوجع وتتألم له المادة والأعضاء ، وهذا غير العذاب المهين ، فالجهة كما يقولون مُنفكَّة ، والعذاب المهين هو عذاب النفس حيث يُهينها ويُذلّها ويهدم كرامتها ، لأن بعض الناس قد لا يُؤلمه الضرب الحسِّى ولكن يُؤلمه أنْ تجرح كرامته ولو بكلمة .

وهناك فى آيات أخرى (عذابٍ عظيم) يعنى : مبالغ فيه ، وهكذا جمع عليهم الحق سبحانه كلَّ ألوان العذاب جزاء استكبارهم ولددهم وعنادهم فى آيات الله ، وهى أوضح من أنْ ينكرها منكر .

وهنا استخدم المصدر ﴿ هُزُوًا (٩)﴾ [الجاثية] ليدل على المبالغ ، وأن الاستهزاء أصبح صفةً لازمة له لاصقة فيه كما نقول : فلان عادل ، وفلان عدل كأنك جعلْتَه هو والعدل شيئاً واحداً .

وفى الآية دليلٌ على أن الإنسان إذا تجرَّد للحق وأخْلى فكره ثم فكَّر بعقله فى الأشياء بموضوعية لا بدَّ أنْ يصلَ إلى الخيط الذى يُوصِّله إلى الحق ، فالعودة الصادقة إلى النفس تُؤدى إلى الحق .

لذلك الحق سبحانه يُعلِّم الناس كيفية التفكير السليم وكيفية البحث عن الحق ، فيقول : ﴿ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ..(٤٦)﴾ [سبأ] يعنى : اتركوا

تفكير الجماهير وتعصُّبهم لأنه غير مُنظم ، يؤدى إلى فوضى يتوه فيها الحق .

والفكر عمل العقل ، والعقل هو السلطان الذى يعصمك من الآراء الضالة ويُرشدك ويأخذ بيدك إلى الحق ، والعقل حتى فى اسمه من العقال الذى يعقل الدابة حتى لا تشرد من صاحبها ، كذلك العقل يعقل صاحبه .

إذن : هؤلاء لما عادوا إلى أنفسهم واستعملوا عقولهم عقلوا ووصلوا إلى شىء من الحق ، لكن كبرياءهم وعنادهم منعهم من اتباعه ، وأدلُّ شىء على ذلك قول بعضهم لبعض : ﴿ لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (٢٦) ﴾ [فصلت]

ولولا أنهم واثقون من صدق القرآن وتأثيره فى النفوس ما قالوا هذا الكلام ، لكن أسلوب القرآن أسَرهم وتغلغل فى أعماقهم ، ولو تركوا أنفسهم على طبيعتها لآمنوا ، لكنهم استقبلوا القرآن بنفوس تملؤها نوازع الشر وحُب الانفلات من قيود المنهج الحق الذى أتى به هذا القرآن .

﴿ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا شَيْـًٔا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَآءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾

كلمة (وراء) فى اللغة لها معان متعددة ، أوضحها فى المعنى قوله ﴿ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ .. (١٨٧) ﴾ [آل عمران] يعنى : خلف ظهورهم . وهذا هو المعنى المشهور لكلمة وراء .

لكن تأتى بمعنى الشىء الذى سيأتيك فى المستقبل كما فى هذه

الآية ﴿مِن وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ .. ﴿١٠﴾﴾ [الجاثية] فهى تنتظرهم فى المستقبل .

وتأتى (وراء) بمعنى أمام[1] كما فى قوله تعالى فى آية الكهف : ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾﴾ [الكهف] فأحداث القصة تقول أن الملك كان ينتظرهم على الشاطئ ليستولى على كل سفينة صالحة فهو أمامهم لا وراءهم .

والوراء هو الشئ الذى يوجد دونه ما يُواريه ، والذى يُوارى العلم إما حجاب الزمان وإما حجاب المكان ، فنحن مثلاً نجلس الآن فى مكان واحد ، ويرى كلٌّ منا الآخر لكنَّا لا نرى مَنْ هو خارج هذا المكان ، فالذى يواريه عنا إذن حجاب المكان .

ولما أحدثك عن المستقبل تجد الزمن المستقبل أيضاً محجوباً عنك بحجاب الزمن المستقبل ، كذلك فى الزمن الماضى حجبه عنك حجاب الزمن الماضى .

وعِلْم الحق سبحانه يخرق كلَّ هذه الحجُب ، والزمن عنده سواء الماضى أو الحاضر أو المستقبل ، لذلك يأتى بالماضى ، ويتحدث عنه كأنه حاضر ، ويقول سبحانه مخاطباً نبيه محمداً ﷺ : ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ[2] أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [آل عمران]

---

(١) قال ابن الجوزى فى زاد المسير [الكهف ٧٩] : فيه قولان :
أحدهما : أمامهم . قاله ابن عباس وقتادة وأبو عبيدة وابن قتيبة .
الثانى : خلفهم . قال الزجاج : وهو أجود الوجهين . فيجوز أن يكون رجوعهم فى طريقهم كان عليه ولم يعلموا بخبره فأعلم الله تعالى الخضر خبره .

(٢) الأقلام : سهام الاقتراع . وهو جمع قلم : سهم أو خشبة تشبهه يكتب عليه رمز يدل على مقداره يُعطى لمن يخرج باسمه . [القاموس القويم ٢/١٣٢] .

لذلك يخرق حجاب الزمن المستقبل كما فى قوله سبحانه فى الصراع بين فارس والروم : ﴿الٓمٓ (١) غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بِضْعِ سِنِينَ ..(٤)﴾ [الروم] لأن المسلمين حزنوا لانتصار فارس على الروم .

فالفرس كانوا مجوساً ليس لهم علاقة بالسماء ، أما الروم فكانوا أهلَ كتاب ، ويؤمنون بالرسل ، فكان حَظُّ الإسلام أنْ ينتصر الرومُ فبشَّرهم الله بذلك الانتصار قبل أنْ يحدث ببضع سنين ، والبضع فى اللغة من ثلاث إلى تسع سنين .

فالحق يخبر نبيه بأحداث المستقبل فى قرآن يُتلَى ويُتعبَّد به فى كلِّ صلاة ، فكيف يُعلن الرسولُ هذه البشارة ويسمعها الناسُ فى فارس وفى الروم ؟ إذن : يعلنها وهو واثق أنها حَقٌّ وصِدق ، ولا بدَّ أنْ تتحقق .

هذا خَرْق لحجاب المستقبل ، وفعلاً بعد بضع سنين انتصر الروم على فارس ، وصادف ذلك انتصارَ المسلمين على الكافرين فى بدر ، فقال سبحانه : ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ ..(٥)﴾ [الروم]

فقوله سبحانه : ﴿مِن وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ ..(١٠)﴾ [الجاثية] يعنى : تنتظرهم فى المستقبل ، فهى أمامهم وهذا من خَرْق حجاب الزمن المستقبل .

﴿وَلا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا شَيْئًا ..(١٠)﴾ [الجاثية] يعنى : لا يدفع عنهم شر ما هم فيه بسبب ما اكتسبوه فى الماضى من عبادة الأصنام وتأليه لخَلْق الله ، وهل يغنى الصنم عن عابده وهو الذى صنعه ؟ وهو الذى يقيمه إذا قلبه الهواء وأطاح به ؟ كذلك مَنْ

عبدوهم من البشر سوف يسبقونهم إلى جهنم . إذن : لا ناصرَ لهم ولا دافعَ عنهم .

واستخدم هنا الفعل المجرد (كسب) فى الشر ، ولم يقل اكتسبوا . وسبق أنْ بينَّا أنَّ كسب للخير واكتسب للشر ، لأن الخير والطاعة تأتى طبيعية لا افتعال فيها ، على عكس المعصية فهى تحتاج إلى افتعال واحتيال .

ولا تُستخدم (كسب) فى الشر إلا إذا أصبح الشرُّ عادة وأخذ عند صاحبه حكم الكسب ، فلم يَعُد يأنف منه وهَانَ عليه أنْ يقع فيه مرة بعد مرة حتى أصبح الشر عادته .

فقال ﴿ مَّا كَسَبُوا .. ﴿١٠﴾ ﴾ [الجاثية] أى : من الشر ﴿ وَلا مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾ [الجاثية] أى : الآلهة التى عبدوها من دون الله ، كذلك هى لا تُغنى عنهم ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾ [الجاثية] فالأمر لا ينتهى عند خذلانهم وعدم الدفاع عنهم ، بل ولهم عذاب عظيم . يعنى : شديد ومُبالغ فى الإيلام .

﴿ هَٰذَا هُدًى ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾

﴿ هَٰذَا .. ﴿١١﴾ ﴾ [الجاثية] إشارة إلى الهدى ، وهو المنهج الذى جاء به سيدنا رسول الله ﷺ فى هذا القرآن ، والهدى هو الذى يهديك يعنى يدلُّك على الطريق الموصِّل للغاية من أقرب الطرق وأسهلها وأكثرها أمناً دون مشقة على النفس .

وفى أول سورة البقرة ﴿أُولَـٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ .. ⁽٥⁾﴾ [البقرة] فكأن الهدى مَركب يحملك إلى غايتك ، ودابة تسير بك حتى تنجيك .

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ .. ⁽١١⁾﴾ [الجاثية] قال (ربهم) مع أنهم كافرون به ، لأنه تعالى رَبٌّ يتودَّد إليهم حتى مع كفرهم وجحودهم ، وهذا كما قلنا عطاء الربوبية الذى لا يُفرِّق بين مؤمن وكافر فيعطى الكل ويتحنَّن إلى الجميع ، فهم جميعاً عباده وصَنْعته .

﴿لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ⁽١١⁾﴾ [الجاثية] مرة يقول : عذاب أليم ، ومرة ﴿عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ⁽١١⁾﴾ [الجاثية] والرجز هو أشد ألوان العذاب ، والعذاب إيلام الحيِّ .

وكلمة (العذاب) هذه حلَّتْ كثيراً من الإشكالات بين العلماء ، حيث قال البعض : إنه لا يوجد رَجْم فى القرآن إنما يوجد الجَلْد ، واستدلوا بقوله تعالى فى الأمة : ﴿فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ .. ⁽٢٥⁾﴾ [النساء]

الكلام هنا على الحد يُقام على الحرَّة وعلى الأَمَة ، معنى المحصنات يعنى : الحرائر ، فقالوا : إن الرجم لا يُنصَّف والذى يُنصَّف هو الجَلْد ، تُجلد هذه مائة ، وهذه خمسين ، وما دام الرجم لا يُنصَّف . إذن : فى الآية كلام .

ونقول : قد يكون كلامكم صحيحاً إذا قال تعالى ﴿نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ .. ⁽٢٥⁾﴾ [النساء] وسكت ولكنه قال بعدها ﴿مِنَ الْعَذَابِ .. ⁽٢٥⁾﴾ [النساء] والعذاب إيلامُ الحيِّ ولكن الرجم إماتة . إذن : إيلامُ الحيِّ فى أنْ يُجلد ، إنما الرجم يذهب بالحياة فلا تتعذب .

بدليل أن الحق سبحانه لما تكلم عن هدهد سيدنا سليمان - عليه السلام - قال : ﴿ لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ .. (٢١) ﴾ [النمل] إذن : العذاب غير الذبح .

ومعنى ﴿ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ .. (١١) ﴾ [الجاثية] يعنى : ستروها وجحدوها ، إذن : هى موجودة لكنهم أخفوْهَا ، ومثله كفروا بالله يعنى : ستروا وجوده سبحانه ، فالسَّتْر لا يكون إلا لموجود أولاً ثم يُستر ، فكأن الإيمانَ موجودٌ وأصله فى النفس ، ثم يأتى الكفر فيستره .

﴿ اللَّهُ الَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِىَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) ﴾

التسخير يعنى التذليل وأن يكون المسخَّر رَهْنًا لخدمة المسخَّر له ، وزمان كان فى مصر نظام السُّخْرة ، وهو أنْ يعملَ العمال بدون أجر ، فالحق سبحانه سخَّر لنا البحر وذلَّله لخدمتنا ، ولولا ذلك ما استطعنا أبداً ركوبه ، ولا السير فيه ولا الانتفاع به .

ومن تسخير البحر ما عرفناه من قصة سيدنا موسى لما ألقتْه أمه فى البحر تنفيذاً لأمر الله ، قال سبحانه : ﴿ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى الْيَمِّ وَلا تَخَافِى وَلا تَحْزَنِى إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧) ﴾ [القصص]

إذن : صدرت الأوامر إلى البحر أن يلقيه بالساحل ، وألاَّ يأخذه إلى الداخل ، كما قال سبحانه : ﴿ فَاقْذِفِيهِ فِى الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ .. (٣٩) ﴾ [طه]

فالحق سبحانه كما يأمر العاقل يأمر الجمادات فتأتمر وتطيع ،

لذلك قال عن السماء : ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ[1] ﴿٢﴾ ﴾ [الانشقاق]

والتسخير تكليف الشيء تكليفاً قهرياً أنْ يكونَ في خدمة الخليفة وهو الإنسان ، فالكون كله مُسخَّر له . يعني : يطيعه ويأتمر بأمره ، ومن هذا التسخير سخَّر للإنسان جوارحه تُطيع مراده وتنفعل لإرادته انفعالاً تلقائياً سهلاً لا تكُّلفَ فيه

فاللسان ينطق بلا إله إلا الله لمجرد أنْ أردت ذلك وينطق بكلمة الكفر والعياذ بالله أيضاً لمجرد الإرادة ، اليد والعَيْن والرِّجْل ، وكلُّ جوارحك لا تعصى لك أمراً ، تنفعل لك من حيث لا تدرى لأن خالقها سخَّرها لك وذلَّلها لخدمتك .

وقال لها : أطيعى عبدى ، لأننى أريد أنْ أحاسبه بعد أنْ أعطيه الاختيار فى أنْ يفعلَ أو لا يفعل ، ولو كان الإيمانُ قهراً لقهرتُه عليه كما قهرتُ الملائكة ، لكننى لا أريد قوالبَ تخضع ، إنما أريد قلوباً تخشع ، أريدك أنْ تأتى إلىَّ طواعية وأنت قادر على الإعراض والانفلات .

لذلك قلنا : إن السيف فى الإسلام لا ليفرض على الناس عقيدة ، إنما ليحمىَ اختيارهم لعقائدهم ، وبعد ذلك يتشدَّقون بأن الإسلام فُرِضَ بحدِّ السيف ، وهذا غير صحيح بدليل بقاء كثيرين على دينهم بعد الفتح الإسلامى .

والحق سبحانه حينما سخَّر كل شىء فى الوجود لخدمة الإنسان

---

(١) أذنت لربها وحقت : أى استمعت لأمر ربها واستجابت وأطاعت وخضعت راضية . [القاموس القويم ١/ ١٦] . وحقت : أى كان حقاً ثابتاً عليها أن تخضع لأمر الله . [القاموس القويم ١/ ١٦٤] .

قال سبحانه فى الحديث القدسى : « يا ابن آدم خلقت الأشياء من أجلك وخلقتُك من أجلى ، فلا تنشغل بما هو لك عما أنت له »(١) يعنى : لا تنظر إلى عبيدك بل انظر أنت عبد لمن ومَنْ سيدك .

وهذا التسخير للجوارح موقوتٌ بالحياة الدنيا ، أما فى الآخرة فسوف تنطلق الجوارح من هذه القيود وتنفك من هذا القهر وهذا التسخير ، لأنه كان مرتبطاً بإرادة العبد ، وحيث لا إرادة له فى الآخرة .

وأصبحت الإرادة للمريد الأعلى سبحانه ، فلا طاعةَ له ولا خضوعَ لأوامره ، فالأمرُ كله يومئذ لله ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦)﴾ [غافر]

لذلك تتحول الأعضاء والجوارح إلى شهود ، يشهدون بالحق أمام الواحد الأحد ، فاللسان يقول : قُلْتُ . واليد تقول : بطشْتُ . والرِّجْل تقول : مشيتُ . والعينُ : رأيت ، وهكذا .

وقد شبَّهنا هذه المسألة بقائد الكتيبة يأمر الجنود ، فيطيعون حتى لو كان الأمر خطأ ، ثم حين يعودون للقائد الأعلى يقولون حدث من قائدنا كذا وكذا ، ولم نخالف أوامره لأننا مأمورون بطاعة الأوامر ولو خطأ .

والحق سبحانه حينما يُسخِّر لنا جوارحنا وأعضاءنا إنما ليعطينا

---

(١) أخرج أحمد فى مسنده (٢/٣٥٨) عن أبى هريرة رفعه : قال الله : ابن آدم ، تفرغ لعبادتى أملأ صدرك غنى وأسُد فقرك وإلا تفعل ملأت صدرك شغلاً ولم أسد فقرك » . وقد أورده صاحب (إيقاظ الهمم) (١/٢٤٧) وهو بعض الآثار المروية عن الله . وأورده ابن عربى فى الفتوحات المكية بلفظ « أنزل الله فى التوراة : يابن آدم خلقت الأشياء من أجلك وخلقتك من أجلى فلا تهتك ما خلقت من أجلى فيما خلقت من أجلك » .

مثالاً ونموذجاً لقيوميته تعالى على كل شيء ، وأنه إذا أراد شيئاً أنْ يقول له كُنْ فيكون ، فيقول للمكابر : قُلْ لى بالله ما هى العضلات التى تُحركها لتتكلم أو تقوم أو تقعد ؟ ما هى الحركة التى تحدث بداخلك لتفعل ؟ ما الأعصاب التى تشارك فى هذه الحركات ؟

أنت لا تعرف شيئاً عنها ولا تأمرها ، بل مجرد أن تريدَ تنفعل لإرادتك وتطيع ، فإذا كان هذا عطاء الله لك ، ونعمة من نعمه عليك ، فكيف تستبعده فى حَقِّ الله عز وجل ؟ وكيف تنكر أنه إذا أراد شيئاً أنْ يقول له كُنْ فيكون ؟

وأول مظاهر تسخير البحر أنْ جعله الله صالحاً لسيْر السفن على ظهره ، كما قال سبحانه : ﴿ وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ .. (١٤) ﴾ [النحل] وأول سفينة فى الكون هى سفينةُ سيدنا نوح عليه السلام صنعها بأمر الله ووَحْيه إليه ، حيث علَّمه كيفية صناعتها من ألواح ودُسر : ﴿ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ (١٣) ﴾ [القمر]

والسفينة لا تسير على صفحة الماء إلا إذا توفرتْ لها بعض القوانين ، وهذا هو التسخير . أولاً : لا بدَّ أنْ يكون الماء سائلاً ليسمحَ بجريان السفينة حين يُحرِّكها الهواء ويدفعها ، ولو كان جامداً ما حصل السير .

ثانياً : يكون الماء خالياً من اللزوجة . ثالثاً : تكون كثافة الماء أقلَّ من كثافة السفينة ، فلو أخذتَ مثلاً قطعة من المعدن ورميتَ بها فى الماء فإنها تغرق فيه ، إنما لو طرقتَ هذه القطعة وجعلتَها مفلطحة ووسَّعتَ مساحتها فإنها تعوم .

فمن تسخير الله للبحر أنْ جعله صالحاً لسير السفن ﴿ الَّذِى سَخَّرَ

لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِىَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ .. ﴿١٢﴾ ﴾ [الجاثية] كما قال فى موضع آخر : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا .. ﴿٤١﴾ ﴾ [هود]

ومن تسخير الله للبحر أنْ جعله مصدراً لكثير من المأكولات والأرزاق ﴿ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ .. ﴿١٢﴾ ﴾ [الجاثية]

ففضلُ الله فى البحر كثيرٌ ، فيه القوت اللازم لاستبقاء الحياة ، وفيه الترف والزينة مثل اللؤلؤ والمرجان وغيرهما من الأشياء الثمينة حتى قالوا : إن الثروات فى أعماق البحار أكثر من الثروات فوق سطح الأرض .

ثم على سطح الماء تسير بكم السفن إلى مواطن الأرزاق فى أى مكان .

وفى آيات أخرى فصَّل الحق سبحانه قوله : ﴿ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ .. ﴿١٢﴾ ﴾ [الجاثية] فقال : ﴿ وَهُوَ الَّذِى سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا .. ﴿١٤﴾ ﴾ [النحل] وهو أنواع الأسماك والحيوانات البحرية التى تُؤكل : ﴿ وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا .. ﴿١٤﴾ ﴾ [النحل]

والمراد اللؤلؤ والمرجان والأحجار الكريمة التى تُستخرج من أعماق البحار ؛ لذلك قال العلماء : إن حلية البحر غير مُحرَّمة مع أنها أغلى من الذهب ، لكن لم يأتِ النصُّ بتحريمها على الرجال كما فعل فى الذهب[1] ، لماذا ؟

لأن الذهب نَقْد يتعامل الناسُ به على شكل عملات وجنيهات نقدية ، فغرضه أساساً التعامل بين الناس فى البيع والشراء ، وهو واسطة

(١) أخرجه أبو داود فى سننه (٣٥٣٥) والنسائى فى سننه (٥٠٥٣) وابن ماجه فى سننه (٣٥٨٥) وأحمد فى مسنده (٧١١ ، ٨٩١) عن على بن أبى طالب رضى الله عنه .

بين الإنتاج والاستهلاك ، وليست حلية البحر كذلك .

وقوله : ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) ﴾ [الجاثية] أمر بالشكر على النعمة ، فكلما رأيتَ مظهراً من مظاهر نعمة الله قُل الحمد لله واعترف لله بالفضل ، لذلك علَّمنا سيدنا رسول الله ﷺ دعاء الركوب للسُّفن أو غيرها ، ومن هذا الدعاء : « سبحان الذى سخر لَنا هذا ، وما كنا له مقرنين ، وإنَّا إلى ربنا لمنقلبون »(١) .

﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١٣) ﴾

الحق سبحانه وتعالى ينقلنا من تسخير البحر إلى تسخير السموات والأرض ، فهى مسخَّرة للإنسان منذ خلقها الله ، لكن لم يعلم الإنسان وجوه هذا التسخير مرة واحدة ، إنما يعلمها بمرور الزمن وتطوُّر العلوم .

كما قال سبحانه : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ .. (٥٣) ﴾ [فصلت]

فأنت مثلاً حين تقرأ قوله تعالى فى الفُلْك ﴿ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ (٢٤) ﴾ [الرحمن] لا بد أنْ تُعملَ العقل وتسأل كما سألنا : متى عرف الناس السفن ذات الأدوار ؟ فكلمة المنشآت تدل

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٣٤٢) كتاب الحج من حديث ابن عمر أن رسول الله ﷺ كان إذا استوى على بعيره خارجاً إلى سفر كبَّر ثلاثاً ، ثم قال « سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنَّا إلى ربنا لمنقلبون » وكذا أخرجه أحمد فى مسنده (٢ / ١٤٤ ، ١٥٠) .

على البناء ، وكالأعلام يعنى : عالية ومرتفعة كالجبال ، قالوا : عرف الإنسانُ السفنَ ذات الأدوار فى أواخر القرن الثامن عشر ، وكانت قبل ذلك عبارةً عن سطح لا شئَ عليه .

فمَنْ أخبر سيدنا رسول الله بأن السفن سيكون منها منشآت كالأعلام ، كذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (٣٣) ﴾ [الزخرف]

والمعارج جمع معراج ، وهو بلغة اليوم (الأسنسير) والحضارة الحديثة لم تعرف (الأسنسير) إلا فى أواخر القرن العشرين ، إذن : هذه مظاهر لإعجاز القرآن وصِدْقه وصِدْق المبلِّغ للقرآن ، فصدق اللهُ وصدق رسوله .

وهذا يدلُّ على أن هذه المستحدثات موجودة فى علمه تعالى ولها (ماكيت) قبل أنْ يصل إليها فكر البشر ، والله يظهرها لعباده حسْب حاجتهم ومع مرور الزمن وتطور العلوم ، وهذا معنى ﴿ سَنُرِيهِمْ .. (٥٣) ﴾ [فصلت]

قوله تعالى : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ .. (١٣) ﴾ [الجاثية] قلنا : كلٌّ من السموات والأرض ظَرْف لأشياء كثيرة ، منها ما نعلمه ، ومنها ما لم نتوصل إليه حتى الآن ، فالسماء ننظر إليها من جهة العلو ، ولا نرى من مخلوقات الله فيها إلا الشمس والقمر والنجوم والسحاب ، وهذا كله فى السماء الدنيا .

لذلك قال سبحانه : ﴿ وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ .. (١٢) ﴾ [فصلت] أما السموات السبع فشىء آخر لا نعرف عنه شيئاً ، ويكفى أنْ تعرف

أن بينك وبين الشمس ثمانىَ دقائق ضوئية ، وهناك مخلوقات بينك وبينها مائة سنة ضوئية اضربها فى ٣٦٥ يوماً فى ٢٤ ساعة فى ٦٠ دقيقة فى سرعة الضوء .

إذن : فوقك عالم آخر فوق ما يتصوَّره عقلك ، لذلك قال تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ (٤٧) ﴾ [الذاريات] بأيد : أى بقوة .

فيكفى أنْ تتأمل فى مجال تسخير الكون لك أنْ تنظر إلى الشمس ، وكيف سخَّرها الخالق لك فتعطيك النور والدفء والطاقة والأشعة المختلفة دون أنْ تبذل فى سبيل ذلك شيئاً ، ودون صيانة ، ودون وقود ، ودون أنْ تصلَ إليها أصلاً .

فهى تعمل فى خدمتك منذ خلقها الله وإلى أنْ تقوم الساعة لا تحتاج منك إلى شىء ، فقط عليك أنْ تستفيد منها ، وأنْ تفكر فى طبيعتها وكيفية استغلالها فيما ينفعك . ومثلها القمر يعطيك النور الحالم الهادىء ، وبه نهتدى فى ظلمة الليل : ﴿ وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (١٦) ﴾ [النحل]

والشمس والقمر خلقهما الله على هيئة الحركة ، فهما متحركان منذ خلقهما الله وإلى قيام الساعة ، يتحركان دون وقود وبلا طاقة بقانون العطالة كما قلنا ، وهو أنْ يظلَّ المتحركُ متحركاً ما لم تُسكنه ، ويظل الساكن ساكناً ما لم تحركه . وهذه الحركة قلنا بحساب دقيق محكم ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) ﴾ [الرحمن]

والأرض كذلك ظرف لأشياء كثيرة وأجناس متعددة ، ففيها الجماد وهو أدنى الأجناس ، فإذا أضيفَ إليه النمو كان النبات ، فإذا أضيف إليه الإحساسُ كان الحيوان ، فإذا أضيف إليه العقل كان

الإنسان وهو أعلى هذه الأجناس وأكرمها على الله .

لذلك سخَّر الله له كلّ هذه الأجناس وجعلها فى خدمته ، وجعله سيداً عليها وخليفة له فى أرضه .

والحق سبحانه عندما تكلم عن الجماد قال : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (٢٧)﴾ [فاطر] فقدَّم الثمار وهى من النبات قدَّمها على الجماد ، لأننا لا نأكل الجماد وإنما نأكل النبات والثمار هى محصلته وما يهمنى منه ، وهى من مُقوِّمات الحياة .

ثم تكلم عن الجبال وهى مصدر الخيرات والثروات والمعادن والأحجار الكريمة ؛ لذلك قال عنها فى آية أخرى : ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا .. (١٠)﴾ [فصلت] أى : فى الجبال .

وسبق أنْ بيَّنا أن الجبال هى مصادر القوت ومخازنه فى الأرض ، ذلك لأنها مصدر التربة الغنية الخصْبة التى تنساب مع ماء المطر ، وتنتشر فى أنحاء الأرض فتزيد من خصوبتها : ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ (٢١)﴾ [الحجر]

فأجناس الخلق كلها فيها آيات ، فالجماد انظر مثلاً إلى الجبال وما فيها من خيرات وألوان شتَّى فيها الرخام والجرانيت والمرمر وغيرها ، والنبات ويمثل المصدر الأساسى للقوت ، انظر مثلاً إلى النخلة العربية وقارنها بالنخلة الأفرنجى ، فالنخلة عندنا مصدرٌ للقوت وننتفع بكل شىء فيها بحيث لا يُرمى منها شىء أبداً .

لذلك تجد لها درجاً يمكنك من الصعود عليها لتقليم جريدها أو جمع ثمارها ، أما النخلة الأفرنجى فهى للزينة ، لذلك تجدها ملساء يصعب الصعود عليها ، هذا من حكمة الخلق ودقته ، فتبارك الله أحسن الخالقين .

تأمل جريدة النخيل تجدها عريضة من أصلها ونحيفة رفيعة من طرفها ، والورق فيها على عكس ذلك فهو مسطَّح منبسط من أعلى ، ثم يأخذ (ينبرم) إلى أنْ يصيرَ شوكاً عند أصل الجريدة ، القريب من الثمر ، وذلك لأن هذه الأشواك تحمى الثمار من الفئران ، ثم تأمل أن هذه الأشواك تنتهى عند أصل الجريدة ، ولا تمتد إلى الشماريخ التى تحمل الثمار .

ثم تأمل الساق فهى فى النخلة طويلة مستقيمة على خلاف الأشجار الأخرى تجدها قصيرة ومتفرعة ، لأن الثمار عليها صغيرة يسهل حملُها على الفروع ، أما ثمرة البطيخ مثلاً فهى على ساق رفيع لولبىٍّ يتمدد على الأرض ، لأن الثمرة ثقيلة .

إذن : المسألة قدرة ليست (ميكانيكا) ، وفى الأكل تأكل مثلاً قشرة المشمش وتترك اللبّ بعكس اللوز فتأكل اللب وتترك القشرة ، هذه طلاقة قدرة وحكمة عالية للخالق عز وجل ، ثمرة التين تأكلها كلها فليس لها قشرة ، أما البرتقال أو اليوسفى فله قشرة ، ثم تأمل اختلاف الألوان والطعوم فى النباتات وهى تُسْقى بماء واحد . وقُلْ : سبحان الخالق .

تأمل الأشجار تجد منها أشجاراً خضراء ليس لها ثمار وتظن أنها لا فائدة منها ، لكن لا بدَّ أن يكون لها فائدة إما لك وإما لغيرك من

المخلوقات ، ويكفى أنها زينة وجمال ومصدر للأكسوجين وربما كانت لهـا فوائد أنت لا تعـرفهـا ، تجد مـثلاً من هذه الأشـجار لهـا أزهار مختلفة الأشكال والألوان والروائح .

وهذا عالم آخـر من الإبداع الجمالـى فى الطبيعـة ، ولهذه الألوان والروائح المختلفة حكمة لأنها تجـذب الفراشات والحشرات التى تقوم بعمليـة التلقيح للمزروعـات ، ولكل فراشة أو حشـرة مزاج فى اللون وفى الرائحة .

لذلك لما انـتشرت المـبيدت الـحشرية قلَّتْ هذه الظـاهرة ولم نعُد نرى الأزهار فى الحـقول لماذا ؟ لأن المـبيـدات قتلتْ الفـراشات التى تقوم بمهمة التلقيح .

وحين تـتأمل عمليـة التلقيـح ذاتها تجد فـيهـا آية من آيات الخَلْق وبديع صُنْع الله تعـالى ، فمن المـزروعات ما نـعرف كيـفيـة تلقيـحه كالنخـيل مثلاً ، ونعرف أن منـه الذكر ومنه الأنثى ، وهذا واضـح فى شكل الشجرة لكن شجرة المانجو مثـلاً لا نعرف كيف تتم فيها عملية التلقيح ؟

وحـين تـرى كل هذا الجـمال فى الخَلْق ، علـيك أنْ تذكر الخـالق وتقـول : تبارك الله أحـسـن الخالقـين . وأجمل من الحُسْنِ مَنْ خلق الحُسْن .

وكلمة ﴿ **جَمِيعًا مِّنْهُ** .. ﴿١٣﴾ ﴾ [الجاثية] كلمة جمـيع من كلمات التوكيـد ، فهى تعنى كل ما فى السمـوات وما فى الأرض من الله بلا استثناء ، فكل صغيرة وكل كبـيرة من الذرَّة إلى المجرَّة من فضل الله ، ما تعرفه وما لم يُحط به علمك .

وكلمة (مِنْهُ) قرأها بعضهم[1] (منة) والمعنى لم يبعد عن المراد فهى من الله ، وهى منة من الله .

وأنتم تعرفون أن القرآن أول ما جُمع جُمعَ بدون نقط وبدون تشكيل اعتماداً على الملَكة العربية فى فهم المعانى واستنباطها ، ويُروى أن حماداً الراوية كان لا يحفظ القرآن ، فلما جاءوا له بالمصحف قرأ : ﴿ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ .. (١٥٦) ﴾ [الأعراف] وبالسين يظل المعنى صحيحاً ، لكن لفظ القرآن (أشاء) .

وقرأ : صنعة الله ومن أحسن من الله صنعة . فنطق الغين عيناً وهى نفس المعنى .

إذن : عطاء القرآن عطاء ممتد ، ويستطيع المتذوّق للعربية أنْ يصلَ إلى معانيه وحكمه . لكن لما فسدتْ الملَكات اضطروا للنَّقْط والتشكيل ليتضح المعنى ، مع أنهم كانوا زمان يعتبرون تشكيلَ الكتاب سُوءَ ظنٍّ بالمكتوب له ، لأن فى ذلك اتهاماً له بعدم الفهم .

ثم يقول سبحانه : ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ .. (١٣) ﴾ [الجاثية] أى : فى هذه المخلوقات المسخّرة لكم ﴿ لآيَاتٍ .. (١٣) ﴾ [الجاثية] عجائب ودلائل ﴿ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١٣) ﴾ [الجاثية]

إذن : هذه دعوة للإيمان ، فالحق سبحانه يعرض علينا صنعته وإبداعه فى الكون ، ويدعونا أنْ نتأمل فيه ، وأنْ نُعملَ فيه عقولنا ، والصانع لا يفعل هذا بصنعته إلا إذا كان واثقاً من جودتها .

---

(١) المقصود ببعضهم هنا : عبد الله بن عمرو وابن عباس وأبو مجلز وابن السميقع وابن محيصن والجحدرى . وقرأها سعيد بن جبير (مَنُّهُ) . ولكن القراءة الأشهر : (جميعاً منه) أى : ذلك التسخير منه لا من غيره فهو من فضله . [زاد المسير لابن الجوزى] .

قلنا : لو أنك ذهبتَ إلى بائع القماش تشترى منه مثلاً بدلة صوف فتراه يعرض عليك أثوابَ القماش ، ويُبيِّن لك جودتها ، ثم يأخذ منها (فتلة) ويشعل فيها النار أمامك ليظهر لك حقيقة هذه الجودة ، وهو لا يفعل ذلك إلا لثقته فى بضاعته .

أما الآخر صاحب البضاعة الفاسدة المغشوشة (فيُدوِّك) عليك ويُوهمك بالكلام والتدليس والزور ، ولا يجرؤ أنْ يبينَ لك حقيقة ما عنده .

إذن : حينما يخاطبك ربك : اعقل ، تدبَّرْ ، تذكَّرْ ، فهذا يعنى أنك لو أعملتَ الفكر فى هذه الآية لأوصلتْكَ إلى الحق وإلى مراده منك ، لذلك يحذر الحق عباده من الإعراض عن الآيات ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥) ﴾ [يوسف]

ثم يقول الحق سبحانه(١) :

﴿ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ (١٤) ﴾

---

(١) سبب نزول الآية : قال ابن عباس فى رواية عطاء : يريد عمر بن الخطاب خاصة ، وأراد بالذين لا يرجون أيام الله عبد الله بن أبى . وذلك أنهم نزلوا فى غزاة بنى المصطلق على بئر يقال له المريسيع فأرسل عبد الله غلامه ليستقى الماء فأبطأ عليه ، فلما أتاه قال : ما حبسك ؟ قال : غلام عمر قعد على قف البئر ، فما ترك أحداً يستقى حتى ملأ قرب النبى وقرب أبى بكر وملأ لمولاه ، فقال عبد الله : ما مثلنا ومثل هؤلاء إلا كما قيل : سمِّن كلبك يأكلك . فبلغ قوله عمر رضى الله عنه ، فاشتمل بسيفه يريد التوجه إليه . فأنزل الله تعالى هذه الآية . أسباب النزول للواحدى (ص ٢١٥) .

كلمة (قُلْ) دلَّتْ على دقَّة رسول الله فى البلاغ عن الله ، وأنه ﷺ لا يأتى بشىء من عند نفسه ولا يبلغ كلام الله بالمعنى إنما بالحرف ، وإلا فقد كان بإمكانه فى قوله تعالى : ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ➀﴾ [الإخلاص] أنْ يقول للناس : الله أحد .

وأنت مثلاً حين ترسل ولدك إلى عمه وتقول له : قُلْ لعمِّك : أبى يريدك ، فالولد يذهب ويقول لعمه : أبى يريدك ، فالمعنى وصل بهذا الفظ وتم التعبير عنه بدون قُلْ .

أما رسول الله فينطق بما نطق الله به ، ولا يتدخل فى نصٍّ ما أُلقى إليه ، كأنه يقول لنا : هذا الكلام ليس من عندى إنما هو كلام الله يبلغه كما سمعه .

والعجيب أنْ نسمع مَنْ ينادى بحذف هذه الكلمة من المصحف ويدَّعى أنها لا تضيف شيئاً للمعنى ، ونقول له : يكفى أن الله نطق بها ونطق بها رسوله ﷺ ، ثم إن لها مهمةً كما بيَّنا .

﴿قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا .. ⑭﴾ [الجاثية] أى : يصفحوا ويتجاوزوا ولا يؤاخذوهم على التفاهات ما دام أنها لا تتجاوز القول إلى الفعل .

﴿لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ .. ⑭﴾ [الجاثية] أى : الذين لا يخافون أيام الله ولا يعتبرون بها ولا يعملون لها حساباً ، والرجاء نوع من الطلب ، وفيه معنى تمنٍّ والطمع فى حصول ما ترجوه ، فالرجاء طلب الشىء المتوقَّع الحدوث .

والممكن على خلاف التمنِّى ، وهو طلب المحال البعيد المنال ،

كما قال الشاعر[١] :

أَلاَ لَيْتَ الشَّبَابَ يَعُودُ يَوْماً   فَأُخبرُه بمَا فَعَلَ المشيبُ[٢]

أما الرجاء فهو مظنة أنْ يتحقق ، تقول : أرجو أنْ أُوفق أو أسافر .

ومعنى ﴿ أَيَّامَ اللَّهِ .. ⦗١٤⦘ ﴾ [الجاثية] كما نقول مثلاً أيام العرب يعنى : وقائعهم والأحداث الكبار التى مـرَّتْ بهم ، فأيام الله يعنى وقائعه بأعدائه ، فأيام الله على المؤمنين نَصْره لهم وعلى الكافرين هزيمتهم ، فهم لا يقفون عند هذه الأحداث ولا يتأملونهـا ولا يأخذون منها عبرةً ويمرُّون علـيها مَرَّ الكرام أو مرورَ الغافل عن حكم الأشياء ، وهؤلاء هم المنافقون .

ولهذه الآيـة قصة ، فـفى غزوة بنى المـصطلق[٣] كان هنـاك بئر يشربون منه اسمـه المريسيع ، وعلى هذا البئر اجتـمع غلامٌ لعمر بن الخطاب وغلام لعبد الله بن أُبىٍّ رأس المنافقين ، فغلام عمر منع الآخر ، وقال : لا حتى أسقى لرسول الله أولاً ، فـقال الآخر : أفرغتَ ؟ قال : لا ، لا يزال دَلْو أبى بكر ، ثم دَلْو عمر ، قال : هذا لعلمه أنه منافق .

فأبطأ العبـد على عبد الله بن أُبىٍّ فقال : مـا أبطأك ؟ قال : مولىً لعمـر بن الخطاب فعل كذا وكـذا ، فهزّ رأسـه هزَّة المنافق وقال : إنّا وإياهم كما قال القائل : سَمِّنْ كلبك يأكلك ، قال هذه الكلمة ليشفى بها

---

(١) الشاعـر هو أبو العتاهيـة ، إسماعيـل بن القاسم ولد قرب الكوفـة (١٣٠ هجرية) وسكن بغداد ، كـان يجيـد القول فى الزهد والمـديح ، كان يبيـع الجرار ثم اتصل بالخلفـاء وعلت مكانته عندهم ، توفى ببغداد عام (٢١١ هجرية) [الموسوعة الشعرية] .

(٢) البيت من قصيدة من بحر الوافر ، عدد أبياتها ٤ أبيات ، ونصُّه فى الموسوعة الشعرية :

فيا ليت الشباب يعود يوماً   فأخبره بما صنع المشيب

(٣) أورد هذه القـصة الواحـدى النيسـابورى فى أسـباب النزول [سـورة الجاثيـة آية ١٤] ، وأشار إليها فى نواسخ القرآن (١/٢٢٥) وقال : رواه عطاء عن ابن عباس .

ما فى صدره ، ووصلتْ هذه الكلمة إلى عمر فأخذ سيفه وأراد أنْ يقتله فأنزل الله هذه الآية : ﴿قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ .. (١٤)﴾ [الجاثية]

نعم يغفرون لهم ويتجاوزون عن هذه الهفوات لأنها فى حَيِّز القول ولم تصل إلى مستوى الأفعال ، فإذا وصلتْ إلى الفعل كان لها شأنٌ آخر كما حدث فى مسألة المرأة المسلمة فى بنى قَيْنُقَاع لما رفع واحد منهم ذيْلَ ثوبها إلى أعلى ، فلما قامت انكشفتْ عورتها فكان لا بدَّ من قول يؤدبهم (١) .

أما الكلام فلا بأسَ من التسامح فيه مع هؤلاء المنافقين ، وحسبك فى المنافق أنه يذل نفسه بالنفاق لأنه يفعل ما لا يعتقده ولا يؤمن به . ثم إن النفاق فى حَدِّ ذاته دليلٌ على قوة الإيمان ، حيث أصبح الإيمان قوةً تُنافَق ، وهذه من عزة الإيمان وذلة النفاق .

ولذلك حكى القرآن قولهم : ﴿لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ .. (٨)﴾ [المنافقون] فصدَّق الله على قولهم أنْ يُخرج الأعز الأذل ، لكن مَن الأعز ومَن الأذل ؟ فقال سبحانه : ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ .. (٨)﴾ [المنافقون]

---

(١) أخرجه الواقدى فى المغازى (١/٦٥) فصل (غزوة قينقاع) قال : « جاءت امرأة نزيعة من العرب تحت رجل من الأنصار إلى سوق بنى قينقاع فجلست عند صائغ فى حلى لها ، فجاء رجل من يهود قينقاع فجلس من ورائها ولا تشعر فأدخل درعها إلى ظهرها بشوكة ، فلما قامت المرأة بدت عورتها فضحكوا منها ، فقام إليه رجل من المسلمين فاتبعه فقتله فاجتمعت بنو قينقاع وتحايشوا فقتلوا الرجل ونبذوا عهد رسول الله » .

يكفى أن هؤلاء المنافقين كانوا يقفون فى الصلاة فى الصف الأول ليَستروا بذلك نفاقهم ، ففى داخلهم تناقض وتردد ، وهذه ذلة أمام أنفسهم أولاً .

ورُوى أن فنحاص[1] اليهودى لما نزل قوله تعالى : ﴿مَن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا .. (٢٤٥)﴾ [البقرة] ضحك وقال : افتقر رب محمد ويطلب منا السلف ، وهى كلمة شفى بها ما فى صدره من غلٍّ ، ومع ذلك كانوا فى كل معركة وفى كل صلاة فى الصف الأول .

فالحق سبحانه وتعالى حين أمر المؤمنين أنْ يغفروا لهؤلاء المنافقين إنما ليُذلَّ المنافق أمام نفسه ، لذلك أثار المستشرقون ضجة حول قوله تعالى : ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ .. (١)﴾ [المنافقون] فكيف يقول بعدها ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (١)﴾ [المنافقون]

ذلك لأن هناك فرقاً بين القول ومقول القول ، فهم صادقون فى مقول القول ، وهو ﴿إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ .. (١)﴾ [المنافقون] لكنهم كاذبون فى القول لأنهم منافقون .

فالحق سبحانه لم يُكذِّبهم فى إنك رسول الله . إنما كذَّبهم فى قولهم ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ .. (١)﴾ [المنافقون] لأن الشهادة تعنى موافقة القلب للسان ، والمنافق قلبه فى وَادٍ ولسانه فى وادٍ آخر .

---

(١) كان فنحاص من علماء يهود وأحبارهم ، وقد قال له أبو بكر رضى الله عنه : ويحك يا فنحاص اتق الله وأسلم ، فو الله إنك لتعلم أن محمداً رسول الله قد جاءكم بالحق من عند الله تجدونه مكتوباً عندكم فى التوراة والإنجيل . قال فنحاص : والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من فقر وإنه إلينا لفقير ، وما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا وإنَّا عنه لأغنياء ، ولو كان عنَّا غنياً ما استقرض منا كما يزعم صاحبكم ، يشير إلى قوله تعالى : ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا .. (٢٤٥)﴾ [البقرة] [راجع تفسير الطبرى] .

إذن : معنى ﴿أَيَّامَ اللَّهِ .. ⦗١٤⦘﴾ [الجاثية] الأحداث المشهورة مثل يوم بدر وأُحُد والحديبية ، وهذه الأيام فيها نصْر للمسلمين يُفرحهم ويُثلج صدورهم ، وفيها هزيمة للكافرين تحزنهم وتكدر حياتهم ، ومثلها الوقائع التى حدثت فى الأمم المكذِّبة للرسل .

وهؤلاء المنافقون لا يخافون هذه الوقائع بمعنى لا يعتبرون بها ، لذلك لم تصرفهم عن اللدد والجدال والعناد ، وهذه المسألة شرحها الحق سبحانه فى قوله : ﴿فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا .. ⦗٤٠⦘﴾ [العنكبوت]

وقوله سبحانه : ﴿لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ⦗١٤⦘﴾ [الجاثية] فكأن الحق سبحانه يقول لنبيه : اتركهم لى . إذن : الأمر بالمغفرة لهؤلاء ليس إكراماً لهم ولا رحمةً بهم إنما ليُوقع بهم عذاباً أكبر وأشدّ ، وليتولى الحق سبحانه تأديبهم بقوته سبحانه.

إذن : خلوا ساحتهم لانتقام الله منهم ، لأنهم فى واقع الأمر لا يقفون ضدكم ، إنما يقفون ضد الحق سبحانه .

ثم إن المغفرة لها أصولٌ ولها حدودٌ ؛ فأنت تغفر لمن أساء وتغفر وتغفر ، ولا تجد فى المقابل إلا اللدد والجحود ، وعندها لا بدَّ أنْ تتحول من الحلم إلى الجهل فهو أنفع وأنسب فى هذا الموقف .

وقد فطن الشاعر(١) العربى إلى هذا المعنى ، فقال :

(١) الشاعر هو : أحمد بن الحسين أبو الطيب المتنبى ، ولد ٣٠٣ هجرية ، شاعر حكيم وأحد مفاخر الأدب العربى ، له أمثال سائرة ، ولد فى محلة تسمى كندة وإليها نسبته ونشأ بالشام ثم تنقَّل فى البادية يطلب الأدب وعلم العربية وأيام الناس . تنبأ فى بادية السماوة ، توفى ٣٥٤ هجرية .

مِنَ الحِلْم أنْ تستعملَ الجَهْل دُونَهُ   إذَا اتسَعتْ فى الحِلْم طُرْقُ المظالم[(١)]

وقال الآخر[(٢)] .

صَفَحْنا عَنْ بَنى ذُهْلٍ   وقُلْنَا القَوْمُ إخْوانُ

عَسَى الأيامُ أنْ يرجعْنَ   قوْماً كالذى كَانُوا

فلمّا صرّح الشرّ   وَأمسَى وهْوَ عرْيانُ

مشيْنا مِشْيةَ الليْث   غَدَا وَالليْثُ غضبانُ

بضربٍ فيه تَوْهِينٌ   وإضعافٌ وإقرانُ[(٣)]

وطعْنٍ كفم الزِّقِّ[(٤)]   غَدَا والزِّقُّ مَلآنُ

وبعْضُ الحِلْم عِنْدَ   الجَهْل لِلذلَّة إذْعَانُ

وفى الشرِّ نجاةٌ حينَ   لا يُنجِيكَ إحسَانُ[(٥)]

وقوله تعالى ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الجاثية] سبق أنْ أوضحنا أن كسب تُقال فى الخير واكتسب للشر ، لأن فيها افتعالاً ،

---

(١) البيت من قصيدة للمتنبى من بحر الطويل ، عدد أبياتها ٣٦ بيتاً ، والبيت هو التاسع فى القصيدة .

(٢) هو الفند الزمانى واسمه شهل بن شيبان شاعر جاهلى ، من أهل اليمامة سُمى الفند لعظم خلْقته تشبيهاً بفند الجبل وهو القطعة منه ، توفى نحو ٧٠ قبل الهجرة . [الأعلام للزركلى] .

(٣) الإقران : قوة الرجل على الرجل . وقد ورد هذا البيت فى بعض المصادر :

بضرب فيه توهين   وتخضيع وإقران

والتخضيع هو تقطيع اللحم .

(٤) الزق ، السقاء : وهو كل وعاء اتخذ لشراب ونحوه ، وتزقيقه سلخه من قبل رأسه . [لسان العرب – مادة : زقق] والسلخ : الكشط .

(٥) أورد أبو على القالى هذه الأبيات فى أماليه (١/ ٣٠٩ ، ٣١٠) .

فالخير يأتى من فاعله طبيعياً لا تكلّف فيه والكسب فى اللغة هو الزيادة فى ثمن البيع عن ثمن الشراء ، وهذا أمر محمود .

لكن قد يتعود المرء المعصية ويألفها ، ولا يأنف من ارتكابها ، وربما تباهى بها فتصير فى حقه كسباً فيفعل المعصية كما تفعل أنت الطاعة ، يعنى لا يندم على فعلها ولا تُؤنبه نفسه عليها ، فكأن هؤلاء يعتبرون المعصية كسباً يفرحون به ، لذلك قال : ﴿ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤) ﴾ [الجاثية] ولم يقُل : يكتسبون .

إذن : أمر الحق سبحانه المؤمنين أنْ يغفروا الزَّلَّة الخفيفة دفعاً بالتى هى أحسن لعل المقابل يرتدع ، قال تعالى : ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِىٌّ حَمِيمٌ (٣٤) ﴾ [فصلت]

فالشارع الحكيم يحرص كل الحرص على الإبقاء على الروابط بين الناس ، حتى فى أعنف معارك العداوة وهى القتل تراه يبيح القصاص ﴿ وَلَكُمْ فِى الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَـٰأُولِى الأَلْبَابِ .. (١٧٩) ﴾ [البقرة]

وفى ذات الوقت يدعو إلى العفو : ﴿ فَمَنْ عُفِىَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ .. (١٧٨) ﴾ [البقرة] تأمل كلمة (أخيه) هنا ، فرغم العداوة هم إخوة : ﴿ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ .. (١٧٨) ﴾ [البقرة]

وكثيراً ما نسمع مَنْ يقول : دفعتُ بالتى هى أحسن ولم أجد النتيجة التى أخبر الله بها ، نقول له : أنت فى الواقع لم تدفع بالتى هى أحسن لأنك لو فعلتَ لوجدتَ الجواب كما أخبر الله ، لكنك تخيلت أنك دفعتَ بالتى هى أحسن وجعلتها تجربة مع الله ، والتجربة مع الله شكّ.

ثم يرتقى الحق سبحانه بالنفس الإنسانية إلى مرتبة أعلى من الغفر ، لأنك قد تغفر لمن أساء إليك ، لكن يبقى فى نفسك منه شىء

فيدعوك إلى أنْ تتخلص من آثار الإساءة ثم ينقلك إلى مرتبة أعلى ، وهي أنْ تحسن لمن أساء إليك : ﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) ﴾ [آل عمران]

وقد سُئل الحسن البصرى[١] فقال : لأن الذى يسيىء إليك يجعل ربك فى جانبك ، والذى يجعل ربى فى جانبى يستحق أنْ يُكافأ ، ثم هو بعد ذلك نقل إلىَّ حسناته .

لذلك الرجل الصوفى لمَّا بلغه أن رجلاً سبّه فى مجلس أرسل إليه هدية طبقاً من الرطب وقال لخادمه : اذهب به إلى فلان وقُل له : سيدى يُهديك هذا لأنك أهديتَ إليه حسناتك بالأمس .

ونحن نرى فى واقع حياتنا العملية حينما يضرب أحدُ الأولاد أخاه تجد الوالد يعطف على المضروب و(يطبطب) عليه وينهر الضارب ويُؤنِّبه ، فكأن الضرب جاء فى مصلحة المضروب .

إذن : الحق سبحانه يريد أنْ يُحنِّن الخلق بعضهم على بعض ، ومعنى ذلك أن الحياة تُبنى على المودة والمحبة لا على البغضاء والشحناء ، تُبنى على التساند لا على التعاند .

لذلك العلماء لما عالجوا هذه المسألة جعلوا المصيبة التى تصيب المرء على قسمين : مصيبة تصيبك ولك فيها خصمٌ ، ومصيبة ليس لك فيها خصم ، الأولى يتسبّب فيها شخص فتأخذه خصماً لك ، وهذه تكون أشد على النفس لأنها تدعوك إلى الانتقام .

والأخرى هى التى تكون من الله لا دخلَ لإنسان فيها ، وهذه

---

(١) هو الحسن بن يسار البصرى أبو سعيد ، تابعى كان إمام أهل البصرة وحبْر الأمة فى زمنه ، وهو أحد العلماء الفقهاء النُّساك ، ولد بالمدينة المنورة عام ٢١ هجرية وشبَّ فى كنف على بن أبى طالب. توفى ١١٠ هجرية عن ٩٠ عاماً .

أهون وأخفّ على النفس حيث لا خصم فيها ، فالخصم من شأنه أنْ يحرِّك فى نفسك نوازع الانتقام كلما رأيته .

لذلك جاء فى وصية لقمان لولده : ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴿١٧﴾﴾ [لقمان] والمراد هنا المصيبة تصيبك من الله ، لذلك لم يأت أمر بالمغفرة والتسامح ، وحينما يتكلم عن المصيبة تصيبك من البشر يقول ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ.. ﴿٤٣﴾﴾ [الشورى] أى : غفر للخصم .

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾ [الشورى] فزاد هنا التأكيد باللام فى ﴿لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾ [الشورى] لأن الصبر فى هذه الحالة أشقّ ، ويحتاج إلى مجهود ومجاهدة أكثر من الأولى .

وقوله تعالى فى آخر الآية : ﴿لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الجاثية] دلَّ على عدالة الجزاء ، وأنه من جنس العمل ، وقد أوضح الحق سبحانه هذه المسألة فى الآية بعدها :

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾﴾

فتأمل ﴿فَلِنَفْسِهِ ..﴿١٥﴾﴾ [الجاثية] فى العمل الصالح وعليها فى الإساءة ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الجاثية] فكأن الجزاء السابق له وعليه قبل الرجوع إلى الله فى الآخرة .

نعم هذا فى الدنيا ليعتدلَ ميزانُ حركة الحياة ، لأن الجزاء كله لو أُخِّر إلى الآخرة لاستسهل الناسُ الذنبَ ، وهان عليهم الوقوع فيه

فاستشرى الباطل وزاد الشر .

لذلك لا بدّ من حدوث شيء من العقاب الدنيوى لتستقيم الأمور ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ ..﴿٤٧﴾﴾ [الطور]

وقال عن عذاب أهل النار : ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الأَدْنَىٰ ..﴿٢١﴾﴾ [السجدة] يعنى : القريب فى الدنيا ﴿دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾﴾ [السجدة] أى : فى الآخرة .

وهذا المبدأ واضح فى سورة الكهف فى قول ذى القرنين : ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا[1] نُّكْرًا ﴿٨٧﴾﴾ [الكهف]

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾

هذه تسلية لسيدنا رسول الله ﷺ فى وقت عانى فيه أشد المعاناة من المعاصرين له من صناديد الكفر عناداً وجحوداً واستكباراً وإيذاءً بالقول وبالفعل وبالمكر والتآمر ، فلم يتركوا شيئاً يؤذى رسول الله إلا فعلوه .

لذلك يُسلِّيه ربه يقول له : لستَ بدْعاً فى ذلك ، فقد واجه إخوانك الأنبياء السابقون مثل هذا العنت والتكذيب ، فخُذْ من تاريخ الدعوة قبلك سلْوى ، لأنك جئتهم بالحق وهم يريدون الباطل ، فلا بدَّ أنْ يصادموك .

---

(١) كان عذاب ذى القرنين لمن ظلم بشركه أن يقتله . قاله قتادة . وعن السدى : كان عذابه أن يجعلهم فى قِدْر من صفر (نحاس) ثم توقد تحتهم النار حتى يتقطعوا فيها . فكان عذاباً منكراً . (انظر الدر المنثور للسيوطى) فى تفسير سورة الكهف - آية ٨٧ .

يقول تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ .. (١٦) ﴾ [الجاثية] أى : التوراة كما أنزلنا عليك القرآن ﴿ وَالْحُكْمَ .. (١٦) ﴾ [الجاثية] أى : مقاييس العدل التى بها تستقيم أمور الخلق .

والحكم فى بنى إسرائيل مثل السُّنة عندنا مثلاً ؛ لذلك خاطب الحق سبحانه نساء النبى بقوله : ﴿ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ .. (٣٤) ﴾ [الأحزاب] أى : القرآن ﴿ وَالْحِكْمَةِ ﴾ أى : أحاديث رسول الله .

﴿ وَالنُّبُوَّةَ .. (١٦) ﴾ [الجاثية] حيث جعل الحق سبحانه النبوة فى بنى إسرائيل أكثر من أىِّ أمة أخرى ، حتى إنهم ليفتخرون على باقى الأمم بهذه المسألة ، والواقع أنها ليستْ مجالاً للفخر بل دلتْ على عيب فيهم ومأخذ يُؤخذ عليهم ، لأن كثرة الأنبياء تدل على فساد الخلق ، فالأمة لا تحتاج إلى رسول جديد إلا إذا استشرى فيها الفساد .

إذن : كثرة الأنبياء دلتْ على كثرة الفساد فيهم . إذن : كثرة الأنبياء فيهم ليست شهادة لهم ، بل عليهم ، لذلك وجدناهم يكثرون من قتْل الأنبياء بما لم يحدث فى أى أمة أخرى ، لذلك وجدناهم يتآمرون لقتل محمد هو الآخر لكن هيهات .

الحق سبحانه وتعالى بيَّن لهم أن هذه المسألة خاصة بكم أنتم ومقتصرة على أنبيائكم فقط فحبسها عليهم ، فقال تعالى : ﴿ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ .. (٩١) ﴾ [البقرة] يعنى : هذا الكلام كان زمان ، أما الآن فلا ولن تتمكنوا منه أبداً .

وقوله تعالى : ﴿ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ .. (١٦) ﴾ [الجاثية] ومن هذه الطيبات المنّ والسَّلْوى التى أنزلها الله عليهم فى فترة التيه ، حيث لا استقرار ولا أرض تُزرع ، فأنزل الله عليهم المنّ وهو سائلٌ

يشبه العسل ينزل على أوراق الشجر حبيبات شفافة تتساقط فى الصباح ، طعمه حلو كأنه خليط من العسل والقشدة .

أما السلوى فهو طائر مهاجر مثل السمان ويتوافر فيه البروتين ، إذن : من المن والسلوى أعطاهم الغذاء الكامل ، ومع ذلك غلبت عليهم ماديتهم ، وأرادوا أنْ يأكلوا مما تحت أيديهم مما تُخرج الأرض ، يقولون : إن هذا الطعام الجاهز قد لا يأتى ، فقد لا ينزل المنّ ولا يأتيهم السلوى .

لذلك قالوا لموسى : ﴿ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا [١] وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا .. (٦١) ﴾ [البقرة]

بل وصلتْ بهم ماديّتهم إلى أنْ طلبوا من موسى عليه السلام رؤية الحق سبحانه فقالوا : ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً .. (٥٥) ﴾ [البقرة]

وقوله سبحانه : ﴿ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٦) ﴾ [الجاثية] قالوا : عالَمِى زمانهم ، ليست على إطلاقها ، لأن بنى إسرائيل عاشوا فى زمن ساد فيه الكفر والوثنية ، وكانوا هم أهلَ كتاب يؤمنون بالله ، فكانوا هم أفضلَ ممَّنْ عاصرهم .

﴿ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

---

(١) الفوم : الثوم . وفى قراءة عبد الله : وثومها . ويرجح أنه الثوم ذِكْر البصل بعده ، وهما من مُشهِّيات الطعام . [القاموس القويم ٢/ ٩٢] .

قد يسأل سائل : ما مناسبة هذا الحديث عن اليهود هنا ؟

قالوا : يريد الحق سبحانه أنْ يقول : اذكر يا محمد أن أمتك قريش وغيرها عندهم شيء من طباع اليهود ، وفعلوا كثيراً من أفعالهم ، فأنزلَ الله بهم مثل ما أنزل بسابقيهم .

قال تعالى : ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ .. (٦٧)﴾ [العنكبوت]

فكان أيّ واحد يخرج فقط عن مكة يخطفونه ويغتالونه ويأخذون ماله ومتاعه ، لكن أهل مكة لم يجرؤوا على هذا لمكانتهم من البيت ، وحرصاً على سلامة قوافلهم التجارية التى تسافر بين اليمن والشام وتمر بمعظم القبائل .

ثم إن خدمة قريش للبيت وزواره أمَّنت تجارتهم وحمتْ قوافلهم ، ولم لا وهم يستقبلون عندهم فى مكة ضيوفَ الرحمن ويقومون على خدمتهم .

لذلك نجد أن هذه المسألة هى الرابط بين سورة الفيل وسورة قريش ، اقرأ : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ (٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ[1] (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ[2] مَّأْكُولٍ (٥)﴾ [الفيل]

فلو قلت : لماذا ردّ الله أصحابَ الفيل وجعلهم كعصف مأكول نجد الجواب فى أول سورة قريش : ﴿لإِيلافِ قُرَيْشٍ (١) إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ

---

(١) السجيل : الطين المتحجر . [القاموس القويم ١/٣٠٤] .
(٢) العصف المأكول : التين أو ورق الشجر الذى أصابه مرض الأُكال فتآكلت منه أجزاء . [القاموس القويم ٢/٢٣] .

الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴿٢﴾﴾ [قريش] فلو هُدم البيت لهدمتْ معه مكانة قريش ، ولضاعت مهابتها من قلوب أهل الجزيرة العربية ، فلم يتمكّنوا من رحلة الشتاء والصيف .

فكأن الحق سبحانه يقول لنبيه ﷺ : أنا عملتُ مع هؤلاء كذا وكذا ، ودافعتُ عنهم ، وجعلتُ لهم مكانة ومنزلة ، ومع ذلك يقفون من دعوتك موقفَ العداء ، لأنك ستسلبهم السيادة المتجبرة والسيادة الطاغية التى اعتادوا عليها .

فقوله تعالى : ﴿وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الأَمْرِ .. ﴿١٧﴾﴾ [الجاثية] أى : دلائل وعلامات فى صفة النبى ﷺ ، فما ذهب اليهود إلى مدينة رسول الله إلا لعلمهم بقدومه ، وعلمهم بصفاته وبزمن بعثته ، وكانوا يفتخرون بقدومه ويستفتحون به على الكفار والوثنيين .

يقولون : لقد أظلَّ زمانُ نبيٍّ من العرب ، سنتبعه ونقتلكم به قتلَ عاد وإرم[(١)] ، فلما بُعث رسول الله صادموه وكفروا بدعوته ، كما قال تعالى : ﴿وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ .. ﴿٨٩﴾﴾
[البقرة]

وقال تعالى عن معرفتهم لرسول الله : ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ .. ﴿٢٠﴾﴾
[الأنعام]

---

(١) ذكر ابن كثير فى تفسيره (١/١٢٤) نقلاً عن ابن إسحاق عن أشياخ من الأنصار قالوا : كنا قد علوناهم قهراً دهراً فى الجاهلية ونحن أهل شرك وهم أهل كتاب وهم يقولون : إن نبياً سيُبعث الآن نتبعه قد أظل زمانه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم ، فلما بعث الله رسوله من قريش واتبعناه كفروا به . وأخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (١/٤٥٩) (٢/٣٠٢) .

لذلك رأينا عبد الله بن سلام[1] وهو أحد أحبار اليهود ، يقول : والله لقد عرفتُه حين رأيته كمعرفتى لابنى ومعرفتى لمحمد أشدّ[2] ، ومع هذه المعرفة أنكروا رسالته وكفروا به ، وأغفلوا ما عندهم من علاماته ودلائل نبوته .

﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا .. ﴿١٤﴾ ﴾ [النمل]

لذلك لما هدى اللهُ عبد الله بن سلام للإسلام ذهب إلى سيدنا رسول الله وقال له : يا رسول الله لقد شرح الله صدرى للإسلام لكنى أخشى إنْ أسلمت أنْ يذمنى اليهود ويتهمونى عندما يعلمون ذلك ؛ فاسألهم عنى يا رسول الله قبل أنْ يعلموا بإسلامى .

وفعلاً سألهم رسول الله : ماذا تقولون فى ابن سلام ؟ فقالوا : هو سيدنا وابن سيدنا وحَبْرنا وابن حَبْرنا ، وعندها نطق عبد الله بن سلام بالشهادتين وقال : أشهد أنْ لا إله إلا الله وأنك رسول الله . فقالوا : بل هو كذا وكذا وأخذوا يسبُّونه ويشتمونه ، فقال عبد الله : ألم أخبرك يا رسول الله أنهم قوم بُهْت ؟[3] .

ومن العجيب أن كفار مكة حين سألوا اليهود : أنحن أهدى أم

---

(١) هو عبد الله بن سلام بن الحارث الإسرائيلى أبو يوسف صحابى . قيل : إنه من نسل يوسف بن يعقوب ، أسلم عند قدوم النبى وكان اسمه الحصين فسماه رسول الله (عبدالله) ، لما كانت الفتنة بين على ومعاوية اتخذ سيفاً من خشب واعتزلها ، وأقام بالمدينة إلى أن مات عام ٤٣ هجرية . [الأعلام للزركلى ٤/ ٩٠] .

(٢) ذكره ابن كثير فى تفسيره (١/ ١٩٤) وعزاه السيوطى فى الدر المنثور (١/ ٣٥٧) للثعلبى من طريق السدى الصغير عن الكلبى عن ابن عباس .

(٣) أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٠٨٢ ، ٣٦٤٥ ، ٤١٢٠) وكذا أحمد فى مسنده (١١٦١٥ ، ١٣٣٦٥) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه .

محمد ؟ قالوا : بل أنتم أهدى من محمد[١] ، كل هذا لأن لهم سلطة زمنية يريدون الاحتفاظ بها ، وقبل أنْ يدخل رسول الله ﷺ المدينة كانوا يُعدون ابن أبيّ ليكون ملكاً عليهم ، وقد جهزوا له تاج الملْك[٢] ، لكن سبقه رسول الله ، وما إنْ وصل إلى قباء واستقبله أهل المدينة لم يجدوا مجالاً لذلك ، وظل ابن أبيّ يكظمها فى قلبه إلى أنْ مات .

وقوله : ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا .. (١٧)﴾ [الجاثية] أى : فى رسول الله ﴿إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ .. (١٧)﴾ [الجاثية] برسول الله ﴿بَغْيًا بَيْنَهُمْ .. (١٧)﴾ [الجاثية] لأن بعضهم صدَّق برسول الله وأسلم ، وبعضهم كذَّبه وأنكره .

وكان منهم مَنْ أثنى عليه رسول الله ، فقال : نِعْمَ اليهود (مخيريق)[٣] وهو رجل شرح الله صدره للإسلام ، وصادف ذلك

---

(١) أخرجه الطبرى فى تفسيره (٩٧٩١) عن مجاهد قال : نزلت فى كعب بن الأشرف وكفار قريش قال : كفار قريش أهدى من محمد . وقال ابن جريج : قدم كعب بن الأشرف فجاءته قريش فسألته عن محمد فصغَّر أمره ويسَّره وأخبرهم أنه ضال . ثم قالوا له : ننشدك الله نحن أهدى أم هو ؟ فإنك قد علمت أننا ننحر الكوم ونسقى الحجيج ونعمر البيت ونطعم ما هبَّت الريح ؟ قال : أنتم أهدى . ومثله فى تفسير ابن أبى حاتم (٥٤٩٧) .

(٢) ذكره ابن هشام فى السيرة النبوية (٢/٥٨٤) « أن قومه كانوا قد نظموا له الخرز ليتوجوه ثم يملكوه عليهم فجاءهم الله تعالى برسوله وهم على ذلك ، فلما انصرف قومه عنه إلى الإسلام ضغن ورأى أن رسول الله قد استلبه ملكاً ، فلما رأى قومه قد أبوا الإسلام دخل فيه كارهاً مُصراً على نفاق وضغن » .

(٣) مُخيريق النضرى الإسرائيلى من بنى النضير ، أسلم واستشهد فى أُحد وكان عالماً ، وقد أوصى بأمواله للنبى ﷺ فجعلها النبى ﷺ صدقة . انظر : الإصابة فى تمييز الصحابة (٦/٧٣) وسيرة النبى (٣/٨٨) ولفظ الحديث : مُخيريق سابق يهود . وفى رواية : مُخيريق خير يهود ، دلائل النبوة لأبى نعيم (حديث ٣٩) والمتقى الهندى فى كنز العمال (٤٦١٥٤) .

خروج الرسول لغزوة من الغزوات فخرج مع رسول الله ، ووهب له كلَّ ما يملك دون أنْ يعلن عن ذلك ، وفى هذه الغزوة قُتل (مخيريق) دون أنْ يصلى لله ركعة(١) .

وقوله سبحانه : ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٧)﴾ [الجاثية] أى : فى قضية الإيمان برسول الله ﷺ

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ(٢) مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (١٨)﴾

أى : جعلناك يا محمد على الطريق المستقيم ، والشريعة هى الطريق الموصل إلى الماء الذى هو أصل الحياة ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ .. (٣٠)﴾ [الأنبياء] فسمَّى الدين شريعة .

فكما أن الماءَ حياةُ الأبدان ، فالدين حياةُ الأرواح والقلوب ، وهو الذى يمنحهم الحياة الأخرى الباقية ، حيث لا يفوتهم النعيم ولا يفوتونه ، وهذه هى الحياة الحقيقية التى قال الله عنها : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ .. (٢٤)﴾ [الأنفال] فلا شك أنه يخاطبهم وهم أحياء فى حياتهم الدنيا ، إذن : معنى يحييكم ، أى : الحياة الآخرة الباقية .

---

(١) أورده ابن كثير فى السيرة النبوية (٣/٧٢) .

(٢) الشريعة فى اللغة : المذهب والملة . والشريعة : ما شرع الله لعباده من الدين ، وقال ابن عباس : (على شريعة) أى : على هدى من الأمر . وقال قتادة : الشريعة الأمر والنهى والحدود والفرائض . وقال مقاتل : البينة لأنها طريق إلى الحق . [تفسير القرطبى ٩/٦٢١٤] .

وكأن الحق سبحانه يقول لنبيه ﷺ : دعْكَ مما يفعل هؤلاء من التكذيب والعناد ، فهذا أمر معروف منهم ، وله سوابق فى مواكب الرسل قبلك ، فتحمَّل أنت ما يعترض طريقك من الإيذاء .

لذلك فى أول بعثته ﷺ لما ذهبتْ به السيدة خديجة إلى ابن عمها ورقة بن نوفل(١) وقصَّتْ عليه ما حدث لسيدنا رسول الله ، فقال : إن هذا هو الناموس الذى كان ينزل على موسى . وقال لرسول الله : إنك نبيٌّ هذه الأمة ، وإنْ يدركنى يومك أنصرْك نصراً مؤزراً ، وليتنى أكون حياً يوم يخرجونك .

فقال ﷺ : أو مُخرجىّ هم ؟ قال : نعم ، ما جاء أحدٌ بمثل ما جئتَ به إلا أخرجه قومه(٢) .

إذن : فالهجرة كانت موجودة منذ الخطوات الأولى للبعثة ، لأنها تمامٌ لإشراق الإسلام فى مكة .

وقوله : ﴿ فَاتَّبِعْهَا .. ﴿١٨﴾ ﴾ [الجاثية] أى : اتبع هذا الطريق المستقيم وهذه الشريعة ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الجاثية] أهواء الكافرين لأنهم اقترحوا على رسول الله وقالوا : تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة ، فنهاه الله عن اتباعهم ، وفى هذه

---

(١) هو : ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى قريشى ، حكيم جاهلى ، اعتزل الأوثان قبل الإسلام وامتنع من أكل ذبائحها وتنصَّر ، أدرك أوائل عصر النبوة ولم يدرك الدعوة ، ابن عم خديجة ، توفى نحو ١٢ قبل الهجرة ، وكان شيخاً كبيراً قد عمى . [الأعلام للزركلى ٨/١١٤ ، ١١٥] .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٣١) ، وأحمد فى مسنده (٢٤٦٨١) من حديث عائشة رضى الله عنها ، وأبو عوانة فى مستخرجه (حديث ٢٤٥) ولفظ مسلم : لم يأت رجل قط بما جئت به إلا عودى ، وإن أدركنى يومك أنصرك نصراً مؤزراً .

المسألة نزلتْ سورة الكافرون[(١)] .

﴿ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ ﴾

أى : كفار مكة لأنهم ذهبوا إلى عمه أبى طالب وقالوا : لو كان ابن أخيك يريد المال جمعنا له من أموالنا حتى يصير أغنانا ، وإنْ كان يريد الملْك ملّكناه علينا ، فقال سيدنا رسول الله قولته المشهورة : « والله يا عم ، لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أنْ أترك هذا الأمر ما تركتُه حتى يُظهره الله أو أهلك دونه »[(٢)] .

﴿ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ .. ﴿١٩﴾ ﴾ [الجاثية] أى : يعين بعضهم بعضاً ويساند بعضهم بعضاً ، فقد جمعهم الظلم ووحّد أهدافهم ﴿ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ [الجاثية] أى : فى المقابل الله ، هو ولىُّ المتقين يُعينهم ويُؤيّدهم وينصرهم ، فهذه من المقابلات التى تزيد المعنى وضوحاً .

---

(١) أورده السيوطى فى تفسيره (الدر المنثور فى التفسير بالمأثور) سورة (الكافرون) وعزاه لابن جرير الطبرى وابن أبى حاتم والطبرانى عن ابن عباس أنهم قالوا لرسول الله : إنَّا نعرض عليك خصلة واحدة ولك فيها صلاح . قال : ما هى ؟ قالوا : تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة .

(٢) أوردته كتب السيرة ، فقد أورده صاحب (عيون الأثر) (١/ ١٣٢) وكذا ابن كثير فى السيرة النبوية (١/ ٤٧٤) والسهيلى فى (الروض الأنف) (٢/ ٦) كلهم من طريق محمد بن إسحاق .

﴿ هَٰذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾

كلمة ﴿ بَصَائِرُ .. ﴿٢٠﴾ ﴾ [الجاثية] جمع بصيرة ، وهى ما يُوجد فى وجدان الإنسان من نور الحق ، فالبصر يرى الماديات ، والبصيرة ترى المعنويات والقيم وتميزها .

إذن : محلها القلب ، فهى نور يقذفه الله تعالى فى قلب عبده ، نقول : فلان عنده بصيرة . يعنى : نظر ثاقب للأمور ، ويمكنه أنْ يتنبأ بالشىء فيأتى وفْقَ تنبؤه .

والهدى أو الهداية أنْ تصلَ إلى الحق من أقرب طريق وأيسره عليك ، فليس فى الهدى مشقَّة ؛ لذلك وصف اللهُ المؤمنين بقوله : ﴿ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ .. ﴿٥﴾ ﴾ [البقرة] فهم على الهدى كأنه دابةٌ تحملهم إلى غايتهم ، وإلى مراد الحق منهم .

﴿ وَرَحْمَةٌ .. ﴿٢٠﴾ ﴾ [الجاثية] هذه كلها أوصاف للقرآن الكريم ، فهو بصائر للناس وهو هدى وهو رحمة ، وفى آية أخرى قال سبحانه : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ .. ﴿٨٢﴾ ﴾ [الإسراء]

وقلنا : هناك فَرْق بين الشفاء والرحمة ، فالشفاء يعنى وجودَ داء يعالجه القرآن أو اعوجاج يُقوّمه القرآن ويُصحِّح مساره ، فالقرآنً يجبر ما فينا من نقص ، ومن تقصير ، ومن غفلة ، ومن انحراف ويُعدل مسارنا إلى الطريق الصحيح وإلى الحركة البناءة .

مثل التلميذ حين ينصـرف عن دروسه ، فإنه يرسب ويفشل فإن عاد إلى الصـواب وذاكر ينجح كذلك ، فنحن إنْ غفلنا عن كـتاب ربنا وعن منهـجه أصـابتنا الأمراض فـإنْ عُدْنا إليـه شفـانا . أما الرحـمة فتعنى ألاَّ يأتى الداءُ أصلاً .

وقوله سبـحانه : ﴿ هَـٰذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الجاثـيـة] أى : أن هذا الأثر للـقـرآن لا يكون إلا للمـوقنين المـؤمنين بـه وبصـدقـه ، وأنه هو المنهج الحـق الذى يحـوى النور والهداية والشفاء والرحمة .

﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ (١) أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

الفعل ﴿ حَسِبَ .. ﴿٢١﴾ ﴾ [الجاثـيـة] بكسـر السـين يعنى : ظنَّ ، وهناك حسب بالفتح من الحـسـاب والعَدِّ . ومعنى ﴿ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ .. ﴿٢١﴾ ﴾ [الجاثية] يعنى : فعلوها واكـتسبوها لذلك نُسـمِّى الجوارح من الطيـور (الكاسبـات) لأنها تُسـتخـدم للصيـد ، فهى كـواسب . والسيئة هى كل ما يسوء صاحبه ، يسوءه عقاباً أو ذماً .

وفى الآية استفهامٌ يفيد الإنكار والتعجب من هذا الظن ، فكيف نُسوِّى بين الكافرين والمـؤمنين ، أو بين الطائعين والعـاصين ، فالذين انصـرفوا عن دعوتك يا محمد ، وظنوا أنْ نُسوِّيهم بالذين آمنوا ظنهم خاطىء .

---

(١) اجترحوا السيئات : عملوها . [القاموس القويم ١ / ١٢٠] وأصله استخدام جوارح الإنسان من يد ورِجْل وغيره .

فشتَّان بين هذا وذاك ، ولن نعاملهم كما نعاملكم ، بل نعاملهم فى الدنيا بالهزيمة ، ونعاملكم بالنصْرة والتمكين ، ونعاملهم فى الآخرة بالعذاب ، ونعاملكم بالنعيم والثواب .

﴿ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ .. (٢١) ﴾ [الجاثية] يعنى : لا نُسوِّى بينكم وبينهم ، لا فى الحياة الدنيا ولا فى الآخرة ﴿ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٢١) ﴾ [الجاثية] فمَنْ يحكم بالمساواة هنا ساء حكمه وبطل ، لأنه حُكْم جائر مُنَافٍ للحق وللعدل .

فكأن ظنهم هذا هو الذى أرداهم وأغراهم بعدم الإيمان بك ، وإلا لو أيقنوا أن الغاية مختلفة ، وأن الجزاء مختلف لآمنوا وعملوا الصالحات .

﴿ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٢) ﴾

بعد أنْ تكلَّم الحق سبحانه أن الظن الجائر والخاطىء من الكافرين ، وهو أنْ نُسوِّيهم بالذين آمنوا .

وبعد أنْ بيَّن سبحانه وجه الظلم فى هذا الظن يُحدِّثنا هنا عن عدله سبحانه ، وعن ميزان الحق الذى به قامتْ السموات والأرض بداية ، وقبل أنْ يخلقَ الإنسان ، وقبل أنْ يوجد المؤمن والكافر .

فبالحق خلق الله السماوات والأرض ، وأنشأهما بحساب دقيق وعدل مطلق ، فعدالة السماء لا تقتصر على جزاء الآخرة كُلٌّ بعمله ، إنما هى عدالة أزلية بها قامتْ عملية الخلق .

﴿ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ

وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (٢٢)﴾ [الجاثية] والحق هو الشيء الثابت الذى لا يتغير، ونحن نرى آيات الله فى الكون سمائه وأرضه نجدها آيات ثابتة تسير بنظام محكم دقيق لا يتخلف أبداً ولا يتبدل، لأنها بُنيت بداية على الحق.

وكأن الله تعالى يعطينا إشارة ويلفت أنظارنا إلى أن حركة حياتنا فى هذه الدنيا لن تستقيم ولن تسير فى سلام إلا إذا قامتْ على الحق وبُنيت بميزان الحق، الذى به قامتْ السموات والأرض.

اقرأ مثلاً : ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥)﴾ [الرحمن] أى : خُلقَتْ بحساب دقيق ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (٦) وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧)﴾ [الرحمن]

وتأمل ختام الآية : ﴿وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (٢٢)﴾ [الجاثية] فما دام الأمر قائماً على الحق، فلا بدَّ أنْ تتحقق العدالة فى الجزاء، وأنْ ينتفى الظلم.

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ
وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً
فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٢٣)﴾

---

(١) سبب نزول الآية : حكى ابن جريج أنها نزلت فى الحارث بن قيس وحكى النقاش أنها نزلت فى الحارث بن نوفل بن عبد مناف . وقال مقاتل : نزلت فى أبى جهل ، وذلك أنه طاف بالبيت ذات ليلة ومعه الوليد بن المغيرة ، فتحدثا فى شأن النبى ﷺ ، فقال أبو جهل : والله إنى لأعلم أنه لصادق . فقال له : مه . وما دلَّك على ذلك ؟ قال : يا أبا عبد شمس كنا نسميه فى صباه الصادق الأمين ، فلما تم عقله وكمل رشده نسميه الكذاب الخائن . والله إنى لأعلم أنه لصادق . قال : فما يمنعك أن تصدقه وتؤمن به ؟ قال : تتحدث عنى بنات قريش أنى قد اتبعت يتيم أبى طالب من أجله كسرة ، واللات والعزى إن اتبعته أبداً . فنزلت ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ .. (٢٣)﴾ [الجاثية]

الإله هو المعبود الذى تكرِّس كلّ حياتك لخدمة مراده منك ، وكلمة المعبود كلمة عامة تُطلق على المعبود بحق ، وهو الله تعالى الخالق الرازق المبدع لهذا الكون وتُطلق على المعبودات بالباطل كالذين عبدوا الأصنام أو الشمس أو القمر .

هذه وغيرها معبودات باطلة لا تضر ولا تنفع ، وما عبدها الجهلاء إلا لإرضاء عاطفة التدين عندهم ، فهم يريدون ديناً بلا تكاليف ، وإلهاً بلا أوامر ولا نَواهٍ .

ومن هذه الآلهة الباطلة الهوى ، فمن الناس مَنْ يتخذ إلهه هواه ، والهوى فى حدِّ ذاته مذموم ، لذلك قالوا : آفة الرأى الهوى .

ولما مدح الحق سبحانه رسول الله قال : ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣﴾ [النجم] حتى وإنْ عدَّل له ربه تعالى بعض الأحكام لأنها ساعة الحكم الأول لم تصدر منه عن هوى فى نفسه ، لذلك قال عن نفسه ﷺ : « أدَّبنى ربى فأحسن تأديبى »[1] .

ثم يُبيِّن الحق سبحانه أن الذى اتخذ إلهه هواه إنسانٌ ضال ﴿وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ .. ۝٢٣﴾ [الجاثية] أى :حكم بضلاله لأنه جعله مختاراً ، فاختار هواه ، ولو جعله مقهوراً كالسماء والأرض ما استطاع المخالفة ، وقلنا : إن الله يريد منا القلب لا القالب ، يريدنا أنْ نذهب إليه طواعية .

(١) قال عبد الرحمن بن على الشافعى الشيبانى فى كتابه « تمييز الطيب من الخبيث فيما يدور على ألسنة الناس من الحديث » (ص ١٧) عن هذا الحديث : أخرجه العسكرى فى الأمثال عن على رضى الله عنه مرفوعاً فى حديث طويل . قال شيخنا : سنده ضعيف ، ولكن معناه صحيح .